

تأملات شيخ الإسلام ابن تيمية

في

القرآن الكريم

"سورة النحل"

رقية محمود الغرايبة

الفهرس

2	الفهرس
3	الفهرس(2)
15	مقدمة سورة النحل
17	النحل1-21
60	النحل22-40
138	النحل 41-64
197	النحل65-70
203	النحل71-89
243	النحل90-111
321	النحل112-119
358	النحل120-128

الفهرس (2)

2	الفهرس
15	مقدمة سورة النحل
15	سورة النعم
16	النعم نوعان

النحل 1-21

17	في لغة العرب يسمى المفعول باسم المصدر
19	المضاف الى الله نوعان
20	الفرق بين أمر الله الدينى وخلق الكونى
20	الأمر بتسبيحه يقتضى إثبات صفات الكمال له
20	تعالى عن الشركاء يقتضى إختصاصه بالإلهية
21	أضاف الله كثيرا من الحوادث إليه وأضافه إلى بعض مخلوقاته
21	الله تعالى يؤيد رسله بالملائكة وبالهدى
22	أصل الإيمان توحيد الله والإيمان برسله
23	جواز بعثة رسول لا يعرف ما جاءت به الرسل قبله
23	الملائكة رسل الله في تنفيذ أمره الكونى
24	{ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ }
25	تنال النفس كمالها بسعادتها ونجاتها بالفطرة المكملة بالشرعة المنزلة
25	{ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ }
28	أن الله لم يخلق شيئا ما إلا لحكمة
29	{ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ }
29	إذا ذكر حكمة للفعل لم يلزم أن لا تكون له حكمة أخرى
30	كانت سنة رسول الله أنه يطعم ما يجده في أرضه ويلبس ما يجده ويركب ما يجده
31	السيبل العادلة
32	الصراط المستقيم هو الذى ينالون به ولاية الله
37	ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن
37	أضاف الله كثيرا من الحوادث إليه وأضافه إلى بعض مخلوقاته
38	الله سبحانه خلق الأسباب والمسببات
40	الله سبحانه خلق المخلوقات وسخرها لبنى آدم
41	الله هو الذى يستحق الشكر المطلق العام التام

- 42 _____ لفظ العقل في القرآن يتضمن ما يجلب به المنفعة وما يدفع به المضرة
- 42 _____ مدح الله وأثنى على من كان له عقل
- 43 _____ فيه حكم أخرى
- 44 _____ نفي الحكم بالاستحباب لانتفاء دليل معين من غير تأمل باقي الأدلة خطأ عظيم
- 45 _____ الله تعالى بسط الارض للأنام وأرساها بالجبال لئلا تميد
- 46 _____ {وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ}
- 48 _____ الله متعال عن السمي والند والمثل فلا يكون شيء مثله
- 48 _____ كل محدث من الأعيان والصفات والأفعال فان الله خالق كل ذلك جميعه
- 49 _____ الفعل والكلام صفة كمال
- 51 _____ الله احق الموجودات بصفات الكمال وهو المستحق للعبادة
- 52 _____ لم يكن إشراكهم أنهم جعلوهم خالقين بل أن جعلوهم وسائط في العبادة
- 53 _____ المشركون جعلوا لله مالا يرضونه لأنفسهم
- 54 _____ من قدر شيئا فاعلا للزمه الذي لا يفارقه بحال كان مخالفا لصريح المعقول
- 55 _____ مطالعة آلاء الله ونعمائه يثير ذلك عنده باعثا لمحبة الله
- 55 _____ كل ما لا حياة فيه يسمى مواتا وميتا
- 56 _____ الدعاء قصد المدعو والتوجه إليه
- 57 _____ لطائف لغوية

النحل 22-40 60

- 60 _____ التوحيد يكون من الله لنفسه
- 61 _____ {فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنْكَرَةٌ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ}
- 62 _____ "من دعا الى الضلالة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها الى يوم القيامة "
- 64 _____ التقليد الباطل المذموم فهو قبول قول الغير بلا حجة
- 65 _____ الرد على الذين أنكروا عذاب القبر والبرزخ
- 67 _____ الإلتفات إلى الأسباب شرك في التوحيد ومحو الأسباب أن تكون أسبابا تغيير في وجه العقل والأعراض عن الأسباب بالكلية قدح في الشرع
- 69 _____ إثبات الملائكة وأفعالها وكلامها وتأثيرها في العالم
- 70 _____ من الإيمان بالله الإيمان بما وصف به نفسه
- 70 _____ الأمر الذي كتبه الله على نفسه أو حرمه على نفسه لا يكون إلا مقدورا له سبحانه
- 71 _____ ظلم النفس جنس عام يتناول كل ذنب
- 72 _____ السيئات هي عقوبات الأعمال
- 73 _____ المشركون يترددون بين البدعة وبين الاحتجاج بالقدر على مخالفة امر الله

- 76 _____ ليس لأحد ان يخرج عن طاعة الرسول لا من الخواص ولا من العوام
- 77 _____ إنما اعتل بالقدر إبليس
- 79 _____ جميع بنى آدم العقلاء لا بد لهم من أمور يأمرون بها وأمور ينهون عنها
- 80 _____ عامة ما ذم الله به المشركين فى القرآن من الدين المنهي عنه انما هو الشرك والتحريم
- 81 _____ الاحتجاج بالقدر حجة باطلة داحضة باتفاق كل ذي عقل ودين
- 83 _____ القدرية المشركية
- 84 _____ لا يحتج أحد بالقدر إلا لإتباع هواه بغير علم
- 87 _____ من لم يقف عند أمر الله ونهيه فليس من المتقين
- 88 _____ من تاب اشبه اباه آدم ومن اصر واحتج بالقدر اشبه إبليس
- 91 _____ الأمر الشرعى غير مستلزم للإرادة الكونية القدرية
- 93 _____ الإحتجاج بالقدر باطل فى فطر الخلق وعقولهم
- 95 _____ اتخاذ ما ليس بمشروع دينا أو تحريم ما لم يحرم دين الجاهلية والنصارى
- 96 _____ أهل السنة فى باب أسماء الله وصفاته وسط بين أهل التعطيل وبين أهل التمثيل
- 96 _____ يجب على الخلق الاقرار بما جاء به النبى
- 97 _____ كلما ازداد العبد تحقيقا للعبودية ازداد كماله
- 98 _____ تعليق النجاة والفلاح واقتضاء السعادة فى الآخرة بالتوحيد
- 99 _____ الانبياء جميعهم وأمهم كانوا مسلمين مؤمنين موحدين
- 99 _____ ان اصل دينهم الذى انزل الله به الكتب وأرسل به الرسل ليس فيه شرك
- 100 _____ الله تعالى قد بعث فى كل قوم نبيا
- 102 _____ خلق الله الخلق لتكون كلمة الله هى العليا
- 102 _____ أصل الإيمان توحيد الله والإيمان برسله
- 103 _____ { وَمَا أَمْرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ } {
- 104 _____ الدين واحد وان تفرقت الشريعة والمنهاج
- 105 _____ التوحيد هو أعظم العدل والشرك وهو أعظم الظلم
- 106 _____ دين الله العام الذى لا يقبل من احد سواه وبه بعث جميع الرسل
- 108 _____ من خرج عن النبوات وقع فى الشرك وغيره
- 108 _____ أبقى الله سبحانه آثار المكذبين لنعير بها ونتعظ
- 109 _____ الدعوة إلى الله تكون بدعوة العبد إلى دينه وأصل عبادته وحده لا شريك له
- 110 _____ ذاق طعم الايمان من رضى بالله ربا وبالاسلام ديناً وبمحمد نبياً
- 112 _____ العبادة هى اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والاعمال
- 112 _____ الهدى هو العلم الذى بعث الله به رسوله والعمل به
- 113 _____ كان النبي صلى الله عليه وسلم يحقق التوحيد ويعلمه أمته

- 115 الاعتراف بالرب والاقرار به من غير عبادة يكون وباللا على صاحبه
- 115 المسلم مأمور أن يفعل ما أمر الله به ويدفع ما نهى الله عنه وان كانت أسبابه قد قدرت
- 116 توحيد الله قلب الدين والإيمان
- 117 الطاغوت كل من تحوكم اليه بغير كتاب الله
- 118 أن الله ألزم الخلق التوحيد وأمرهم به وقضى به وحكم
- 119 من تقدم من أمة موسى وعيسى هل هم مسلمون أم لا ؟
- 119 محبة الله ورسوله من أعظم واجبات الايمان وأكبر أوصله وأجل قواعده
- 120 تجريد التوحيد لله رب العالمين
- 121 لفظ العبادة يتضمن كمال الحب والذل والإجلال والإكرام والتوكل
- 122 الفرق بين البعث الكوني والبعث الديني
- 124 الهدى هدى الله
- 125 أن الله خالق أفعال العباد وأنه هو الذي يقلب قلوب العباد
- 126 التعليم والتذكير والإنذار والهدى له فاعل وله قابل
- 126 خلق الله الأشياء بأسباب
- 127 الرسول أعلم الخلق بالحق وبيانه للحق أكمل من بيان كل أحد
- 128 في مبعث الخلق يوم القيامة مقاصد غير بيان المختلف
- 128 الفرق بين خطاب التكوين و بين خطاب التكليف
- 130 كلام الرب غير مخلوق لأن الله لم يخلق شيئا إلا بكن
- 130 المؤقت بظرف معين لا يكون قديما أزليا
- 131 ثبوت الإرادة عند وجود المراد
- 132 المسيح خلق بكلمة من كلمات الله
- 132 علم صفة الربوبية و علم صفة الإلهية
- 133 الله تعالى ليس له شريك في الخلق والتكوين
- 134 لطائف لغوية

النحل 41-64 138

- 138 ثواب الآخرة أعظم وانما يذكر الثواب والعذاب في الدنيا تبعا
- 139 الجهاد سنام العمل وجميع الأحوال الشريفة
- 140 المهاجر من هجر ما نهى الله عنه
- 141 لا بد من التقوى بفعل المأمور والصبر على المقدور
- 142 اثبات جنس الرسالة
- 143 الاستشهاد بأهل الكتاب

- 144 { وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ }
144 ليس في النساء نبيّة
145 القرآن جاء بالبينات والهدى بالآيات البينات وهي الدلائل اليقينية
146 الأمر بسؤال العلم
146 السلطان الذي أيد الله به رسوله من أنواع الحجج المعجزات أعظم مما أيد به غيره
147 القرآن مما اختص به من الذكر
147 النبي صلى الله عليه وسلم بين لأصحابه معاني القرآن كما بين لهم ألفاظه
148 كل ما حكم به رسول الله صلى الله عليه وسلم فهو مما فهمه من القرآن
149 يجب على الخلق الاقرار بما جاء به النبي
149 الله علم الانسان البيان
151 الرد على من قال ان هناك معاني باطنة لا يعلمها عامة الناس
151 الله ليس مماثلا لخلقه
152 السجود اسم جنس وهو كمال الخضوع لله
153 سجود القرآن
153 عبادة المخلوقات وتسبيحها هو من جهة إلهيته سبحانه وتعالى
155 جعل الله في الجمادات قوى تفعل وقد أضاف الفعل إليها
156 الله سبحانه وتعالى هو العلى الأعلى وهو فوق كل شيء
159 توحيد الله لنفسه
160 توحيد الإلهية هو الذي بعث الله به رسله وأنزل به كتبه
161 لله تبارك وتعالى حق لا يشركه فيه أحد لا الأنبياء ولا غيرهم
162 حرم الله تعالى الشرك كله
163 لا يزول فقر العبد وفاقته إلا بالتوحيد
164 الدين الحق هو طاعة الله وعبادته
166 { وَمَا بِكُمْ مِّنْ نُّعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ }
167 لا يأتى بالحسنات إلا الله ولا يذهب السيئات إلا الله
167 الله تعالى هو الذي يخلق بتأثير الاسباب وبدفع الموانع
168 الله هو الذى يرزق جميع عباده مسلمهم وكافرهم
169 القسم الممدوح هم أهل الصبر والشكر
170 الله هو الذي يستحق الشكر المطلق العام التام
171 مطالعة آلاء الله ونعمائه تعلق القلوب به
172 قطب رحي الدين
173 الرد على ابن عربي ونحوه من الملاحدة حيث قالوا ما في أحد من الله شيء

- 174 التوحيد هو أصل الدين
- 175 العلم الإلهي لا يجوز أن يستدل فيه بقياس تمثيل ولا بقياس شمولي
- 177 المشركون كانت أنفسهم عندهم أعظم من الله سبحانه
- 179 التسبيح يقتضي التنزيه والتعظيم
- 179 الله سبحانه هو المتصف بصفات الكمال وهو المستحق للعبادة
- 180 الأقيسة العقلية
- 183 طرق إثبات صفات الكمال
- 184 القرآن يستعمل في إثبات الالهية قياس الاولى
- 186 كل من سوى بين الله وبين المخلوق في شيء من الأشياء فهو مشرك
- 187 الرسول صلى الله عليه وسلم شفيع الخلاق
- 187 المغفرة العامة
- 188 { فَأِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ }
- 188 يجيء الوصف في القرآن مستعملاً في الكذب
- 189 مبدأ الاعتقاد الباطل والإرادة الفاسدة من لمة الشيطان
- 189 أهل الكتاب تفرقوا واختلفوا قبل إرسال محمد إليهم
- 190 بين الله الفرقان بين الحق والباطل بكتابه ونبيه
- 191 بين الرسول العمليات أحسن بيان
- 191 البدعة احب الى ابليس من المعصية
- 192 الرحمة تحصل بالقرآن
- 192 لفظ الاختلاف في القرآن يراد به التضاد والتعارض
- 193 كل ما حكم به رسول الله صلى الله عليه وسلم فهو مما فهمه من القرآن
- 193 لطائف لغوية

النحل 65-70 197

- 197 جماهير المسلمين يقرون بالأسباب
- 198 سمع الحق يوجب قبوله
- 199 العلم الحقيقي الراسخ في القلب يمتنع أن يصدر معه ما يخالفه
- 199 القدرة والرحمة في إخراج طيب من بين خبيثين
- 200 العقل يسمى به العلم الذي يعمل به والعمل بالعلم
- 201 الوحي هو الاعلام السريع الخفي
- 201 لطائف لغوية
- 203 النحل 71-89

- 204 كل فعل ما لا ينفع باطل لأنه ليس له غاية موجودة محمودة
- 205 المعبود لا بد أن يكون مالكا للنفع والضرر
- 206 القياسات العقلية التي مضمونها نفى الملزوم لانتفاء لازمه
- 206 الكمال لازم لواجب الوجود
- 207 الله سبحانه لا يقاس بخلقه
- 209 من الإيمان بالله الإيمان بما وصف به نفسه
- 210 كل لفظ جاء به الكتاب والسنة من أسماء الله وصفاته هو حق يجب الإيمان به
- 210 المثان ضربهما الله سبحانه لنفسه المقدسة ولما يعبد من دونه
- 211 الله سبحانه يبين أنه هو المستحق للعبادة وأنه لا مثل له
- 212 الحق يظهر صحته بالمثل المضروب له
- 212 أعظم الكفر والإلحاد الذين سوا الله بكل موجود
- 215 المشركون يسوون بين الله و بين آلهتهم في المحبة والعبادة
- 216 القدرة والملك والاحسان صفة كمال
- 217 القرامطة الباطنية من اعظم الناس شركا
- 218 حمد الله والثناء عليه توحيد لله
- 219 { إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ }
- 221 ما تعلقت به المشيئة تعلقت به القدرة
- 221 "إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب "
- 225 العينان أشد الأعضاء إرتباطا بالقلب
- 226 ذكر الله في سورة النحل أصول النعم وتامها
- 227 أفعال العباد حادثة بمشيئة الله وقدرته وخلقه
- 230 المساكن من جنس الملابس كلاهما جعل في الأصل للوقاية ودفع الضرر
- 232 يجب على الخلق الاقرار بما جاء به النبي
- 233 الأمر المطلق يقتضى وجوب الطاعة وذم المتولى عن الطاعة
- 233 الدعاء قصد المدعو إما على وجه المسألة وإما على وجه العبادة المحضة
- 234 النار دركات
- 234 لا يجوز لأحد أن يعدل عما جاء في الكتاب والسنة واتفق عليه سلف الأمة
- 235 تكفل الله لمن قرأ القرآن وعمل بما فيه أن لا يضل في الدنيا ولا يشقى في الآخرة
- 236 في كتاب الله الأمر باتباع السنة واتباع سبيل المؤمنين
- 237 الفتن القولية والعملية هي من الجاهلية بسبب خفاء نور النبوة عنهم
- 237 الرد على من قال ان هناك معاني باطنة لا يعلمها عامة الناس
- 238 الاسلام هو الإستسلام لله وهو الخضوع له والعبودية له

- 239 { وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِّنْ أَنفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَؤُلَاءِ }
 239 أسماء القرآن
 240 لطائف لغوية

النحل 90-111 243

- 244 الأمر الكوني و الأمر الديني
 245 تتنوع دلالة اللفظ في عمومته وخصوصه بحسب الأفراد والاقتران
 246 أوجب الله العدل لكل أحد على كل أحد في كل حال
 247 الوعظ في القرآن هو الامر والنهي والترغيب والترهيب
 248 الأمر اعم من النهي والأعم أفضل
 248 "والله إن له لحلاوة وإن عليه لطلاوة"
 249 أعظم العدل التوحيد وأعظم الظلم الشرك
 249 { وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ }
 251 جميع أمور بني آدم لا بد لهم فيها من عقد وقدرة
 252 ضلال من إعتقدوا تنافى القدر والشرع
 254 "ما من قلب من قلوب العباد إلا و هو بين إصبعين من أصابع الرحمن"
 255 الله سبحانه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن
 256 اسم اليمين جامع للعقد الذي بين العبد وبين ربه
 257 لم يجيء اعداد العذاب المهين في القرآن الا في حق الكفار
 257 استعمال لفظ الذوق في ادراك الملانم والمنافر
 258 حصول الهداية والفلاح للمؤمنين دون غيرهم
 259 لا يحبط جميع الحسنات إلا الكفر
 260 الثواب والعقاب إنما يكون على عمل وجودي بفعل الحسنات
 260 الثواب الموعود به في الآخرة لا يكون إلا لمن آمن وعمل صالحا
 262 يعلق الواجب بالشرط لبيان حكم من الأحكام
 263 المؤمن يبئلى بوساوس الشيطان وبوساوس الكفر
 264 " إذا سألت فاسئل الله وإذا استعنت فاستعن بالله"
 265 من كان متبعا للأنبياء نصره الله سبحانه بما نصر به الأنبياء
 266 الشيطان يأمر بخلاف ما يأمر به الرسول
 267 المبدأ في شعور النفس وحركتها هم الملائكة أو الشياطين
 268 كل من عبد غير الله فإنما يعبد الشيطان
 268 أولياء الله هم المؤمنون المتقون

- 269 الشياطين لا سلطان لهم على قلوب الموحدين
- 271 الشيطان يوالي الإنسان بحسب إيمانه
- 272 الكمال المطلق للإنسان هو تكميل العبودية لله علما وقصدا
- 274 نفسك إن لم تشغلها بالحق شغلتك بالباطل
- 275 إذا فعل العبد ما يغار عليه فقد يعاقبه على ذلك بقدر ذنبه
- 276 خلاصة الدعوة النبوية
- 277 القرآن المتلو هو القرآن العربي الذي نزله روح القدس من الله بالحق
- 279 روح القدس هو جبريل وهو الروح الأمين
- 280 القرآن الكريم كلام الله ليس لجبريل ولا لمحمد فيه إلا التبليغ والأداء
- 282 القرآن الذي هو لفظ ومعنى كلام الله
- 284 النزول في كتاب الله عز وجل ثلاثة أنواع
- 285 هذه الآية تبطل قول من يقول أن القرآن العربي ليس منزلا من الله بل مخلوق
- 291 النبي سمع القرآن من جبريل وجبريل سمعه من الله تعالى
- 292 الملائكة أحياء ناطقون يأتونهم عن الله بما يخبر به
- 292 من الإيمان بالله الإيمان بما وصف به نفسه فلا ينفون عنه ما وصف به نفسه
- 293 كل من أرسله الله لا بد أن يكون صادقا في كل ما يبلغه عن الله
- 294 الله يصطفي من الملائكة رسلا و من الناس
- 295 الاسلام هو الإستسلام لله وهو الخضوع له والعبودية له
- 297 { لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ }
- 298 بين سبحانه ظهور كذبهم فيما افتروه
- 300 اللسان العربي أكمل الألسنة وأحسنها بيانا للمعاني
- 300 أسماء القرآن
- 300 الكفار إستحقوا الوعيد لزوال التصديق والإيمان من قلوبهم
- 302 المكروه هو من يدفع الفساد الحاصل بإحتمال أدناهما
- 303 من كفر بالله من بعد إيمانه من غير إكراه فهو مرتد
- 304 الكلام والفعل المتضمن للاستخفاف والاستهانة مستلزم لعدم التصديق النافع
- 308 ذم الله في كتابه من يرتد ويفتن ولو أكره
- 309 يوصف الله بما وصف به نفسه وبما وصفه به رسوله
- 310 الله سبحانه خالق كل شيء وربّه ومليكه وقد خلق الأشياء بأسباب
- 311 يدخل مقصود المسموع وفائدته في مسماه نفيا وإثباتا
- 312 قبول توبة من كفر بعد اسلامه وانهم لا يعذبون في الدنيا ولا في الآخرة
- 315 الردة على قسمين ردة مجردة وردة مغلظة

- 315 _____ الاعترار بكمال النهاية لا بنقص البداية
- 317 _____ الأرض لا تقدر احدا وإنما يقدر العبد عمله
- 317 _____ الفتنة الردة والكفر
- 318 _____ جميع المؤمنين يخاطبون بالجهاد ابتداء
- 318 _____ الظلم ممتنع من الله سبحانه وتعالى
- 318 _____ لطائف لغوية

النحل 112-119 321

- 321 _____ إن الله ذم الإنسان بكونه كفورا غير شكور
- 321 _____ ليس فى القرآن لفظ الا مقرون بما يبين به المراد
- 324 _____ ضرب الأمثال هو القياس العقلي الذي يهدي به الله من يشاء من عباده
- 324 _____ كون الأرض دار كفر ودار إيمان ليست صفة لازمة لها بل هى صفة عارضة
- 325 _____ لفظ القرية يتناول المساكن والسكان
- 326 _____ يثبت الله بالإيمان والتقوى لا بالبلد والنسب
- 327 _____ محبة الله وتوحيده هو الغاية التي فيها صلاح للنفس
- 328 _____ مسائل فقهية
- 328 _____ 1-الأصل فى جميع الأعيان أن تكون حلالا وأن تكون ظاهرة
- 329 _____ 2-المحرمات نوعان
- 329 _____ -تحريم الشيء مطلقا يقتضى تحريم كل جزء منه
- 331 _____ 4-حكم عظم الميتة وقرنها وظفرها وما هو من جنس ذلك
- 333 _____ 5-حكم التداوى
- 333 _____ 6-إذا وقع الذبح حقيقة لغير الله كانت حقيقة التحريم قد وجدت فيه
- 337 _____ 7-موارد الشريعة ومصادرها مبنية على قوله تعالى {فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ} _____
- 338 _____ 8-لا يبغي فى أكله ولا يتعدى
- 338 _____ 9-أكل الميتة للمضطر واجب عليه
- 339 _____ 10-الخبائث جميعا تباح للمضطر
- 339 _____ 11-الضرورة بسبب محذور لا تستباح بها المحرمات
- 340 _____ ان هذا الدين يسر ولن يشاد الدين احد الا غلبه
- 341 _____ التحريم باق على اليهود بعد مبعث محمد لا يزول إلا بمتابعته
- 343 _____ يجيء الوصف فى القرآن مستعملا فى الكذب
- 343 _____ ما حرمه المشركون لم يحرمه على لسان موسى ولا لسان محمد
- 344 _____ الله سبحانه الحكم العدل الذي لا يظلم مثقال ذرة

- 345 _____ الأمر الذي كتبه الله على نفسه أو حرمه على نفسه لا يكون إلا مقدورا له سبحانه
- 347 _____ ظلم النفس جنس عام يتناول كل ذنب
- 348 _____ الانسان هو فاعل السيئات وانه يستحق عليها العقاب
- 348 _____ السيئات فمنشؤها الجهل والظلم
- 350 _____ المغفرة لكل ذنب للتائب منه
- 353 _____ فالتوبة قد يكون من تمامها عمل صالح يعمله
- 354 _____ " أن الله يحب البصر النافذ عند ورود الشبهات ويحب العقل الكامل عند حلول الشهوات "
- 355 _____ من عمل بخلاف الحق فهو جاهل وإن علم أنه مخالف للحق
- 356 _____ لطائف لغوية

358 النحل 120-128

- 358 _____ شرع من قبلنا شرع لنا لا سيما شرع إبراهيم
- 358 _____ إبراهيم الخليل إمام الحنفاء المخلصين
- 359 _____ ابراهيم ومحمد كل منهما خليل الله
- 360 _____ بكمال عبودية القلب لله يبرئه من الكبر والشرك
- 361 _____ حب الله تعالى هو من تمام عبادته
- 362 _____ القنوت في اللغة دوام الطاعة
- 364 _____ توحد الملة وتعدد الشرائع وتنوعها
- 365 _____ تنوع الشرائع لا يمنع أن يكون الدين واحدا
- 366 _____ احسان العمل سبب لاحسان الله
- 367 _____ الصالح هو الذى أصلح جميع امره فاستوت سريرته وعلانيته على ما يرضى ربه
- 367 _____ ما عليه اليهود والنصارى ينافي ملة إبراهيم
- 368 _____ لا اسلام بعد مبعث محمد الا فيما جاء به وطاعته وهي ملة ابراهيم
- 368 _____ أصح الطرق وأبعدها من الشبه اتباع الكتاب والسنة قولاً وفعلاً
- 368 _____ أهل الكتاب تفرقوا واختلفوا قبل إرسال محمد إليهم
- 369 _____ { ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ }
الحكمة والموعظة الحسنة والجدل الاحسن تجمع نوعى العلم والعمل
- 370 _____ الرد على من يقول آيات المجادلة والمحاجة للكفار منسوخات بآية السيف
- 372 _____ الجدل لا يدعى به بل هو من باب دفع الصائل
- 374 _____ القرآن يحتج بالمقدمات البينة البرهانية لتقرير المخاطب بالحق
- 376 _____ أصل الدعوة إلى الله وحقيقتها ومقصودها
- 380 _____ دخول الأعمال في مسمى الإيمان حقيقة لا مجازا

- 380 الشرائع جاء بتحصيل المصالح وتكميلها وتعطيل المفاسد وتقليلها
- 381 الشريعة مبناها على العدل
- 383 درجة الحلم والصبر والعفو عن الظلم أفضل اخلاق اهل الدنيا والاخرة
- 385 " ما زاد الله عبدا بعفو إلا عزا "
- 388 الله سبحانه أوجب على عباده العدل في الصلح كما أوجبه في الحكم
- 390 القرآن جمع بين العدل والفضل على غاية الكمال
- 391 شرع القصاص في النفوس والأموال والاعراض بحسب الامكان
- 392 التمثيل في القتل فلا يجوز إلا على وجه القصاص
- 393 الأمور منها ما يباح فيه القصاص ومنها ما لا يباح فيه القصاص
- 393 {وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ }
- 396 من عبد الله بغير علم كان ما يفسد اكثر مما يصلح
- 397 لا يخاف المؤمن من الكفار والمنافقين ولا يحزن عليهم
- 398 إخبارهم بأن الله معهم يوجب زوال الضيق من مكر عدوهم
- 399 " اكثر ما يدخل الناس الجنة تقوى الله وحسن الخلق "
- 399 المعية في كتاب الله على وجهين
- 402 المعية الالهية المتضمنة للنصر هي لما جاء به الى يوم القيامة
- 402 إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ بالهداية والنصر والإعانة
- 403 المعية تختلف أحكامها بحسب الموارد
- 405 الجمع بين علو الرب عز وجل وبين قربه من داعيه وعابديه
- 406 الله مع الخلق كلهم بالعلم والقدرة والسلطان ويخص بعضهم بالإعانة والنصر والتأييد
- 407 من الايمان بالله الايمان بما وصف به نفسه من غير تحريف ولا تعطيل
- 408 عامة الاشفاع التي في القرآن انقسم الناس فيها قسمة رباعية
- 409 الإحسان يجمع كمال الإخلاص لله ويجمع الإتيان بالفعل الحسن
- 409 جماع الدين العام التعظيم لأمر الله والرحمة لعباد الله
- 409 لا تتم السياسة الدينية إلا بالجمع بين التقوى والإحسان الى الناس
- 410 لطائف لغوية

مقدمة سورة النحل

سورة النعم

والله تعالى ذكر في **سورة النحل** انعامه على عباده و تسمى سورة النعم فذكر في أول السورة أصول النعم التي لا يعيش بنو آدم إلا بها وذكر في أثنائها تمام النعم التي لا يطيب عيشهم إلا بها فذكر في أولها الرزق الذي لا بد لهم منه وذكر ما يدفع البرد من الكسوة بقوله **{ وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ } النحل 5** ثم في أثناء السورة ذكر لهم المساكن والمنافع التي يسكنونها مساكن الحاضرة والبادية ومساكن المسافرين فقال تعالى **{ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِّنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا } النحل 80** الآية ثم ذكر أنعامه بالظلال وما يقي الحر و ذكر الأسلحة و ما يقي القتل فقال **{ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِّمَّا خَلَقَ ظِلَالًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِّنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا } النحل 81** إلى قوله **{ كَذَلِكَ يَبْتِمُّ نِعْمَتُهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَسْلُمُونَ } النحل 81** ولم يذكر هنا ما يقي من البرد لأنه قد ذكره في أول السورة وذلك في أصول النعم لأن البرد يقتل فلا يقدر أحد ان يعيش في البلاد الباردة بلا دفء بخلاف الحر فانه أذى لكنه لا يقتل كما يقتل البرد و لهذا قال بعض العرب البرد يؤس و الحر أذى فان الحر قد يتقى بالظلال واللباس وغيرهما وأهله أيضا لا يحتاجون إلى وقاية كما يحتاج إليه البرد بل أدنى وقاية تكفيهم وهم في الليل وطرفي النهار لا يتأذون به تأذيا كثيرا بل لا يحتاجون إليه احيانا حاجة قوية فجمع بينهما في قوله **{ سَرَّابِيلٌ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَّابِيلٌ تَقِيكُمُ بَأْسَكُمْ } النحل 81**¹

وما يصيب الإنسان إن كان يسره فهو نعمة بينة و إن كان يسوءه فهو نعمة لأنه يكفر خطاياة و يثاب عليه بالصبر و من جهة أن فيه حكمة و رحمة لا يعلمها العبد **{ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ } البقرة 216** الآية و كلتا النعمتين تحتاج مع الشكر الى الصبر أما الضراء فظاهر و أما نعمة السراء فتحتاج الى الصبر على الطاعة فيها كما قال بعض السلف ابتلينا بالضراء فصبرنا و ابتلينا بالسراء فلم نصبر فلهذا كان أكثر من يدخل الجنة المساكين لكن لما كان السراء اللذة و في الضراء الألم اشتهر ذكر الشكر في السراء و الصبر في الضراء قال تعالى **{ وَلَئِنْ أَدْخَلْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَكْفُرُ } هود 9** الى قوله **{ إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمَلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ } هود 11** الآية وأيضا صاحب السراء أحوج الى الشكر و صاحب الضراء أحوج الى الصبر فإن صبر هذا و شكر هذا و اجب و أما صبر السراء فقد يكون مستحبا و صاحب الضراء قد يكون الشكر في حقه مستحبا و إجتماع الشكر و الصبر يكون مع تألم النفس و تلذذها و هذا يعسر على كثير و بسطه له موضع آخر و المقصود أن الله تعالى منعم بهذا كله و إن كان لا يظهر في الإبتداء لأكثر الناس فإن الله يعلم و أنتم لا تعلمون و أما ذنوب الإنسان فهي من نفسه و مع هذا فهي مع حسن العاقبة نعمة و هي نعمة على غيره لما يحصل له بها من الإعتبار و من هذا قوله اللهم لا تجعلني عبرة لغيري و لا تجعل غيري أسعد بما علمتني مني و في دعاء القرآن **{ فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ } يونس 85** و كما فيه **{ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا } الفرقان 74** و اجعلنا أئمة لمن يقتدي بنا و لا تجعلنا فتنة لمن يضل بنا و الألاء في اللغة هي النعم و هي تتضمن القدرة و الله

¹مجموع الفتاوى ج: 12 ص: 256 و مجموع الفتاوى ج: 16 ص: 160

تعالى في القرآن يذكر آياته الدالة على قدرته و ربوبيته و يذكر آياته التي فيها نعمه الى عباده و يذكر آياته المبينة لحكمته و هي متلازمة لكن نعمة الإنتفاع بالمأكل و المشارب و المساكن و الملابس ظاهرة لكل أحد فلهذا إستدل بها في **سورة النحل** و تسمى **سورة النعم** كما قاله قتادة و غيره و على هذا فكثير من الناس يقول الحمد أعم من الشكر من جهة أسبابه فإنه يكون على نعمة و غيرها و الشكر أعم من جهة أنواعه فإنه يكون بالقلب و اللسان و اليد فإذا كان كل مخلوق فيه نعمة لم يكن الحمد إلا على نعمة و الحمد لله على كل حال¹

النعم نوعان

إن نعم الله على عباده تتضمن نفعهم والإحسان إليهم وذلك نوعان أحدهما أن يدفع بذلك مضرتهم ويزيل حاجتهم وفاقتهم مثل رزقهم الذي لولا هو لماتوا جوعا ونصرهم الذي لولا هو لأهلكهم عدوهم ومثل هداهم الذي لولا هو لضلوا ضلالا يضرهم في آخرتهم وهذا النوع من النعمة لا بد لهم منه وإن فقدوه حصل لهم ضرر إما في الدنيا وإما في الآخرة وإما فيهما ولهذا كان في **سورة النحل وهي** **سورة النعم** في أولها أصول النعم وفي أثنائها كمال النعم والنوع الثاني النعم التي تحصل بها من كمال النعم وعلو الدرجة ما لا يحصل بدونها كما أنهم في الآخرة نوعان أبرار أصحاب يمين ومقربون سابقون ومن خرج عن هذين كان من أصحاب الجحيم وإذا كانت النعمة نوعين فالخلق كانوا محتاجين إلى إرسال محمد من هذين الوجهين وحصل بإرساله هذان النوعان من النعمة فإن الناس بدونه كانوا جهالا ضالين أميين وأهل الكتاب منهم ولم يكن قد بقي من أهل الكتاب أتباع المسيح من هو قائم بالدين الذي يوجب السعادة عند الله في الآخرة بل كانوا قد بدلوا وغيروا وأيضا فلو قدر أنهم لم يبدلوا شيئا ففي إرساله من كمال النعم وتواصلها وعلو الدرجات في السعادة ما لم يكن حاصلًا بالكتاب الأول فكان إرساله أعظم نعمة أنعم الله بها على أهل الأرض من نوعي النعم²

¹مجموع الفتاوى ج: 8 ص: 209- 211

²الجواب الصحيح ج: 5 ص: 87

النحل 1-21

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

{1} أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ {1} يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ
بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا
فَاتَّقُونِ {2} خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ تَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ {3} خَلَقَ
الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ {4} وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ
وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ {5} وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ {6} وَتَحْمِلُ
أَنْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بِالْغَيْهِ إِلَّا أُنشِقُ الْأَنْفُسَ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَوُوفٌ رَّحِيمٌ {7}
وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ {8} وَعَلَىٰ اللَّهِ
قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِرٌ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ {9} هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ
السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ {10} يُنبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ
وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ
يَتَفَكَّرُونَ {11} وَسَخَّرَ لَكُمْ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ
بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ {12} وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا
أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ {13} وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ
لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حَبْلَةً حَلِيقَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَىٰ الْفُلْكَ مَوَاجِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ
فَضْلِهِ وَلِعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ {14} وَأَلْقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا
وَسُبُلًا لِّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ {15} وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ {16} أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ
لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ {17} وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَعَفُورٌ
رَّحِيمٌ {18} وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسْرُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ {19} وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ
لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ {20} أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ
يُبْعَثُونَ {21}

في لغة العرب يسمى المفعول باسم المصدر

في لغة العرب التي نزل بها القرآن أن يسمى المفعول باسم المصدر فيسمى المخلوق خلقا لقوله هذا خلق الله ويقال درهم ضرب الأمير أي مضروب الأمير ولهذا يسمى المأمور به أمرا والمقدور قدرة وقدرنا والمعلوم علما والمرحوم به رحمة كقوله تعالى { **أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ** } النحل 1 وقوله تعالى { **وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدْرًا مَّقْدُورًا** } الأحزاب 38 وقوله { **هَذَا خَلْقُ اللَّهِ** } لقمان 11¹

ألفاظ المصادر يعبر بها عن المفعول فيسمى المأمور به أمرا و المقدور قدرة و المرحوم به رحمة و المخلوق بالكلمة كلمة فإذا قيل في المسيح أنه كلمة الله فالمراد به أنه خلق بكلمة قوله كن و لم يخلق على الوجه المعتاد من البشر و إلا فعيسى بشر قائم بنفسه ليس هو كلاما صفة للمتكلم يقوم به و كذلك إذا قيل عن المخلوق أنه أمر الله فالمراد أن الله كونه بأمره كقوله { **أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ** } النحل 1 وقوله { **فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَابًا مِّن سَجِيلٍ** } منضود { هود 82²

ولفظ الأمر يراد به المصدر والمفعول فالمفعول مخلوق كما قال { **أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ** } النحل 1 و قال { **وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدْرًا مَّقْدُورًا** } الأحزاب 38 فهنا المراد به المأمور به ليس المراد به أمره الذي هو كلامه وهذه الآية التي إحتج بها هؤلاء تضمنت الشرع وهو الأمر والقدر وقد ضل في هذا الموضوع فريقان الجهمية الذين يقولون كلام الله مخلوق ويحتجون بقوله { **وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدْرًا مَّقْدُورًا** } الأحزاب 38 ويقولون ما كان مقدورا فهو مخلوق وهؤلاء الحلوية الضالون الذين يجعلون فعل العباد قديما بأنه أمر الله وقدره وأمره وقدره غير مخلوق ومثار الشبهة أن إسم القدر والأمر والشرع يراد به المصدر ويراد به المفعول ففي قوله { **وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدْرًا مَّقْدُورًا** } الأحزاب 38 المراد به المأمور به المقدور وهذا مخلوق وأما في قوله { **ذَلِكَ أَمْرُ اللَّهِ أَنْزَلَهُ إِلَيْكُمْ** } الطلاق 5 فأمره كلامه إذا لم ينزل إلينا الأفعال التي أمرنا بها وإنما أنزل القرآن وهذا كقوله { **إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا** } النساء 58 فهذا الأمر هو كلامه فإذا إحتج الجهمي الذي يؤول أمره إلى أن يجعله حالا في المخلوقات بقوله { **وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدْرًا مَّقْدُورًا** } الأحزاب 38 قيل له المراد به المأمور به كما في قوله { **أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ** } النحل 1 وكما يقال عن الحوادث التي يحدثها الله هذا أمر عظيم وإذا إحتج الحلوي الذي يجعل صفات الرب تقارن ذاته وتحل في المخلوقات بقوله { **وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدْرًا مَّقْدُورًا** } الأحزاب 38 وقال الأفعال قدره وأمره غير مخلوق وقدره غير مخلوق قيل له أمره وقدره الذي هو صفته كمشيئته وكلامه غير مخلوق فأما أمره الذي هو قدر مقدور فمخلوق فالمقدور مخلوق والمأمور به مخلوق وإن سميا أمرا وقدرنا ثم يقال لهؤلاء الضالين هب أن المأمور به يسمى أمرا وشرعا فالمنهي عنه ليس هو مأمورا به ولا مشروعا وإنما هو مخالفة للأمر والشرع وهو منهي عنه فكيف سميت الكفر والفسوق والعصيان شرايع وليست من الشرايع ولكن هي مما نهت عنه الشريعة و لما قال سبحانه { **ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا** } الجاثية 18 هل

¹ الجواب الصحيح ج: 4 ص: 66 و مجموع الفتاوى ج: 4 ص: 227 و مجموع الفتاوى ج: 11 ص: 420

و مجموع الفتاوى ج: 18 ص: 215

² مجموع الفتاوى ج: 17 ص: 285

دخل في هذه الشريعة الكفر والفسوق والعصيان وهل أمر الرسول بإتباع ذلك بإجتنابه وإتقائه وأما قول السائل ما الحجة على من يقول أن أفعال العباد من الحركات وغيرها من القدر الذي قدر قبل خلق السموات والأرض فيقال له من قال هذا القول فقد أحسن وأصاب وليس عليه حجة بل هذا الكلام حجة على نقيض مطلوبه فإن لفظ رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي رواه مسلم في صحيحه عن عبد الله بن عمرو عنه صلى الله عليه وسلم قال إن الله قدر مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة فقد قدر أعمالهم وأرزاقهم وصورهم وألوانهم وكل ذلك مخلوق فدل ذلك على أن الأعمال من المقدورات المخلوقة وهل يقول عاقل أن عمل العبد كان موجوداً قبل وجوده وعمل العبد حركته التي نشأت عنه فكيف يكون ذلك موجوداً قبله ومن فسر كلامه وقال أنا لم نرد الحركة ولكن أردنا ثوابها فيقال له كل ما سوى الله فهو مخلوق وكلامه وصفاته ليست خارجة عن مسماه بل كلامه داخل في مسمى إسمه ولو قال قائل ما سوى الله وصفاته فهو مخلوق ليزيل هذه الشبهة كان قد قصد معنى صحيحاً وكذلك إذ قال كما قال من قال من السلف الله الخالق وما سواه مخلوق إلا القرآن فإنه كلام الله منزل غير مخلوق منه بدا وإليه يعود فهو لاء إستثنوا قرآن لئلا يتوهم المستمع أن القرآن المنزل مخلوق¹

المضاف الى الله نوعان

قال النبي الريح من روح الله اي من الروح التي خلقها الله فاضافة الروح الى الله إضافة ملك لا إضافة وصف إذ كل ما يضاف إلى الله ان كان عينا قائمة بنفسها فهو ملك له وان كان صفة قائمة بغيرها ليس لها محل تقوم به فهو صفة لله فالاول كقوله { نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا } الشمس 13 وقوله { فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا } مريم 17 وهو جبريل { فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا } 17 { قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا } 18 { قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا } 19 { مريم 17-19 وقال { وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُنْتِ مِنَ الْقَائِمِينَ } التحريم 12 وقال عن آدم { فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ } الحجر 29 والثاني كقولنا علم الله وكلام الله وقدرة الله وحياء الله وامر الله لكن قد يعبر بلفظ المصدر عن المفعول به فيسمى المعلوم علماً والمقدور قدرة والمأمور به أمراً والمخلوق بالكلمة كلمة فيكون ذلك مخلوقاً كقوله { **أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ** } النحل 1 وقوله { إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِبْهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ } آل عمران 45 وقوله { إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْفَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ } النساء 171 ومن هذا الباب قوله إن الله خلق الرحمة يوم خلقها مائة رحمة انزل منها رحمة واحدة وامسك عنده تسعة وتسعين رحمة فاذا كان يوم القيامة جمع هذه الى تلك فرحم بها عباده ومنه قوله في الحديث الصحيح للجنة أنت رحمتي ارحم بك من اشاء من عبادي كما قال للنار أنت عذابي اعذب بك من اشاء ولكل واحدة منكما ملؤها²

¹مجموع الفتاوى ج: 8 ص: 412-414

²مجموع الفتاوى ج: 9 ص: 291

الفرق بين أمر الله الديني وخلق الكوني

إن الله سبحانه قد فرق بالقرآن وبالإيمان بين أمره الديني وخلق الكوني فإن الله سبحانه خالق كل شيء ورب كل شيء ومليكه سواء في ذلك الذوات وصفاتها وأفعالها وما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن لا يخرج عن مشيئته شيء ولا يكون شيء إلا بمشيئته وقد فرق الله في كتابه بين القسمين بين من قام بكلماته الكونيات وبين من اتبع كلماته الدينيات وذلك في أمره وإرادته وقضائه وحكمه وإذنه وبعثه وارساله فقال في الأمر الديني الشرعي { **إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا** {النساء 58} وقال في الأمر الكوني القدرى { **أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ** {النحل 1} وبهذا الجمع والتفريق تزول الشبهة في مسألة الأمر الشرعي هل هو مستلزم للإرادة الكونية أم لا فان التحقيق أنه غير مستلزم للإرادة الكونية القدرية وإن كان مستلزماً للإرادة الدينية الشرعية¹

الأمر بتسبيحه يقتضى إثبات صفات الكمال له

قال تعالى { **أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ** {النحل 1} والأمر بتسبيحه يقتضى أيضاً تنزيهه عن كل عيب وسوء وإثبات صفات الكمال له فإن التسبيح يقتضى التنزيه والتعظيم والتعظيم يستلزم إثبات المحامد التى يحمد عليها فيقتضى ذلك تنزيهه وحميده وتكبيره وتوحيد²

تعالیه عن الشركاء يقتضى إختصاصه بالإلهية

قال تعالى { **أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ** {النحل 1} فقد تضمن العلو الذى ينعت به نفسه فى كتابه أنه متعال عما لا يليق به من الشركاء والأولاد فليس كمثل شيء وهذا يقتضى ثبوت صفات الكمال له دون ما سواه وأنه لا يماثله غيره فى شيء من صفات الكمال بل هو متعال عن أن يماثله شيء وتضمن أنه عال على كل ما سواه قاهر له قادر عليه نافذة مشيئته فيه وأنه عال على الجميع فوق عرشه فهذه ثلاثة أمور فى إسمه العلى وإثبات علوه على ما سواه وقدرته عليه وقهره يقتضى ربوبيته له وخلق له وذلك يستلزم ثبوت الكمال وعلوه عن الأمثال يقتضى أنه لا مثل له فى صفات الكمال وهذا يقتضى جميع ما يوصف به فى الإثبات والنفي ففي الإثبات يوصف بصفات الكمال وفى النفي ينزه عن النقص المناقض للكمال وينزه عن أن يكون له مثل فى صفات الكمال كما قد دلت على هذا وهذا سورة الإخلاص { **قُلْ هُوَ**

¹مجموع الفتاوى ج: 2 ص: 411

²مجموع الفتاوى ج: 16 ص: 126

اللَّهُ أَحَدٌ {1} اللَّهُ الصَّمَدُ {2} الاخلاص 1-2 وتعالى عن الشركاء يقتضي إختصاصه بالإلهية و أنه لا يستحق العبادة إلا هو وحده¹

أضاف الله كثيرا من الحوادث إليه وأضافه إلى بعض مخلوقاته

وأما على قول جمهور أهل السنة الذين يقولون إنها مفعولة للرب لا فعل له إذا فعله ما قام به والفعل عندهم غير المفعول فيقولون إنها مفعولة للرب لا فعل له وإنما فعل للعبد كما يقولون في قدرة العبد إنها قدرة للعبد مقدورة للرب لا أنها نفس قدرة الرب وكذلك إرادة العبد هي إرادة للعبد مرادة للرب وكذلك سائر صفات العبد هي صفات له وهي مفعولة للرب مخلوقة له ليست بصفات له ومما يبين ذلك أن الله تعالى قد أضاف كثيرا من الحوادث إليه وأضافه إلى بعض مخلوقاته إما أن يضيف عينه أو نظيره كقوله تعالى {اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى} {الزمر 42} وقال تعالى {وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ} {الأنعام 60} مع قوله تعالى {قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ} {السجدة 11} وقوله {تَوَفَّيْتُهُ رُسُلْنَا وَهُمْ لَا يُفِرُّونَ} {الأنعام 61} وقال تعالى {يَعْلَمُ مَا يَلْجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا} {الحديد 4} وقال تعالى {يُنزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ} {النحل 2} وقال {نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ} {الشعراء 193} وقال {وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ} {الإسراء 105} وقال {وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً} {المؤمنون 18}²

قال تعالى {يُنزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ} {النحل 2} فنزول الملائكة هو نزولهم بالوحي من أمره الذي هو كلامه وكذلك قوله {تَنْزَلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ} {القدر 4} يناسب قوله {فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ} {4} أَمْرًا مِّنْ عِنْدِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ} {5} {الدخان 4-5} فهذا شبيه بقوله {قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدْسِ} {النحل 102}³

الله تعالى يؤيد رسله بالملائكة وبالهدى

قال تعالى {يُنزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ} {النحل 2} الله تعالى يؤيد رسله بالملائكة وبالهدى⁴

¹مجموع الفتاوى ج: 16 ص: 124

²منهاج السنة النبوية ج: 3 ص: 243

³مجموع الفتاوى ج: 12 ص: 249

⁴الجواب الصحيح ج: 3 ص: 196

وقال تعالى {أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ} {المجادلة} 22 وقال تعالى {وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَنْ نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا} {الشورى} 52 وقال تعالى {يُنزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ} {النحل} 2 فما ينزله الله في قلوب أنبيائه مما تحيا به قلوبهم من الإيمان الخالص يسميه روحا وهو ما يؤيد الله به المؤمنين من عباده¹

فما أنزله يسمى هدي الله وروح الله ووحى الله ونور الله ونحو ذلك²

أصل الإيمان توحيد الله والإيمان برسله

أن الله ألزم الخلق التوحيد وأمرهم به وقضى به وحكم فقال {وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ} {الإسراء} 23 وقال {يُنزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ} {النحل} 2 وقال {وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ} {النحل} 36 الآية وقال تعالى {وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونَ} {النحل} 51 وقال {وَمَا أَمْرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ} {التوبة} 31 {وَمَا أَمْرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ} {البينة} 5 وهذا كثير في القرآن يوجب على العباد عبادته وتوحيده ويحرم عليهم عبادة ما سواه فقد حكم وقضى أنه لا إله الا هو فلفظ الاله يقتضي أنه يستحق العبادة فإذا أخبر أنه هو المستحق للعبادة دون ما سواه كان ذلك أمرا بما يستحقه وليس المراد هنا بالاله من عبده عابد بلا استحقاق فإن هذه الآلهة كثيرة ولكن تسميتهم آلهة والخبر عنهم بذلك واتخاذهم معبودين أمر باطل كما قال تعالى {إِنَّ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءُ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مِمَّا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ} {النجم} 23 وقال {ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ} {الحج} 62 فالآلهة التي جعلها عابدها آلهة يعبدونها كثيرة لكن هي لا تستحق العبادة فليست بالآلهة كمن جعل غيره شاهدا أو حاكما أو مفتيا أو أميرا وهو لا يحسن شيئا من ذلك ولا بد لكل إنسان من إله يألهه ويعبده تعس عبد الدينار و عبد الدرهم فإن بعض الناس قد آله ذلك محبة و ذلا و تعظيما كما قد بسط في غير هذا الموضوع فإذا شهد الله أنه لا إله إلا هو فقد حكم وقضى بأن لا يعبد إلا إياه قال {يُنزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ} {النحل} 2 الى غير ذلك من الآيات وقد علم بالتواتر والاضطرار أن جميع الرسل أخبروا عن الله أنه شهد ويشهد أن لا إله إلا هو بقوله وكلامه وهذا معلوم من جهة كل من بلغ عنه كلامه ولهذا قال تعالى {أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَذَا ذِكْرٌ مِّنْ مَّعِي وَذِكْرٌ مِّنْ قَبْلِي} {الأنبياء} 24³

¹مجموع الفتاوى ج: 17 ص: 285

²الجواب الصحيح ج: 3 ص: 409

³مجموع الفتاوى ج: 14 ص: 173-171

و أصل الإيمان توحيد الله بعبادته وحده لا شريك له والإيمان برسله كما قال تعالى {فَوَرَبِّكَ لَنَسَأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ} {92} عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ} {93} الحجر 92-93 قال أبو العالية خلتان تسأل العباد يوم القيامة عنهما عما كانوا يعملون وعما اجابوا الرسل ولهذا يقرر الله هذين الأصلين في غير موضع من القرآن بل يقدمهما على كل ما سواهما لأنهما أصل الأصول ومن هذا قوله تعالى {يُنزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ} النحل 2¹

جواز بعثة رسول لا يعرف ما جاءت به الرسل قبله

قال تعالى {يُنزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ} النحل 2 قوله تعالى {لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي مِلَّتِنَا} الأعراف 88 الآية وما في معناها التحقيق أن الله سبحانه إنما يصطفى لرسالته من كان خيار قومه حتى في النسب كما في حديث هرقل ومن نشأ بين قوم مشركين جهال لم يكن عليه نقص إذا كان على مثل دينهم إذا كان معروفا بالصدق والأمانة وفعل ما يعرفون وجوبه وترك ما يعرفون قبحه قال تعالى {وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا} الإسراء 15 فلم يكن هؤلاء مستوجبين العذاب وليس في هذا ما ينفر عن القبول منهم ولهذا لم يذكره أحد من المشركين قادحا وقد إتفقوا على جواز بعثة رسول لا يعرف ما جاءت به الرسل قبله من النبوة والشرايع وإن من لم يقر بذلك بعد الرسالة فهو كافر والرسل قبل الوحي لا تعلمه فضلا عن أن تقر به قال تعالى {يُنزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ} النحل 2 وقال {يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ} غافر 15 فجعل إنذارهم بالتوحيد كالإنذار بيوم التلاق وكلاهما عرفوه بالوحي وما ذكر أنه بغضت إليه الأوثان لا يجب أن يكون لكل نبي فإنه سيد ولد آدم والرسول الذي ينشأ بين أهل الكفر الذين لا نبوة لهم يكون أكمل من غيره من جهة تأييد الله له بالعلم والهدى وبالنصر والقهر كما كان نوح وإبراهيم ولهذا يضيف الله الأمر إليها في مثل قوله {وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ} الحديد 26 الآية {إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ} آل عمران 33 الآية وذلك ان نوحا أول رسول بعث إلى المشركين وكان مبدأ شركهم من تعظيم الموتى الصالحين وقوم إبراهيم مبدأه من عبادة الكواكب ذاك الشرك الأرضي وهذا السماوي ولهذا سد ذريعة هذا وهذا²

الملائكة رسل الله في تنفيذ أمره الكوني

¹مجموع الفتاوى ج: 27 ص: 278

²مجموع الفتاوى ج: 15 ص: 31

إن اسم الملائكة والملك يتضمن أنهم رسل الله كما قال تعالى { جَاعِلِ الْمَلَائِكَةَ رُسُلًا } فاطر 1
فالملائكة رسل الله في تنفيذ أمره الكوني الذي يدبر به السموات والأرض وأمره الديني الذي تنزل
به الملائكة فإنه قال { يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ } النحل 2¹

أن الملائكة لا تنزل بالليل والنهار الى الارض كما قال تعالى { وَمَا نُنَزِّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ }
مريم 64 وفي الصحيحين عن أبي هريرة وأبي سعيد رضى الله عنهما عن النبي أنه قال
يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار ويجتمعون في صلاة الفجر وصلاة العصر ثم
يعرج اليه الذين باتوا فيكم فيسألهم ربهم وهو أعلم بهم كيف تركتم عبادى فيقولون اتيناهم وهم
يصلون وتركانهم وهم يصلون وكذلك ثبت في الصحيح عن أبي هريرة عن النبي أنه قال
ان لله ملائكة سياحين فضلا يتتبعون مجالس الذكر فاذا مروا على قوم يذكرون الله تعالى
ينادون هلموا الى حاجتكم فيحفونهم بأجنحتهم الى السماء الدنيا قال فيسألهم ربهم وهم أعلم بهم ما
يقول عبادى قال فيقولون يسبحونك ويكبرونك ويحمدونك ويمجدونك وفي رواية لمسلم ان
لله ملائكة سيارة فضلا عن كتاب الناس يتبعون مجالس الذكر فاذا وجدوا مجلسا فيه ذكر قعدوا معهم
وحف بعضهم بعضا حتى يملأوا ما بينهم وبين سماء الدنيا فاذا تفرقوا عرجوا أو صعدوا الى السماء
قال فيسألهم الله عز وجل وهو أعلم بهم من أين جئتم فيقولون جئنا من عند عبادك فى الأرض
يسبحونك ويكبرونك ويهللونك ويحمدونك ويسألونك الحديث بطوله²

{ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ }

وتوحيد الله وإخلاص الدين له فى عبادته وإستعانته فى القرآن كثير جدا بل هو قلب الإيمان وأول
الإسلام وآخره كما قال النبي صلى الله عليه وسلم أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا
الله وأن محمدا رسول الله وقال إنى لأعلم كلمة لا يقولها عند الموت أحد إلا وجد روحه لها
روحا وقال من كان آخر كلامه لا إله إلا الله وجبت له الجنة وهو قلب الدين والإيمان
وسائر الأعمال كالجوارح له وقول النبي إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل أمرى ما نوى فمن كانت
هجرته الى الله ورسوله فهجرته الى الله ورسوله ومن كانت هجرته الى دنيا يصيبها أو امرأة
يتزوجها فهجرته الى ما هاجر اليه فبين بهذا أن النية عمل القلب وهى أصل العمل وإخلاص الدين
لله وعبادة الله وحده ومتابعة الرسول فيما جاء به هو شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله
ولهذا أنكرنا على الشيخ يحيى الصرصرى ما يقوله فى قصائده فى مدح الرسول من الإستغاثة به
مثل قوله بك أستغيث وأستعين ونحو ذلك وكذلك ما يفعله كثير من الناس من استجداد
الصالحين والمتشبهين بهم والإستعانة بهم أحياء وأمواتا فإنى أنكرت ذلك فى مجالس عامة وخاصة
وبينت للناس التوحيد ونفع الله بذلك ما شاء الله من الخاصة والعامة وهو دين الإسلام العام
الذى بعث الله به جميع الرسل كما قال تعالى { وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاَ أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا

¹مجموع الفتاوى ج: 4 ص: 119

²مجموع الفتاوى ج: 5 ص: 370-371

الطَّاغُوتِ {النحل36} وقال {وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ} {الأنبياء25} وقال النبي لمعاذ بن جبل يا معاذ أتدرى ما حق الله على عباده قلت الله ورسوله أعلم قال حقه عليهم أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً أتدرى ما حق العباد على الله إذا فعلوا ذلك أن لا يعذبهم وقال لابن عباس إذا سألت فاسئل الله وإذا استعنت فاستعن بالله {أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ} {النحل2} ¹

تنال النفس كمالها بسعادتها ونجاتها بالفطرة المكملة بالشرعة المنزلة

قال تعالى {خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ تَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ} {3} {خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ} {4} {النحل3-4} جاءت الكتب الإلهية بخطاب الناس بالمعقولات الصحيحة الفطرية فإن الرسل بعثوا بتقرير الفطرة وتكميلها لا بتغيير الفطرة وتحويلها والنفس إنما تنال كمالها بسعادتها ونجاتها بالفطرة المكملة بالشرعة المنزلة ولهذا حيث ذكر الله في كتابه شيئاً من هذه الأسماء التي تدل على الفعل لم يعقل العقلاء من ذلك إلا أنه محدث كقوله تعالى {خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ تَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ} {النحل3} إلى أمثال ذلك من الخطاب الذي قد علم بالإضطرار معناه وأن بناءها أمر حادث كان بعد أن لم يكن ²

{خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ}

قال تعالى {خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ تَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ} {3} {خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ} {4} {النحل3-4} أن الله سبحانه حكيم رحيم وقد أخبر أنه لم يخلق المخلوقات إلا بحكمته كما قال في قوله تعالى {وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا} {ص27} وقال تعالى {إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ} {190} الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ} {191} آل عمران 190-191 وقال تعالى {وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ} {16} {لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْوًا لَاتَّخَذْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا فَاعِلِينَ} {17} الانبياء 16-17 وقال وهذا يبين أن معنى قوله في سائر الآيات بالحق هو لهذا المعنى الذي يتضمن حكمته كما قال {وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ} {الأنعام73} وقوله {وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَأْتِيَةٌ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلِ} {85} {إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ} {86} {الحجر85-86} وبعض الناس يظن أن قوله {هُوَ الْخَلَّاقُ} {الحجر86} إشارة إلى أنه خالق أفعال العباد فلا ينبغي التشديد في الإنكار عليهم بل يصفح عنهم الصَّفْحَ الْجَمِيلِ لأجل القدر و هذا من أعظم الجهل فإنه سبحانه قد عاقب المخالفين له و لرسله و غضب عليهم و أمر بمعاقبتهم و أعد لهم من العذاب ما ينافى قول

¹مجموع الفتاوى ج: 1 ص: 72

²الصفدية ج: 2 ص: 159

هؤلاء المعطلين لأمره ونهيه ووعده ووعيده وقوله { فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ } الحجر 85
تعلق بما قبله وهو قوله { وَإِنَّ السَّاعَةَ لَأْتِيَةٌ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ } الحجر 85 فإن لهم
موعدا يجزون فيه ن كما قال تعالى في نظائر ذلك { فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ } الرعد 40 {
فَذَكَرْنَا إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكَّرٌ } {21} لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ } {22} إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ } {23} فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ
الْأَكْبَرَ } {24} إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ } {25} ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ } {26} الغاشية 21-26 وقوله { فَتَوَلَّى
عَنْهُمْ حَتَّى جِئْنَا } الصافات 174 وقوله { فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ } الزخرف 89
ولم يعذر الله أحدا قط بالقدر ولو عذر به لكان أنبياءه وأوليائه أحق بذلك و آدم إنما حج موسى لأنه
لامه على المصيبة التي أصابت الذرية فقال له لماذا أخرجتنا و نفسك من الجنة و ما أصاب العبد من
المصائب فعليه أن يسلم فيها لله و يعلم أنها مقدورة عليه كما قال تعالى { مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا
بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ } التغابن 11 قال علقمة و قد روى عن ابن مسعود هو الرجل تصيبه
المصيبة فيعلم أنها من عند الله فيرضى و يسلم فالعبد مأمور بالتقوى و الصبر فالتقوى فعل ما أمر به
و من الصبر على ما أصابه و هذا هو صاحب العاقبة المحمودة كما قال يوسف عليه السلام { إِنَّهُ مَنْ
يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ } يوسف 90 و قال تعالى { وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ
ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ } آل عمران 186 و قال { وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً } آل
عمران 120 و قال { بَلَى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِّنَ
الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ } آل عمران 125 لابد لكل عبد من أن يقع منه ما يحتاج معه إلى التوبة و
الإستغفار و يبتلى بما يحتاج معه إلى الصبر فلهذا يؤمر بالصبر و الإستغفار كما قيل لأفضل الخلق
{ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ } غافر 55 و قد بسط
الكلام في غير هذا الموضوع على مناظرة آدم و موسى فإن كثيرا من الناس حملوها على محامل
مخالفة للكتاب و السنة و إجماع الأمة و منهم من كذب بالحديث لعدم فهمه له و الحديث حق يوجب
أن الإنسان إذا جرت عليه مصيبة بفعل غيره مثل أبيه او غير أبيه لا سيما إذا كان أبوه قد تاب منها
فلم يبق عليه من جهة الله تبعة كما جرى لآدم صلوات الله عليه قال تعالى { وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ
فَعَوَى } {121} ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى } {122} طه 121-122 و قال { فَتَلَقَى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ
فَتَابَ عَلَيْهِ } البقرة 37 و كان آدم و موسى أعلم بالله من أن يحتج أحدهما لذنبه بالقدر و يوافقه الآخر
و لو كان كذلك لم يحتج آدم إلى توبة و لا أهبط من الجنة و موسى هو القائل { رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ
نَفْسِي فَاعْفُرْ لِي } القصص 16 و هو القائل { رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ
الرَّاحِمِينَ } الأعراف 151 و هو القائل { أَنْتَ وَلِيِّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ
} الأعراف 155 و هو القائل لقومه { فَتَوْبُوا إِلَى بَارِيكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِيكُمْ
} البقرة 54 فلو كان المذنب يعذر بالقدر لم يحتج إلى هذا بل كان الإحتجاج بالقدر لما حصل من
موسى ملام على ما قدر عليه من المصيبة التي كتبها الله و قدرها و من الإيمان بالقدر أن يعلم
العبد أن ما أصابه لم يكن ليخطئه و ما أخطاه لم يكن ليصيبه فالمؤمن يصبر على المصائب و يستغفر
من الذنوب و المعائب و الجاهل الظالم يحتج بالقدر على ذنوبه و سيئاته و لا يعذر بالقدر من أساء
إليه و لا يذكر القدر عند ما يبسره الله له من الخير فعكس القضية بل كان الواجب عليه إذا عمل
حسنة أن يعلم أنها نعمة من الله هو يسرها و تفضل بها فلا يعجب بها و لا يضيفها إلى نفسه كأنه
الخالق لها و إذا عمل سيئة إستغفر و تاب منها و إذا أصابته مصيبة سماوية أو بفعل العباد يعلم أنها
كانت مقدره مقضية عليه و هذا مبسوط في موضعه و المراد هنا أنه سبحانه بين أنه إنما خلق
المخلوقات لحكمته و هذا معنى قوله بالحق و قد ذم من ظن أنه خلق ذلك باطلا و عبثا
فقال { أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ } المؤمنون 115 و قال { أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ

بُنْرَكَ سُدَى { القيامة 36 } و قال { إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ
لِّأُولِي الْأَبْصَارِ { 190 } الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ
وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ { 191 } آل عمران 190- 191 فلا بد من
جزاء العباد على أعمالهم فلهذا قيل { فَاصْفَحْ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ } الحجر 85 و لله سبحانه في كل ما
يخلقه حكمة يحبها و يرضاها و هو سبحانه أحسن كل شيء خلقه و أتقن كل ما صنع فما وقع من
الشر الموجود في المخلوقات فقد و وجد لأجل تلك الحكمة المطلوبة المحبوبة المرضية فهو من الله
حسن جميل و هو سبحانه محمود عليه و له الحمد على كل حال و إن كان شرا بالنسبة إلى بعض
الأشخاص و هذا موضوع عظيم قد بسط في غير هذا الموضوع فإن الناس في باب خلق الرب و
أمره و لم فعل ذلك على طرفين و وسط فالقدرية من المعتزلة و غيرهم قصدوا تعظيم الرب و تنزيهه
عما ظنوه قبيحا من الأفعال و ظلما فأنكروا عموم قدرته و مشيئته و لم يجعلوه خالقا لكل شيء و لا
أنه ما شاء كان و ما لم يشأ لم يكن بل قالوا يشاء ما لا يكون و يكون ما لا يشاء ثم إنهم وضعوا
لربهم شريعة فيما يجب عليه و يحرم بالقياس على أنفسهم و تكلموا في التعديل و التجويز بهذا القياس
الفاقد الذي شبهوا فيه الخالق بالمخلوق فضلوا و أضلوا و قابلهم الجهمية الغلاة في الجبر فأنكروا
حكمة الله و رحمته و قالوا لم يخلق لحكمة و لم يأمر بحكمة و ليس في القرآن لام كي لا في
خلقه و لا في أمره و زعموا أن قوله { وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ
{ الجاثية 13 } و { خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا { البقرة 29 } و قوله { لِيَجْزِيَ الَّذِينَ
أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى { النجم 31 } و قوله { وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ
عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ { البقرة 185 } و قوله { لِنَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ { النساء 165 }
و أمثال ذلك إنما اللام فيه لام العاقبة كقوله { فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا
{ القصص 8 } و قول القائل لدوا للموت و ابنوا للخراب و لم يعلموا أن لام العاقبة إنما تصح
ممن يكون جاهلا بعاقبة فعله كعجز بني آدم عن دفع الموت عن أنفسهم و الخراب عن ديارهم فأما من
عاجزا عن رد عاقبة فعله كعجز بني آدم عن دفع الموت عن أنفسهم و الخراب عن ديارهم فأما من
هو بكل شيء عليم و على كل شيء قدير و هو مرید لكل ما خلق فيمتنع في حقه لام العاقبة التي
تتضمن نفى العلم أو نفى القدرة و أنكر هؤلاء محبة الله و رضاه لبعض الموجودات دون بعض و
قالوا المحبة و الرضا هو من معنى الإردة و الله مرید لكل ما خلقه فهو راض بذلك محب له و زعموا
أن ما في القرآن من نفى حبه و رضاه بالكفر و المعاصي كقوله { وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ { البقرة 205 }
{ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ } الزمر 7 محمول على عباده الذين لم يقع ذلك منهم أو أنه لم يرد دينا
يثنى عليهم عليه و زعموا أن الله لا يحب و لا يرضى ما أمر به من العبادات إلا إذا وقع فيريده كما يريد
حينئذ ما وقع من الكفر و المعاصي إلى غير ذلك من قوالهم المبسوطة في غير هذا الموضوع و كثير
من المتأخرين يظن أن هذا قول أهل السنة و هذا مما لم يقله أحد من سلف الأمة و أنتمها بل جميع
مثبتة القدر المتقدمين كانوا يفرقون بين المحبة و الرضا و بين الإرادة و لكن أبو الحسن الأشعري
إتبع جهما في ذلك قال أبو المعالي الجويني و مما اختلف أهل الحق في إطلاقه و عدم إطلاقه
المحبة و الرضا فصار المتقدمون إلى أنه سبحانه لا يحب الكفر و لا يرضاه و كذلك كل معصية و
قال شيخنا أبو الحسن المحبة هي الإرادة نفسها و كذلك الرضا و الإصطفاء و هو سبحانه يريد الكفر
و يرضاه كفرا معاقبا عليه و هو كما قال أبو المعالي فإن المتقدمين من جميع أهل السنة على ما دل
عليه الكتاب و السنة من أنه سبحانه لا يرضى ما نهى عنه و لا يحبه و على ذلك قدماء أصحاب الأئمة
الأربعة أصحاب أبي حنيفة و مالك و الشافعي أحمد كأبي بكر عبدالعزيز و غيره من قدمائهم و لكن
من المتأخرين من سوى بين الجميع كما قاله أبو الحسن و هو في الأصل قول لجهم فهو الذي قال في

القدر بالجبر و بما يخالف أهل السنة وانكر رحمة الله تعالى و كان يخرج إلى الجذمي فيقول أرحم
 الراحمين يفعل هذا فنفي أن يكون الله أرحم الراحمين و قد قال الصادق المصدوق **الله أرحم بعباده**
 من الوالدة بولده و هذه مسائل عظيمة ليس هذا موضع بسطها و إنما المقصود هنا التنبيه على
 الجمل فإن كثيرا من الناس يقرأ كتبا مصنفة في أصول الدين و أصول الفقه بل في تفسير القرآن و
 الحديث و لا يجد فيها القول الموافق للكتاب و السنة الذي عليه سلف الأمة و أئمتها و هو الموافق
 لصحيح المنقول و صريح المعقول بل يجد أقوالا كل منها فيه نوع من الفساد و التناقض فيحار ما
 الذي يؤمن به في هذا الباب و ما الذي جاء به الرسول و ما هو الحق و الصدق إذ لم يجد في تلك
 الأقول ما يحصل به ذلك و إنما الهدى فيما جاء به الرسول الذي قال الله فيه **{وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ
 مُسْتَقِيمٍ {52} صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ {53}**
 الشورى 52-53¹

أن الله لم يخلق شيئا ما إلا لحكمة

قال تعالى **{خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ تَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ {3} خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ
 خَصِيمٌ مُبِينٌ {4} وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ {5} وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ
 تُرْيَحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ {6} وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بِالْغَيْهِ إِلَّا لِيَسِقَ الْأَنْفُسَ إِنَّ رَبَّكُمْ
 لَرَوُوفٌ رَحِيمٌ {7} وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ {8} النحل 3-4 و**
 العدم المحض ليس بشيء حتى يضاف إلى الله تعالى و أما إن كان الشيء موجودا كالألم و سبب الألم
 فينبغي أن يعرف أن الشر الموجود ليس شرا على الإطلاق و لا شرا محضا و إنما هو شر في حق
 من تألم به و قد تكون مصائب قوم عند قوم فوائد و لهذا جاء في الحديث الذي روينا مسلسلا
 آمنت بالقدر خيره و شره و حلوه و مره و في الحديث الذي رواه أبو داود لو أنفقت ملء
 الأرض ذهبا لما قبله منك حتى تؤمن بالقدر خيره و شره و تعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك و ما
 أخطأك لم يكن ليصيبك فالخير و الشر هما بحسب العبد المضاف إليه كالحلو و المر سواء و ذلك
 ان من لم يتألم بالشيء ليس في حقه شرا و من تتعم به فهو في حقه خير كما كان النبي صلى الله عليه
 و سلم يعلم من قص عليه أخوه رؤيا أن يقول **خيرا تلقاه و شرا توقاه خيرا لنا و شرا لأعدائنا**
 فإنه إذا أصاب العبد شر سر قلب عدوه فهو خير لهذا و شر لهذا و من لم يكن له وليا ولا عدوا فليس
 في حقه لا خيرا و لا شرا و ليس في مخلوقات الله ما يؤلم الخلق كلهم دائما و لا ما يؤلم جمهورهم
 دائما بل مخلوقاته إما منعمة لهم أو لجمهورهم في أغلب الأوقات كالشمس و العافية فلم يكن في
 الموجودات التي خلقها الله ما هو شر مطلقا عاما فعلم أن الشر المخلوق الموجود شر مقيد خاص
 و فيه وجه آخر هو به خير و حسن و هو أغلب وجهيه كما قال تعالى **{ أَحْسَنَ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ
 {السجدة 7} و قال تعالى {صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي أَتَقَنَ كُلَّ شَيْءٍ {النمل 88} و قال تعالى {وَمَا خَلَقْنَا
 السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ {الحجر 85} و قال { وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ
 وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا {آل عمران 191} و قد علم المسلمون أن الله لم يخلق شيئا ما إلا**

¹مجموع الفتاوى ج: 17 ص: 98-102

لحكمة فتلك الحكمة وجه حسنه و خيره و لا يكون في المخلوقات شر محض لا خير فيه و لا فائدة فيه بوجه من الوجوه و بهذا يظهر معنى قوله و الشر ليس إليك¹

والله تعالى ذكر في سورة النحل انعامه على عباده فذكر في أول السورة أصول النعم التي لا يعيش بنو آدم إلا بها وذكر في أثنائها تمام النعم التي لا يطيب عيشهم إلا بها فذكر في أولها الرزق الذي لا بد لهم منه وذكر ما يدفع البرد من الكسوة بقوله {وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ} النحل² 5

{وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ}

أن الله سمى نفسه وصفاته بأسماء وسمى بعض عباده وصفات عباده بأسماء هي في حقهم نظير تلك الأسماء في حقه سبحانه وتعالى فسمى نفسه رؤوفا رحيفا بقوله {وَتَحْمِلُ أُنْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بِالْغَيْهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرُؤُوفٌ رَّحِيمٌ} النحل⁷ وسمى بعض عباده رؤوفا رحيفا بقوله {لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ} التوبة¹²⁸ وليس الرؤوف كالرؤوف ولا الرحيم كالرحيم وليس هو في ذلك مماثلا لخالقه³

إذا ذكر حكمة للفعل لم يلزم أن لا تكون له حكمة أخرى

قال تعالى { وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ } 5 { وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ } 6 { وَتَحْمِلُ أُنْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بِالْغَيْهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرُؤُوفٌ رَّحِيمٌ } 7 { وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ } 8 { النحل 5-8 } ومعلوم أن في هذه الدواب منافع غير الركوب وذلك لا يقتضي أنه إلا لهذا بل مثل هذا كثير معروف في لسان العرب وغيرهم وفي ذلك حكم أخرى ومثل ذلك كثير في كلام الله عز وجل وغير كلام الله إذا ذكر حكمة للفعل لم يلزم أن لا تكون له حكمة أخرى لكن لا بد لتخصيص تلك الحكمة بالذكر في ذلك الموضوع من مناسبته وهذا كالمناسبة في قوله {لِنُنذِرَ قَوْمًا مَّا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ} 6 { سورة يس الآية 6 } فإن هؤلاء كانوا أول المنذرين وأحقهم بالإنذار فكان في تخصيصهم بالذكر فائدة لا أنه خصهم لانتهاء إنذار من سواهم⁴

¹مجموع الفتاوى ج: 14 ص: 20- 21

²مجموع الفتاوى ج: 12 ص: 256

³الجواب الصحيح ج: 4 ص: 423

⁴الجواب الصحيح ج: 1 ص: 429

سنة رسول الله أنه يطعم ما يجده في أرضه ويلبس ما يجده ويركب ما يجده

قال تعالى { وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ } {5} وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ } {6} وَتَحْمِلُ أَوْفَاقَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بِالْغَيْهِ إِلَّا بِشِيقِ الْأَنْفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَوُوفٌ رَّحِيمٌ } {7} وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ } {8} النحل 5-8 كان الصحابة رضوان الله عليهم يركبونها وامتن الله عليهم بذلك في قوله تعالى **{ وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا } النحل 8** وكان للنبي بغلة يركبها وروي عنه أنه ركب الحمار¹

قوله { وَتَحْمِلُ أَوْفَاقَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بِالْغَيْهِ إِلَّا بِشِيقِ الْأَنْفُسِ } النحل 7 ليس المراد ما كنتم بالغيه في الماضي بل هذه حالهم دائماً²

أن ما خلقه الله في سائر الأرض من القوت واللباس والمراكب والمسكن لم يكن كل نوع منه كان موجودا في الحجاز فلم يأكل النبي من كل نوع من أنواع الطعام القوت والفاكهة ولا لبس من كل نوع من أنواع اللباس ثم ان من كان من المسلمين بأرض أخرى كالشام ومصر والعراق واليمن وخراسان وأرمينية وأذربيجان والمغرب وغير ذلك عندهم أطعمة وثياب مجلوبة عندهم أو مجلوبة من مكان آخر فليس لهم أن يظنوا ترك الانتفاع بذلك الطعام واللباس سنة لكون النبي لم يأكل مثله ولم يلبس مثله إذ عدم الفعل إنما هو عدم دليل واحد من الأدلة الشرعية وهو أضعف من القول باتفاق العلماء وسائر الأدلة من أقواله كأمره ونهيه وإذنه من قول الله تعالى هي أقوى وأكبر ولا يلزم من عدم دليل معين عدم سائر الأدلة الشرعية وكذلك إجماع الصحابة أيضا من أقوى الأدلة الشرعية فنفى الحكم بالاستحباب لانتهاء دليل معين من غير تأمل باقي الأدلة خطأ عظيم فان الله يقول { وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا } فصلت 10 وقال تعالى { هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا } البقرة 29 وقال تعالى { وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ } الجاثية 13 وقال تعالى **{ وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ } النحل 8** ولم تكن البغال موجودة بأرض العرب ولم يركب النبي بغلة إلا البغلة التي أهداها له المقوقس من أرض مصر بعد صلح الحديبية وهذه الآية نزلت بمكة ومثلها في القرآن يمتن الله على عباده بنعمه التي لم تكن بأرض الحجاز كقوله تعالى { فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ } {24} أَنَا صَبَّبْنَا الْمَاءَ صَبًّا } {25} ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا } {26} فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا } {27} وَعِنْبًا وَقَضْبًا } {28} وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا } {29} وَحَدَائِقَ غُلْبًا } {30} وَفَاكِهَةً وَأَبًّا } {31} عبس 24-31 ولم يكن بأرض الحجاز زيتون ولا نقل عن النبي أنه أكل زيتونا ولكن لعل الزيت كان يجلب إليهم وقد قال تعالى { وَالنَّيْنِ وَالزَّيْتُونِ } التين 1 ولم يكن بأرضهم لا هذا ولا هذا ولا نقل عن النبي أنه أكل منهما وكذلك قوله { وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سَيْنَاءَ تَنْبُتُ بِالذَّهْنِ وَصَبِغٍ لِلْأَكْلِينَ } المؤمنون 20 وقد قال النبي كلوا الزيت وادهنوا به فانه من شجرة مباركة وقال تعالى { الزَّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ } النور 35 وكذلك قوله { وَحَدَائِقِ غُلْبًا } عبس 30 وكذلك قوله في البحر { لِتَأْكُلُوا مِنْهُ

¹مجموع الفتاوى ج: 21 ص: 521

²مجموع الفتاوى ج: 16 ص: 510

لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَحْرُجُوا مِنْهُ حَلِيَّةً تَلْبَسُونَهَا { النحل 14 } وَقَوْلُهُ { وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ } { 12 } لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ } { 13 } وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ } { 14 } { الزخرف 12-14 } ولم يركب النبي البحر ولا أبو بكر ولا عمر وقد أخبر بمن يركب البحر من أمته غزاة في سبيل الله كأنهم ملوك على الأسرة لأمر حرام بنت ملحان وقالت ادع الله أن يجعلني منهم فقال أنت منهم وكانت سنة رسول الله أنه يطعم ما يجده في أرضه ويلبس ما يجده ويركب ما يجده مما أباحه الله تعالى فمن استعمل ما يجده في أرضه فهو المتبع للسنة كما أنه حج البيت من مدينته فمن حج البيت من مدينة نفسه فهو المتبع للسنة وإن لم تكن هذه المدينة تلك وكان يجاهد من يليه من الكفار من المشركين وأهل الكتاب فمن جاهد من يليه من هؤلاء فقد اتبع السنة وإن كان نوع هؤلاء غير نوع أولئك إذ أولئك كان غالبهم عرباً ولهم نوع من الشرك هم عليه فمن جاهد سائر المشركين تركهم وهداهم وغيرهم فقد فعل ما أمر الله به وإن كانت أصنامهم ليست تلك الأصنام ومن جاهد اليهود والنصارى فقد اتبع السنة وإن كان هؤلاء اليهود والنصارى من نوع آخر غير النوع الذي جاهدهم النبي فإنه جاهد يهود المدينة كقريظة والنضير وبنو قينقاع ويهود خيبر وضرب الجزية على نصارى نجران وغزى نصارى الشام عربها ورومها عام تبوك ولم يكن فيها قتال وأرسل إليهم زيدا وجعفرًا وعبد الله بن رواحة قاتلوهم في غزوة مؤتة وقال أميركم زيد فان قتل فجعفر فان قتل فعبد الله بن رواحة وصالح أهل البحرين وكانوا مجوساً على الجزية وهم أهل هجر وفي الصحيح أنه قدم مال البحرين فجعله في المسجد وما ثاب حتى قسمه وهذا باب واسع قد بسطناه في غير هذا الموضع وميزنا بين السنة والبدعة وبيننا أن السنة هي ما قام الدليل الشرعي عليه بأنه طاعة لله ورسوله سواء فعله رسول الله أو فعل على زمانه أو لم يفعله ولم يفعل على زمانه لعدم مقتضى حينئذ لفعله أو وجود المانع منه فإنه إذا ثبت أنه أمر به أو استحبه فهو سنة كما أمر باجلاء اليهود والنصارى من جزيرة العرب وكما جمع الصحابة القرآن في المصحف وكما داوموا على قيام رمضان في المسجد جماعة¹

السبيل العادلة

قال تعالى { **وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِزٌ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ** } { النحل 9 } وقال الأصمعي إشتد بالشين المعجمة ليس بشيء و تعبيرهم عن السيد بالقصد يدل على أن لفظ القصد فيه معنى الجمع والقوة والقصد العدل كما أنه السداد والصواب وهو المطابق الموافق الذي لا يزيد ولا ينقص وهذا هو الجامع المطابق ومنه قوله تعالى { **وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ** } { النحل 9 } أي القصد وهو السبيل العدل أي إليه تنتهي السبيل العادلة كما قال تعالى { **إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى** } { الليل 12 } أي الهدى إلينا هذا أصح الأقوال في الآيتين وكذلك قوله تعالى { **قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ** } { المستقيم } { الحجر 41 }²

¹مجموع الفتاوى ج: 21 ص: 315-318

²مجموع الفتاوى ج: 17 ص: 231

وقال تعالى {قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ} المائدة 77 أي وسط الطريق وهي السبيل القصد الذي قال الله فيها {وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ} النحل 9 وهي الصراط المستقيم¹

الصراط المستقيم هو الذي ينالون به ولاية الله

في آيات ثلاثة متناسبة متشابهة اللفظ والمعنى يخفى معناها على أكثر الناس قوله تعالى { قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ } {41} إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنْ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ } {42} الحجر 41-42 وقوله تعالى {وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِزٌ} النحل 9 وقوله تعالى { إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى } {12} وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَى } {13} الليل 12-13 فلفظ هذه الآيات فيه أن السبيل الهادي هو على الله وقد ذكر أبو الفرج بن الجوزي في الآية الأولى ثلاثة أقوال بخلاف الآيتين الأخرتين فإنه لم يذكر فيها إلا قولاً واحداً فقال في تلك الآية اختلفوا في معنى هذا الكلام على ثلاثة أقوال أحدها أنه يعني بقوله هذا الإخلاص فالمعنى أن الإخلاص طريق إلى مستقيم و على بمعنى إلى و الثاني هذا طريق على جوازه لأنه بالمرصاد فأجازيهم بأعمالهم وهو خارج مخرج الوعيد كما تقول للرجل تخاصمه طريقك على فهو كقوله {إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ} الفجر 14 و الثالث هذا صراط على إستقامته أي أنا ضامن لإستقامته بالبيان والبرهان قال وقرأ قتادة ويعقوب هذا صراط على أي رفيع قلت هذه الأقوال الثلاثة قد ذكرها من قبله كالثعلبي والواحدي والبغوي وذكروا قولاً رابعاً فقالوا واللفظ للبغوي وهو مختصر الثعلبي قال الحسن معناه صراط مستقيم وقال مجاهد الحق يرجع إلى وعليه طريقه لا يعرج على شيء وقال الأخفش يعني على الدلالة على الصراط المستقيم وقال الكسائي هذا على التهديد والوعيد كما يقول الرجل لمن يخاصمه طريقك على أي لا تفلت مني كما قال تعالى {إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ} الفجر 14 وقيل معناه على إستقامته بالبيان والبرهان والتوفيق والهداية فذكروا الأقوال الثلاثة وذكروا قول الأخفش على الدلالة على الصراط المستقيم وهو يشبه القول الأخير لكن بينهما فرق فإن ذلك يقول على إستقامته الأدلة فمن سلكه كان على صراط مستقيم والآخر يقول على أن أدل الخلق عليه بإقامة الحجج ففي كلا القولين أنه بين الصراط المستقيم بنصب الأدلة لكن هذا جعل الدلالة عليه وهذا جعل عليه إستقامته أي بيان إستقامته وهما متلازمان ولهذا والله أعلم لم يجعله أبو الفرج قولاً رابعاً وذكروا القراءة الأخرى عن يعقوب وغيره أي رفيع قال البغوي وعبر بعضهم عنه رفيع أن ينال مستقيم أن يمال قلت القول الصواب هو قول أئمة السلف قول مجاهد ونحوه فإنهم أعلم بمعاني القرآن لا سيما مجاهد فإنه قال عرضت المصحف على ابن عباس من فاتته إلى خاتمة أقفه عند كل آية وأسأله عنها وقال الثوري إذا جاءك التفسير عن مجاهد فحسبك به والأئمة كالشافعي وأحمد والبخاري ونحوهم يعتمدون على تفسيره والبخاري في صحيحه أكثر ما ينقله من التفسير ينقله عنه والحسن البصري أعلم التابعين بالصرة وما ذكروه عن مجاهد

¹ منهاج السنة النبوية ج: 5 ص: 330

ثابت عنه رواه الناس كابن أبي حاتم وغيره من تفسير ورقاء عن ابن أبي نجيح عن مجاهد في قوله { هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ } {41} الحجر 41 الحق يرجع إلى الله وعليه طريقه لا يعرج على شيء وذكر عن قتادة أنه فسرها على قراءته وهو يقرأ على فقال فقال أي رفيع مستقيم وكذلك ذكر ابن أبي حاتم عن السلف أنهم فسروا آية النحل فروى من طريق ورقاء عن ابن أبي نجيح عن مجاهد قوله { قَصْدُ السَّبِيلِ } {النحل9} قال طريق الحق على الله وروى عن السدي انه قال الإسلام وعطاء قال هي طريق الجنة فهذه الأقوال قول مجاهد والسدي وعطاء في هذه الآية هي مثل مجاهد والحسن في تلك الآية وذكر ابن أبي حاتم من تفسير العوفي عن ابن عباس في قوله {وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ } {النحل9} يقول على الله البيان أن يبين الهدى والضلالة وذكر ابن أبي حاتم في هذه الآية ولم يذكر في آية الحجر إلا قول مجاهد فقط وابن الجوزي لم يذكر في آية النحل إلا هذا القول الثاني وذكره عن الزجاج فقال {وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ } {النحل9} القصد استقامة الطريق يقال طريق قصد وقاصد إذا قصد بك إلى ما تريد قال الزجاج المعنى وعلى الله تبين الطريق المستقيم والدعاء إليه بالحجج والبراهين وكذلك الثعلبي والبغوي ونحوهما لم يذكروا إلا هذا القول لكن ذكروه باللفظين قال البغوي يعني بيان طريق الهدى من الضلالة وقيل بيان الحق بالآيات والبراهين قال والقصد الصراط المستقيم {وَمِنْهَا جَائِرٌ } {النحل9} يعني ومن السبيل ما هو جائر عن الاستقامة معوج فالقصد من السبيل دين الإسلام والجائر منها اليهودية والنصرانية وسائر ملل الكفر قال جابر بن عبدالله { قَصْدُ السَّبِيلِ } {النحل9} بيان الشرائع والفرائض وقال عبدالله بن المبارك وسهل بن عبدالله قصد السبيل السنة ومنها جائر الأهواء والبدع دليله قوله تعالى {وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ } {الأنعام153} ولكن البغوي ذكر فيها القول الآخر ذكره في تفسير قوله تعالى {إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى } {الليل12} عن الفراء كما سيأتي فقد ذكر القولين في الآيات الثلاث تبعا لما قبله كالثعلبي وغيره والمهدى ذكر في الآية الأولى قولين من الثلاثة وذكر في الثانية ما رواه العوفي وقولا آخر فقال قوله { هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ } {الحجر41} أي على أمرى وإرادتى وقيل هو على التهديد كما يقال على طريقك وإلى مصيرك وقال في قوله {وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ } {النحل9} قال ابن عباس أي بيان الهدى من الضلال وقيل السبيل الإسلام {وَمِنْهَا جَائِرٌ } {النحل9} أي ومن السبيل جائر أي عادل عن الحق وقيل المعنى وعنها جائر أي عن السبيل ف من بمعنى عن وقيل معنى { قَصْدُ السَّبِيلِ } {النحل9} سيركم ورجوعكم والسبيل واحدة بمعنى الجمع قلت هذا قول بعض المتأخرين جعل القصد بمعنى الإرادة أي عليه قصدكم للسبيل في ذهابكم ورجوعكم وهو كلام من لم يفهم الآية فإن السبيل القصد هي السبيل العادلة أي عليه السبيل القصد و السبيل إسم جنس ولهذا قال { وَمِنْهَا جَائِرٌ } {النحل9} أي عليه القصد من السبيل ومن السبيل جائر فأضافه إلى إسم الجنس إضافة النوع إلى الجنس أي القصد من السبيل كما تقول ثوب خز ولهذا قال { قَصْدُ السَّبِيلِ } {النحل9} وأما من ظن أن التقدير قصدكم السبيل فهذا لا يطابق لفظ الآية ونظمها من وجوه متعددة وابن عطية لم يذكر في آية الحجر إلا قول الكسائي وهو أضعف الأقوال وذكر المعنى الصحيح تفسيراً للقراءة الأخرى فذكر أن جماعة من السلف قرأوا على مستقيم من العلو والرفعة قال والإشارة بهذا على هذه القراءة إلى الإخلاص لما إستثنى إبليس من أخلص قال الله له هذا الإخلاص طريق رفيع مستقيم لا تتال أنت بأغوائك أهله قال وقرأ جمهور الناس على مستقيم والإشارة بهذا على هذه القراءة إلى إنقسام الناس إلى غاو ومخلص لما قسم إبليس هذين القسمين قال الله هذا طريق على أي هذا أمر إلى مصيره والعرب تقول طريقك في هذا الأمر على فلان أي إليه يصير النظر في أمرك وهذا نحو قوله {إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ } {الفجر14}

قال والآية على هذه القراءة خبر يتضمن وعيدا قلت هذا قول لم ينقل عن احد من علماء التفسير لا في هذه الآية ولا في نظيرها وإنما قاله الكسائي لما اشكل لما أشكل عليه معنى الآية الذي فهمه السلف ودل عليه السياق والنظائر وكلام العرب لا يدل على هذا القول فإن الرجل وإن كان يقول لمن يتهدده ويتوعده على طريقك فإنه لا يقول إن طريقك مستقيم وأيضا فالوعيد إنما يكون للمسيء لا يكون للمخلصين فكيف يكون قوله هذا إشارة إلى إنقسام الناس إلى غاو ومخلص وطريق هؤلاء غير طريق هؤلاء هؤلاء سلكوا الطريق المستقيم التي تدل على الله وهؤلاء سلكوا السبيل الجائرة وأيضا فإنما يقول لغيره في التهديد طريقك على من لا يقدر عليه في الحال لكن ذلك يمر بنفسه عليه وهو متمكن منه كما كان أهل المدينة يتوعدون أهل مكة بأن طريقكم علينا لما تهددوهم بأنكم أويتم محمدا وأصحابه كما قال أبو جهل لسعد بن معاذ لما ذهب سعد إلى مكة لا أراك تطوف بالبيت آمنا وقد أويتم الصباة وزعمتم أنكم تنصرونهم فقال لئن منعنى هذا لأمنعك ما هو أشد عليك منه طريقك على المدينة أو نحو هذا فذكر أن طريقهم في متجرهم إلى الشام عليهم فيتمكنون حينئذ من جزائهم ومثل هذا المعنى لا يقال في حق الله تعالى فإن الله قادر على العباد حيث كانوا كما قالت الجن {وَأَنَا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ نُعْجِزَ اللَّهَ فِي الْأَرْضِ وَلَنْ نُعْجِزَهُ هَرَبًا} الجن 12 وقال {وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ} الشورى 31 وإذا كانت العرب تقول ما ذكره يقولون طريقك في هذا الأمر على فلان أى إليه يصير أمرك فهذا يطابق تفسير مجاهد وغيره من السلف كما قال مجاهد الحق يرجع إلى الله وعليه طريقه لا يعرج على شىء فطريق الحق على الله وهو الصراط المستقيم الذى قال الله فيه { هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ } الحجر 41 كما فسرت به القراءة الأخرى فالصراط فى القرانين هذا الصراط المستقيم الذى أمر الله المؤمنين أن يسألوه إياه فى صلاتهم فيقولوا {اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ} {6} صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ} {7} الفاتحة 6-7 وهو الذى وصى به فى قوله {وَأَنْ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ} الأنعام 153 وقوله هذا إشارة إلى ما تقدم ذكره وقوله {إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلِصِينَ} الحجر 40 فتعبد العباد له بإخلاص الدين له طريق يدل عليه وهو طريق مستقيم ولهذا قال بعده {إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ} الحجر 42 وابن عطية ذكر أن هذا معنى الآية فى تفسير الآية الأخرى مستشهدا به مع أنه لم يذكره فى تفسيرها فهو بفطرته عرف أن هذا معنى الآية ولكنه لما فسرها ذكر ذلك القول كأنه هو الذى إتفق أن رأى غيره قد قاله هناك فقال رحمه الله وقوله {وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِرٌ} النحل 9 وهذه أيضا من أجل نعم الله تعالى أى على الله تقويم طريق الهدى وتنبية ذلك بنصب الأدلة وبعث الرسل وإلى هذا ذهب المتأولون قال ويحتمل أن يكون المعنى أن من سلك السبيل القاصد فعلى الله طريقه وإلى ذلك مصيره فيكون هذا مثل قوله { هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ } الحجر 41 و ضد قول النبي والشر ليس إليك أى لا يفضى إلى رحمتك وطريق إلى رحمتك وطريق قاصد معناه بين مستقيم قريب ومنه قول الراجز بعيد عن نهج الطريق القاصد قال والألف واللام فى السبيل للعهد وهى سبيل الشرع وليست للجنس ولو كانت للجنس لم يكن منها جائر وقوله {وَمِنْهَا جَائِرٌ} النحل 9 يريد طريق اليهود والنصارى وغيرهم كعباد الأصنام والضمير فى {وَمِنْهَا} النحل 9 يعود على {السَّبِيلِ} النحل 9 التى يتضمنها معنى الآية كأنه قال ومن السبيل جائر فأعاد عليها وإن كان لم يجز لها ذكر لتضمن لفظه السبيل بالمعنى لها قال ويحتمل أن يكون الضمير فى {وَمِنْهَا} النحل 9 على سبيل الشرع المذكورة ويكون من للتبعيض ويكون المراد فرق الضلالة من امة محمد كأنه قال ومن بنيات الطريق من هذه السبيل ومن شعبها جائر قلت سبيل أهل البدع جائزة خارجة عن الصراط المستقيم فيما ابتدعوا فيه ولا

يقال إن ذلك من السبيل المشروعة وأما قوله إن قوله { قَصْدُ السَّبِيلِ } النحل 9 هي سبيل الشرع وهي سبيل الهدى والصرط المستقيم وأنها لو كانت للجنس لم يكن منها جائر فهذا أحد الوجهين في دلالة الآية وهو مرجوح والصحيح الوجه الآخر أن السبيل اسم جنس ولكن الذي على الله هو القصد منها وهي سبيل واحد ولما كان جنسا قال { وَمِنْهَا جَائِرٌ } النحل 9 والضمير يعود على ما ذكر بلا تكلف وقوله لو كان للجنس لم يكن منها جائر ليس كذلك فإنها ليست كلها عليه بل إنما عليه القصد عليها وهي سبيل الهدى والجائر ليس من القصد وكأنه ظن أنه إذا كانت للجنس يكون عليه قصد كل سبيل وليس كذلك بل إنما عليه سبيل واحدة وهي الصراط المستقيم هي التي تدل عليه وسائرهما سبل الشيطان كما قال { وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ } الأنعام 153 وقد أحسن رحمه الله في هذا الإحتمال وفي تمثيله ذلك بقوله { هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ } الحجر 41 وأما آية الليل قوله { إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى } الليل 12 فابن عطية مثلها بهذه الآية لكنه فسرها بالوجه الأول فقال ثم أخبر تعالى أن عليه هدى الناس جميعا أي تعريفهم بالسبل كلها ومنهم الإدراك ومنهم الإدراك كما قال { وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ } النحل 9 ثم كل أحد يتكسب ما قدر له وليست هذه الهداية بالإرشاد إلى الإيمان ولو كان كذلك لم يوجد كافر قلت وهذا هو الذي ذكره ابن الجوزي وذكره عن الزجاج قال الزجاج إن علينا أن نبين طريق الهدى من طريق الضلال وهذا التفسير ثابت عن قتادة رواه ابن عبد الحميد قال حدثنا يونس عن شيبان عن قتادة { إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى } الليل 12 علينا بيان حاله وحرامه وطاعته ومعصيته وكذلك رواه ابن أبي حاتم في تفسير سعيد عن قتادة في قوله { إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى } الليل 12 يقول على الله البيان بيان حاله وحرامه وطاعته ومعصيته لكن قتادة ذكر أنه البيان الذي أرسل الله به رسله وأنزل به كتبه فتبين به حاله وحرامه وطاعته ومعصيته وأما الثعلبي والواحدى والبعوى وغيرهم فذكروا القولين وزادوا أقوالا أخر فقالوا واللفظ للبعوى { إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى } الليل 12 يعنى البيان قال الزجاج علينا أن نبين طريق الهدى من طريق الضلالة وهو قوله قتادة قال على الله بين حاله وحرامه وقال الفراء يعنى من سلك الهدى فعلى الله سبيله كقوله تعالى { وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ } النحل 9 يقول من أراد الله فهو على السبيل القاصد قال وقيل معناه إن علينا للهدى والإضلال كقوله بيدك الخير قلت هذا القول هو من الأقوال المحدثه التي لم تعرف عن السلف وكذلك ما أشبهه فإنهم قالوا معناه بيدك الخير والشر والنبى فى الحديث الصحيح يقول والخير بيدك والشر ليس إليك والله تعالى خالق كل شيء لا يكون فى ملكه إلا ما يشاء والقدر حق لكن فهم القرآن ووضع كل شىء موضعه وبيان حكمة الرب وعدله مع الإيمان بالفقر هو طريق الصحابة والتابعين لهم بإحسان وقد ذكر المهودى الأقوال الثلاثة فقال إن علينا لله للهدى والضلال فحذف قتادة المعنى إن علينا بيان الحلال والحرام وقيل المعنى إن علينا أن نهدي من سلك سبيل الهدى قلت هذا هو قول الفراء لكن عبارة الفراء أبين فى معرفة هذا القول فقد تبين أن جمهور المتقدمين فسروا الآيات الثلاث بأن الطريق المستقيم لا يدل إلا على الله ومنهم من فسرها بأن عليه بيان الطريق المستقيم والمعنى الأول متفق عليه بين المسلمين وأما الثانى فقد يقول طائفة ليس على الله شىء لا بيان هذا ولا هذا فإنهم متنازعون هل أوجب على نفسه كما قال { كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ } الأنعام 54 وقوله { وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ } الروم 47 وقوله { وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا } هود 6 وإذا كان عليه بيان الهدى من الضلال وبيان حاله وحرامه وطاعته ومعصيته فهذا يوافق قول من يقول إن عليه إرسال الرسل وإن ذلك واجب عليه فإن البيان لا يحصل إلا بهذا وهذا يتعلق بأصل آخر وهو أن كل ما فعله فهو واجب منه أوجبته مشيئته وأنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن فما شاءه وجب وجوده وما لم يشأه إمتنع وجوده وبسط هذا موضع آخر

ودلالة الآيات على هذا فيها نظر وأما المعنى المتفق عليه فهو مراد من الآيات الثلاث قطعاً وأنه أرشد بها إلى الطريق المستقيم وهي الطريق القصد وهي الهدى إنما تدل عليه وهو الحق طريقه على الله لا يعرج عنه لكن نشأت الشبهة من كونه قال { عَلَيْنَا } الليل 12 بحرف الإستعلاء ولم يقل إلينا والمعروف أن يقال لمن يشار إليه أن يقال هذه الطريق إلى فلان ولمن يمر به ويجتاز عليه أن يقول طريقنا على فلان وذكر هذا المعنى بحرف الإستعلاء وهو من محاسن القرآن الذي لا تنقضى عجائبه ولا يشبع منه العلماء فإن الخلق كلهم مصيرهم ومرجعهم إلى الله على أى طريق سلكوا كما قال تعالى { يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ } الانشقاق 6 وقال { وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ } آل عمران 28 { إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ } الغاشية 25 أي إلينا مرجعهم وقال { وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰ أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ } {60} وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمْ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفِرُّونَ } {61} ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمْ الْحَقَّ } {62} الأنعام 60-62 وقال { أَمْ لَمْ يُنَبِّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ } {36} وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى } {37} أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ } {38} وَأَنْ لَّيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ } {39} وَأَنْ سَعِيَهُ سَوْفَ يَرَىٰ } {40} ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَىٰ } {41} وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنتَهَىٰ } {42} النجم 36-42 وقال { وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ } يونس 46 فأي سبيل سلكها العبد فإلى الله مرجعه ومنتهاه لا بد له من لقاء الله { لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى } النجم 31 وتلك الآيات قصد بها أن سبيل الحق والهدى وهو الصراط المستقيم هو الذي يسعد أصحابه وينالون به ولاية الله ورحمته وكرامته فيكون الله وليهم دون الشيطان وهذه سبيل من عبادة الله وحده وأطاع رسله فلماذا قال { إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ } الليل 12 { وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ } النحل 9 { قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ } الحجر 41 فالهدى وقصد السبيل والصراط المستقيم إنما يدل على عبادته وطاعته لا يدل على معصيته وطاعة الشيطان فالكلام تضمن معنى الدلالة إذ ليس المراد ذكر الجزاء في الآخرة فإن الجزاء يعم الخلق كلهم بل المقصود بيان ما أمر الله به من عبادته وطاعته وطاعة رسله ما الذي يدل على ذلك فكأنه قيل الصراط المستقيم يدل على الله على عبادته وطاعته وذلك يبين أن من لغة العرب أنهم يقولون هذه الطريق على فلان إذا كانت تدل عليه وكان هو الغاية المقصود بها وهذا غير كونها عليه بمعنى أن صاحبها يمر عليه وقد قيل فهن المنايا أى واد سلكته عليها طريقى أو على طريقها وهو كما قال الفراء من سلك الهدى فعلى الله سبيله فالمقصود بالسبيل هو الذي يدل ويوقع عليه كما يقال إن سلكت هذه السبيل وقعت على المقصود ونحو ذلك وكما يقال على الخير سقطت فإن الغاية المطلوبة إذا كانت عظيمة فالسالك يقع عليها ويرمى نفسه عليها وأيضاً فسالك طريق الله متوكل عليه فلا بد له من عبادته ومن التوكل عليه فإذا قيل عليه الطريق المستقيم تضمن أن سالكه عليه يتوكل وعليه تدل الطريق وعلى عبادته وطاعته يقع ويسقط لا يعدل عن ذلك إلى نحو ذلك من المعانى التى يدل عليها حرف الإستعلاء دون حرف الغاية وهو سبحانه قد أخبر أنه على صراط مستقيم فعليه الصراط المستقيم وهو على صراط مستقيم سبحانه وتعالى عما يقول الظالمون علواً كبيراً والله أعلم¹

¹دقائق التفسير ج: 3 ص: 142 153 و مجموع الفتاوى ج: 15 ص: 198-216

ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن

قال تعالى {وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِرٌ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ} النحل 9 اتفق المسلمون وسائر أهل الملل على أن الله على كل شيء قدير كما نطق بذلك القرآن أى فى مواضع كثيرة جدا وأن الشيء إسم لما يوجد فى الأعيان ولما يتصور فى الأذهان فما قدره الله وعلم أنه سيكون هو شيء فى التقدير والعلم والكتاب وأن لم يكن شيئاً فى الخارج ومنه قوله {إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ} يس 82 ولفظ الشيء فى الآية يتناول هذا وهذا فهو على كل شيء ما وجد و كل ماتصوره الذهن موجودا إن تصور أن يكون موجودا قدير لا يستثنى من ذلك شيء ولا يزداد عليه شيء كما قال تعالى {بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أَنْ نَسُوِيَ بِنَانَهُ} القيامة 4 وقال {وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَاهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لِقَادِرُونَ} المؤمنون 18 قال المفسرون لقادرون على أن نذهب به حتى تموتوا عطشا و تهلك مواشيكم وتخرب أراضيكم و معلوم أنه لم يذهب به و هذا كقوله {أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ} الواقعة 68 إلى قوله {وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ} الواقعة 82 وهذا يدل على أنه قادر على ما لا يفعله فإنه أخبر أنه لو شاء جعل الماء أجاجا وهو لم يفعله ومثل هذا {وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا} السجدة 13 {وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مِنَ فِي الْأَرْضِ} يونس 99 {وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَفْتَنَلُوا} البقرة 253 فإنه أخبر فى غير موضع أنه لو شاء لفعل أشياء وهو لم يفعلها فلو لم يكن قادرا عليها لكان إذا شاءها لم يمكن فعلها¹

كل ما كان بعد عدمه فانما يكون بمشيئة الله وقدرته وهو سبحانه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن فما شاء وجب كونه وهو تحت مشيئة الرب وقدرته وما لم يشأ امتنع كونه مع قدرته عليه كما قال تعالى {وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا} السجدة 13 {وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَفْتَنَلْنَا مِنَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مَنْ بَعْدَ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنْ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَفْتَنَلُوا وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ} البقرة 253 {وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ} النحل 9 فكون الشيء واجب الوقوع لكونه قد سبق به القضاء على انه لا بد من كونه لا يمتنع ان يكون واقعا بمشيئته وقدرته و ارادته وان كانت من لوازم ذاته كحياته وعلمه فان ارادته للمستقبلات هى مسبوقه بارادته للماضى {إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ} يس 82 وهو انما أراد هذا الثانى بعد أن أراد قبله ما يقتضى ارادته فكان حصول الارادة اللاحقة بالارادة السابقة²

أضاف الله كثيرا من الحوادث إليه وأضافه إلى بعض مخلوقاته

وأما على قول جمهور أهل السنة الذين يقولون إنها مفعولة للرب لا فعل له إذا فعله ما قام به والفعل عندهم غير المفعول فيقولون إنها مفعولة للرب لا فعل له وإنما فعل للعبد كما يقولون فى قدرة

¹مجموع الفتاوى ج: 8 ص: 9-10

²مجموع الفتاوى ج: 6 ص: 245

العبد إنها قدرة للعبد مقدورة للرب لا أنها نفس قدرة الرب وكذلك إرادة العبد هي إرادة للعبد مرادة للرب وكذلك سائر صفات العبد هي صفات له وهي مفعولة للرب مخلوقة له ليست بصفات له ومما يبين ذلك أن الله تعالى قد أضاف كثيراً من الحوادث إليه وأضافه إلى بعض مخلوقاته إما أن يضيف عينه أو نظيره كقوله تعالى {اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى} {الزمر 42} وقال تعالى {وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ} {الأنعام 60} مع قوله تعالى {قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ} {السجدة 11} وقوله {تَوَفَّاهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفِرُّونَ} {الأنعام 61} وقال {فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَّتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ} {الحج 5} فأضاف الإنبات إليها وقال تعالى {وَالْأَرْضَ مَدَدْنَا هَا وَالْأَفْنَىٰ فِيهَا رَوَاسِي وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ} {الحجر 19} وقال تعالى {هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ} {10} {يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ} {11} {النحل 10-11} ¹

الله سبحانه خلق الأسباب والمسببات

ومن قال أن قدرة العبد وغيرها من الأسباب التي خلق الله تعالى بها المخلوقات ليست أسباباً أو أن وجودها كعدمها وليس هناك إلا مجرد إقتران عادي كإقتران الدليل بالمدلول فقد جحد ما في خلق الله وشرعه من الأسباب والحكم والعلل ولم يجعل في العين قوة تمتاز بها عن الخد تبصر بها ولا في القلب قوة يمتاز بها عن الرجل يعقل بها ولا في النار قوة تمتاز بها عن التراب تحرق بها وهؤلاء ينكرون ما في الأجسام المطبوعة من الطبائع والغرائز قال بعض الفضلاء تكلم قوم من الناس في إبطال الأسباب والقوى والطبائع فأضحكوا العقلاء على عقولهم ثم أن هؤلاء لا ينبغي للإنسان أن يقول أنه شبع بالخبز وروى بالماء بل يقول شبعته عنده ورويت عنده فإن الله يخلق الشبع والري ونحو ذلك من الحوادث عند هذه المقترنات بها عادة لا بها وهذا خلاف الكتاب والسنة فإن الله تعالى يقول {وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّىٰ إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُفِّتَ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ} {الأعراف 57} الآية وقال تعالى {وَمَا أَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبِتَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ} {البقرة 164} وقال تعالى {فَاتْلُوهُمْ يُعَدِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ} {التوبة 14} وقال {قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسَيْنَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِنْدِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا} {التوبة 52} وقال {وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبَارَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ} {ق 9} وقال تعالى {وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتٍ كُلِّ شَيْءٍ} {الأنعام 99} وقال تعالى {أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا} {فاطر 27} وقال تعالى {هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ} {10} {يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ} {11} {النحل 10-11} وقال تعالى {إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا} {البقرة 26} إلى قوله {يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا} {البقرة 26} وقال قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين {قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ} {15} {يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ} {16} {المائدة 15-16} ومثل هذا في القرآن كثير وكذلك في الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم كقوله لا يموتن أحد منكم إلا أدنتموني به حتى أصلي عليه فإن الله جعل بصلاتي عليه بركة ورحمة وقال صلى

¹ منهاج السنة النبوية ج: 3 ص: 242

الله عليه وسلم إن هذه القبور مملوءة على أهلها ظلمة وإن الله جاعل بصلاتي عليهم نورا ومثل هذا كثير ونظير هؤلاء الذين أبطلوا الأسباب المقدره في خلق الله من أبطل الأسباب المشروعة في أمر الله كالذين يظنون أن ما يحصل بالدعاء والأعمال الصالحة وغير ذلك من الخيرات إن كان مقدرًا حصل بدون ذلك وإن لم يكن مقدرًا لم يحصل بذلك وهؤلاء كالذين قالوا للنبي أفلا ندع العمل ونتكل على الكتاب فقال لا اعملوا فكل ميسر لما خلق له وفي السنن أنه قيل يارسول الله أرأيت أدوية ننداوى بها ورقى نسترقى وتقاة نتقيها هل ترد من قدر الله شيئاً فقال هي من قدر الله ولهذا قال من قال من العلماء الإلتفات إلى الأسباب شرك في التوحيد ومحو الأسباب أن تكون أسبابا تغيير في وجه العقل والإعراض عن الأسباب بالكلية قدح في الشرع والله سبحانه خلق الأسباب والمسببات وجعل هذا سببا لهذا فإذا قال القائل إن كان هذا مقدرًا حصل بدون السبب وإلا لم يحصل جوابه أنه مقدر بالسبب وليس مقدرًا بدون السبب كما قال النبي أن الله خلق للجنة أهلا خلقهم لها وهم في أصلاب آبائهم وقال اعملوا فكل ميسر لما خلق له أما من كان من أهل السعادة فسييسر لعمل أهل السعادة وأما من كان من أهل الشقاوة فسييسر لعمل أهل الشقاوة وفي الصحيحين عن ابن مسعود رضي الله عنه قال حدثنا رسول الله وهو الصادق المصدق إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوما نطفة ثم يكون علقة مثل ذلك ثم يكون مضغة مثل ذلك ثم يرسل إليه الملك فيؤمر بأربع كلمات فيقال أكتب رزقه وعمله وأجله وشقي أو سعيد ثم ينفخ فيه الروح قال فوالذي نفسي بيده إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها فبين أن هذا يدخل الجنة بالعمل الذي يعمل به ويختم له به وهذا يدخل النار بالعمل الذي يعمل به ويختم له به كما قال صلى الله عليه وسلم إنما الأعمال بالخواتيم ذلك لأن جميع الحسنات تحبط بالردة وجميع السيئات تغفر بالتوبة ونظير ذلك من صام ثم أفطر قبل الغروب أو صلى أحدث عمدا قبل كمال الصلاة بطل عمله بالجملة فالذي عليه سلف الأمة وأئمتها ما بعث الله به رسله وأنزل كتبه فيؤمنون بخلق الله وأمره بقدره وشرعه بحكمه الكوني وحكمه الديني وإرادته الكونية والدينية كما قال في الآية الأولى {فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعْدُ فِي السَّمَاءِ} الأنعام 125 وقال نوح عليه السلام {وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ} هود 34 وقال تعالى في الإرادة الدينية {يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ} البقرة 185 وقال {يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبينَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ} النساء 26 وقال {مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهَّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ} المائدة 6 وهم مع إقرارهم بأن الله خالق كل شيء وربهم ومليكه وأنه خلق الأشياء بقدرته ومشئته يقرون بأنه لا إله إلا هو لا يستحق العبادة غيره ويطيعونه ويطيعون رسله ويحبونه ويرجونه ويخشونه ويتكلمون عليه وينيبون اليه ويوالون أوليائه ويعادون أعداءه ويقرون بمحبته لما أمر به ولعباده المؤمنين ورضاه بذلك وبغضه لما أنهى عنه وللكافرين وسخطه لذلك ومقتته له ويقرون بما إستفاض عن النبي صلى الله عليه وسلم من أن الله أشد فرحا بتوبة عبده التائب من رجل أضل راحلته بأرض دوية مهلكة عليها طعامه وشرابه فطلبها فلم يجدها فقال تحت شجرة فلما إستيقظ إذا بدابته عليها طعامه وشرابه فالله أشد فرحا

بتوبة عبده من هذا براحتة فهو إلههم الذي يعبدونه و ربهم الذي يسألونه كما قال تعالى { الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ } {2} الفاتحة إلى قوله { إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ } {5} الفاتحة 5 فهو المعبود المستعان والعبادة تجمع كمال الحب مع كمال الذل فهم يحبونه أعظم مما يحب كل محب محبوبه¹

الله سبحانه خلق المخلوقات وسخرها لبني آدم

قال تعالى { هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ } {10} يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ } {11} وَسَخَّرَ لَكُمْ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ } {12} وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ } {13} النحل 10-13 النفع الذي يخلقه الله في الأرض من الإنبات كما قال تعالى { يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ } النحل 11²

وامثال ذلك من الآيات التي يبين فيها انه خلق المخلوقات لبني آدم ومعلوم أن الله فيها حكما عظيمة غير ذلك وأعظم من ذلك ولكن يبين لبني آدم ما فيها من المنفعة وما أسبغ عليهم فإذا قيل فعل كذا لكذا لم يقتض ان لا يكون فيه حكمة اخرى³

النجوم من آيات الله الدالة عليه المسبحة له الساجدة له كما قال تعالى { أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ } {الحج 18} ثم قال { وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ } {الحج 18} وهذا التفريق يبين انه لم يرد السجود لمجرد ما فيها من الدلالة على ربوبته كما يقول ذلك طوائف من الناس اذ هذه الدلالة يشترك فيها جميع المخلوقات فجميع الناس فيهم هذه الدلالة وهو قد فرق فعلم ان ذلك قول زائد من جنس ما يختص به المؤمن ويتميز به عن الكافر الذي حق عليه العذاب وهو سبحانه مع ذلك قد جعل فيها منافع لعباده وسخرها لهم كما قال تعالى { وَسَخَّرَ لَكُمْ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبِينَ وَسَخَّرَ لَكُمْ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ } {إبراهيم 33} وقال { وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ } {النحل 12} وقال { وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ } {الجاثية 13} ومن منافعها الظاهرة ما يجعله سبحانه بالشمس من الحر والبرد والليل والنهار ونضاج الثمار وخلق الحيوان والنبات والمعادن وكذلك ما يجعله بها لهم من الترطيب والتبييض وغير ذلك من الامور المشهورة كما جعل في النار الاشراق والاحراق وفي الماء التطهير والسقى وامثال ذلك من نعمه التي يذكرها في كتابه كما قال تعالى { وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا } {48} لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنْبِيَاءَ كَثِيرًا } {49} الفرقان 48-49 وقد أخبر الله في غير موضع انه يجعل حياة بعض مخلوقاته ببعض كما

¹مجموع الفتاوى ج: 8 ص: 137-143 و مجموع الفتاوى ج: 8 ص: 80

²مجموع الفتاوى ج: 30 ص: 294

³مجموع الفتاوى ج: 11 ص: 97

قال تعالى { لِنُحْيِي بِهِ بَلَدَةً مَّيِّتًا } الفرقان 49 وكما قال { وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقْلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُفِّتْهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ } الأعراف 57 وكما قال { وَمَا أَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ } البقرة 164 فمن قال من اهل الكلام أن الله يفعل هذه الأمور عندها لا بها فعبارته مخالفة لكتاب الله والأمور المشهورة كمن زعم انها مستقلة بالفعل هو مشرك مخالف العقل والدين وقد أخبر سبحانه في كتابه من منافع النجوم فانه يهتدى بها في ظلمات البر والبحر واخبر انها زينة للسماء الدنيا واخبر ان الشياطين ترحم بالنجوم وان كانت النجوم التي ترحم بها الشياطين من نوع آخر غير النجوم الثابتة في السماء التي يهتدى بها فان هذه لا تزول عن مكانها بخلاف تلك ولهذه حقيقة مخالفة لتلك وان كان اسم النجوم يجمعها كما يجمع اسم الدابة والحيوان للملك والآدمي والبهائم والذباب والبعوض وقد ثبت بالأخبار الصحيحة التي اتفق عليها العلماء عن النبي صلى الله عليه وسلم انه امر بالصلاة عند كسوف الشمس والقمر وامر بالدعاء والاستغفار والصدقة والعتق وقال ان الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا ينكسفان لموت احد ولا لحياته وفي رواية آيتان من آيات الله يخوف بهما عباده هذا قاله ردا لما قاله بعض جهال الناس ان الشمس كسفت لموت ابراهيم بن النبي فانها كسفت يوم موته وظن بعض الناس لما كسفت ان كسوفها كان لأجل موته وان موته هو السبب لكسوفها كما يحدث عن موت بعض الأكابر مصائب في الناس فبين النبي ان الشمس والقمر لا يكون كسوفهما عن موت احد من اهل الأرض ولا عن حياته ونفى ان يكون للموت والحياة اثرا في كسوف الشمس والقمر وأخبر أنهما من آيات الله وانه يخوف عباده¹

الله هو الذي يستحق الشكر المطلق العام التام

أن السيئات التي تصيب الإنسان وهي مصائب الدنيا والآخرة ليس لها سبب إلا ذنبه الذي هو من نفسه فانحصرت في نفسه وأما ما يصيبه من الخير والنعم فإنه لا تنحصر أسبابه لأن ذلك من فضل الله وإحسانه يحصل بعمله وبغير عمله وعمله نفسه من إنعام الله عليه وهو سبحانه لا يجزي بقدر العمل بل يضاعفه له ولا يقدر العبد على ضبط أسبابها لكن يعلم أنها من فضل الله وإنعامه فيرجع فيها إلى الله فلا يرجو إلا الله ولا يتوكل إلا عليه ويعلم أن النعم كلها من الله وأن كل ما خلقه فهو نعمة كما تقدم فهو يستحق الشكر المطلق العام التام الذي لا يستحقه غيره ومن الشكر ما يكون جزاء على ما يسره على يديه من الخير كشكر الوالدين وشكر من أحسن إليك من غيرهما فإنه من لا يشكر الناس لا يشكر الله لكن لا يبلغ من حق أحد وإنعامه أن يشكر بمعصية الله أو أن يطاع بمعصية الله فإن الله هو المنعم بالنعمة العظيمة التي لا يقدر عليها مخلوق ونعمة المخلوق إنما هي منه أيضا وقال تعالى قال تعالى { هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ } {10} يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ } {11} وَسَخَّرَ لَكُمْ الَّلَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ

¹مجموع الفتاوى ج: 35 ص: 168

آيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ {12} وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِقَوْمٍ
يَذْكُرُونَ {13} النحل 10-13¹

لفظ العقل في القرآن يتضمن ما يجب به المنفعة وما يدفع به المصرة

قال تعالى { هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ {10} يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ {11} وَسَخَّرَ لَكُمْ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ {12} وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِقَوْمٍ يَذْكُرُونَ {13} النحل 10-13 ان اسم العقل عند المسلمين وجمهور العقلاء إنما هو صفة وهو الذي يسمى عرضاً قائماً بالعاقل وعلى هذا دل القرآن في قوله تعالى لعلمكم تعقلون وقوله { أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا } الحج 46 وقوله { قَدْ بَيَّنَّا لَكُمْ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ } آل عمران 118 ونحو ذلك مما يدل على ان العقل مصدر عقل يعقل عقلاً وإذا كان كذلك فالعقل لا يسمى به مجرد العلم الذي لم يعمل به صاحبه ولا العمل بلا علم بل إنما يسمى به العلم الذي يعمل به والعمل بالعلم ولهذا قال أهل النار { لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ } الملك 10 وقال تعالى { أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا } الحج 46 والعقل المشروط في التكليف لا بد أن يكون علوماً يميز بها الإنسان بين ما ينفعه وما يضره فالمجنون الذي لا يميز بين الدراهم والفلوس ولا بين أيام الأسبوع ولا يفقه ما يقال له من الكلام ليس بعاقل أما من فهم الكلام ويميز بين ما ينفعه وما يضره فهو عاقل ثم من الناس من يقول العقل هو علوم ضرورية ومنهم من يقول العقل هو العمل بموجب تلك العلوم والصحيح أن اسم العقل يتناول هذا وهذا وقد يراد بالعقل نفس الغريزة التي في الإنسان التي بها يعلم ويميز ويقصد المنافع دون المضار كما قال أحمد بن حنبل والحارث المحاسبى وغيرهما ان العقل غريزة وهذه الغريزة ثابتة عند جمهور العقلاء كما أن في العين قوة بها يبصر وفي اللسان قوة بها يذوق وفي الجلد قوة بها يلمس عند جمهور العقلاء²

الناس يدركون بعقولهم الامور الدنيا فيعرفون ما يجلب لهم منفعة في الدنيا وما يجلب لهم مصرة وهذا من العقل الذى ميز به الانسان فانه يدرك من عواقب الافعال ما لا يدركه الحس ولفظ العقل في القرآن يتضمن ما يجلب به المنفعة وما يدفع به المصرة³

مدح الله وأثنى على من كان له عقل

¹الحسنة والسيئة ج: 1 ص: 98

²مجموع الفتاوى ج: 9 ص: 286

³مجموع الفتاوى ج: 8 ص: 311

قال تعالى { هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ } {10} يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ } {11} وَسَخَّرَ لَكُمْ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ } {12} وَمَا ذَرَأْنَا لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ } {13} النحل 10-13 قال أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم كل من عمل سوءاً فهو جاهل وسبب ذلك أن العلم الحقيقي الراسخ في القلب يمتنع أن يصدر معه ما يخالفه من قول أو فعل فمتى صدر خلافه فلا بد من غفلة القلب عنه أو ضعف القلب عن مقاومة ما يعارضه وتلك أحوال تناقض حقيقة العلم فيصير جهلاً بهذا الاعتبار ومن هنا تعرف دخول الأعمال في مسمى الإيمان حقيقة لا مجازاً وإن لم يكن كل من ترك شيئاً من الأعمال كافراً أو خارجاً عن أصل مسمى الإيمان وكذلك اسم العقل ونحو ذلك من الأسماء ولهذا يسمي الله تعالى أصحاب هذه الأحوال موتى وعمياً وصماً وبكماً وضالين وجاهلين ويصفهم بأنهم لا يعقلون ولا يسمعون ويصف المؤمنين بأولي الألباب والنهي وأنهم مهتدون وأن لهم نورا وأنهم يسمعون ويعقلون¹

قال تعالى { إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَى } طه 54 أى العقول وقال تعالى { هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِذِي حُجْرٍ } الفجر 5 أى لذي عقل وقال تعالى { وَاتَّقُوا يَا أُولِي الْأَلْبَابِ } البقرة 197 وقال { إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ } الأنفال 22 وقال تعالى { إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ } يوسف 2 فإنما مدح الله وأثنى على من كان له عقل فأما من لا يعقل فإن الله لم يحمده ولم يثن عليه ولم يذكره بخير قط بل قال تعالى عن أهل النار { وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ } الملك 10 وقال تعالى { وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْإِنعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ } الأعراف 179 وقال { أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْإِنعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا } الفرقان 44²

فيه حكم أخرى

قال تعالى { وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حَبْلَةً ثَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاجِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ } {14} وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيًا أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ } {15} وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ } {16} أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ } {17} وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ } {18} النحل 14-18 وفي ذلك حكم أخرى ومثل ذلك كثير في كلام الله عز وجل وغير كلام الله إذا ذكر حكمة للفعل لم يلزم أن لا تكون له حكمة أخرى لكن لا بد لتخصيص تلك الحكمة بالذكر في ذلك الموضوع من مناسبته وهذا كالمناسبة

¹ اقتضاء الصراط ج: 1 ص: 78

² مجموع الفتاوى ج: 10 ص: 437

في قوله {لَتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ} {6} سورة يس الآية 6 فإن هؤلاء كانوا أول المنذرين وأحقهم بالإنذار فكان في تخصيصهم بالذكر فائدة لا أنه خصهم لانتفاء إنذار من سواهم¹

نفي الحكم بالاستحباب لانتفاء دليل معين من غير تأمل باقي الأدلة خطأ عظيم

قال تعالى {وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاجِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ} {14} {وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ} {15} {وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ} {16} {أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ} {17} {وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ} {18} {النحل 14-18} أن ما خلقه الله في سائر الأرض من القوت واللباس والمراكب والمسكن لم يكن كل نوع منه كان موجودا في الحجاز فلم يأكل النبي من كل نوع من أنواع الطعام القوت والفاكهة ولا لبس من كل نوع من أنواع اللباس ثم ان كان من المسلمين بأرض أخرى كالشام ومصر والعراق واليمن وخراسان وأرمينية وأذربيجان والمغرب وغير ذلك عندهم أطعمة وثياب مجلوبة عندهم أو مجلوبة من مكان آخر فليس لهم أن يظنوا ترك الإنتفاع بذلك الطعام واللباس سنة لكون النبي لم يأكل مثله ولم يلبس مثله إذ عدم الفعل إنما هو عدم دليل واحد من الأدلة الشرعية وهو أضعف من القول باتفاق العلماء وسائر الأدلة من أقواله كأمره ونهيه وإذنه من قول الله تعالى هي أقوى وأكبر ولا يلزم من عدم دليل معين عدم سائر الأدلة الشرعية وكذلك إجماع الصحابة أيضا من أقوى الأدلة الشرعية فنفي الحكم بالاستحباب لانتفاء دليل معين من غير تأمل باقي الأدلة خطأ عظيم فان الله يقول {وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا} فصلت 10 وقال تعالى {هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا} {البقرة 29} وقال تعالى {وَسَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ} {الجاثية 13} وقال تعالى {وَالْخَيْلِ وَالْبِغَالِ وَالْحَمِيرِ لِيَتْرَكُوها وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ} {النحل 8} ولم تكن البغال موجودة بأرض العرب ولم يركب النبي بغلة إلا البغلة التي أهداها له المقوقس من أرض مصر بعد صلح الحديبية وهذه الآية نزلت بمكة ومثلها في القرآن يمتن الله على عباده بنعمه التي لم تكن بأرض الحجاز كقوله تعالى {فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ} {24} {أَنَا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا} {25} {ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا} {26} {فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا} {27} {وَعِنْبًا وَقَضْبًا} {28} {وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا} {29} {وَحَدَائِقَ غُلْبًا} {30} {وَفَاكِهَةً وَأَبًّا} {31} {عبس 24-31} ولم يكن بأرض الحجاز زيتون ولا نقل عن النبي أنه أكل زيتونا ولكن لعل الزيت كان يجلب إليهم وقد قال تعالى {وَالتَّيْنِ وَالزَّيْتُونِ} {التين 1} ولم يكن بأرضهم لا هذا ولا هذا ولا نقل عن النبي أنه أكل منهما وكذلك قوله {وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سَيْنَاءَ تَنْبُتُ بِالذَّهْنِ وَصَبِغٍ لِلآكِلِينَ} {المؤمنون 20} وقد قال النبي كلوا الزيت وادهنوا به فانه من شجرة مباركة وقال تعالى {الزَّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ} {النور 35} وكذلك قوله {وَحَدَائِقَ غُلْبًا} {عبس 30} وكذلك قوله في البحر {لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا} {النحل 14} وقوله {وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ} {12} {لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ

¹الجواب الصحيح ج: 1 ص: 429

وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ {13} وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ {14} {الزخرف 12-14} ولم يركب النبي البحر ولا أبو بكر ولا عمر وقد أخبر بمن يركب البحر من أمته غزاة في سبيل الله كأنهم ملوك على الأسرة لأمر حرام بنت ملحان وقالت ادع الله أن يجعلني منهم فقال أنت منهم وكانت سنة رسول الله أنه يطعم ما يجده في أرضه ويلبس ما يجده ويركب ما يجده مما أباحه الله تعالى فمن استعمل ما يجده في أرضه فهو المتبع للسنة كما أنه حج البيت من مدينته فمن حج البيت من مدينة نفسه فهو المتبع للسنة وإن لم تكن هذه المدينة تلك

وكان يجاهد من يليه من الكفار من المشركين وأهل الكتاب فمن جاهد من يليه من هؤلاء فقد اتبع السنة وإن كان نوع هؤلاء غير نوع أولئك إذ أولئك كان غالبهم عربا ولهم نوع من الشرك هم عليه فمن جاهد سائر المشركين تركهم وهدمهم وغيرهم فقد فعل ما أمر الله به وإن كانت أصنامهم ليست تلك الأصنام ومن جاهد اليهود والنصارى فقد اتبع السنة وإن كان هؤلاء اليهود والنصارى من نوع آخر غير النوع الذي جاهدهم النبي فانه جاهد يهود المدينة كقريظة والنضير وبني قينقاع ويهود خيبر وضرب الجزية على نصارى نجران وغزاة نصارى الشام عربها ورومها عام تبوك ولم يكن فيها قتال وأرسل إليهم زيدا وجعفرًا وعبد الله بن رواحة قاتلوهم في غزوة مؤتة وقال أميركم زيد فان قتل فجعفر فان قتل فعبد الله بن رواحة وصالح أهل البحرين وكانوا مجوسا على الجزية وهم أهل هجر وفي الصحيح أنه قدم مال البحرين فجعله في المسجد وما ثاب حتى قسمه وهذا باب واسع قد بسطناه في غير هذا الموضع وميزنا بين السنة والبدعة وبيننا ان السنة هي ما قام الدليل الشرعي عليه بأنه طاعة لله ورسوله سواء فعله رسول الله أو فعل على زمانه أو لم يفعله ولم يفعل على زمانه لعدم مقتضى حينئذ لفعله أو وجود المانع منه فانه إذا ثبت أنه أمر به أو استحبه فهو سنة كما أمر باجلاء اليهود والنصارى من جزيرة العرب وكما جمع الصحابة القرآن في المصحف وكما داوموا على قيام رمضان في المسجد جماعة¹

الله تعالى بسط الارض للأنام وأرساها بالجبال لئلا تميد

قال تعالى { وَأَلْقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ } {15} وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ } {16} أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ } {17} وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَعَفُورٌ رَّحِيمٌ } {18} {النحل 15-18} والارض يحيط الماء بأكثرها والهواء يحيط بالماء والارض والله تعالى بسط الارض للأنام وأرساها بالجبال لئلا تميد كما ترسى السفينة بالاجسام الثقيلة اذا كثرت امواج البحر والامات والله تعالى { يُمَسِّكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّن بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا } فاطر 41 والمخلوقات العلوية والسفلية يمسكها الله بقدرته سبحانه وما جعل فيها من الطبائع والقوى فهو كائن بقدرته ومشيبته سبحانه²

¹مجموع الفتاوى ج: 21 ص: 318

²مجموع الفتاوى ج: 6 ص: 596

{وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ}

قال تعالى {وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حَبْلًا ثَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلَّكَ مَوَاجِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ} {14} {وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيًا أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ} {15} {وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ} {16} {أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ} {17} {وَإِنْ نَعُدُوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا نُحْصِيهَا إِنَّ اللَّهَ لَعَفُورٌ رَحِيمٌ} {18} {النحل 14-18} وقال تعالى {وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ} {الأنعام 97} وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه تعلموا من النجوم ما تعرفون به القبلة و الطريق في رواية عنه تعلموا من النجوم ما تهتدون في بركم وبحركم ثم امسكوا رواه حرب وعن علي رضي الله عنه قال ايها الناس اياكم و تعلم النجوم الا ما تهتدون بها في ظلمات البر و البحر رواه أبو حفص و لذلك استحس احمد معرفة منازل القمر وان يتعلم بها كم مضى من الليل و كم بقي و ذكر أنه تعلمها من اهل مكة¹

والاستدلال بطولع الشمس على النهار وبالنهار على طلوع الشمس فليس هذا استدلالا بكل على جزئ بل الاستدلال بطولع معين على نهار معين استدلال بجزئى على جزئى وبجنس النهار على جنس الطلوع استدلال بكل على كلي وكذلك الاستدلال بالكواكب على جهة الكعبة استدلال بجزئى على جزئى كالأستدلال بالجدي وبنات نعش والكواكب الصغير القريب من القطب الذى يسميه بعض الناس القطب وكذلك بظهور كوكب على ظهور نظيره فى العرض والأستدلال بطلوعه على غروب آخر وتوسط آخر ونحو ذلك من الأدلة التى اتفق عليها الناس قال تعالى {وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ} {النحل 16} والأستدلال على المواقيت والأمكنة بالأمكنة امر اتفق عليه العرب والعجم واهل الملل والفلسفة فاذا استدلت بظهور الثريا على ظهور ما قرب منها مشرقا ومغربا ويمينا وشمالا من الكواكب كان استدلالا بجزئى على جزئى لتلازمها وليس ذلك من قياس التمثيل فان قضى به قضاء كليا كان استدلالا بكل على كلي وليس استدلالا بكل على جزئى بل باحد الكليين المتلازمين على الاخر ومن عرف مقدار ابعاد الكواكب بعضها عن بعض وعلم ما يقارن منها طلوع الفجر استدلت بما رآه منها على ما مضى من الليل وما بقى منه وهو استدلال بأحد المتلازمين على الآخر ومن علم الجبال والانهار والرياح استدلت بها على ما يلازمها من الامكنة ثم اللزوم ان كان دائما لا يعرف له ابتداء بل هو منذ خلق اله الارض كوجود الجبال والانهار العظيمة النيل والفرات وسيحانت وجيحان والبحر كان الاستدلال مطردا وإن كان اللزوم اقل من ذلك مدة مثل الكعبة شرفها الله تعالى فإن الخليل بناها ولم تزل معظمة لم يعل عليها جبار قط استدلت بها بحسب ذلك فيستدل بها وعليها فان اركان الكعبة مقابلة لجهات الارض الاربع الحجر الاسود يقابل المشرق والغربى الذى يقابله ويقال له الشامى يقابل المغرب واليمانى يقابل الجنوب وما يقابله يقال له العراقى اذا قيل لليلى من ناحية الحجر الشامى وان قيل لذاك الشامى قيل لهذا العراقى فهذا الشامى العراقى يقابل الشمال وهو يقابل القطب وحينئذ فيستدل بها على الجهات ويستدل بالجهات عليها وما كان مدته اقصر من مدة الكعبة كالأبنية التى فى الامطار والاشجار كان الاستدلال بها بحسب ذلك فيقال علامة الدار الفلانية

¹ شرح العمدة ج: 4 ص: 552

ان على بابها شجرة من صفتها كذا وكذا وهما متلازمان مدة من الزمان فهذا وامثاله استدلال باحد المتلازمين على الآخر وكلاهما معين جزئى وليس هو من قياس التمثيل ولهذا عدل نظار المسلمين عن طريقهم فقالوا الدليل هو المرشد الى المطلوب وهو الموصل الى المقصود وهو ما يكون العلم به مستلزما للعلم بالمطلوب او ما يكون النظر الصحيح فيه موصلا الى علم او على اعتقاد راجح ولهم نزاع اصطلاحى هل يسمى هذا الثانى دليلا او يخص باسم الامارة والجمهور يسمون الجميع دليلا ومن اهل الكلام من لا يسمى بالدليل الا الأول ثم الضابط فى الدليل ان يكون مستلزما للمدلول فكلما كان مستلزما لغيره امكنت ان يستدل به عليه فإن كان التلازم من الطرفين امكن ان يستدل بكل منهما على الآخر للزوم قطعيا كان الدليل قطعيا وان كان ظاهرا وقد يتخلف كان الدليل ظنيا فالأول كدلالة المخلوقات على خالقها سبحانه وتعالى وعلمه وقدرته ومشيبته ورحمته وحكمته فان وجودها مستلزم لوجود ذلك ووجودها بدون ذلك ممتنع فلا توجد الادالة على ذلك ومثل دلالة خبر الرسول على ثبوت ما اخبر به عن الله فانه لا يقول عليه الا الحق اذ كان معصوما فى خبره عن الله لا يستقره فى خبره عنه خطأ البتة فهذا دليل مستلزم لمدلوله لزوما واجبا لا ينفك عنه بحال وسواء كان الملزوم المستدل به وجودا او عدما فقد يكون الدليل وجودا وعدما ويستدل بكل منهما على وجود وعدم فانه يستدل بثبوت الشيء على انتفاء نقيضه وضده ويستدل بانتفاء نقيضه على ثبوته ويستدل بثبوت الملزوم على ثبوت اللازم وبانتفاء اللازم على انتفاء الملزوم بل كل دليل يستدل به فانه ملزوم لمدلوله وقد دخل فى هذا كل ما ذكره وما لم يذكره فان ما يسمونه الشرطى المتصل مضمونه الاستدلال بثبوت الملزوم على ثبوت اللازم وبانتفاء اللازم على انتفاء الملزوم سواء عبر عن هذا بصيغة الشرط او بصيغة الجزم فاختلف صيغ الدليل مع اتحاد معناه لا يغير حقيقته والكلام انما هو فى المعانى العقلية لا فى الالفاظ فإذا قال القائل اذا كانت الصلاة صحيحة فالمصلى منطهر وان كانت الشمس طالعة فالنهار موجود وإن كان الفاعل عالما قادر حى ونحو ذلك فهذا معنى قوله صحة الصلاة تستلزم صحة الطهارة وقوله يلزم من صحة الصلاة ثبوت الطهارة وقوله لا يكون مصليا الا مع الطهارة وقوله الطهارة شرط فى صحة الصلاة واذا عدم الشرط عدم المشروط وقوله كل مصل منطهر فمن ليس بمنطهر فليس بمصل وامثال ذلك من انواع التأليف للالفاظ والمعانى التى تتضمن هذا الاستدلال من حصر الناس فى عبارة واحدة واذا اتسعت العقول وتصوراتها اتسعت عباراتها واذا ضاقت العقول والعبارات والتصورات بقى صاحبها كأنه محبوس العقل واللسان كما يصيب اهل المنطق اليونانى تجدهم من اضيق الناس علما وبيانا واعجزهم تصورا وتعبيرا ولهذا من كان ذكيا اذا تصرف فى العلوم وسلك مسلك اهل المنطق طول وضيق وتكلف وتعسف وغايته بيان البين وايضاح الواضح من العي وقد يوقعه ذلك فى انواع من السفسطة التى عافى منها من لم يسلك طريقهم وكذلك تكلفتهم فى حدودهم مثل حدهم للانسان وللشمس بأنها كوكب يطلع نهارا وهل من يحد الشمس مثل هذا الحد ونحوه الا من اجهل الناس وهل عند الناس شىء اظهر من الشمس ومن لم يعرف الشمس فإما ان يجهل اللفظ فيترجم له وليس هذا من الحد الذى ذكره وإما ان لا يكون رأها لعماء فهذا لا يرى النهار ولا الكواكب بطريق الأولى مع أنه لا بد ان يسمع من الناس ما يعرف ذلك بدون طريقهم وهم معترفون بأن الشكل الأول من الحملات يعنى عن جميع صور القياس وتصويره فطرى لا يحتاج الى تعلمه منهم مع ان الاستدلال لا يحتاج الى تصويره على الوجه الذى يزعونه¹

¹مجموع الفتاوى ج: 9 ص: 154-159

الله متعال عن السمي والند والمثل فلا يكون شيء مثله

قال تعالى { وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حَبْلًا حَلِيَّةً تُلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلَّكَ مَوَاجِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ } 14 { وَالْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِي أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ } 15 { وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ } 16 { أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذْكُرُونَ } 17 { وَإِنْ تَعْدُوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَعَفُورٌ رَحِيمٌ } 18 { وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسْرُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ } 19 { وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ } 20 { أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ } 21 { النحل 14-21 } فانه سبحانه يبين أنه هو المستحق للعبادة دون ما يعبد من دونه وأنه لا مثل له و يبين ما إختص به من صفات الكمال و إنتفائها عما يعبد من دونه و يبين أنه يتعالى عما يشركون و عما يقولون من إثبات الأولاد و الشركاء له ¹

فقد بين سبحانه أنه تعالى عما يقول المبطلون و عما يشركون فهو متعال عن الشركاء و الأولاد كما أنه مسبح عن ذلك و تعاليه سبحانه عن الشريك هو تعاليه عن السمي و الند و المثل فلا يكون شيء مثله و قد ذكروا من معاني العلو الفضيلة كما يقال الذهب أعلى من الفضة و نفى المثل عنه يقتضى أنه أعلى من كل شيء فلا شيء مثله و هو يتضمن أنه أفضل و خير من كل شيء كما أنه أكبر من كل شيء و فى القرآن { قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ اللَّهُ خَيْرٌ مِمَّا يَشْرِكُونَ } النمل 59 و يقول { أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذْكُرُونَ } النحل 17 و يقول { أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمْ لَا يَهْدِي إِلَّا أَنْ يُهْدَىٰ } يونس 35 و قالت السحرة { وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ } طه 73 و هو سبحانه يبين أن المعبودين دونه ليسوا مثله فى مواضع ²

كل محدث من الأعيان والصفات والأفعال فان الله خالق كل ذلك جميعه

وبين الأئمة أن من جعل شيئاً من المحدثات كأفعال العباد وغيرهما ليس مخلوقاً لله فهو مثل من أنكر خلق الله لغير ذلك من المحدثات كالسماوات والأرض فان الله رب العالمين ومالك الملك وخالق كل شيء فليس شيء من العالمين خارجاً عن ربوبيته ولا شيء من الملك خارجاً عن ملكه ولا شيء من المحدثات خارجاً عن خلقه قال تعالى { اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ } 62 { لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ } 63 { الزمر 62-63 } وقال تعالى { أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذْكُرُونَ } 17 { وَإِنْ تَعْدُوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَعَفُورٌ رَحِيمٌ } 18 { وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسْرُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ } 19 { وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ } 20 { أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ } 21 { النحل 17-21 } ولهذا كان أهل السنة والجماعة والحديث هم

¹مجموع الفتاوى ج: 16 ص: 122

²مجموع الفتاوى ج: 1 ص: 1

المتبعين لكتاب الله المعتقدين لموجب هذه النصوص حيث جعلوا كل محدث من الأعيان والصفات والأفعال المباشرة والمتولدة وكل حركة طبيعة أو إرادية أو قسرية فان الله خالق كل ذلك جميعه وربّه ومالكه ومليكه ووكيل عليه وانه سبحانه على كل شيء قدير وبكل شيء عليم فأمنوا بعلمه المحيط وقدرته الكاملة ومشيبته الشاملة وربوبيته التامة ولهذا قال ابن عباس الإيمان بالقدر نظام التوحيد فمن وحد الله وأمن بالقدر تم توحيده ومن وحد الله وكذب بالقدر نقض تكذيبه توحيده وأما صفة الله تعالى فهي داخلة في مسمى أسمائه الظاهرة والمضمرة فإذا قلت عبدت الله ودعوت الله وإياك نعبد فهذا الاسم لا يخرج عنه شيء من صفاته من علمه ورحمته وكلامه وسائر صفاته ولهذا قال النبي من كان حالفاً فليحلف بالله أو ليصمت وقال من حلف بغير الله فقد أشرك وقد ثبت عنه الحلف بعزة الله والحلف بقوله لعمر الله فعلم أن ذلك ليس حالفاً بغير الله فأعطوا هذه الآيات المنصوصة حقها في اتباع عمومها الذي قد صرحت به في أن الله خالق كل شيء إذ قد علم أن الله ليس هو داخلاً في المخلوق وعلم أن صفاته ليست خارجة عن مسمى اسمه وأما المعتزلة الذين جمعوا التجهم والقدر فأخرجوا عنها ما يتناولها الاسم يقينا من أفعال الملائكة والجن والانس والبهائم طاعاتها وغير طاعاتها وذلك قسط كبير من ملك الله وآياته بل هي من محاسن ملكه وأعظم آياته ومخلوقاته وأدخلوا في ذلك كلامه لكونه يسمى شيئاً في مثل قوله { إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْنَا مِنْ شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَىٰ بِإِذْنِ رَبِّهِ } { الأأنعام 91 } ولم ينظروا في أن ذلك مثل تسمية علمه شيئاً في قوله { وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ } { البقرة 255 } وتسمية نفسه شيئاً في قوله { قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ } { الأأنعام 19 } وأن قوله كل شيء يعم بحسب ما اتصل به من الكلام فان الاسم تنتوع دلالاته بحسب قيوده ففي قوله { وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ } { البقرة 29 } دخل في ذلك نفسه لأنها تصلح أن تعلم وفي قوله { وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ } { المائدة 120 } دخل في ذلك ما يصلح أن يكون مقدوراً وذلك يتناول كل ما كانت ذاته ممكنة الوجود وقد يقال دخل في ذلك كل ما يسمى شيئاً بمعنى شيئاً فان الشيء في الأصل مصدر وهو بمعنى المشىء فكل ما يصلح أن يشاء فهو عليه قدير وإن شئت قلت قدير على كل ما يصلح أن يقدر عليه والممتنع لذاته ليس شيئاً باتفاق العقلاء وفي قوله { اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ } { الرعد 16 } قد علم أن الخالق ليس هو المخلوق وانه لا يتناولها الاسم وإنما دخل فيه كل شيء مخلوق وهي الحادثات جميعها هذا مع أن أهل السنة يقولون أن العبد له مشيئة وقدرة وإرادة وهو فاعل لفعله حقيقة وينهون عن إطلاق الجبر فان لفظ الجبر يشعر أن الله أجبر العبد على خلاف مراد العبد كما تجبر المرأة على النكاح وليس كذلك بل العبد مختار يفعل باختياره ومشيبته ورضاه ومحبتة ليس مجبوراً عديم الإرادة والله خالق كل هذه فإن هذه الأمور من المحادثات الممكنات فالدلالة على أن الله خالقها كالدلالة على أنه خالق غيرها من المحادثات¹

الفعل والكلام صفة كمال

¹مجموع الفتاوى ج: 12 ص: 328-332

قال تعالى {أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ} {17} وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَعَفُورٌ رَحِيمٌ} {18} وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ} {19} وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ} {20} أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَسْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ} {21} النحل 17-21 ان كون الله

سبحانه وتعالى خالقا ورازقا ومحيا ومميتا وباعثا ووارثا وغير ذلك من صفات فعله وهو من صفات ذاته ليس من يخلق كمن لا يخلق ومذهب الجمهور ان الخالق غير المخلوق فالخلق فعل الله القائم به والمخلوق هو المخلوقات المنفصلة عنه وذهب طوائف من أهل الكلام من المعتزلة والأشعرية ومن وافقهم من الفقهاء الحنبلية والشافعية والمالكية وغيرهم إلى أنه ليس لله صفة ذاتية من أفعاله وإنما الخلق هو المخلوق أو مجرد نسبة وإضافة وهذا اختيار ابن عقيل وأول قولي القاضي أبي يعلى وهؤلاء عندهم حال الذات التي تخلق وترزق أو لا تخلق ولا ترزق سواء وبهذا نقضت المعتزلة على من ناظرها من الصفاتية الأشعرية ونحوهم لما استدلت الصفاتية بما تقدم من القاعدة الشريفة فقالوا ينتقض عليكم بالخالق والرازق وغير ذلك من أسماء الأفعال فان الخلق والرزق قائم بغيره وقد اشتق له منه اسم الخالق والرازق ولم يبق به صفة فعل أصلا فكذلك الصادق والحكيم والمتكلم والرحيم والودود وهذا النقض لا يلزم جماهير الأمة وعامة أهل السنة والجماعة فان الباب عندهم واحد وليس هذا قولاً بقدم مخلوقاته أو مفعولاته سواء قيل ان نفس فعله القائم به قديم فقط كما يقوله كثير من هؤلاء الحنفية والمالكية والشافعية والحنبلية وأهل الحديث والكلام والصوفية أو يقولون له عند احداث المخلوقات أحوال ونسب كما يقوله كثير من هؤلاء الفقهاء وأهل الحديث والصوفية وأهل الكلام من الطوائف كلها وذلك لأن القول في ذلك كالقول في مشيئته وإرادته فان إن كان مذهب أهل السنة وسائر الصفاتية انها قديمة فليست مراداته قديمة وكذلك صفة الخلق والتكوين وذلك لأن الشرع والعقل يدل على ان حال الخالق والرازق والفاطر المحي المميت الهادي النصير ليس حاله في نفسه كحاله لو لم يبدع هذه الأمور ولهذا قال سبحانه وتعالى {أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ} النحل 17 فالفرق بين الخالق وغير الخالق كالفرق بين القادر وغير القادر والمخالف يقول إنما هو موصوف بالقدرة التي تتناول ما يخلقه وما لا يخلقه سواء في نفسه كان خالقا أو لم يكن خالقا ليس له من كونه خالقا صفة ثبوتية لا صفة كمال ولا صفة وجود مطلق كما له بكونه قادرا ونصوص الكتاب والسنة توجب أن تكون أسمائه أفعاله من أسمائه الحسنی التي تقتضي أن يكون بها محمودا مثني عليه ممجدا وذلك يقتضي أنها من صفات الكمال وليس الغرض هنا ذكر هذه المسألة وإنما هي طرد حجة الإمام أحمد وغيره من أئمة السلف الثقات وسائر الصفاتية ولهذا قال الإمام أحمد في رواية حنبل في كتاب المحنة لم يزل الله عالما متكلم غفورا فبين اتصافه بالعلم وهو صفة ذاتية محضة وبالغفرة وهي من الصفات الفعلية والكلام الذي يشبه هذا وهذا وذكر انه لم يزل متصفا بهذه الصفات والاسماء وقال الإمام أحمد فيما خرجه في الرد على الزنادقة والجهمية لما ذكر قول جهم انه يتكلم ولكن كلامه مخلوق قال أحمد قلنا له وكذلك بنوا آدم كلامهم مخلوق ففي مذهبكم كان الله في وقت من الأوقات لا يتكلم حتى خلق الكلام وكذلك بنوا آدم لا يتكلمون حتى خلق لهم كلاما فقد جمعتم بين كفر وتشبيه وكذلك ذكروا في المحنة فيما استدل به الإمام أحمد في المناظرة واستدل بقوله {وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي} السجدة 13 قال فإن يكن القول من غير الله فهو مخلوق¹

¹مجموع الفتاوى ج: 12 ص: 436-438

فإن الفعل و الكلام صفة كمال فإن من يتكلم أكمل ممن لا يتكلم و من يخلق أكمل ممن لا يخلق قال تعالى { أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ } النحل 17¹

الله احق الموجودات بصفات الكمال وهو المستحق للعبادة

وقد بين الله سبحانه انه احق بالكمال من غيره وان غيره لا يساويه في الكمال في مثل قوله تعالى { أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ } النحل 17 وقد بين ان الخلق صفة كمال وان الذي يخلق افضل من الذي لا يخلق وان من عدل هذا بهذا فقد ظلم ومثل هذا في القرآن متعدد من وصف الاصنام بسلب صفات الكمال كعدم التكلم والفعل وعدم الحياة ونحو ذلك مما يبين ان المتصف بذلك منتقص معيب كسائر الجمادات وان هذه الصفات لا تسلب الا عن ناقص معيب

واما رب الخلق الذي هو اكمل من كل موجود فهو احق الموجودات بصفات الكمال وانه لا يستوى المتصف بصفات الكمال والذي لا يتصف بها وهو يذكر ان الجمادات في العادة لا تقبل الاتصاف بهذه الصفات فمن جعل الواجب الوجود لا يقبل الاتصاف فقد جعله من جنس الاصنام الجامدة التي عابها الله تعالى وعاب عابديها ولهذا كانت القرامطة الباطنية من اعظم الناس شركا وعبادة لغير الله اذ كانوا لا يعتقدون في الههم انه يسمع او يبصر او يغنى عنهم شيئا والله سبحانه لم يذكر هذه النصوص لمجرد تقرير صفات الكمال له بل ذكرها لبيان انه المستحق للعبادة دون ما سواه فأفاد الاصلين اللذين بهما يتم التوحيد وهما اثبات صفات الكمال ردا على اهل التعطيل وبيان انه المستحق للعبادة لا اله الا هو ردا على المشركين والشرك في العالم اكثر من التعطيل ولا يلزم من اثبات التوحيد المنافي للاشراك ابطال قول اهل التعطيل ولا يلزم من مجرد الاثبات المبطل لقول المعطلة الرد على المشركين الا ببيان اخر والقرآن يذكر فيه الرد على المعطلة تارة كالرد على فرعون وامثاله ويذكر فيه الرد على المشركين وهذا اكثر لان القرآن شفاء لما في الصدور ومرض الاشراك اكثر في الناس من مرض التعطيل وايضا فان الله سبحانه اخبر ان له الحمد وانه حميد مجيد وان له الحمد في الاولى والاخرة وله الحكم ونحو ذلك من انواع المحامد و الحمد نوعان حمد على احسانه الى عباده وهو من الشكر وحمد لما يستحقه هو بنفسه من نعوت كماله وهذا الحمد لا يكون الا على ما هو في نفسه مستحق للحمد وانما يستحق ذلك من هو متصف بصفات الكمال وهي امور وجودية فان الامور العدمية المحضة لا حمد فيها ولا خير ولا كمال ومعلوم ان كل ما يحمد فانما يحمد على ماله من صفات الكمال فكل ما يحمد به الخلق فهو من الخالق والذي منه ما يحمد عليه هو احق بالحمد فثبت انه المستحق للمحامد الكاملة وهو احق من كل محمود بالحمد والكمال من كل كامل وهو المطلوب²

¹مجموع الفتاوى ج: 16 ص: 384

²مجموع الفتاوى ج: 6 ص: 81-84

لم يكن إشراكهم أنهم جعلوهم خالقين بل أن جعلوهم وسائط في العبادة

أن الله سبحانه وتعالى يقول الصدق و يعمل بالعدل كما قال {وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا
{الأنعام 115} وقال هود {إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ} هود 56 فأخبر أن الله على صراط
مستقيم وهو العدل الذي لا عوج فيه وقال {هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ
مُسْتَقِيمٍ} النحل 76 و هو مثل ضربه الله لنفسه و لما يشرك به من الأوثان كما ذكر ذلك في قوله
{قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ} يونس 35 الآية و قال {أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ
لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ} {17} {وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ} {18} {وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا
تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ} {19} {وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ} {20} {أَمْوَاتٌ غَيْرُ
أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ} {21} {النحل 17-21} فأخبر أنه خالق منعم عالم و ما يدعون من دونه
لا تخلق شيئاً و لا تنعم بشيء و لا تعلم شيئاً و أخبر أنها ميتة فهل يستوى هذا وهذا فكيف يعبدونها
من دون الله مع هذا الفرق الذي لا فرق أعظم منه و لهذا كان هذا أعظم الظلم و الافك و من هذا
الباب قوله تعالى {قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى اللَّهُ خَيْرٌ مِمَّا يَشْرِكُونَ} {النمل 59}
فقوله تعالى {ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنْ آرزاقاً حَسَنًا فَهُوَ يُنْفِقُ
مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُونَ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ} {75} {وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا
أَبْكُمُ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ
بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ} {76} {النحل 75-76} كلاهما مثل بين الله فيه أنه لا يستوي هو و ما
يشركون به كما ذكر نظير ذلك في غير موضع و إن كان هذا الفرق معلوما بالضرورة لكل أحد لكن
المشركون مع اعترافهم بأن الهتهم مخلوقة مملوكة له يسوون بينه و بينها في المحبة و الدعاء و
العبادة و نحو ذلك و المقصود هنا أن الرب سبحانه على صراط مستقيم¹

ومن الفرقان أنه بين الفرق بين الخالق والمخلوق وان المخلوق لا يجوز أن يسوى بين الخالق
والمخلوق في شيء فيجعل المخلوق ندا للخالق كقوله تعالى {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ} {الشورى 11}
وقوله {وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ} {الإخلاص 4} وضرب الأمثال في القرآن على من لم يفرق بل عدل بربه
وسوى بينه وبين خلقه كما قالوا وهم في النار يصرخون فيها {تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ} {97}
إِذْ نُسَوِّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ} {98} الشعراء 97-98 وقال تعالى {أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا
تَذَكَّرُونَ} {17} {وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ} {18} {وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا
تُعْلِنُونَ} {19} {وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ} {20} {أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا
يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ} {21} {النحل 17-21} فهو سبحانه الخالق العليم الحق الحى الذى لا يموت ومن
سواه لا يخلق شيئاً²

¹مجموع الفتاوى ج: 14 ص: 177-179

²مجموع الفتاوى ج: 13 ص: 14

والمشركون كانوا يقرون بهذا التوحيد الذي هو نفي خالقين لم يكن مشركو العرب تنازع فيه ولهذا قال الله لهم **{أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ}** النحل 17 فكانوا يعترفون بأن آلهتهم لا تخلق ولهذا ذكر الله تعالى هذا التقرير بعد قوله **{قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ}** {84} سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ {85} قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ {86} سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ {87} قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ {88} سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ {89} بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ {90} مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا لُدَّهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ {91} عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ {92} المؤمنون 84- 92 ولم يكن إشراكهم أنهم جعلوهم خالقين بل أن جعلوهم وسائط في العبادة فاتخذوهم شفعاء وقالوا **{ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى }** الزمر 3 كما قال الله تعالى عنهم **{ وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شَفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَتَنْبِئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ }** يونس 18¹

المشركون جعلوا لله مالا يرضونه لأنفسهم

وقال يوسف الصديق **{38}** يَا صَاحِبِي السَّجْنَ أَرَبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمْ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ {39} مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءَ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ {40} يوسف 39-40 وكل من عبد شيئا من دون الله فإنما يعبد أسماء ما أنزل الله بها من سلطان وأيضا فالذين يعبدون الملائكة أو الأنبياء لا يرونهم وإنما يعبدون تماثيل صوروها على مثال صورهم وهي من تراب وحجر وخشب فهم يعبدون الموات وفي الصحيح صحيح مسلم عن أبي الهياج الأسدي قال قال لي على بن أبي طالب رضى الله عنه ألا أبعثك على ما بعثتني عليه رسول الله بعثتني أن لا أَدع تماثلا إلا طمسته ولا قبرا مشرفا إلا سويته وقال تعالى **{أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ}** {17} **وَأَنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَعَفُورٌ رَحِيمٌ** {18} **وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسْرُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ** {19} **وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ {20} أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ** {21} النحل 17-21 وجميع الأموات لا يشعرون أيان يبعثون فلا يعلم بقيام الساعة إلا الله عز وجل فهم لا يرضون أن يكون مملوك احدهم شريكه وقد جعلوا مملوكى الرب شركاء له فجعلوا لله مالا يرضونه لأنفسهم من الشركاء ومن الأولاد لا يرضون مملوكيهم أن يكونوا شركاء وقد جعلوهم لله شركاء ولا يرضون من الأولاد بالإناث فلا يرضونها ولدا ولا نظيرا وهم جعلوا الإناث لله أولادا ونظراء والنكته أن الله أجل وأعظم وأعلى وأكبر من كل شيء وهم قد جعلوا لله مالا يرضونه لأنفسهم وهذا يتناول كل من وصف الله بصفة ينزه عنها المخلوق كالذين قالوا أنه فقير وأنه بخيل والذين قالوا إنه لا يوصف إلا بالسلب أولا يوصف لا بسلب ولا إثبات والذين جعلوا بعض المخلوقات مماثلة له فى كل شيء من الأشياء فى عبادة له أو دعاء له أو توكل عليه أو حبه مثل حبه والذين قالوا يفعل لا لحكمة بل عبثا والذين قالوا إنه يجوز أن يضع الأشياء فى غير

¹منهاج السنة النبوية ج: 3 ص: 336

مواضعها فيعاقب خيار الناس ويكرم شرارهم والذين قالوا لا يقدر أن يتكلم بمشيئته والذين قالوا أنه لا يسمع ولا يبصر والذين قالوا إنه يجوز أن يحب غيره كما يحب هو ويدعى ويسأل فجعلوا مملوكه ندا له ونظائر ذلك كثيرة¹

من قدر شيئا فاعلا لئلا يفرقه بحال كان مخالفا لصريح المعقول

والواجب في الأدلة الإلهية أن يسلك بها هذا المسلك فيعلم أن كل كمال كان لمخلوق فالخالق أحق به فإن كمال المخلوق من كمال خالقه وعلى اصطلاحهم (الفلاسفة) كمال المعلول من كمال العلة ولأن الواجب أكمل من الممكن فهو أحق بكل كمال ممكن لا نقص فيه من كل ممكن ويعلم أن كل نقص تنزه عنه مخلوق فالخالق أحق بتنزيهه عنه فإن النقص يناقض الكمال فإذا كان أحق بثبوت الكمال كان أحق بنفي النقص وهذه برهانية يقينية وهم يسلمونها وهم يقولون أيضا إن الفعل صفة كمال ويردون على من يقول من أهل الكلام إنه ليس صفة كمال ولا نقص وقد قال تعالى { **أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ** } النحل 17 وإذا كان كذلك فمن المعقول أن الفاعل الذي يفعل بقدرته ومشئته أكمل ممن لا قدرة له ولا إرادة والفاعل القادر المختار الذي يفعل شيئا بعد شيء أكمل ممن يكون مفعوله لازما له يقدر على إحداث شيء ولا تغييره من حال إلى حال إن كان يعقل فاعلا يلزمه مفعوله المعين فإن الذي يقدر أن يفعل مفعولات متعددة ويقدر على تغييرها من حال إلى حال أكمل ممن ليس كذلك فلماذا يصفون واجب الوجود بالفعل الناقص إن كان ذلك ممكنا كيف وما ذكره ممتنع لا يعقل فاعل على الوجه الذي قالوه بل من قدر شيئا فاعلا لئلا يفرقه بحال كان مخالفا لصريح المعقول عند الناس وقيل له هذا صفة له أو مشارك له ليس مفعولا له ولو قيل لعامة العقلاء السليمي الفطرة إن الله خلق السماوات والأرض ومع هذا فلم تزاها معه لقالوا هذا ينافي خلقه لهما فلا يعقل خلقه لهما إلا إذا خلقهما بعد أن لم تكونا موجودتين وأما إذا قيل لم تزاها موجودتين كان القول مع ذلك بأنه خلقهما جميعا بين المتناقضين في فطر الناس وعقولهم التي لم تغير عن فطرتها ولهذا كان مجرد إخبار الرسل بأن الله خلق السماوات والأرض ونحو ذلك كافيا في الإخبار بحدوثهما لم يحتاجوا مع ذلك أن يقولوا خلقهما بعد عدمهما ولكن أخبروا بزمان خلقهما كما في قوله تعالى { **خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ** } يونس 3 والإنسان لما كان يعلم أنه خلق بعد أن لم يكن ذكر بذلك ليستدل به على قدرة الخالق على تغيير العادة ولهذا ذكر تعالى ذلك في خلق يحيى بن زكريا عليه السلام وفي النشأة الثانية قال تعالى { **يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا** } 7 { **قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا** } 8 { **قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّئْ وَقَدْ خَلَقْنَاكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا** } 9 { **مريم 7-9** وقال تعالى { **وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ أَإِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا** } 66 { **أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ**

¹مجموع الفتاوى ج: 27 ص: 364-365

شَيْئاً {67} مريم 66- 67 فذكر الإنسان بما يعلمه من أنه خلقه ولم يك شيئاً ليستدل بذلك على قدرته على مثل ذلك وعلى ما هو أهون منه¹

مطالعة آلاء الله ونعمائه يثير ذلك عنده باعثاً لمحبة الله

قال تعالى { **وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَعَفُورٌ رَحِيمٌ** {النحل18} ولا بد من التنبيه على قاعدة تحرك القلوب الى الله عز وجل فتعتمصم به فتقل آفاتها أو تذهب عنها بالكلية بحول الله وقوته فنقول إعلم أن محركات القلوب الى الله عز وجل ثلاثة المحبة والخوف والرجاء وأقواها المحبة وهي مقصودة تراد لذاتها لأنها تراد في الدنيا والآخرة بخلاف الخوف فإنه يزول في الآخرة قال الله تعالى { **إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ** } الأحقاف13 والخوف المقصود منه الزجر والمنع من الخروج عن الطريق فالمحبة تلقى العبد في السير الى محبوبه وعلى قدر ضعفها وقوتها يكون سيره إليه والخوف يمنعه أن يخرج عن طريق المحبوب والرجاء يقوده فهذا أصل عظيم يجب على كل عبد أن يتنبه له فإنه لا تحصل له العبودية بدونه وكل أحد يجب أن يكون عبداً لله لا لغيره فإن قيل فالعبد في بعض الأحيان قد لا يكون عنده محبة تبعثه على طلب محبوبه فأى شيء يحرك القلوب قلنا يحركها شيان أحدهما كثرة الذكر للمحبوب لأن كثرة ذكره تعلق القلوب به ولهذا أمر الله عز وجل بالذكر الكثير فقال تعالى { **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا** } {41} **وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا** {42} {الأحزاب41-42} الآية والثاني مطالعة آلائه ونعمائه قال الله تعالى { **فَاذْكُرُوا آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ** } الأعراف69 وقال تعالى { **وَمَا بِكُمْ مِّنْ نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ** } {النحل53} وقال تعالى { **وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعْمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً** } لقمان20 وقال تعالى { **وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا** } {النحل18} فإذا ذكر العبد ما أنعم الله به عليه من تسخير السماء والأرض وما فيها من الأشجار والحيوان وما أسبغ عليه من النعم الباطنة من الإيمان وغيره فلا بد أن يثير ذلك عنده باعثاً وكذلك الخوف تحركه مطالعة آيات الوعيد والزجر والعرض والحساب ونحوه وكذلك الرجاء يحركه مطالعة الكرم والحلم والعفو وما ورد في الرجاء والكلام في التوحيد واسع وإنما الغرض مبلغ التنبيه على تضمنه الإستغناء بأدنى إشارة والله سبحانه وتعالى أعلم وصلى الله على محمد وآله وصحبه وسلم²

كل ما لا حياة فيه يسمى مواتاً وميتاً

كل ما لا حياة فيه يسمى مواتاً وميتاً قال الله تعالى { **وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ** } {20} **أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ** } {21} {النحل20-21} فسمى

¹منهاج السنة النبوية ج: 1 ص: 371-373

²مجموع الفتاوى ج: 1 ص: 95-96

الأصنام الجامدات أمواتا وتسمى الأرض مواتا كما قال النبي صلى الله عليه وسلم من أحيأ أرضاً ميتة فهي له¹

وأن جعلهم (يقصد الفلاسفة) سلب الموت والسمم والبكم عن الجماد لزعهم أنه غير قابل لها
إصطلاح محض فإنه موجود في كلام الله تسمية الجماد ميتاً²

فالقُرآن قد سمي الجماد ميتاً في غير موضع كقوله تعالى { **وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ** } {20} **أَمْواتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ** } {21} **النحل 20-21**
الآية فسمى الأصنام أمواتاً وهي حجارة و قال { **وَآيَةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا** } يس 33 ولا نسلم
إمتناع قبول هذه الحياة بل الرب تعالى قد جعل الجمادات قابلة للحياة ولا يمتنع قبولها لها فإن الله
تعالى قد جعل عصى موسى حية تسعى فدل على أن الخشب يمكن أن يكون حيواناً موسى لما إغتسل
جعل ثوبه على حجر ففر الحجر بثوبه و قد أحيأ الله الحوت المشوي الذي كان معه و مع فتاه و قد
سبح الحصا و الطعام سبح و هو يؤكل و كان حجر يسلم على النبي صلى الله عليه و سلم و حن
الجدع و الجبال سبحت مع داود و نظائر هذا كثيرة و قد قال تعالى { **وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ**
} {الإسراء 44} ³

الدعاء قصد المدعو والتوجه إليه

لفظ الدعاء والدعوة في القرآن يتناول معنيين دعاء العبادة ودعاء المسألة و الدعاء
قصد المدعو و التوجه إليه إما على وجه المسألة و إما على وجه العبادة المحضة لأن دعاء الشيء
هو طلبه و إرادته سواء طلب لذاته أو للأمر منه و من ذلك قوله تعالى { **وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ
لَكُمْ** } غافر 60 فإنه فسر بالمسألة و بالعبادة و قال تعالى { **وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ
شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ** } {النحل 20} ⁴

قال الله تعالى { **فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذِّبِينَ** } الشعراء 213 و قال تعالى { **وَمَنْ
يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ** } المؤمنون 117 و قال
تعالى { **وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ** } القصص 88 و قال { **وَإِنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ
كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا** } الجن 19 و قال { **إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِ إِلَّا إِناثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا
مَّرِيدًا** } النساء 117 و لفظ الصلاة في اللغة أصله الدعاء و سميت الصلاة دعاء لتضمنها معنى
الدعاء و هو العبادة و المسألة و في الصحيحين عن النبي انه قال ينزل ربنا كل ليلة الى السماء الدنيا

¹الصفدية ج: 1 ص: 95 و مجموع الفتاوى ج: 12 ص: 357 و مجموع الفتاوى ج: 3 ص: 28 و مجموع

الفتاوى ج: 6 ص: 89

²الجواب الصحيح ج: 3 ص: 219

³مجموع الفتاوى ج: 8 ص: 26

⁴شرح العمدة ج: 4 ص: 28

حين يبقى ثلث الليل الآخر فيقول من يدعوني فأستجيب له من يسألني فأعطيه من يستغفرني فأغفر له فذكر اولا لفظ الدعاء ثم ذكر السؤال والاستغفار والمستغفر سائل كما ان السائل داع لكن ذكر السائل لدفع الشر بعد السائل الطالب للخير وذكرهما جميعا بعد ذكر الداعي الذي يتناولهما وغيرهما فهو من باب عطف الخاص على العام وقال تعالى { وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ } البقرة 186 وكل سائل راغب راهب فهو عابد للمسؤول وكل عابد له فهو ايضا راغب وراهب يرجو رحمته ويخاف عذابه فكل عابد سائل وكل سائل عابد فاحد الاسمين يتناول الآخر عند تجرده عنه ولكن اذا جمع بينهما فانه يراد بالسائل الذي يطلب جلب المنفعة ودفع المضرة بصيغ السؤال والطلب ويراد بالعابد من يطلب ذلك بامثال الامر وان لم يكن في ذلك صيغ سؤال والعابد الذي يريد وجه الله والنظر اليه هو ايضا راج خائف راغب راهب يرغب في حصول مراده ويرهب من فواته قال تعالى { إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا } الأنبياء 90 وقال تعالى { تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا } السجدة 16 ولا يتصور ان يخلو داع لله دعاء عبادة او دعاء مسألة من الرغب والرهب من الخوف والطمع¹

والدعاء لله وحده سواء كان دعاء العبادة أو دعاء المسئلة والإستعانة كما قال تعالى { وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْعَدَاةِ وَالْعَشِيِّ } الأنعام 52 ودم الذين يدعون الملائكة والأنبياء وغيرهم فقال { وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ } النحل 20²

لطائف لغوية

1- قال تعالى { يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ } النحل 2 ولفظ العبد في القرآن يتناول من عبد الله فأما عبد لا يعبد فلا يطلق عليه لفظ عبده ونحو هذا كثير وقد يطلق لفظ العبد على المخلوقات كلها³

2- قال تعالى { يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ } النحل 2 فإن اسم الملائكة والملك يتضمن أنهم رسل الله كما قال تعالى { جَاعِلِ الْمَلَائِكَةَ رُسُلًا } فاطر 1 فالملائكة رسل الله في تنفيذ أمره الكوني الذي يدبر به السموات والأرض وأمره

¹مجموع الفتاوى ج: 10 ص: 238

²مجموع الفتاوى ج: 1 ص: 69

³مجموع الفتاوى ج: 1 ص: 43

الديني الذي تنزل به الملائكة فإنه قال {يُنزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ} النحل¹2

3- قال تعالى {يُنزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ} النحل² وإما ما يجعله الله في قلوب أنبيائه وأوليائه من الهدى والتأييد ونحو ذلك فسمى الملك روحا وسمى ما ينزل به الملك روحا وهما متلازمان ولهذا قال كثير من المفسرين إنه جبريل وقال بعضهم إنه الوحي²

4- قال تعالى {يُنزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ} النحل² فهذه الروح التي أوحاها والتي تنزل بها الملائكة على من يشاء من عباده غير الروح الأمين التي تنزل بالكتاب وكلاهما يسمى روحا وهما متلازمان فالروح التي ينزل بها الملك مع الروح الأمين التي ينزل بها روح القدس يراد بها هذا وهذا³

5- قال تعالى {وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِرٌ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ} النحل⁹ وقال الأصمعي إشتد بالشين المعجمة ليس بشيء و تعبيرهم عن السيد بالقصد يدل على أن لفظ القصد فيه معنى الجمع و القوة و القصد العدل كما أنه السداد و الصواب و هو المطابق الموافق الذي لا يزيد و لا ينقص و هذا هو الجامع المطابق و منه قوله تعالى {وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ} النحل⁹ أي القصد و هو السبيل العدل أي إليه تنتهي السبيل العادلة كما قال تعالى {إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى} الليل¹² أي الهدي إلينا هذا أصح الأقوال في الآيتين و كذلك قوله تعالى {قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ} الحجر⁴¹⁴

6- قال تعالى {وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِرٌ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ} النحل⁹ وقال تعالى {قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا

¹الجواب الصحيح ج: 2 ص: 187

²الجواب الصحيح ج: 2 ص: 187

³الجواب الصحيح ج: 3 ص: 273

⁴مجموع الفتاوى ج: 17 ص: 231

وَضَلُّوا عَنْ سِوَاءِ السَّبِيلِ { المائدة 77 أي وسط الطريق وهي السبيل القصد الذي قال الله فيها
{ وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ } { النحل 9 وهي الصراط المستقيم¹

7- كل ما لا حياة فيه يسمى مواتا وميتا قال الله تعالى { وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئاً
وَهُمْ يُخْلَقُونَ } {20} أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ } {21} { النحل 20 21 } فسمى
الأصنام الجامدات أمواتا وتسمى الأرض مواتا كما قال النبي صلى الله عليه وسلم من أحيا أرضا
ميتة فهي له²

¹منهاج السنة النبوية ج: 5 ص: 330

²الصفدية ج: 1 ص: 95 و مجموع الفتاوى ج: 12 ص: 357 و مجموع الفتاوى ج: 3 ص: 28 و مجموع
الفتاوى ج: 6 ص: 89

النحل 22-40

{ الْهَكْمُ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنْكَرَةٌ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ {22} لَا جْرَمَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ {23} وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَآذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ {24} لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمَنْ أَوْزَارَ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَاءَ مَا يَزُرُونَ {25} قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ {26} ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تُشَاقِقُونَ فِيهِمْ قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالسُّوءَ عَلَى الْكَافِرِينَ {27} الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ فَأَلْقَوْا السَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ بَلَى إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ {28} فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَلَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ {29} وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرًا لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلِدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ {30} جَنَّاتٌ عَدْنٌ يَدْخُلُونَهَا يُجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ كَذَلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ {31} الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ {32} هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرٌ رَبِّكَ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ {33} فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ {34} وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرَّسْلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ {35} وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكذِبِينَ {36} إِنْ تَحَرَّصَ عَلَى هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ {37} وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مِنْ يَمُوتٍ بَلَى وَوَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ {38} لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يُخْتَلَفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ {39} إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ {40}

التوحيد يكون من الله لنفسه

قال تعالى {إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنْكَرَةٌ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ} {22} لَا جَرَمَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ} {23} وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَادَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا **أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ} {24} النحل 22-24** فان التوحيد يكون من الله لنفسه فانه يوحد نفسه بنفسه كما قال تعالى {شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ} آل عمران 18 والقرآن مملوء من توحيد الله لنفسه فقد وحد نفسه بنفسه كقوله {إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ} {النحل 22}¹

{فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنْكَرَةٌ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ}

قال تعالى {إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ} ق37 فإن من يؤتى الحكمة وينتفع بالعلم على منزلتين اما رجل رأى الحق بنفسه فقبله فاتبعه ولم يحتج إلى من يدعوه فذلك صاحب القلب او رجل لم يعقله بنفسه بل هو محتاج إلى من يعلمه ويبينه له ويعظه ويؤدبه فهذا اصغى {أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ} ق37 اي حاضر القلب ليس بغائبه كما قال مجاهد او أوتي العلم وكان له ذكرى وتبين قوله {وَمِنْهُمْ مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ} {42} وَمِنْهُمْ مَّن يَنْظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْعُمْىَ وَلَوْ كَانُوا لَا يُبْصِرُونَ} {43} يونس 42-43 وقوله {وَمِنْهُمْ مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا} {الأنعام 25} ثم إذا كان حق القلب ان يعلم الحق فان الله هو الحق المبين {فَذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعَدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ} يونس 32 إذ كان كل ما يقع عليه لمحة ناظر او يجول في لفتة خاطر فالله ربه ومنشئه وفاطره ومبدئه لا يحيط علما إلا بما هو من آياته البينة في ارضه وسمائه واصدق كلمة قالها الشاعر كلمة لبيد الا كل شيء ما خلا الله باطل أي ما من شيء من الأشياء إذا نظرت إليه من جهة نفسه إلا وجدته الى العدم وما هو فقير إلى الحي القيوم فإذا نظرت إليه وقد تولته يد العناية بتقدير من أعطى كل شيء خلقه ثم هدى رأيته حينئذ موجودا مكسوا حلل الفضل والاحسان فقد استبان ان القلب إنما خلق لذكر الله سبحانه ولذلك قال بعض الحكماء المتقدمين من أهل الشام اظنه سليمان الخواص رحمه الله قال الذكر للقلب بمنزلة الغذاء للجسد فكما لا يجد الجسد لذة الطعام مع السقم فكذلك القلب لا يجد حلاوة الذكر مع حب الدنيا أو كما قال فإذا كان القلب مشغولا بالله عاقلا للحق متفكرا في العلم فقد وضع في موضعه كما ان العين إذا صرفت إلى النظر في الأشياء فقد وضعت في موضعها إما إذا لم يصرف إلى العلم ولم يوع فيه الحق فقد نسي ربه فلم يوضع في موضع بل هو ضائع ولا يحتاج ان نقول قد وضع في موضع غير موضعه بل لم يوضع اصلا فإن موضعه هو الحق وما سوى الحق باطل فإذا لم يوضع في الحق لم يبق إلا الباطل والباطل ليس بشيء أصلا وما ليس بشيء احرى أن لا يكون موضعا والقلب هو نفسه لا يقبل الا الحق فإذا لم يوضع فيه فإنه لا يقبل غير ما خلق له {وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا} {الفتح 23} وهو مع ذلك ليس بمتروك مخلى فإنه لا يزال في أودية الأفكار وأقطار الأمانى لا يكون على حال التي تكون عليها العين والأذن من الفراغ والتخلي فقد وضع في غير موضع لا مطلق ولا معلق موضوع لا موضع له وهذا من العجب فسبحان ربنا العزيز الحكيم وإنما تنكشف للانسان هذه الحال عند رجوعه

¹مجموع الفتاوى ج: 2 ص: 355

إلى الحق اما في الدنيا عند الانابة أو عند المنقلب إلى الآخرة فيرى سوى الحال التي كان عليها وكيف كان قلبه ضالاً عن الحق هذا إذا صرف في الباطل فأما لو ترك وحاله التي فطر عليها فارغاً عن كل ذكر خالياً عن كل فكر فقد كان يقبل العلم الذي لا جهل فيه ويرى الحق الذي لا ريب فيه فيؤمن بربه وينيب إليه فإن كل مولود يولد على الفطرة فابواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء لا يحس فيها من جدع

{ فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ } الروم 30 وإنما يحول بينه وبين الحق في غالب الحال شغله بغيره من فتن الدنيا ومطالب الجسد وشهوات النفس فهو في هذه الحال كالعين الناضرة إلى وجه الأرض لا يمكنها أن ترى مع ذلك الهلال أو هو يميل إليه فيصده عن اتباع الحق فيكون كالعين التي فيها قذى لا يمكنها رؤية الأشياء ثم الهوى قد يعترض له قبل معرفة الحق فيصده عن النظر فيه فلا يتبين له الحق كما قيل حبك الشيء يعمى ويصم فيبقى في ظلمة الأفكار وكثيراً ما يكون ذلك عن كبر يمنعه عن ان يطلب الحق { **إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنْكَرَةٌ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ** } 22 { **لَا جَرَمَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ** } 23 { النحل 22-23 وقد يعرض له الهوى بعد أن عرف الحق فيجده ويعرض عنه كما قال ربنا سبحانه فيهم { **سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كَلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْعُغْيِ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا** } الأعراف 146

"من دعا الى الضلالة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها الى يوم القيامة"

قال تعالى { **إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنْكَرَةٌ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ** } 22 { **لَا جَرَمَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ** } 23 { **وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَآذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا** **أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ** } 24 { **لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ** } 25 { النحل 22-25 فقد يعزم على الفعل في المستقبل من لا يفعل منه شيئاً في الحال والعزم على أن يفعل في المستقبل لا يكفي في وجود الفعل بل لا بد عند وجوده من حدوث تمام الإرادة المستلزمة للفعل وهذه هي الإرادة الجازمة و الإرادة الجازمة إذا فعل معها الإنسان ما يقدر عليه كان في الشرع بمنزلة الفاعل التام له ثواب الفاعل التام وعقاب الفاعل التام الذي فعل جميع الفعل المراد حتى يثاب ويعاقب على ما هو خارج عن محل قدرته مثل المشتركين والمتعاونين على أفعال البر ومنها ما يتولد عن فعل الإنسان كالداعي إلى هدى أو إلى ضلالة والسان سنة حسنة وسنة سيئة كما ثبت في الصحيحين عن النبي أنه قال من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه من غير أن ينقص من أجورهم شيء ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الوزر مثل أوزار من تبعه من غير أن ينقص أوزارهم شيء وثبت عنه في الصحيحين أنه قال من سن سنة حسنة كان له أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة من غير أن ينقص من أجورهم شيء فالداعي إلى الهدى وإلى الضلالة هو طالب مرید كامل الطلب والإرادة لما دعا إليه لكن قدرته بالدعاء والأمر وقدرة الفاعل بالإتياع والقبول ولهذا قرن الله تعالى في كتابه بين الأفعال المباشرة والمتولدة فقال { **مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَفُوا عَن رَسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطَؤُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوِّ نَيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ**

الْمُحْسِنِينَ {120} وَلَا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ {121} التوبة 120-121 فذكر في الآية الأولى ما يحدث عن أفعالهم بغير قدرتهم المنفردة وهو ما يصيبهم من العطش والجوع والتعب وما يحصل للكفار بهم من الغيظ وما ينالونه من العدو وقال { إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ } التوبة 120 فأخبر أن هذه الأمور التي تحدث وتتولد من فعلهم وفعل آخر منفصل عنهم يكتب لهم بها عمل صالح وذكر في الآية الثانية نفس أعمالهم المباشرة التي باشروها بأنفسهم وهي الإنفاق وقطع المسافة فلماذا قال فيها { إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ } التوبة 120 فإن هذه نفسها عمل صالح وإرادتهم في الموضوعين جازمة على مطلوبهم الذي هو أن يكون الدين كله لله وأن تكون كلمة الله هي العليا فما حدث مع هذه الإرادة الجازمة من الأمور التي تعين فيها قدرتهم بعض الإعانة هي لهم عمل صالح وكذلك الداعي إلى الهدى والضلالة لما كانت إرادته جازمة كاملة في هدى الأتباع وضلالهم وأتى من الإعانة على ذلك بما يقدر عليه كان بمنزلة العامل الكامل فله من الجزاء مثل جزاء كل من إتبعه للهادي مثل أجور المهتدين وللضل مثل أوزار الضالين وكذلك السان سنة حسنة وسنة سيئة فإن السنة هي ما رسم للتحري فإن السان كامل الإرادة لكل ما يفعل من ذلك وفعله بحسب قدرته ومن هذا قوله في الحديث المتفق عليه عن ابن مسعود عن النبي أنه قال لا تقتل نفس ظلما إلا كان على بن آدم الأول كفل من دمها لأنه أول من سن القتل فالكفل النصيب مثل القاتل كما فسره الحديث الآخر وهو كما إستباح جنس قتل المعصوم لم يكن مانع يمنعه من قتل نفس معصومة فصار شريكا في قتل كل نفس ومنه قوله تعالى { مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا } المائدة 32 ويشبه هذا أنه من كذب رسولا معيناً كان كتكذيب جنس الرسل كما قيل فيه { كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ } الشعراء 105 { كَذَّبَتْ عَادَ الْمُرْسَلِينَ } الشعراء 123 ونحو ذلك ومن الباب قوله تعالى { وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ } {12} { وَنَحْمِلْ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ } {13} العنكبوت 12-13 فأخبر أن أئمة الضلال لا يحملون من خطايا الأتباع شيئا وأخبر أنهم يحملون أثقالهم وهي أوزار الأتباع من غير أن ينقص من أوزار الأتباع شيء لأن إرادتهم كانت جازمة بذلك وفعلوا مقدورهم فصار لهم جزاء كل عامل لأن الجزاء على العمل يستحق مع الإرادة الجازمة وفعل المقدور منه وهو كما ثبت في الصحيحين من حديث ابن عباس عن أبي سفيان أن النبي كتب إلى هرقل فإن توليت فإن عليك إثم الأريسيين فأخبر أن هرقل لما كان امامهم المتبوع في دينهم أن عليه إثم الأريسيين وهم الأتباع وإن كان قد قيل إن أصل هذه الكلمة من الفلاحين والإكرة كلفظ الطاء بالتركي فإن هذه الكلمة تقلب إلى ما هو أعم من ذلك ومعلوم أنه إذا تولى عن أتباع الرسول كان عليه مثل آثامهم من غير أن ينقص من آثامهم شيء كما دل عليه سائر نصوص الكتاب والسنة ومن هذا قوله تعالى { إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنْكَرَةٌ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ } {22} { لَا جَرَمَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ } {23} { وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَآذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا آسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ } {24} { لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ } {25} النحل 22-25 فقله { وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ } {25} النحل 25 هي الأوزار الحاصلة لضلال الأتباع وهي حاصلة من جهة الأمر ومن جهة المأمور المتثل فالقدرتان مشتركتان في حصول ذلك الضلال فلماذا كان على هذا بعضه وعلى هذا بعضه إلا أن كل بعض هذين البعضين هو مثل وزر عامل كامل كما دلت عليه سائر النصوص مثل قوله من دعا إلى الضلالة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة ومن هذا الباب قوله تعالى { قَالَ

ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ فِي النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعْنَتْ أُخْتَهَا حَتَّى إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لِأَوْلَاهُمْ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ النَّارِ قَالَ لِكُلِّ ضِعْفٍ وَلَكِن لَّا تَعْلَمُونَ {الأعراف38} فأخبر سبحانه أن الأتباع دعوا على أئمة الضلال بتضعيف العذاب كما أخبر عنهم بذلك في قوله تعالى { وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبْرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلًا {67} رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنَهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا {68} } الأحزاب67-68 وأخبر سبحانه أن لكل من المتبعين والأتباع تضعيفا من العذاب ولكن لا يعلم الأتباع التضعيف ولهذا وقع عظيم المدح والثناء لأئمة الهدى وعظيم الذم واللعة لأئمة الضلال حتى روى في أثر لا يحضرني إسناده أنه ما من عذاب في النار إلا يبدأ فيه بابليلس ثم يصعد بعد ذلك إلى غيره وما من نعيم في الجنة إلا يبدأ فيه بالنبي ثم ينتقل إلى غيره فإنه هو الإمام المطلق في الهدى لأول بني آدم وآخرهم كما قال أنا سيد ولد آدم ولا فخر آدم ومن دونه تحت لوائى يوم القيامة ولا فخر وهو شفيع الأولين والآخرين فى الحساب بينهم وهو أول من يستفتح باب الجنة ¹

التقليد الباطل المذموم فهو قبول قول الغير بلا حجة

قال تعالى { وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَّاذَا أُنزِلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ {24} لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَاءَ مَا يَزُرُونَ {25} } النحل24-25 التقليد الباطل المذموم فهو قبول قول الغير بلا حجة قال الله تعالى { وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوْ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ } البقرة170 فى البقرة وفى المائدة وفى لقمان { وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوْ لَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ } لقمان21 الزخرف { قَالَ أَوْلَوْ جِئْتُكُمْ بِأَهْدَى مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ } الزخرف24 وفى الصافات { إِنَّهُمْ أَلَفُوا آبَاءَهُمْ ضَالِّينَ {69} فَهُمْ عَلَى آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ } {70} الصافات69-70 وقال { يَوْمَ نُقَلِّبُ وُجُوهَهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَ } {66} { وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبْرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلًا } {67} الأحزاب66-67 وقال { إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوْا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ } البقرة166 وقال { فَيَقُولُ الضُّعْفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُّعْتَدُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ النَّارِ } غافر47 وفى الآية الأخرى { فَهَلْ أَنْتُمْ مُّعْتَدُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ } إبراهيم21 وقال { لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ } النحل25 فهذا الاتباع والتقليد الذى ذمه الله هو اتباع الهوى اما للعادة والنسب كاتباع الآباء وأما للرئاسة كاتباع الاكابر والسادة والمتكبرين فهذا مثل تقليد الرجل لأبيه أو سيده أو ذي سلطانه وهذا يكون لمن لم يستقل بنفسه وهو الصغير فان دينه دين أمه فان فقدت فدين ملكه وأبيه فان فقدت كاللقيط فدين المتولى عليه وهو أهل البلد الذى هو فيه فأما إذا بلغ وأعرّب لسانه فاما شاكرا وإما كفورا وقد بين الله أن الواجب الاعراض عن هذا التقليد إلى اتباع ما أنزل الله على رسله فانهم حجة الله التى أعذر بها إلى خلقه والكلام فى التقليد فى شيين فى كونه حقا أو باطلا من جهة الدلالة وفى كونه مشروعاً أو غير مشروع من جهة الحكم أما الأول فان التقليد المذكور لا يفيد علما فان المقلد يجوز أن يكون مقلده مصيبا ويجوز أن يكون مخطئا وهو لا يعلم أمصيب هو أم مخطىء فلا تحصل له ثقة ولا

¹مجموع الفتاوى ج: 10 ص: 724-728 و الزهد والورع والعبادة ج: 1 ص: 155

طمأنينة فان علم ان مقلده مصيب كتقليد الرسول أو أهل الاجماع فقد قلده بحجة وهو العلم بأنه عالم وليس هو التقليد المذكور وهذا التقليد واجب للعلم بأن الرسول معصوم وأهل الاجماع معصومون وأما تقليد العالم حيث يجوز فهو بمنزلة اتباع الأدلة المتغلبة على الظن كخبر الواحد والقياس لأن المقلد يغلب على ظنه إصابه العالم المجتهد كما يغلب على ظنه صدق المخبر لكن بين اتباع الراوى والرأى فرق يذكر إن شاء الله فى موضوع آخر فان اتباع الراوى واجب لأنه انفرد بعلم ما أخبر به بخلاف الرأى فإنه يمكن أن يعلم من حيث علم ولأن غلط الرواية بعيد فان ضبطها سهل لهذا نقل عن النساء والعامه بخلاف غلط الرأى فإنه كثير لدقة طرقة وكثرتها وهذا هو العرف لمن يجوز قبول الخبر مع إمكان مراجعه المخبر عنه ولا يجوز قبول المعنى مع إمكان معرفة الدليل وأما العرف الأول فمتفق عليه بين أهل العلم ولهذا يوجبون اتباع الخبر ولا يوجب أحد تقليد العالم على من أمكنه الاستدلال وإنما يختلفون في جوازه لأنه يمكنه أن يعلم من حيث علم فهذه جملة وأما تفصيلها فنقول الناس فى الاستدلال والتقليد على طرفى نقيض منهم من يوجب الاستدلال حتى فى المسائل الدقيقة أصولها وفروعها على كل أحد ومنهم من يحرم الاستدلال فى الدقيق على كل أحد وهذا فى الأصول والفروع وخيار الأمور أوساطها¹

الرد على الذين أنكروا عذاب القبر والبرزخ

قال تعالى {قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ} {26} ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُخْزِبُهُمْ وَيَقُولُ أَيُّ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تُشَاقِقُونَ فِيهِمْ قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالسُّوءَ عَلَى الْكَافِرِينَ} {27} الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ فَأَلْفَوْا السَّلَامَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ بَلَى إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ} {28} فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَلَئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ} {29} وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرًا لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ} {30} جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ كَذَلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ} {31} الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ} {32} النحل 26-32 فهذه الآيات يخبر فيها بتوفى الملائكة للأنفس وخطابهم للموتى إما بخير وإما بشر وفعلهم ما يفعلونه بهم من نعيم وعذاب²

أن الذين أنكروا عذاب القبر والبرزخ مطلقا زعموا أنه لم يدل على ذلك القرآن وهو غلط بل القرآن قد بين فى غير موضع بقاء النفس بعد فراق البدن وبين النعيم والعذاب فى البرزخ وهو سبحانه تعالى فى السورة الواحدة يذكر القيامة الكبرى وأن الناس يكونون أزواجا ثلاثة كما قال تعالى (إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ} {1} لَيْسَ لَوْفَعَتِهَا كَاذِبَةٌ} {2} خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ} {3} إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًا} {4} وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا} {5} فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًّا} {6} وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً} {7} الواقعة 1-7 ثم إنه فى آخرها

¹مجموع الفتاوى ج: 20 ص: 16-18

²الصفدية ج: 1 ص: 206

القيامة الصغرى بالموت وأنهم ثلاثة أصناف بعد الموت فقال { فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلُقُومَ {83} وَأَنْتُمْ حِينِيذٍ تَنْظُرُونَ {84} وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لَا تُبْصِرُونَ {85} تُبْصِرُونَ {85} فَلَوْلَا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ {86} تَرْجِعُونَهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ {87} فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقْرَبِينَ {88} فَرَوْحٌ وَرِيحَانٌ وَجَنَّةٌ نَعِيمٌ {89} وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ أَصْحَابِ الْيَمِينِ {90} فَسَلَامٌ لَكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ {91} وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُكْذِبِينَ الضَّالِّينَ {92} فَنَزَلُ مِنْ حَمِيمٍ {93} وَتَصْلِيَةٌ جَاجِيمٍ {94} إِنْ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ {95} فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ {96} الواقعة 83-96 فهذا فيه أن النفس تبلغ الحلقوم وأنهم لا يمكنهم رجوعها وبين حال المقربين وأصحاب اليمين والمكذبين حينئذ وفي سورة القيامة ذكر أيضا القيامتين فقال (لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ {1} الْقِيَامَةِ 1 ثم قال { وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ {2} القيامة 2 وهي نفس الإنسان وقد قيل إن النفس تكون لوامة وغير لوامة وليس كذلك بل نفس كل إنسان لوامة فإنه ليس بشر إلا يلوم نفسه ويندم إما في الدنيا وأما في الآخرة فهذا إثبات النفس ثم ذكر معاد البدن فقال { أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ نَجْمَعُ عِظَامَهُ {3} بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ {4} بَلْ يُرِيدُ الْإِنْسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ {5} يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ {6} القيامة 3-6 ووصف حال القيامة إلى قوله { تَنْظُرُ أَنْ يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ {25} القيامة 25 ثم ذكر الموت فقال { كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ النَّرَاقِيَّ {26} القيامة 26 وهذا إثبات للنفس وأنها تبلغ التراقي كما قال هناك { بَلَغَتِ الْحُلُقُومَ { الواقعة 83 والتراقي متصلة بالحلقوم ثم قال { وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ {27} القيامة 27 يرقياها وقيل من صاعد يصعد بها إلى الله والاول أظهر لان هذا قبل الموت فإنه قال { وَظَنَّ أَنَّهُ الْفِرَاقُ {28} القيامة 28 فدل على أنهم يرجونه ويطلبون له راقيا يرقيه وأيضا فصعدوا لا يفنقروا إلى طلب من يرقى بها فإن الله ملائكة يفعلون ما يؤمرون والرقية أعظم الأدوية فإنها دواء روحاني ولهذا قال النبي في صفة المتوكلين لا يسترقون والمراد أنه يخاف الموت ويرجو الحياة بالراقي ولهذا قال { وَظَنَّ أَنَّهُ الْفِرَاقُ {28} القيامة 28 ثم قال { وَالنَّفْسُ السَّاقُ بِالسَّاقِ {29} إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ {30} القيامة 29-30 فدل على نفس موجودة قائمة بنفسها تساق إلى ربها والعرض القائم بغيره لا يساق ولا بدن الميت فهذا نص في إثبات نفس تفارق البدن تساق إلى ربها كما نطقت بذلك الأحاديث المستفيضة في قبض روح المؤمن وروح الكافر ثم ذكر بعد هذا صفة الكافر بقوله مع هذا الوعيد الذي قدمه { فَلَا صَدَقَ وَلَا صَلَّى {31} القيامة 31 وليس المراد أن كل نفس من هذه النفوس كذلك وكذلك سورة ق هي في ذكر وعيد القيامة ومع هذا قال فيها { وَجَاءَتْ سَكْرَةٌ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ {ق19} ثم قال بعد ذلك { وَتُفْخِخُ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ {ق20} فذكر القيامتين الصغرى والكبرى وقوله { وَجَاءَتْ سَكْرَةٌ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ {ق19} أي جاءت بما بعد الموت من ثواب وعقاب وهو الحق الذي أخبرت به الرسل ليس مراده أنها جاءت بالحق الذي هو الموت فإن هذا مشهور لم ينازع فيه ولم يقل أحد إن الموت باطل حتى يقال جاءت بالحق وقوله { ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ {ق19} فلا إنسان وإن كره الموت فهو يعلم أنه تلاقية ملائكته وهذا كقوله { وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ {الحجر 99} واليقين ما بعد الموت كما قال النبي أما عثمان بن مظعون فقد جاءه اليقين من ربه وإلا فنفس الموت مجرد عما بعده أمر مشهور لم ينازع فيه احد حتى يسمى يقينا وذكر عذاب القيامة والبرزخ معا في غير موضع ذكره في قصة آل فرعون فقال { وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ {45} النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ {46} غافر 45-46 وقال في قصة قوم نوح { مِمَّا خَطَبْتَهُمْ أُعْرِفُوا فَأَدْخَلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصَارًا {نوح 25} مع إخبار نوح لهم بالقيامة في قوله { وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا {17} ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا {18} نوح 17-18 وقد ذكرنا في غير موضع أن

الرسول قبل محمد أنذروا بالقيامة الكبرى تكذيباً لمن نفى ذلك من المتفلسفة وقال عن المنافقين { سُنِعِدْبُهُمْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ } التوبة 101 قال غير واحد من العلماء المرة الأولى في الدنيا والثانية في البرزخ ثم يردون الى عذاب عظيم في الآخرة وقال تعالى في الأنعام { وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَىٰ اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ } {93} وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ } {94} الأنعام 93-94 وهذه صفة حال الموت وقوله { أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ } {93} الأنعام 93 دل على وجود النفس التي تخرج من البدن وقوله { الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ } {93} الأنعام 93 دل على وقوع الجزاء عقب الموت وقال تعالى في الأنفال { وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ } {50} ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيَكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَامٍ لِلْعَبِيدِ } {51} الأنفال 50-51 وهذا ذوق له بعد الموت وقال تعالى { فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ } {محمد 27} وقد ثبت في الصحيحين من غير وجه أن النبي صلى الله عليه وسلم لما أتى المشركين يوم بدر في القلب ناداهم يا فلان يا فلان 1 هل وجدتم ما وعد ربكم حقا فقد وجدتم ما وعدني ربي حقا وهذا دليل على وجودهم وسماعهم وإنهم وجدوا ما وعدوه بعد الموت من العذاب وأما نفس قتلهم فقد علمه الأحياء منهم وقال تعالى في سورة النساء { إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضَ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَٰئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا } النساء 97 وهذا خطاب لهم اذا توفتهم الملائكة وهم لا يعاينون الملائكة إلا وقد ينسوا من الدنيا ومعلوم أن البدن لم يتكلم لسانه بل هو شاهد يعلم أن الذي يخاطب الملائكة هو النفس والمخاطب لا يكون عرضا وقال تعالى في النحل { الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ فَأَلْفَوْا السَّلَامَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ بَلَىٰ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ } {28} فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَلَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ } {29} النحل 28-29 وهذا إلقاء للسلم إلى حين الموت وقول للملائكة { مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ } {28} النحل 28 وهذا إنما يكون من النفس وقد قال في النحل { الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ } {32} النحل 32¹

الإلتفات إلى الأسباب شرك في التوحيد ومحو الأسباب أن تكون أسبابا تغيير في وجه العقل والأعراض عن الأسباب بالكلية قدح في الشرع

قال تعالى { جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ كَذَلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ } {31} الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ } {32} هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرٌ رَبِّكَ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ } {33} فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ } {34} النحل 31-34 منهم يتركون الأسباب الدنيوية ويجعلون وجود السبب كعدمه

¹مجموع الفتاوى ج: 4 ص: 263-271

ومنهم قوم يتركون الأسباب الأخروية فيقولون إن سبق العلم والحكم أنا سعداء فنحن سعداء وإن سبق أنا أشقياء فنحن أشقياء فلا فائدة في العمل ومنهم من يترك الدعاء بناء على هذا الأصل الفاسد ولا ريب أن هذا الأصل الفاسد مخالف للكتاب والسنة وإجماع السلف وأئمة الدين ومخالف لصريح المعقول ومخالف للحس والمشاهدة وقد سئل النبي صلى الله عليه وسلم عن إسقاط الأسباب نظرا إلى القدر فرد ذلك كما ثبت في الصحيحين عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال ما منكم من أحد إلا وقد علم مقعده من الجنة ومقعده من النار قالوا يا رسول الله أفلا ندع العمل ونتكل على الكتاب فقال لا تعملوا فكل ميسر لما خلق له وفي الصحيح أيضا أنه قيل له يا رسول الله أرأيت ما يكدر الناس فيه اليوم ويعملون أشيء قضى عليهم ومضى أم فيما يستقبلون مما أتاهم فيه الحجة فقال بل شيء قضى عليهم ومضى فيهم قالوا يا رسول الله أفلا ندع العمل ونتكل على كتابنا فقال لا تعملوا فكل ميسر لما خلق له وفي السنن عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قيل له أرأيت أدوية نتداوى بها ورقى نسترقى بها وتقاة نتقيها هل ترد من قدر الله شيئا فقال هي من قدر الله وقد قال تعالى في كتابه { وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّىٰ إِذَا أَقْلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ } الأعراف 57 وقال تعالى { وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَّاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ النُّشُورُ } فاطر 9 وفي الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال لسعد عسى أن تخلف فينتفع بك أقوام ويضر بك آخرون فكيف يمكن أن يشهد أن الله لم ينصب على توحيد دليلا ولا جعل للنجاة من عذابه وسيلة ولا جعل لما يفعله المتوكل من عباده سببا وهو مسبب الأسباب وخالق كل شيء بسبب منه لكن الأسباب كما قال فيها أبو حامد وأبو الفرج بن الجوزي وغيرهما الإلتفات إلى الأسباب شرك في التوحيد ومحو الأسباب أن تكون أسبابا تغيير في وجه العقل والأعراض عن الأسباب بالكلية قدح في الشرع¹

الجنة خلقها الله لأهل الإيمان به وطاعته فمن قدر أن يكون منهم يسره للإيمان والطاعة فمن قال أنا أدخل الجنة سواء كنت مؤمنا أو كافرا إذا علم أنى من أهلها كان مفتريا على الله في ذلك فإن الله إنما علم أنه يدخلها بالإيمان فإذا لم يكن معه إيمان لم يكن هذا هو الذي علم الله أنه يدخل الجنة بل من لم يكن مؤمنا بل كافرا فإن الله يعلم أنه من أهل النار لا من أهل الجنة ولهذا أمر الناس بالدعاء والاستعانة بالله وغير ذلك من الأسباب ومن قال أنا لا أدعوا ولا أسأل إتكالاً على القدر كان مخطئاً أيضاً لأن الله جعل الدعاء والسؤال من الأسباب التي ينال بها مغفرته ورحمته وهذا ونصره ورزقه وإذا قدر للعبد خيراً يناله بالدعاء لم يحصل بدون الدعاء وما قدره الله و علمه من أحوال العباد وعواقبهم فإنما قدره الله بأسباب يسوق المقادير إلى المواقيت فليس في الدنيا والآخرة شيء إلا بسبب والله خالق الأسباب والمسببات ولهذا قال بعضهم الإلتفات إلى الأسباب شرك في التوحيد ومحو الأسباب أن تكون أسبابا نقص في العقل والأعراض عن الأسباب بالكلية قدح في الشرع ومجرد الأسباب لا يوجب حصول المسبب فإن المطر إذا نزل وبذر الحب لم يكن ذلك كافياً في حصول النبات بل لابد من ريح مربية بإذن الله ولا بد من صرف الإلتفات عنه فلا بد من

¹ منهاج السنة النبوية ج: 5 ص: 365-366

تمام الشروط و زوال الموانع و كل ذلك بقضاه الله و قدره و كذلك الولد لا يولد بمجرد إنزال الماء في الفرج بل كم من إنزل و لم يولد له بل لا بد من أن الله شاء خلقه فتحبل المرأة و تربيته في الرحم و سائر ما يتم به خلقه من الشروط و زوال الموانع و كذلك أمر الآخرة ليس بمجرد العمل ينال الإنسان السعادة بل هي سبب و لهذا قال النبي صلى الله عليه و سلم أنه لن يدخل أحدكم الجنة بعمله قالوا و لا أنت يا رسول الله قال و لا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمته منه و فضل و قد قال تعالى { ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ } النحل 32 فهذه بآء السبب أى بسبب أعمالكم و الذى نفاه النبي صلى الله عليه و سلم بآء المقابلة كما يقال إشتريت هذا بهذا أى ليس العمل عوضاً و ثمناً كافياً في دخول الجنة بل لا بد من عفو الله و فضله و رحمته فبعفوه يمحو السيئات و برحمته يأتى بالخيرات و بفضله يضاعف البركات¹

وقال تعالى { وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ } {33} فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ } {34} النحل 33-34 السيئات هي عقوبات الأعمال كقوله { سَيِّئَاتٍ مَا مَكَّرُوا } غافر 45 فإن الحسنات والسيئات يراد بها النعم والنقم كثيرا كما يراد بها الطاعات والمعاصي²

إثبات الملائكة وأفعالها وكلامها وتأثيرها في العالم

قال تعالى { جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ كَذَلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ } {31} الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ } {32} النحل 31-32 فإن اسم الملائكة والملك يتضمن أنهم رسل الله كما قال تعالى { جَاعِلِ الْمَلَائِكَةَ رُسُلًا } فاطر 1 فالملائكة رسل الله في تنفيذ أمره الكوني الذي يدبر به السموات والأرض وأمره الديني الذي تنزل به الملائكة فإنه قال { اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ } الحج 75 وملائكة الله لا يحصي عددهم إلا الله ومن المعلوم أن الملائكة لهم من العلوم والأحوال والإرادات والأعمال ما لا يحصيه إلا ذو الجلال ووصفهم في القرآن بالتسبيح والعبادة لله أكثر من أن يذكر هنا³

قال تعالى { جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ كَذَلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ } {31} الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ } {32} النحل 31-32 فهذه الآيات يخبر فيها بتوفي الملائكة للأنفس وخطابهم للموتى إما بخير وإما بشر

¹مجموع الفتاوى ج: 8 ص: 70-71

²مجموع الفتاوى ج: 18 ص: 289

³مجموع الفتاوى ج: 4 ص: 122

وفعلهم ما يفعلونه بهم من نعيم وعذاب فهذه النصوص وأمثالها صريحة بإثبات الملائكة وأفعالها وكلامها وتأثيرها في العالم بالقول والفعل وهذا يبطل قولهم إن المؤثر في العالم هو القوى النفسانية أو القوى الطبيعية فإن الملائكة خارجة عن هذا وهذا وحينئذ فما يحصل من خوارق العادات بأفعال الملائكة أعظم مما يحصل بمجرد القوى النفسانية والأنبياء أحق الناس بمعاونة الملائكة لهم وتأييد الله تعالى لهم¹

من الإيمان بالله الإيمان بما وصف به نفسه

ومن الإيمان بالله الإيمان بما وصف به نفسه في كتابه وبما وصفه به رسوله محمد صلى الله عليه وسلم من غير تحريف ولا تعطيل ومن غير تكليف ولا تمثيل بل يؤمنون بأن الله سبحانه ليس كمثلهم شيء وهو السميع البصير فلا ينفون عنه ما وصف به نفسه ولا يحرفون الكلم عن مواضعه ولا يلدنون في أسماء الله وآياته ولا يكيفون ولا يمثلون صفاته بصفات خلقه لأنه سبحانه لا سمي له ولا كفو له ولا ند له ولا يقاس بخلقه سبحانه وتعالى فإنه أعلم بنفسه وبغيره وأصدق قيلا وأحسن حديثا من خلقه وهو سبحانه قد جمع فيما وصف وسمى به نفسه بين النفي والإثبات وقد دخل في هذه الجملة قوله سبحانه { هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرٌ رَبِّكَ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ } النحل 33²

الأمر الذي كتبه الله على نفسه أو حرمه على نفسه لا يكون إلا مقدورا له سبحانه

قال تعالى { هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرٌ رَبِّكَ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ } النحل 33 أن سائر أهل السنة الذين يقرون بالقدر ليس فيهم من يقول إن الله تعالى ليس بعدل ولا من يقول إنه ليس بحكيم ولا فيهم من يقول إنه يجوز أن يترك واجبا ولا أن يفعل قبيحا فليس في المسلمين من يتكلم بمثل هذا الكلام الذي أطلقه ومن أطلقه كان كافرا مباح الدم باتفاق المسلمين ولكن هذه مسألة القدر والنزاع فيها معروف بين المسلمين فأما نفاة القدر كالمعتزلة ونحوهم فقولهم هو الذي ذهب إليه متأخرو الإمامية وأما المثبتون للقدر وهو جمهور الأمة وأئمتها كالصحابية والتابعين لهم بإحسان وأهل البيت وغيرهم فهؤلاء تنازعوا في تفسير عدل الله وحكمته والظلم الذي يجب تنزيهه عنه وفي تحليل أفعاله وأحكامه ونحو ذلك فقالت طائفة إن الظلم ممتنع منه غير مقدور وهو محال لذاته كالجمع بين النقيضين وإن كل ممكن مقدور فليس هو ظلما وهؤلاء هم الذين قصدوا الرد عليهم وهؤلاء يقولون إنه لو عذب المطيعين ونعم العصاة لم يكن ظلما وقالوا الظلم التصرف فيما ليس له والله تعالى له كل شيء أو هو مخالفة الأمر

¹الصفدية ج: 1 ص: 206

²العقيدة الواسطية ج: 1 ص: 11

والله لا أمر له وهذا قول كثير من أهل الكلام المثبتين للقدر ومن وافقهم من الفقهاء أصحاب الأئمة الأربعة وقال طائفة بل الظلم مقدور ممكن والله تعالى منزه لا يفعله لعدله ولهذا مدح الله نفسه حيث أخبر أنه لا يظلم الناس شيئاً والمدح إنما يكون بترك المقدور عليه لا بترك الممتنع قالوا وقد قال تعالى { وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا } طه 112 قالوا الظلم أن يحمل عليه سيئات غيره والهضم أن يهضم حسناته وقال تعالى { ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَى نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ } 100 { وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبَابٍ } 101 { هود 100-101 فأخبر أنه لم يظلمهم لما أهلكهم بل أهلكهم بذنوبهم وقال تعالى { وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ } الزمر 69 فدل على أن القضاء بينهم بغير القسط ظلم والله منزه عنه وقال تعالى { وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ } الأنبياء 47 أي لا تنقص من حسناتها ولا تعاقب بغير سيئاتها فدل على أن ذلك ظلم ينزه الله عنه وقال تعالى { قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا لَدِيََّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعْدِ } 28 { مَا يَبْدُلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ } 29 { ق 28-29 وإنما نزه نفسه عن أمر يقدر عليه لا عن الممتنع لنفسه ومثل هذا في القرآن في غير موضع مما يبين أن الله ينتصف من العباد ويقضي بينهم بالعدل وأن القضاء بينهم بغير العدل ظلم ينزه الله عنه وأنه لا يحمل على أحد ذنب غيره وقال تعالى { وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى } الأنعام 164 فإن ذلك ينزه الله عنه بل لكل نفس ما كسبت وعليها ما اكتسبت وقد ثبت في الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أن الله تعالى يقول يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا فقد حرم على نفسه الظلم كما كتب على نفسه الرحمة في قوله { كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ } الأنعام 54 وفي الحديث الصحيح لما قضى الله الخلق كتب في كتاب فهو موضوع عنده فوق العرش إن رحمتي غلبت غضبي والأمر الذي كتبه الله على نفسه أو حرمه على نفسه لا يكون إلا مقدوراً له سبحانه فالممتنع لنفسه لا يكتبه على نفسه ولا يحرمه على نفسه وهذا القول قول أكثر أهل السنة والمثبتين للقدر من أهل الحديث والتفسير والفقهاء والكلام والتصوف من أتباع الأئمة الأربعة وغيرهم¹

ظلم النفس جنس عام يتناول كل ذنب

قال تعالى { هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ } النحل 33 فالله سبحانه وتعالى حرم على نفسه الظلم والظلم ممتنع من الله سبحانه وتعالى باتفاق المسلمين وقيل الظلم وضع الشيء في غير موضعه فهو سبحانه لا يظلم الناس شيئاً قال تعالى { وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا } طه 112 قال المفسرون هو أن يحمل عليه سيئات غيره ويعاقب بغير ذنبه والهضم أن يهضم من حسناته²

¹ منهاج السنة النبوية ج: 1 ص: 134-137

² مجموع الفتاوى ج: 1 ص: 219

قال تعالى { وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ } النحل 33 والتحقيق أن ظلم النفس جنس عام يتناول كل ذنب وفي الصحيحين أن أبا بكر قال يا رسول الله علمني دعاء أدعو به في صلاتي فقال قل اللهم إني ظلمت نفسي ظلما كثيرا ولا يغفر الذنوب إلا أنت فاغفر لي مغفرة من عندك وارحمني إنك أنت الغفور الرحيم وفي صحيح مسلم وغيره أن النبي كان يقول في استفتاحه اللهم أنت ربي وأنا عبدك ظلمت نفسي واعترفت بذنبي فاغفر لي فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت واهدني لأحسن الأخلاق فإنه لا يهدي لأحسنها إلا أنت واصرف عني سيئها فإنه لا يصرف عني سيئها إلا أنت وقد قال أبو البشر وزوجته { قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ } الأعراف 23 وقال موسى { رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي } القصص 16 وقال ذوالنون يونس { لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ } الأنبياء 87 وقالت بلقيس { رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ } النمل 44 وقد قال عن أهل القرى المعذبين { وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ } هود 101¹

السيئات هي عقوبات الأعمال

وقال تعالى { وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ } {33} فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ } {34} النحل 33-34 السيئات هي عقوبات الأعمال كقوله { سَيِّئَاتٍ مَا مَكُرُوا } غافر 45 فإن الحسنات والسيئات يراد بها النعم والنقم كثيرا كما يراد بها الطاعات والمعاصي²

أن الانسان هو فاعل السيئات وانه يستحق عليها العقاب و الله ينعم عليه بالحسنات عملها و جزائها فإنه إذا كان ما أصابهم من حسنة فهو من الله فالنعم من الله سواء اء كانت ابتداء أو كانت جزاء و إذا كانت جزاء و هي من الله فالعمل الصالح الذي كان سببها هو أيضا من الله أنعم بهما الله على العبد و إلا فلو كان هو من نفسه كما كانت السيئات من نفسه لكان كل ذلك من نفسه و الله تعالى قد فرق بين النوعين في الكتاب و السنة كما في الحديث الصحيح الالهي عن الله يا عبادي إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها فمن و جد خيرا فليحمد الله و من وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه و قد أمروا أن يقولوا في الصلاة { اهدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ } {6} صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ } {7} الفاتحة 6-7³

¹مجموع الفتاوى ج: 11 ص: 693

²مجموع الفتاوى ج: 18 ص: 289

³مجموع الفتاوى ج: 14 ص: 248

المشركون يترددون بين البدعة وبين الاحتجاج بالقدر على مخالفة امر الله

قال تعالى { وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ } {35} وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكذِبِينَ } {36} إِنْ تَحَرَّصَ عَلَى هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ } {37} النحل 35-37

واما المؤمنون بالله ورسوله عوامهم وخواصهم الذين هم اهل الكتاب كما قال النبي ان الله اهلين من الناس قيل من هم يا رسول الله قال اهل القرآن هم اهل الله وخاصته فهؤلاء يعلمون ان الله رب كل شيء ومليكه وخالقه وان الخالق سبحانه مبين للمخلوق ليس هو حالا فيه ولا متحدا به ولا وجوده وجوده و النصاري كفرهم بأن قالوا بالحلول والاتحاد بالمسيح خاصة فكيف من جعل ذلك عاما في كل مخلوق ويعلمون مع ذلك ان الله امر بطاعته وطاعة رسوله ونهى عن معصيته ومعصية رسوله وانه لا يحب الفساد ولا يرضى لعباده الكفر وان على الخلق ان يعبدوه فيطيعوا امره ويستعينوا به على ذلك كما قال {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ} الفاتحة 5 ومن عبادته وطاعته الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بحسب الامكان والجهاد في سبيله لاهل الكفر والنفاق فيجتهدون في اقامة دينه مستعينين به دافعين مزيلين بذلك ما قدر من السيئات دافعين بذلك ما قد يخاف من ذلك كما يزيل الانسان الجوع الحاضر بالاكل ويدفع به الجوع المستقبل وكذلك اذا آن اوان البرد دفعه باللباس وكذلك كل مطلوب يدفع به مكروه كما قالوا للنبي يا رسول اله اريت ادوية نتداوى بها ورقى نسترقى بها وتقاة نتقى بها هل ترد من قدر الله شيئا فقال هي من قدر الله وفي الحديث ان الدعاء والبلاء ليلتقيان فيعتلجان بين السماء والارض فهذا حال المؤمنين بالله ورسوله العابدين لله وكل ذلك من العبادة وهؤلاء الذين يشهدون الحقيقة الكونية وهي ربوبيته تعالى لكل شيء ويجعلون ذلك مانعا من اتباع امره الدينى الشرعي على مراتب في الضلال فغلاتهم يجعلون ذلك مطلقا عاما فيحتجون بالقدر في كل ما يخالفون فيه الشيعة وقول هؤلاء شر من قول اليهود والنصارى وهو من جنس قول المشركين الذين قالوا { لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ شَيْءٍ } {الأنعام 148} وقالوا {لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ} {الزخرف 20} وهؤلاء من اعظم اهل الارض تناقضا بل كل من احتج بالقدر فانه متناقض فانه لا يمكن ان يقر كل آدمى على ما فعل فلا بد اذا ظلمه ظالم او ظلم الناس ظالم وسعى في الارض بالفساد واخذ يسفك دماء الناس ويستحل الفروج ويهلك الحرث والنسل ونحو ذلك من انواع الضرر التي لا قوام للناس بها ان يدفع هذا القدر وان يعاقب الظالم بما يكف عدوان امثاله يقال له ان كان القدر حجة فدع كل احد يفعل ما يشاء بك وبغيرك وان لم يكن حجة بطل اصل قولك حجة واصحاب هذا القول الذين يحتجون بالحقيقة الكونية لا يترددون هذا القول ولا يلتزمونه وانما هم بحسب آرائهم واهوائهم كما قال فيهم بعض العلماء انت عند الطاعة قدرى وعند المعصية جبرى اى مذهب وافق هواك تمذهبت به ومنهم صنف يدعون التحقيق والمعرفة فيزعمون ان الامر والنهي لازم لمن شهد لنفسه فعلا واثبت له صنعا اما من شهدا أن افعالة مخلوقة او انه مجبور على ذلك وان الله هو المتصرف فيه كما تحرك سائر المتحركات فانه يرتفع عنه الامر والنهي والوعد والوعيد وقد يقولون من شهد الارادة سقط عنه التكليف ويزعم احدهم ان الخضر سقط عنه التكليف لشهودة الارادة فهؤلاء لا يفرق بين العامة والخاصة الذين شهدوا الحقيقة الكونية فشهدوا ان الله خالق أفعال العباد وانه يدبر جميع الكائنات وقد يفرقون بين من يعلم ذلك علما

وبين من يراة شهودا فلا يسقطون التكليف عن يؤمن بذلك ويعلمة فقط ولكن عن يشهده فلا يرى لنفسة فعلاً أصلاً وهؤلاء لا يجعلون الجبر وإثبات القدر مانعا من التكليف على هذا الوجه وقد وقع في هذا طوائف من المنتسبين الى التحقيق والمعرفة والتوحيد وسبب ذلك أنه ضاق نطاقهم عن كون العبد يؤمر بما يقدر عليه خلافة كما ضاق نطاق المعتزلة ونحوهم من القدرية عن ذلك ثم المعتزلة اثبتت الامر والنهي الشرعيين دون القضاء والقدر الذي هو إرادة الله العامة وخلقة لأفعال العباد وهؤلاء اثبتوا القضاء والقدر ونفوا الأمر والنهي في حق من شهد القدر إذا لم يمكنهم نفي ذلك مطلقا وقول هؤلاء شر من قولة المعتزلة ولهذا لم يكن في السلف من هؤلاء احد وهؤلاء يجعلون الامر والنهي للمجوبين الذين لم يشهدوا هذه الحقيقة الكونية ولهذا يجعلون من وصل الى شهود هذه الحقيقة يسقط عنه الامر والنهي وصار من الخاصة وربما تأولوا على ذلك قولة تعالى {وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ} الحجر 99 وجعلوا اليقين هو معرفة هذه الحقيقة وقول هؤلاء كفر صريح وان وقع فيه طوائف لم يعلموا انه كفر فانه قد علم بالاضطرار من دين الاسلام ان الامر والنهي لازم لكل عبد ما دام عقله حاضرا الى ان يموت لا يسقط عنه الامر والنهي لا بشهوده القدر ولا بغير ذلك فمن لم يعرف ذلك عرفه وبين له فإن اصر على اعتقاد سقوط الأمر والنهي فانه يقتل وقد كثرت مثل هذه المقالات في المستأخرين واما المستقدمون من هذه الأمة فلم تكن هذه المقالات معروفة فيهم وهذه المقالات هي محادة لله ورسوله ومعادة له وصد عن سبيله ومشاقة له وتكذيب لرسله ومضادة له في حكمه وان كان من يقول هذه المقالات قد يجهل ذلك ويعتقد ان هذا الذي هو عليه هو طريق الرسول وطريق اولياء الله المحققين فهو في ذلك بمنزلة من يعتقد ان الصلاة لا تجب عليه لاستغنائه عنها بما حصل له من الأحوال القلبية او ان الخمر حلال له لكونه من الخواص الذين لا يضرهم شرب الخمر او ان الفاحشة حلال له لأنه صار كالبحر لا تكدره الذنوب ونحو ذلك ولا ريب ان المشركين الذين كذبوا الرسل يترددون بين البدعة المخالفة لشرع الله وبين الاحتجاج بالقدر على مخالفة امر الله فهؤلاء الأصناف فيهم شبه من المشركين اما ان يبتدعوا واما ان يحتجوا بالقدر واما ان يجمعوا بين الأمرين كما قال تعالى عن المشركين {وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ اتَّقُوا اللَّهَ مَا لَا تَعْلَمُونَ} الأعراف 28 وكما قال تعالى عنهم **{ وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ } النحل 35** وقد ذكر عن المشركين ما ابتدعوه من الدين الذي فيه تحليل الحرام والعبادة التي لم يشرعها الله بمثل قوله تعالى {وَقَالُوا هَذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرَّتْ حَجْرٌ لَا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَنْ نَشَاءُ بَزَعْمِهِمْ وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَامٌ لَا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا افْتِرَاءٌ عَلَيْهِ} الأنعام 138 الى آخر السورة وكذلك في سورة الاعراف في قوله {يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ} الأعراف 27 الى قوله {وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ} الأعراف 28 الى قوله {قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ} الأعراف 29 الى قوله {وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ} {31} {قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ} {32} الأعراف 31-32 الى قوله {قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَّنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ} الأعراف 33 وهؤلاء قد يسمون ما احدثوه من البدع حقيقة كما يسمون ما يشهدون من القدر حقيقة وطريق الحقيقة عندهم هو السلوك الذي لا يتقيد صاحبه بامر الشارع ونهيه ولكن بما يراه ويذوقه ويجده ونحو ذلك وهؤلاء لا يحتجون بالقدر مطلقا بل عمدتهم اتباع آرائهم واهوائهم وجعلهم لما يرونه ويهوونه حقيقة وامرهم باتباعها دون اتباع امر الله ورسوله نظير بدع اهل الكلام من الجهمية

وغيرهم الذين يجعلون ما ابتدعوه من الاقوال المخالفة للكتاب والسنة حقائق عقلية يجب اعتقادها دون ما دلت عليه السمعيات ثم الكتاب والسنة اما ان يحرفوه عن مواضعه واما ان يعرضوا عنه بالكلية فلا يتدبرونه ولا يعقلونه بل يقولون نفوض معناه الى الله مع اعتقادهم نقيض مدلوله واذا حقق على هؤلاء ما يزعونه من العقلية المخالفة للكتاب والسنة وجدت جهليات واعتقادات فاسدة وكذلك اولئك اذا حقق عليهم ما يزعونه من حقائق اولياء الله المخالفة للكتاب والسنة وجدت من الاهواء التي يتبعها اعداء الله لا اولياؤه واصل ضلال من ضل هو بتقديم قياسه على النص المنزل من عند الله واختياره الهوى على اتباع امر الله فان الذوق والوجد ونحو ذلك هو بحسب ما يحبه العبد فكل محب له ذوق ووجد بحسب محبته فاهل الايمان لهم من الذوق والوجد مثل ما بينه النبي صلى الله عليه وسلم بقوله في الحديث الصحيح ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الايمان من كان الله ورسوله احب اليه مما سواهما ومن كان يحب المرء لا يحبه الا الله ومن كان يكره ان يرجع في الكفر بعد اذا انقذه الله منه كما يكره ان يلقى في النار وقال في الحديث الصحيح ذاق طعم الايمان من رضى بالله ربا وبالاسلام ديناً وبمحمد نبياً وأما اهل الكفر والبدع والشهوات فكل بحسبه قيل لسفيان بن عيينة ما بال اهل الاهواء لهم محبة شديدة لأهوائهم فقال أنسيت قوله تعالى { وَأَشْرَبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ } البقرة 93 أو نحو هذا من الكلام فعباد الاصنام يحبون آلهتهم كما قال تعالى { وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَنْدَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ } البقرة 165 وقال { فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَن أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ } القصص 50 وقال { إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِّن رَّبِّهِمُ الْهُدَى } النجم 23 ولهذا يميل هؤلاء الى سماع الشعر والأصوات التي تهيج المحبة المطلقة التي لا تختص بأهل الايمان بل يشترك فيها محب الرحمن ومحب الاوثان ومحب الصلبان ومحب الاوطان ومحب الاخوان ومحب المردان ومحب النسوان وهؤلاء الذين يتبعون أذواقهم ومواجيدهم من غير اعتبار لذلك بالكتاب والسنة وما كان عليه سلف الأمة فالمخالف لما بعث به رسوله من عبادته وطاعته وطاعة رسوله لا يكون متبعاً لدين شرعه الله كما قال تعالى { تَمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ } {18} إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا عَنكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً } {19} الجاثية 18-19 الى قوله { وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ } {19} الجاثية 19 بل يكون متبعاً لهواه بغير هدى من الله قال تعالى { أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنَ بِهِ اللَّهُ } الشورى 21 وهم في ذلك تارة يكونون على بدعة يسمونها حقيقة يقدمونها على ما شرعه الله وتارة يحتجون بالقدر الكوني على الشريعة كما أخبر الله به عن المشركين كما تقدم ومن هؤلاء طائفة هم اعلاهم قدرا وهم مستمسكون بالدين في اداء الفرائض المشهورة واجتناب المحرمات المشهورة لكن يغلطون في ترك ما امروا به من الاسباب التي هي عبادة ظانين ان العارف اذا شهد القدر اعرض عن ذلك مثل من يجعل التوكل منهم او الدعاء ونحو ذلك من مقامات العامة دون الخاصة بناء على ان من شهد القدر علم ان ما قدر سيكون فلا حاجة الى ذلك وهذا غلط عظيم فان الله قدر الاشياء باسبابها كما قدر السعادة والشقاوة باسبابها كما قال النبي صلى الله عليه وسلم ان الله خلق للجنة اهلا خلقها لهم وهم في اصلاص آبائهم وبعمل اهل الجنة يعملون وكما قال النبي لما أخبرهم بان الله كتب المقادير فقالوا يا رسول الله افلا ندع العمل ونتكل على الكتاب فقال لا اعملوا فكل ميسر لما خلق له اما من كان من اهل السعادة فسييسر لعمل اهل السعادة واما من كان من اهل الشقاوة فسييسر لعمل اهل الشقاوة فما امر الله به عباده من الاسباب فهو عبادة والتوكل مقرون بالعبادة كما في قوله تعالى { فَأَعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ } هود 123 وفي قوله { قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَاب } الرعد 30 وقول شعيب عليه السلام { عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ } هود 88 ومنهم طائفة قد تترك المستحبات من الاعمال دون الواجبات

فتنقص بقدر ذلك ومنهم طائفة يغترون بما يحصل لهم من خرق عادة مثل مكاشفة او استجابة دعوة مخالفة للعادة العامة ونحو ذلك فيشتغل احدهم عما امر به من العبادة والشكر ونحو ذلك فهذه الأمور ونحوها كثيرا ما تعرض لاهل السلوك والتوجه وانما ينجو العبد منها بملازمة امر الله الذي بعث به رسوله في كل وقت كما قال الزهري كان من مضى من سلفنا يقولون الاعتصام بالسنة نجاة وذلك ان السنة كما قال مالك رحمه الله مثل سفينة نوح من ركبها نجا ومن تخلف عنها غرق¹

ليس لأحد ان يخرج عن طاعة الرسول لا من الخواص ولا من العوام

قال تعالى { وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ } {35} { وَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكذِبِينَ } {36} { إِنْ تَحَرَّصَ عَلَى هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ } {37} { النحل 35-37 } فالرسول صلى الله عليه وسلم هو الصادق المصدوق المبين للناس ما نزل اليهم المبلغ لرسالة ربه المخاطب لهم بلسان عربي مبين قال تعالى { وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ } { إبراهيم 4 } وقال تعالى { إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ } { الزخرف 3 } وقال تعالى { وَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ } { القمر 17 } فهذا ونحوه مما يبين أن الرسل عليهم أن يبلغوا البلاغ المبين يقال بان الشيء وأبان واستبان وتبين وبين كلها أفعال لازمة وقد يقال أبان غيره وبينه وتبينه واستبانه ومعلوم أن الرسل فعلوا ما عليهم بل قد أخذ الله على أهل العلم الميثاق بأن يبينوا العلم ولا يكتموه وذم كاتميه فقال تعالى { وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ } { آل عمران 187 } وقال تعالى { وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ } { البقرة 140 } وقال تعالى { إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ } { البقرة 159 } فقد لعن كاتميه وأخبر أنه بينه للناس في الكتاب فكيف يكون قد بينه للناس وهو قد كتم الحق وأخفاه وأظهر خلاف ما أبطن فلو سكت عن بيان الحق كان كاتما ومن نسب الانبياء الى الكذب والكتمان مع كونه يقول انهم انبياء فهو من أشر المنافقين وأخبثهم وأبينهم تناقضا وكثير من أهل النسك والعبادة والعلم والنظر ممن سلك طريق بعض الصوفية والفقراء وبعض أهل الكلام والفلسفة يسلك مسلك الباطنية في بعض الأمور لا في جميعها حتى يرى بعضهم سقوط الصلاة عن بعض الخواص أو حل الخمر وغيرها من المحرمات لهم أو ان لبعضهم طريقا الى الله عز وجل غير متابعة الرسول وقد يحتج بعضهم بقصة موسى والخضر ويظنون أن الخضر خرج عن الشريعة فيجوز لغيره من الأولياء ما يجوز له من الخروج عن الشريعة وهم في هذا ضالون من وجهين أحدهما ان الخضر لم يخرج عن الشريعة بل الذي فعله كان جائزا في شريعة موسى ولهذا لما بين له الأسباب أقره على ذلك ولو لم يكن جائزا لما أقره ولكن لم يكن موسى يعلم الأسباب التي بها أبيحت تلك فظن ان الخضر كالملك الظالم فذكر ذلك له الخضر و الثاني ان الخضر لم يكن من امة

¹مجموع الفتاوى ج: 10 ص: 163-172

موسى ولا كان يجب عليه متابعتة بل قال له انى على علم من علم الله علمنيه الله لا تعلمه وأنت على علم من علم الله علمكه الله لا اعلمه وذلك ان دعوة موسى لم تكن عامة فان النبى كان يبعث الى قومه خاصة ومحمد صلى الله عليه وسلم بعث الى الناس كافة بل بعث الى الانس والجن باطنا وظاهرا فليس لأحد ان يخرج عن طاعته ومتابعتة لا في الباطن ولا في الظاهر لا من الخواص ولا من العوام ومن هؤلاء من يفضل بعض الاولياء على الانبياء وقد يجعلون الخضر من هؤلاء وهذا خلاف ما أجمع عليه مشائخ الطريق المقتدى بهم دع عنك سائر أئمة الدين و علماء المسلمين بل لما تكلم الحكيم الترمذي فى كتاب ختم الأولياء بكلام وذكر انه يكون فى آخر الاولياء من هو أفضل من الصحابة وربما لوح بشيء من ذكر الأنبياء قام عليه المسلمون وأنكروا ذلك عليه ونفوه من البلد بسبب ذلك ولا ريب انه تكلم فى ذلك بكلام فاسد باطل لا ريب فيه ومن هناك ضل من اتبعه فى ذلك حتى صار جماعات يدعي كل واحد انه خاتم الأولياء كابن عربى صاحب الفصوص وسعد الدين بن حمويه وغيرهما وصار بعض الناس يدعي ان فى المتأخرين من يكون أفضل فى العلم بالله من أبى بكر وعمر والمهاجرين والأنتصار الى أمثال هذه المقالات التى يطول وصفها مما هو باطل بالكتاب والسنة والاجماع بل طوائف كثيرون آل الأمر بهم الى مشاهدة الحقيقة الكونية القدريّة وظنوا ان من شهدها سقط عنه الأمر والنهي والوعد والوعيد وهذا هو دين المشركين الذين قالوا {لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ شَيْءٍ} {الأنعام 148} وهؤلاء شر من القدريّة المعتزلة الذين يقرون بالأمر والنهي والوعد والوعيد ويكذبون بالقدر فان أولئك يشبهون المجوس وهؤلاء يشبهون المشركين المكذبين بالأنبياء والشرائع فهم من شر الناس وقد بسط الكلام على هذه الأمور فى غير هذا الموضوع¹

إنما اعتل بالقدر إبليس

قال تعالى { وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ } {35} وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ } {36} إِنْ تَحَرَّصَ عَلَى هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ } {37} النحل 35-37 قد أحاط ربنا سبحانه وتعالى بكل شيء علما وقدرة وحكما ووسع كل شيء رحمة وعلما فما من ذرة فى السموات والأرض ولا معنى من المعاني إلا وهو شاهد لله تعالى بتمام العلم والرحمة وكمال القدرة والحكمة وما خلق الخلق باطلا ولا فعل شيئا عبثا بل هو الحكيم فى أفعاله وأقواله سبحانه وتعالى ثم من حكمته ما أطلع خلقه بعضهم ومنه ما استأثر سبحانه بعلمه وإرادته قسما إرادة أمر وتشريع وإرادة قضاء وتقدير فالقسم الأول إنما يتعلق بالطاعات دون المعاصي سواء وقعت أو لم تقع كما فى قوله { يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبينَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ } النساء 26 وقوله { يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ } البقرة 185 وأما القسم الثانى وهو إرادة التقدير فهى شاملة لجميع الكائنات محيطة بجميع

¹مجموع الفتاوى ج: 13 ص: 264-267

الحادثات وقد أراد من العالم ما هم فاعلوه بهذا المعنى لا بالمعنى الأول كما في قوله تعالى {فَمَنْ يُرِدِ اللهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا} {الأنعام125} وفي قوله {وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ} {هود34} وفي قول المسلمين ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن ونظائره كثيرة وهذه الإرادة تتناول ما حدث من الطاعات والمعاصي دون ما لم يحدث كما أن الأولى تتناول الطاعات حدثت أو لم تحدث والسعيد من أراد منه تشريعا ما أراد به تقديرا والعبد الشقي من أراد به تقديرا ما أراد به تشريعا والحكم يجري على وفق هاتين الإرادتين فمن نظر إلى الأعمال بهاتين العينين كان بصيرا ومن نظر إلى القدر دون الشرع أو الشرع دون القدر كان أعور مثل قريش الذين قالوا {لَوْ شَاءَ اللهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ شَيْءٍ} {الأنعام148} قال الله تعالى {كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تُخْرِصُونَ} {الأنعام148} فإن هؤلاء اعتقدوا أن كل ما شاء الله وجوده وكونه وهي الإرادة القدرية فقد أمر به ورضيه دون الإرادة الشرعية ثم رأوا أن شركهم بغير شرع مما قد شاء الله وجوده قالوا فيكون قد رضيه وأمر به قال الله هكذا كذب الذين من قبلهم بالشرائع من الأمر والنهي حتى ذاقوا بأسنا {قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا} {الأنعام148} بأن الله شرع الشرك وتحريم ما حرمتوه إن تتبعون في هذا إلا الظن وهو توهمكم أن كل ما قدره فقد شرعه {وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تُخْرِصُونَ} {الأنعام148} أي تكذبون وتفرون بإبطال شريعته {قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ} {الأنعام149} على خلقه حين أرسل الرسل إليهم فدعوهم إلى توحيدِهِ وشريعته ومع هذا فلو شاء هدى الخلق أجمعين إلى متابعة شريعته لكنه يمن على من يشاء فيهديه فضلا منه وإحسانا ويحرم من يشاء لأن المتفضل له أن يتفضل وله أن لا يتفضل فترك تفضله على من حرمه عدل منه وقسط وله في ذلك حكمة بالغة وهو يعاقب الخلق على مخالفة أمره وإرادته الشرعية وإن كان ذلك بإرادته القدرية فإن القدر كما جرى بالمعصية جرى أيضا بعقابها كما أنه سبحانه قد يقدر على العبد أمراضا تعقبه آلاما فالمرض بقدره والألم بقدره فإذا قال العبد قد تقدمت الإرادة بالذنب فلا أعاقب كان بمنزلة قول المريض قد تقدمت الإرادة بالمرض فلا أتألم أو قد تقدمت الإرادة بأكل الحار فلا يحم مزاجي أو قد تقدمت بالضرب فلا يتألم المضروب وهذا مع أنه جهل فإنه لا ينفع صاحبه بل اعتلاله بالقدر ذنب ثان يعاقب عليه أيضا وإنما اعتل بالقدر إبليس حيث قال {يَمَا أَغْوَيْتَنِي لِأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَا أُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ} {الحجر39} وأما آدم فقال {رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ} {الأعراف23} فمن أراد الله سعادته ألهمه أن يقول كما قال آدم عليه السلام أو نحوه ومن أراد شقاوته اعتل بعله إبليس أو نحوها فيكون كالمستجير من الرمضاء بالنار ومثله مثل رجل طار إلى داره شرارة نار فقال له العقلاء أطفئها لئلا تحرق المنزل فأخذ يقول من أين كانت هذه ريح ألقتها وأنا لا ذنب لي في هذه النار فما زال يتعلل حتى انتشرت وانتشرت النار وما فيها هذه حال من شرع يحيل الذنوب على المقادير ولا يردها بالاستغفار والمعاذير بل حاله أسوأ من زلات الذنب وكان الله بخلاف الشررة فإنه لا فعل له فيها و الله سبحانه يوفقنا وإياكم وسائر إخواننا لما يحبه ويرضاه ولا تنال طاعته إلا بمعونة وتترك معصيته إلا بعصمته و الله أعلم¹

جميع بنى آدم العقلاء لا بد لهم من أمور يأمرون بها وأمر ينهون عنها

قال تعالى { وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ {35} وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكذِبِينَ {36} إِنْ تَحَرَّصَ عَلَى هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ {37} النحل 35-37 قاعدة جامعة كل واحد من الدين الجامع بين الواجبات وسائر العبادات ومن التحريمات كما قال تعالى { وَلَا يُحْرَمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ } التوبة 29 كما قال تعالى { وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ } النحل 35 وكما أخبر عما ذمه من حال المشركين في دينهم وتحريمهم حيث قال { وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا } الأنعام 136 الى آخر الكلام فانه ذكر فيه ما كانوا عليه من العبادات الباطلة من أنواع الشرك ومن الاباحة الباطلة في قتل الأولاد ومن التحريمات الباطلة من السائبة والبحيرة والوصيلة والحامي ونحو ذلك فذم المشركين في عباداتهم وتحريماتهم وإباحاتهم وذم النصارى فيما تركوه من دين الحق والتحريم كما ذمهم على الدين الباطل في قوله { اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ } التوبة 31 وأصناف ذلك فكل واحد من العبادات وسائر الأمور به من الواجبات والمستحبات ومن المكروهات المنهى عنها نهى حظر أو نهى تنزيه ينقسم الى ثلاثة أقسام عقلي وملي وشرعي والمراد بالعقلي ما اتفق عليه اهل العقل من بنى آدم سواء كان لهم صلة كتاب أو لم يكن والمراد بالملي ما اتفق عليه اهل الملل والكتب المنزلة ومن اتبعهم والمراد بالشرعي ما اختص به اهل الشريعة القرآنية وهم أمة محمد وأخص من ذلك ما اختص به اهل مذهب أو اهل طريقة من الفقهاء والصوفية ونحو ذلك لكن هذا التخصص والامتياز لا توجهه شريعة الرسول مطلقا وإنما قد توجهه ما قد توجب بتخصيص بعض العلماء والعباد والأمرء في استفتاء أو طاعة كما يجب على أهل كل غزاة طاعة أميرهم وأهل كل قرية استفتاء عالمهم الذى لا يجدون غيره ونحو ذلك وما من أهل شريعة غير المسلمين الا وفي شرعهم هذه الأقسام الثلاثة فان مأموراتهم ومنهياتهم تنقسم الى ما يتفق عليه العقلاء وما يتفق عليه الأنبياء وأما السياسات الملكية التى لا تتمسك بملة وكتاب فلا بد فيها من القسم الأول والثالث فان القدر المشترك بين الأدميين لا بد من الأمر به فى كل سياسة وإمامة وكذلك لا بد لكل ملك من خصيصة يتميز بها ولو لم تكن الا رعاية من يواليه ودفع من يعاديه فلا بد لهم من الأمر بما يحفظ الولي ويدفع العدو كما فى مملكة جنكزخان ملك الترك ونحوه من الملوك ثم قد يكون لهم ملة صحيحة توحيدية وقد يكون لهم ملة كفرية وقد لا يكون لهم ملة بحال ثم قد يكون مما يوجبونه وقد يكون مما يستحبونه ووجه القسمة أن جميع بنى آدم العقلاء لا بد لهم من أمور يأمرون بها وأمر ينهون عنها فان مصلحتهم لا تتم بدون ذلك ولا يمكن أن يعيشوا فى الدنيا بل ولا يعيش الواحد منهم لو انفرد بدون أمور يفعلونها تجلب لهم المنفعة وأمر ينفونها تدفع عنهم المضرة بل سائر الحيوان لا بد فيه من قوى الاجتلاب والاجتناب ومبدأهما الشهوة والنفرة والحب والبغض فالقسم المطلوب هو المأمور به والقسم المرهوب هو المنهى عنه فأما ان تكون تلك الأمور متفقا عليها بين العقلاء بحيث لا يلتفت الى الشواذ منهم الذين خرجوا عند الجمهور عن العقل وإما أن لا

تكون كذلك وما ليس كذلك فاما أن يكون متققا عليه بين الأنبياء والمرسلين وإما أن يختص به أهل
شريعة الاسلام¹

عامة ما ذم الله به المشركين في القرآن من الدين المنهي عنه انما هو الشرك والتحريم

قال تعالى { وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا
مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ } {35} وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي
كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ
فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ } {36} إِنْ تَحَرَّصَ عَلَى هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي
مَنْ يُضِلُّ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ } {37} النحل 35-37 ان عامة ما ذم الله به المشركين في القرآن من
الدين المنهي عنه انما هو الشرك والتحريم وكذلك حكى عنهم في قوله { سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ
اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ شَيْءٍ } { الأنعام 148 } ومثل ذلك في النحل { وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا
لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ شَيْءٍ } { النحل 35 } وفي
الزخرف { وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ } { الزخرف 20 } وقال { أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِّنَ
الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنَ بِهِ اللَّهُ } { الشورى 21 } وقال { قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِّنْهُ حَرَامًا
وَحَلَالًا قُلْ اللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ } { يونس 59 } وقال { مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا
وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ } { المائدة 103 } وقال { قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ
{ الأعراف 32 } وأما من ترك المأمور به فقد ذمهم الله كما ذمهم على ترك الإيمان به وبأسماؤه وآياته
وملائكته وكتبه ورسوله والبعث بعد الموت والجنة والنار وترك الصلاة والزكاة والجهاد وغير ذلك
من الاعمال والشرك قد تقدم أن أصله ترك المأمور به من عبادة الله واتباع رسوله وتحريم الحلال فيه
ترك ما أمروا به من الاستعانة به على عبادته ولما كان أصل المنهي عنه الذي فعلوه الشرك
والتحريم روى في الحديث بعثت بالحنيفية السمحة فالحنيفية ضد الشرك والسماحة ضد الحجر
والتضييق وفي صحيح مسلم عن عياض بن حمار عن النبي صلى الله عليه وسلم فيما يروونه عن ربه
انى خلقت عبادي حنفاء فاجتالتهم الشياطين عن دينهم وحرمت عليهم ما أحللت لهم وامرتهم ان
يشركوا بى ما لم أنزل به سلطانا وظهر اثر هذين الذنبيين فى المنحرفة من العلماء والعباد والملوك
والعامة بتحريم ما أحله الله تعالى والتدين بنوع شرك لم يشرعه الله تعالى والأول يكثر فى المتفقهة
والمتورعة والثانى يكثر فى المتصوفة والمتفكرة فنبين بذلك أن ما ذمه الله تعالى وعاقب عليه من
ترك الواجبات اكثر مما ذمه الله وعاقب عليه من فعل المحرمات²

¹مجموع الفتاوى ج: 20 ص: 65-76

²مجموع الفتاوى ج: 20 ص: 114-115

الاحتجاج بالقدر حجة باطلة داحضة باتفاق كل ذي عقل ودين

قال تعالى { وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ {35} وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكذِبِينَ {36} } إن تحرص على هدايتهم فإن الله لا يهدي من يضل وما لهم من ناصرين {37} النحل 35-37 هذا مقام يكثر فيه خوض النفوس فإن كثيرا من الناس إذا أمر بما يجب عليه تعطل بالقدرة وقال حتى يقدر الله لي ذلك أو يقدرني الله على ذلك أو حتى يقضي الله ذلك وكذلك إذا نهي عن فعل ما حرم الله قال الله قضي علي بذلك أي حيلة لي في هذا ونحو هذا الكلام والاحتجاج بالقدر حجة باطلة داحضة باتفاق كل ذي عقل ودين من جميع العالمين والمحتج به لا يقبل من غيره مثل هذه الحجة إذا احتج بها في ظلم ظلمه إياه أو ترك ما يجب عليه من حقوقه بل يطلب منه ما له عليه ويعاقبه على عدوانه عليه وإنما هو من جنس شبهة السوفسطائية التي تعرض في العلوم فكما أنك تعلم فسادها بالضرورة وإن كانت تعرض كثيرا لكثير من الناس حتى قد يشك في وجود نفسه وغير ذلك من المعارف الضرورية فكذلك هذا يعرض في الأعمال حتى يظن أنها شبهة في إسقاط الصدق والعدل الواجب وغير ذلك وإباحة الكذب والظلم وغير ذلك ولكن تعلم القلوب بالضرورة أن هذه شبهة باطلة ولهذا لا يقبلها أحد من أحد عند التحقيق ولا يحتج بها أحد إلا مع عدم علمه بالحجة بما فعله فإذا كان معه علم بأن ما فعله هو المصلحة وهو المأمور به وهو الذي ينبغي فعله لم يحتج بالقدر وكذلك إذا كان معه علم بأن الذي لم يفعله ليس عليه أن يفعله أو ليس بمصلحة أو ليس هو مأمورا به لم يحتج بالقدر بل إذا كان متبعا لهواه بغير علم احتج بالقدر ولهذا لما قال المشركون { لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ شَيْءٍ } الأنعام 148 قال الله تعالى { قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ {148} } قُلْ فَلِلَّهِ الحُجَّةُ البَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ {149} } الأنعام 148-149 فإن هؤلاء المشركين يعلمون بفطرتهم وعقولهم أن هذه الحجة داحضة باطلة فإن أحدهم لو ظلم الآخر في ماله أو فجر بامرأته أو قتل ولده أو كان مصرا على الظلم فنهاه الناس عن ذلك فقال لو شاء الله لم أفعل هذا لم يقبلوا منه هذه الحجة ولا هو يقبلها من غيره وإنما يحتج بها المحتج دفعا للوم بلا وجه فقال الله لهم هل عندكم من علم فتخرجوه لنا بأن هذا الشرك والتحريم من أمر الله وأنه مصلحة ينبغي فعله إن تتبعون إلا الظن فإنه لا علم عندكم بذلك إن تظنون ذلك إلا ظنا وإن أنتم إلا تخرصون تحرزون وتفترون فعمدتم في نفس الأمر ظنكم وخرصكم ليس عمدتكم في نفس الأمر كون الله شاء ذلك وقدره فإن مجرد المشيئة والقدر لا يكون عمدة لأحد في الفعل ولا حجة لأحد على أحد ولا عذرا لأحد إذ الناس كلهم مشتركون في القدر فلو كان هذا حجة وعمدة لم يحصل فرق بين العادل والظالم والصادق والكاذب والعالم والجاهل والبر والفاجر ولم يكن فرق بين ما يصلح الناس من الأعمال وما يفسدهم وما ينفعهم وما يضرهم وهؤلاء المشركون المحتجون بالقدر على ترك ما أرسل الله به رسوله من توحيده والايمان به لو احتج به بعضهم على بعض في إسقاط حقوقه ومخالفة أمره لم يقبله منه بل كان هؤلاء المشركون يذم بعضهم بعضا ويعادي بعضهم بعضا ويفاتل بعضهم بعضا على فعل ما يرونه تركا لحقهم أو ظلما فلما جاءهم رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعوهم إلى حق الله على عباده وطاعة أمره احتجوا بالقدر فصاروا يحتجون بالقدر على ترك حق ربهم ومخالفة أمره بما لا يقبلونه ممن ترك حقهم وخالف أمرهم وفي الصحيحين عن معاذ بن جبل رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال له يا معاذ أتدري ما حق الله على عباده حقه على عباده أن يعبدوه ولا يشركوا به

شيئا أتدري ما حق العباد على الله إذا فعلوا ذلك حقهم عليه أن لا يعذبهم فالاحتجاج بالقدر حال أهل الجاهلية الذين لا علم عندهم بما يفعلون ويتركون إن يتبعون إلا الظن وإن هم إلا يخرصون وهم إنما يحتجون به في ترك حق ربهم ومخالفة أمره لا في ترك ما يرونه حقا لهم ولا في مخالفة أمرهم ولهذا تجد كثيرا من المحتجين به والمستندين إليه من النساك والصوفية والفقراء والعامّة والجند والفقهاء وغيرهم يفرون إليه عند اتباع الظن وما تهوى الأنفس فلو كان معهم علم وهدى لم يحتجوا بالقدر أصلا بل يعتمدون عليه لعدم الهدى والعلم وهذا أصل شريف من اعتنى به علم منشأ الضلال والغي لكثير من الناس ولهذا تجد المشايخ والصالحين المتبعين للأمر والنهي كثيرا ما يوصون أتباعهم باتباع العلم والشرع لأنه كثيرا ما يعرض لهم إرادات في أشياء ومحبة لها فيتبعون فيها أهواءهم ظانين أنها دين الله وليس معهم إلا الظن والذوق والوجد الذي يرجع إلى محبة النفس وإرادتها فيحتجون تارة بالقدر وتارة بالظن والخرص وهم متبعون أهواءهم في الحقيقة فإذا اتبعوا العلم وهو ماجاء به الشارع صلى الله عليه وسلم خرجوا عن الظن وما تهوى الأنفس واتبعوا ما ماجاءهم من ربهم وهو الهدى كما قال تعالى ﴿فَأَمَّا يَا تَبِئَتِكُمْ مَنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى﴾ طه 123 وقد ذكر الله تعالى هذا المعنى عن المشركين في سورة الأنعام والنحل والزخرف كما قال تعالى ﴿وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاكُمْ مَّا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ الزخرف 20 فبين أنه لا علم لهم بذلك إن هم إلا يخرصون

وقال في سورة الأنعام ﴿قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ﴾ الأنعام 149 أي بإرسال الرسل وإنزال الكتب كما قال تعالى ﴿لِنَلَّا يَكُونُ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةً بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ النساء 165 ثم أثبت القدر بقوله ﴿فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ الأنعام 149 فأتت الحجة الشرعية وبين المشيئة القدرية وكلاهما حق وقال في النحل ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ النحل 35 بين سبحانه أن هذا الكلام تكذيب للرسول فيما جاؤوهم به ليس حجة لهم فإن هذا لو كان حجة لاحتج به على تكذيب كل صدق وفعل كل ظلم ففي فطرة بني آدم أنه ليس حجة صحيحة بل من احتج به احتج لعدم العلم واتباع الظن كفعل الذين كذبوا الرسول بهذه المدافعة بل الحجة البالغة لله بإرسال الرسل وإنزال الكتب كما ثبت في الحديث الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال لا أحد أحب إليه العذر من الله من أجل ذلك مدح نفسه ولا أحد أغير من الله من أجل ذلك حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن فبين أنه سبحانه يحب أن يمدح وأن يعذر ويبغض الفواحش فيحب أن يمدح بالعدل والإحسان وأن لا يوصف بالظلم ومن المعلوم أنه من تقدم إلى أتباعه بأن افعلوا كذا ولا تفعلوا كذا وبين لهم وأزاح علتهم ثم تعدوا حدوده وأفسدوا أموره كان له أن يعذبهم وينتقم منهم فإذا قالوا أليس الله قدر علينا هذا لو شاء الله ما فعلنا هذا قيل لهم أنتم لا حجة لكم ولا عندكم ما تعذرون به يبين أن ما فعلتموه كان حسنا أو كنتم معذورين فيه فهذا الكلام غير مقبول منكم وقد قامت الحجة عليكم بما تقدم من البيان والإعذار ولو أن ولي الأمر أعطى قوما مالا ليوصلوه إلى بلد آخر فسافروا به وتركوه في البرية ليس عنده أحد وباتوا في مكان بعيد منه وكان ولي الأمر قد أرسل جندا له يغزون بعض الأعداء فاجتازوا تلك الطريق فرأوا ذلك المال فظنوه لقطعة ليس له أحد فأخذوه وذهبوا لكان يحسن منه أن يعاقب الأولين على تفريطهم وتضييعهم حفظ ما أمرهم بحفظه ولو قالوا له أنت لم تعلمنا أنك تبعث خلفنا جندا حتى نحترز المال منهم قال لهم هذا لا يجب علي ولو فعلته لكان زيادة إعانة لكم لكن كان عليكم أن تحفظوا ذلك كما تحفظ الودائع والأمانات وكانت حجتة عليهم قائمة ولم يكن إن عاقبهم ظلما وإن كان لم يعنهم بالإعلام بذلك الجند لكن عمل المصلحة في

إرسال الأولين والآخرين والله تعالى وله المثل الأعلى حكيم عدل في كل ما يفعله ولا يخرج شيء عن مشيئته وقدرته فإذا أمر الناس بحفظ الحدود وإقامة الفرائض لمصلحتهم كان ذلك من إحسانه إليهم وتعريفهم ما ينفعهم وإذا خلق أمورا أخرى فإذا فرطوا واعتدوا بسبب خلقه لأموار أخرى أوجبت الضرر الحاصل من تفريطهم وعدوانهم وكان له في خلق المخلوق الثاني حكمة ومصلحة أخرى كان عادلا حكيما في خلق هذا وخلق هذا والأمر بهذا والأمر بهذا وإن كان لم يمد الأولين بزيادة يحترسون بها من التفريط والعدوان لا سيما مع علمه بأن تلك الزيادة لو خلقها للزم منها تفويت مصلحة أرجح منها فإن الضدين لا يجتمعان والمقصود هنا أنه لا يحتج أحد بالقدر إلا حجة تعليل لعدم اتباع الحق الذي بينه العلم فإن الإنسان حي حساس متحرك بالإرادة ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم أصدق الأسماء الحارث وهمام فالحارث الكاسب العامل والهمام الكثير الهم والهم مبدأ الإرادة والقصد فكل إنسان حارث همام وهو المتحرك بالإرادة وذلك لا يكون إلا بعد الحس والشعور فإن الإرادة مسبوقة بالشعور بالمراد فلا يتصور إرادة ولا حب ولا شوق ولا اختيار ولا طلب إلا بعد الشعور وما هو من جنسه كالحس والعلم والسمع والبصر والشم والذوق واللمس ونحو هذه الأمور فهذا الإدراك والشعور هو مقدمة الإرادة والحب والطلب والحي مفطور على حب ما يلائمه وينفعه وبغض ما يكرهه ويضره فإذا تصور الشيء الملائم النافع أرادته وأحبه وإذا تصور الشيء الضار أبغضه ونفر عنه لكن ذلك التصور قد يكون علما وقد يكون ظنا وخرصا فإذا كان عالما بأن مراده هو النافع وهو المصلحة وهو الذي يلائمه كان على الهدى والحق وإذا لم يكن معه علم بذلك كان متبعا للظن وما تهوى نفسه فإذا جاءه العلم والبيان بأن هذا ليس مصلحة أخذ يحتج بالقدر حجة لدد وتعريج عن الحق لا حجة اعتماد على الحق والعلم فلا يحتج أحد في باطنه أو ظاهره بالقدر إلا لعدم العلم بأن ما هو عليه هو الحق¹

القدرية المشركية

فأما قدرية مشركية فهم الذين إترفوا بالقضاء والقدر و زعموا أن ذلك يوافق الأمر و النهي و قالوا { لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ شَيْءٍ } الأنعام 148 الى آخر الكلام في سورة الأنعام و قالوا { لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ } النحل 35 في سورة النحل و في سورة الزخرف و { وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاكُمْ } الزخرف 20 فهؤلاء يؤول أمرهم الى تعطيل الشرائع و الأمر و النهي مع الإعراف بالربوبية العامة لكل مخلوق و أنه ما من دابة إلا ربي أخذ بناصيتها و هو الذي يبئني به كثيرا إما اعتقادا و إما حالا طوائف من الصوفية و الفقراء حتى يخرج من يخرج منهم الى الإباحة للمحرمات و إسقاط الواجبات و رفع العقوبات و إن كان ذلك لا يستتب لهم و إنما يفعلونه عند موافقة أهوائهم كفعل المشركين من العرب ثم إذا خولف هوى أحد منهم قام في دفع ذلك متعديا للحدود غير واقف عند حد كما كانت تفعل المشركون أيضا إذ هذه الطريقة تتناقض عند تعارض إرادات البشر فهذا يريد أمرا و

¹ منهاج السنة النبوية ج: 3 ص: 55-65

الأخر يريد ضده و كل من الإرادتين مقدره فلا بد من ترجيح أحدهما أو غيرهما أو كل منهما من و جه و الإلزم الفساد وقد يغلوا أصحاب هذا الطريق حتى يجعلوا عين الموجودات هي الله كما قد ذكر في غير هذا الموضع و يتمسكون بموافقة الإرادة القدرية في السيئات الواقعة منهم و من غيرهم كقول الحريري أنا كافر برب يعصى و قول بعض أصحابه لما دعاه مكاس فقيل له هو مكاس فقال إن كان قد عصى الأمر فقد أطاع الإرادة و قول ابن إسرائيل أصبحت منفعا لما يختاره منى ففعلي كله طاعات وقد يسمون هذا حقيقة بإعتبار أنه حقيقة الربوبية و الحقيقة الموجودة الكائنة أو الحقيقة الخبرية و لما كان في هؤلاء شوب من النصارى و النصارى فيهم شوب من الشرك تابعوا المشركين فى ما كانوا عليه من التمسك بالقدر المخالف للشرع هذا مع أنهم يعبدون غير الله الذي قدر الكائنات كما أن هؤلاء فيهم شوب من ذلك وإذا إتسع زنادقتهم الذين هم رؤسائهم قالوا ما نعبد إلا الله إذ لا موجود غيره و قال رئيس لهم إنما كفر النصارى لأنهم خصصوا فيشرعون عبادة كل موجود بهذا الإعتبار و يقررون ما كان عليه المشركون من عبادة الأوثان و الأحجار لكنهم يستقصرونهم حيث خصصوا العبادة ببعض المظاهر و الأعيان و معلوم أن هذا حاصل في جميع المشركين فإنهم متفننون فى الآلهة التى يعبدونها و أن إشتراكوا فى الشرك هذا يعبد الشمس و هذا يعبد القمر و هذا يعبد اللآة و هذا يعبد العزى و هذا يعبد مناة الثالثة الأخرى فكل منهم يتخذ إلهه هواه و يعبد ما يستحسن و كذلك فى عبادة قبور البشر كل يعلق على تمثال من أحسن به الظن¹

و أما قول القائل الزنا و غيره من المعاصي مكتوب علينا فهو كلام صحيح لكن هذا لا ينفعه الإحتجاج به فإن الله كتب أفعال العباد خيرا و شرها و كتب ما يصيرون إليه من الشقاوة و السعادة و جعل الأعمال سببا للثواب و العقاب و كتب ذلك كما كتب الأمراض و جعلها سببا للموت و كما كتب أكل السم و جعله سببا للمرض و الموت فمن أكل السم فإنه يمرض أو يموت و الله قدر و كتب هذا و هذا كذلك من فعل ما نهى عنه من الكفر و الفسق و العصيان فإنه يعمل ما كتب عليه و هو مستحق لما كتبه الله من الجزاء لمن عمل ذلك و حجة هؤلاء بالقدر على المعاصي من جنس حجة المشركين الذين قال الله عنهم { وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ } النحل 35 و قال تعالى { سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ شَيْءٍ } الأنعام 148 قال الله تعالى { كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى دَاقُوا بِأَسْنَانِهِمْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ } {148} قُلْ فَلِلَّهِ الحُجَّةُ البَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ } {149} الأنعام 148 -

149²

لا يحتج أحد بالقدر إلا لإتباع هواه بغير علم

¹مجموع الفتاوى ج: 8 ص: 256

²مجموع الفتاوى ج: 8 ص: 268

وسلف الأمة و أئمتها متفقون أيضا على أن العباد مأمورون بما أمرهم الله به منهيون عما نهاهم الله عنه و متفقون على الإيمان بوعده و وعيده الذي نطق به الكتاب و السنة و متفقون أنه لا حجة لأحد على الله في و اجب تركه و لا محرم فعله بل الله الحجة البالغة على عباده و من إحتج بالقدر على ترك مأمور أو فعل محظور أو دفع ما جاءت به النصوص في الوعد و الوعيد فهو أعظم ضلالا و إفتراء على الله و مخالفة لدين الله من أولئك القدرية فإن أولئك مشبهون بالمجوس و قد جاءت الآثار فيهم أنهم مجوس هذه الأمة كما روى ذلك عن ابن عمر و غيره من السلف و قد رويت في ذلك أحاديث مرفوعة الى النبي صلى الله عليه و سلم منها ما رواه أبو داود و الترمذي و لكن طائفة من أئمة الحديث طعنوا في صحة الأحاديث المرفوعة في ذلك و هذا مبسوط في موضعه و المقصود هنا أن القدرية النافية يشبهون المجوس في كونهم أثبتوا غير الله يحدث أشياء من الشر بدون مشيئته و قدرته و خلقه و أما المحتجون على القدر بإسقاط الأمر و النهي و الوعد و الوعيد فهؤلاء يشبهون المشركين الذين قال الله فيهم { سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ } الأنعام 148 و قال تعالى { وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ } النحل 35 و قال تعالى { وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالَتِ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْطَعِمُ مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ } يس 47 و قال تعالى { وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ مَّا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ } الزخرف 20 فهؤلاء المحتجون بالقدر على سقوط الأمر و النهي من جنس المشركين المكذبين للرسول و هم أسوأ حالا من المجوس و هؤلاء حجتهم داحضة عند ربهم و عليهم غضب و لهم عذاب شديد و من هؤلاء من يظن أن آدم إحتج على موسى بالقدر على الذنب و أن ذلك جائر لخاصة الأولياء المشاهدين للقدر و هذا ضلال عظيم فإن موسى إنما لام آدم على المعصية التي لحقت الذرية بسبب أكله من الشجرة فقال لماذا أخرجتنا و نفسك من الجنة و العبد مأمور عند المصائب أن يرجع للقدر فإن سعادة العبد أن يفعل المأمور و يترك المحظور و يسلم للمقدور قال الله تعالى { مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ } التغابن 11 قال ابن مسعود هو الرجل تصيبه المصيبة فيعلم أنها من عند الله فيرضى و يسلم فالسعيد يستغفر من المعائب و يصبر على المصائب كما قال تعالى { فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ } غافر 55 و الشقي يجزع عند المصائب و يحتج بالقدر على المعائب و إلا فآدم صلى الله عليه و سلم قد تاب من الذنب و قد إجتباه ربه و هداه و موسى أجل قدرا من أن يلوم أحدا على ذنب قد تاب منه و غفر الله له فضلا عن آدم و هو أيضا قد تاب مما فعل حيث قال { رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ } القصص 16 و قال { إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ } الأعراف 156 و قال { أَنْتَ وَلِيِّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا } الأعراف 155 و موسى و آدم أعلم بالله من أن يظن و احد منهما أن القدر عذر لمن عصى الله و قد علما ما حل بابليس و غير إبليس و آدم نفسه قد أخرج من الجنة و طفق هو و امرأته يخصفاً عليهما من ورق الجنة و قد عاقب الله قوم نوح و هود و صالح و غيرهم من الأمم و قد شرع الله عقوبة المعتدين و أعد جهنم للكافرين فكيف يكون القدر عذرا للذنب و هؤلاء لا يحتجون بالقدر إلا إذا كانوا متبعين لأهوائهم بغير علم و لا يطردون حجتهم فإن القدر لو كان عذرا للخلق للزم أن لا يلام أحد و لا يذم و لا يعاقب لا في الدنيا و الآخرة و لا يقتص من ظالم أصلا بل يمكن الناس أن يفعلوا ما يشتهون مطلقا و معلوم أن هذا لا يتصور أن يقوم عليه مصلحة أحد لا في الدنيا و لا في الآخرة بل هو موجب الفساد العام و صاحب هذا لا يكون إلا ظالما متناقضا فإذا آذاه

غيره أو ظلمه طلب معاقبته و جزاه و لم يعذره بالقدر و إذا كان هو الظالم إحتج لنفسه بالقدر فلا يحتج أحد بالقدر إلا لإتباع هواه بغير علم و لا يكون إلا مبطلا لا حق معه كما إحتج به المشركون فقال تعالى { قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ } الأنعام 148 و قال { كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ } النحل 35 ولهذا كان هؤلاء المشركون المحتجون بالقدر إذا عاداهم أحد قابلوه و قاتلوه و عاقبوه و لم يقبلوا حجته إذا قال لو شاء الله ما عاديتكم بل هم دائما يعيبون من ظلم و إعتدى و لا يقبلون إحتجاجة بالقدر فلما جاءهم الحق من ربهم أخذوا يدافعون ذلك بالقدر فصاروا يحتجون على دفع أمر الله و نهييه بما لا يجوزون أن يحتج به عليهم فى دفع أمرهم و نهيهم بل و لا يجوز أحد من العقلاء أن يحتج به عليه فى دفع حقه فعارضوا ربهم و رسل ربهم بما لا يجوزون أن يعارض به أحد من الناس و لا رسل أحد من الناس فكان أمر المخلوق و نهييه و حقه أعظم على قولهم من أمر الله و نهييه و حقه على عباد الله و كان أمر الله و نهييه و حقه على عباده أخف حرمة عندهم من أمر المخلوق و نهييه و حقه على غيره فإن حق الله على عباده أن يعبدوه و لا يشركوا به شيئا كما ثبت فى الصحيحين عن معاذ بن جبل قال كنت رديف النبي صلى الله عليه و سلم على حمار فقال يا معاذ أتدري ما حق الله على عباده قلت الله و رسوله أعلم قال حقه عليهم أن يعبدوه و لا يشركوا به شيئا أتدري ما حق العباد على الله إذا فعلوا ذلك قلت الله و رسوله أعلم قال حقهم عليه أن لا يعذبهم فكان هؤلاء المشركون من أعظم الناس جهلا و عداوة لله و رسوله فأحتجوا على إسقاط حقه و أمره و نهييه بما لا يجوزون لاهم و لا أحد من العقلاء أن يحتج به على إسقاط حق مخلوق و لا أمره و لا نهييه و هذا كما جعلوا لله شركاء و بنات و هم لا يرضى أحدهم أن يكون مملوكه شريكه و لا يرضى البنات لنفسه قال تعالى { وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكُذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَىٰ لَا جَرَمَ لَّهُمْ النَّارُ وَأَنَّهُمْ مُّفْرَطُونَ } النحل 62 و قال تعالى { وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهَهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ } الزخرف 17 و قال تعالى { ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَلْ لَكُمْ مِّنْ مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِّنْ شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ } الروم 28 أي كخيفة بعضهم بعضا و قوله تعالى { لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا } النور 12 و قوله { فَتَوْبُوا إِلَىٰ بَارِيكُمْ فَاقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ } البقرة 54 و قوله { نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ } آل عمران 61 فالمكذبون للرسل دائما حجتهم داحضة متناقضة فهم فى قول مختلف يؤفك عنه من أفك قال الله تعالى { وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا } الفرقان 33 و قال تعالى { وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ الْمُجْرِمِينَ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًّا وَنَصِيرًا } الفرقان 31 و قال تعالى { وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مِّنْ نَّشَاءٍ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ } الأنعام 83 فحجة المشركين فى شركهم بالله و جعلهم له ولدا وفى دفع أمره و نهييه بالقدر داحضة و قد بسط الكلام على هذه الأمور وما يناسبها فى غير هذا الموضوع و بين أن قول الفلاسفة القائلين بقدوم العالم وأنه صادر عن موجب بالذات متولد عن العقول و النفوس الذين يعبدون الكواكب العلوية و يصنعون لها التماثيل السفلية كأرسطو و أتباعه أعظم كفرا و ضلالا من مشركى العرب الذين كانوا يقرون بأن الله خلق السموات و الأرض و ما بينهما فى ستة أيام بمشيئته و قدرته ولكن خرخوا له بنين و بنات بغير علم و أشركوا به ما لم ينزل به سلطانا و كذلك المباحية الذين يسقطون الأمر و النهي مطلقا و يحتجون بالقضاء و القدر أسواء حالا من اليهود و النصرى و مشركى العرب فإن هؤلاء مع كفرهم يقرون بنوع من الأمر و النهي و الوعد و الوعيد و لكن كان لهم شركاء شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله بخلاف المباحية المسقطه للشرائع مطلقا فإنما يرضون بما تهواه أنفسهم و يغضبون لما تهواه أنفسهم لا يرضون لله و

لا يغضبون الله و لا يحبون الله و لا يغضبون الله و لا يأمرون بما أمر الله به و لا ينهاون عما نهى عنه إلا إذا كان لهم في ذلك هوى فيفعلونه لأجل هو أهم لآعبادة لمو لا هم ولهذا لا ينكرون ما وقع في الوجود من الكفر و الفسوق و العصيان إلا إذا خالف أغراضهم فينكرونه إنكارا طبيعيا شيطانيا لا إنكارا شرعيا رحمانيا و لهذا تقترب بهم الشياطين إخوانهم فيمدونهم في الغي ثم لا يقصرون و قد تتمثل لهم الشياطين و تخاطبهم و تعينهم على بعض أهوائهم كما كانت الشياطين تفعل بالمشركين عباد الأصنام و هؤلاء يكثرون في الطوائف الخارجين عما بعث الله به رسوله من الكتاب و السنة الذين يسلكون طرقا في العبادات و الإعتقادات مبتدعة في الدين و لا يتحرون في عباداتهم و إعتقاداتهم موافقة الرسول و الإعتصام بالكتاب و السنة فتكثر فيهم الأهواء و الشبهات و تغويهم الشياطين و تصير فيهم شبهة من المشركين بحسب بعدهم عن الرسول و كما يجب إنكار قول القدرية المضاهين للمجوس فإنكار قول هؤلاء أولى و الرد عليهم أحرى و هؤلاء لم يكونوا موجودين في عصر الصحابة و التابعين لهم بإحسان فإن البدع إنما يظهر منها أولا فأولا الأخف فلاخف كما حدث في آخر عصر الخلفاء الراشدين بدعة الخوارج و الشيعة ثم في آخر عصر الصحابة بدعة المرجئة و القدرية ثم في آخر عصر التابعين بدعة الجهمية معطلة الصفات و أما هؤلاء المباحية المسقطون للأمر و النهي محتجين على ذلك بالقدر فهم شر من جميع هذه الطوائف و إنما حدثوا بعد هؤلاء كلهم¹

من لم يقف عند أمر الله ونهيه فليس من المتقين

و هناك قسم من الناس يشهدون ربوبية الحق و افتقارهم إليه ويستعينون بها على أهوائهم و أنواقهم غير ناظرين إلى حقيقة أمره و نهيه و رضاه و غضبه و محبته و هذا حال كثير من المتفكرة و المتصوفة و لهذا كثيرا ما يعملون على الأحوال التي يتصرفون بها في الوجود لا يقصدون ما يرضي الرب و يحبه و كثيرا ما يغلطون فيظنون أن معصيته هي مرضاته فيعودون إلى تعطيل الأمر و النهي و يسمهون هذا حقيقة و يظنون أن هذه الحقيقة الأمرية الدينية هي التي تحوي مرضاة الرب و محبته و أمره و نهيه ظاهرا و باطنا و هؤلاء كثيرا ما يسلبون أحوالهم و قد يعودون إلى نوع من المعاصي و الفسوق بل كثير منهم يرتد عن الاسلام لأن العاقبة للتقوى و من لم يقف عند أمر الله و نهيه فليس من المتقين فهم يقعون في بعض ما وقع المشركون فيه تارة من بدعة يظنونها شرعة و تارة في الاحتجاج بالقدر على الأمر و الله تعالى لما ذكر ما ذم به المشركين في سورة الأنعام ذكر ما ابتدعه في الدين و جعلوه شرعة و قد ذمهم على أن حرموا ما لم يحرمه الله و أن شرعوا ما لم يشرعه الله و ذكر احتجاجهم بالقدر في قوله { وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ } النحل 35²

¹مجموع الفتاوى ج: 8 ص: 453-458

²أمراض القلوب ج: 1 ص: 51

من تاب اشبه اباه آدم ومن اصر واحتج بالقدر اشبه ابليس

قال تعالى { وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ } النحل 35 يوجد قوم من العلماء و العباد و أهل الكلام و التصوف أثبتوا القدر و آمنوا بأن الله رب كل شيء و مليكه و أنه ما شاء كان و ما لم يشأ لم يكن و أنه خالق كل شيء و ربه و مليكه و هذا حسن و صواب لكنهم قصروا في الأمر و النهي و الوعد و الوعيد و أفرطوا حتى خرج غلاتهم إلى الإلحاد فصاروا من جنس المشركين الذين قالوا { لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ شَيْءٍ } الأنعام 148 فأولئك القدرية و إن كانوا يشبهون المجوس من حيث أنهم أثبتوا فاعلا لما اعتقدوه شرا غير الله سبحانه فهو لاء شابهوا المشركين الذين قالوا { لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ شَيْءٍ } الأنعام 148 فالمشركون شر من المجوس فإن المجوس يقرون بالجزية بإتفاق المسلمين و قد ذهب بعض العلماء إلى حل نسائهم و طعامهم و أما المشركون فإتفقت الأمة على تحريم نكاح نسائهم و طعامهم و مذهب الشافعي و أحمد في المشهور عنه و غيرهما أنهم لا يقرون بالجزية و جمهور العلماء على أن مشركي العرب لا يقرون الجزية و إن أقرت المجوس فإن النبي صلى الله عليه و سلم لم يقبل الجزية من أحد من المشركين بل قال أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله و أنى رسول الله فإذا قالوها عصموا مني دماءهم و أموالهم إلا بحقها و حسابهم على الله عزوجل و المقصود هنا أن من أثبت القدر و إحتج به أبطال الأمر و النهي فهو شر ممن أثبت الأمر و النهي و لم يثبت القدر و هذا متفق عليه بين المسلمين و غيرهم من أهل الملل بل بين جميع الخلق فإن من إحتج بالقدر و شهود الربوبية العامة لجميع المخلوقات و لم يفرق بين المأمور و المحذور و المؤمنين و الكفار و أهل الطاعة و أهل المعصية لم يؤمن بأحد من الرسل و لا بشيء من الكتب و كان عنده آدم و إبليس سواء و نوح و قومه سواء و موسى و فرعون سواء و السابقون الأولون و كفار مكة سواء و هذا الضلال قد كثر في كثير من أهل التصوف و الزهد و العبادة لاسيما إذا قرنوا به توحيد أهل الكلام المثبتين للقدر و المشيئة من غير إثبات المحبة و البغض و الرضى و السخط الذين يقولون التوحيد هو توحيد الربوبية و الإلهية عندهم هي القدرة على الإختراع و لا يعرفون توحيد الإلهية و لا يعلمون أن الأله هو المألوه المعبود و أن مجرد الإقرار بأن الله رب كل شيء لا يكون توحيدا حتى يشهد أن لا إله إلا الله كما قال تعالى { وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ } يوسف 106 قال عكرمة تسألهم من خلق السموات و الأرض فيقولون الله و هم يعبدون غيره و هؤلاء يدعون التحقيق و الفناء فى التوحيد و يقولون أن هذا نهاية المعرفة و أن العارف إذا صار فى هذا المقام لا يستحسن حسنة و لا يستقبح سيئة لشهوده الربوبية العامة و القيومية الشاملة و هذا الموضوع و قع فيه من الشيوخ الكبار من شاء الله و لا حول و لا قوة إلا بالله و هؤلاء غاية توحيدهم هو توحيد المشركين الذين كانوا يعبدون الأصنام الذين قال الله عنهم { قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ } {84} سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ } {85} قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ } {86} سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ } {87} قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ } {88} سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ } {89} المؤمنون 84-89 و قال تعالى { وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ } {61} اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ } {62} وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلْ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ } {63} العنكبوت 61-63 و قال تعالى { وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ

وَالْأَرْضَ لِيَقُولَنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ {لقمان 25} وقال تعالى {وَلَيْنِ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولَنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ {الزخرف 87} وقال تعالى {قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ {31} فَذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعَدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ {32} كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ {33} قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلِ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ {34} قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمَّنْ لَا يَهْدِي إِلَّا أَنْ يَهْدِيَ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ {35} يونس 31- 35} وقال تعالى {أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتِ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا أَلَيْسَ مَعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ {60} أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيًا وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَلَيْسَ مَعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ {61} أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَلَيْسَ مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ {62} أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَنْ يُرْسِلِ الرِّيَّاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَلَيْسَ مَعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ {63} أَمَّنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَلَيْسَ مَعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ {64} النمل 60- 64} فإن هؤلاء المشركين كانوا مقرين بأن الله خالق السموات والأرض وخالقهم وبيده ملكوت كل شيء بل كانوا مقرين بالقدر أيضا فإن العرب كانوا يثبتون القدر في الجاهلية وهو معروف عنهم في النظم والنثر ومع هذا فلما لم يكونوا يعبدون الله وحده لا شريك له بل عبدوا غيره كانوا مشركين شرا من اليهود والنصارى فمن كان غاية توحيده وتحقيقه هو هذا التوحيد كان غاية توحيده توحيد المشركين وهذا المقام مقام وأى مقام زلت فيه أقدام و ضلت فيه أفهام و بدل فيه دين المسلمين و التبس فيه أهل التوحيد بعباد الأصنام على كثير ممن يدعون نهاية التوحيد و التحقيق و المعرفة و الكلام و معلوم عند كل من يؤمن بالله و رسوله أن المعتزلة و الشيعة القدرية المثبتين للأمر و النهي و الوعد و الوعيد خير ممن يسوي بين المؤمن و الكافر و البر و الفاجر و النبي الصادق و المتنبىء الكاذب و أولياء الله و أعدائه و يجعل هذا غاية التحقيق و نهاية التوحيد و هؤلاء يدخلون في مسمى القدرية الذين ذمهم السلف بل هم أحق بالذم من المعتزلة و نحوهم كما قال أبو بكر الخلال في كتاب السنة الرد على القدرية و قولهم أن الله أجبر العباد على المعاصي و ذكر عن المروزي قال قلت لأبي عبد الله رجل يقول أن الله أجبر العباد فقال هكذا لا تقول و أنكر ذلك و قال {يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ} {المدثر 31} و ذكر عن المروزي أن رجلا قال أن الله لم يجبر العباد على المعاصي فرد عليه آخر فقال أن الله جبر العباد أراد بذلك إثبات القدر فسألوا عن ذلك أحمد بن حنبل فأنكر عليهما جميعا على الذي قال جبر و على الذي قال لم يجبر حتى تاب و أمر أن يقال {يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ} {المدثر 31} و ذكر عن عبد الرحمن بن مهدي قال أنكر سفيان الثوري جبر و قال إن الله جبل العباد قال المروزي أراد قول النبي صلى الله عليه و سلم لأشج عبد القيس يعني قوله إن فيك لخلقين يحبهما الله الحلم و الإناءة فقال أخلقين تخلقت بهما أم خلقين جبلت عليهما فقال بل خلقين جبلت عليهما فقال الحمد لله الذي جبلني على خلقين يحبهما و ذكر عن أبي إسحاق الفزاري قال قال الأوزاعي أتاني رجلان فسألاني عن القدر فأجبت أن أتيتك بهما تسمع كلاهما و تجيبهما قلت رحمك الله أنت أولى بالجواب قال فاتاني الأوزاعي و معه الرجلان فقال تكلمنا فقالا قدم علينا ناس من أهل القدر فنازعونا في القدر و نازعناهم فيه حتى بلغ بنا و بهم إلى أن قلنا أن الله جبرنا على ما ناهانا عنه و حال بيننا وبين ما أمرنا به و رزقنا ما حرم علينا فقلت يا هؤلاء إن الذين أتوكم بما أتوكم به قد ابتدعوا بدعة و أحدثوا حدثا و أنى أراكم قد خرجتم من البدعة إلى مثل ما

خرجوا إليه فقال أصبت و أحسنت يا أبا إسحاق و ذكر عن بقية بن الوليد قال سألت الزبيدي و الأوزاعي عن الجبر فقال الزبيدي أمر الله أعظم و قدرته أعظم من أن يجبر أو يعضل و لكن يقضي و يقدر و يخلق و يجبل عبده على ما أحب و قال الأوزاعي ما أعرف للجبر أصلا من القرآن و السنة فأهاب أن أقول ذلك و لكن القضاء و القدر و الخلق و الجبل فهذا يعرف في القرآن و الحديث عن رسول الله صلى الله عليه و سلم و قد قال مطرف بن الشخير لم نوكل إلى القدر و إليه نصير و قال ضمرة ابن ربيعة لم نوامر أن نتكل على القدر و إليه نصير و قد ثبت في الصحيح عن النبي صلى الله عليه و سلم قال ما منكم من أحد إلا و قد علم مقعده من الجنة و مقعده من النار قالوا يا رسول الله أفلا ندع العمل و نتكل على الكتاب فقال لا إعملوا فكل ميسر لما خلق له و هذا باب واسع و المقصود هنا أن الخلال و غيره من أهل العلم أدخلوا القائلين بالجبر في مسمى القدرية و إن كانوا لا يحتجون بالقدر على المعاصي فكيف بمن يحتج به على المعاصي و معلوم أنه يدخل في ذم من ذم الله من القدرية من يحتج به على إسقاط الأمر و النهي أعظم مما يدخل فيه المنكر له فإن ضلال هذا أعظم ولهذا قرنت القدرية بالمرجئة في كلام غير واحد من السلف و روي في ذلك حديث مرفوع لأن كلا من هاتين البدعتين تفسد الأمر و النهي و الوعد و الوعيد فالإرجاء يضعف الإيمان بالوعيد و يهون أمر الفرائض و المحارم و القدرية أن يحتج به كان عوناً للمرجيء و إن كذب به كان هو و المرجيء قد تقابلا هذا يبلغ في التشديد حتى لا يجعل العبد يستعين بالله على فعل ما أمر به و ترك ما نهى عنه و هذا يباليغ في الناحية الأخرى و من المعلوم ان الله تعالى ارسل الرسل و انزل الكتب لتصدق الرسل فيما اخبرت و تطاع فيما امرت كما قال تعالى { وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ } النساء 64 و قال تعالى { مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ } النساء 80 و الايمان بالقدر من تمام ذلك فمن اثبت القدر و جعل ذلك معارضا للامر فقد اذهب الاصل و معلوم ان من اسقط الامر و النهي الذي بعث الله به رسله فهو كافر باتفاق المسلمين و اليهود و النصارى بل هؤلاء قولهم متناقض لا يمكن احدا منهم ان يعيش به و لا تقوم به مصلحة احد من الخلق و لا يتعاشر عليه اثنان فان القدر ان كان حجة فهو حجة لكل احد و الا فليس حجة لاحد فاذا قدر ان الرجل ظلمه ظالم او شتمه شاتم او اخذ ماله او افسد اهله او غير ذلك فمتى لامه او ذمه او طلب عقوبته ابطل الاحتجاج بالقدر و من ادعى ان العارف اذا شهد القدر سقط عنه الامر كان هذا الكلام من الكفر الذي لا يرضاه لا اليهود و لا النصارى بل ذلك ممتنع في العقل محال في الشرع فان الجائع يفرق بين الخبز و التراب و العطشان يفرق بين الماء و السراب فيحب ما يشبعه و يرويه دون ما لا ينفعه و الجميع مخلوق لله تعالى فالحي وان كان من كان لا بد ان يفرق بين ما ينفعه و ينعمه و يسره و بين ما يضره و يشقيه و يؤلمه و هذا حقيقة الامر و النهي فان الله تعالى امر العباد بما ينفعهم و نهاهم عما يضرهم و الناس في الشرع و القدر على اربعة انواع فشر الخلق من يحتج بالقدر لنفسه و لا يراه حجة لغيره يستند اليه في الذنوب و المعائب و لا يطمئن اليه في المصائب كما قال بعض العلماء انت عند الطاعة قدرى و عند المعصية جبرى اى مذهب وافق هوئك تمذهبت به و بازاء هؤلاء خير الخلق الذين يصبرون على المصائب و يستغفرون من المعائب كما قال تعالى { فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ } غافر 55 و قال تعالى { مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلُ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ } 22 { لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ } الحديد 22-23 و قال تعالى { مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ } التباين 11 قال بعض السلف هو الرجل تصيبه المصيبة فيعلم انها من عند الله فيرضى و يسلم قال تعالى { وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ اللَّهُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ }

{ آل عمران 135 } وقد ذكر الله تعالى عن ادم عليه السلام انه لما فعل من فعل قال { رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ } { الأعراف 23 } وعن ابليس انه قال { بِمَا أَغْوَيْتَنِي لِأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَا أُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ } { الحجر 39 } فمن تاب اشبه اباه ادم ومن اصر واحتج بالقدر اشبه ابليس والحديث الذي في الصحيحين في احتجاج ادم وموسى عليهما السلام لما قال له موسى انت ادم ابو البشر خلقك الله بيده ونفخ فيك من روحه وعلمك اسماء كل شيء لماذا اخرجتنا ونفسك من الجنة فقال له ادم انت موسى الذي اصطفاك الله برسالته وبكلامه وخط لك التوراة بيده فبكم وجدت مكتوبا على قبل ان اخلق { وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى } طه 121 قال بكذا وكذا سنة قال فحج ادم موسى وهذا الحديث في الصحيحين من حديث ابى هريرة وقد روى باسناد جيد من حديث عمر رضى الله عنه فآدم عليه السلام انما حج موسى لان موسى لامه على ما فعل لاجل ما حصل لهم من المصيبة بسبب اكله من الشجرة لم يكن لومه له لاجل حق الله في الذنب فان ادم كان قد تاب من الذنب كما قال تعالى { فَتَلَقَى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ } { البقرة 37 } وقال تعالى { ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى } طه 122 وموسى ومن هو دون موسى عليه السلام يعلم انه بعد التوبة والمغفرة لا يبقى ملام على الذنب وادم اعلم بالله من ان يحتج بالقدر على الذنب وموسى عليه السلام اعلم بالله تعالى من ان يقبل هذه الحجة فان هذه لو كانت حجة على الذنب لكانت حجة لابليس عدو ادم وحجة لفرعون عدو موسى وحجة لكل كافر وفاجر وبطل امر الله ونهيه بل انما كان القدر حجة لادم على موسى لانه لام غيره لاجل المصيبة التي حصلت له بفعل ذلك وتلك المصيبة كانت مكتوبة عليه وقد قال تعالى { مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ } { التغابن 11 } وقال انس خدمت النبي عشر سنين فما قال لى اف قط ولا قال لشيء فعلته لم فعلته ولا لشيء لم افعله لم لا فعلته وكان بعض اهله اذا عاتبني على شيء يقول دعوه فلو قضى شيء لكان وفى الصحيحين عن عائشة رضى الله عنها قالت ما ضرب رسول الله بيده خادما ولا امرأة ولا دابة ولا شيئا قط الا ان يجاهد فى سبيل الله ولا نيل منه شيء قط فانتقم لنفسه الا ان تنتهك محارم الله فاذا انتهكت محارم الله لم يقم لغضبه شيء حتى ينتقم الله وقد قال لو ان فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها فى امر الله ونهيه يسارع الى الطاعة ويقم الحدود على من تعدى حدود الله ولا تاخذه فى الله لومة لائم واذا آذاه مؤذ او قصر مقصر فى حقه عفا عنه ولم يؤاخذة نظرا الى القدر فهذا سبيل الذين انعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن اولئك رفيقا وهذا اوجب فيما قدر من المصائب بغير فعل ادمى كالمصائب السماوية او بفعل لا سبيل فيه الى العقوبة كفعل ادم عليه السلام فانه لا سبيل الى لومه شرعا لاجل التوبة ولا قدرا لاجل القضاء والقدر واما اذا ظلم رجل رجلا فله ان يستوفى مظلمته على وجه العدل وان عفا عنه كان افضل له كما قال تعالى { وَالْجُرُوحُ قِصَاصٌ فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ } { المائدة 45 }¹

الأمر الشرعى غير مستلزم للإرادة الكونية القدرية

¹مجموع الفتاوى ج: 8 ص: 109-99

قال تعالى { وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ } النحل 35 إن الله سبحانه قد فرق بالقرآن وبالإيمان بين أمره الديني وخلقه الكوني فإن الله سبحانه خالق كل شيء ورب كل شيء ومليكه سواء في ذلك الذوات وصفاتها وأفعالها وما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن لا يخرج عن مشيئته شيء ولا يكون شيء إلا بمشيئته وقد كذب ببعض ذلك القدرية المجوسية من هذه الأمة وغيرها وهم الذين يزعمون أن الله لم يخلق أفعال عباده من الملائكة والجن والإنس والبهائم ولا يقدر على أن يفعل بعباده من الخير أكثر مما فعله بهم بل ولا على أفعالهم فليس هو على كل شيء قدير أو أن ما كان من السيئات فهو واقع على خلاف مشيئته وإرادته وهم ضلال مبتدعة مخالفون للكتاب والسنة وإجماع سلف الأمة ولما عرف بالعقل والذوق ثم انه قابلهم قوم شر منهم وهم القدرية المشركية الذين رأوا الأفعال واقعة بمشيئته وقدرته فقالوا { سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ شَيْءٍ } الأنعام 148 ولو كره الله شيئا لأزاله وما في العالم إلا ما يحبه الله ويرضاه وما ثم عاص وأنا كافر برب يعصى وإن كان هذا قد عصى الأمر فقد أطاع الإرادة وربما استدلوا بالجبر وجعلوا العبد مجبورا والمجبور معذور والفعل لله فيه لا له فلا لوم عليه فهؤلاء كافرون بكتب الله ورسوله وأمر الله ونهيه وثوابه وعقابه ووعدده ووعيده ودينه وشرعه كفرا لا ريب فيه وهم أكفر من اليهود والنصارى بل أكفر من الصابئة والبراهمة الذين يقولون بالسياسات العقلية فإن هؤلاء كافرون بالديانات والشرائع الإلهية وبالآيات والسياسات العقلية وأما الأولون ففي تكفيرهم تفصيل ليس هذا موضعه وهؤلاء أعداء الله وأعداء جميع رسله بل أعداء جميع عقلاء بنى آدم بل أعداء أنفسهم فإن هذا القول لا يمكن أحدا أن يطرده ولا يعمل به ساعة من زمان إذ لازمه أن لا يدفع ظلم ظالم ولا يعاقب معتد ولا يعاقب مسيء لا بمثل إساءته ولا بأكثر منها وأكثر هؤلاء إنما يشيرون الى ذلك عند أهواء أنفسهم لرفع الملام عنهم وإلا فاذا كان لهم هذا مع أحد قابلوه وقاتلوه واعتدوا عليه أيضا ولا يقفون عند حد ولا يرقبون في مؤمن إلا ولا ذمة بل هم كما قال الله { وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا } الأحزاب 72 ظلما جهال مثل السبع العادى يفعلون بحكم الأهواء المحضة ويدفعون عن أنفسهم الملام والعدل أو ما يجب عليهم من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بالجبر الباطل وبملاحظة القدر النافذ معرضين عن الأمر والنهي ولا يفعلون مثل ذلك بمن اعتدى عليهم وظلمهم وآذاهم بل ولا بمن قصر في حقوقهم بل ولا بمن أطاع الله فأمر بما أمر الله به ونهى عما نهى الله عنه وقد بسطت الكلام في هؤلاء القدرية والقسم الأول وذكرت القدرية الإبليسية في غير هذا الموضوع وإنما الغرض هنا التنبيه على معاهد الأقوال وقد فرق الله في كتابه بين القسمين بين من قام بكلماته الكونيات وبين من اتبع كلماته الدينيات وذلك في أمره وإرادته وقضائه وحكمه وإذنه وبعثه وارساله فقال في الأمر الديني الشرعي { إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ } النحل 90 { إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا } النساء 58 { إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقْرَةً } البقرة 67 وقال في الأمر الكوني القدرى { إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ } يس 82 { أَنَّىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ } النحل 1 وبهذا الجمع والتفريق تزول الشبهة في مسألة الأمر الشرعي هل هو مستلزم للإرادة الكونية أم لا فان التحقيق أنه غير مستلزم للإرادة الكونية القدرية وإن كان مستلزما للإرادة الدينية الشرعية¹

¹ مجموع الفتاوى ج: 2 ص: 410-412 و مجموع الفتاوى ج: 3 ص: 111

الإحتجاج بالقدر باطل في فطر الخلق وعقولهم

وليس في القدر حجة لابن آدم ولا عذر بل القدر يؤمن به ولا يحتج به والمحتج بالقدر فاسد العقل والدين متناقض فإن القدر ان كان حجة وعذرا لزم أن لا يلام أحد ولا يعاقب ولا يقتص منه وحينئذ فهذا المحتج بالقدر يلزمه اذا ظلم في نفسه وماله وعرضه وحرمته أن لا ينتصر من الظالم ولا يغضب عليه ولا يذمه وهذا أمر ممتنع في الطبيعة لا يمكن أحد أن يفعله فهو ممتنع طبعا محرم شرعا ولو كان القدر حجة وعذرا لم يكن ابليس ملوما ولا معاقبا ولا فرعون وقوم نوح وعاد وثمود وغيرهم من الكفار ولا كان جهاد الكفار جائزا ولا اقامة الحدود جائزا ولا قطع السارق ولا جلد الزانى ولا رجمه ولا قتل القاتل ولا عقوبة معتد بوجه من الوجوه ولما كان الإحتجاج بالقدر باطلا في فطر الخلق وعقولهم لم تذهب اليه أمة من الأمم ولا هو مذهب أحد من العقلاء الذين يطردون قولهم فإنه لا يستقيم عليه مصلحة أحد لا في دنياه ولا آخرته ولا يمكن اثتان أن يتعاشرا ساعة واحدة إن لم يكن أحدهما ملتزما مع الآخر نوعا من الشرع فالشرع نور الله في أرضه وعدله بين عباده لكن الشرائع تتنوع فتارة تكون منزلة من عند الله كما جاءت به الرسل وتارة لا تكون كذلك ثم المنزلة تارة تبدل وتغير كما غير أهل الكتاب شرائعهم وتارة لا تغير ولا تبدل وتارة يدخل النسخ في بعضها وتارة لا يدخل وأما القدر فانه لا يحتج به أحد إلا عند اتباع هواه فاذا فعل فعلا محرما بمجرد هواه وذوقه ووجدته من غير أن يكون له علم بحسن الفعل ومصلحته استند الى القدر كما قال المشركون { **لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبْدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرَّسْلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ** } النحل 35 وقالوا { **لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ شَيْءٍ** } الأنعام 148 قال الله تعالى { **كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى دَافُوا بِأَسْنَانِهِمْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ** } { **قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ** } { **149** } الأنعام 148- 149 فبين أنهم ليس عندهم علم بما كانوا عليه من الدين وانما يتبعون الظن والقوم لم يكونوا ممن يسوغ لكل أحد الإحتجاج بالقدر فانه لو خرب أحد الكعبة أو شتم ابراهيم الخليل أو طعن في دينهم لعادوه وأذوه كيف وقد عادوا النبي صلى الله عليه وسلم على ما جاء به من الدين وما فعله هو أيضا من المقدور فلو كان الإحتجاج بالقدر حجة لكان النبي وأصحابه فان كان كل ما يحدث في الوجود فهو مقدر فالمحق والمبطل يشتركان في الإحتجاج بالقدر إن كان الإحتجاج به صحيحا ولكن كانوا يتعمدون على ما يعتقدونه من جنس دينهم وهم في ذلك يتبعون الظن ليس لهم به علم بل هم يخرصون¹

فما رواه مسلم في صحيحه عن جابر قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا خطب احمرت عيناه وعلا صوته واشتد غضبه حتى كأنه منذر جيش يقول صباحكم ومساءكم ويقول بعثت أنا والساعة كهاتين ويقرن بين أصبعين السبابة والوسطى ويقول أما بعد فإن خير الحديث كتاب الله وخير الهدي هدي محمد وشر الأمور محدثاتها وكل بدعة ضلالة وفي رواية للنسائي وكل ضلالة في النار وفيما رواه أيضا في الصحيح عن عائشة رضي الله عنها عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو رد وفي لفظ في الصحيحين من أحدث في

¹مجموع الفتاوى ج: 2 ص: 323-325

أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد وفي الحديث الصحيح الذي رواه أهل السنن عن العرياض بن سارية عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال إنه من يعش منكم بعدي فسيرى اختلافا كثيرا فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين من بعدي تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ وإياكم ومحدثات الأمور فإن كل بدعة ضلالة وهذه قاعدة قد دلت عليها السنة والإجماع مع ما في كتاب الله من الدلالة عليها أيضا قال تعالى {أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنَ بِهِ اللَّهُ} الشورى 21 فمن ندب إلى شيء يتقرب به إلى الله أو أوجبه بقوله أو فعله من غير أن يشرعه الله فقد شرع من الدين ما لم يأذن به الله ومن اتبعه في ذلك فقد اتخذ شريكا لله شرع له من الدين ما لم يأذن به الله نعم قد يكون متأولا في هذا الشرع فيغفر له لأجل تأويله إذا كان مجتهدا الاجتهاد الذي يعنى فيه عن المخطئ ويثاب أيضا على اجتهاده لكن لا يجوز اتباعه في ذلك كما لا يجوز اتباع سائر من قال أو عمل قولاً أو عملاً قد علم الصواب في خلافه وإن كان القائل أو الفاعل مأجورا أو معذورا وقد قال سبحانه {اتَّخِذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهَبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَّا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ} التوبة 31 قال عدي بن حاتم للنبي صلى الله عليه وسلم يا رسول الله ما عبدوهم قال ما عبدوهم ولكن أحلوا لهم الحرام فأطاعوهم وحرموا عليهم الحلال فأطاعوهم فمن أطاع أحدا في دين لم يأذن به الله من تحليل أو تحريم أو استحباب أو إيجاب فقد لحقه من هذا الذم نصيب كما يلحق الأمر الناهي أيضا نصيب ثم قد يكون كل منهما معفوا عنه لاجتهاده ومثابا أيضا على الاجتهاد فيتخلف عنه الذم لفوات شرطه أو لوجود مانعه وإن كان المقتضي له قائما ويلحق الذم من يبين له الحق فيتركه أو من قصر في طلبه حتى لم يتبين له أو عرض عن طلب معرفته لهوى أو لكسل أو نحو ذلك وأيضا فإن الله عاب على المشركين شيئين أحدهما أنهم أشركوا به ما لم ينزل به سلطانا والثاني تحريمهم ما لم يحرمه الله عليهم وبين النبي صلى الله عليه وسلم ذلك فيما رواه مسلم عن عياض بن حمار عن النبي صلى الله عليه وسلم قال قال الله تعالى إني جعلت عبادي حنفاء فاجتالتهم الشياطين وحرمت عليهم ما أحللت لهم وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطانا قال سبحانه {سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِن شَيْءٍ} الأنعام 148 فجمعوا بين الشرك والتحريم والشرك يدخل فيه كل عبادة لم يأذن الله بها فإن المشركين يزعمون أن عبادتهم إما واجبة وإما مستحبة وإن فعلها خير من تركها ثم منهم من عبد غير الله ليتقرب بعبادته إلى الله ومنهم من ابتدع دينا عبدوا به الله في زعمهم كما أحدثه النصارى من أنواع العبادات المحدثة وأصل الضلال في أهل الأرض إنما نشأ من هذين إما اتخاذ دين لم يشرعه الله أو تحريم ما لم يحرمه الله ولهذا كان الأصل الذي بنى الإمام أحمد وغيره من الأئمة عليه مذاهبهم أن أعمال الخلق تنقسم إلى عبادات يتخذونها دينا ينتفعون بها في الآخرة أو في الدنيا والآخرة وإلى عادات ينتفعون بها في معاشهم فالأصل في العبادات أن لا يشرع منها إلا ما شرعه الله والأصل في العادات أن لا يحظر منها إلا ما حظره الله وهذه المواسم المحدثه إنما نهى عنها لما حدث فيها من الدين الذي يتقرب به كما سنذكره إن شاء الله واعلم أن هذه القاعدة وهي الاستدلال بكون الشيء بدعة على كراهته قاعدة عامة عظيمة وتامها بالجواب عما يعارضها¹

¹ اقتضاء الصراط ج: 1 ص: 268

اتخاذ ما ليس بمشروع ديناً أو تحريم ما لم يحرم دين الجاهلية والنصارى

فإن المشركين استدلوا بالقدر على نفي الأمر والنهي والمحبوب والمكروه والطاعة والمعصية ومن سلك هذا المسلك فهو في نوع من الكفر البين¹

فاتخاذ ما ليس بمشروع ديناً أو تحريم ما لم يحرم دين الجاهلية والنصارى الذي عابه الله عليهم كما قال تعالى { وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ } النحل 35 وقال تعالى فيما رواه مسلم في صحيحه من حديث عياض بن حمار إنني خلقت عبادي حنفاء فاجتالهم الشياطين وحرمت عليهم ما أحللت لهم وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطاناً وقال في حق النصارى { وَلَا يُحْرَمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ } التوبة 29 ومثال ذلك أن يحصل من بعضهم تقصير في المأمور أو اعتداء في المنهي إما من جنس الشبهات وإما من جنس الشهوات فيقابل ذلك بعضهم بالاعتداء في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أو بالتقصير في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والتقصير والاعتداء إما في المأمور به والمنهي عنه شرعاً وإما في نفس أمر الناس ونهيهم هو الذي استحق به أهل الكتاب العقوبة حيث قال { وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذَّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَآؤُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ } البقرة 61 فجعل ذلك بالمعصية والاعتداء والمعصية مخالفة الأمر وهو التقصير والاعتداء مجاوزة الحد وكذلك يضمن كل مؤتمن على مال إذا قصر وفرط في ما أمر به وهو المعصية إذا اعتدى بخيانة أو غيرها ولهذا قال { وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ } المائدة 2 فالإثم هو المعصية والله أعلم وقال النبي إن الله فرض فرائض فلا تضيعوها وحرم محارم فلا تنتهكوها وحد حدوداً فلا تعتدوها وسكت عن أشياء رحمة لكم من غير نسيان فلا تسألوا عنها فالمعصية تضييع الفرائض وانتهاك المحارم وهو مخالفة الأمر والنهي والاعتداء مجاوزة حدود المباحات وقال تعالى { يَاأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ } الأعراف 157 فالمعصية مخالفة أمره ونهيه والاعتداء مجاوزة ما أحله إلى ما حرمه وكذلك قوله والله أعلم { رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا } آل عمران 147 فالذنوب والمعصية والإسراف والاعتداء ومجاوزة الحد واعلم أن مجاوزة الحد هي نوع من مخالفة النهي لأن اعتداء الحد محرم منهى عنه فيدخل في قسم المنهي عنه لكن المنهي عنه قسمان منهى عنه مطلقاً كالكفر فهذا فعله إثم ومنهى عنه وقسم أبيض منه أنواع ومقادير وحرم الزيادة على تلك الأنواع والمقادير فهذا فعله عدوان وكذلك قد يحصل العدوان في المأمور به كما يحصل في المباح فإن الزيادة على المأمور به قد يكون عدواناً وقد يكون مباحاً مطلقاً وقد يكون مباحاً إلى غاية فالزيادة عليها عدوان ولهذا التقسيم قيل في الشريعة هي الأمر والنهي

¹ الاستقامة ج: 2 ص: 30

والحلال والحرام والفرائض والحدود والسنن والأحكام فالفرائض هي المقادير في الأمور به والحدود النهايات لما يجوز من المباح الأمور به وغير الأمور به¹

أهل السنة في باب أسماء الله وصفاته وسط بين أهل التعطيل وبين أهل

التمثيل

فأهل السنة والجماعة في الفرق فهم في باب أسماء الله وآياته وصفاته وسط بين أهل التعطيل الذين يلحدون في أسماء الله وآياته ويعطلون حقائق ما نعت الله به نفسه حتى يشبهوه بالعدم والموات وبين أهل التمثيل الذين يضربون له الأمثال ويشبهونه بالمخلوقات فيؤمن أهل السنة والجماعة بما وصف الله به نفسه وما وصفه به رسوله من غير تحريف ولا تعطيل ومن غير تكيف وتمثيل وهم في باب خلقه وأمره وسط بين المكذبين بقدره الله الذين لا يؤمنون بقدرته الكاملة ومشيتته الشاملة وخلق كل شيء وبين المفسدين لدين الله الذين يجعلون العبد ليس له مشيئة ولا قدرة ولا عمل فيعطلون الأمر والنهي والثواب والعقاب فيصبرون بمنزلة المشركين الذين قالوا **{لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبْدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ}** النحل 35 فيؤمن أهل السنة بأن الله على كل شيء قدير فيقدر أن يهدي العباد ويقلب قلوبهم وأنه ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن فلا يكون في ملكه ما لا يريد ولا يعجز عن إنفاذ مراده وأنه خالق كل شيء من الأعيان والصفات والحركات ويؤمنون أن العبد له قدرة ومشيئة وعمل وأنه مختار ولا يسمونه مجبوراً إذ المجبور من أكره على خلاف اختياره والله سبحانه جعل العبد مختاراً لما يفعله فهو مختار مريد والله خالقه وخالق اختياره وهذا ليس له نظير فإن الله ليس كمثل شيء لا في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله²

يجب على الخلق الاقرار بما جاء به النبي

قال تعالى **{وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبْدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ}** النحل 35 يجب على الخلق الاقرار بما جاء به النبي فما جاء به القرآن العزيز أو السنة المعلومة وجب على الخلق الاقرار به جملة وتفصيلاً عند العلم بالتفصيل فلا يكون الرجل مؤمناً حتى يقر بما جاء به النبي وهو تحقيق شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله فمن شهد أنه رسول الله شهد أنه صادق فيما يخبر به عن الله تعالى فإن هذا حقيقة الشهادة بالرسالة إذ الكاذب ليس برسول فيما يكذبه وقد قال الله تعالى **{ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ {44} لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ {45} ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ {46}** الحاقة 44-46 و بالجملة فهذا معلوم بالاضطرار من دين الإسلام لا يحتاج الى تقريره هنا وهو الاقرار بما جاء به النبي وهو ما جاء به من القرآن والسنة كما قال الله تعالى **{ كَمَا**

¹مجموع الفتاوى ج: 3 ص: 361-363

²مجموع الفتاوى ج: 3 ص: 374

أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ {البقرة 151} وقال تعالى {وَأذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُمْ بِهِ {البقرة 231} ومما جاء به الرسول أمر الله له بالبلاغ المبين كما قال تعالى { **فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ {النحل 35}** } وقال تعالى { وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ {النحل 44} وقال تعالى { يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ مِنَ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ {المائدة 67} ومعلوم أنه قد بلغ الرسالة كما أمر ولم يكتم منها شيئاً فان كتمان ما أنزله الله إليه يناقض موجب الرسالة كما أن الكذب يناقض موجب الرسالة ومن المعلوم من دين المسلمين أنه معصوم من الكتمان لشيء من الرسالة كما أنه معصوم من الكذب فيها والأمة تشهد له بأنه بلغ الرسالة كما أمره الله وبين ما أنزل إليه من ربه وقد أخبر الله بأنه قد أكمل الدين وانما كمل بما بلغه اذ الدين لم يعرف الا بتبليغه فعلم أنه بلغ جميع الدين الذي شرعه الله لعباده كما قال صلى الله عليه وسلم تركتكم على البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها بعدى الا هالك وقال ما تركت من شيء يقربكم الى الجنة الا وقد حدثتكم به وما من شيء يبعدكم عن النار الا وقد حدثتكم به وقال أبو ذر لقد توفى رسول الله وما طائر يقلب جناحيه في السماء الا ذكر لنا منه علماً¹

كلما ازداد العبد تحقيقاً للعبودية ازداد كماله

فإن الله تعالى أرسل الرسل ليدعوا الخلق إلى عبادته وحده لا شريك له كما قال تعالى وأخبر عن كل نبي أنه دعا قومه إلى ذلك {وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكذِّبِينَ {النحل 36} فكمال الإنسان وصلاحه وسعادته في أن يعبد الله وحده لا شريك له وهذا هو الإسلام العام الذي بعث الله به جميع الرسل وهو الذي لا يقبل من أحد ديناً غيره لا من المتقدمين ولا من المتأخرين²

فكمال المخلوق في تحقيق عبوديته لله وكلما ازداد العبد تحقيقاً للعبودية ازداد كماله وعلت درجته ومن توهم أن المخلوق يخرج عن العبودية بوجه من الوجوه أو أن الخروج عنها أكمل فهو من أجهل الخلق وأضلهم قال تعالى {وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ {26} لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ {27} الأنبياء 26-27} إلى قوله { وَهُمْ مِّنْ خَشِيَّتِهِ مُشْفِقُونَ {الأنبياء 28} وقال تعالى {لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرْهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا {النساء 172} الى قوله { وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا {النساء 173} وهذا ونحوه مما فيه وصف اكابر المخلوقات بالعبادة وذم من خرج عن ذلك

¹مجموع الفتاوى ج: 5 ص: 156

²الصفدية ج: 2 ص: 242

الْعَالَمِينَ {162} لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ {163} قُلْ أَعْبُدُوا اللَّهَ أُنْبِيَاءَ اللَّهِ أُنْبِيَاءَ رَّبِّكُمْ وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا {164} الأنعام 161-164 وهذا التوحيد كثير في القرآن وهو أول الدين وآخره وباطن الدين وظاهره وذروة سنام هذا التوحيد لأولى العزم من الرسل ثم للخليلين محمد وإبراهيم صلى الله عليهما وسلم تسليماً¹

الانبياء جميعهم وأممهم كانوا مسلمين مؤمنين موحدين

لما بعث الله خاتم المرسلين وفضل النبيين محمدا صلى الله عليه وسلم إمام التوحيد الذي بعث الله به الرسل قبله وأظهره وخلصه من شوائب الشرك فظهر التوحيد بسببه ظهوراً فضله الله به وفضل به أمته على سائر من تقدم الانبياء كلهم كانوا مسلمين فان الانبياء جميعهم وأممهم كانوا مسلمين مؤمنين موحدين لم يكن قط دين يقبله الله غير الاسلام وهو عبادة الله وحده لا شريك له كما قال تعالى {وَأَسْأَلُ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ} الزخرف 45 وقال تعالى {وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ} الانبياء 25 وقال تعالى {وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ} النحل 36 وفي الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال انا معشر الانبياء ديننا واحد وإن أولى الناس بابن مريم لأنا إنه ليس بيني وبينه نبي وقد أخبر الله في القرآن عن جميع الانبياء وأممهم من نوح الى الحواريين أنهم كانوا مسلمين مؤمنين²

ان اصل دينهم الذي انزل الله به الكتب وأرسل به الرسل ليس فيه شرك³

والله تعالى إنما بعث المسيح بدين الإسلام كما بعث سائر الرسل بدين الإسلام وهو عبادة الله وحده لا شريك له وقد أخبر الله تعالى عن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى بن مريم وغيرهم من الرسل والمؤمنين إلى زمن الحواريين أن دينهم كان الإسلام قال تعالى عن نوح عليه السلام {وَآتَىٰ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ} {71} فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ} {72} يونس 71-72 وقال تعالى عن إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام {وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدْ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ} {130} إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ} {131} وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمْ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ

¹منهاج السنة النبوية ج: 5 ص: 346-349

²الرد على المنطقيين ج: 1 ص: 290

³مجموع الفتاوى ج: 35 ص: 220

مُسْلِمُونَ {132} أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ {133} البقرة 130-133 وقال تعالى عن موسى عليه الصلاة والسلام { وَقَالَ مُوسَى يَا قَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ } يونس 84 وقال { إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا } المائدة 44 وقال عن بلقيس { قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ } النمل 44 وقال عن الحواريين { وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ } المائدة 111 وقد أخبر الله عن أول الرسل نوح عليه السلام ومن بعده من الرسل انهم قالوا لقومهم { اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ } الأعراف 59 وقال نوح { وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبِ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدِرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ إِنِّي إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ } هود 31 وكذلك قال لخاتم الرسل { قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبِ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ } الأنعام 50 فتوسط البشر بالرسالة مثل توسط الملك بالرسالة كما قال تعالى { اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ } الحج 75¹

و التوحيد هو أصل الدين الذي لا يقبل الله من الأولين والآخرين ديناً غيره وبه أرسل الله الرسل وأنزل الكتب وقد ثبت في الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال إن الله يرضى لكم ثلاثاً أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً وأن تعصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا وأن تتاصحوا من ولاة الله أمركم²

الله تعالى قد بعث في كل قوم نبياً

قال { وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ } النحل 36 فهذا إخبار منه سبحانه وتعالى بأنه بعث في كل أمة رسولا يدعوهم إلى عبادة الله وحده³

وقد ذكر الله عز وجل عن كل من الرسل أنه افتتح دعوته بأن قال لقومه اعبدوا الله مالكم من إله غيره⁴ أخبر أنه ليس أمة من الأمم إلا خلا فيها نذير كما قال { وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ } النحل 36 ثم أخبر أن الذين من قبلهم جاءتهم رسلهم بالبينات وبالزبر والكتاب المنير وهذا من عطف الخاص على العام لا اختصاصه بوصف يختص به⁵

¹ منهاج السنة النبوية ج: 1 ص: 319-320 و الرد على المنطقيين ج: 1 ص: 538

² مجموع الفتاوى ج: 27 ص: 164 و مجموع الفتاوى ج: 1 ص: 154

³ الجواب الصحيح ج: 2 ص: 230

⁴ مجموع الفتاوى ج: 1 ص: 154

⁵ الجواب الصحيح ج: 6 ص: 383

وهذا كقوله تعالى في الآية الأخرى {إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ} فاطر 24 وقوله {وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ} الرعد 7 في أصح الأقوال أي ولكل قوم داع يدعوهم إلى توحيد الله وعبادته كما أنت هاد أي داع لمن أرسلت إليه والهادي بمعنى الداعي المعلم المبلغ لا بمعنى الذي يجعل الهدى في القلوب كقوله {وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ} 52 {صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ} 53 {الشورى 52-53} ¹

وقد بعث الله قبل رسلا كثيرين وقد روى في حديث أبي ذر أن عدتهم ثلاثمائة وثلاثة عشر وفي الحديث الذي في المسند عن بهز بن حكيم عن أبيه عن جده عن النبي أنه قال أنتم توفون سبعين أمة أنتم خيرها وأكرمها على الله عز وجل وهذه السبعون سواء كانت هي التي هداها أو هي الجميع فإنه يدل على كثرة الرسل ²

فهذا يبين أن كل أمة قد جاءها رسول فكيف لم يعرف هؤلاء الرسل قلت عن هذا جوابان أحدهما أن كثيرا من هؤلاء لم يعرفوا الرسل كما قال {وَمِنْهُمْ مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ} النحل 36 فلم تبق أخبار الرسول وأقواله معروفة عندهم الثاني أنه قال تعالى {تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ} النحل 63 فإذا كان الشيطان قد زين لهم أعمالهم كان في هؤلاء من درست أخبار الأنبياء عندهم فلم يعرفوها ³

فإن الله تبارك وتعالى جعل محمدا صلى الله عليه وسلم خاتم النبيين وأكمل له ولأمة الدين وبعثه على حين فترة من الرسل وظهور الكفر وانطماس السبل فأحيا به ما درس من معالم الإيمان وقمع به أهل الشرك من عباد الأوثان والنيران والصلبان وأذل به كفار أهل الكتاب أهل الشرك والأرتياب وأقام به منار دينه الذي ارتضاه وشاد به ذكر من اجتباه من عباده واصطفاه وأظهر به ما كان مخفيا عند أهل الكتاب وأبان به ما عدلوا فيه عن منهج الصواب وحقق به صدق التوراة الزبور والإنجيل وأماط به عنها ما ليس بحقها من باطل التحريف والتبديل وكان من سنة الله تبارك وتعالى موآثرة الرسل وتعميم الخلق بهم بحيث يبعث في كل أمة رسولا ليقم هداها وحثه كما قال تعالى {وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ} 36 {سورة النحل الآية 36} ⁴

¹الجواب الصحيح ج: 2 ص: 100

²الجواب الصحيح ج: 4 ص: 9

³النبوات ج: 1 ص: 25

⁴الجواب الصحيح ج: 1 ص: 79

حبب الله للامة الاسلامية الإيمان وزينه في قلوبهم فجعلهم متبعين لرسوله صلى الله عليه وسلم وعصمهم أن يجتمعوا على ضلالة كما ضلت الأمم قبلهم إذ كانت كل أمة إذا ضلت أرسل الله تعالى رسولا إليهم كما قال تعالى { **وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ** } النحل 36 وقال تعالى { **وَإِنْ مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ** } فاطر 24 ومحمد صلى الله عليه وسلم خاتم الأنبياء لا نبي بعده فعصم الله أمته أن تجتمع على ضلالة وجعل فيها من تقوم به الحجة إلى يوم القيامة ولهذا كان إجماعهم حجة كما كان الكتاب والسنة حجة ولهذا امتاز أهل الحق من هذه الأمة والسنة والجماعة عن أهل الباطل الذين يزعمون أنهم يتبعون الكتاب ويعرضون عن سنة رسول الله واما مضت عليه جماعة المسلمين فإن الله أمر في كتابه باتباع سنة رسوله صلى الله عليه وسلم ولزوم سبيله وأمر بالجماعة والاتلاف ونهى عن الفرقة والاختلاف¹

خلق الله الخلق لتكون كلمة الله هي العليا

قال تعالى { **وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ** } النحل 36 فان الله سبحانه وتعالى انما خلق الخلق لتكون كلمة الله هي العليا ويكون الدين كله لله وبه انزل الكتب وبه أرسل الرسل وعليه جاهد الرسول والمؤمنون قال الله تعالى { **وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ** } الذاريات 56 وقال تعالى { **وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ** } الأنبياء 25 وقال { **وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ** } النحل 36 وقد أخبر عن جميع المرسلين ان كلا منهم يقول لقومه { **اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ** } الأعراف 59 وعباداته تكون بطاعته وطاعة رسوله وذلك هو الخير والبر والتقوى والحسنات والقربات والباقيات والصالحات والعمل الصالح وان كانت هذه الاسماء بينها فروق لطيفة ليس هذا موضعها وهذا الذى يقاتل عليه الخلق كما قال تعالى { **وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلَّهُ لِلَّهِ** } الأنفال 39 وفي الصحيحين عن أبى موسى الأشعري رضى الله عنه قال سئل النبي عن الرجل يقاتل شجاعة ويقاقل حمية ويقاقل رياء فأى ذلك فى سبيل الله فقال من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو فى سبيل الله²

أصل الإيمان توحيد الله والإيمان برسوله

¹مجموع الفتاوى ج: 3 ص: 368 و الرد على المنطقيين ج: 1 ص: 450

²مجموع الفتاوى ج: 28 ص: 61

و قال الله سبحانه وتعالى {وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ} البينة5 و قال النبي صلى الله عليه وسلم فمن كانت هجرته الى الله ورسوله فهجرته الى الله ورسوله و من كانت هجرته الى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته الى ما هاجر إليه فإنه صلى الله عليه وسلم ميز بين مقصود و مقصود و هذا المقصود في الجملة لا بد منه في كل فعل اختياري قال النبي صلى الله عليه وسلم أصدق الأسماء حارث و همام فإن كل بشر بل كل حيوان لا بد له من همة و هو الإرادة و من حرث و هو العمل إذ من لوازم الحيوان أنه يتحرك بإرادته ثم ذلك الذي يقصده هو غايته و إن كان قد يحدث له بعد ذلك القصد قصد آخر و إنما تطمئن النفوس بوصولها الى مقصودها وبها يتميز من يعبد الله مخلصاً له الدين ممن يعبد الطاغوت أو يشرك بعبادة ربه و من يريد حرث الآخرة ممن يريد حرث الدنيا و هو الدين الخالص لله الذي تشترك فيه جميع الشرائع الذي نهى الأنبياء عن التفرق فيه كما قال تعالى {شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ} الشورى13 ولهذا كان دين الأنبياء واحداً و إن كانت شرائعهم متنوعة قال تعالى {وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ} الزخرف45 و قال تعالى {وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ} الأنبياء25 و قال تعالى {وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ} النحل36 و قال تعالى {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ} الذاريات56 و قال تعالى {يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمْ} البقرة21¹

الدين واحد وان تفرقت الشريعة والمنهاج

قال تعالى {وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكذِّبِينَ} النحل36 و قال الله تعالى {مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ} {79} وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ} {80} آل عمران79-80 والله تعالى بعث الرسل وأنزل الكتب ليكون الدين كله لله وقال النبي في الحديث الصحيح أنا معشر الأنبياء وديننا واحد فالدين واحد وان تفرقت الشريعة والمنهاج قال الله تعالى {وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ} الأنبياء25 و قال الله تعالى {وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ} الزخرف45 و قال الله تعالى {وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ} النحل36 و من حين بعث الله محمداً صلى الله عليه وسلم ما يقبل من أحد بلغته الدعوة الا الدين الذي بعثه به فان دعوة عامة لجميع الخلائق²

في توحيد الملة وتعدد الشرائع وتنوعها وتوحد الدين الملى دون الشرعى وما فى ذلك من اقرار ونسخ وجريان ذلك فى اهل الشريعة الواحدة بنوع من الاعتبار قال الله تعالى {وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ

¹مجموع الفتاوى ج: 26 ص: 23-27

²مجموع الفتاوى ج: 18 ص: 318

رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا {البقرة 124} فهذا نص في انه امام الناس كلهم وقال {إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً {النحل 120} وهو القدوة الذي يؤتم به وهو معلم الخير وقال تعالى في آل عمران {شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ {18} إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ {19} آل عمران 18- 19} فاخبر ان الدين عند الله الاسلام وان الذين اختلفوا من اهل الكتاب وصاروا على ملل شتى ما اختلفوا الا من بعد ما جاءهم العلم وفيه بيان ان الدين واحد لا اختلاف فيه وقال {إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ {120} شَاكِرًا لَأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ {121} وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ {122} ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ {123} النحل 120- 123} وذكر في النحل دعوة المرسلين جميعهم واتفقهم على عبادة الله وحده لا شريك له فقال {وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَن حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ {النحل 36} الآية وهذا في القرآن المذكور في مواضع كثيرة وكذلك في الأحاديث الصحيحة مثل ما ترجم عليه البخارى فقال باب ما جاء في أن دين الأنبياء واحد وذكر الحديث المتفق عليه عن أبي هريرة عن النبي قال انا معاشر الأنبياء اخوة لعلات ومثل صفته في التوراة لن أقبضه حتى أقيم به الملة العوجاء فافتح به أعينا عميا وآذانا صما وقلوبا غلغا ولهذا وحد الصراط والسبيل في مثل قوله تعالى { اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ {6} صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ {7} الفاتحة 6-7} والاسلام دين جميع المرسلين¹

التوحيد هو أعظم العدل والشرك وهو أعظم الظلم

قال تعالى { وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَن حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكذِّبِينَ {النحل 36} وقوله تعالى { أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ {الأعراف 29} أمر مع القسط بالتوحيد الذي هو عبادة الله وحده لا شريك له وهذا أصل الدين وضده هو الذنب الذي لا يغفر قال تعالى {إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ {النساء 48} وهو الدين الذي أمر الله به جميع الرسل وأرسلهم به إلى جميع الأمم قال تعالى {وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ {الأنبياء 25} وقال تعالى {وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ {الزخرف 45} وقال تعالى {وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ {النحل 36} وقال تعالى {شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ {الشورى 13} وقال تعالى {يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ {51} وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ {52} المؤمنون 51- 52} ولهذا ترجم البخارى في صحيحه باب ما جاء في أن دين الأنبياء واحد وذكر الحديث الصحيح في ذلك

¹مجموع الفتاوى ج: 19 ص: 109

وهو الإسلام العام الذى إتفق عليه جميع النبيين قال نوح عليه السلام {وَأَمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ} {يونس 72} وقال تعالى فى قصة إبراهيم {إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ} {131} {وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ} {132} {البقرة 131-132} {وَقَالَ مُوسَى يَا قَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ} {يونس 84} وقال تعالى {قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ} {آل عمران 52} وقال فى قصة بلقيس {رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ} {النمل 44} وقال {إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ} {المائدة 44} وهذا التوحيد الذى هو اصل الدين هو أعظم العدل وضده وهو الشرك أعظم الظلم كما أخرجاه فى الصحيحين عن عبدالله بن مسعود قال لما أنزلت هذه الآية {الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ} {الأنعام 82} شق ذلك على أصحاب النبى وقالوا أينما لم يظلم نفسه فقال ألم تسمعوا إلى قول العبد الصالح إن الشرك لظلم عظيم وفى الصحيحين عن ابن مسعود قال قلت يا رسول الله أى الذنب أعظم قال إن تجعل لله ندا وهو خلقك قلت ثم أى قال ثم أن تقتل ولدك خشية أن يطعم معك قلت ثم أى قال أن تزانى بحليلة جارك فأنزل الله تصديق ذلك {وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا} {الفرقان 68} الآية وقد جاء عن غير واحد من السلف وروى مرفوعا الظلم ثلاثة دواوين لا يغفر الله منه شيئا وديوان لا يترك الله منه شيئا وديوان لا يعبأ الله به شيئا فأما الديوان الذى لا يغفر الله منه شيئا فهو الشرك فإن الله لا يغفر أن يشرك به وأما الديوان الذى لا يترك الله منه شيئا فهو ظلم العباد بعضهم بعضا فإن الله لا بد أن ينصف المظلوم من الظالم وأما الديوان الذى لا يعبأ الله به شيئا فهو ظلم العبد نفسه فيما بينه وبين ربه أى مغفرة هذا الضرب ممكنة بدون رضى الخلق فإن شاء عذب وهذا الظالم لنفسه وإن شاء غفر له ¹

دين الله العام الذى لا يقبل من احد سواه وبه بعث جميع الرسل

قال تعالى {وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكذِّبِينَ} {النحل 36} وقد أرسل الله جميع الرسل وأنزل جميع الكتب بالتوحيد الذى هو عبادة الله وحده لا شريك له كما قال الله تعالى {وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ} {الأنبياء 25} وقال تعالى {وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَعْلَمْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إِلَهَةً يُعْبُدُونَ} {الزخرف 45} وقال تعالى {وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ} {النحل 36} وقال تعالى {يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ} {51} {وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ} {52} {المؤمنون 51-52} وقد قالت الرسل كلهم مثل نوح وهود وصالح وغيرهم {أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُوا} {نوح 3} فكل الرسل دعوا إلى عبادة الله وحده لا شريك له والى طاعتهم والايمان بالرسول

¹مجموع الفتاوى ج: 18 ص: 160-162 و الفتاوى الكبرى ج: 1 ص: 415

هو الاصل الثاني من أصلى الاسلام فمن لم يؤمن بأن محمدا رسول الله إلى جميع العالمين وانه يجب على جميع الخلق متابعتة وان الحلال ما أحله الله والحرام ما حرمه الله والدين ما شرعه فهو كافر¹

والله تعالى بعث الرسل وانزل الكتب ليكون الدين كله لله وقال النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح أنا معشر الأنبياء ديننا واحد فالدين واحد وان تفرقت الشريعة والمنهاج قال الله تعالى **{وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ}** {النحل36} ومن حين بعث الله محمدا ما يقبل من أحد بلغته الدعوة إلا الدين الذى بعثه به فان دعوته عامة لجميع الخلائق قال الله تعالى **{وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ}** {سبأ28} وقال لا يسمع بى من هذه الامة يهودى ولا نصرانى ثم لا يؤمن بى إلا دخل النار²

فأعلم ان مسائل التكفير والتفسيق هي من مسائل الأسماء والأحكام التي يتعلق بها الوعد والوعيد في الدار الآخرة وتتعلق بها الموالاتة والمعاداة والقتل والعصمة وغير ذلك في الدار الدنيا فان الله سبحانه اوجب الجنة للمؤمنين وحرم الجنة علي الكافرين وهذا من الاحكام الكلية في كل وقت ومكان قال الله تعالى **{إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَن آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ}** {البقرة62} وقال تعالى لما ذكر قول اليهود والنصارى **{وَقَالُوا لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ}** {البقرة111} فأمر أن يطالبهم بالبرهان على هذا النفي العام وما فيه من الاثبات الباطل ثم قال **{ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ}** {112} {البقرة112} فأخبر سبحانه عن مضي ممن كان متمسكا بدين حق من اليهود والنصارى والصابئين وعن المؤمنين بعد مبعث محمد أنه من جمع الخصال الثلاث التي هي جماع الصلاح وهي الايمان بالخلق والبعث بالمبدأ والمعاد الايمان بالله واليوم الآخر والعمل الصالح وهو أداء المأمور به وترك المنهي عنه فإن له حصول الثواب وهو أجره عند ربه واندفاع العقاب فلا خوف عليه مما أمامه ولا يحزن على ما وراءه ولذلك قال **{ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ }** {البقرة112} اخلاص الدين لله وهو عبادته وحده لا شريك له وهو حقيقة قوله **{إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ}** {الفاطحة5} **{ وَهُوَ مُحْسِنٌ }** {البقرة112} ف الأول وهو إسلام الوجه هو النية وهذا الثاني وهو الاحسان هو العمل وهذا الذي ذكره في هاتين الآيتين هو الايمان العام والاسلام العام الذي أوجبه الله على جميع عباده من الأولين والآخرين وهو دين الله العام الذي لا يقبل من احد سواه وبه بعث جميع الرسل كما قال تعالى **{وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ}** {النحل36}³

¹مجموع الفتاوى ج: 11 ص: 52

²مؤلفات ابن تيمية ج: 11 ص: 522

³مجموع الفتاوى ج: 12 ص: 468-470

من خرج عن النبوات وقع فى الشرك وغيره

وكل أمة مشركة أصل شركها عدم كتاب منزل من السماء وكل أمة مخلصه أصل اخلاصها كتاب منزل من السماء فان بنى آدم محتاجون الى شرع يكمل فطرهم فافتتح الله الجنس بنبوة آدم كما قال تعالى {وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا} البقرة 31 وهلم جرا فمن خرج عن النبوات وقع فى الشرك وغيره وهذا عام فى كل كافر غير كتابى فانه مشرك وشركه لعدم إيمانه بالرسول الذين قال الله فيهم {وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ} النحل 36 ولم يكن الشرك أصلا فى الأدميين بل كان آدم ومن كان على دينه من بنيه على التوحيد لله لاتباعهم النبوة قال تعالى {وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا} يونس 19 قال ابن عباس كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على الاسلام فبتركهم اتباع شريعة الانبياء وقعوا فى الشرك لا يوقعهم فى الشرك خرجوا عن شريعة الاسلام فان أمرهم بما أمره الله به حيث قال له {فَأَمَّا يَا تَيْنُكُمْ مَنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ} {38} وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ} {39} البقرة 38-39 وقال فى الآية الأخرى {فَمَنْ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى} {123} وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى} {124} قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا} {125} قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيْتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى} {126} طه 123-126 فهذا الكلام الذى خاطب الله به آدم وغيره لما اهبطهم قد تضمن أنه اوجب عليهم اتباع هداية المنزل وهو الوحي الوارد على أنبيائه وتضمن ان من اعرض عنه وان لم يكذب به فانه يكون يوم القيامة فى العذاب المهين وان معيشته تكون ضنكا فى هذه الحياة وفي البرزخ والآخرة وهو المضنوكه النكدة المحشوة بأنواع الهموم والغموم والاحزان كما أن الحياة الطيبة هي لمن آمن وعمل صالحا فمن تمسك به فانه لا يشرك بربه فان الرسل جميعهم أمروا بالتوحيد وأمروا به قال تعالى {وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ} الانبياء 25 فبين انه لا بد ان يوحى بالتوحيد الى كل رسول وقال تعالى {وَأَسْأَلُ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِن دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ} الزخرف 45 فبين انه لم يشرع الشرك قط فهذان النصان قد دلا على أنه امر بالتوحيد لكل رسول ولم يأمر بالاشراك قط وقد أمر آدم وبنية من حين اهبط باتباع هداية الذى يوحىه الى الأنبياء فثبت ان علة الشرك كان من ترك اتباع الانبياء والمرسلين فيما امروا به من التوحيد والدين لا أن الشرك كان علة للكفر بالرسول فان الاشراك والكفر بالرسول متلازمان فى الواقع فهذا فى الكفار بالنبوات المشركين¹

أبقى الله سبحانه آثار المكذبين لنعتر بها ونتعظ

¹مجموع الفتاوى ج: 20 ص: 106-107

وقد بين سبحانه وتعالى أن السنة لا تتبدل ولا تتحول في غير موضع والسنة هي العادة التي تتضمن أن يفعل في الثاني مثل ما فعل بنظيره الاول ولهذا أمر سبحانه وتعالى بالاعتبار وقال {لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ} يوسف 111 والاعتبار أن يقرن الشيء بمثله فيعلم أن حكمه مثل حكمه كما قال ابن عباس هلا اعتبرتم الاصابع بالاسنان فاذا قال {فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ} الحشر 2 وقال {لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ} يوسف 111 أفاد أن من عمل مثل أعمالهم جوزى مثل جزائهم ليحذر أن يعمل مثل أعمال الكفار وليرغب في أن يعمل مثل أعمال المؤمنين اتباع الانبياء قال تعالى {قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكذِّبِينَ} آل عمران 137¹

قال تعالى {وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكذِّبِينَ} النحل 36 قص الله علينا أخبار الأمم المكذبة للرسول وما صارت اليه عاقبتهم وأبقى آثارهم وديارهم عبرة لمن بعدهم وموعظة وكذلك مسخ من مسخ قرده وخنازير لمخالفتهم لأنبيائهم وكذلك من خسف به وأرسل عليه الحجارة من السماء وأغرقه في اليم وأرسل عليه الصيحة وأخذه بأنواع العقوبات وإنما ذلك بسبب مخالفتهم للرسول واعراضهم عما جاءوا به واتخاذهم أولياء من دونه وهذه سنته سبحانه فيمن خالف رسله وأعرض عما جاؤوا به واتبع غير سبيلهم ولهذا أبقى الله سبحانه آثار المكذبين لنعتر بها ونتعظ لئلا نفعل كما فعلوا فيصيبنا ما أصابهم كما قال تعالى {إِنَّا مُنزلُونَ عَلَى أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ} {34} وَلَقَدْ تَرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ} {35} العنكبوت 34 - 35 وقال تعالى {ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ} {136} وَإِنكُم لَتَمُرُونَ عَلَيْهِمْ مُّصْبِحِينَ} {137} وَبِاللَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ} {138} الصافات 136-138 أي تمرن عليهم نهارا بالصباح وبالليل ثم قال {أَفَلَا تَعْقِلُونَ} الصافات 138 وقال تعالى في مدائن قوم لوط {وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ} {74} إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ} {75} وَإِنَّهَا لِبِسْبِيلٍ مُّقِيمٍ} {76} الحجر 74-76 يعنى مدائنهم بطريق مقيم يراها المار بها وقال تعالى {أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ} يوسف 109 وهذا كثير في الكتاب العزيز يخبر الله سبحانه عن إهلاك المخالفين للرسول ونجاة اتباع المرسلين ولهذا يذكر سبحانه في سورة الشعراء قصة موسى و ابراهيم ونوح وعاد وثمود ولوط وشعيب ويذكر لكل نبي إهلاكه لمكذبيهم والنجاة لهم ولأتباعهم ثم يختم القصة بقوله {إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ} {190} وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ} {191} الشعراء 190-191 فختم القصة باسمين من اسمائه تقتضيها تلك الصفة وهو العزيز الرحيم فانتقم من أعدائه بعزته وانجى رسله واتباعهم برحمته²

الدعوة إلى الله تكون بدعوة العبد إلى دينه وأصل عبادته وحده لا شريك له

¹مجموع الفتاوى ج: 13 ص: 23

²مجموع الفتاوى ج: 19 ص: 98

قال تعالى { **وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَن هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَن حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ** } النحل 36 فالدعوة إلى الله تكون بدعوة العبد إلى دينه وأصل عبادته وحده لا شريك له كما بعث الله بذلك رسله وأنزل به كتبه قال تعالى { **شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ** } الشورى 13 وقال تعالى { **وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ** } الزخرف 45 وقال تعالى { **وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَن هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَن حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ** } النحل 36 وقال تعالى { **وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ** } الأنبياء 25 وقد ثبت في الصحيح عن أبي هريرة عن رسول الله صلى اله عليه وسلم أنه قال أنا معاشر الأنبياء ديننا واحد والأنبياء إخوة لعلات وان أولى الناس بابن مريم لأنا أنه ليس بيني وبينه نبى فالدين واحد وإنما تنوعت شرائعهم ومناهجهم كما قال تعالى { **لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا** } المائدة 48 فالرسل متفقون في الدين الجامع للأصول الاعتقادية والعلمية فالاعتقادية كالإيمان بالله وبرسوله وباليوم الآخر والعملية كالأعمال العامة المذكورة في الانعام والاعراف وسورة بنى إسرائيل كقوله تعالى { **قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ** } الأنعام 151 إلى آخر الآيات الثلاث وقوله { **وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ** } الإسراء 23 إلى آخر الوصايا وقوله { **قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ** } الأعراف 29 وقوله { **قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَّنَ وَالْإِثْمَ وَالنَّبَغِيَّ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ** } الأعراف 33¹

ذاق طعم الايمان من رضى بالله ربا وبالاسلام ديناً وبمحمد نبياً

قال تعالى { **وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَن هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَن حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ** } النحل 36 ففي صحيح مسلم عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال ذاق طعم الايمان من رضى بالله ربا وبالاسلام ديناً وبمحمد نبياً وفي الصحيحين عن النبي انه قال ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الايمان أن يكون الله ورسوله أحب اليه مما سواهما ومن كان يحب المرء لا يحبه الا الله ومن كان يكره أن يرجع في الكفر بعد إذ أنقذه الله منه كما يكره ان يلقى في النار وهذا مما يبين من الكلام على المحبة فنقول محبة الله بل محبة الله ورسوله من أعظم واجبات الايمان وأكبر اصوله وأجل قواعده بل هي اصل كل عمل من اعمال الايمان والدين وكما ان التصديق به اصل كل قول من أقوال الايمان والدين فان كل حركة في الوجود انما تصدر عن محبة إما عن محبة محمودة أو عن محبة مذمومة كما قد بسطنا ذلك في قاعدة المحبة من القواعد الكبار فجميع الاعمال الايمانية الدينية لاتصدر الا عن المحبة المحمودة وأصل المحبة المحمودة هي محبة الله سبحانه وتعالى إذ العمل الصادر عن محبة مذمومة عند الله لا يكون عملاً صالحاً بل جميع الاعمال الايمانية الدينية لا تصدر إلا عن محبة

¹مجموع الفتاوى ج: 15 ص: 159

الله فإن الله تعالى لا يقبل من العمل الا ما اريد به وجهه كما ثبت في الصحيح عن النبي انه قال يقول الله تعالى أنا أغنى الشركاء عن الشرك فمن عمل عملاً أشرك فيه غيري فانا منه بريء وهو كله للذي أشرك وثبت في الصحيح في حديث الثلاثة الذين هم اول من تسعر بهم النار القارئ المرائي والمجاهد المرائي والمتصدق المرائي بل اخلاص الدين لله هو الدين الذي لا يقبل الله سواه وهو الذي بعث به الأولين والأخريين من الرسل وأنزل به جميع الكتب واتفق عليه أئمة اهل الايمان وهذا هو خلاصة الدعوة النبوية وهو قطب القرآن الذي تدور عليه رحاه وقال تعالى فيما قصه من قصة آدم وابلis انه قال { فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ } {82} {إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ} {83} ص 82-83 وقال تعالى {إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ} {الحجر 42} وقال {إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ} {99} {إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ} {100} {النحل 99-100} فبين ان سلطان الشيطان واغواءه انما هو لغير المخلصين ولهذا قال في قصة يوسف { كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ } يوسف 24

واتباع الشيطان هم اصحاب النار كما قال تعالى {لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ} ص 85 وقد قال سبحانه {إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ} {النساء 48} وهذه الآية في حق من لم يتب ولهذا خصص الشرك وقيد ما سواه بالمشيئة فأخبر انه لا يغفر الشرك لمن لم يتب منه وما دونه يغفره لمن يشاء واما قوله {قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا} {الزمر 53} فتلك في حق التائبين ولهذا عم واطلق وسياق الآية يبين ذلك مع سبب نزولها وقد اخبر سبحانه ان الأولين والأخريين انما امروا بذلك في غير موضع كالسورة التي قرأها النبي علي ابى لما امره الله تعالى ان يقرأ عليه قراءة إبلاغ وإسماع بخصوصه فقال { وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ } {4} وَمَا أَمُرُوا إِلَّا لِيعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ } {5} البينة 4-5 الآية وهذا حقيقة قول لا اله الا الله وبذلك بعث جميع الرسل قال الله تعالى { وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ } {الأنبياء 25} وقال { وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَعْمَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبُدُونَ } {الزخرف 45} وقال تعالى **{ وَوَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ } {النحل 36}** وجميع الرسل افتتحو دعوتهم بهذا الاصل كما قال نوح عليه السلام {اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ} {الأعراف 59} وكذلك هود وصالح وشعيب عليهم السلام وغيرهم كل يقول {اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ} { لاسيما افضل الرسل الذين اتخذ الله كلاهما خليلا ابراهيم ومحمدا عليهما السلام فان هذا الاصل بينه الله بهما وأيدهما فيه ونشره بهما فابراهيم هو الامام الذي قال الله فيه { إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا } {البقرة 124} وفي ذريته جعل النبوة والكتاب والرسل فأهل هذه النبوة والرسالة هم من آله الذين بارك الله عليهم قال سبحانه {وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ} {26} {إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ} {27} { وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ } {28} الزخرف 26-28 فهذه الكلمة هي كلمة الاخلاص لله وهي البراءة من كل معبود الا من الخالق الذي فطرنا كما قال صاحب يس { وَمَا لِي لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ } {22} {أَتَأْخُذُ مِنْ دُونِهِ

أَلِهَةٌ إِنْ يُرَدَّنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لَا تُغْنِي عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً وَلَا يُفْقَدُونَ {23} إِنِّي إِذَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ {24} إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ {25} يس 22-25¹

العبادة هي اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والاعمال

العبادة هي اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة فالصلاة والزكاة والصيام والحج وصدق الحديث وأداء الأمانة وبر الوالدين وصلة الأرحام والوفاء بالعهود والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والجهاد للكفار والمنافقين والإحسان إلى الجار واليتيم والمسكين وابن السبيل والمملوك من الأدميين والبهائم والدعاء والذكر والقراءة وأمثال ذلك من العبادة وكذلك حب الله ورسوله وخشية الله والإنابة إليه وإخلاص الدين له والصبر لحكمه والشكر لنعمة والرضا بقضائه والتوكل عليه والرجاء لرحمته والخوف لعذابه وأمثال ذلك هي من العبادة لله وذلك أن العبادة هي الغاية المحبوبة له والمرضية له التي خلق الخلق لها كما قال تعالى { وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ } الذاريات 56 وبها أرسل جميع الرسل كما قال نوح لقومه { اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ } الأعراف 59 وكذلك قال هود وصالح وشعيب وغيرهم لقومهم وقال تعالى { وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ } النحل 36 وقال تعالى { وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ } الأنبياء 25 وقال تعالى { إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ } الأنبياء 92 كما قال في الآية الأخرى { يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ } المؤمنون 51 وجعل ذلك لازماً لرسوله الى الموت قال { وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ } الحجر 99 وبذلك وصف ملائكته وانبياءه فقال تعالى { وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِنْدَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ } 19 { يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ } 20 { الأنبياء 19 وقال تعالى { إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ } الأعراف 206 ودم المستكبرين عنها بقوله وقال { وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ } غافر 60 ونعت صفوة خلقه بالعبودية له فقال تعالى { عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا } الإنسان 6²

الهدى هو العلم الذي بعث الله به رسوله والعمل به

قال تعالى { وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكذِّبِينَ } النحل 36 عامة الأسماء يتنوع مسماها بالاطلاق والتقييد ومن هذا الباب لفظ العبادة فإذا أمر بعبادة الله مطلقاً

¹مجموع الفتاوى ج: 10 ص: 51-52

²مجموع الفتاوى ج: 10 ص: 150-151 و الفتاوى الكبرى ج: 2 ص: 362

دخل في عبادته كل ما أمر الله به فالتوكل عليه مما أمر به والاستعانة به مما أمر به فيدخل ذلك في مثل قوله { وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ } الذاريات 56 وفي قوله { وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا } النساء 36 وقوله { يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ } البقرة 21 وقوله { إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ } الزمر 2 { قُلِ اللَّهُ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَهُ دِينِي } الزمر 14 وقوله { أَفَعَبِّرَ اللَّهُ تَأْمُرُونِي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ } الزمر 64 ثم قد يقرب بها اسم آخر كما في قوله { إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ } الفاتحة 5 وقوله { فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ } هود 123 وقول نوح { اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُوا } نوح 3 وكذلك لفظ الهدى إذا أطلق تناول العلم الذي بعث الله به رسوله والعمل به جميعا فيدخل فيه كل ما أمر الله به كما في قوله { اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ } الفاتحة 6 والمراد طلب العلم بالحق والعمل به جميعا وكذلك قوله { هُدَى لِّلْمُتَّقِينَ } البقرة 2 والمراد به أنهم يعلمون ما فيه ويعملون به ولهذا صاروا مفلحين وكذلك قول أهل الجنة { الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا } الأعراف 43 وإنما هداهم بأن ألهمهم العلم النافع والعمل الصالح ثم قد يقرب الهدى إما بالاجتباء كما في قوله { وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ } الأنعام 87 وكما في قوله { شَاكِرًا لِأَنْعَمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ } النحل 121 { اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ } الشورى 13 وكذلك قوله تعالى { هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ } التوبة 33 والهدى هنا هو الايمان ودين الحق هو الاسلام واذا أطلق الهدى كان كالايمان المطلق يدخل فيه هذا وهذا¹

فإن الله بعث محمدا بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله وكفى بالله شهيدا وأنزل عليه الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيئنا عليه وأكمل له ولأمته الدين وأتم عليهم النعمة وجعلهم خير أمة أخرجت للناس فهم يوفون سبعين أمة هم خيرها وأكرمها على الله وجعلهم أمة وسطا أي عدلا خيارا ولذلك جعلهم شهداء على الناس هداهم لما بعث به رسله جميعهم من الدين الذي شرعه لجميع خلقه ثم خصهم بعد ذلك بما ميزهم به وفضلهم من الشرعة والمنهاج الذي جعله لهم مثل أصول الإيمان وأعلها وأفضلها هو التوحيد وهو شهادة أن لا إله إلا الله كما قال تعالى { وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ } النحل 36²

كان النبي صلى الله عليه وسلم يحقق التوحيد ويعلمه أمته

فإن الله إنما أرسل الرسل وأنزل الكتب لنعبد الله وحده لا شريك له ولا نجعل مع الله إلها آخر والذين كانوا يدعون مع الله آلهة أخرى مثل الشمس والقمر والكواكب والعزير والمسيح والملائكة واللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى ويغوث ويعوق ونسر أو غير ذلك لم يكونوا يعتقدون أنها تخلق الخلائق أو أنها تنزل المطر أو أنها تنبت النبات وإنما كانوا يعبدون الأنبياء والملائكة والكواكب والجن والتمثيل المصورة لهؤلاء أو يعبدون قبورهم ويقولون { مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى

¹مجموع الفتاوى ج: 7 ص: 165-166

²مجموع الفتاوى ج: 3 ص: 364

{ الزمر 3 ويقولون هم { شَفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ } يونس 18 فأرسل الله رسله تنهى أن يدعى أحد من دونه لا دعاء عبادة ولا دعاء استغاثة وقال تعالى { قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِّنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا } 56 { أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا } 57 { الاسراء 56-57 قال طائفة من السلف كان أقوام يدعون المسيح وعزيرا والملائكة فقال الله لهم هؤلاء الذين تدعوهم يتقربون إلي كما تتقربون ويرجون رحمتي كما ترجون رحمتي ويخافون عذابي كما تخافون عذابي وقال { قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍَ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِّنْ ظَهِيرٍ } 22 { وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ } 23 { سبأ 22-23 فأخبر سبحانه أن ما يدعى من دون الله ليس له مثقال ذرة في الملك ولا شرك في الملك وأنه ليس له من الخلق عون يستعين به وأنه لا تنفع الشفاعة عنده إلا بإذنه وقال تعالى { وَكَمْ مِّن مَّلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مَن بَعَدَ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَن يَشَاءُ وَيَرْضَى } النجم 26 وقال تعالى { أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ } 43 { قُلِ اللَّهُ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ } 44 { الزمر 43-44 وقال تعالى { وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شَفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ } يونس 18 الآية وعبادة الله وحده هي أصل الدين وهو التوحيد الذي بعث الله به الرسل وأنزل به الكتب فقال تعالى { وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ } الزخرف 45 وقال تعالى { **وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ } النحل 36 وقال تعالى { وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ } الأنبياء 25 وكان النبي صلى الله عليه وسلم يحقق التوحيد ويعلمه أمته حتى قال له رجل ما شاء الله وشئت فقال أ جعلتني لله ندا بل ما شاء الله وحده وقال لا تقولوا ما شاء الله وشاء محمد ولكن ما شاء الله ثم شاء محمد ونهى عن الحلف بغير الله فقال من كان حالفا فليحلف بالله أو ليصمت وقال من حلف بغير الله فقد أشرك وقال لا تطروني كما أطرت النصارى عيسى بن مريم إنما أنا عبد فقولوا عبد الله ورسوله ولهذا اتفق العلماء على أنه ليس لأحد أن يحلف بمخلوق كالكعبة ونحوها ونهى النبي صلى الله عليه وسلم عن السجود ولما سجد بعض أصحابه نهاه عن ذلك وقال لا يصلح السجود إلا لله وقال لو كنت أمرا أحدا أن يسجد لأحد لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها وقال لمعاذ بن جبل رضي الله عنه أرأيت لو مررت بقبر أكنت ساجدا له قال لا قال فلا تسجد لي ونهى النبي صلى الله عليه وسلم عن اتخاذ القبور مساجد فقال في مرض موته لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد يحذر ما فعلوا قالت عائشة رضي الله عنها ولولا ذلك لأبرز قبره ولكن كره أن يتخذ مسجدا وفي الصحيح عنه أنه قال قبل أن يموت بخمس إن من كان قبلكم كانوا يتخذون القبور مساجد ألا فلا تتخذوا بيوتي عيدا ولا بيوتكم قبورا وصلوا علي حيثما كنتم فإن صلاتكم تبليغي ولهذا اتفق أئمة الإسلام على أنه لا يشرع بناء المسجد على القبور ولا تشرع الصلاة عند القبور بل كثير من العلماء يقول الصلاة عندها باطلة¹**

¹مجموع الفتاوى ج: 3 ص: 397

الاعتراف بالرب والاقرار به من غير عبادة يكون وبالاعتراف على صاحبه

وأما المقاصد فالقرآن أخبر بالعلم بالله والعمل له فجمع بين قوتى الإنسان العلمية والعملية الحسية والحركية الإرادية الإدراكية والإعتمادية القولية والعملية حيث قال **{وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ** **اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ {النحل36}** فالعبادة لا بد فيها من معرفته والإنابة اليه والتذلل له والإفتقار اليه وهذا هو المقصود وإذا حصل الاعتراف بالرب والاقرار به من غير عبادة وإنابة كان وبالاعتراف على صاحبه وشقاء له كما جاء فى الحديث أشد الناس عذاباً يوم القيامة عالم لم ينفعه الله بعلمه كإبليس اللعين فإنه معترف بربه مقر بوجوده لكن لما لم يعبده كان رأس الأشقياء وكل من شقى فباتباعه له كما قال **{قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْذُومًا مَّدْحُورًا لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ** {الأعراف18} فلا بد أن يمتثلوا منه ومن أتباعه مع أنه معترف بالرب مقر بوجوده وإنما أبى واستكبر عن الطاعة والعبادة والقوة العلمية مع العملية بمنزلة الفاعل والغاية ولهذا قيل العلم بلا عمل كالشجر بلا ثمر والمراد بالعمل هنا عمل القلب الذى هو انابته الى الله وخشيته له حتى يكون عابداً له فالرسل والكتب المنزلة أمرت بهذا وأوجبته بل هو رأس الدعوة ومقصودها وأصلها والطريقة النبوية القرآنية السنوية الجماعية فيها العلم والعمل كاملين ففاتحة دعوة الرسل الأمر بالعبادة قال تعالى **{يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ {البقرة21}** وقال أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله وذلك يتضمن الإقرار به وعبادته وحده فإن الإله هو المعبود ولم يقل حتى يشهدوا أن لارب إلا الله فإن اسم الله أدل على مقصود العبادة له التى لها خلق الخلق وبها أمروا وكذلك قوله لمعاذ إنك أتى قوماً من أهل الكتاب فليكن أول ما تدعوهم إليه شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وقال نوح عليه السلام **{أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُوا رُسُلَهُ} {نوح3}** وكذلك الرسل فى سورة الأعراف وغيرها¹

المسلم مأمور أن يفعل ما أمر الله به ويدفع ما نهى الله عنه وان كانت أسبابه

قد قدرت

أن المسلم مأمور أن يفعل ما أمر الله به ويدفع ما نهى الله عنه وان كانت أسبابه قد قدرت فيدفع قدر الله بقدر الله كما جاء فى الحديث الذى رواه الطبرانى فى كتاب الدعاء عن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم إن الدعاء والبلاء ليلتقيان بين السماء والارض وفى الترمذى قيل يا رسول الله أرأيت أدوية تداوى بها ورقى نسترقى بها وتقى نتقيها هل ترد من قدر الله شيئاً فقال هن من قدر الله وإلى هذين المعنيين أشار الحديث الذى رواه الطبرانى أيضاً عن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم انه قال يقول الله يا ابن آدم انما هى أربع واحدة لى واحدة لك واحدة بينى وبينك وواحدة بينك وبين خلقى فأما التى لى فتعبدنى لاتشرك بى شيئاً وأما التى لك فعملك أجزيك به أحوج ما تكون اليه وأما التى هى بينى وبينك فمفك الدعاء وعلى الإجابة وأما التى بينك وبين خلقى فأنت الى الناس بما تحب

¹مجموع الفتاوى ج: 2 ص: 10-14

أن يأتيه اليك ويرى أنه ما من دابة إلا ربي أخذ بناصيتها وأنه على كل شئ وكيل وأنه رب العالمين وان قلوب العباد ونواصيهم بيده لا خالق غيره ولا نافع ولا ضار ولا معطى ولا مانع ولا حافظ ولا معز ولا مذل سواه ويشهد أيضا فعل المأمورات مع كثرتها وترك الشبهات مع كثرتها لله وحده لا شريك له وهذا هو الدين الجامع العام الذى اشترك فيه جميع الأنبياء والإسلام العام والإيمان العام وبه انزلت السور المكية وإليه الإشارة بقوله تعالى { **وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ** } النحل 36 ولهذا ترجم البخارى عليه باب ما جاء أن دين الانبياء واحد

توحيد الله قلب الدين والإيمان

وتوحيد الله وإخلاص الدين له فى عبادته وإستعانته فى القرآن كثير جدا بل هو قلب الإيمان وأول الإسلام وآخره كما قال النبى صلى الله عليه وسلم أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله وقال إني لأعلم كلمة لا يقولها عند الموت أحد إلا وجد روحه لها روحا وقال من كان آخر كلامه لا إله إلا الله وجبت له الجنة وهو قلب الدين والإيمان وسائر الأعمال كالجوارح له وقول النبى إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل أمرى ما نوى فمن كانت هجرته الى الله ورسوله فهجرته الى الله ورسوله ومن كانت هجرته الى دنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها فهجرته الى ما هاجر اليه فبين بهذا أن النية عمل القلب وهى أصل العمل وإخلاص الدين لله وعبادة الله وحده ومتابعة الرسول فيما جاء به هو شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله ولهذا أنكرنا على الشيخ يحيى الصرصرى ما يقوله فى قصائده فى مدح الرسول من الإستغاثة به مثل قوله بك أستغيث وأستعين وأستجد ونحو ذلك وكذلك ما يفعله كثير من الناس من استنجا الصالحين والمتشبهين بهم والإستعانة بهم أحياء وأمواتا فإنى أنكرت ذلك فى مجالس عامة وخاصة وبينت للناس التوحيد ونفع الله بذلك ما شاء الله من الخاصة والعامة وهو دين الإسلام العام الذى بعث الله به جميع الرسل كما قال تعالى { **وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ** } النحل 36 وقال { **وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ** } الأنبياء 25 وقال النبى لمعاذ بن جبل يا معاذ أتدرى ما حق الله على عباده قلت الله ورسوله أعلم قال حقه عليهم أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئا أتدرى ما حق العباد على الله إذا فعلوا ذلك أن لا يعذبهم وقال لابن عباس إذا سألت فاسئل الله وإذا استعنت فاستعن بالله²

¹مجموع الفتاوى ج: 2 ص: 460

²مجموع الفتاوى ج: 1 ص: 71

أرسل الله سبحانه وتعالى محمد صلى الله عليه وسلم بالحق بين يدي الساعة بشيرا ونذيرا وداعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا أرسله إلى جميع الثقيلين الجن والإنس عربهم وعجمهم أميهم وكتابيهم وأنزل عليه كتاب أنزله ليخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم ويهديهم به إلى صراط مستقيم صراط الذي له ما في السموات وما في الأرض وهو صراط الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وهو دين الله الذي بعث به الرسل قبله كما قال تعالى {وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَن هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَن حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسَبَرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكذِّبِينَ} {36} سورة النحل الآية 36¹

الطاغوت كل من تحوكم اليه بغير كتاب الله

قال تعالى { وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَن هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَن حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسَبَرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكذِّبِينَ } {36} { إِن تَحْرِصْ عَلَى هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَن يُضِلُّ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ } {37} { النحل 36-37 } والطاغوت فعلوت من الطغيان كما أن الملكوت فعلوت من الملك والرحموت والرهبوت والرغبوت فعلوت من الرحمة والرغبة والرغبة والطغيان مجاوزة الحد وهو الظلم والبغى فالمعبود من دون الله إذا لم يكن كارها لذلك طاغوت ولهذا سمي النبي الأصنام طواغيت في الحديث الصحيح لما قال ويتبع من يعبد الطواغيت الطواغيت والمطاع في معصية الله والمطاع في اتباع غير الهدى ودين الحق سواء كان مقبولا خبره المخالف لكتاب الله او مطاعا امره المخالف لأمر الله هو طاغوت ولهذا سمي من تحوكم اليه من حاكم بغير كتاب الله طاغوت وسمى الله فرعون وعادا طغاة وقال في صيحة ثمود {فَأَمَّا ثَمُودُ فَأَهْلِكُوا بِطَّاغِيَةٍ} {الحاقة 5} ²

والطاغوت كل معظم ومتعظم بغير طاعة الله ورسوله من إنسان أو شيطان أو شيء من الأوثان ³

ذلك أنه علم بالاضطرار أن الرسل كانوا يجعلون ما عبده المشركون غير الله ويجعلون عابده عابدا لغير الله مشركا بالله عادلا به جاعلا له ندا فانهم دعوا الخلق إلى عبادة الله وحده لا شريك له وهذا هو دين الله الذي أنزل به كتبه وأرسل به رسله وهو الاسلام العام الذي لا يقبل الله من الاولين والآخرين غيره ولا يغفر لمن تركه بعد بلاغ الرسالة كما قال {إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ} {النساء 48} وهو الفارق بين أهل الجنة وأهل النار والسعداء والأشقياء كما قال النبي من كان آخر كلامه لا إله إلا الله وجبت له الجنة وقال من مات وهو يعلم أن لا إله إلا الله وجبت له الجنة وقال إنى لأعلم كلمة لا يقولها عبد عند الموت إلا وجد روحه لها روحا وهي

¹الجواب الصحيح ج: 1 ص: 63

²مجموع الفتاوى ج: 28 ص: 201-202

³قاعدة في المحبة ج: 1 ص: 193

رأس الدين وكما قال أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله الا الله وأنى رسول الله فإذا قالوها عصموا منى دمائهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله وفضائل هذه الكلمة وحقانقتها وموقعها من الدين فوق ما يصفه الواصفون ويعرفه العارفون وهي حقيقة الأمر كله كما قال تعالى {وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ} {الأنبياء 25} فأخبر سبحانه أنه يوحى الى كل رسول بنفى الالوهية عما سواه وإثباتها له وحده وزعم هؤلاء الملاحدة المشركون (مثل ابن عربي) أن كل شيء يستحق الألوهية كاستحقاق الله لها وقال تعالى {وَأَسْأَلُ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبُدُونَ} {الزخرف 45} وزعم هؤلاء الملاحدة أن كل شيء فإنه إله معبود فأخبر سبحانه أنه لم يجعل من دون الرحمن آلهة وقال تعالى {وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ} {النحل 36} فأمر الله سبحانه بعبادته واجتناب الطاغوت وعند هؤلاء أن الطواغيت جميعها فيها الله أوهى الله ومن عبدها فما عبد إلا الله¹

أن الله ألزم الخلق التوحيد وأمرهم به وقضى به وحكم

أن الله ألزم الخلق التوحيد وأمرهم به وقضى به وحكم فقال {وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ} {الإسراء 23} وقال {أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ} {النحل 2} وقال {وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ} {النحل 36} الآية وقال تعالى {وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونَ} {النحل 51} وقال {وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ} {التوبة 31} {وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ} {البينة 5} وهذا كثير في القرآن يوجب على العباد عبادته وتوحيده ويحرم عليهم عبادة ما سواه فقد حكم وقضى أنه لا إله الا هو فلفظ الاله يقتضي أنه يستحق العبادة فإذا أخبر أنه هو المستحق للعبادة دون ما سواه كان ذلك أمرا بما يستحقه وليس المراد هنا بالاله من عبده عابد بلا استحقاق فإن هذه الآلهة كثيرة ولكن تسميتهم آلهة والخبر عنهم بذلك واتخاذهم معبودين أمر باطل كما قال تعالى {إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَأَبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ} {النجم 23} وقال {ذَلِكَ بَأْنِ اللَّهِ هُوَ الْحَقُّ وَأَنْ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ} {الحج 62} فالآلهة التي جعلها عابدها آلهة يعبدونها كثيرة لكن هي لا تستحق العبادة فليست بآلهة كمن جعل غيره شاهدا أو حاكما أو مفتيا أو أميرا و هو لا يحسن شيئا من ذلك ولا بد لكل إنسان من إله يألهه ويعبده تعس عبد الدينار و عبد الدرهم فإن بعض الناس قد أله ذلك محبة و ذلا و تعظيما كما قد بسط في غير هذا الموضوع فإذا شهد الله أنه لا إله الا هو فقد حكم وقضى بأن لا يعبد إلا إياه²

¹مجموع الفتاوى ج: 2 ص: 257

²مجموع الفتاوى ج: 14 ص: 171-173

من تقدم من أمة موسى وعيسى هل هم مسلمون أم لا ؟

وقد تنازع الناس فيمن تقدم من أمة موسى وعيسى هل هم مسلمون أم لا وهو نزاع لفظي فإن الإسلام الخاص الذي بعث الله به محمدا صلى الله عليه وسلم المتضمن لشريعة القرآن ليس عليه إلا أمة محمد صلى الله عليه وسلم والإسلام اليوم عند الإطلاق يتناول هذا وأما الإسلام العام المتناول لكل شريعة بعث الله بها نبيا فإنه يتناول إسلام كل أمة متبعة لنبي من الأنبياء ورأس الإسلام مطلقا شهادة أن لا إله إلا الله وبها بعث جميع الرسل كما قال تعالى **{وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ** **اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ {النحل36}**¹

فإن الله إنما بعث رسله بالتوحيد والنهي عن الشرك كما قال تعالى وقال تعالى **{وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ {النحل36}** فالمسيح صلوات الله عليه وسلامه ومن قبله من الرسل إنما دعوا إلى عبادة الله وحده لا شريك له وفي التوراة من ذلك ما يعظم وصفه لم يأمر أحد الأنبياء بأن يعبد ملك ولا نبي ولا كوكب ولا وثن ولا أن تسأل ولا تطلب الشفاعة إلى الله من ميت ولا غائب لا نبي ولا ملك فلم يأمر أحد من الرسل بأن يدعو الملائكة ويقول اشفعوا لنا إلى الله ولا يدعو الأنبياء والصالحين الموتى والغائبين ويقول اشفعوا لنا إلى الله ولا تصور تماثيلهم لا مجسدة ذات ظل ولا مصورة في الحيطان ولا بجعل دعاء تماثيلهم وتعظيمها قرينة وطاعة سواء قصدوا دعاء أصحاب التماثيل وتعظيمهم والإستشفاع بهم وطلبوا منهم أن يسألوا الله تعالى وجعلوا تلك التماثيل تذكرة بأصحابها أو قصدوا دعاء التماثيل ولم يستشعروا أن المقصود دعاء أصحابها كما فعله جهال المشركين وإن كان في هذا جميعه إنما يعبدون الشيطان وإن كانوا لا يقصدون عبادته فإنه قد يتصور لهم في صورة ما يظنون أنها صورة الذي يعظمونه ويقول أنا الخضر أنا المسيح أنا جرجس أنا الشيخ فلان كما قد وقع هذا لغير واحد من المنتسبين إلى المسلمين والنصارى وقد يدخل الشيطان في بعض التماثيل فيخاطبهم وقد يقضي بعض حاجاتهم فهذا السبب وأمثاله ظهر الشرك قديما وحديثا وفعل النصارى وأشباههم ما فعلوه من الشرك وأما الأنبياء والرسل صلوات الله عليهم وسلامه فنهوا عن هذا كله ولم يشرع أحد منهم شيئا من ذلك²

أن الكتب المتقدمة تنطق بأن موسى وغيره دعوا إلى عبادة الله وحده ونهوا عن الشرك فكان في هذا حجة على من ظن أن الشرك دين³

محبة الله ورسوله من أعظم واجبات الايمان وأكبر أوصله وأجل قواعده

¹مجموع الفتاوى ج: 3 ص: 94

²الجواب الصحيح ج: 3 ص: 113-114

³الجواب الصحيح ج: 2 ص: 360

إن المحبة لله نوعان محبة له نفسه ومحبة لما منهم من الاحسان وكذلك الحمد له نوعان حمد الله على ما يستحقه بنفسه وحمد على إحسانه لعبده فالنوعان للرضا كالنوعين للمحبة وأما الرضا به ودينه وبرسوله فذلك من حظ المحبة ولهذا ذكر عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال ذاق طعم الإيمان من رضي بالله ربا وبالإسلام ديناً وبمحمد نبياً وفي الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ومن كان يحب المرء لا يحبه إلا الله ومن كان يكره أن يرجع إلى الكفر بعد إذ انقذه الله منه كما يكره أن يلقى في النار وهذا مما يبين من الكلام على المحبة فنقول فصل محبة الله ورسوله من أعظم واجبات الإيمان وأكبر أوصله وأجل قواعده بل هي أصل كل عمل من أعمال الإيمان والدين كما أن التصديق أصل كل قول من أقوال الإيمان والدين فإن كل حركة في الوجود إنما تصدر عن محبة إما عن محبة محمودة أو عن محبة مذمومة كما قد بسطنا ذلك في قاعدة المحبة من القواعد الكبار فجميع الأعمال الإيمانية الدينية لا تصدر إلا عن المحبة المحمودة وأصل المحبة المحمودة هي محبة الله سبحانه وتعالى إذ العمل الصادر عن محبة مذمومة عند الله لا يكون عملاً صالحاً بل جميع الأعمال الإيمانية الدينية لا تصدر إلا عن محبة الله فإن الله تعالى لا يقبل من العمل إلا ما أريد به وجهه كما ثبت في الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال يقول الله تعالى أنا أغنى الشركاء عن الشرك فمن عمل عملاً فأشرك فيه غيري فأنا منه بريء وهو كله للذي أشرك وثبت في الصحيح حديث الثلاثة الذين هم أول من تسعر بهم النار القارئ المرئي والمجاهد المرئي والمتصدق المرئي بل إخلاص الدين لله هو الدين الذي لا يقبل الله سواه فهو الذي بعث به الأولين والآخرين من الرسل وانزل به جميع الكتب وانفق عليه أئمة أهل الإيمان وهذا هو خلاصة الدعوة النبوية وهو قطب القرآن الذي تدور عليه رحاه وهذا حقيقة قول لا إله إلا الله وبذلك بعث جميع الرسل قال الله تعالى {وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ} النحل 36 وجميع الرسل افتتحو دعوتهم بهذا الأصل¹

تجريد التوحيد لله رب العالمين

ونهى النبي صلى الله عليه وسلم أن يستقبل الرجل القبر في الصلاة حتى لا يتشبه بالمشركين الذين يسجدون للقبور ففي الصحيح أنه قال لا تجلسوا على القبور ولا تصلوا إليها إلى أمثال ذلك مما فيه تجريد التوحيد لله رب العالمين الذي أنزل الله به كتبه وأرسل به رسوله فأين هذا ممن يصور صور المخلوقين في الكنائس ويعظمها ويستشفع بمن صورت على صورته وهل كان أصل عبادة الأصنام في بني آدم من عهد نوح عليه السلام إلا هذا والصلاة إلى الشمس والقمر والكواكب والسجود إليها ذريعة إلى السجود لها ولم يأمر أحد من الأنبياء باتخاذ الصور والاستشفاع بأصحابها ولا بالسجود إلى الشمس والقمر والكواكب وإن كان يذكر عن بعض الأنبياء تصوير صورة لمصلحة فإن هذا من الأمور التي قد تنتوع فيها الشرائع بخلاف السجود لها والاستشفاع بأصحابها فإن هذا لم يشره نبي

¹أمراض القلوب ج: 1 ص: 60 و التحفة العراقية ج: 1 ص: 60
{ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمَنْهُمْ مَن هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَن حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكذِبِينَ } النحل 36

من الأنبياء ولا أمر قط أحد من الأنبياء أن يدعى غير الله عز وجل لا عند قبره ولا في مغيبه ولا يشفع به في مغيبه بعد موته بخلاف الاستشفاع بالنبي صلى الله عليه وسلم في حياته ويوم القيامة وبالتوسل به بدعائه والإيمان به فهذا من شرع الأنبياء عليهم السلام ولهذا قال تعالى { **وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكذِّبِينَ** } {36} سورة النحل الآية 36¹

لفظ العبادة يتضمن كمال الحب والذل والإجلال والإكرام والتوكل

ومحبة الله وتوحيده هو الغاية التي فيها صلاح للنفس وهو عبادة الله وحده لا شريك له فلا صلاح للنفس ولا كمال لها إلا في ذلك وبدون ذلك تكون فاسدة لا صلاح لها كما قد بسط الكلام على ذلك في موضع آخر ولهذا كان هذا هو دين الإسلام الذي اتفقت عليه الرسل قال الله تعالى { **وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ** } {النحل 36} وقد قال تعالى { **وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ** } {الذاريات 56} فالغاية الحميدة التي بها يحصل كمال بني آدم وسعادتهم ونجاتهم عبادة الله وحده وهي حقيقة قول القائل لا إله إلا الله ولهذا بعث الله جميع الرسل وأنزل جميع الكتب ولا تصلح النفس وتزكو وتكمل إلا بهذا ولفظ العبادة يتضمن كمال الذل بكمال الحب فلا بد أن يكون العابد محبا للإله المعبود كمال الحب ولا بد أن يكون ذليلا له كمال الذل فمن أحب شيئا ولم يذل له لم يعبده ومن خضع له ولم يحبه لم يعبده وكمال الحب والذل لا يصلح إلا لله وحده فهو الإله المستحق للعبادة التي لا يستحقها إلا هو وذلك يتضمن كمال الحب والذل والإجلال والإكرام والتوكل والعبادة فالنفوس محتاجة إلى الله من حيث هو معبودها ومنتهى مرادها وبغيتها ومن حيث هو ربها وخالقها فمن آمن بالله رب كل شيء وخالقه ولم يعبد إلا الله وحده بحيث يكون الله أحب إليه من كل ما سواه وأخشى عنده من كل ما سواه وأعظم عنده من كل ما سواه وأرجى عنده من كل ما سواه بل من سوى بين الله وبين بعض المخلوقات في الحب بحيث يحبه مثل ما يحب الله ويخشاه مثل ما يخشى الله ويرجوه مثل ما يرجو الله ويدعوه مثل ما يدعوه فهو مشرك الشرك الذي لا يغفره الله ولو كان مع ذلك عفيفا في طعامه ونكاحه وكان حكيما شجاعاً²

المحبة التي أمر الله بها هي عبادته وحده لا شريك له وإذا كان كذلك فأصل المحبة المحمودة التي أمر الله بها وخلق خلقه لأجلها هي ما في عبادته وحده لا شريك له إذ العبادة متضمنة لغاية الحب بغاية الذل والمحبة لما كانت جنسا لأنواع متفاوتة في القدر والوصف كان أغلب ما يذكر منها في حق الله ما يختص به ويليق به مثل العبادة والإنابة ونحوهما فإن العبادة لا تصلح إلا لله وحده

¹الجواب الصحيح ج: 1 ص: 350

²الجواب الصحيح ج: 6 ص: 27

وكذلك الإنابة وقد تذكر المحبة المطلقة لكن تقع فيها الشراكة كما قال تعالى { وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَنْدَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ } البقرة 165 ولهذا كان هذا الحب أعظم الأقسام المذمومة في المحبة كما أن حب الله أعظم الأنواع المحمودة بل عبادة الله وحده لا شريك له هي أصل السعادة ورأسها التي لا ينجو أحد من العذاب إلا بها وعبادة إله آخر من دونه هو أصل الشقاء ورأسه الذي لا يبقى في العذاب إلا أهله فأهل التوحيد الذين أحبوا الله وعبده وحده لا شريك له لا يبقى منهم في العذاب أحد والذين اتخذوا من دونه أندادا يحبونهم كحبه وعبدوا غيره هم أهل الشرك الذين قال الله تعالى فيهم { إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ } النساء 48 وجماع القرآن هو الأمر بتلك المحبة ولو ازمتها والنهي عن هذه المحبات ولو ازمتها وضرب الأمثال والمقاييس للنوعين وذكر قصص أهل النوعين وأصل دعوة جميع المرسلين قولهم { اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ } الأعراف 59 وعلي ذلك قاتل من قاتل منهم المشركين كما قال خاتم الرسل أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله قال الله تعالى { شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ } الشورى 13 ولهذا قال في الحديث المتفق عليه في الصحيحين عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان وفي رواية في الصحيح لا يجد طعم الإيمان إلا من كان فيه ثلاث أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما وأن يحب المرء لا يحبه إلا الله وأن يكره أن يرجع في الكفر بعد إذ أنقذه الله كما يكره أن يلقي في النار¹

الفرق بين البعث الكوني والبعث الديني

قال تعالى { وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكذِّبِينَ } النحل 36 وقد ذكر الله في كتابه الفرق بين الإرادة والأمر والقضاء والاذن والتحرير والبعث والارسل والكلام والجعل بين الكوني الذي خلقه وقدره وقضاه وان كان لم يأمر به ولا يحبه ولا يثبت أصحابه ولا يجعلهم من أوليائه المتقين وبين الديني الذي أمر به وشرعه واثاب عليه واکرمهم وجعلهم من أوليائه المتقين وحزبه المفلحين وجنده الغالبين وهذا من أعظم الفروق التي يفرق بها بين أولياء الله واعدائه فمن استعمله الرب سبحانه وتعالى فيما يحبه ويرضاه ومات على ذلك كان من أوليائه ومن كان عمله فيما يبغضه الرب ويكرهه ومات على ذلك كان من اعدائه ف الإرادة الكونية هي مشيئته لما خلقه وجميع المخلوقات داخله في مشيئته واراادته الكونية والارادة الدينية هي المتضمنة لمحبهه ورضاه المتناولة لما امر به وجعله شرعا ودينا وهذه مختصة بالايمن والعمل الصالح²

¹قاعدة في المحبة ج: 1 ص: 11-12

²مجموع الفتاوى ج: 11 ص: 269

الإرادة والاذن والكتاب والحكم والقضاء والتحريم وغيرها كالأمر والبعث و الأرسال ينقسم في كتاب الله إلى نوعين أحدهما ما يتعلق بالأمور الدينية التي يحبها الله تعالى و يرضاهها و يثيب أصحابها ويدخلهم الجنة وينصرهم في الحياة الدنيا وفي الآخرة و ينصر بها العباد من أوليائه المتقين و حزبه المفلحين و عباد الصالحين والثاني ما يتعلق بالحوادث الكونية التي قدرها الله وقضاها مما يشترك فيها المؤمن والكافر والبر والفاجر وأهل الجنة وأهل النار وأولياء الله وأعداؤه وأهل طاعته الذين يحبهم ويحبونه ويصلى عليهم هو وملائكته وأهل معصيته الذين يبغضهم ويمقتهم ويلعنهم الله ويلعنهم اللأعنون فمن نظر إليها من هذا الوجه شهد الحقيقة الكونية الوجودية فرأى الأشياء كلها مخلوقة لله مدبرة بمشيئته مقهورة بحكمته فما شاء الله كان وإن لم يشأ الناس وما لم يشأ لم يكن وإن شاء الناس لا معقب لحكمه ولا راد لأمره ورأى أنه سبحانه رب كل شيء ومليكه له الخلق والأمر وكل ما سواه مربوباً له مدبر مقهور لا يملك لنفسه ضراً ولا نفعاً ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً بل هو عبد فقير إلى الله تعالى من جميع الجهات والله غنى عنه كما أنه الغني عن جميع المخلوقات وهذا الشهود في نفسه حق لكن طائفة قصرت عنه وهم القدرية المجوسية وطائفة وقفت عنده وهم القدرية المشركية أما الأولون فهم الذين زعموا أن في المخلوقات ما لا تتعلق به قدرة الله ومشيئته و خلقه كأفعال العباد و غلاتهم أنكروا علمه القديم و كتابه السابق هؤلاء هم أول من حدث من القدرية في هذه الأمة فرد عليهم الصحابة و سلف الأمة و تبرؤا منهم وأما الطائفة الثانية فهم شر منهم و هم طوائف من أهل السلوك و الإرادة و التأله و التصوف و الفقر و نحوهم يشهدون هذه الحقيقة و رأوا أن الله خالق المخلوقات كلها فهو خالق أفعال العباد و مريد جميع الكائنات و لم يميزوا بعد ذلك بين إيمان و كفر و لا عرفان و لا نكر و لاحق و لا باطل و لا مهتدى و لا ضال و لا راشد و لا غوي و لا نبي و لا متبىء و لا ولي لله و لا عدو و لا مرضي لله و لا مسخوط و لا محبوب لله و لا ممقوت و لا بين العدل و الظلم و لا بين البر و العقوق و لا بين أعمال أهل الجنة و أعمال أهل النار و لا بين الأبرار و الفجار حيث شهدوا ما تجتمع فيه الكائنات من القضاء السابق و المشيئة النافذة و القدرة الشاملة و الخلق العام فشهدوا المشترك بين المخلوقات و عموا عن الفارق بينهما و صاروا ممن يخاطب بقوله تعالى { أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ } {35} مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ {36} {القلم 35-36} و بقوله تعالى { أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ } ص28 و بقوله تعالى { أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمُ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءَ مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ } {الجاثية 21} { وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا } {الأعراف 137} و منه قول النبي صلى الله عليه و سلم أعود بكلمات الله التامات التي لا يتجاوزهن بر ولا فاجر من شر ما خلق و ذرأ و برأ و من شر ما ينزل من السماء و ما يعرج فيها و من شر ما ذرأ في الأرض و ما يخرج منها و من شر فتن الليل و النهار و من شر كل طارق إلا طارقاً يطرق بخير يارحمن فالكلمات التي لا يتجاوزهن بر ولا فاجر ليست هي أمره و نهيه الشرعيين فإن الفجار عصوا أمره و نهيه بل هي التي بها يكون الكائنات و أما الكلمات الدينية المتضمنة لأمره و نهيه الشرعيين فمثل الكتب الإلهية التوراة و الأنجيل و الزبور و القرآن و قال تعالى { وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا } {التوبة 40} و قال صلى الله عليه و سلم و استحلتم فروجهن بكلمة الله و أما قوله تعالى { وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا } {الأنعام 115} فإنه يعم النوعين و أما البعث بالمعنى الأول ففي مثل قوله تعالى { فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَْا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ } {الإسراء 5} و الثاني في مثل قوله تعالى { هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا

مَنْهُمْ { الجمعة 2 و قوله تعالى { رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ } البقرة 129 و قوله تعالى
{وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ } النحل 36¹

الهدى هدى الله

أن قوله { سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أُنذِرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ } البقرة 6 كقوله { فَإِنَّكَ لَا تَسْمَعُ
الْمَوْتَى وَلَا تَسْمَعُ الصَّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلُوا مَدْبِرِينَ } {52} وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُمَى عَنِ ضَلَالَتِهِمْ
{53} {الروم 52- 53} وقوله { أَفَأَنْتَ تَسْمَعُ الصَّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ } {42} وَمِنْهُمْ مَّن يَنْظُرُ إِلَيْكَ
أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْعُمَى وَلَوْ كَانُوا لَا يُبْصِرُونَ } {43} {يونس 42- 43} و كل هذا فيه بيان أن مجرد دعائك و
تبليغك و حرصك على هداهم ليس موجب ذلك و إنما يحصل ذلك إذا شاء الله هداهم فشرح صدورهم
للإسلام كما قال تعالى { إِنْ تَحَرَّصَ عَلَى هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَن يُضِلُّ } النحل 37

ففيه تعزية لرسوله صلى الله عليه و سلم و بينت الآية له أن تبليغك و إن لم يهتدوا به ففيه
مصالح عظيمة غير ذلك و فيه بيان أن الهدى هدى الله { مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَن يُضِلِّ فَلَن
تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُّرْسِدًا } الكهف 17 و قد قال له { إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَن أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ }
{ القصص 56} ففيه تقرير التوحيد و تقرير مقصود الرسالة²

أن الرسل عليهم الصلاة والسلام هم الوسائط بيننا وبين الله في أمره ونهيه ووعده ووعيده فالحلال
ما أحله الله ورسوله والحرام ما حرمه الله ورسوله والدين ما شرعه الله ورسوله فعلياً أن نحب الله
ورسوله ونطيع الله ورسوله ونرضى الله ورسوله و في الصحيحين عن أنس قال قال رسول الله
ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان من كان الله ورسوله أحب إليه ممن سواه وما كان يحب
المرء لا يحبه إلا الله ومن كان يكره أن يرجع في الكفر بعد إذ أنقذه الله منه كما يكره أن يلقى في النار
وقد قال تعالى { إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا } {8} { لَتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ
وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا } {9} {الفتح 8-9} فالإيمان بالله والرسول والتعزير والتوقير للرسول وتعزيره
نصره ومنعه والتسبيح بكرة وأصيلاً لله وحده فإن ذلك من العبادة لله والعبادة هي لله وحده فلا يصلح
إلا لله ولا يصام إلا لله ولا يحج إلا إلى بيت الله ولا تشد الرحال إلا إلى المساجد الثلاثة لكون هذه
المساجد بناها أنبياء الله بإذن الله ولا ينذر إلا الله ولا يحلف إلا بالله ولا يدعى إلا الله ولا يستغاث إلا
بالله وأما ما خلقه الله سبحانه من الحيوان والنبات والمطر والسحاب وسائر المخلوقات فلم يجعل
غيره من العباد واسطة في ذلك الخلق كما جعل الرسل واسطة في التبليغ بل يخلق ما يشاء بما يشاء
من الأسباب وليس في المخلوقات شيء يستقل بإبداع شيء بل لا بد للسبب من أسباب آخر تعاونه
ولا بد من دفع المعارض عنه وذلك لا يقدر عليه إلا الله وحده فما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن

¹مجموع الفتاوى ج: 8 ص: 58- 61

²مجموع الفتاوى ج: 16 ص: 591- 595

بخلاف الرسالة فإن الرسول وحده كان واسطة في تبليغ رسالته الى عباده وأما جعل الهدى في قلوب العباد فهو الى الله تعالى لا الى الرسول كما قال الله تعالى **{إِنْ تَحَرَّصَ عَلَى هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ}** النحل¹37

أن الله خالق أفعال العباد وأنه هو الذي يقرب قلوب العباد

ففي القرآن من ذكر تفصيل أفعال العباد التي بقلوبهم وجوارحهم وأنه هو تبارك وتعالى يحدث من ذلك ما يطول وصفه كقوله تعالى **{فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ}** الأعراف30 وقوله تعالى **{فَهَدَىٰ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ}** البقرة213 وقوله **{وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَٰئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ}** الحجرات7 ومعلوم أنه لم يرد بذلك الهداية المشتركة بين المؤمن والكافر مثل إرسال الرسل والتمكين من الفعل وإزاحة العطل بل أراد ما يختص به المؤمن كما دل عليه القرآن في مثل قوله تعالى **{وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ}** الأنعام87 وقوله **{وَآتَيْنَاهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَقِيمَ}** 117 **{وَآتَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ}** 118 الصافات 117-118 ومنه قولنا في الصلاة **{اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ}** 6 **{صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ}** 7 الفاتحة 6-7 فإن الهداية المشتركة حاصلة لا تحتاج أن تسأل وإنما تسأل الهداية التي خص بها المهتدين ومن تأول ذلك بمعنى زيادة الهدى والتثبيت وقال كان ذلك جزءا كان متناقضا فإنه يقال هذا المطلوب إن لم يكن حاصلا باختيار العبد لم يثب عليه فإنه إنما يثاب على ما فعله باختياره وإن كان باختياره فقد ثبت أن الله يحدث الفعل الذي يختاره العبد وهذا مذهب أهل السنة وكذلك ما أخبر الله في القرآن من إضلال وهدى ونحو ذلك فإنهم قد يتأولون ذلك بأنه جزءا على ما تقدم وعامة تأويلاتهم مما يعلم بالاضطرار أن الله ورسوله لم يردوها بكلامه مع أن هذا الاجزاء مما يثاب الفاعل عليه وإن جوزوا أن الله يثيب العبد على ما ينعم به على العبد من فعله الاختياري جاز أن ينعم عليه ابتداء باختياره الطاعة وإن لم يجز عندهم الثواب والعقاب على ما يجعل العبد فاعلا له بطل أن يريد هدى أو ضلالة يثاب عليها أو يعاقب عليها وامتنع أن يكون ما أخبر أنه فعله من جعل الأغلال في أعناقهم وجعله من بين أيديهم سدا ومن خلفهم سدا ونحو ذلك هو مما يعاقبون عليه وقد قال تعالى **{إِنْ تَحَرَّصَ عَلَى هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ}** النحل¹37 فأخبر أنه من أضله الله لا يهتدي وفي الجملة ففي القرآن من الآيات المبينة أن الله خالق أفعال العباد وأنه هو الذي يقرب قلوب العباد فيهدي من يشاء ويضل من يشاء وأنه هو المنعم بالهدى على من أنعم عليه ما يتعذر استقصاؤه في هذه المواضع وكذلك فيه ما يبين عموم خلقه لكل شيء كقوله **{اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ}** الرعد16 وغير ذلك وفيه ما يبين أنه فعال لما يريد وفيه ما يبين أنه لو شاء لهدى الناس جميعا وأمثال ذلك مما يطول وصفه²

¹مجموع الفتاوى ج: 1 ص: 308

²منهاج السنة النبوية ج: 3 ص: 262-264

التعليم والتذكير والإنذار والهدى له فاعل وله قابل

قال تعالى { **وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَن هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَن حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكذِّبِينَ** } 36 { **إِنْ تَحْرَصْ عَلَى هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَن يُضِلُّ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ** } 37 { النحل 36-37 أن التعليم والتذكير والإنذار والهدى ونحو ذلك له فاعل وله قابل فالمعلم المذكر يعلم غيره ثم ذلك الغير قد يتعلم ويتذكر وقد لا يتعلم ولا يتذكر فإن تعلم وتذكر فقد تم التعليم والتذكير وإن لم يتعلم ولم يتذكر فقد وجد أحد طرفيه وهو الفاعل دون المحل القابل فيقال في مثل هذا علمته فما تعلم وذكرته فما تذكر وأمرته فما أطاع وقد يقال ما علمته وما ذكرته لأنه لم يحصل تاما ولم يحصل مقصوده فينفي لإنتفاء كماله وتاممه وإنتفاء فائدته بالنسبة إلى المخاطب السامع وإن كانت الفائدة حاصلة للمتكلم القائل المخاطب فحيث خص بالتذكير والإنذار ونحوه المؤمنون فهم مخصوصون بالتام النافع الذي سعدوا به وحيث عمم فالجميع مشتركون في الإنذار الذي قامت به الحجة على الخلق سواء قبلوا أو لم يقبلوا وهذا هو الهدى المذكور في قوله { **وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى** } فصلت 17 فالهدى هنا هو البيان والدلالة والإرشاد العام المشترك وهو كالإنذار العام والتذكير العام وهنا قد هدى المتقين وغيرهم كما قال { **وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ** } الرعد 7 وأما قوله { **اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ** } الفاتحة 6 فالمطلوب الهدى الخاص التام الذي يحصل معه الإهتداء كقوله { **هُدَى لِّلْمُتَّقِينَ** } البقرة 2 وقوله { **فَرِيقًا هَدَى وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ** } الأعراف 30 وقوله { **فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَن يُضِلُّ** } النحل 37 وقوله { **يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ** } المائدة 16 وهذا كثير في القرآن¹

خلق الله الأشياء بأسباب

إن كل ما في الوجود فهو مخلوق له خلقه بمشيئته وقدرته و ما شاء كان و ما لم يشأ لم يكن و هو الذي يعطي و يمنع و يخفض و يرفع و يعز و يذل و يغني و يفقر و يضل و يهدي و يسعد و يشقى و يولى الملك من يشاء و ينزعه ممن يشاء و يشرح صدر من يشاء للإسلام و يجعل صدر من يشاء ضيقا كأنما يصعد في السماء و هو يقلب القلوب ما من قلب من قلوب العباد إلا و هو بين إصبعين من أصابع الرحمن إن شاء أن يقيمه أقامه و إن شاء أن يزيغه أزاعه و هو الذي حبب إلى المؤمنين الإيمان و زينه في قلوبهم و كره إليهم الكفر و الفسوق و العصيان أولئك هم الراشدون و هو الذي جعل المسلم مسلما و المصلي مصليا قال الخليل { **رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمِينَ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةٌ مُّسْلِمَةٌ لَّكَ** } البقرة 128 و قال { **رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي** } إبراهيم 40 و قال تعالى { **وَاجْعَلْنَا مِنْهُمْ أُمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا** } السجدة 24 و قال عن آل فرعون { **وَاجْعَلْنَا مِنْهُمْ أُمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ** } القصص 41 و قال تعالى { **إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا** } 19 { **إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ**

¹مجموع الفتاوى ج: 16 ص: 154

جَزُوعاً {20} وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً {21} {المعارج 19-21} وقال {وَأَصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا {هود 37} وقال {وَيَصْنَعِ الْفُلْكَ {هود 38} والفلك مصنوعة لبني آدم وقد أخبر الله تبارك و تعالى أنه خلقها بقوله {وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِّن مِّثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ {يس 42} وقال {وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِّن بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِّن جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَابِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثًا وَمَتَاعاً إِلَى حِينٍ {النحل 80} الآيات وهذه كلها مصنوعة لبني آدم وقال تعالى {اتَّعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ {95} وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ {96} الصافات 95-96} فما بمعنى الذي ومن جعلها مصدرية فقد غلط لكن إذا خلق المنحوت كما خلق المصنوع والملبوس والمبنى دل على أنه خالق كل صانع وصنعتة وقال تعالى {مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِّ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُّرْشِدًا {الكهف 17} وقال {فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا {الأنعام 125} وهو سبحانه خالق كل شيء وربّه ومليكه وله فيما خلقه حكمة بالغة ونعمة سابغة ورحمة عامة وخاصة وهو لا يسأل عما يفعل وهم يسألون لا لمجرد قدرته وقهره بل لكمال علمه وقدرته ورحمته وحكمته فإنه سبحانه وتعالى أحكم الحاكمين وأرحم الراحمين وهو أرحم بعباده من الوالدة بولدها وقد أحسن كل شيء خلقه وقال تعالى {وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي أَتَقَنَ كُلَّ شَيْءٍ {النمل 88} وقد خلق الأشياء بأسباب كما قال تعالى {وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا {البقرة 164} وقال {فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ {الأعراف 57} وقال تعالى {يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ {المائدة 16} ¹

قال تعالى {وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكذِّبِينَ {36} {إن تحرص على هداهم فإن الله لا يهدي من يضل وما لهم من ناصرين {37} وأفسموا بالله جهد أيمانهم لا يبعث الله من يموت بلى وعدا عليه حقا ولكن أكثر الناس لا يعلمون {38} ليبين لهم الذي يخلفون فيه وليعلم الذين كفروا أنهم كانوا كاذبين {39} {النحل 36-39} فإن الهدى والضلال إنما يكون بعد البيان ²

الرسول أعلم الخلق بالحق وبيانه للحق أكمل من بيان كل أحد

قال تعالى {وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكذِّبِينَ {36} {إن تحرص على هداهم فإن الله لا يهدي من يضل وما لهم من ناصرين {37} والنحل 36-37} والرسول أعلم الخلق بالحق وأقدر الناس على بيان الحق وأنصح الخلق للخلق وهذا يوجب أن يكون بيانه للحق أكمل من بيان كل أحد فإن ما يقوله القائل ويفعله الفاعل لا بد فيه من قدرة وعلم وإرادة فالعاجز عن القول أو الفعل يمتنع صدور ذلك عنه والجاهل بما يقوله ويفعله لا يأتي

¹مجموع الفتاوى ج: 8 ص: 78

²الزهد والورع والعبادة ج: 1 ص: 20

بالقول المحكم والفعل المحكم وصاحب الإرادة الفاسدة لا يقصد الهدى والنصح والصلاح فإذا كان المتكلم عالماً بالحق قاصداً لهدى الخلق قصداً تاماً قادراً على ذلك وجب وجود مقدوره ومحمد صلى الله عليه وسلم أعلم الخلق بالحق وهو أفصح الخلق لساناً وأصحهم بياناً وهو أحرص الخلق على هدى العباد كما قال إن تحرص على هداهم فإن الله لا يهدي من يضل سورة النحل 37 وقد أوجب الله عليه البلاغ المبين وأنزل عليه الكتاب ليبين للناس ما نزل إليهم فلا بد أن يكون بيانه وخطابه وكلامه أكمل وأتم من بيان غيره¹

في مبعث الخلق يوم القيامة مقاصد غير بيان المختلف

قال تعالى { **وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ** } 36 { **إِنْ تَحَرَّصَ عَلَى هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ** } 37 { **وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ بَلَى وَعَدًّا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ** } 38 { **النحل 36-38** } ومعلوم أن في مبعث الخلق يوم القيامة مقاصد غير بيان المختلف في علم هؤلاء ومما يبين ذلك أنه قال في الآية التي احتجوا بها { **لَتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ** } يس 6 ومعلوم أنه لم يبعث لمجرد الإنذار بل وليبشر من آمن به ولأمرهم بالمعروف ونهيه عن المنكر وتحليل الطيبات وتحريم الخبائث وغير ذلك من مقاصد الرسل وفي ذلك حكم أخرى ومثل ذلك كثير في كلام الله عز وجل وغير كلام الله إذا ذكر حكمة للفعل لم يلزم أن لا تكون له حكمة أخرى لكن لا بد لتخصيص تلك الحكمة بالذكر في ذلك الموضوع من مناسبته وهذا كالمناسبة في قوله { **لَتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ** } يس 6 فإن هؤلاء كانوا أول المنذرين وأحقهم بالإنذار فكان في تخصيصهم بالذكر فائدة لا أنه خصهم لانتفاء إنذار من سواهم²

الفرق بين خطاب التكوين و بين خطاب التكليف

قال تعالى { **إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ** } النحل 40 ما تقول السادة العلماء أئمة المسلمين أئمة الدين رضى الله عنهم أجمعين في قوله تعالى { **إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ** } النحل 40 فإن كان المخاطب موجوداً فتحصيل الحاصل محال و إن كان معدوماً فكيف يتصور خطاب المعدوم فأجاب شيخ الإسلام أبو العباس أحمد بن تيمية رحمه الله الحمد لله رب العالمين فهذه المسألة فهي مبنية على أصليين أحدهما الفرق بين خطاب التكوين الذي لا يطلب به سبحانه فعلاً من المخاطب بل هو الذى يكون المخاطب به و يخلفه بدون فعل من المخاطب أو قدرة أو إرادة أو وجود له و بين خطاب التكليف الذى يطلب به من المأمور فعلاً أو تركاً يفعل به قدرة أو إرادة و إن كان ذلك جميعه بحول الله و قوته إذ لا حول و لا قوة إلا بالله و هذا الخطاب قد تنازع فيه الناس هل يصح أن يخاطب به المعدوم بشروط و جوده أم لا يصح أن يخاطب

¹درء التعارض ج: 1 ص: 23

²الجواب الصحيح ج: 1 ص: 432

به إلا بعد و جوده و لا نزاع بينهم أنه لا يتعلق به حكم الخطاب إلا بعد و جوده وكذلك تنازعوا في الأول هل هو خطاب حقيقي أم هو عبارة عن الإقتدار و سرعة التكوين بالقدرة و الأول هو المشهور عند المنتسبين الى السنة و الأصل الثاني أن المعدوم في حال عدمه هل هو شيء أم لا فإنه قد ذهب طوائف من متكلمة المعتزلة و الشيعة إلى أنه شيء في الخارج و ذات و عين و زعموا أن الماهيات غير مجعولة و لا مخلوقة وأن و جودها زائد على حقيقتها و كذلك ذهب إلى هذا طوائف من المتفلسفة و الإتحادية و غيرهم من الملاحدة و الذي عليه جماهير الناس و هو قول متكلمة أهل الإثبات و المنتسبين الى السنة و الجماعة أنه في الخارج عن الذهن قبل و جوده ليس بشيء أصلا و لا ذات و لا عين و أنه ليس في الخارج شيئا أحدهما حقيقة و الآخر و جوده الزائد على حقيقته فإن الله أبدع الذوات التي هي الماهيات فكل ما سواه سبحانه فهو مخلوق و مجعول و مبدع و مبدوء له سبحانه و تعالى لكن في هؤلاء من يقول المعدوم ليس بشيء أصلا وإنما سمى شيئا باعتبار ثبوته في العلم فكان مجازا و منهم من يقول لا ريب أن له ثبوتا في العلم و وجودا فيه فهو باعتبار هذا الثبوت و الوجود هو شيء و ذات و هؤلاء لا يفرقون بين الوجود و الثبوت كما فرق من قال المعدوم شيء و لا يفرقون في كون المعدوم ليس بشيء بين الممكن و الممتنع كما فرق أولئك إذ قد إتفقوا على أن الممتنع ليس بشيء و إنما النزاع في الممكن و عمدة من جعله شيئا إنما هو لأنه ثابت في العلم و باعتبار ذلك صح أن يخص بالقصد و الخلق و الخبر عنه و الأمر به و النهي عنه و غير ذلك قالوا و هذه التخصيصات تمتنع أن تتعلق بالعدم المحض فإن خص الفرق بين الوجود الذي هو الثبوت العيني و بين الوجود الذي هو الثبوت العلمي زالت الشبهة في هذا الباب و قوله تعالى { إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ } النحل 40 ذلك الشيء هو معلوم قبل إبداعه و قبل توجيه هذا الخطاب إليه و بذلك كان مقدرًا مقضيا فإن الله سبحانه و تعالى يقول و يكتب من ما يعلمه ما شاء كما قال النبي صلى الله عليه و سلم في الحديث الذي رواه مسلم في صحيحه عن عبد الله بن عمرو أن الله قدر مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات و الأرض بخمسين ألف سنة و في صحيح البخاري عن عمران بن حصين عن النبي صلى الله عليه و سلم أنه قال كان الله و لم يكن شيء معه و كان عرشه على الماء و كتب في الذكر كل شيء ثم خلق السموات و الأرض و في سنن أبي داود و غيره عن النبي صلى الله عليه و سلم أنه قال أول ما خلق الله القلم فقال له أكتب فقال ما أكتب قال ما هو كائن الى يوم القيامة الى أمثال ذلك من النصوص التي تبين أن المخلوق قبل أن يخلق كان معلوما مخبرا عنه مكتوبا فهو شيء باعتبار و جوده العلمي الكلامي الكتابي و ان كانت حقيقته التي هي و جوده العيني ليس ثابتا في الخارج بل هو عدم محض و نقي صرف و هذه المراتب الأربعة المشهورة للموجودات و قد ذكرها الله سبحانه و تعالى في أول سورة أنزلها على نبيه في قوله { اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ } 1 { خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ } 2 { اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ } 3 { الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ } 4 { عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ } 5 { العلق 1-5 و قد بسطنا الكلام من ذلك في غير هذا الموضوع و إذا كان كذلك كان الخطاب موجها إلى من توجهت إليه الإرادة و تعلقت به القدرة و خلق و كون و كما قال { إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ } النحل 40 فالذي يقال له كن هو الذي يراد و هو حين يراد قبل أن يخلق له ثبوت و تميز في العلم و التقدير و لولا ذلك لما تميز المراد المخلوق من غيره و بهذا يحصل الجواب عن التقسيم فإن قول السائل إن كان المخاطب موجودا فتحصيل الحاصل محال يقال له هذا إذا كان موجودا في الخارج و جوده الذي هو و جوده و لا ريب أن المعدوم ليس موجودا و لا هو في نفسه ثابت و أما ما علم و أريد و كان شيئا في العلم و الإرادة و التقدير فليس و جوده في الخارج محالا بل جميع المخلوقات لا توجد إلا بعد و جودها في العلم و الإرادة و قول السائل أن كان معدوما فكيف يتصور خطاب المعدوم

يقال له أما إذا قصد أن يخاطب بالمعدوم في الخطاب بخطاب يفهمه و يمتثله فهذا محال إذا من شرط المخاطب أن يتمكن من الفهم و الفعل و المعدوم لا يتصور أن يفهم و يفعل فيمتنع خطاب التكليف له حال عدمه بمعنى أنه يطلب منه حين عدمه أن يفهم و يفعل و كذلك أيضا يمتنع أن يخاطب المعدوم في الخارج خطاب تكوين بمعنى أن يعتقد أنه شيء ثابت في الخارج و أنه يخاطب بأن يكون و أما الشيء المعلوم المذكور المكتوب إذا كان توجيه خطاب التكوين إليه مثل توجيه الإرادة إليه فليس ذلك محالا بل هو أمر ممكن بل مثل ذلك يجده الإنسان في نفسه فيقدر أمر في نفسه يريد أن يفعله و يوجه إرادته و طلبه إلى ذلك المراد المطلوب الذي قدره في نفسه و يكون حصول المراد المطلوب بحسب قدرته فإن كان قادرا على حصوله حصل مع الإرادة و الطلب الجازم و إن كان عاجزا لم يحصل و قد يقول الإنسان ليكن كذا و نحو ذلك من صيغ الطلب فيكون المطلوب بحسب قدرته عليه و الله سبحانه على كل شيء قدير و ما شاء كان و ما لم يشأ لم يكن فإنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون¹

كلام الرب غير مخلوق لأن الله لم يخلق شيئا إلا ب كن

قال تعالى **{ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ } النحل 40** أئمة أهل السنة والحديث وهم من أعلم الناس بمقالة الرسول والصحابة والتابعين لهم بإحسان ومن أتبع الناس لها وهؤلاء وغيرهم كسفيان بن عيينة احتجوا على أن كلام الرب غير مخلوق بأن الله لم يخلق شيئا إلا ب كن فلو كانت كن مخلوقة لزم التسلسل المانع من الخلق وهذا التسلسل فلو كانت كن مخلوقة لزم التسلسل في أصل كونه خالقا وفاعلا فهو تسلسل في أصل التأثير وهو ممتنع باتفاق العقلاء بخلاف التسلسل في الآثار المعينة فإنه إذا لم يكن خالقا إلا بقوله كن امتنع أن يكون القول مخلوقا كما إذا قيل لا يكون خالقا إلا بعلم وقدرة امتنع أن يكون العلم والقدرة مخلوقين لأنه يلزم أن يكون ذلك المخلوق يمتنع وجوده إلا بعد وجوده فإنه لا يكون خالقا إلا به فيجب كونه متقدما على كل مخلوق فلو كان مخلوقا للزم تقدمه على نفسه وهذه حجة صحيحة عقلية شرعية²

الموقت بظرف معين لا يكون قديما أزليا

قال تعالى **{ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ } النحل 40** قالوا فالكلام القديم هو الحروف والأصوات ومنهم من قال الحروف دون الأصوات فهي قديمة أزلية بأعيانها لا نقول بوجود شيء بعد شيء وأنه ما زال يقول يا آدم يا نوح يا موسى من الأزل إلى الأبد ولا يزال يقول ذلك وقال هؤلاء باقتران الحروف بعضها ببعض في الأزل وأن الياء والسين موجودتان معا في

¹مجموع الفتاوى ج: 8 ص: 182-186 و دقائق التفسير ج: 2 ص: 324-326

²منهاج السنة النبوية ج: 1 ص: 216

الأزل والترتيب بينهما إنما هو ترتيب في ذاتهما أو في ظهورهما لا في وجودهما وهذا قول طائفة من أهل الكلام والحديث والفقهاء حكاة الأشعري في المقالات عن طائفة قالته وقد وافقهم عليه طائفة من الفقهاء من أصحاب مالك وأحمد والشافعي وغيرهم فأنكر الجمهور هذا القول وقالوا هذا مخالف لصريح المعقول والمنقول فإن الله تعالى يقول {إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ} النحل40 وأن تخلص الفعل المضارع للاستقبال والمؤقت بظرف معين لا يكون قديماً أزلياً وأن تخلص الفعل المضارع للاستقبال والمؤقت بظرف معين لا يكون قديماً أزلياً وقال تعالى {فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَىٰ} طه11¹

فهذا يقتضي أنه إذا أراد شيئاً فإنما أمره أن يقول له كن فيكون وقوله إذا أراد فافتضى هذا أنه لم يخلق شيئاً إلا وقد قال له كن²

ثبوت الإرادة عند وجود المراد

قال تعالى {إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ} النحل40 فالرب تعالى إذا لم يحدث شيئاً إلا بقدرته ومشينته فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن {إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ} يس82 فلا بد أن يريد الفعل قبل أن يفعله ولا بد أن يكون الفعل قبل المفعول وإن كانت لإرادة والفعل موجودين عند وجود المفعول كما يقول أهل السنة إن القدرة لا بد أن تكون مع الفعل³

وإذا قيل إن فاعل العالم قادر مختار كما هو مذهب المسلمين وسائر أهل الملل وأساطين الفلاسفة الذين كانوا قبل أرسطو فإنه لا بد أن يكون الفاعل المبدع مریداً لمفعولاته حين فعله لها كما قال تعالى {إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ} النحل40 ولا يكفي وجود إرادة قديمة تتناول جميع المتجددات بدون تجدد إرادة ذلك الحادث المعين لأنه على هذا التقدير يلزم جواز حدوث الحوادث بلا سبب حادث ونحن نتكلم على التقدير الآخر وهو امتناع حدوثها بدون سبب حادث وإذا كان على هذا التقدير لا بد من ثبوت الإرادة عند وجود المراد ولا بد من إرادة مقارنة للمراد مستلزماً له أمتنع أن يكون في الأزل إرادة يقارنها مرادها سواء كانت عامة لكل ما يصدر عنه أو كانت خاصة ببعض المفعولات فإن مرادها هو مفعول الرب وهذه الإرادة هي إرادة أن يفعل ومعلوم أن الشيء الذي يريد الفاعل أن يفعله لا يكون شيئاً قديماً أزلياً لم يزل ولا يزال بل لا يكون إلا حادثاً بعد أن لم يكن وهذا معلوم بضرورة العقل عند عامة العقلاء وهو متفق عليه عند نظار الأمم المسلمين وغير المسلمين وجاهير الفلاسفة الأولين والآخرين حتى أرسطو وأتباعه ولم ينازع في

¹الصفدية ج: 2 ص: 58

²الصفدية ج: 2 ص: 71

³منهاج السنة النبوية ج: 1 ص: 224

ذلك إلا شذوذة قليلة من المتفلسفة جوز بعضهم أن يكون مفعولا ممكنا وهو قديم أزلي كابن سينا وأمثاله وجوز بعضهم مع ذلك أن يكون مرادا وأما جماهير العقلاء فيقولون إن فساد كل من هذين القولين معلوم بضرورة العقل حتى المنتصرون لأرسطو وأتباعه كابن رشد الحفيد وغيره أنكروا كون الممكن يكون قديما أزليا على إخوانهم كابن سينا وبينوا أنهم خالفوا في هذا القول أرسطو وأتباعه وهو كما قال هؤلاء وكلام أرسطو بين في ذلك في مقالة اللام التي هي آخر كلامه في علم ما بعد الطبيعة وغير ذلك وأرسطو وقدماء أصحابه مع سائر العقلاء يقولون إن الممكن الذي يمكن وجوده وعدمه لا يكون إلا محدثا كائنا بعد أن لم يكن والمفعول لا يكون إلا محدثا وهم إذا قالوا بقدوم الأفلاك لم يقولوا إنها ممكنة ولا مفعولة ولا مخلوقة بل يقولون إنها تتحرك للتشبه بالعلة الأولى فهي محتاجة إلى العلة الأولى التي يسميها ابن سينا وأمثاله واجب الوجود من جهة أنه لا بد في حركتها من التشبه به فهو لها من جنس العلة الغائية لا أنه علة فاعلة لها عند أرسطو وذويه وهذا القول وإن كان من أعظم الأقوال كفرا وضلالا ومخالفة لما عليه جماهير العقلاء من الأولين والآخرين ولهذا عدل متأخروا الفلاسفة عنه وأدعوا موجبا وموجبا كما زعمه ابن سينا وأمثاله¹

المسيح خلق بكلمة من كلمات الله

فإنه على قول الجمهور الذين يجعلون لله كلمات كثيرة إما كلمات لا نهاية لها ولم تزل وإما كلمات لها ابتداء وإذا كان له كلمات كثيرة فالمسيح ليس هو الكلمات التي لا نهاية لها وليس هو كلمات كثيرة بل إنما خلق بكلمة من كلمات الله كما في الكتب الإلهية القرآن والتوراة إنه يخلق الأشياء بكلماته قال تعالى { مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ } مريم 35 وقد أخبر الله في القرآن بخلقه للأشياء بكلماته في غير موضع بقوله { إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ } النحل 40 وفي التوراة ليكن يوم الأحد ليكن كذا ليكن كذا²

علم صفة الربوبية و علم صفة الإلهية

قال تعالى { إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ } النحل 40 أن الله سبحانه وتعالى هو المالك الذي يتصرف في ملكه كما يشاء فإذا ظهر للعبد من سر الربوبية أن الملك والتدبير كله بيد الله تعالى قال تعالى { تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ } الملك 1 فلا يرى نفعا ولا ضرا ولا حركة ولا سكونا ولا قبضا ولا بسطا ولا خفضا ولا رفعا إلا والله سبحانه وتعالى فاعله وخالقه وقابضه وباسطه ورافعه وخافضه فهذا الشهود هو سر الكلمات الكونيات وهو علم صفة الربوبية والأول هو علم صفة الإلهية وهو كشف سر الكلمات التكاليفيات فالتحقيق بالأمر والنهي والمحبة والخوف والرجاء يكون عن كشف علم الإلهية والتحقيق بالتوكل

¹ منهاج السنة النبوية ج: 1 ص: 234

² الجواب الصحيح ج: 3 ص: 314

والتفويض والتسليم يكون بعد كشف علم الربوبية وهو علم التدبير السارى فى الأكوان كما قال عز وجل **{ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ } النحل 40** فإذا تحقق العبد لهذا المشهد ووقفه لذلك بحيث لا يحجبه هذا المشهد عن المشهد الأول فهو الفقيه فى عبوديته فإن هذين المشهدين عليهما مدار الدين فإن جميع مشاهد الرحمة واللطف والكرم والجمال داخل فى مشهد الربوبية¹

الله تعالى ليس له شريك فى الخلق والتكوين

قال تعالى **{ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ } النحل 40** فيقال الأمر الكونى يكون موجودا قبل وجود المكون لا يسمعه العبد وليس امتثاله مقدورا له بل الرب هو الذى يخلق ما كونه بمشيئته وقدرته والله تعالى ليس له شريك فى الخلق والتكوين والعبد وإن كان فاعلا بمشيئته وقدرته والله خالق كل ذلك فتكوين الله للعبد ليس هو أمرا لعبد موجود فى الخارج يمكنه الامتثال وكذلك ما خلقه من أحواله وأعماله خلقه بمشيئته وقدرته و **{ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ } يس 82** فكل ما كان من المكونات فهو داخل فى هذا الأمر وأكل آدم من الشجرة وغير ذلك من الحوادث داخل تحت هذا كدخول آدم فنفس أكل آدم هو الداخل تحت هذا الأمر كما دخل آدم فقول القائل انه قال لآدم فى الباطن كل مثل قوله انه قال للكافر اكفر وللفاسق افسق والله لا يأمر بالفحشاء ولا يحب الفساد ولا يرضى لعباده الكفر ولا يوجد منه خطاب باطن ولا ظاهر للكفار والفساق والعصاة بفعل الكفر والفسوق والعصيان وان كان ذلك واقعا بمشيئته وقدرته وخلقته وأمره الكونى فالأمر الكونى ليس هو أمرا للعبد أن يفعل ذلك الأمر بل هو أمر تكوين لذلك الفعل فى العبد أو أمر تكوين لكون العبد على ذلك الحال فهو سبحانه الذى خلق الإنسان هلو عا **{ إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا } 19** **{ إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا } 20** **{ وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا } 21** المعارج 19-21 وهو الذى جعل المسلمين مسلمين كما قال الخليل **{ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمِينَ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ } البقرة 128** فهو سبحانه جعل العباد على الأحوال التى خلقهم عليها وأمره لهم بذلك أمر تكوين بمعنى أنه قال لهم كونوا كذلك فيكونون كذلك كما قال للجماذ كن فيكون فأمر التكوين لا فرق فيه بين الجماذ والحيوان وهو لا يفتقر الى علم المأمور ولا إرادته ولا قدرته لكن العبد قد يعلم ما جرى به القدر فى أحواله كما يعلم ما جرى به القدر فى أحوال غيره وليس فى ذلك علم منه بأن الله أمره فى الباطن بخلاف ما أمره فى الظاهر بل أمره بالطاعة باطنا وظاهرا ونهاه عن المعصية باطنا وظاهرا وقد ما يكون فيه من طاعة ومعصية باطنا وظاهرا وخلق العبد وجميع أعماله باطنا وظاهرا وكون ذلك بقوله كن باطنا وظاهرا وليس فى القدر حجة لابن آدم ولا عذر بل القدر يؤمن به ولا يحتج به والمحتج بالقدر فاسد العقل والدين متناقض فإن القدر ان كان حجة وعذرا لزم أن لا يلام أحد ولا يعاقب ولا يقتص منه وحينئذ فهذا المحتج بالقدر يلزمه اذا ظلم فى نفسه وماله وعرضه وحرمة أن لا ينتصر من الظالم ولا يغضب عليه ولا يذمه وهذا أمر ممتنع فى الطبيعة لا يمكن أحد أن يفعله فهو ممتنع طبعا محرم شرعا ولو كان القدر حجة وعذرا لم يكن ابليس ملوما ولا معاقبا ولا فرعون وقوم نوح وعاد وثمود وغيرهم من الكفار ولا كان جهاد الكفار جائزا ولا

¹مجموع الفتاوى ج: 1 ص: 90

اقامة الحدود جائزا ولا قطع السارق ولا جلد الزانى ولا رجمه ولا قتل القاتل ولا عقوبة معتد بوجه من الوجوه ولما كان الاحتجاج بالقدر باطلا في فطر الخلق وعقولهم لم تذهب اليه أمة من الأمم ولا هو مذهب أحد من العقلاء الذين يطردون قولهم فإنه لا يستقيم عليه مصلحة أحد لا في دنياه ولا آخرته ولا يمكن اثنان أن يتعاشرا ساعة واحدة إن لم يكن أحدهما ملتزما مع الآخر نوعا من الشرع فالشرع نور الله في أرضه وعدله بين عباده لكن الشرائع تتنوع فتارة تكون منزلة من عند الله كما جاءت به الرسل وتارة لا تكون كذلك ثم المنزلة تارة تبدل وتغير كما غير أهل الكتاب شرائعهم وتارة لا تغير ولا تبدل وتارة يدخل النسخ في بعضها وتارة لا يدخل وأما القدر فإنه لا يحتج به أحد إلا عند اتباع هواه فاذا فعل فعلا محرما بمجرد هواه وذوقه ووجدته من غير أن يكون له علم بحسن الفعل ومصلحته استند الى القدر كما قال المشركون { لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ شَيْءٍ } {148} الانعام 148 قال الله تعالى { كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ } {148} { قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ } {149} الانعام 148-149 فبين أنهم ليس عندهم علم بما كانوا عليه من الدين وانما يتبعون الظن¹

لطائف لغوية

1- قال تعالى { وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَّاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ } {24} { لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَاءَ مَا يَزُرُونَ } {25} النحل 24-25 عامة الأسماء يتنوع مسماها بالاطلاق والتقييد ولفظ الضلال اذا أطلق تناول من ضل عن الهدى سواء كان عمدا أو جهلا ولزم أن يكون معذبا كقوله { إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آبَاءَهُمْ ضَالِّينَ } {69} { فَهُمْ عَلَى آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ } {70} { وَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ } {71} الصافات 69-71 وقوله { وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا } {67} { رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنَهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا } {68} الأحزاب 67-68 وقوله { فَمَنْ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى } طه 123 ثم يقرب بالغى والغضب كما في قوله { مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى } النجم 2 وفي قوله { غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ } الفاتحة 7 وقوله { إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعْرٍ } القمر 47²

2- قال تعالى { الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ فَأَلْقَوْا السَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ بَلَى إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ } النحل 28 عليم منزه عن الجهل³

¹مجموع الفتاوى ج: 2 ص: 323-324

²مجموع الفتاوى ج: 7 ص: 167

³الجواب الصحيح ج: 4 ص: 407

3- قال تعالى { وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرًا لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ
الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ } {30} جَنَاتٌ عَدْنٌ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُمْ فِيهَا مَا
يَشَاءُونَ كَذَلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ } {31} النحل 30-31 عامة الأسماء يتنوع مسماها بالاطلاق والتقييد
وكذلك اذا أفرد اسم طاعة الله دخل في طاعته كل ما أمر به وكانت طاعة الرسول داخلة في
طاعته وكذا اسم التقوى اذا افرد دخل فيه فعل كل مأمور به وترك كل محظور قال طلق بن
حبيب التقوى ان تعمل بطاعة الله على نور من الله ترجو رحمة الله وأن تترك معصية الله على نور
من الله تخاف عذاب الله وهذا كما في قوله { إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ } {54} في مَقْعَدٍ صِدْقٍ عِنْدَ
مَلِكٍ مُقْتَدِرٍ } {55} القمر 54-55 وقد يقرن بها اسم آخر كقوله { وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا
} {2} وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ } {3} الطلاق 2-3 وقوله { إِنَّهُ
مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ } يوسف 90 وقوله { وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ } النساء 1¹

4- قال تعالى { جَنَاتٌ عَدْنٌ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ كَذَلِكَ يَجْزِي اللَّهُ
الْمُتَّقِينَ } النحل 31 قوله تعالى { تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ } البقرة 25 فيقال النهر كالقرية
والميزاب كما يستعمل لفظ القرية تارة في السكان في مثل قوله { وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا
} يوسف 82 وتارة في المساكن ونحو ذلك يراد به الحال ويراد به المحل فاذا قيل حفر النهر أريد به
المحل واذا قيل جرى النهر أريد به الحال ²

5- قال تعالى { جَنَاتٌ عَدْنٌ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ كَذَلِكَ يَجْزِي اللَّهُ
الْمُتَّقِينَ } النحل 31 ان الجنة هي الدار الجامعة لكل نعيم واعلى ما فيها النظر الى وجه الله وهو من
النعيم الذي ينالونه في الجنة كما اخبرت به النصوص وكذلك اهل النار فانهم محجوبون عن ربه
يدخلون النار ³

6- قال تعالى { وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ
وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ } {36} إن
تَحْرِصْ عَلَى هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ } {37} النحل 36-37 عامة الأسماء
يتنوع مسماها بالاطلاق والتقييد ولفظ الضلال اذا أطلق تناول من ضل عن الهدى سواء كان

¹مجموع الفتاوى ج: 7 ص: 164

²مجموع الفتاوى ج: 20 ص: 464

³مجموع الفتاوى ج: 10 ص: 65

عمداً أو جهلاً ولزم أن يكون معذبا كقوله {إِنَّهُمْ أَلْفَا أَبَاءَهُمْ ضَالِّينَ} {69} فَهُمْ عَلَى آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ} {70} وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ} {71} الصافات 69-71 وقوله {وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا} {67} رَبَّنَا أَنَّهُمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَدَابِ وَالْعَنَهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا} {68} الأحزاب 67-68 وقوله {فَمَنْ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى} طه 123 ثم يقرب بالغي والغضب كما في قوله {مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى} النجم 2 وفي قوله {غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ} الفاتحة 7 وقوله {إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ} القمر 47¹

7- قال تعالى {وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ} {36} **إِنْ تَحَرَّصَ عَلَى هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ} {37} النحل 36-37** والطاغوت فعلوت من الطغيان كما أن الملكوت فعلوت من الملك والرحموت والرهبوت والرغبوت فعلوت من الرحمة والرهبة والرغبة والطغيان مجاوزة الحد وهو الظلم والبغي فالمعبود من دون الله إذا لم يكن كارها لذلك طاغوت ولهذا سمي النبي الأصنام طواغيت في الحديث الصحيح لما قال ويتبع من يعبد الطواغيت الطواغيت والمطاع في معصية الله والمطاع في اتباع غير الهدى ودين الحق سواء كان مقبولا خبره المخالف لكتاب الله أو مطاعا امره المخالف لأمر الله هو طاغوت ولهذا سمي من تحوكم اليه من حاكم بغير كتاب الله طاغوت وسمى الله فرعون وعادا طغاة وقال في صيحة ثمود {فَأَمَّا ثَمُودُ فَاهْلَكُوا بِالطَّاغِيَةِ} الحاقة 5²

8- والطاغوت كل معظم ومتعظم بغير طاعة الله ورسوله من إنسان أو شيطان أو شيء من الأوثان³

9- قال تعالى {فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ} النحل 36 المراد عليها ويقال فلان في الجبل وفي السطح وإن كان على أعلى شيء فيه⁴

¹مجموع الفتاوى ج: 7 ص: 167

²مجموع الفتاوى ج: 28 ص: 201-202

³قاعدة في المحبة ج: 1 ص: 193

⁴مجموع الفتاوى ج: 3 ص: 53

10- قال تعالى { وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكذِّبِينَ } {36} إن تَحْرِصَ عَلَى هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ وَمَا لَهُمْ مِّن نَّاصِرِينَ } {37} النحل 36-37 أن جميع الأفعال مشتقة سواء كانت هي مشتقة من المصدر أو كان المصدر مشتقا منها أو كان كل واحد منهما مشتقا من الآخر بمعنى أن بينهما مناسبة في اللفظ والمعنى لا بمعنى أن أحدهما أصل والآخر فرع بمنزلة المعاني المتضايقة كالأبوة والبنوة أو كالأخوة من الجانبين ونحو ذلك فعلى كل حال إذا أمر بفعل كان نفس مصدر الفعل أمرا مطلوبيا للأمر مقصودا له كما في قوله { اعْبُدُوا اللَّهَ } { النحل 36} وفي قوله { وَاتَّقُوا اللَّهَ } البقرة 189 وفي قوله { وَأَحْسِنُوا } وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ } المائدة 93 وفي قوله { فَأَمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ } التغابن 8 وفي قوله { فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا } يونس 84 فإن نفس التقوى والإحسان والإيمان والعبادة والتوكل أمور مطلوبة مقصودة بل هي نفس الأمور به¹

11- قال تعالى { وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكذِّبِينَ } {36} إن تَحْرِصَ عَلَى هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ وَمَا لَهُمْ مِّن نَّاصِرِينَ } {37} النحل 36-37 عامة الأسماء يتنوع مسماها بالاطلاق والتقييد وكذلك لفظ الهدى إذا أطلق تناول العلم الذي بعث الله به رسوله والعمل به جميعا فيدخل فيه كل ما أمر الله به كما في قوله { اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ } الفاتحة 6 والمراد طلب العلم بالحق والعمل به جميعا وكذلك قوله { هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ } البقرة 2 والمراد به أنهم يعلمون ما فيه ويعملون به ولهذا صاروا مفلحين وكذلك قول أهل الجنة { الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا } الأعراف 43 وإنما هداهم بأن ألهمهم العلم النافع والعمل الصالح ثم قد يقرن الهدى اما بالاجتباء كما في قوله { وَاجْتَنِبْنَا لَهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ } الأنعام 87 وكما في قوله { شَاكِرًا لِأَنْعَمِهِ اجْتِنَابًا وَهَدَاهُ } النحل 121 { اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ } الشورى 13 وكذلك قوله تعالى { هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ } التوبة 33 والهدى هنا هو الايمان ودين الحق هو الاسلام وإذا أطلق الهدى كان كالايمان المطلق يدخل فيه هذا وهذا²

12- قال تعالى { وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ بَلَى وَعَدًّا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَكِنَّا أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ } النحل 38 قال أهل اللغة وهذا لفظ الجوهري اليمين القسم والجمع أيمن وأيمان فقال سمي بذلك لأنهم كانوا إذا تحالفوا يمسك كل إمريء منهم على يمين صاحبه³

¹ اقتضاء الصراط ج: 1 ص: 51

² مجموع الفتاوى ج: 7 ص: 166

³ مجموع الفتاوى ج: 35 ص: 342

قال تعالى {وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَآجِرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ} {41} الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ} {42} النحل 41-42 ومن المعلوم بما أرانا الله من آياته في الأفاق وفي انفسنا وبما شهد به في كتابه أن المعاصي سبب المصائب فسيئات المصائب والجزاء من سيئات الأعمال وان الطاعة سبب النعمة فاحسان العمل سبب لاحسان الله قال تعالى {مَا أَصَابَكُمْ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكُمْ} النساء 79 وقال {وَإِنْ تُصِيبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيَهُمْ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ كَفُورٌ} الشورى 48 وقد أخبر سبحانه بما عاقب به أهل السيئات من الأمم كقوم نوح وعاد وثمود وقوم لوط وأصحاب مدين وقوم فرعون في الدنيا وأخبر بما يعاقبهم به في الآخرة ولهذا قال مؤمن آل فرعون { يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ} {30} مِثْلَ دَابِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعِبَادِ} {31} وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ} {32} يَوْمَ تَوَلَّوْنَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ} {33} غافر 30-33 وقال تعالى {كَذَلِكَ الْعَذَابُ وَالْعَذَابُ الْآخِرَةُ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ} القلم 33 وقال {سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ} التوبة 101 ولهذا يذكر الله في عامة سور الانذار ما عاقب به أهل السيئات في الدنيا وما أعده لهم في الآخرة وقد يذكر في السورة وعد الآخرة فقط اذ عذاب الآخرة أعظم وثوابها أعظم وهي دار القرار وانما يذكر ما يذكره من الثواب والعذاب في الدنيا تبعا كقوله في قصة يوسف {وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُونَ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ} {56} وَلَآجِرُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ} {57} يوسف 56-57 وقال {وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَآجِرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ} {41} الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ} {42} النحل 41-42

الجهاد سنام العمل وجميع الأحوال الشريفة

قال تعالى { وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا} {2} وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا} {3} الاحزاب 2-3 فأمره بإتباع ما أوحى إليه من الكتاب والحكمة التي هي سنته وبأن يتوكل على الله فبالأولى يحقق قوله {إِيَّاكَ نَعْبُدُ} الفاتحة 5 وبالثانية يحقق قوله {وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ} الفاتحة 5 ومثل ذلك قوله { فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ} هود 123 وقوله { عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ} هود 88 وهذا وإن كان مأمورا به في جميع الدين فإنه ذلك في الجهاد وأكد لأنه يحتاج إلى أن يجاهد الكفار والمنافقين وذلك لا يتم إلا بتأييد قوى من الله ولهذا كان الجهاد سنام العمل وانتظم سنام جميع الأحوال الشريفة ففيه سنام المحبة كما في قوله { فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ} المائدة 54 وفيه سنام التوكل وسنام الصبر فإن المجاهد أحوج الناس إلى الصبر والتوكل ولهذا قال تعالى {وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَآجِرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ} {41} الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ} {42} النحل 41-42 { قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ

¹مجموع الفتاوى ج: 28 ص: 140 و الاستقامة ج: 2 ص: 237

الأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ {الأعراف128} ولهذا كان الصبر واليقين اللذين هما أصل التوكل يوجبان الإمامة في الدين كما دل عليه قوله تعالى {وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أُمَّةً يَهْتَدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ} {السجدة24} ولهذا كان الجهاد موجبا للهداية التي هي محيطة بأبواب العلم كما دل عليه قوله تعالى {وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا} {العنكبوت69} فجعل لمن جاهد فيه هداية جميع سبله تعالى ولهذا قال الإمامان عبد الله بن المبارك وأحمد بن حنبل وغيرهما إذا اختلف الناس في شيء فإنظروا ماذا عليه أهل الثغر فإن الحق معهم لأن الله يقول {وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا} {العنكبوت69} وفي الجهاد أيضا حقيقة الزهد في الحياة الدنيا وفي الدار الدنيا وفيه أيضا حقيقة الإخلاص فإن الكلام فيمن جاهد في سبيل الله لا في سبيل الرياسة ولا في سبيل المال ولا في سبيل الحمية وهذا لا يكون إلا لمن قاتل ليكون الدين كله لله ولتكون كلمة الله هي العليا وأعظم مراتب الإخلاص تسليم النفس والمال للمعبود كما قال تعالى {إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ} {التوبة111} و الجنة اسم للدار التي حوت كل نعيم أعلاه النظر إلى الله إلى ما دون ذلك مما تستهيه الأنفس وتلذ الأعين مما قد نعرفه وقد لا نعرفه كما قال الله تعالى فيما رواه عنه رسوله أعددت لعبادى الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر¹

المهاجر من هجر ما نهى الله عنه

قال تعالى {وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَا جَزَاءَ الْآخِرَةِ أَكْبَرَ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ} {41} الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ} {42} {النحل41-42} الناس مأمورون عند المصائب التي تصيبهم بأفعال الناس أو بغير أفعالهم بالتسليم للقدر وشهود الربوبية كما قال تعالى {مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ} {التغابن11} قال ابن مسعود أو غيره هو الرجل تصيبه المصيبة فيعلم أنها من عند الله فيرضى ويسلم وفي الحديث الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم إحرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجزن وإن أصابك شيء فلا تقل لو أني فعلت لكان كذا وكذا ولكن قل قدر الله وما شاء فعل فإن لو تفتح عمل الشيطان فأمره بالحرص على ما ينفعه وهو طاعة الله ورسوله فليس للعباد أنفع من طاعة الله ورسوله وأمره إذا أصابته مصيبة مقدره أن لا ينظر إلى القدر ولا يتحسر بتقدير لا يفيد ويقول قدر الله وما شاء فعل ولا يقول لو أني فعلت لكان كذا فيقدر ما لم يقع يتمنى أن لو كان وقع فإن ذلك إنما يورث حسر و حزنا لا يفيد والتسليم للقدر هو الذي ينفعه كما قال بعضهم الأمر أمران أمر فيه حيلة فلا تعجز عنه وأمر لا حيلة فيه فلا تجزع منه وما زال أئمة الهدى من الشيوخ وغيرهم يوصون الإنسان بأن يفعل الأمور ويترك المحظور ويصبر على المقدور وإن كانت تلك المصيبة بسبب فعل آدمي وبهذا جاء الكتاب والسنة قال الله تعالى {مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ} {التغابن11} وقال تعالى {مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي

¹مجموع الفتاوى ج: 28 ص: 441-443

الأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ {الحديد22} و سواء في ذلك المصائب السمائية و المصائب التي تحصل بأفعال الآدميين قال تعالى {وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا} {المزملة10} {وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأَوْدُوا حَتَّىٰ أَنَاهُمْ نَصْرُنَا} {الأنعام34} و قال في سورة الطور بعد قوله { فَذَكَرْ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ } {29} أم يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمُنُونِ {30} قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُمْ مِّنَ الْمُتَرَبِّصِينَ {31} الطور29-31 إلى قوله { أم يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ } {33} الطور33 إلى قوله { أم تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِّن مَّغْرَمٍ مُّتَقَلِّوْنَ } {40} أم عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُمُونَ {41} الطور40-41 إلى قوله { وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا } {48} الطور48

و قال تعالى في سورة ن { أم تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِّن مَّغْرَمٍ مُّتَقَلِّوْنَ } {46} أم عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُمُونَ {47} فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ {48} {القلم46-48} و قال تعالى { وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَآجِرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ } {41} {الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ} {42} {النحل41-42} فهو لاء ظلموا فصبروا على ظلم الظالم لهم و سبب نزولها المهاجرون الى رسول الله صلى الله عليه و سلم و هي عامة في كل من إتصف بهذه الصفة وأصل المهاجر من هجر ما نهى الله عنه كما ثبت ذلك عن النبي صلى الله عليه و سلم فكل من هجر السوء فظلمه الناس على ترك الكفر و الفسوق و العصيان حتى أخرجوه لا هجر بعض أمور في الدنيا فصبر على ظلمهم فإن الله يبيئه في الدنيا حسنة و لأجر الآخرة أكبر كيوسف الصديق فإنه هجر الفاحشة حتى ألجأه ذلك منزله و اللبث في السجن بعد ما ظلم فمكثه الله حتى تباوأ من الأرض حيث يشاء و قال الذين لقوا الكفار { رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا } {البقرة250} و قال { إِنْ يَكُن مِّنْكُمْ عَشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِئَتِينَ وَإِنْ يَكُن مِّنْكُمْ مِئَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ } {65} {الآن خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِنْ يَكُن مِّنْكُمْ مِئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِئَتِينَ وَإِنْ يَكُن مِّنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفِينَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ} {66} {الأنفال65-66} و قال { كَمْ مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ } {البقرة249} فهذا كله صبر على ما قدر من أفعال الخلق و الله سبحانه مدح في كتابه الصبار الشكور قال تعالى { إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ } {إبراهيم5} في غير موضع فالصبر و الشكر على ما يقدره الرب على عبده من السراء و الضراء من النعم و المصائب من الحسنات التي يبيلوه بها و السيئات فعليه أن يتلقى المصائب بالصبر و النعم بالشكر و من النعم ما يبسر له من أفعال الخير و منها ما هي خارجة عن أفعاله فيشهد القدر عند فعله للطاعات و عند إنعام الله عليه فيشكره¹

لا بد من التقوى بفعل المأمور والصبر على المقذور

(ناقص ن م) ففي هذا توكل على الله وإستعانة به أن يثبت القلب على الإيمان والطاعة وفيه صبر على المحنة والبلاء والأذى الحاصل إذا ثبت على الإيمان والطاعة وهذا كقوله موسى عليه السلام لقومه { اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ

¹مجموع الفتاوى ج: 8 ص: 319-324

{الأعراف128 لما قال فرعون {سَفَقَلْ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسَحِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ {127} قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ {128} الأعراف127-128 وكذلك قوله {وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَآجِرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ {41} الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ {42} النحل41-42 ومنه قول يوسف عليه السلام {فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ {يوسف90 وهو نظير قوله {بَلَى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِّن فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ {آل عمران125 وقوله {وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ {آل عمران186 فلا بد من التقوى بفعل الأمر والصبر على المقدور¹

اثبات جنس الرسالة

قال تعالى { وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ {43} بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ {44} النحل43-44 والاقيسة التي يستعملها الفلاسفة في علومهم ويجعلونها كلية كلها يعتضدون فيها بالأمثلة وليس مع القوم إلا ما علموه من صفات الأمور المشاهدة ثم قاسوا الغائب على المشاهد به بالجامع المشترك الذي يجعلونه كلياً فان لم يكن هذا صحيحاً لم يكن مع أحد من أهل الأرض علم كلي يشترك فيه ما شهده وما غاب عنه حتى قوله الخبز يشبع والماء يروي ونحو ذلك فانه لم يعلم بحسه إلا أموراً معينة فمن أين له أن الغائب بمنزلة الشاهد إلا بهذه الطريق والانسان قد ينكر امراً حتى يرى واحداً من جنسه فيقر بالنوع ويستفيد بذلك حكماً كلياً ولهذا يقول سبحانه كذبت قوم نوع المرسلين {كَذَّبَتْ عَادُ الْمُرْسَلِينَ {الشعراء123} كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ {الشعراء141} كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ {الشعراء160} ونحو ذلك وكل من هؤلاء إنما جاءه رسول واحد لكن كانوا مكذبين بجنس الرسل لم يكن تكذيبهم بالواحد لخصوصه وهذا بخلاف تكذيب اليهود والنصارى لمحمد صلى الله عليه وسلم فانهم لم يكذبوا جنس الرسل إنما كذبوا واحداً بعينه بخلاف مشركي العرب الذين لم يعرفوا الرسل فان الله يحتج عليهم في القرآن بآيات جنس الرسالة ولهذا يجيب سبحانه عن شبه منكري جنس الرسالة كقولهم { أبعث الله رسلاً رسولاً {الإسراء94} فيقول { وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ {النحل43} أي هذا متواتر عند أهل الكتاب فاسئلوهم عن الرسل الذين جاءتهم أكانوا بشراً أم لا وكذلك قوله { وَقَالُوا لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكًا لَقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ {8} وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبَسُونَ {9} الانعام8-9 فانهم لا يستطيعون الاخذ عن الملك في صورته فلو أرسلنا اليهم ملكاً لجعلناه رجلاً في صورة الانسان وحينئذ كان يلتبس عليهم الامر ويقولون هو رجل والرجل لا يكون رسولاً وكذلك الرسل قبله قال تعالى { أَوْعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ {الأعراف63} وقال تعالى { أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ {يونس2} وكما قال تعالى { قُلْ مَا كُنْتُ بِدَعَاءِ مَنْ الرُّسُلِ {الأحقاف9} ونحو ذلك

¹مجموع الفتاوى ج: 15 ص: 130-131

فكان علمهم بثبوت معين من هذا النوع يوجب العلم بقضية مطلقة وهو ان هذا النوع موجود بخلاف ما إذا اثبت ذلك ابتداء بلا وجود نظير فانه يكون اصعب وإن كان ممكنا فان نوحا اول رسول بعثه الله الى اهل الارض ولم يكن قبله رسول بعث الى الكفار المشركين يدعوهم الى الانتقال عن الشرك الى التوحيد و آدم والذين كانوا بعده كان الناس في زمههم مسلمين كما قال ابن عباس كان بين آدم ونوح عشر قرون كلهم على الاسلام لكن لما بعث الله نوحا وانجي من آمن به وأهلك من كذبه صار هذا المعين يثبت هذا النوع أقوى مما كان يثبت ابتداء¹

الاستشهاد بأهل الكتاب

قال تعالى { وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ } {43} بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ } {44} النحل 43-44 أمر الله رسوله بسؤال أهل الكتاب عما تواتر عندهم كقوله { وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ } { النحل 43 } فان من الكفار من أنكر أن يكون لله رسول بشر فأخبر الله ان الذين أرسلهم قبل محمد كانوا بشرا وامر بسؤال أهل الكتاب عن ذلك لمن لا يعلم وكذلك سؤلهم عن التوحيد وغيره مما جاءت به الأنبياء وكفر به الكافرون قال تعالى { وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ } {الرعد 43} وقال تعالى { فَإِنْ كُنْتَ فِي شكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَأُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ } {يونس 94} وقال تعالى { قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَكُفْرْتُمْ بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِ فَأَمَّا وَاللَّهُ لَمَّا كَفَرَتُمْ } {الأحقاف 10} وكذلك شهادة أهل الكتاب بتصديق ما أخبر به من أنباء الغيب التي لا يعلمها إلا نبي أو من أخبره نبي وقد علموا أن محمدا لم يتعلم من أهل الكتاب شيئا وهذا غير شهادة أهل الكتاب له نفسه بما يجدونه من نعته في كتبهم كقوله تعالى { أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةٌ أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ } { الشعراء 197} وقوله تعالى { وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِّنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُفْتَرِينَ } { الأنعام 114 } وأمثال ذلك²

و أما أهل الكتاب فإذا شهدوا بما تواتر عندهم عن الأنبياء وبما علم صدقه كانت تلك شهادة نافعة كما لو كان الأنبياء موجودين وشهدوا له لان ما ثبت نقله عنهم بالتواتر وغيره كان بمنزلة شهادتهم أنفسهم ولهذا نحن نشهد على الأمم بما علمناه من جهة نبينا كما قال تعالى { وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا } {البقرة 143} فان الله سبحانه وتعالى قد ذكر الاستشهاد بأهل الكتاب في غير آية كقوله تعالى { قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَكُفْرْتُمْ بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِ } {الأحقاف 10} وقال تعالى { فَإِنْ كُنْتَ فِي شكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَأُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ } {يونس 94} وقال { وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ } { النحل 43 }³

¹ الرد على المنطقيين ج: 1 ص: 369-384

² مجموع الفتاوى ج: 19 ص: 11

³ منهاج السنة النبوية ج: 7 ص: 254

المقصود بيان أن أهل الكتاب عندهم ما يصدقك فيما كذبتك فيه الكافرون¹

فأخبر أنه لم يرسل إلا رجالا يوحى إليهم لم يرسل إليهم ملائكة ولا نساء وأنه أرسلهم بالبينات والذبر والذبر جمع زبور وهي الكتب فإن منهم من أنزل عليه كتاب ومنهم من أرسل بتجديد الكتاب الذي قبله ثم أخبر أن الذين من قبلهم جاءتهم رسلم بالبينات وبالذبر والكتاب المنير وهذا من عطف الخاص على العام لاختصاصه بوصف يختص به كقوله { وَمَلَأْنَاهُ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ } البقرة 98 فإن الذبر من البينات والكتاب المنير من الذبر وهو كقوله { وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ } الحج 8 فإن الهدى من العلم والكتاب المنير من الهدى²

{ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ }

قال تعالى { وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ } {43} بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ } {44} النحل 43-44 يبين أنه لم يرسل ملائكة بل رجالا من أهل القرى ليبين أن هذا معتاد معروف ليس هو أمرا لم تجر به عادة الرب كقوله تعالى { وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ } النحل 43 وكانت العرب لا عهد لها بالنبوة من زمن إسماعيل فقال الله لهم { وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ } النحل 43 فاسألوا أهل الذِّكْرِ يعني أهل الكتاب إن كنتم لا تعلمون هل أرسل إليهم رجالا أو ملائكة ولهذا قال له { قُلْ مَا كُنْتُ بِدَعَا مَنْ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ إِنْ أَتَيْتُمْ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ } الأحقاف 9 وقال { وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ } آل عمران 144 بين أن هذا الجنس من الناس معروف قد تقدم له نظراء وأمثال وهو سبحانه أمر أن يسأل أهل الكتاب وأهل الذكر عما عندهم من العلم في أمور الأنبياء هل هو من جنس ما جاء به محمد أو هو مخالف له ليتبين بإخبار أهل الكتاب المتواترة جنس ما جاءت به الأنبياء وحينئذ فيعرف قطعا أن محمدا نبي بل هو أحق بالنبوة من غيره والثاني أن يسألوهم عن خصوص محمد وذكره عندهم وهذا يعرفه الخاصة منهم ليس هو معروفا كالأول يعرفه كل كتابي³

ليس في النساء نبية

¹الجواب الصحيح ج: 2 ص: 359

²الجواب الصحيح ج: 6 ص: 384-382

³النبوات ج: 1 ص: 16-17 و العقيدة الأصفهانية ج: 1 ص: 194

ليس في النساء نبية كما تقوله عامة المسلمين وقد ذكر إجماعهم على ذلك غير واحد مثل القاضيين أبي بكر بن الطيب أبي يعلى ابن أبي الفراء والأستاذ أبي المعالي الجويني وغيرهم والقرآن والسنة دلا على ذلك كما في قوله **{ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ } النحل 43** وقوله **{ مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ }** المائدة 75 ذكر ان غاية ما انتهت اليه أمه الصديقية وخلاف ابن حزم شاذ مسبوق بالإجماع فإن دعواه أن أم موسى كانت نبية هي ومريم قول لا يعرف عن أحد من السلف والأئمة وقد ثبت في الصحيح عدد من كمل من النساء وليس فيهن أم موسى بل قال صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح كمل من الرجال كثير ولم يكمل من النساء إلا مريم بنت عمران وآسية بنت مزاحم يعني ممن قبلنا فذكرتا والتي حضنت موسى وفيمن كمل ممن ليس بنبي خديجة وآسية امرأة فرعون وغيرهما والأنبياء أفضل من غيرهم فلو كانت نبية لكان غير النبي أفضل منه أو غير الكامل أفضل من الكامل¹

القرآن جاء بالبينات والهدى بالآيات البينات وهي الدلائل اليقينية

فان آيات الله هي دلالته و براهينه التي بها يعرف العباد خبره و شهادته كما عرفهم بها أمره و نهييه و هو عليهم حكيم ف خبره يتضمن أمره و نهييه و فعله يبين حكمته فالأنبياء إذا أخبروا عنه بكلامه عرف بذلك شهادته وآياته القولية و لابد أن يعرف صدق الأنبياء فيما أخبروا عنه و ذلك قد عرفه بآياته التي أيد بها الأنبياء و دل بها على صدقهم فإنه لم يبعث نبيا إلا بأية تبين صدقه إذ تصديقه بما لا يدل على صدقه غير جائز كما قال **{ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ } الحديد 25** أي بالآيات البينات و قال **{ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ } النحل 43 - 44** و قال **{ قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّن قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالذِّكْرِ فُلْتُمْ } آل عمران 183** و قال **{ فَقَدْ كُذِّبَ رَسُولٌ مِّن قَبْلِكَ جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالذِّكْرِ وَبِالْبَيِّنَاتِ وَبِالذِّكْرِ } آل عمران 184** وفي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال ما من نبي من الأنبياء إلا وقد أوتى من الآيات ما آمن على مثله البشر و إنما كان الذي أوتيته و حيا أوحاه الله إلي فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة فالآيات و البراهين التي أرسل بها الرسل دالات الله على صدقهم دل بها العباد و هي شهادة الله بصدقهم فيما بلغوا عنه و الذي بلغوه فيه شهادته لنفسه فيما أخبر به و لهذا قال بعض النظار أن المعجزة تصديق الرسول و هي تجري مجرى المرسل صدقت فهي تصديق بالفعل تجري مجرى التصديق بالقول إذ كان الناس لا يسمعون كلام الله المرسل منه وتصديقه إخبار بصدقته و شهادة له بالصدق و شهادة له بأنه أرسله و شهادة له بأن كلما يبلغه عنه كلامه و هو

¹الجواب الصحيح ج: 2 ص: 349

سبحانه إسمه المؤمن وهو في أحد التفسيرين المصدق الذي يصدق أنبياءه فيما أخبروا عنه بالدلائل التي دل بها على صدقه¹

ان هؤلاء الغالطين الذين أعرضوا عما في القرآن من الدلائل العقلية والبراهين اليقينية لا يذكرون النظر والدليل والعلم الذي جاء به الرسول والقرآن مملوء من ذلك والقرآن جاء بالبينات والهدى بالآيات البينات وهي الدلائل اليقينية وقد قال الله تعالى لرسوله { ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ } النحل 125²

الأمر بسؤال العلم

وأما سؤال المخلوق المخلوق أن يقضى حاجة نفسه أو يدعو له فلم يؤمر به بخلاف سؤال العلم فإن الله أمر بسؤال العلم كما في قوله تعالى { فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ } النحل 43 وهذا لأن العلم يجب بذله فمن سئل عن علم يعلمه فكتمه ألجمه الله بلجام من نار يوم القيامة وهو يزكو على التعليم لا ينقص بالتعليم كما تنقص الأموال بالبذل ولهذا يشبهه بالمصباح وكذلك من له عند غيره حق من عين أو دين كالأمانات مثل الوديعة والمضاربة لصاحبها أن يسألها ممن هي عنده وكذلك مال الفىء وغيره من الأموال المشتركة التي يتولى قسمتها ولى الأمر للرجل أن يطلب حقه منه كما يطلب حقه من الوقف والميراث والوصية لأن المستولى يجب عليه أداء الحق الى مستحقه ومن هذا الباب سؤال النفقة لمن تجب عليه وسؤال المسافرين الضيافة لمن تجب عليه كما استطعم موسى والخضر أهل القرية وكذلك الغريم له أن يطلب دينه ممن هو عليه وكل واحد من المتعاقدين له أن يسأل الآخر أداء حقه اليه فالبائع يسأل الثمن والمشتري يسأل المبيع ومن هذا الباب قوله تعالى { وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا } النساء 1 ومن السؤال ما لا يكون مأمورا به³

السلطان الذى أيد الله به رسوله من أنواع الحجج المعجزات أعظم مما أيد به غيره

أن السلطان الذى أيد الله به رسوله من أنواع الحجج المعجزات وأنواع القدر الباهرات أعظم مما أيد به غيره ونبوته هي التي طبق نورها مشارق الأرض ومغاربها وبه ثبتت نبوات من تقدمه وتبين الحق من الباطل والافلولا رسالته لكان الناس فى ظلمات بعضها فوق بعض وأمر مريج يؤفك عنه من أفك الكتابيون منهم والأميون ولهذا لما كان ما يقال له إلا ما قد قيل للرسول من قبله أمره الله

¹مجموع الفتاوى ج: 14 ص: 190

²مجموع الفتاوى ج: 19 ص: 162

³مجموع الفتاوى ج: 1 ص: 185

سبحانه باستشهاد أهل الكتاب على مثل ما جاء به وهذا من بعض حكمة إقرارهم بالجزية كقوله تعالى { فَإِنْ كُنْتَ فِي شكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يُقْرَأُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ } يونس 94 وقوله { وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رَجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ } {43} بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ } {44} النحل 43-44¹

القرآن مما اختص به من الذكر

قال تعالى { وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رَجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ } {43} بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ } {44} النحل 43-44 وقال تعالى لما أهبط آدم من الجنة { فَأَمَّا يَا تِئْتِكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى } {123} وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى } {124} قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا } {125} قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيَتْهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنسى } {126} طه 123-126 فقد أخبر أن من اتبع الهدى الذي أتانا منه وهو ما جاءت به الرسل فلا يضل ولا يشقى ومن أعرض عن ذكره وهو الذكر الذي أنزله وهو كتبه التي بعث بها رسله بدليل أنه قال بعد ذلك { كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيَتْهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنسى } طه 126 والذكر مصدر يضاف تارة إلى الفاعل وتارة إلى المفعول كما يقال دق الثوب ودق القصار ويقال أكل زيد وأكل الطعام ويقال ذكر الله أي ذكر العبد ويقال ذكر الله أي ذكر الله الذي ذكره هو مثل ذكره عبده ومثل القرآن الذي هو ذكره وقد يضاف الذكر إضافة الأسماء المحضة فقوله ذكرى إن أضيف إضافة المصادر كان المعنى الذكر الذي ذكرته وهو كلامه الذي أنزله وإن أضيف إضافة الأسماء المحضة فذكره هو ما اختص به من الذكر والقرآن مما اختص به من الذكر قال تعالى { وَهَذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ } الأنبياء 50 وقال { مَا يَأْتِيهِمْ مِّنْ ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِمْ مُّحَدَّثٍ } الأنبياء 2 وقال { إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ } يس 69 وقال { بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ } النحل 44²

النبى صلى الله عليه وسلم بين لأصحابه معانى القرآن كما بين لهم ألفاظه

قال تعالى { وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رَجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ } {43} بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ } {44} النحل 43-44 فالرسول صلى الله عليه وسلم هو الصادق المصدوق المبين للناس ما نزل اليهم المبلغ لرسالة ربه المخاطب لهم بلسان عربى مبين قال تعالى { وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ لِتُبَيِّنَ لَهُمُ }

¹مجموع الفتاوى ج: 12 ص: 17

²منهاج السنة النبوية ج: 2 ص: 155-157

{ إبراهيم 4 وقال تعالى { إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ } الزخرف 3 وقال تعالى { وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ } القمر 17 ¹

يجب أن يعلم أن النبي بين لأصحابه معاني القرآن كما بين لهم ألفاظه فقوله تعالى { لِنُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ } النحل 44 يتناول هذا وهذا وقد قال أبو عبد الرحمن السلمي حدثنا الذين كانوا يقرئونا القرآن كعثمان بن عفان وعبدالله بن مسعود وغيرهما أنهم كانوا إذا تعلموا من النبي صلى الله عليه وسلم عشر آيات لم يجاوزوها حتى يتعلموا ما فيها من العلم والعمل قالوا فتعلمنا القرآن والعلم والعمل جميعا ولهذا كانوا يبقون مدة في حفظ السورة وقال أنس كان الرجل إذا قرأ البقرة وآل عمران جل في أعيننا وأقام ابن عمر على حفظ البقرة عدة سنين قيل ثمان سنين ذكره مالك وذلك أن الله تعالى قال { كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ } ص 29 ²

فالدين الذي اجتمع عليه المسلمون اجتماعا ظاهرا معلوما هو منقول عن نبيهم نقلا متواترا نقلوا القرآن ونقلوا سنته وسنته مفسرة للقرآن مبينة له كما قال تعالى له { بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِنُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ } النحل 44 فبين ما أنزل الله لفظه ومعناه فصار معاني القرآن التي اتفق عليها المسلمون اتفاقا ظاهرا مما توارثته الأمة عن نبيها كما توارثت عنه ألفاظ القرآن فلم يكن والله الحمد فيما اتفقت عليه الأمة شيء محرف مبدل من المعاني فكيف بألفاظ تلك المعاني فإن نقلها والاتفاق عليها أظهر منه في الألفاظ فكان الدين الظاهر للمسلمين الذي اتفقوا عليه مما نقلوه عن نبيهم لفظه ومعناه فلم يكن فيه تحريف ولا تبديل لا للفظ ولا للمعنى بخلاف التوراة والإنجيل فإن من ألفاظها ما بدل معانيه وأحكامه اليهود والنصارى أو مجموعهما تبديلا ظاهرا مشهورا في عامتهم ³

كل ما حكم به رسول الله صلى الله عليه وسلم فهو مما فهمه من القرآن

قال الامام أبو عبدالله محمد بن ادريس الشافعي كل ما حكم به رسول الله صلى الله عليه وسلم فهو مما فهمه من القرآن قال الله تعالى { إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنَ لِلْخَائِنِينَ خَصِيمًا } النساء 105 وقال تعالى { وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِنُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ } النحل 44 وقال تعالى { وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِنُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ } النحل 64 ولهذا قال رسول الله الا انى أوتيت القرآن ومثله معه

¹مجموع الفتاوى ج: 13 ص: 264

²مجموع الفتاوى ج: 13 ص: 331

³الجواب الصحيح ج: 3 ص: 17

يعنى السنة والسنة أيضا تنزل عليه بالوحي كما ينزل القرآن لا أنها تتلى كما يتلى وقد استدل الامام الشافعي وغيره من الأئمة على ذلك بأدلة كثيرة ليس هذا موضع ذلك¹

يجب على الخلق الاقرار بما جاء به النبي

قال تعالى { وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رَجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ } {43} بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ } {44} النحل 43-44

يجب على الخلق الاقرار بما جاء به النبي فما جاء به القرآن العزيز أو السنة المعلومة وجب على الخلق الاقرار به جملة وتفصيلا عند العلم بالتفصيل فلا يكون الرجل مؤمنا حتى يقر بما جاء به النبي وهو تحقيق شهادة أن لا اله الا الله وأن محمدا رسول الله فمن شهد أنه رسول الله شهد أنه صادق فيما يخبر به عن الله تعالى فان هذا حقيقة الشهادة بالرسالة اذ الكاذب ليس برسول فيما يكذبه وقد قال الله تعالى { وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ } {44} لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ } {45} ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ } {46} الحاقة 44-46 و بالجملة فهذا معلوم بالاضطرار من دين الاسلام لا يحتاج الى تقريره هنا وهو الاقرار بما جاء به النبي وهو ما جاء به من القرآن والسنة كما قال الله تعالى { كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ } البقرة 151 وقال تعالى { وَادْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُمْ بِهِ } البقرة 231 ومما جاء به الرسول أمر الله له بالبلاغ المبين كما قال تعالى { فَاعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ } المائدة 92 وقال تعالى { وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ } النحل 44 وقال تعالى { يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ } المائدة 67 ومعلوم أنه قد بلغ الرسالة كما أمر ولم يكتف منها شيئا فان كتمان ما أنزله الله اليه يناقض موجب الرسالة كما أن الكذب يناقض موجب الرسالة ومن المعلوم من دين المسلمين أنه معصوم من الكتمان لشيء من الرسالة كما أنه معصوم من الكذب فيها والامة تشهد له بأنه بلغ الرسالة كما أمره الله وبين ما أنزل اليه من ربه وقد أخبر الله بأنه قد أكمل الدين وانما كمل بما بلغه اذ الدين لم يعرف الا بتبليغه فعلم أنه بلغ جميع الدين الذي شرعه الله لعباده كما قال صلى الله عليه وسلم تركتكم على البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها بعدى الا هالك وقال ما تركت من شيء يقر بكم الى الجنة الا وقد حدثتكم به وما من شيء يبعدكم عن النار الا وقد حدثتكم به وقال أبو ذر لقد توفى رسول الله وما طائر يقلب جناحيه في السماء الا ذكر لنا منه علما²

الله علم الانسان البيان

¹مجموع الفتاوى ج: 13 ص: 363

²مجموع الفتاوى ج: 5 ص: 156

قال تعالى { وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رَجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ } {43} **بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ } {44} {النحل 43-44} ان** الله علم الانسان البيان كما قال تعالى { الرَّحْمَنُ } {1} { عِلْمَ الْفُرْآنِ } {2} { خَلَقَ الْإِنْسَانَ } {3} { عِلْمَهُ الْبَيِّنَاتِ } {4} { الرَّحْمَنِ } 1-4 وقال تعالى { وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا } {البقرة 31} وقال { عِلْمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ } {العلق 5} والبيان بيان القلب واللسان كما أن العمى والبكم يكون في القلب واللسان كما قال تعالى { صُمُّكُمْ عُمِّي فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ } {البقرة 18} وقال { صُمُّكُمْ عُمِّي فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ } {البقرة 171} وقال النبي هلا سألوا إذا لم يعلموا إنما شفاء العي السؤال وفي الاثر العي عي القلب لا عي اللسان أو قال شر العي عي القلب وكان مسعود يقول إنكم في زمان كثير فقهاؤه قليل خطابؤه وسيأتي عليكم زمان قليل فقهاؤه كثير خطابؤه وتبين الأشياء للقلب ضد اشتباهم عليه كما قال الحلال بين والحرام بين وبينهما أمور مشتبهات الحديث وقد قرىء قوله { وَكَذَلِكَ نَفَصَّلُ الْآيَاتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ } {الأنعام 55} بالرفع والنصب أي ولتتبين أنت سبيلهم فالانسان يستبين الأشياء وهم يقولون قد بان الشيء وبينته وتبين الشيء وتبينته واستبان الشيء واستبينته كل هذا يستعمل لازماً ومتعدياً ومنه قوله تعالى { إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا } {الحجرات 6} هو هنا معتد ومنه قوله { بِفَاحِشَةٍ مُبَيَّنَةٍ } {النساء 19} أي متبينة فهنا هو لازم والبيان كالكلام يكون مصدر بان الشيء بيانا ويكون اسم مصدر لبين كالكلام والسلام لسلم وبين فيكون البيان بمعنى تبين الشيء ويكون بمعنى بينت الشيء أي اوضحته وهذا هو الغالب عليه ومنه قوله ان من البيان لسحرا والمقصود ببيان الكلام حصول البيان لقلب المستمع حتى يتبين له الشيء ويستبين كما قال تعالى { هَذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ } آل عمران 138 الآية ومع هذا فالذي لا يستبين له كما قال تعالى { قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءً وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَٰئِكَ يُنَادُونَ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ } {فصلت 44} وقال { وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ } {النحل 44} وقال { وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ لِتُبَيِّنَ لَهُمْ } {إبراهيم 4} وقال { وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينِ } {النور 54} وقال { وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ } {التوبة 115} وقال { يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ } {النساء 176} وقال { قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي } {الأنعام 57} الآية وقال { أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ } {هود 17} وقال { وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ } {البقرة 99} وقال { يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ } {النور 61} فأما الأشياء المعلومة التي ليس في زيادة وصفها إلا كثرة كلام وتفهيق وتشدق وتكبر والافصاح بذكر الأشياء التي يستقبح ذكرها فهذا مما ينهى عنه كما جاء في الحديث أن الله يبغض البليغ من الرجال الذي يتخلل بلسانه كما تتخلل البقرة بلسانها وفي الحديث الحياء والعي شعبتان من الايمان والبذاء والبيان شعبتان من النفاق ولهذا قال إن طول صلاة الرجل وقصر خطبته منة من فقهه وفي حديث سعد لما سمع ابنه أو لما وجد ابنه يدعو وهو يقول اللهم أني اسألك الجنة ونعيمها وبهجتها وكذا وأعوذ بك من النار وسلاسلها واغلالها وكذا وكذا قال يا بني إني سمعت رسول الله يقول سيكون قوم يعتدون في الدعاء فاياك ان تكون منهم إنك إن أعطيت الجنة اعطيتها وما فيها من الخير وان اعذت من النار اعذت منها وما فيها من الشر¹

الرد على من قال ان هناك معاني باطنة لا يعلمها عامة الناس

قال تعالى { وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رَجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ } {43} **بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ** {44} **النحل 43-44** أن الرسول صلى الله عليه وسلم إذا تكلم بكلام وأراد به خلاف ظاهره وضد حقيقته فلا بد أن يبين للأمة أنه لم يرد حقيقته وأنه أراد مجازه سواء عينه أو لم يعينه لا سيما في الخطاب العلمي الذي أريد منهم فيه الاعتقاد والعلم دون عمل الجوارح فإنه سبحانه وتعالى جعل القرآن نورا وهدى وبيانا للناس وشفاء لما في الصدور وأرسل الرسل ليبين للناس على الله حجة بعد الرسل ثم هذا الرسول الأُمى العربي بعث بأفصح اللغات وأبين الالسنه والعبارات ثم الامة الذين أخذوا عنه كانوا أعمق الناس علما وأنصحهم للأمة وأبينهم للسنة فلا يجوز أن يتكلم هو وهؤلاء بكلام يريدون به خلاف ظاهره الا وقد نصب دليلا يمنع من حمله على ظاهره اما أن يكون عقليا ظاهرا مثل قوله وأوتيت من كل شيء فان كل أحد يعلم بعقله أن المراد اوتيت من جنس ما يؤتاه مثلها وكذلك { خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ } {الأنعام 102} يعلم المستمع ان الخالق لا يدخل في هذا العموم أو سمعيا ظاهرا مثل الدلالات في الكتاب والسنة التي تصرف بعض الظواهر ولا يجوز أن يحيلهم على دليل خفي لا يستنبطه الا افراد الناس سواء كان سمعيا أو عقليا لأنه اذا تكلم بالكلام الذي يفهم منه معنى واعاده مرات كثيرة وخاطب به الخلق كلهم وفيهم الذكي والبليد والفقير وغير الفقيه وقد أوجب عليهم أن يتدبروا ذلك الخطاب ويعقلوه ويتفكروا فيه ويعتقدوا موجهه ثم أوجب أن لا يعتقدوا بهذا الخطاب شيئا من ظاهره لأن هناك دليلا خفيا يستنبطه أفراد الناس يدل على أنه لم يرد ظاهره كان هذا تدليسا وتليبسا وكان نقيض البيان وضد الهدى وهو يالألغاز والاحاجي أشبه منه بالهدى والبيان فكيف اذا كانت دلالة ذلك الخطاب على ظاهره اقوى بدرجات كثيرة من دلالة ذلك الدليل الخفي على أن الظاهر غير مراد أم كيف اذا كان ذلك الخفي شبهة ليس لها حقيقة

{ أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ } {45} أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقْلِبِهِمْ فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ } {46} أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَؤُوفٌ رَحِيمٌ } {47} النحل 45—47¹

الله ليس مماثلا لخلقه

أن الله سمى نفسه وصفاته بأسماء وسمى بعض عبادته وصفاته عبادته بأسماء هي في حقهم نظير تلك الأسماء في حقه سبحانه وتعالى فسمى نفسه رؤوفا رحيفا بقوله **{ أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَؤُوفٌ رَحِيمٌ } النحل 47** وسمى بعض عبادته رؤوفا رحيفا بقوله **{ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ**

¹مجموع الفتاوى ج: 6 ص: 361-362

أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ { التوبة 128 وليس الرؤوف كالرؤوف ولا الرحيم كالرحيم وليس هو في ذلك مماثلاً لخلقه¹

السجود اسم جنس وهو كمال الخضوع لله

قال تعالى { أَوْ لَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ } {48} وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ } {49} يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِّنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ } {50} النحل 48-50 والسجود هو الخضوع قال تعالى { وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا } الأعراف 161 قال أهل اللغة السجود في اللغة هو الخضوع وقال غير واحد من المفسرين أمروا أن يدخلوا ركعا منحنين فإن الدخول مع وضع الجبهة على الأرض لا يمكن وقد قال تعالى { أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ } الحج 18 وقال تعالى { وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا } الرعد 15 ومعلوم أن سجود كل شيء بحسبه ليس سجود هذه المخلوقات وضع جباهها على الأرض وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم في حديث أبي ذر لما غربت الشمس إنها تذهب فتسجد تحت العرش رواه البخاري ومسلم فعلم أن السجود اسم جنس وهو كمال الخضوع لله²

وهو سبحانه قد ذكر سجود الظل في غير موضع كقوله قال تعالى { أَوْ لَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ } {48} وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ } {49} يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِّنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ } {50} النحل 48-50 ومعلوم أن الظل إذا سجد لم يسجد على سبعة أعضاء يضع رأسه ويديه ثم يرفع رأسه ويديه بل سجوده ذله وخضوعه³

قال ابن عطية في قوله قال تعالى { يَتَفَيَّأُ ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِلَّهِ } النحل 48 وقالت فرقة منهم الطبري عبر عن الخضوع والطاعة وميلان الظلال ودورانها بالسجود كما يقال للمشير برأسه نحو الأرض على وجه الخضوع ساجد ومنه قول الشاعر

وكلتاها خرت وأسجد رأسها كما سجدت نصرانة لم تحنف⁴

¹الجواب الصحيح ج: 4 ص: 423

²الفتاوى الكبرى ج: 2 ص: 73

³رسالة في فنون الأشياء ج: 1 ص: 28

⁴رسالة في فنون الأشياء ج: 1 ص: 39

سجود القرآن

في سجود القرآن وهو نوعان خبر عن أهل السجود ومدح لهم أو أمر به وذم على تركه فالأول سجدة الأعراف {إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ} الأعراف 206 وهذا ذكره بعد الأمر بإستماع القرآن والذكر وفي النحل {أَوْ لَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِلَّهِ وَهُمْ ذَاخِرُونَ} 48 {وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ} 49 {يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مَنْ فَوْقَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ} 50 النحل 48-50 فالسنة الأولى الى الأولى من الحج خبر ومدح والتسع البواقي من الثانية من الحج أمر وذم لمن لم يسجد الا ص فنقول قد تنازع الناس في وجوب سجود التلاوة قيل يجب وقيل لا يجب وقيل يجب اذا قرئت السجدة في الصلاة وهو رواية عن أحمد والذي يتبين لى أنه واجب فان الآيات التي فيها مدح لا تدل بمجردا على الوجوب لكن آيات الأمر والذم والمطلق منها قد يقال إنه محمول على الصلاة كالثانية من الحج والفرقان وقرأ وهذا ضعيف فكيف وفيها مقرون بالتلاوة كقوله {إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ} السجدة 15 فهذا نفي للإيمان بالآيات عمن لا يخسر ساجدا اذا ذكر بها واذا كان سامعا لها فقد ذكر بها وكذلك {فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ} 20 {وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ} 21 {الانشقاق 20-21 وهذا ذم لمن لا يسجد اذا قرئ عليه القرآن كقوله {فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكَرَةِ مُعْرِضِينَ} المدثر 49 {وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولِ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ} الحديد 8 {فَمَا لَهُؤْلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا} النساء 78 وكذلك سورة النجم قوله {أَفَمِنْ هَذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ} 59 {وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ} 60 {وَأَنْتُمْ سَامِدُونَ} 61 {فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا} 62 {النجم 59-62 أمر بالغا عقب ذكر الحديث الذي هو القرآن يقتضى أن سماعه سبب الأمر بالسجود لكن السجود المأمور به عند سماع القرآن كما أنه ليس مختصا بسجود الصلاة فليس هو مختصا بسجود التلاوة فمن ظن هذا أو هذا فقد غلط بل هو متناول لهما جميعا كما بينه الرسول فالسنة تفسر القرآن وتبينه وتدل عليه فالسجود عند سماع آية السجدة هو سجود مجرد عند سماع آية السجدة سواء تليت مع سائر القرآن أو وحدها ليس هو سجودا عند تلاوة مطلق القرآن فهو سجود عند جنس القرآن وعند خصوص الأمر بالسجود فالأمر يتناولوه وهو أيضا متناول لسجود القرآن أيضا وهو أبلغ¹

عبادة المخلوقات وتسبيحها هو من جهة إلهيته سبحانه وتعالى

قال تعالى {أَوْ لَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِلَّهِ وَهُمْ ذَاخِرُونَ} 48 {وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ} 49 {يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مَنْ فَوْقَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ} 50 {وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَإِذَا يَفَاهَى فَارْهُبُونِ} 51 {وَلَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا أَفَغَيْرَ اللَّهِ

¹مجموع الفتاوى ج: 23 ص: 137

تَنْقُونَ {52} النحل 48-52 ولما كانت كل حركة وعمل في العالم فأصلها المحبة والإرادة وكل محبة وإرادة لا يكون أصلها محبة الله وإرادة وجهه فهي باطلة فاسدة كان كل عمل لا يراد به وجهه باطلا فأعمال الثقلين الجن والإنس منقسمة منهم من يعبد الله ومنهم من لا يعبده بل قد يجعل معه إلهاً آخر وأما الملائكة فهم عابدون لله وجميع الحركات الخارجة عن مقدور بني آدم والجن والبهائم فهي من عمل الملائكة وتحريكها لما في السماء والأرض وما بينهما فجميع تلك الحركات والأعمال عبادات لله متضمنة لمحبتة وإرادته وقصده وجميع المخلوقات عابدة لخالقها إلا ما كان من مرده الثقلين وليست عبادتها إياه قبولها لتدبيره وتصريفه وخلقه فإن هذا عام لجميع المخلوقات حتى كفار بني آدم فلا يخرج أحد عن مشيئته وتدبيره وذلك بكلمات الله التي كان النبي يستعيذ بها فيقول أعوذ بكلمات الله التامات التي لا يجاوزهن بر ولا فاجر وهذا من عموم ربوبيته وملكه وهذا الوجه هو الذي أدركه كثير من أهل النظر والكلام حتى فسروا ما في القرآن والحديث من عبادة الأشياء وسجودها وتسبيحها بذلك وهم غاطون في هذا التخصيص شرعا وعقلا أيضا فإن المعقول الذي لهم يعرفهم أن كل شيء وكل متحرك وأن كان له مبدأ فلا بد له من غاية ومنتهى كما يقولون لها علتان فاعلية وغائية والذي ذكروه إنما هو من جهة العلة الفاعلية وبعض المخلوقين كذلك يجعلونه من جهة العلة الغائية وهذا غلط فلا يصلح أن يكون شيء من المخلوقات علة فاعلية ولا غائية إذ لا يستقل مخلوق بأن يكون علة تامة قط ولهذا لم يصدر عن مخلوق واحد شيء قط ولا يصدر شيء في الآثار إلا عن اثنين من المخلوقات كما قد بينا هذا في غير هذا الموضوع وكذلك لا يصلح شيء من المخلوقات أن يكون علة غائية تامة إذ ليس في شيء من المخلوقات كمال مقصود حتى من الأحياء فالمخلوقات بأسرها يجتمع فيها هذان النقصان أحدهما أنه لا يصلح شيء منها أن تكون علة تامة لا فاعلية ولا غائية والثاني أن ما كان فيها علة فله علة سواء كان علة فاعلية أو غائية فالله سبحانه رب كل شيء ومليكه وهو رب العالمين لا رب لشيء من الأشياء إلا هو وهو إله كل شيء وهو في السماء إله وفي الأرض إله وهو الله في السموات وفي الأرض لو كان فيهما إلهة إلا الله لفسدنا وما من إله إلا الله سبحانه وتعالى عما يقول الظالمون علوا كبيرا فعبادة المخلوقات وتسبيحها هو من جهة إلهيته سبحانه وتعالى وهو الغاية المقصودة منها ولها وأما في الشرع فإن الله فصل بين هذا وبين هذا فقال تعالى { أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَن يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ } الحج 18 فهذا السجود الذي فصل بين كثير من الناس الذي يفعلونه وكثير من الناس الذين لا يفعلونه طوعا وهم الذين حق عليهم العذاب ليس هو ما يشترك فيه جميع الناس من خلق الله وربوبيه الله تعالى إياهم وتدبيرهم وكذلك فصل بين الصنفين في قوله تعالى { أَفَعَبَرِ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ } آل عمران 83 وكذلك في قوله { وَاللَّهُ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً وَظِلَالُهُم بِالْعُدُوِّ وَالْأَصَالِ } الرعد 15 وهو سبحانه ذكر في الآية الأخرى سجود المخلوقات إلا الكثير من الناس لأنه ذكر الطوع فقط كما ذكر في التي قبلها أديان الناس فقال تعالى { إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ } الحج 17 فتضمنت هذه الآية حال المخلوقات إلا الجن فإنهم لم يذكرها باللفظ الخاص لكنهم يندرجون في الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين فإنهم كما قالوا { وَأَنَا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ كُنَّا طَرَائِقَ قِدْدًا } الجن 11 وقد ذكر طائفة من أهل العربية أنهم يدخلون في لفظ الناس أيضا وقال سبحانه { أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ يَتَفَقَّهُوا ظُلْمًا عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ } 48 { وَبِاللَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِن دَابَّةٍ

وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ {49} يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِّنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ {50} النحل 48-50
 وفي الصحيحين حديث أبي ذر في سجود الشمس تحت العرش إذا غابت وقال تعالى {أَلَمْ تَرَ أَنَّ
 اللَّهُ يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا
 يَفْعَلُونَ} النور 41 وقال تعالى {سَبِّحْ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} الحديد 1
 {سَبِّحْ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} الحشر 1 {سَبِّحْ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ
 وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} الص 1 {يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكُ
 الْقُدُّوسُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} الجمعة 1 {يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ
 وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} التغابن 1¹

قال تعالى {أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ
 وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ} الحج 18 ثم قال { وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ }
 {الحج 18 وهذا التفريق يبين انه لم يرد السجود لمجرد ما فيها من الدلالة على ربوبيته كما يقول ذلك
 طوائف من الناس اذ هذه الدلالة يشترك فيها جميع المخلوقات فجميع الناس فيهم هذه الدلالة وهو قد
 فرق فعلم ان ذلك قول زائد من جنس ما يختص به المؤمن ويتميز به عن الكافر الذي حق عليه
 العذاب²

قال تعالى { وَ لِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ } {49}
 يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِّنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ } {50} وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهُ وَاحِدٌ
 فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ } {51} وَلَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَتَّقُونَ } {52}
 النحل 49-52 وقد وصف الملائكة في القرآن بالخشية والخوف³

جعل الله في الجمادات قوى تفعل وقد أضاف الفعل إليها

قال تعالى { أَوْ لَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يَتَفَقَّهُمْ ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِلَّهِ وَهُمْ
 دَاخِرُونَ } {48} {وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا
 يَسْتَكْبِرُونَ} {49} يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِّنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ} {50} وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ
 إِنَّمَا هُوَ إِلَهُ وَاحِدٌ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ} {51} {وَلَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا أَفَغَيْرَ اللَّهِ
 تَتَّقُونَ} {52} النحل 48-52 فإذا كان تبارك وتعالى قد جعل في الجمادات قوى تفعل وقد أضاف

¹قاعدة في المحبة ج: 1 ص: 26

²مجموع الفتاوى ج: 35 ص: 183

³الصفدية ج: 1 ص: 214

الفعل إليها ولم يمنع ذلك أن يكون خالقا لأفعالها فلأن لا يمنع إضافة الفعل إلى الحيوان وإن كان الله خالقه بطريق الأولى فإن القدرية لا تنازع في أن الله خالق ما في الجمادات من القوى والحركات وقد أخبر الله أن الأرض تنبت وأن السحاب يحمل الماء كما قال تعالى {فَالْحَامِلَاتِ وَفِرًا {الذاريات} 2 والرياح تنقل السحاب كما قال تعالى {وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقْلَتِ سَحَابًا تَقَالًا سُقْنَاهُ لِبَدِّ مَيِّتٍ {الأعراف} 57 وأخبر أن الريح تدمر كل شيء وأخبر أن الماء طغى بقوله تعالى {إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ {الحاقة} 11 بل قد أخبر بما هو أبلغ من ذلك من سجد هذه الأشياء وتسبيحها كما في قوله تعالى {أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالْدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ {الحج} 18 وهذا التفصيل يمنع حمل ذلك على أن المراد كونها مخلوقة دالة على الخالق وأن المراد شهادتها بلسان الحال فإن هذا عام لجميع الناس وقد قال تعالى { يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَأَنَا لَهُ الْحَدِيدُ {سبأ} 10 وقال { إِنَّا سَخَرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ {18} وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ {19} ص 18- 19 فأخبر أن الجبال تؤوب معه والطيور وأخبر أنه سخرها تسبح وقال { أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ {النور} 41 وقال تعالى { وَإِنْ مِّنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ {الإسراء} 44 وقال {وَاللَّهُ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُم بِالْعُدُوِّ وَالْأَصَالِ {الرعد} 15 وقال {ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنْ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنْ مِنْهَا لَمَا يَتَسَفَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنْ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ حَشِيَّةِ اللَّهِ {البقرة} 74¹

الله سبحانه وتعالى هو العلى الأعلى وهو فوق كل شيء

قال تعالى { أَوْ لَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يَتَّقِيًا زَلًّا عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ {48} {وَاللَّهُ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ {49} {يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِّنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ {50} وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا الِهِينَ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونَ {51} وَلَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَتَّقُونَ {52} {النحل} 48-52 أما علو الله تعالى عن سائر مخلوقاته وأنه كامل الأسماء الحسنی والصفات العلى فهذا كتاب الله من أوله الى آخره وسنة رسوله من أولها الى آخرها ثم عامة كلام الصحابة والتابعين ثم كلام سائر الأئمة مملوء بما هو اما نص واما ظاهر في أن الله سبحانه وتعالى هو العلى الأعلى وهو فوق كل شيء وهو على كل شيء وأنه فوق العرش وأنه فوق السماء مثل قوله تعالى { إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ {فاطر} 10 {إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ } آل عمران} 55 {أَمِنْتُمْ مِّنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ {16} أَمْ أَمِنْتُمْ مِّنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ {17} {الملك} 16- 17 {بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ {النساء} 158 {تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ {المعارج} 4 {يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى

¹منهاج السنة النبوية ج: 3 ص: 244-245

الأَرْضُ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ { السجدة 5 } {يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِّنْ فَوْقِهِمْ} النحل 50 { ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ { الأعراف 54 في ستة مواضع { الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ } طه 5 { يَا هَامَانَ ابْنِ لِي صَدْرًا لَّعَلِّي أَبْلُغَ الْأَسْبَابَ } 36 { أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلَعَ إِلَىٰ إِلَهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لِأَظُنُّهُ كَاذِبًا } 37 { غافر 36-37 } { تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ } فصلت 42 { وَالَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكَ مِنَ رَبِّكَ الْحَقُّ } الرعد 1 الى أمثال ذلك مما لا يكاد يحصى الا بالكلفة وفي الأحاديث الصحاح والحسان ما لا يحصى الا بالكلفة مثل قصة معراج الرسول الى ربه ونزول الملائكة من عند الله وصعودها اليه وقوله في الملائكة الذين يتعاقبون فيكم بالليل والنهار فيعرج الذين باتوا فيكم الى ربهم فيسألهم وهو أعلم بهم وفي الصحيح في حديث الخوارج الا تأمنوني وأنا أمين من في السماء يأتيني خبر السماء صباحا ومساء وفي حديث الرقية الذي رواه ابو داود وغيره ربنا الله الذي في السماء تقدس اسمك أمرك في السماء والأرض كما رحمتك في السماء اجعل رحمتك في الأرض اغفر لنا حوبنا وخطايانا أنت رب الطيبين أنزل رحمة من رحمتك وشفاء من شفائك على هذا الوجود قال رسول الله إذا اشتكى أحد منكم أو اشتكى أخ له فليقل ربنا الله الذي في السماء¹

وفي حديث الأوعال والعرش فوق ذلك والله فوق عرشه وهو يعلم ما أنتم عليه وفي حديث قبض الروح حتى يعرج بها الى السماء التي فيها الله وفي سنن أبي داود عن جبير بن مطعم قال أتى رسول الله أعرابي فقال يا رسول الله جهدت الانفس وجاع العيال وهلك المال فادع الله لنا فانا نستشفع بك على الله ونستشفع بالله عليك فسبح رسول الله حتى عرف ذلك في وجوه أصحابه وقال ويحك أتدرى ما الله ان الله لا يستشفع به على أحد من خلقه شأن الله أعظم من ذلك ان الله على عرشه وان عرشه على سمواته وأرضه كهكذا وقال بأصابه مثل القبة وفي الصحيح عن جابر بن عبد الله ان رسول الله لما خطب خطبة عظيمة يوم عرفات في أعظم جمع حضره رسول الله جعل يقول الا هل بلغت فيقولون نعم فيرفع اصبعه الى السماء وينكبها اليهم ويقول اللهم اشهد غير مرة وحديث الجارية لما سألتها أين الله قالت في السماء فأمر بعنتها وعلل ذلك بايمانها وأمثاله كثيرة وأما الذي يدل عليه من الاجماع ففي الصحيح عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال كانت زينب تفتخر على أزواج النبي تقول زوجكن أهاليكن وزوجنى الله من فوق سبع سمواته وروى عبد الله بن أحمد وغيره بأسانيد صحاح عن ابن المبارك أنه قيل له بم نعرف ربنا قال بأنه فوق سمواته على عرشه بائن من خلقه ولا نقول كما قالت الجهمية أنه هاهنا في الأرض وباسناد صحيح عن سليمان بن حرب الامام سمعت حماد بن زيد وذكر الجهمية فقال انما يحاولون أن يقولوا ليس في السماء شيء وروى ابن أبي حاتم عن سعيد بن عامر الضبعي امام أهل البصرة علما ودينا أنه ذكر عنده الجهمية فقال هم أشرف قولا من اليهود والنصارى وقد اجتمع أهل الأديان مع المسلمين على أن الله تعالى على العرش وقالوا هم ليس على العرش شيء وقال محمد بن اسحاق بن خزيمة امام الأئمة من لم يقل ان الله فوق سمواته على عرشه بائن من خلقه وجب أن يستتاب فان تاب والا ضربت عنقه ثم ألقى على مزبلة لئلا يتأذى به اهل القبلة ولا أهل الذمة وروى الامام أحمد قال أنا شريح بن النعمان قال سمعت عبد الله بن نافع الصائغ قال سمعت مالك بن أنس يقول الله في السماء وعلمه في كل مكان لا يخلو من علمه مكان وحكى الأوزاعي أحد الأئمة

¹مجموع الفتاوى ج: 5 ص: 13

الأربعة في عصر تابعي التابعين الذين هم مالك أهل الحجاز والأوزاعي امام أهل الشام والليث امام أهل البصرة والثوري امام أهل العراق حكى شهرة القول في زمن التابعين بالايمان بأن الله تعالى فوق العرش وبصفاته السمعية وانما قاله بعد ظهور جهم المنكر لكون الله فوق عرشه النافي لصفاته ليعرف الناس أن مذهب السلف خلافه وروى الخلال بأسانيد كلهم أئمة عن سفيان بن عيينة قال سئل ربيعة بن أبي عبد الرحمن عن قوله تعالى { الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى } {5} طه 5 كيف استوى قال الاستواء غير مجهول والكيف غير معقول ومن الله الرسالة ومن الرسول البلاغ وعلينا التصديق وهذا مروى عن مالك بن أنس تلميذ ربيعة بن أبي عبد الرحمن أو نحوه وقال الشافعي خلافة أبي بكر حق قضاه الله تعالى في سمائه وجمع عليه قلوب عباده ولو يجمع ما قاله الشافعي في هذا الباب لكان فيه كفاية ومن أصحاب الشافعي عبدالعزيز بن يحيى الكنانى المكي له كتاب الرد على الجهمية وقرر فيه مسألة العلو وأن الله تعالى فوق عرشه والأئمة في الحديث والفقهاء والسنة والتصوف المائلون الى الشافعي ما من أحد منهم الا له كلام فيما يتعلق بهذا الباب ما هو معروف يطول ذكره وفي كتاب الفقه الأكبر المشهور عن أبي حنيفة يروونه بأسانيد عن أبي مطيع الحكم بن عبدالله قال سألت أبا حنيفة عن الفقه الأكبر فقال لا تكفرن أحدا بذنب الى أن قال عمن قال لا أعرف ربي في السماء أم في الأرض فقد كفر لأن الله يقول { الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى } طه 5 وعرشه فوق سبع سموات قلت فان قال أنه على العرش ولكن لا أدري العرش في السماء أم في الأرض قال هو كافر وأنه يدعى من أعلى لا من أسفل وسئل على بن المديني عن قوله { مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ } {المجادلة 7} قال اقرأ ما قبله { أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ } {المجادلة 7} الآية وروى عن ابن عيسى الترمذى قال هو على العرش كما وصف في كتابه وعلمه وقدره وسلطانه في كل مكان وأبو يوسف لما بلغه عن المريسي انه ينكر الصفات الخيرية وان الله فوق عرشه أراد ضربه فهرب ففرضه رقيقه ضربا بشعا وعن اصحاب ابي حنيفة في هذا الباب ما لا يحصى¹

قال الامام أحمد في كتابه الذى كتبه في الرد على الجهمية والزنادقة بيان ما أنكرت الجهمية الضلال أن يكون الله على العرش وقد قال تعالى { الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى } طه 5 وقال { خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ } {الأعراف 54} فقالوا هو تحت الأرض السابعة كما هو على العرش فهو على العرش وفي السموات وفي الأرض وفي كل مكان لا يخلو منه مكان ولا يكون في مكان دون مكان ويتلون آيات من القرآن { وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ } {الأنعام 3} قلنا قد عرف المسلمون أماكن كثيرة ليس فيها من عظيم الرب شىء فقالوا أى شىء قلنا أحشاءكم واجوافكم واجواف الخنازير والحشوش والأماكن القذرة ليس فيها من عظيم الرب شىء وقد أخبرنا أنه في السماء فقال { أَلَمْ نَكُنْ مِنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ } {الملك 16} وقد قال جل ثناؤه { إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ } {فاطر 10} وقال تعالى { إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ } {آل عمران 55} وقال تعالى { بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ } {النساء 158} وقال تعالى { وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِنْدَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ }

¹مجموع الفتاوى ج: 5 ص: 136-140

{الأنبياء19} وقال تعالى {يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِّنْ فَوْقِهِمْ} {النحل50} وقال تعالى {ذِي الْمَعَارِجِ} {3} تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ {4} {المعارج 3-4} وقال تعالى {وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ} {الأنعام18} وقال تعالى { وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ} {الشورى4} قال فهذا خبر الله أنه في السماء ووجدنا كل شيء في اسفل مذموما يقول جل ثناؤه {إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ} {النساء145} وقال تعالى {وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرْنَا الَّذِينَ آصَلْنَا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ نَجْعَلُهُمَّا تَحْتَ أَفْدَانِنَا لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ} {فصلت29} وقلنا لهم أليس تعلمون ان ابليس مكانه مكان والشياطين مكانهم مكان فلم يكن الله ليجتمع هو وابليس فى مكان واحد ولكن معنى قوله عز وجل {وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ} {الأنعام3} يقول هو اله من فى السموات واله من فى الأرض وهو الله على العرش وقد أحاط علمه بما دون العرش لا يخلو من علم الله مكان ولا يكون علم الله فى مكان دون مكان وذلك قوله {لَتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا} {الطلاق12} وقال من الاعتبار فى ذلك لو أن رجلا كان فى يده قرح من قوارير صاف وفيه شيء صاف لكان نظر ابن آدم قد أحاط بالقرح من غير أن يكون ابن آدم فى القرح والله وله المثل الأعلى قد أحاط بجميع خلقه من غير أن يكون فى شيء من خلقه وخصلة أخرى لو أن رجلا بنى دارا بجميع مرافقها ثم اغلق بابها وخرج كان ابن آدم لا يخفى عليه كم بيت فى داره وكم سعة كل بيت من غير أن يكون صاحب الدار فى جوف الدار فالله عز وجل وله المثل الأعلى قد أحاط بجميع ما خلق وعلم كيف هو وما هو من غير أن يكون فى شيء مما خلق¹

وقال الحافظ أبو بكر البيهقي باب القول فى الاستواء قال الله تعالى {الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى} {طه5} {ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ} {الأعراف54} {وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ} {الأنعام18} {يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِّنْ فَوْقِهِمْ} {النحل50} {إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ} {فاطر10} {أَأَمَّنْتُمْ مِّنْ فِي السَّمَاءِ} {المالك16} واراد من فوق السماء كما قال {وَلَأَصْلَبْنَكُمْ فِي جُدُوعِ النَّخْلِ} {طه71} بمعنى على جذوع النخل وقال {فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ} {التوبة2} اى على الارض وكل ما علا فهو سماء والعرش أعلى السموات فمعنى الآية أمنتكم من على العرش كما صرح به فى سائر الآيات قال وفيما كتبنا من الآيات دلالة على ابطال قول من زعم من الجهمية ان الله بذاته فى كل مكان وقوله {وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ} {الحديد4} انما اراد بعلمه لا بذاته²

توحيد الله لنفسه

قال تعالى {وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ} {51} {وَلَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا أَغْيَرَ اللَّهُ تَبَتُّونَ} {52} {النحل51-52} فان التوحيد يكون من الله لنفسه فانه يوحد نفسه بنفسه كما قال تعالى {شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ} {آل عمران18} والقرآن

¹مجموع الفتاوى ج: 5 ص: 310-312

²مجموع الفتاوى ج: 5 ص: 193

مملوء من توحيد الله لنفسه فقد وحد نفسه بنفسه كقوله {وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ} النحل 51¹

والتوحيد الذي بعث الله به رسوله صلى الله عليه وسلم وأنزل به كتابه هو عبادة الله وحده لا شريك له وهو توحيد ألوهيته المتضمن توحيد ربوبيته كما قال تعالى {وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ} النحل 51²

قال تعالى {هُوَ أَهْلُ التَّقْوَى وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ} المدثر 56 فهو سبحانه أهل التقوى ولم يقل سبحانه أهل للتقوى بل قال {أَهْلُ التَّقْوَى} المدثر 56 فهو وحده أهل ان يتقى فيعبد دون ما سواه ولا يستحق غيره أن يتقى كما قال {وَلَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَتَّقُونَ} النحل 52 وقال {وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشِ اللَّهَ وَيَتَّقْهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ} النور 52 وهو أهل المغفرة ولا يغفر الذنوب غيره كما قال تعالى {وَمَنْ يَغْفِرِ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ} آل عمران 135 وفى غير حديث يقول النبي إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت فهو سبحانه أهل التقوى وأهل المغفرة وقد جمع الله بين التوحيد والاستغفار فى غير موضع كقوله سبحانه {فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ} محمد 19 فالمؤمنون يستغفرون مما كانوا تاركيه قبل الاسلام من توحيد الله وعبادته وإن كان ذلك لم يأتهم به رسول بعد كما تقدم والرسول يستغفر من ترك مما كان تاركه كما قال فيه {مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ} الشورى 52 وإن كان ذلك لم يكن عليه عقاب والمؤمن إذا تبين له أنه ضيع حق قرابته أو غيره استغفر الله من ذلك وتاب وكذلك إذا تبين له أن بعض ما يفعله هو مذموم³

توحيد الإلهية هو الذي بعث الله به رسله وأنزل به كتبه

قال تعالى {وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ} 51 {وَلَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَتَّقُونَ} 52 {النحل 51-52} جميع المسلمين يعتقدون أن كل ما سوى الله مخلوق حادث بعد أن لم يكن وهو المختص بالقدم والأزلية و الذي جاء به الكتاب والسنة هو توحيد الإلهية فلا إله إلا هو فهذا هو التوحيد الذي بعث الله به رسله وأنزل به كتبه فهذا

¹مجموع الفتاوى ج: 2 ص: 355

²العقيدة الأصفهانية ج: 1 ص: 42

³مجموع الفتاوى ج: 11 ص: 690

أول ما دعا إليه الرسول وآخره حيث قال أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله وإني رسول الله فهذا أول ما دعا إليه الرسول وآخره حيث قال أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله وإني رسول الله وقال لعمة أبي طالب يا عم قل لا إله إلا الله كلمة أحاج لك بها عند الله وقال من كان آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة وقال لقنوا موتاكم لا إله إلا الله وكل هذه الأحاديث في الصحاح وهذا من أظهر ما يعلم بالإضطرار من دين النبي صلى الله عليه وسلم وهو توحيد الإلهية أنه لا إله إلا الله¹

أن الله ألزم الخلق التوحيد و أمرهم به و قضى به و حكم فقال {وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ} الإسراء 23 و قال { أَنْ أَنْذَرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونَ } النحل 2 و قال {وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ} النحل 36 الآية و قال تعالى {وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهُ وَاحِدٌ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونَ} النحل 51 و قال { وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ } التوبة 31 { وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ } البينة 5 و هذا كثير في القرآن يوجب على العباد عبادته و توحيده و يحرم عليهم عبادة ما سواه فقد حكم و قضى أنه لا إله الا هو فلفظ الاله يقتضي أنه يستحق العبادة فإذا أخبر أنه هو المستحق للعبادة دون ما سواه كان ذلك أمرا بما يستحقه و ليس المراد هنا بالاله من عبده عابد بلا استحقاق فإن هذه الآلهة كثيرة و لكن تسميتهم آلهة و الخبر عنهم بذلك و اتخاذهم معبودين أمر باطل كما قال تعالى {إِنَّ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مِمَّا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ} النجم 23 و قال {ذَلِكَ بَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنْ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ} الحج 62 فالآلهة التي جعلها عابدها آلهة يعبدونها كثيرة لكن هي لا تستحق العبادة فليست بآلهة كمن جعل غيره شاهدا أو حاكما أو مفتيا أو أميرا و هو لا يحسن شيئا من ذلك و لا يلد لكل إنسان من إله يألهه و يعبده تعس عبد الدينار و عبد الدرهم فإن بعض الناس قد أله ذلك محبة و ذلا و تعظيما كما قد بسط في غير هذا الموضوع فإذا شهد الله أنه لا إله إلا هو فقد حكم و قضى بأن لا يعبد إلا إياه²

الله تبارك وتعالى حق لا يشركه فيه أحد لا الأنبياء ولا غيرهم

قال تعالى {وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهُ وَاحِدٌ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونَ} {51} وَلَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَتَّقُونَ} {52} النحل 51-52 والله تبارك وتعالى حق لا يشركه فيه أحد لا الأنبياء ولا غيرهم وللأنبياء حق وللمؤمنين حق ولبعضهم على بعض حق فحقه تبارك وتعالى أن يعبدوه لا يشركوا به كما تقدم في حديث معاذ ومن عبادته تعالى أن يخلصوا له الدين ويتوكلوا عليه ويرغبوا إليه ولا يجعلوا لله ندا لا في محبته ولا خشيته ولا دعائه ولا الإستعانة به كما في الصحيحين أنه قال من مات وهو يدعو ندا من دون الله دخل النار وسئل أى الذنب

¹ منهاج السنة النبوية ج: 2 ص: 121-123

² مجموع الفتاوى ج: 14 ص: 171

أعظم قال أن تجعل لله ندا وهو خالقك وقيل له ما شاء الله وشئت فقال أ جعلتني لله ندا بل ما شاء الله وحده وقال تعالى { فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَاداً وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ } البقرة 22¹

وقد ميز الله بين حقه وحق الرسول في مثل قوله { إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ } 51 { وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ } 52 { النور 51-52 } فالطاعة لله والرسول والخشية لله وحده والتقوى لله وحده لا يخشى مخلوق ولا يتقى مخلوق لا ملك ولا نبي ولا غيرهما وأما ما في القرآن من ذكر عبادته وحده ودعائه وحده والإستعانة به وحده والخوف منه وحده فكثير كقوله { وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونَ } 51 { وَلَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَهُ الدِّينُ وَاصِباً أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَتَّقُونَ } 52 { النحل 51-52 } وقال تعالى { إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ فَعَسَى أُولَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ } التوبة 18 وقال { وَإِيَّايَ فَاتَّقُونَ } البقرة 41 وقال { فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَخَشَوُا اللَّهَ } المائدة 44 وقال تعالى { وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَداً إِلَّا اللَّهَ } الأحزاب 39²

حرم الله تعالى الشرك كله

الله هو وحده خالق كل شيء وهو الذي يجيب المضطر إذا دعاه وهو الذي { يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ } الرحمن 29³

فهو الذي لا يأتي بالحسنات إلا هو ولا يدفع السيئات إلا هو ولا يهدي الخلق إلا هو ولا ينصرهم إلا هو ولا يرزقهم إلا هو ولا يغنيهم إلا هو ولا يغفر ذنوبهم إلا هو قال تعالى { وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونَ } 51 { وَلَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَهُ الدِّينُ وَاصِباً أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَتَّقُونَ } 52 { وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجَارُونَ } 53 { ثُمَّ إِذَا كُشِفَ الضُّرُّ عَنْكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ } 54 { لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ } 55 { النحل 51-55 } والله تعالى قد حرم الشرك كله وإن جعل له ندا فلا يدعى غيره لا الملائكة ولا الأنبياء ولا الصالحون ولا الشمس ولا القمر ولا الكواكب ولا الأوثان ولا غير ذلك بل قد بين ان من إتخذ الملائكة والنبیین أربابا فهو كافر قال تعالى { مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَاداً لِّي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعْلَمُونَ

¹مجموع الفتاوى ج: 1 ص: 305

²مجموع الفتاوى ج: 27 ص: 428 و مجموع الفتاوى ج: 1 ص: 57 و ص: 68 و منهاج السنة النبوية ج: 2 ص: 447

³مجموع الفتاوى ج: 27 ص: 280

الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ {79} وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكَفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ {80} آل عمران 79-80 وقال تعالى { قُلْ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِّنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضَّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا } {56} أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا {57} {الاسراء 56-57} ذم الله سبحانه وتعالى لمن يدعو الملائكة والأنبياء وغيرهم من الصالحين وبين أن هؤلاء الذين يدعونهم لا يملكون كشف الضر عنهم ولا تحويله وأنهم يتقربون إلى الله بالوسيلة وهي الأعمال الصالحة ويرجون رحمته ويخافون عذابه فكيف يدعون المخلوقين ويذرون الخالق وقال تعالى { أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِنْ دُونِي أَوْلِيَاءَ إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا } {الكهف 102} وهو سبحانه وتعالى عليم بأحوال عباده رحيم بهم كما في الحديث الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه رأى امرأة من السبي إذا رأت ولدا ألقى بطنها فقال أترون هذه واضعة ولدها في النار قالوا لا يا رسول الله قال الله أرحم بعباده من هذه بولدها وهو سبحانه سميع قريب قال الله تعالى { قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِي وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فِيمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ } {سبا 50} وهو تعالى رحيم ودود و الود اللطف والمحبة فهو يود عباده المؤمنين ويجعل لهم الود في القلوب كما قال تعالى { إِنْ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا } {مريم 96} قال ابن عباس وغيره يحبهم ويحببهم إلى عباده وهو سبحانه لا يشغله سمع عن سمع ولا تغلظه المسائل ولا يتبرم بالحاح الملحين بل يحب من يدعو ويتضرع إليه ويبغض من لا يدعو قال النبي من لا يسأل الله يغضب عليه وقال تعالى { وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ } {غافر 60} وقال تعالى { وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ } {البقرة 186} قال بعض الصحابة يا رسول الله ربنا قريب فنناجيه أو بعيد فنناديه فأنزل الله هذه الآية وهو سبحانه وتعالى ليس كالمخلوقين الذين ترفع إليهم الحوائج بالحجاب بل في الحديث الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال يقول الله قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين فنصفها لى ونصفها لعبدى ولعبدى ما سألت فإذا قال العبد الحمد لله رب العالمين قال الله حمدنى عبدي فإذا قال الرحمن الرحيم قال الله أثنى علي عبدي فإذا قال مالك يوم الدين قال الله مجدنى عبدي فإذا قال إياك نعبد وإياك نستعين قال الله هذه الآية وبين عبدي نصفين ولعبدى ما سألت فإذا قال إهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين قال هؤلاء لعبدى ولعبدى ما سألت¹

لا يزول فقر العبد وفاقته إلا بالتوحيد

قال تعالى { وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهُ وَاحِدٌ فَإِنِّي فَارُهُونَ } {51} وَلَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَتَّقُونَ } {52} {النحل 51-52} فلا يزول فقر العبد وفاقته

¹مجموع الفتاوى ج: 35 ص: 368-370

إلا بالتوحيد فإنه لا بد له منه وإذا لم يحصل له لم يزل فقيرا محتاجا معذبا في طلب ما لم يحصل له والله تعالى { لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ } النساء 48 وإذا حصل مع التوحيد الإستغفار حصل له غناه وسعادته وزال عنه ما يعذبه ولا حول ولا قوة إلا بالله والعبد مفتقر دائما الى التوكل على الله والإستعانة به كما هو مفتقر الى عبادته فلا بد أن يشهد دائما فقره الى الله وحاجته في أن يكون معبودا له وأن يكون معينا له فلا حول ولا قوة إلا بالله ولا ملجأ من الله إلا إليه قال تعالى { إِنَّمَا ذَلِكَمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ } آل عمران 175 فدللت الآية على أن الشيطان يجعل أولياءه مخوفين ويجعل ناسا خائفين منهم ودلت الآية على أن المؤمن لا يجوز له أن يخاف أولياء الشيطان ولا يخاف الناس كما قال { فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَخَشَوُا اللَّهَ 44 فخوف الله أمر به وخوف أولياء الشيطان نهى عنه قال تعالى { لِيَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَخَشَوْنِي } البقرة 150 فنهى عن خشية الظالم وأمر بخشيته وقال { الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا } الأحزاب 39 وقال { **فَإِيَّايَ فَارْهَبُونَ** } النحل 51 وبعض الناس يقول يارب إنى أخافك وأخاف من لا يخافك فهذا كلام ساقط لا يجوز بل على العبد أن يخاف الله وحده ولا يخاف أحدا فإن من لا يخاف الله أذل من أن يخاف فإنه ظالم وهو من أولياء الشيطان فالخوف منه قد نهى الله عنه وإذا قيل قد يؤذيني قيل إنما يؤذيك بتسليط الله له وإذا أراد الله دفع شره عنك دفعه فالأمر لله وإنما يسلط على العبد بذنوبه وأنت إذا خفت الله فاتقته وتوكلت عليه كفاك شر كل شر ولم يسلطه عليك فإنه قال { وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ } الطلاق 3 وتسليطه يكون بسبب ذنوبك وخوفك منه فإذا خفت الله وتبت من ذنوبك واستغفرت له لم يسلط عليك كما قال { وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ } الأنفال 33 وفي الآثار يقول الله أنا الله لا إله إلا أنا ملك الملوك قلوب الملوك ونواصيها بيدي فمن أطاعنى جعلت قلوب الملوك عليه رحمة ومن عصانى جعلتهم عليه نقمة فلا تشغلوا أنفسكم بسبب الملوك ولكن توبوا الى وأطيعون أعطفهم عليكم¹

قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم في الحديث المتفق عليه عن أبي هريرة رضي الله عنه لا يقولن أحدكم اللهم اغفر لي إن شئت اللهم ارحمني إن شئت ولكن ليعزم المسألة فإن الله لا مكروه له فبين أن الرب سبحانه يفعل ما يشاء لا يكرهه أحد على ما اختاره كما قد يكره الشافع المشفوع إليه وكما يكره السائل المسؤول إذا ألح عليه وآذاه بالمسألة فالرغبة يجب أن تكون إليه كما قال تعالى { فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ } {7} وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ } {8} ال والرغبة تكون من الله كما قال تعالى { **فَإِيَّايَ** } **فَارْهَبُونَ** } النحل 51²

الدين الحق هو طاعة الله وعبادته

¹مجموع الفتاوى ج: 1 ص: 58 و مجموع الفتاوى ج: 14 ص: 206

²زيارة القبور ج: 1 ص: 20

قال تعالى { وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهُ وَاحِدٌ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ } {51} وَلَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَهُ الدِّينُ وَاصِباً أَفَعَيَّرَ اللَّهُ تَنَفُّونَ } {52} النحل 51-52 الدين هو التعاقد والتعاقد وإذا كان كذلك فالأمور التي يحتاجون إليها يحتاجون أن يوجبوها علي أنفسهم والأمور التي تضرهم يحتاجون أن يحرموها علي نفوسهم وذلك دينهم وذلك لا يكون إلا باتفاقهم علي ذلك وهو التعاقد والتعاقد ولهذا جاء في الحديث لا إيمان لمن لا أمانة له ولا دين لمن لا عهد له فهذا هو من الدين المشترك بين جميع بني آدم من التزام واجبات ومحرمات وهو الوفاء والعهد وهذا قد يكون باطلا فاسدا إذا كان فيه مضرة لهم راحة علي منفعته وقد يكون دين حق إذا كانت منفعة خاصة أو راحة كما قال تعالى { قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ } {1} لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ } {2} وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ } {3} وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدْتُمْ } {4} وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ } {5} لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ } {6} الكافرون 1-6 وقال تعالى { مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ } يوسف 76 وقال تعالى { قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ } التوبة 29 الدين الحق هو طاعة الله وعبادته كما بينا أن الدين هو الطاعة المعتادة التي صارت خلقا وبذلك يكون المطاع محبوبا مرادا إذ أصل ذلك المحبة والإرادة ولا يستحق أحد أن يعبد ويطاع علي الإطلاق إلا الله وحده لا شريك له ورسله وأولو الأمر أطيعوا لأنهم يأمرون بطاعة الله كما قال النبي في الحديث المتفق عليه من أطاعني فقد أطاع الله ومن أطاع أميرني فقد أطاعني ومن عصاني فقد عصي الله ومن عصي أميرني فقد عصاني وأما العبادة فله وحده ليس فيها واسطة فلا يعبد العبد إلا الله وحده كما قد بينا ذلك في مواضع وبيننا أن كل عمل لا يكون غايته إرادة الله وعبادته فهو عمل فاسد غير صالح باطل غير حق أي لا ينفع صاحبه وقد قال سبحانه { وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقِيَمَةِ } البينة 5 وقال تعالى { وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ } البقرة 193 وقال تعالى { ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ } التوبة 36 وقال تعالى { قُلْ إِنِّي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِثْلَ آبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ } الأنعام 161 وقال تعالى { فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ } التوبة 122 وفي الصحيحين عن النبي انه قال من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين وقال تعالى { وَلَا يَزَالُونَ يَقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَمَا كَانَ مِن دِينِكُمْ وَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ } البقرة 217 وقال تعالى { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَمَا كَانَ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ } المائدة 54 وهو الدين الحق الذي هو عبادة الله وحده لا شريك له وطاعته وطاعة رسوله هو الإسلام العام الذي لا يقبل الله ديناً غيره كما قال تعالى { إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ } آل عمران 19 وقال تعالى { وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ } آل عمران 85 وقال تعالى { أَفَعَيَّرَ دِينَ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ } آل عمران 83 وقال تعالى { شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحاً وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ } الشورى 13 وقال تعالى { إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعاً لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ } الأنعام 159 كل دين سوي الإسلام باطل فإذا كان لا بد لكل آدمي من اجتماع ولا بد في كل اجتماع من طاعة ودين وكل دين وطاعة لا يكون الله فهو باطل فكل دين سوي الإسلام فهو باطل وأيضا فلا بد لكل حي من محبوب هو منتهى محبته وإرادته وإليه تكون حركة باطنه وظاهره وذلك هو إلهه ولا يصلح ذلك إلا لله وحده لا شريك له فكل ما سوي الإسلام فهو باطل والمتفرقون أيضا فيه الذين أخذ كل منهم

ببعضه وترك بعضه وافتترقت أهواؤهم قد بريء الله ورسوله منهم لا بد في كل دين من شيئين العقيدة والشريعة أو المعبود والعبادة ولا بد في كل دين وطاعة ومحبة من شيئين أحدهما الدين المحبوب المطاع وهو المقصود المراد والثاني نفس صورة العمل التي تطاع ويعبد بها وهو السبيل والطريق والشريعة والمنهاج والوسيلة كما قال الفضيل بن عياض في قوله تعالى { لِيَبْلُوكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا } هود7 قال أخلصه وأصوبه قالوا يا أبا علي ما أخلصه وأصوبه قال إن العمل إذا كان خالصاً ولم يكن صواباً لم يقبل وإذا كان صواباً ولم يكن خالصاً لم يقبل حتى يكون خالصاً صواباً والخالص أن يكون لله والصواب أن يكون علي السنة فهكذا كان الدين يجمع هذين الأمرين المعبود والعبادة والمعبود اله واحد والعبادة طاعته وطاعة رسوله فهذا هو دين الله الذي ارتضاه كما قال تعالى { وَرَضِيتُ لَكُمْ الْإِسْلَامَ دِينًا } المائدة3 وهو دين المؤمنين من الأولين والآخرين وهو الدين الذي لا يقبل الله من أحد غيره لأنه دين فاسد باطل كمن عبد من لا تصلح عبادته أو عبد بما لا يصلح أن يعبد به¹

{ وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ }

قال تعالى { وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجَارُونَ } {53} ثُمَّ إِذَا كُشِفَ الضُّرُّ عَنْكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ } {54} لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ } {55} النحل53-55 قوله تعالى { وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ } النحل53 حرف من لإبتداء الغاية وما يستعمل فيه حرف ابتداء الغاية فيقال هو من الله على نوعين فإنه إما أن يكون من الصفات التي لا تقوم بنفسها ولا بمخلوق فهذا يكون صفة له وما كان عيناً قائمة بنفسها أو بمخلوق فهي مخلوقة فالأول كقوله { وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي } السجدة13 وقوله { يَعْلمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ } الأنعام114 كما قال السلف القرآن كلام الله غير مخلوق منه بدا وإليه يعود وما كان صفة لا يقوم بنفسه كالعلم والكلام فهو صفة له كما يقال كلام الله وعلم الله والنوع الثاني إن كان عيناً قائماً بنفسها فهو مملوك له ومن لإبتداء الغاية كقوله { وَسَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِّنْهُ } الجاثية13 وقوله { وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ } النحل53 و { مَّا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ } النساء79 فهذه الأشياء كلها من الله وهي مخلوقة²

فإن المعصية والطاعة عمل وعرض قائم بغيره فلا بد له من محل يقوم به وهي قائمة بالعبد لا محالة وليست قائمة بالله تبارك وتعالى بلا ريب ومعلوم أن كل مخلوق يقال هو من الله بمعنى أنه خلقه باننا عنه لا بمعنى أنه قام به واتصف به كما في قوله تعالى { وَسَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِّنْهُ } الجاثية13 وقوله تعالى { وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ } النحل53 والله تعالى وإن كان خالقاً لكل شيء فإنه خلق الخير والشر لما له في ذلك من الحكمة التي باعتبارها كان فعله حسناً متقناً كما قال { الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِن طِينٍ } السجدة7 وقال { أَتَقَنَّنَ

¹قاعدة في المحبة ج: 1 ص: 36-40

²مجموع الفتاوى ج: 15 ص: 97 و مجموع الفتاوى ج: 17 ص: 285 و الجواب الصحيح ج: 4 ص: 68

كُلَّ شَيْءٍ { النمل 88 فهذا لا يضاف إليه الشر مفردا بل إما أن يدخل في العموم وإما أن يضاف إلى السبب وإما أن يحذف فاعله فالأول كقول الله تعالى { اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ } { الزمر 62 والثاني كقوله { قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ } {1} { مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ } {2} { الْفَلَقِ 1 2 } والثالث كقوله فيما حكاه عن الجن { وَأَنَا لَا نَدْرِي أَشَرُّ أَرِيدَ بِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا } { الجن 10 }¹

الله هو سبحانه الرحمن الذي وسعت رحمته كل شيء وفي الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه أرحم بعباده من الوالدة بولدها وقد سبقت وغلبت رحمته غضبه وهو الغفور الودود الحلِيم الرحيم فأرادته أصل كل خير ونعمة وكل خير ونعمة فمنه { وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجَارُونَ } { النحل 53 } وقد قال سبحانه { نَبِيُّ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ } { الحجر 49 } ثم قال { وَ أَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ } { الحجر 50 } وقال تعالى { اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ } { المائدة 98 } فالمغفرة و الرحمة من صفاته المذكورة بأسمائه فهي من موجب نفسه المقدسة ومقتضاها ولوازمها وأما العذاب فمن مخلوقاته الذي خلقه بحكمة هو باعتبارها حكمة و رحمة فالإنسان لا يأتيه الخير إلا من ربه و إحسانه و جوده و لا يأتيه الشر إلا ممن نفسه فما أصابه من حسنة فمن الله و ما أصابه من سيئة فمن نفسه²

لا يأتي بالحسنات إلا الله ولا يذهب السيئات إلا الله

قال تعالى { وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجَارُونَ } {53} { ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضُّرُّ عَنْكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ } {54} { لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ } {55} { النحل 53-55 } ولا يأتي بالحسنات إلا الله و لا يذهب السيئات إلا الله { وَإِنْ يَمَسُّكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ } { يونس 107 } { وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجَارُونَ } { النحل 53 } وإذا دعا العبد ربه بإعطائه المطلوب ودفع المرهوب جعل له من الإيمان بالله ومحبته ومعرفته وتوحيده ورجائه وحياة قلبه وإستتارته بنور الإيمان ما قد يكون أنفع له من ذلك المطلوب إن كان عرضا من الدنيا وأما إذا طلب منه أن يعينه على ذكره وشكره وحسن عبادته وما يتبع ذلك فهنا المطلوب قد يكون أنفع من الطلب وهو الدعاء والمطلوب الذكر والشكر وقيام العبادة على أحسن الوجوه وغير ذلك وهذا لبسطه موضع آخر³

الله تعالى هو الذي يخلق بتأثير الاسباب وبدفع الموانع

¹ منهاج السنة النبوية ج: 3 ص: 142

² مجموع الفتاوى ج: 14 ص: 272-274 و الحسنة والسيئة ج: 1 ص: 49

³ مجموع الفتاوى ج: 10 ص: 597 و الزهد والورع والعبادة ج: 1 ص: 34

قال تعالى { وَمَا بِكُمْ مِّنْ نُّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجَارُونَ } {53} ثُمَّ إِذَا كُشِفَ الضُّرُّ عَنْكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ } {54} لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ } {55} النحل 53-55

فان الحنفاء ليس فيهم من يقول باثبات البشر وسائط في الخلق والتدبير والرزق والاحياء والاماتة وسماع الدعاء وإجابة الداعي بل الرسل كلهم وأتباع الرسل متفقون على انه لا يعبد إلا الله وحده فهو الذي يسأل ويعبد وله يصلى ويسجد وهو الذي يجيب دعاء المضطرين ويكشف الضر عن المضطرين ويغيث عباده المستغيثين { مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكُ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ } فاطر 2 { وَمَا بِكُمْ مِّنْ نُّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجَارُونَ } { النحل 53

وليس عند الحنفاء ان احدا غير الله يستقل بفعل شئ بل غايته أن يكون سببا والاثر لا يحصل إلا به وبغيره من الاسباب وبصرف الموانع والله تعالى هو الذي يخلق بتأثير الاسباب وبدفع الموانع مع خلقه سبحانه ايضا لهذا السبب لكن المقصود انه ليس في الوجود ما يستقل باحداث شئ ولا ثم شئ يوجب كل اثر إلا مشيئة الله وحده فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن والرسل هم وسائط بين الله وبين خلقه في تبليغ رسالاته وامره ونهيه ووعدته ووعدته كما قال تعالى { وَمَا تُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ } { الأنعام 48 } { وَمَا تُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ } { الكهف 56 }¹

الله هو الذي يرزق جميع عباده مسلمهم وكافرهم

هو سبحانه علق الوعد والوعيد والثواب والعقاب والحمد والذم بالإيمان به وتوحيده وطاعته فمن كان أكمل في ذلك كان احق بتولى الله له بخير الدنيا والآخرة ثم جميع عباده مسلمهم وكافرهم هو الذي يرزقهم وهو الذي يدفع عنهم المكاره وهو الذي يقصدونه في النوايب قال تعالى { وَمَا بِكُمْ مِّنْ نُّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجَارُونَ } {53} ثُمَّ إِذَا كُشِفَ الضُّرُّ عَنْكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ } {54} لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ } {55} النحل 53-55 وقال تعالى { قُلْ مَنْ يَكْلُوكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَنِ } { الأنبياء 42 } أى بدلا عن الرحمن هذا اصح القولين كقوله تعالى { وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ مَلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُقُونَ } { الزخرف 60 } أى لجعلنا بدلا منكم كما قاله عامة المفسرين ومنه قول الشاعر فليت لنا من ماء زمزم شربة مبردة باتت على طهيان أى بدلا من ماء زمزم فلا يكلاً الخلق بالليل والنهار فيحفظهم ويدفع عنهم المكاره إلا الله قال تعالى { أَمَّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ جُنْدٌ لَّكُمْ يَنْصُرُكُم مِّنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إِنَّ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي غُرُورٍ } {20} { أَمَّنْ هَذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ بَلْ لَجُوا فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ } {21} { الملك 20-21 }²

¹الرد على المنطقيين ج: 1 ص: 537

²مجموع الفتاوى ج: 27 ص: 441-442

والخلق كلهم يسألون الله مؤمنهم وكافرهم وقد يجيب الله دعاء الكفار فإن الكفار يسألون الله الرزق فيرزقهم ويسقيهم قال تعالى {وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَاهُ فَلَمَّا نَجَّكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا} الإسراء 67¹

القسم الممدوح هم أهل الصبر والشكر

قال تعالى { وَمَا بِكُمْ مِّنْ نُّعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ تُمْ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَآلِيهِ تَجَارُونَ } {53} تُمْ إِذَا كَشَفَ الضُّرُّ عَنْكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ } {54} لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ } {55} النحل 53-55
 55 ولما كان الأمر كما أخبر الله به في قوله { مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنَ نَفْسِكَ } النساء 79 أوجب هذا أن لا يطلب العبد الحسنات و الحسنات تدخل فيها كل نعمة إلا من الله و أن يعلم أنها من الله و حده فيستحق الله عليها الشكر الذي لا يستحقه غيره و يعلم أنه لا إله إلا هو كما قال تعالى { وَمَا بِكُمْ مِّنْ نُّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ } النحل 53 فهذا يوجب على العبد شكره و عبادته وحده ثم قال { تُمْ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَآلِيهِ تَجَارُونَ } النحل 53 و هذا إخبار عن حالهم و الجوار يتضمن رفع الصوت و الانسان إنما يجار إذا أصابه الضر و أما في حال النعمة فهو ساكن إما شاكرا و إما كفورا { تُمْ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَآلِيهِ تَجَارُونَ } {53} تُمْ إِذَا كَشَفَ الضُّرُّ عَنْكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ } {54} النحل 53-54 و هذا المعنى قد ذكره الله في غير موضع يذم من يشرك به بعد كشف البلاء عنه و إسباغ النعماء عليه فيضيف العبد بعد ذلك الانعام الى غيره و يعبد غيره تعالى و يجعل المشكور غيره على النعم كما قال تعالى { وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ تُمْ إِذَا أَذَقَهُمْ مِنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ } {33} لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ } {34} الروم 33-34 و قال تعالى { قُلْ مَنْ يُنَجِّبِكُمْ مِّنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَانَا مِنْ هَذِهِ لَنُكَوِّنَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ } {63} قُلْ اللَّهُ يُنَجِّبِكُمْ مِنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ تُمْ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ } {64} الأنعام 63-64 و قال تعالى { وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ تُمْ إِذَا حَوَّلَهُ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَنْدَادًا لِّيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ } الزمر 8 وقوله { نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ } الزمر 8 أي نسي الضر الذي كان يدعو الله لدفعه عنه كما قال في سورة الأنعام { قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمْ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ } {40} بَلْ إِلَاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ وَتَنْسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ } {41} الأنعام 40-41 فذم الله سبحانه حزبين حزبا لا يدعون في الضراء و لا يتوبون إليه و حزبا يدعون و يتضرعون إليه و يتوبون إليه فاذا كشف الضر عنهم أعرضوا عنه و أشركوا به ما اتخذوهم من الأنداد من دونه فهذا الحزب نوعان كالمعطلة و المشركة حزب إذا نزل بهم الضر لم يدعو الله و لم يتضرعوا إليه و لم يتوبوا إليه كما قال { وَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ } {42} فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِنْ قَسَتْ

¹مجموع الفتاوى ج: 1 ص: 206

فَلُوبُهُمْ وَزَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ {43} الأنعام 42-43 و قال تعالى {وَلَقَدْ أَخَذْنَاَهُمْ بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ} المؤمنون 76 و قال تعالى {أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذْكُرُونَ} التوبة 126 و قال تعالى {وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ} السجدة 21 و حزب يتضرعون اليه في حال الضراء و يتوبون اليه فاذا كشفها عنهم أعرضوا عنه كما قال تعالى {وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرِّ مَسَّهُ كَذَلِكَ زَيْنٌ لِّلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} يونس 12 و قال تعالى {وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ} فصلت 51 و قال تعالى {وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا} الإسراء 67 و قال في المشركين ماتقدم {وَمَا بِكُمْ مِّنْ نَّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَالْيَهُ تَجَّارُونَ} {53} ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضُّرَّ عَنْكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ} {54} النحل 53-54 و الممدوح هو القسم الثالث و هم الذين يدعونه و يتوبون اليه و يثبتون على عبادته و التوبة اليه في حال السراء فيعبدونه و يطيعونه في السراء و الضراء و هم أهل الصبر و الشكر كما ذكر ذلك عن أنبيائه عليهم السلام فقال تعالى {وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاصِبًا فَظَنَّ أَن لَّنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَن لَّا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ} {87} فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْعَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ} {88} الانبياء 87-88¹

الله هو الذي يستحق الشكر المطلق العام التام

قال تعالى {وَمَا بِكُمْ مِّنْ نَّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَالْيَهُ تَجَّارُونَ} {53} ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضُّرَّ عَنْكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ} {54} لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ} {55} النحل 53-55 أن السيئات التي تصيب الإنسان وهي مصائب الدنيا والآخرة ليس لها سبب إلا ذنبه الذي هو من نفسه فانحصرت في نفسه وأما ما يصيبه من الخير والنعم فإنه لا تنحصر أسبابه لأن ذلك من فضل الله وإحسانه يحصل بعمله وبغير عمله وعمله نفسه من إنعام الله عليه وهو سبحانه لا يجزي بقدر العمل بل يضاعفه له ولا يقدر العبد على ضبط أسبابها لكن يعلم أنها من فضل الله وإنعامه فيرجع فيها إلى الله فلا يرجو إلا الله ولا يتوكل إلا عليه ويعلم أن النعم كلها من الله وأن كل ما خلقه فهو نعمة كما تقدم فهو يستحق الشكر المطلق العام التام الذي لا يستحقه غيره و إنما يستحق غيره من الشكر ما يكون جزاء على ما يسره على يديه من الخير كشكر الوالدين وشكر من أحسن إليك من غيرهما فإنه من لا يشكر الناس لا يشكر الله لكن لا يبلغ من حق أحد وإنعامه أن يشكر بمعصية الله أو أن يطاع بمعصية الله فإن الله هو المنعم بالنعمة العظيمة التي لا يقدر عليها مخلوق ونعمة المخلوق إنما هي منه أيضا وقال تعالى {وَمَا بِكُمْ مِّنْ نَّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَالْيَهُ تَجَّارُونَ} {النحل 53} وقال {وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ} {الجاثية 13} و جزاؤه على الطاعة و الشكر و على المعصية و الكفر لا يقدر أحد على مثله فلماذا لم يجز أن يطاع مخلوق في معصية الخالق و قال تعالى {وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ

¹ مجموع الفتاوى ج: 14 ص: 369-372 و الحسنة والسيئة ج: 1 ص: 120

بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطْعَمُهُمَا {العنكبوت 8 الآية و فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى {وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطْعَمُهُمَا وَصَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا {لقمان 15 و المقصود أنه إذا عرف أن النعم كلها من الله صار توكله و رجاؤه له سبحانه و إذا علم ما يستحقه من الشكر الذي لا يستحقه غيره **صا** و الشر إنحصر سببه في النفس فعلم من أين يأتي فاستغفر و استعان بالله و استعاذ به مما لم يعمل بعد كما قال من قال من السلف لا يرجون عبد إلا ربه و لا يخافن إلا ذنبه و هذا خلاف قول الجهمية الذين يقولون يعذب بلا ذنب و يخافونه و لو لم يذنبوا فإذا صدق بقوله {مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ {النساء 79 علم بطلان هذا القول و قد تقدم قول ابن عباس و غيره إنما أصابهم يوم أحد كان بذنوبهم لم يستثن من ذلك أحدا و هذا من فوائد تخصيص الخطاب لئلا يظن أنه عام مخصوص ¹

فإن الرب سبحانه هو المالك المدبر المعطي المانع الضار النافع الخافض الرافع المعز المذل فمن شهد أن المعطي أو المانع أو الضار أو النافع أو المعز أو المذل غيره فقد أشرك بربوبيته ولكن إذا أراد التخلص من هذا الشرك فلينظر الى المعطي الأول مثلا فيشكره على ما أولاه من النعم وينظر الى من أسدى اليه المعروف فيكافيه عليه لقوله عليه السلام من أسدى اليكم معروفا فكافئوه فإن لم تجدوا ما تكافئوه فادعوا له حتى تروا أنكم قد كافأتموه لأن النعم كلها لله تعالى كما قال تعالى **لَوْ مَا بِكُمْ مِّنْ نَّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ {النحل 53** وقال تعالى {كُلًّا نُمِدُّ هُوَآءًا وَهَؤَآءًا مِّنْ عَطَاءِ رَبِّكَ {الإسراء 20 فانه سبحانه هو المعطي على الحقيقة فإنه هو الذي خلق الأرزاق و قدرها و ساقها الى من يشاء من عباده فالمعطي هو الذي أعطاه و حرك قلبه لعطاء غيره فهو الأول و الآخر

2

فدفعه الشر الذي تريده النفوس الشريرة هو من الخير وهو بيديه ولو مكن تلك النفوس لفعلته فهو سبحانه لا يمكنها بل يمنعها إذا أرادت مع أنها لو خلقت لفعلته فهو تارة بمنع الشر بإزالة سببه و مقتضيه و تارة يخلق ما يصاده وينافيه و ما بكم من نعمة فمن الله ثم إذا مسكم الضر فإليه تجأرون سورة النحل 53 ³

مطالعة آلاء الله ونعمائه تعلق القلوب به

¹ مجموع الفتاوى ج: 8 ص: 225 و الحسنة والسيئة ج: 1 ص: 98

² مجموع الفتاوى ج: 1 ص: 92 و مجموع الفتاوى ج: 1 ص: 155

³ رسالة في معنى كون الرب عادلا ج: 1 ص: 132

قال تعالى { وَمَا بِكُمْ مِّنْ نُّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجَارُونَ } {53} ثُمَّ إِذَا كُشِفَ الضُّرُّ عَنْكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ } {54} لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ

تَعْلَمُونَ } {55} النحل 53-55 ولا بد من التنبيه على قاعدة تحرك القلوب الى الله عز وجل فتعصم به فتقل آفاتنا أو تذهب عنها بالكلية بحول الله وقوته فنقول إعلم أن محركات القلوب الى الله عز وجل ثلاثة المحبة والخوف والرجاء وأقواها المحبة وهي مقصودة تزداد لذاتها لأنها تزداد في الدنيا والآخرة بخلاف الخوف فإنه يزول في الآخرة قال الله تعالى { إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ } {الأحقاف 13} والخوف المقصود منه الزجر والمنع من الخروج عن الطريق فالمحبة تلقى العبد في السير الى محبوبه وعلى قدر ضعفها وقوتها يكون سيره إليه والخوف يمنعه أن يخرج عن طريق المحبوب والرجاء يقوده فهذا أصل عظيم يجب على كل عبد أن يتنبه له فإنه لا تحصل له العبودية بدونه وكل أحد يجب أن يكون عبدا لله لا لغيره فإن قيل فالعبد في بعض الأحيان قد لا يكون عنده محبة تبعته على طلب محبوبه فأى شيء يحرك القلوب قلنا يحركها شيان أحدهما كثرة الذكر للمحبوب لأن كثرة ذكره تعلق القلوب به ولهذا أمر الله عز وجل بالذكر الكثير فقال تعالى { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا } {41} وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا } {42} الأحزاب 41-42 الآية والثاني مطالعة الآئه ونعمائه قال الله تعالى { فَادْكُرُوا آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ } {الأعراف 69} وقال تعالى { وَمَا بِكُمْ مِّنْ نُّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ } {النحل 53} وقال تعالى { وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعْمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً } لقمان 20 وقال تعالى { وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا } {النحل 18} فإذا ذكر العبد ما أنعم الله به عليه من تسخير السماء والأرض وما فيها من الأشجار والحيوان وما أسبغ عليه من النعم الباطنة من الإيمان وغيره فلا بد أن يثير ذلك عنده باعثا وكذلك الخوف تحركه مطالعة آيات الوعيد والزجر والعرض والحساب ونحوه وكذلك الرجاء يحركه مطالعة الكرم والحلم والعفو وما ورد في الرجاء والكلام في التوحيد واسع وإنما الغرض مبلغ التنبيه على تضمنه الإستغناء بأدنى إشارة والله سبحانه وتعالى أعلم وصلى الله على محمد وآله وصحبه وسلم¹

قطب رحي الدين

قال تعالى { وَمَا بِكُمْ مِّنْ نُّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجَارُونَ } {53} ثُمَّ إِذَا كُشِفَ الضُّرُّ عَنْكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ } {54} لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ } {55} النحل 53-55 فتوحيد الله وإخلاص الوجه والعمل له عبادة وإستعانة هي قطب رحي الدين وذلك أن العبد بل كل حي بل وكل مخلوق سوى الله هو فقير محتاج الى جلب ما ينفعه ودفع ما يضره والمنفعة للحي هي من جنس النعيم واللذة والمضرة هي من جنس الألم والعذاب فلا بد له من أمرين أحدهما هو المطلوب المقصود المحبوب الذي ينتفع ويلتذ به والثاني هو المعين الموصل المحصل لذلك المقصود والمانع من دفع المكروه وهذان هما الشيطان المنفصلان الفاعل والغاية فهنا أربعة أشياء أحدها أمر هو محبوب مطلوب الوجود والثاني أمر مكروه مبغض مطلوب العدم والثالث الوسيلة الى حصول المطلوب المحبوب والرابع الوسيلة الى دفع المكروه فهذه الأربعة الأمور ضرورية للعبد بل ولكل حي لا يقوم وجوده وصلاحه إلا بها وأما ما ليس بحي فالكلام فيه على وجه

¹مجموع الفتاوى ج: 1 ص: 95-96

آخر إذا تبين ذلك فبيان ما ذكرته من وجوه أحدها أن الله تعالى هو الذى يحب أن يكون هو المقصود المدعو المطلوب وهو المعين على المطلوب وما سواه هو المكروه وهو المعين على دفع المكروه فهو سبحانه الجامع للأمر الأربعة دون ما سواه وهذا معنى قوله {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ} الفاتحة 5 فإن العبودية تتضمن المقصود المطلوب لكن على أكمل الوجوه والمستعان هو الذى يستعان به على المطلوب فالأول من معنى الألوهية والثانى من معنى الربوبية إذ الإله هو الذى يؤله فيعبد محبة وإنابة وإجلالا وإكراما والرب هو الذى يربى عبده فيعطيه خلقه ثم يهديه الى جميع أحواله من العبادة وغيرها وكذلك قوله تعالى {عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ} هود 88 وقوله {فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ} هود 123 وقوله {عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنْبَأْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ} الممتحنة 4 وقوله تعالى {وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ} الفرقان 58 وقوله تعالى {عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ} الرعد 30 وقوله {وَادْكُرْ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً} 8 {رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلاً} 9 {المزمل 8-9} فهذه سبعة مواضع تنتظم هذين الأصلين الجامعين¹

الرد على ابن عربي ونحوه من الملاحدة حيث قالوا ما فى أحد من الله شىء

قال تعالى {وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ} {51} وَلَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَهُ الدِّينُ وَاصِباً أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَتَّقُونَ} {52} وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضَّرُّ فَإِلَيْهِ تَجَارُونَ} {53} ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضَّرَّ عَنْكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ} {54} لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ} {55} وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيباً مِّمَّا رَزَقْنَاهُمْ تَاللَّهِ لَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تُفْتَرُونَ} {56} وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ} {57} النحل 51-57 وهذه الآيات كما تناولت ذم الذين جعلوا له شريكا وولدا فتناولها لزم هؤلاء الملاحدة أعظم فإن القائلين بقدوم العالم وأنه معلول جعلوه كله والدلالة قديما أزليا معه وهذا أعظم من قول أولئك والذين لم يجعلوه معلولا له قالوا إنه قديم معه واجب الوجود مماثل له بل وجعلوا الفلك هو الذي تحدث عنه الحوادث لكن حركته للشبه به وهذا أعظم من كل شرك في العالم ومن شرك المجوس والحرثانيين فإن أولئك وإن جعلوا معه قديما إما ظلمة وهي إبليس عند المجوس وإما النفس والهيولي عند الحرثانيين فهم يقولون إنه أحدث العالم وأنه ركبه من النفس والهيولي القدمين وركبه من أجزاء النور والظلمة ولهذا ذكر محمد بن كعب وغيره عن المجوس والصابئة أنهم قالوا عن الله لولا أولياؤه لذل فأنزل الله تعالى {وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِّنَ الذَّلِّ} {الإسراء 111} فإنهم

¹مجموع الفتاوى ج: 1 ص: 20

يجعلونه محتاجا إلى من يعاونه إذ كان مغلوبا من وجه مع القدماء معه كما هو غالب من وجه وكفر أولئك أعظم فإنهم لم يجعلوا له تأثيرا في الفلك ولا تصرفا بوجه من الوجوه فهؤلاء تنقصوه وسلبوه الربوبية والإلهية أعظم من أولئك وجعلوه مع الفلك مغلوبا من كل وجه لا بقدر أن يفعل فيه شيئا وكقول عبدة الأوثان هو أجل من أن نعبد بل نعبد الوسائط وهو أجل من أن يبعث بشرا رسولا فجدوا توحيدهم ورسالته على وجه التعظيم له وكذلك المجوس الوثنية أثبتوا الظلمة تنزيها له عن فعل الشر والحرثانيون أثبتوا معه النفس والهلولي قديمين تنزيها له عن إحداث العالم بلا سبب فالأمم كلهم يعظمونه لكن تعظيما يستلزم شبهة وسبة والمقصود هنا قوله تعالى ﴿وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾ النحل 53 وقوله عز وجل ﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ الجاثية 13 فالأمر ضد ما قاله هؤلاء الملاحدة ابن عربي ونحوه حيث قالوا ما في أحد من الله شيء فيقال لهم بل كل ما بالخلق من نعمة فمن الله وحده قال النبي صلى الله عليه وسلم من قال إذا أصبح اللهم ما أصبح بي من نعمة أو بأحد من خلقك فمنك وحدك لا شريك لك فلك الحمد ولك الشكر فقد أدى شكر ذلك اليوم ومن قال إذا أمسى اللهم ما أمسى بي من نعمة أو بأحد من خلقك فمنك وحدك لا شريك لك فلك الحمد ولك الشكر فقد أدى شكر تلك الليلة رواه أبو داود وغيره¹

التوحيد هو أصل الدين

قال تعالى ﴿وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ إِنَّمَّا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ﴾ {51} وَلَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَتَّقُونَ {52} وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجَارُونَ {53} ثُمَّ إِذَا كَسَفَ الضُّرُّ عَنْكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ {54} لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ {55} وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَاهُمْ تَاللَّهِ لَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَفْتَرُونَ {56} وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ {57} وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ {58} يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ {59} لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ {60} وَلَوْ يُوَاقِدُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ {61} وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكُذْبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَىٰ لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ وَأَنَّهُمْ مُّفْرَطُونَ {62} تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَرِيقٌ لَّهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالُهُمْ فَهُمْ فِي يَوْمٍ وَلِيَهُمُ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ {63} وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ {64} النحل 56-62 و التوحيد هو أصل الدين الذي لا يقبل الله من الأولين والآخرين ديناً غيره وبه أرسل الله الرسل وأنزل الكتب وقد ذكر الله عز وجل عن كل من الرسل أنه افتتح دعوته بأن قال لقومه ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ هود 50 وفي المسند عن ابن عمر عن النبي أنه قال بعثت بالسيف بين يدي الساعة حتى يعبد الله وحده لا شريك له

¹رسالة في تحقيق الشكر ج: 1 ص: 105-107

وجعل رزقى تحت ظل رمحى وجعل الذل والصغار على من خالف أمرى ومن تشبه بقوم فهو منهم والمشركون من قريش وغيرهم الذين أخبر القرآن بشركهم واستحل النبي دماءهم وأموالهم وسبى حريمهم وأوجب لهم النار كانوا مقرين بأن الله وحده خلق السموات والأرض وكان المشركون الذين جعلوا معه آلهة أخرى مقرين بأن آلهتهم مخلوقة ولكنهم كانوا يتخذونهم شفعاء ويتقربون بعبادتهم اليه كما قال تعالى وهذا كما كانوا يقولون له بنات فقال تعالى { وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكُذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَىٰ لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ وَأَنَّهُمْ مُّفْرَطُونَ } النحل 62 وقد قال تعالى { وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ } {58} يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ } {59} لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ } {60} النحل 58-60 والمشركون الذين وصفهم الله ورسوله بالشرك أصلهم صنفان قوم نوح وقوم إبراهيم فقوم نوح كان أصل شركهم العكوف على قبور الصالحين ثم صوروا تماثيلهم ثم عبدوهم وقوم إبراهيم كان أصل شركهم عبادة الكواكب والشمس والقمر وكل من هؤلاء يعبدون الجن فإن الشياطين قد تخاطبهم وتعينهم على أشياء وقد يعتقدون أنهم يعبدون الملائكة وإن كانوا في الحقيقة إنما يعبدون الجن فإن الجن هم الذين يعينونهم ويرضون بشركهم قال تعالى { وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ } {40} قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيِّنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرَهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ } {41} سبأ 40-41 والملائكة لا تعينهم على الشرك لا فى المحيا ولا فى الممات ولا يرضون بذلك ولكن الشياطين قد تعينهم وتتصور لهم فى صور الأدميين فيرونهم بأعينهم ويقول أحدهم أنا إبراهيم أنا المسيح أنا محمد أنا الخضر أنا أبو بكر أنا عمر أنا عثمان أنا على أنا الشيخ فلان وقد يقول بعضهم عن بعض هذا هو النبي فلان أو هذا هو الخضر ويكون أولئك كلهم جنا يشهد بعضهم لبعض والجن كالإنس فمنهم الكافر ومنهم الفاسق ومنهم العاصي¹

العلم الإلهي لا يجوز أن يستدل فيه بقياس تمثيل ولا بقياس شمولى

قال تعالى { وَمَا يَكُومُ مِّنْ نُّعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ تُمْ إِذَا مَسَّكُمْ الضَّرُّ فَالْيَهُ تَجَارُونَ } {53} ثُمَّ إِذَا كَسَفَ الضَّرُّ عَنْكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ } {54} لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ } {55} وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَاهُمْ تَاللَّهِ لِنَسْأَلَنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَفْتَرُونَ } {56} وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ } {57} وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ } {58} يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ } {59} لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ } {60} وَلَوْ يَوَازِدُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ } {61} وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكُذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَىٰ لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ وَأَنَّهُمْ مُّفْرَطُونَ } {62} تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ

¹مجموع الفتاوى ج: 1 ص: 157

وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ {63} وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ {64} النحل 54-64 فإن الأمثال المضروبة وهي الأقيسة العقلية سواء كانت قياس شمول أو قياس تمثيل ويدخل في ذلك ما يسمونه براهين وهو القياس الشمولي المؤلف من المقدمات اليقينية وإن كان لفظ البرهان في اللغة أعم من ذلك كما سمي الله آيتي موسى برهانيين ومما يوضح هذا أن العلم الإلهي لا يجوز أن يستدل فيه بقياس تمثيل يستوي في الأصل والفرع ولا بقياس شمولي تستوي أفراده فإن الله سبحانه وتعالى ليس كمثله شيء فلا يجوز أن يمثل بغيره ولا يجوز أن يدخل هو وغيره تحت قضية كلية تستوي أفرادها ولهذا لما سلك طوائف من المتفلسفة والمتكلمة مثل هذه الأقيسة في المطالب الإلهية لم يصلوا بها إلى يقين بل تناقضت أدلتهم وغلب عليهم بعد التناهي الحيرة والاضطراب لما يرونه من فساد أدلتهم أو تكافئها ولكن يستعمل في ذلك قياس الأولى سواء كان تمثيلاً أو شمولاً كما قال تعالى { وَبِاللَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى } النحل 60 مثل أن نعلم أن كل كمال ثبت للممكن أو المحدث فالواجب القديم أولى به وكل كمال ثبت للمخلوق المرئوب المعلول المدبر فإنما استفادته من خالقه وربّه ومدبره فهو أحق به منه وأن كل نقص وعيب وجب نفيه عن شيء مامن أنواع المخلوقات والمحدثات والممكنات فإنه يجب نفيه عن الرب تبارك وتعالى بطريق الأولى وأنه أحق بالأمور الوجودية من كل موجود والأمور العدمية الممكن بها أحق ونحو ذلك ومثل هذه الطرق هي التي كان يستعملها السلف والأئمة في مثل هذه المطالب كما استعمل نحوها الإمام أحمد ومن قبله وبعده من أئمة أهل الإسلام وبمثل ذلك جاء القرآن في تقرير أصول الدين من مسائل التوحيد والصفات ونحو ذلك مثال ذلك أنه سبحانه لما أخبر بالمعاد والعلم به تابع للعلم بإمكانه فإن الممتنع لا يجوز أن يكون بين سبحانه وإمكانه أتم بيان ولم يسلك في ذلك ما يسلكه طوائف من أهل الكلام حيث يثبتون الإمكان الخارجي بمجرد الإمكان الذهني فيقولون هذا ممكن لأنه لو قدر وجود لم يلزم من تقديره وجوده محال فإن الشأن في هذه المقدمة فمن أين يعلم أنه لا يلزم من تقدير وجوده محال والمحال هنا أعم من المحال لذاته أو لغيره والإمكان الذهني حقيقته عدم العلم بالامتناع وعدم العلم بالامتناع لا يستلزم العلم بالإمكان الخارجي بل يبقى الشيء في الذهن غير معلوم بالامتناع ولا معلوم الإمكان الخارجي وهذا هو الإمكان الذهني فإله سبحانه وتعالى لم يكتف في بيان إمكان المعاد بهذا إذ يمكن أن يكون الشيء ممتنعاً ولو لغيره وإن لم يعلم الذهن امتناعه بخلاف الإمكان الخارجي فإنه إذا علم بطل أن يكون ممتنعاً والإنسان يعلم الإمكان الخارجي تارة بعلمه بوجود الشيء وتارة بعلمه بوجود نظيره وتارة بعلمه بوجود ما هو أبلغ منه فإن وجود الشيء دليل على أن ما هو دونه أولى بالإمكان منه ثم إنه إذا بين كون الشيء ممكناً فلا بد من بيان قدرة الرب عليه وإلا مجرد العلم بإمكانه لا يكفي في إمكان وقوعه إن لم تعلم قدرة الرب على ذلك فبين سبحانه هذا كله بمثل قوله { أَوْلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلاً لَّا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلَّا كُفُوراً } الإسراء 99 وكذلك ما استعمله سبحانه في تنزيهه وتقديسه عما أضافوه إليه من الولادة سواء سموها حسية أو عقلية كما تزعمه الفلاسفة الصابئون من تولد العقول العشرة والنفوس الفلكية التسعة التي هم مضطربون فيها هل هي جواهر أو أعراض وقد يجعلون العقول بمنزلة الذكور والنفوس بمنزلة الأنثى ويجعلون ذلك آباءهم وأمهاتهم وأهتهم وأربابهم القريبة وعلمهم بالنفوس أظهر لوجود الحركة الدورية الدالة على الحركة الإرادية الدالة على النفس المحركة وذلك شبيه بقول مشركي العرب وغيرهم الذين جعلوا له بنين وبنات قال تعالى { وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَفُوا لَهُ بَيِّنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُصِفُونَ } الأنعام 100 وقال تعالى { أَلَا إِنَّهُمْ مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ {151} وَوَدَّ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ } {152} الصفات 151-152 وكانوا يقولون الملائكة بنات الله كما يزعم هؤلاء أن النفوس هي الملائكة وهي متولدة عن الله فقال

تعالى { وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ } {57} وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ {58} يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ } {59} لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السُّوءِ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ } {60} النحل 57-60 إلى قوله { وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَىٰ لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ وَأَنَّهُمْ مُّفْرَطُونَ } {62} النحل 62 وقال تعالى { وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ } {15} أَمْ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُم بِالْبَنِينَ } {16} وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ } {17} أَوْ مِنْ يَنْشَأُ فِي الْحُلِيِّةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ } {18} وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا أَشْهَدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ } {19} الزخرف 15-19 وقال تعالى { أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ } {19} النجم 19 إلى قوله { أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنثَىٰ } {21} تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ } {22} النجم 21-22 أي جائزة وغير ذلك في القرآن بين سبحانه أن الرب الخالق أولى بأن ينزهه عن الأمور الناقصة منكم فكيف تجعلون له ما تكرهون أن يكون لكم تستخفون من إضافته إليكم مع أنه واقع لا محالة ولا تنزعونه عن ذلك وتنفونه عنه وهو أحق بنفي المكروهات المنقصات منكم ¹

القياس تارة تعتبر فيه القدر المشترك من غير اعتبار الأولوية وتارة يعتبر فيه الأولوية فيؤلف على وجه قياس الأولى وهو إن كان قد يجعل نوعاً من قياس الشمول والتمثيل فله خاصة يمتاز بها عن سائر الأنواع وهو أن يكون الحكم المطلوب أولى بالثبوت من الصورة المذكورة في الدليل الدال عليه وهذا النمط هو الذي كان السلف والأئمة كالإمام أحمد وغيره من السلف يسلكونه من القياس العقلي في أمر الربوبية وهو الذي جاء به القرآن وذلك أن الله سبحانه لا يجوز أن يدخل هو وغيره تحت قياس الشمول الذي تستوي أفرادها ولا تحت قياس التمثيل الذي يستوي فيه حكم الأصل والفرع فإن الله تعالى ليس كمثل شيء لا في نفسه المذكورة بأسمائه ولا في صفاته ولا في أفعاله ولكن يسلك في شأنه قياس الأولى كما قال والله المثل الأعلى فإنه من المعلوم أن كل كمال ونعت ممدوح لنفسه لا نقص فيه يكون لبعض الموجودات المخلوقة المحدثة فالرب الخالق الصمد القيوم القديم الواجب الوجود بنفسه هو أولى به وكل نقص وعيب يجب أن ينزه عنه بعض المخلوقات المحدثة الممكنة فالرب الخالق القدوس السلام القديم الواجب وجوده بنفسه هو أولى بأن ينزه عنه ²

المشركون كانت أنفسهم عندهم أعظم من الله سبحانه

وأما قوله تعالى { أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنثَىٰ } {21} تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ } {22} النجم 21-22 أي قسمة جائزة عوجاء إذ تجعلون لكم ما تحبون وهم الذكور وتجعلون لى الإناث وهذا من قولهم

¹ الفتاوى الكبرى ج: 1 ص: 446-450 و درء التعارض ج: 1 ص: 29

² العقيدة الأصفهانية ج: 1 ص: 74 و العقيدة الأصفهانية ج: 1 ص: 117

الملائكة بنات الله حيث جعلوا له أولادا إناثا وهم يكرهون أن يكون ولد أحدهم أنثى كالنصارى الذين يجعلون لله ولدا ويجلون الراهب الكبير أن يكون له ولد وأما اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى فلما قال تعالى { أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنثَى } النجم 21 فسرها طائفة منهم الكلبى بأنهم كانوا يقولون هذه الأصنام بنات الله وهذا هو الذى ذكره طائفة من المتأخرين وليس كذلك فإنهم لم يكونوا يقولون عن هذه الأصنام أنها بنات الله وإنما قالوا ذلك عن الملائكة كما ذكر الله عنهم فى قوله تعالى بعد هذا { إِنَّ الدِّينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لَيْسُمُونَ الْمَلَائِكَةَ تَسْمِيَةَ الْأُنثَى } النجم 27 وقال { وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا أَشْهَدُوا خَلْقَهُمْ } الزخرف 19 وقال تعالى { وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ } الزخرف 17 فإن الولد يماثل أباه وكذلك الشريك يماثل شريكه فهم ضربوا الإناث مثلا وهم جعلوا هذه شركاء الله سبحانه فكانوا يجعلونها أندادا لله والشريك كالأخ فجعلوا له أولادا إناثا وشركاء إناثا فجعلوا له بنات وأخوات وهم لا يحبون أن تكون لأحدهم أنثى لا بنت ولا أخت بل إذا كان الأب يكره أن تكون له بنت فالأخت أشد كراهة له منها ولم يكونوا يورثون البنات والأخوات فتبين فرط جهلهم وظلمهم إذ جعلوا الله مالا يرضونه لأنفسهم فكانت أنفسهم عندهم أعظم من الله سبحانه وهذا كما ضرب لهم مثلا فقال تعالى { وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيْبًا مِّمَّا رَزَقْنَاهُمْ تَالِهًا لَّيْسَالْنَ عَمَّا كُنْتُمْ تَفْتَرُونَ } 56 { وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ } 57 { وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ } 58 { يَتَوَارَى مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ } 59 { لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ } 60 { وَلَوْ يُوَاقِدُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ } 61 { وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكُذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَى لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ وَأَنَّهُمْ مُّفْرَطُونَ } 62 { تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فزَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهَوُ وِلِيُّهُمْ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ } 63 { وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ } 64 { النحل 56-60 }
{ ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِّنْ أَنْفُسِكُمْ هَلْ لَكُمْ مِّنْ مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِّنْ شُرَكَاءَ فِي مَّا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ } الروم 28¹

وأما انكار الباطل فقد نزه الله نفسه عن الوالد والولد وكفر من جعل له ولدا أو والدا أو شريكا فقال تعالى فى السورة التى تعدل ثلث القرآن التى هى صفة الرحمن ولم يصح عن النبى فى فضل سورة من القرآن ما صح فى فضلها حتى أفرد الحفاظ مصنفات فى فضلها كالدارقطنى وأبى نعيم وأبى محمد الخلال وأخرج أصحاب الصحيح فيها أحاديث متعددة قال فيها (قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ } 1 { اللَّهُ الصَّمَدُ } 2 { لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ } 3 { وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ } 4 { الاخلاص 1-4 } وعلى هذه السورة اعتماد الأئمة فى التوحيد كالإمام أحمد والفضيل بن عياض وغيرهما من الأئمة قبلهم وبعدهم فنفى عن نفسه الأصول والفروع والنظراء وهى جماع ما ينسب اليه المخلوق من الأدميين والبهائم والملائكة والجن بل والنبات ونحو ذلك فإنه ما من شىء من المخلوقات الا ولا بد أن يكون له شىء يناسبه اما أصل واما فرع واما نظير أو اثنان من ذلك أو ثلاثة وهذا فى الأدميين والجن والبهائم

¹مجموع الفتاوى ج: 27 ص: 363-365

ظاهر وأما الملائكة فانهم وان لم يتوالدوا بالتناسل فلهم الامثال والاشباه ولهذا قال سبحانه
{وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ} {49} فَفِرُوا إِلَى اللَّهِ {50} الذاريات 49-50 قال بعض
السلف لعلكم تتذكرون فتعلمون أن خالق الأزواج واحد ولهذا كان في هذه السورة الرد على من
كفر من اليهود والنصارى والصابئين والمجوس والمشركين فإن قوله { لَمْ يَلِدْ } {الخلاص 3
رد لقول من يقول ان له بنين وبنات من الملائكة أو البشر مثل من يقول الملائكة بنات الله أو يقول
المسيح أو عزير ابن الله كما قال تعالى عنهم { وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ
لَهُمُ الْحُسْنَىٰ لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ وَأَنَّهُمْ مُّفْرَطُونَ } النحل 62 وهو قول من قال من العرب ان
الملائكة بنات الله كما قال تعالى عنهم { وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ
الْحُسْنَىٰ لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ وَأَنَّهُمْ مُّفْرَطُونَ } النحل 62 وهو قول من قال من العرب ان الملائكة
بنات الله وقال تعالى { وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيْبًا مِّمَّا رَزَقْنَاهُمْ تَالِهًا لَّذِينَ لَمْ يَدْعُوا أَنَّهُمْ
مُشْرِكُونَ } {56} وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ } {57} وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ
مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ } {58} يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ
أَلَّا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ } {59} لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السُّوءِ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ وَهُوَ الْعَزِيزُ
الْحَكِيمُ } {60} النحل 56-60¹

التسبيح يقتضى التنزيه والتعظيم

قال تعالى { وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيْبًا مِّمَّا رَزَقْنَاهُمْ تَالِهًا لَّذِينَ لَمْ يَدْعُوا أَنَّهُمْ مُشْرِكُونَ } {56}
وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ } {57} وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ
كَظِيمٌ } {58} يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَّا سَاءَ مَا
يَحْكُمُونَ } {59} لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السُّوءِ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ } {60}
النحل 56-60 والأمر بتسبيحه يقتضى أيضا تنزيهه عن كل عيب وسوء وإثبات صفات الكمال له
فإن التسبيح يقتضى التنزيه و التعظيم و التعظيم يستلزم إثبات المحامد التى يحمد عليها فيقتضى
ذلك تنزيهه و تحميده و تكبيره و توحيده²

الله سبحانه هو المتصف بصفات الكمال وهو المستحق للعبادة

وقد بين الله سبحانه انه احق بالكمال من غيره وان غيره لا يساويه فى الكمال فى مثل قوله تعالى
{ أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ } النحل 17 وقد بين ان الخلق صفة كمال وان الذى يخلق
افضل من الذى لا يخلق وان من عدل هذا بهذا فقد ظلم وقال تعالى وهذا كقوله { وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ
بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ } {58} يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ
يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَّا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ } {59} لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السُّوءِ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ

¹مجموع الفتاوى ج: 2 ص: 440-438

²مجموع الفتاوى ج: 16 ص: 126

وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ {60} وَلَوْ يُوَازِدُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ {61} وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكُذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَىٰ لَا جَرَمَ أَنْ لَهُمُ النَّارُ وَأَنَّهُمْ مُّفْرَطُونَ {62} النحل 58-62 حيث

كانوا يقولون الملائكة بنات الله وهم يكرهون ان يكون لأحدهم بنت فيعدون هذا نقصا وعبيا والرب تعالى احق بتنزيهه عن كل عيب ونقص منكم فان له { الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ } النحل 60 فكل كمال ثبت للمخلوق فالخالق احق بثبوته منه اذا كان مجردا عن النقص وكل ما ينزه عنه المخلوق من نقص وعيب فالخالق اولى بتنزيهه عنه وقال تعالى { هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ } الزمر 9 وهذا يبين ان العالم اكمل ممن لا يعلم وقال تعالى { وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ } {19} وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ } {20} وَلَا الظُّلُّ وَلَا الْحُرُورُ } {21} وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشَاءُ وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ } {22} فاطر 19-22 فبين ان البصير اكمل والنور اكمل والظل اكمل وحينئذ فالمتصف به اولى { وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ } النحل 60 ومثل هذا في القرآن متعدد من وصف الاصنام بسلب صفات الكمال كعدم التكلم والفعل وعدم الحياة ونحو ذلك مما يبين ان المتصف بذلك منتقص معيب كسائر الجمادات وان هذه الصفات لا تسلب الا عن ناقص معيب واما رب الخلق الذي هو اكمل من كل موجود فهو احق الموجودات بصفات الكمال وانه لا يستوى المتصف بصفات الكمال والذي لا يتصف بها وهو يذكر ان الجمادات في العادة لا تقبل الاتصاف بهذه الصفات فمن جعل الواجب الوجود لا يقبل الاتصاف فقد جعله من جنس الاصنام الجامدة التي عابها الله تعالى وعاب عابديها ولهذا كانت القرامطة الباطنية من اعظم الناس شركا وعبادة لغير الله اذ كانوا لا يعتقدون في الههم انه يسمع او يبصر او يغنى عنهم شيئا والله سبحانه لم يذكر هذه النصوص لمجرد تقرير صفات الكمال له بل ذكرها لبيان انه المستحق للعبادة دون ما سواه فأفاد الاصلين اللذين بهما يتم التوحيد وهما اثبات صفات الكمال ردا على اهل التعطيل وبيان انه المستحق للعبادة لا اله الا هو ردا على المشركين والشرك في العالم اكثر من التعطيل ولا يلزم من اثبات التوحيد المنافي للاشراك ابطال قول اهل التعطيل ولا يلزم من مجرد اثبات المبطل لقول المعطلة الرد على المشركين الا ببيان اخر والقرآن يذكر فيه الرد على المعطلة تارة كالرد على فرعون وامثاله ويذكر فيه الرد على المشركين وهذا اكثر لان القرآن شفاء لما في الصدور ومرض الاشراك اكثر في الناس من مرض التعطيل¹

الأقيسة العقلية

فلما كان في الأمم كفار و منافقون يكفرون ببعض الرسالة دون بعض إما في القدر وإما في الوصف كما أن فيهم كفار و منافقون يكفرون بأصل الرسالة وكان في الكفار بأصل الرسالة من قال أن الرسول شاعر وساحر وكاهن ومعلم ومجنون ومفتري كما كان رئيس قريش وفيلسوفها وحكيمها الوليد بن المغيرة الوحيد المذكور في قوله تعالى { ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا } {11} وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا } {12} وَبَنِينَ شُهُودًا } {13} وَمَهْدَتْ لَهُ تَمْهِيدًا } {14} ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ } {15} كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا

¹مجموع الفتاوى ج: 6 ص: 81

عَبِيداً {16} سَأَرَ هُفَّهُ صَعُوداً {17} إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ {18} فَفُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ {19} ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ {20} ثُمَّ نَظَرَ {21} ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ {22} ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ {23} فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْتَرُ {24} إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ {25} المدثر 11-25 فإنه صنع صنع الفيلسوف المخالف للرسول في تفكيره أولاً الذي هو طلب الانتقال من تصور طرفي القضية إلى المبادئ الموجبة للتصديق ليظفر بالحد الأوسط ثم قدر ثانياً والتقدير هو القياس وهو الانتقال من المبادئ إلى المطلوب بالقياس المنطقي الشمولي ولعمري إنه لصواب إذا صحت مقدماته وإن كانت النتيجة في الأغلب أموراً كلية ذهنية ثبوتها في الأذهان لا في الأعيان كالعلوم الرياضية من الأعداد والمقادير فإن العدد المجرد عن المعدود والمقدار المجرد عن الأجسام إنما يوجد في الذهن لكن أنى وأكثر مقدماته في الإلهيات دعاوى يدعى فيها بعموم وأن القضية من المسلمات بلا حجة ومتى لم يكن في القياس قضية كلية معلومة لم تقدر المطلوب وهو يلبسون المهملات التي هي في معنى الجزئيات بالكليات العامة المسلمات أو يدعى فيها العموم بنوع من قياس التمثيل ومعلوم أنه لا بد في كل قياس من قضية كلية وعامة القضايا الكلية التي لهم فيها المطالب الإلهية لا يعلم كونها كلية عامة إذ عمومها لا يعلم إلا بمجرد قياس التمثيل الذي قد يكون من أفسد القياس المقتضى لتشبيهه الله بخلقه كما يقولون الواحد لا يصدر عنه إلا واحد وليس معهم إلا تشبيهه خالق السموات والأرض ورب العالمين بالطباع كطبيعة الماء والنار مع أن الواحد الذي يثبتونه في الإلهيات وفي المنطق أيضاً الذين يجعلون قضية الأنواع مركبة منه وهو الجنس والفصل لا حقيقة لها ولا توجد إلا في الأذهان لا في الأعيان وقد بسطنا الكلام على ذلك في مواضع وبيننا أن ما يثبتونه من العقليات التي هي الجواهر العقلية المجردة عن المادة وهي العقل والنفس والمادة والصورة التي ليست بجسم ولا عرض لا حقيقة لها في الخارج وإنما تقدر في الأذهان لا في الأعيان وكذلك ما يثبتونه من الواحد الذي يصفون به واجب الوجود ومن الواحد الذي يجعلون الأنواع نتركب منه إنما يوجد في الأذهان لا في الأعيان والقياس العقلي الذي يحتجون به لا بد فيه من قضية كلية والقياس نوعان قياس الشمول وقياس التمثيل والناس متنازعون في مسمى القياس فقيل هو حقيقة في التمثيل مجاز في الشمول كما ذكر ذلك أبو حامد وأبو محمد المقدسي وغيرهما وقيل هو حقيقة في عكس ذلك كما قاله ابن حزم وغيره من نفاة قياس التمثيل وقيل بل اسم القياس يتناولهما وهذا قول جمهور الناس واسم القياس العقلي يدخل فيه هذا وهذا لكن من الناس من ظن أن قياس التمثيل لا يفيد اليقين ولا يستعمل في العقليات كما ذهب إليه أبو المعالي وأبو حامد والرازي وأبو محمد والأمدى وآخرون من أهل المنطق وأما الجمهور فعندهم كلا القياسين سواء وهذا هو الصواب فإن مأل القياسين إلى شيء واحد وإنما يختلف بترتيب الدليل فإن القائل إذا قال النبيذ المتنازع فيه حرام لأنه مسكر فكان حراماً قياساً على خمر العنب فلا بد له أن يثبت أن السكر هو مناط التحريم وهو الذي يسمى في قياس التمثيل مناطاً وعلة وأمانة ومشاركة ووضعاً ونحو ذلك ولا بد في القياس الصحيح من أن يقيم دليلاً على أن السكر مناط التحريم بحيث إذا وجد السكر وجد التحريم فإذا صاغ الدليل بقياس الشمول فإن النبيذ مسكر وكل مسكر حرام فالسكر في هذا النظم هو الحد الأوسط المكرر وهو العلة في قياس التمثيل ولا بد له في هذا القياس من أن يثبت هذه القضية الكلية الكبرى وهي قوله كل مسكر حرام فما به ثبتت هذه القضية في هذا النظم يثبت به أنه مناط التحريم في ذلك النظم لا فرق بينهما وإذا قال القائل إثبات تأثير الوصف وكونه مناط الحكم هو عمدة القياس وهو جواب سؤال المطالبة وبيان كون الوصف بالشمول هو مناط الحكم وهذا لا يثبت إلا بأدلة ظنية قيل له وإثبات عموم القضية الكبرى في قياس الشمول هو عمدة القياس فإن الصغرى في الغالب تكون معلومة كما يكون ثبوت الوصف في الفرع معلوماً وإذا كان ثبوت

الوصف في الفرع قد يحتاج إلى دليل كما قيل تحتاج المقدمة الصغرى إلى دليل وإثبات المقدمة الكبرى لا يتأتى إلا بأدلة ظنية ونفس ما به يثبت عموم القضية يثبت تأثير الوصف المشترك لا فرق بينهما أصلاً واستعمال كلا القياسين في الأمور الالهية لا يكون إلا على وجه الأولى والأخرى وبهذه الطريقة جاء القرآن وهي طريقة سلف الأمة وأئمتها فان الله سبحانه لا يماثله شيء من الموجودات في قياس التمثيل ولا أن يدخل في قياس شمول تتماثل أفراد بل ما ثبت لغيره من الكمال الذي لا نقص فيه بوجه من الوجوه فهو أحق به وما نزه عنه غيره من النقائص فهو أحق بالتنزيه منه كما قال تعالى **{لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ}** النحل 60 وقال تعالى **{ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِنْ أَنْفُسِكُمْ هَلْ لَكُمْ مِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ}** الروم 28 وقد بسطنا الكلام على هذا في غير هذا الموضوع وبيننا أن ما يستفاد بـ القياس الشمولى في عامة الأمور قد يستفاد بدون ذلك فتعلم أحكام الجزئيات الداخلة في القياس بدون معرفة حكم القضية الكلية كما إذا قيل الكل أعظم من الجزء والضدان لا يجتمعان فما من كل معين وضدين معينين إلا وإذا علم أن هذا جزء هذا وان هذا ضد هذا علم أن هذا أعظم من هذا وان هذا لا يجمع هذا بدون أن يخطر بالبال قضية كلية ان كل ضدين لا يجتمعان وان كل كل فهو أعظم من جزء وكذلك إذا قيل النقيضان لا يجتمعان ولا يرتفعان فما من نقيضين يعرف أنهما نقيضان إلا ويعرف أنهما لا يجتمعان ولا يرتفعان بدون أن يستحظر أن كل نقيضين لا يجتمعان ولا يرتفعان فعامة المطالب يستغنى فيها عن القياس المنطقي المتضمن للكبرى الذي لا بد فيه من قضية كلية والأمور المعينات لا تعلم بمجرد القياس العقلى وإنما يعلم بالقياس القدر المشترك بينها وبين غيرها وهم يسلمون ذلك وبيننا أن الأدلة الدالة على الصانع هي آيات تدل بنفسها على نفسه المقدسة وبيننا الفرق بين دلالة الآيات ودلالة القياس وان الأدلة أكمل وأنفع وطريقة القياس تابعة لها ودونها في المنفعة والكمال والقرآن جاء بهذه وهذه ومعرفة الالهيات والنبوات وغيرها فتلك الطريقة أكمل وأتم وهؤلاء يزعمون أنه لا ينال مطلوب فطرى إلا بطريقة القياس الذى لا بد فيه من قضية كلية والقضية الكلية لا تفيد إلا أمراً كلياً عقلياً لا تفيد معرفة شيء معين وكل موجود فهو معين فكيف يقول عاقل مع هذا أنه لا ينال علم إلا بهذه الطريق ثم أنهم في ضلالهم يظنون أن علم الأنبياء بل وعلم الرب سبحانه إنما حصل بواسطة القياس المنطقي وان النبى له قوة حدسية يظفر بالحد الأوسط في القياس المنطقي بدون معلم فيكون أكمل من غيره فيجعلون علمه بالغيب من هذا الباب ولم يدرك بمثل هذا القياس علوم طبيعية أو حسابية ونحو ذلك فمن أين أنه لا ينال علم إلا به ومن أين أنه لا مواد يقينية إلا ما يدعيه المدعى مما عنده من الحدسيات المعتادة الظاهرة والباطنة والبدهييات المعتادة والمتواترات والمجربات المعتادة والحدسيات المعتادة والحس الباطن والظاهر والتجربة ونحو ذلك لا يعلم بمجرد إلا أمر معين جزئى وذلك لا يصلح أن يكون مقدمة في القياس ولكن يعلم في العموم إما بواسطة قياس تمثيل وإما بعلم ضرورى يحدثه الله في القلب ابتداء وإذا أحدث علماً ضرورياً عاماً لأفراد فاحداث العلم ببعض تلك الأفراد سهل فقل أن يستفاد بطريقهم علم بنتيجة إلا والعلم بالنتيجة فيه ممكن بالطريق الذى به عرفت المقدمات أو أسهل فلا يكون في قياسهم الا زيادة تطويل وتهويل وتضليل وقد بسطنا الكلام على المنطق اليونانى بما فيه من حق وباطل ونافع وضار في غير هذا الموضوع ونفي العلم إلا بهذا القياس ونفي كون القياس يقينياً إلا بهذه المقدمات قول بلا علم وتكذيب بما لم يحط المكذب بعلمه ولهذا كانت الطريقة النبوية السلفية أن يستعمل في العلوم الالهية قياس الأولى كما قال الله تعالى **{وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ}** النحل 60 إذ لا يدخل الخالق والمخلوق تحت قضية كلية تستوى أفرادها ولا يتماثلان في شيء من الأشياء بل يعلم أن كل كمال لا نقص فيه بوجه ثبت للمخلوق فالخالق أولى

به وكل نقص وجب نفيه عن المخلوق فالخالق أولى بنفيه عنه وأمثال هذه الأقيسة العقلية التي من نوع الأمثال المضروبة في القرآن والله المثل الأعلى وقد بسطنا هذا في غير هذا الموضوع¹

طرق إثبات صفات الكمال

إثبات صفات الكمال له طرق أحدها ما نبهنا عليه من أن الفعل مستلزم للقدرة و لغيرها فمن النظائر من يثبت أولاً القدرة و منهم من يثبت أولاً العلم و منهم من يثبت أولاً الإرادة و هذه طرق كثير من أهل الكلام و هذه يستدل عليها بجنس الفعل و هي طريقة من لا يميز بين مفعول و مفعول كجهم بن صفوان و من إتبعه و هؤلاء لا يثبتون حكمة و لا رحمة إذ كان جنس الفعل لا يستلزم ذلك لكن هم أثبتوا بالفعل المحكم المتقن العلم و كذلك تثبت بالفعل النافع الرحمة و بالغايات المحمودة الحكمة و لكن هم متناقضون في الاستدلال بالإحكام و الإتقان على العلم إذ كان ذلك إنما يدل إذا كان فاعلاً لغاية يقصدها و هم يقولون إنه يفعل لا لحكمة ثم يستدلون بالأحكام على العلم و هو تناقض كما تناقضوا في المعجزات حيث جعلوها دالة على صدق النبي إما للعلم الضروري بذلك و إما لكونه لو لم تدل لزم العجز و هي إنما تدل إذا كان الفاعل يقصد إظهارها ليدل بها على صدق الأنبياء فإذا قالوا إنه لا يفعل شيئاً لشيء تناقضوا و أما الطريق الأخرى في إثبات الصفات و هي الاستدلال بالأثر على المؤثر و أن من فعل الكامل فهو أحق بالكمال و الثالثة طريقة قياس الأولى و هي الترجيح و التفضيل و هو أن الكمال إذا ثبت للمحدث الممكن المخلوق فهو للواجب القديم الخالق أولى و القرآن يستدل بهذه و هذه و هذه فالاستدلال بالأثر على المؤثر أكمل كقوله تعالى { وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً } فصلت 15 قال الله تعالى { أَوْلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً } فصلت 15 و هكذا كل ما في المخلوقات من قوة و شدة تدل على أن الله أقوى و أشد و ما فيها من علم يدل على أن الله أعلم و ما فيها من علم و حياة يدل على أن الله أولى بالعلم و الحياة و هذه طريقة يقر بها عامة العقلاء حتى الفلاسفة يقولون كل كمال في المعلوم فهو من العلة و أما الاستدلال بطريق الأولى فكقوله { **وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ** } النحل 60 و مثل قوله { ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِنْ أَنْفُسِكُمْ هَلْ لَكُمْ مِنْ مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ } الروم 28 و أمثال ذلك مما يدل على أن كل كمال لا نقص فيه يثبت للمحدث المخلوق الممكن فهو للقديم الواجب الخالق أولى من جهة أنه أحق بالكمال لأنه أفضل و ذاك من جهة أنه هو جعله كاملاً و أعطاه تلك الصفات و إسمه العلي يفسر بهذين المعنيين يفسر بأنه أعلى من غيره قدراً فهو أحق بصفات الكمال و يفسر بأنه العالي عليهم بالقهر و الغلبة فيعود إلى أنه القادر عليهم و هم المقدورون و هذا يتضمن كونه خالقاً لهم و رباً لهم و كلاهما يتضمن أنه نفسه فوق كل شيء فلا شيء فوقه كما قال النبي صلى الله عليه و سلم أنت الأول فليس قبلك شيء و أنت الآخر فليس بعدك شيء و أنت الظاهر فليس فوقك شيء و أنت الباطن فليس دونك شيء فلا يكون شيء قبله و لا بعده و لا فوقه و لا دونه كما أخبر النبي صلى الله عليه و سلم و أثنى به على ربه و إلا فلو قدر أنه تحت بعض المخلوقات كان ذلك نقصاً و كان ذلك أعلى منه و إن قيل إنه لا داخل العالم و لا خارجه كان ذلك تعطيلاً له فهو منزّه عن هذا و هذا هو العلي الأعلى مع أن لفظ العلي و العلو لم يستعمل في القرآن عند

¹مجموع الفتاوى ج: 12 ص: 343- 350

الإطلاق إلا في هذا و هو مستلزم لذينك لم يستعمل في مجرد القدرة و لا في مجرد الفضيلة و لفظ العلو يتضمن الإستعلاء و غير ذلك من الأفعال إذا عدى بحرف الإستعلاء دل على العلو كقوله { ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ } الأعراف54 فهو يدل على علوه على العرش و السلف فسروا الإستواء بما يتضمن الإرتفاع فوق العرش كما ذكره البخاري في صحيحه عن أبي العالية في قوله { ثُمَّ اسْتَوَى } الأعراف54 قال إرتفع و كذلك رواه ابن أبي حاتم و غيره بأسانيدهم رواه من حديث آدم بن أبي إياس عن أبي جعفر عن أبي الربيع عن أبي العالية { ثُمَّ اسْتَوَى } الأعراف54 قال إرتفع¹

القرآن يستعمل في إثبات الالهية قياس الاولى

قال تعالى { وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَاهُمْ تَالِهَةً لَسَّانًا عَمَّا كُنْتُمْ تَفْتَرُونَ } {56} وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ } {57} وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ } {58} يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ } {59} لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ } {60} النحل 56-60 فقد يستدل بالمعين على المعين المساوى له في العموم والخصوص كالاستدلال باحدى كواكب السماء على الملازم كما يستدل بالجدى على بنات نعش وبنات نعش على الجدى ويستدل بالجدى على جهة الشمال وبجهة الشمال على الجدى ويستدل بالشمس على المشرق وبالمشرق على الشمس ومن هذا الباب ما ذكر من اخبار نبينا صلى الله عليه وسلم في كتب الانبياء قبله فانها صفات مطابقة له ليست اعم منه ولا اخص منه وكذلك سائر الامور المتلازمة فانه يستدل بأحد المتلازمين على ثبوت الاخر وبانتقائه على انتقائه فاذا كان المدلول معيناً كانت الاية معينة وقد تكون الاية تستلزم وجود المدلول من غير عكس كآيات الخالق سبحانه وتعالى فانه يلزم من وجوده وجدوده ولا يلزم من وجوده وجودها وهي كلها آيات دالة على نفسه المقدسة لا على امر كلى لا يمنع تصويره من وقوع الاشتراك فيه بينه وبين غيره بل ذلك مدلول القياس والقرآن يستعمل الاستدلال ب الايات ويستعمل ايضا في إثبات الالهية قياس الاولى وهو أن ما ثبت لموجود مخلوق من كمال لا نقص فيه فالرب احق به وما نزه عنه مخلوق من النقائص فالرب احق بتنزيهه عنه كما ذكر سبحانه وتعالى هذا في محاجته للمشركين الذين جعلوا له شركاء فقال { ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِنْ أَنْفُسِكُمْ هَلْ لَكُمْ مِنْ مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ شُرَكَاءَ فِي مَآ رَزَقْنَاكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ } الروم28 وقال تعالى { وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ } {57} وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ } {58} يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ } {59} لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ } {60} النحل57-60 وقال { أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ } {19} وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ

¹مجموع الفتاوى ج: 16 ص: 357-359

الأخرى {20} أَلَكُمُ الذَّكْرُ وَلَهُ الْأُنثَى {21} تَلْكَ إِذَا قِسْمَةٌ ضِيزَى {22} النجم 19-22 وكذلك في إثبات صفاته وإثبات النبوة والمعاد¹

ومثال ذلك أنه سبحانه لما أخبر بالمعاد والعلم به تابع للعلم بإمكانه فإن الممتنع لا يجوز أن يكون بين سبحانه إمكانه أتم بيان ولم يسلك في ذلك ما يسلكه طوائف من أهل الكلام حيث يثبتون الإمكان الخارجي بمجرد الإمكان الذهني فيقولون هذا ممكن لأنه لو قدر وجوده لم يلزم من تقدير وجوده محال فإن الشأن في هذه المقدمة فمن أين يعلم أنه لا يلزم من تقدير وجوده محال والمحال هنا أعم من المحال لذاته أو لغيره والإمكان الذهني حقيقته عدم العلم بالامتناع وعدم العلم بالامتناع لا يستلزم العلم بالإمكان الخارجي بل يبقى الشيء في الذهن غير معلوم بالامتناع ولا معلوم بالإمكان الخارجي وهذا هو الإمكان الذهني فإله سبحانه وتعالى لم يكتف في بيان إمكان المعاد بهذا إذ يمكن أن يكون الشيء ممتنعا ولو لغيره وإن لم يعلم الذهن امتناعه بخلاف الإمكان الخارجي فإنه إذا علم بطل أن يكون ممتنعا والإنسان يعلم الإمكان الخارجي تارة بعلمه بوجود الشيء وتارة بعلمه بوجود نظيره وتارة بعلمه بوجود ما هو أبلغ منه فإن وجود الشيء دليل على أن ما هو دونه أولى بالإمكان منه ثم إنه إذا بين كون الشيء ممكنا فلا بد من بيان قدرة الرب عليه وإلا فمجرد العلم بإمكانه لا يكفي في إمكان وقوعه إن لم تعلم قدرة الرب على ذلك فبين سبحانه هذا كله بمثل قوله {أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْزِبْ عَنْهُنَّ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} الأحقاف 33 فإنه من المعلوم ببداهة العقول أن خلق السموات والأرض أعظم من خلق أمثال بني آدم والقدرة عليه أبلغ وأن هذا الأيسر أولى بالإمكان والقدرة من ذلك وكذلك ما استعمله سبحانه في تنزيهه وتقديسه عما أضافوه إليه من الولادة سواء سموها حسية أو عقلية كما تزعمه النصراني من تولد الكلمة التي جعلوها جوهر الابن منه وكما تزعمه الفلاسفة الصابئون من تولد العقول العشرة والنفوس الفلكية التسعة التي هم مضطربون فيها هل هي جواهر أو أعراض وقد يجعلون العقول بمنزلة الذكور والنفوس بمنزلة الإناث ويجعلون ذلك آباءهم وأمهاتهم وآلهتهم وأربابهم القريبة وعلمهم بالنفوس أظهر لوجود الحركة الدورية الدالة على الحركة الإرادية الدالة على النفس المحركة لكن أكثرهم يجعلون النفس الفلكية عرضا لا جوهرًا قائما بنفسه وذلك شبيه بقول مشركي العرب وغيرهم الذين جعلوا له بنين وبنات وكانوا يقولون الملائكة بنات الله كما يزعم هؤلاء أن العقول أو النفوس هي الملائكة وهي متولدة عن الله فقال الله تعالى {وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهِ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ} {57} وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ} {58} يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ} {59} لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السُّوءِ وَاللَّهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} {60} وَلَوْ يُوَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ} {61} وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكُذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَىٰ لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ وَأَنَّهُمْ مُّفْرَطُونَ} {62} النحل 57-62 فبين سبحانه أن الرب الخالق أولى بأن ينزهه عن الأمور

¹الرد على المنطقيين ج: 1 ص: 351

الناقصة منكم فيكيف تجعلون له ما تكرهون أن يكون لكم وتستخفون من إضافته إليكم مع أنه واقع لا محالة ولا تنزهونه عن ذلك وتنفونه عنه وهو أحق بنفي المكروهات المنقصات منكم¹

كل من سوى بين الله وبين المخلوق في شيء من الأشياء فهو مشرك

وقد روى ابن أبي حاتم حدثنا أبي ثنا عمرو بن رافع ثنا يعقوب بن عبدالله عن جعفر عن سعيد بن جبير قال تكلمت اليهود في صفة الرب تبارك وتعالى فقالوا ما لم يعلموا ولم يروا فأنزل الله على نبيه { وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ } الزمر 67 فجعل صفته التي وصفه بها شركا وقال حدثنا أبي ثنا ابو نعيم ثنا الحكم يعني أبا معاذ عن الحسن قال عمدت اليهود فنظروا في خلق السموات والأرض والملائكة فلما فرغوا أخذوا يقدرونه فأنزل الله تعالى على نبيه { وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ } الزمر 67 وهذا يدل على أنه أعظم مما وصفه وأنهم لم يقدروه حق قدره وقوله { عَمَّا يُشْرِكُونَ } الزمر 67 فكل من جعل مخلوقا مثلا للخالق في شيء من الأشياء فأحبه مثل ما يحب الخالق أو صفة بمثل ما يوصف به الخالق فهو مشرك سوى بين الله وبين المخلوق في شيء من الأشياء فعدل بربه والرب تعالى لا كفؤ له ولا سمي له ولا مثل له ومن جعله مثل المعدوم والممتنع فهو شر من هؤلاء فإنه معطل ممثّل والمعطل شر من المشرك والله ثنى قصة فرعون في القرآن في غير موضع لاحتياج الناس الى الاعتبار بها فإنه حصل له من الملك ودعوى الربوبية والالهية والعلو ما لم يحصل مثله لأحد من المعطلين وكانت عاقبته الى ما ذكر الله تعالى وليس لله صفة يماثله فيها غيره فلماذا لم يجز أن يستعمل في حقه قياس التمثيل ولا قياس الشمول الذي تستوى أفراده فان ذلك شرك اذ سوى فيه بالمخلوق بل قياس الأولى فإنه سبحانه { وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى } الروم 27 فهو أحق من غيره بصفات الكمال وأحق من غيره بالتنزيه عن صفات النقص²

ان كل كمال حصل للمخلوق فهو من الرب سبحانه وتعالى وله المثل الأعلى فكل كمال حصل للمخلوق فالخالق أحق به وكل نقص تنزه عنه المخلوق فالخالق أحق أن ينزه عنه ولهذا كان الله { **الْمَثَلُ الْأَعْلَى** } النحل 60 فإنه لا يقاس بخلقه ولا يمثل بهم ولا تضرب له الامثال فلا يشترك هو والمخلوق في قياس تمثيل بمثل ولا في قياس شمول تستوى افراده بل له المثل الأعلى في السموات والأرض³

¹مجموع الفتاوى ج: 3 ص: 301-302 و درء التعارض ج: 1 ص: 35-37

²مجموع الفتاوى ج: 13 ص: 163-170

³مجموع الفتاوى ج: 5 ص: 201

الرسول صلى الله عليه وسلم شفيع الخلائق

قال تعالى { **وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ** } النحل 61 وهو صلى الله عليه وسلم شفيع الخلائق صاحب المقام المحمود الذي يغبطه به الأولون والآخرون فهو أعظم الشفعاء قدرا وأعلاهم جاها عند الله وقد قال تعالى عن موسى { **وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهًا** } الأحزاب 69 وقال عن المسيح { **وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ** } آل عمران 45 ومحمد صلى الله عليه وسلم أعظم جاها من جميع الأنبياء والمرسلين لكن شفاعته ودعاؤه إنما ينتفع به من شفيع له الرسول ودعا له فمن دعى له الرسول وشفيع له توسل الى الله بشفاعته ودعاؤه كما كان أصحابه يتوسلون الى الله بدعاؤه وشفاعته وكما يتوسل الناس يوم القيامة الى الله تبارك وتعالى بدعاؤه وشفاعته صلى الله عليه وعلى آله وسلم تسليما ولفظ التوسل في عرف الصحابة كانوا يستعملونه في هذا المعنى والتوسل بدعاؤه وشفاعته ينفع مع الإيمان به وأما بدون الإيمان به فالكفار والمنافقون لا تغنى عنهم شفاعاة الشافعين في الآخرة ولهذا نهى عن الاستغفار لعمه وأبيه وغيرهما من الكفار ونهى عن الاستغفار للمنافقين وقيل له { **سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ** } المنافقون 6 لكن الكفار يتفاضلون في الكفر كما يتفاضل أهل الإيمان في الإيمان قال تعالى { **إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ** } التوبة 37 فإذا كان في الكفار من خف كفره بسبب نصرته ومعونته فإنه تنفعه شفاعته في تخفيف العذاب عنه لا في إسقاط العذاب بالكلية كما في صحيح مسلم عن العباس ابن عبد المطلب أنه قال قلت يا رسول الله فهل نفعت أبا طالب بشيء فإنه كان يحوطك ويغضب لك قال نعم هو في ضحضاح من نار ولولا أنا لكان في الدرك الأسفل من النار وفي لفظ إن أبا طالب كان يحوطك وينصرك ويغضب لك فهل نفعه ذلك قال نعم وجدته في غمرات من نار فأخرجته الى ضحضاح وفيه عن أبي سعيد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ذكر عنده عمه أبو طالب فقال لعله تنفعه شفاعتي يوم القيامة فيجعل في ضحضاح من النار يبلغ كعبيه يغلى منهما دماغه وقال إن أهون أهل النار عذابا أبو طالب وهو منتعل بنعلين من نار يغلى منهما دماغه وكذلك ينفع دعاؤه لهم بأن لا يعجل عليهم العذاب في الدنيا كما كان يحكى نبيا من الأنبياء ضربه قومه وهو يقول اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون وروى أنه دعى بذلك أن اغفر لهم فلا تعجل عليهم العذاب في الدنيا قال تعالى { **وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ** } النحل 61¹

المغفرة العامة

¹مجموع الفتاوى ج: 1 ص: 144

قال تعالى { **وَلَوْ يُوَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ** } النحل 61 من المغفرة العامة التي دل عليها قوله يا عبادي إنكم تخطئون بالليل والنهار وأنا أغفر لكم الذنوب جميعا المغفرة بمعنى تخفيف العذاب او بمعنى تأخيره إلى أجل مسمى وهذا عام مطلقا ولهذا شفع النبي في ابي طالب مع موته على الشرك فنقل من غمرة من نار حتى جعل في ضحاح من نار في قدميه نعلان من نار يغلي منهما دماغه قال ولولا انا لكان في الدرك الأسفل من النار وعلى هذا المعنى دل قوله سبحانه { **وَلَوْ يُوَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهِمَا مِنْ دَابَّةٍ** } فاطر 45 وقال تعالى { **وَلَوْ يُوَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ** } النحل 61 { **وَمَا أَصَابَكُمْ مِّنْ مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ** } الشورى 30¹

{ فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ }

قال تعالى { **وَلَوْ يُوَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ** } النحل 61 فلا يموت أحد قبل أجله و لا يتأخر أحد عن أجله بل سائر الحيوان و الأشجار لها أجال لا تتقدم و لا تتأخر فإن أجل الشيء هو نهاية عمره و عمره مدة بقائه فالعمر مدة البقاء و الأجل نهاية العمر بالإنقضاء وقد ثبت في صحيح مسلم و غيره عن النبي صلى الله عليه و سلم أنه قال قدر الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات و الأرض بخمسين ألف سنة و كان عرشه على الماء و ثبت في صحيح البخاري أن النبي صلى الله عليه و سلم قال كان الله و لم يكن شيء قبله و كان عرشه على الماء و كتب في الذكر كل شيء و خلق السموات و الأرض و في لفظ ثم خلق السموات و الأرض و قد قال تعالى { **فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ** } النحل 61 و الله يعلم ما كان قبل أن يكون و قد كتب ذلك²

يجيء الوصف في القرآن مستعملا في الكذب

فالواصف ان لم يكن قوله مطابقا كان كاذبا ولهذا انما يجيء الوصف في القرآن مستعملا في الكذب بأنه وصف يقوم بالواصف من غير أن يقوم بالموصوف شيء كقوله سبحانه { **سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ** } الأنعام 139 { **وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِّتَقْتُرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتُرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ** } النحل 116 { **وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَى** } النحل 62 { **سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ** } الصافات 180 وقد جاء مستعملا في الصدق فيما أخرجاه في الصحيحين عن عائشة أن رجلا كان يكثر قراءة قل هو

¹ الفتاوى الكبرى ج: 1 ص: 433 ومجموع الفتاوى ج: 18 ص: 192

² مجموع الفتاوى ج: 8 ص: 516

الله أحد فقال النبي سلوه لم يفعل ذلك فقال لأنها صفة الرحمن فأنا أحبها فقال النبي صلى الله عليه وسلم اخبروه ان الله يحبه¹

مبدأ الاعتقاد الباطل والإرادة الفاسدة من لمة الشيطان

قال تعالى { تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ } {63} وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ } {64} النحل 63-64 والله خلق العبد يقصد الخير فيرجوه بعمله فإذا كذب بالحق فلم يصدق به ولم يرج الخير فيقصده ويعمل له كان خاسرا بترك تصديق الحق وطلب الخير فكيف إذا كذب بالحق وكره إرادة الخير فكيف إذا صدق بالباطل وأراد الشر فذكر عبدالله بن مسعود أن لقلب ابن آدم لمة من الملك ولمة من الشيطان فلمة الملك تصديق بالحق وهو ما كان من غير جنس الاعتقاد الفاسد ولمة الشيطان هو تكذيب بالحق وإيعاد بالشر وهو ما كان من جنس إرادة الشر وظن وجوده أما مع رجائه إن كان مع هوى نفس وإما مع خوفه إن كان غير محبوب لها وكل من الرجاء والخوف مستلزم للآخر فمبدأ العلم الحق والإرادة الصالحة من لمة الملك ومبدأ الاعتقاد الباطل والإرادة الفاسدة من لمة الشيطان قال الله تعالى { الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ } البقرة 268 وقال تعالى { إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ } آل عمران 175 أي يخوفكم أوليائه وقال تعالى { وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ } الأنفال 48 والشيطان وسواس خناس إذا ذكر العبد ربه خنس فإذا غفل عن ذكره وسوس فلهذا كان ترك ذكر الله سببا ومبدأ لنزول الاعتقاد الباطل والإرادة الفاسدة في القلب ومن ذكر الله تعالى تلاوة كتابه وفهمه ومذاكرة العلم كما قال معاذ بن جبل ومذاكرته تسبيح²

أهل الكتاب تفرقوا واختلفوا قبل إرسال محمد إليهم

قال تعالى { تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ } {63} وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ } {64} النحل 63-64 فإذا كان الشيطان قد زين لهم أعمالهم كان في هؤلاء من درست أخبار الأنبياء عندهم فلم يعرفوها³

¹مجموع الفتاوى ج: 6 ص: 319

²مجموع الفتاوى ج: 4 ص: 34

³النبوات ج: 1 ص: 25

فإن أهل الكتاب تفرقوا واختلفوا قبل إرسال محمد إليهم كما أخبر الله بذلك في غير موضع فقال تعالى { تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ } {63} وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ } {64} {النحل 63-64} فقد أخبر تعالى أنه أرسل إلى أمم من قبل محمد وأن الشيطان زين لهم أعمالهم وهو حين يبعث محمد وليهم وأنه أنزل إليهم الكتاب ليبين لهم الذي اختلفوا فيه وقد جاءت الأحاديث في السنن والمسند من وجوه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال تفرقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة وستفترق هذه الأمة على ثلاث وسبعين فرقة وإن كان بعض الناس كابن حزم يضعف هذه الأحاديث فأكثر أهل العلم قبلوها وصدقوها وفي الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال ذروني ما تركتكم فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم وإختلافهم على أنبيائهم فإذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه وإذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم وفي الصحيحين عنه أنه قال نحن الآخرون السابقون يوم القيامة بيد أنهم أوتوا الكتاب من قبلنا وأوتيناه من بعدهم فهذا يومهم الذي اختلفوا فيه فهدانا الله له الناس لنا فيه تبع غدا لليهود وبعد غد للنصارى وهذا معلوم بالتواتر أن أهل الكتاب اختلفوا وتفرقوا قبل إرسال محمد صلى الله عليه وسلم بل اليهود اختلفوا قبل مجيء المسيح ثم لما جاء المسيح اختلفوا فيه ثم اختلف النصارى اختلفا آخر¹

بين الله الفرقان بين الحق والباطل بكتابه ونبيه

قال تعالى { تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ } {63} وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ } {64} {النحل 63-64} وان الله بين الفرقان بين الحق والباطل بكتابه ونبيه فمن كان أعظم اتباعا لكتابه الذي أنزله ونبيه الذي أرسله كان أعظم فرقانا ومن كان أبعد عن اتباع الكتاب والرسول كان أبعد عن الفرقان واشتبه عليه الحق بالباطل كالذين اشتبه عليهم عبادة الرحمن بعبادة الشيطان والنبي الصادق بالمتنبيء الكاذب وآيات النبيين بشبهات الكذابين حتى اشتبه عليهم الخالق بالمخلوق فإن الله سبحانه وتعالى بعث محمدا بالهدى ودين الحق ليخرج الناس من الظلمات إلى النور ففرق به بين الحق والباطل والهدى والضلال والرشاد والغي والصدق والكذب والعلم والجهل والمعروف والمنكر وطريق أولياء الله السعداء وأعداء الله الأشقياء وبين ما عليه الناس من الاختلاف وكذلك النبيون قبله قال الله تعالى { كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ }²

¹مجموع الفتاوى ج: 16 ص: 489-493

²مجموع الفتاوى ج: 13 ص: 7

بين الرسول العمليات أحسن بيان

فان الله انزل الكتاب والميزان وأرى الناس آياته فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم ان القرآن حق وأما العمليات وما يسميه ناس الفروع والشرع والفقہ فهذا قد بينه الرسول أحسن بيان فما شئ مما أمر الله به أو نهى عنه أو حلله أو حرمه الا بين ذلك وقد قال تعالى { وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ } النحل 89 وقال تعالى { تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ } 63 { وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ } 64 { النحل 63-64 } فقد بين سبحانه أنه ما أنزل عليه الكتاب إلا ليبين لهم الذى اختلفوا فيه كما بين أنه أنزل جنس الكتاب مع النبيين ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه¹

أن الرسول إذا تكلم بكلام وأراد به خلاف ظاهره وضد حقيقته فلا بد أن يبين للأمة أنه لم يرد حقيقته وأنه أراد مجازه سواء عينه أو لم يعينه لا سيما فى الخطاب العلمى الذى أريد منهم فيه الاعتقاد والعلم دون عمل الجوارح فانه سبحانه وتعالى جعل القرآن نورا وهدى وبيانا للناس وشفاء لما فى الصدور وأرسل الرسل ليبين للناس على الله حجة بعد الرسل ثم هذا الرسول الأسمى العربى بعث بأفصح اللغات وأبين الالسنه والعبارات ثم الامه الذين أخذوا عنه كانوا أعمق الناس علما وأنصحهم للأمة وأبينهم للسنة فلا يجوز أن يتكلم هو وهؤلاء بكلام يريدون به خلاف ظاهره الا وقد نصب دليلا يمنع من حمله على ظاهره اما أن يكون عقليا ظاهرا مثل قوله وأوتيت من كل شئ فان كل أحد يعلم بعقله أن المراد اوتيت من جنس ما يؤتاه مثلها وكذلك { خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ } الأنعام 102 يعلم المستمع ان الخالق لا يدخل فى هذا العموم أو سمعيا ظاهرا مثل الدلالات فى الكتاب والسنة التى تصرف بعض الظواهر ولا يجوز أن يحيلهم على دليل خفى لا يستنبطه الا افراد الناس سواء كان سمعيا أو عقليا لأنه اذا تكلم بالكلام الذى يفهم منه معنى واعاده مرات كثيرة وخاطب به الخلق كلهم وفيهم الذكى والبليد والفقيه وغير الفقيه وقد أوجب عليهم أن يتدبروا ذلك الخطاب ويعقلوه ويتفكروا فيه ويعتقدوا موجهه ثم أوجب أن لا يعتقدوا بهذا الخطاب شيئا من ظاهره لأن هناك دليلا خفيا يستنبطه أفراد الناس يدل على أنه لم يرد ظاهره كان هذا تدليسا وتليبسا وكان نقيض البيان وضد الهدى وهو يالألغاز والاحاجى أشبه منه بالهدى والبيان فكيف اذا كانت دلالة ذلك الخطاب على ظاهره اقوى بدرجات كثيرة من دلالة ذلك الدليل الخفى على أن الظاهر غير مراد أم كيف اذا كان ذلك الخفى شبهة ليس لها حقيقة²

البدعة احب الى ابليس من المعصية

¹مجموع الفتاوى ج: 19 ص: 174

²مجموع الفتاوى ج: 6 ص: 361-362

قال تعالى { تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ } {63} وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ } {64}

النحل 63- 64 قال ائمة الاسلام كسفيان الثوري وغيره ان البدعة احب الى ابليس من المعصية لان البدعة لا يتاب منها والمعصية يتاب منها ومعنى قولهم ان البدعة لا يتاب منها ان المبتدع الذي يتخذ ديناً لم يشرعه الله ولا رسوله قد زين له سوء عمله فراه حسناً فهو لا يتوب ما دام يراه حسناً لان اول التوبة العلم بأن فعله سيء ليتوب منه او بأنه ترك حسناً مأموراً به امر ايجاب او استحباب ليتوب ويفعله فما دام يرى فعله حسناً وهو سيء في نفس الامر فانه لا يتوب ولكن التوبة منه ممكنة وواقعة بأن يهديه الله ويرشده حتى يتبين له الحق كما هدى سبحانه وتعالى من هدى من الكفار والمنافقين وطوائف من اهل البدع والضلال وهذا يكون بأن يتبع من الحق ما علمه فمن عمل بما علم اورثه الله علم ما لم يعلم كما قال تعالى { وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ } محمد¹ 17

الرحمة تحصل بالقرآن

قال تعالى { تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ } {63} وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ } {64}

النحل 63- 64 وقال النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح ما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله و يتدارسونه بينهم إلا غشيتهم الرحمة وتنزلت عليهم السكينة وحفتهم الملائكة وذكرهم الله فيمن عنده وقد ذكر الله في غير موضع من كتابه أن الرحمة تحصل بالقرآن كقوله تعالى { وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ } {النحل 64}²

ورحمته اسم جامع لكل خير ودار الرحمة الخالصة هي الجنة³

لفظ الاختلاف في القرآن يراد به التضاد والتعارض

ولفظ الاختلاف في القرآن يراد به التضاد والتعارض لا يراد به مجرد عدم التماثل كما هو اصطلاح كثير من النظار ومنه قوله { وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا }

¹مجموع الفتاوى ج: 10 ص: 10

²الاستقامة ج: 1 ص: 396

³مجموع الفتاوى ج: 10 ص: 65

{النساء 82} وقوله {إِنكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُّخْتَلَفٍ {8} يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنِ أَفَكَ {9} الذاريات 8-9} وقوله {وَلَكِنْ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ {البقرة 253} ¹

كل ما حكم به رسول الله صلى الله عليه وسلم فهو مما فهمه من القرآن

قال الامام أبو عبدالله محمد بن ادريس الشافعي كل ما حكم به رسول الله صلى الله عليه وسلم فهو مما فهمه من القرآن قال الله تعالى {إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنَ لِلْخَائِنِينَ خَصِيمًا {النساء 105} وقال تعالى { وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ {النحل 44} وقال تعالى { وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ {النحل 64} ولهذا قال رسول الله الا انى أوتيت القرآن ومثله معه يعنى السنة والسنة أيضا تنزل عليه بالوحي كما ينزل القرآن لا أنها تتلى كما يتلى وقد استدل الامام الشافعي وغيره من الأئمة على ذلك بأدلة كثيرة ليس هذا موضع ذلك ²

لطائف لغوية

1- قال تعالى { وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رَجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ {43} بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ {44} النحل 43-44} زبر يقال زبرت الكتاب إذا كتبتة والزبور بمعنى المزبور أي المكتوب ³

2- قال تعالى { وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رَجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ {43} بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ {44} النحل 43-44} فأخبر أنه لم يرسل إلا رجالا يوحى إليهم لم يرسل إليهم ملائكة ولا نساء وأنه أرسلهم بالبينات والزبر والزبر جمع زبور وهي الكتب فإن منهم من أنزل عليه كتاب ومنهم من أرسل بتجديد الكتاب الذي قبله ثم أخبر أن الذين من قبلهم جاءتهم رسلم بالبينات وبالزبر والكتاب المنير وهذا من عطف الخاص على العام لاختصاصه بوصف يختص به كقوله { وَمَلَأْنَاهُ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ {البقرة 98} فإن الزبر من البينات والكتاب المنير من الزبر وهو كقوله { وَمِنْ النَّاسِ مَنْ

¹مجموع الفتاوى ج: 13 ص: 19

²مجموع الفتاوى ج: 13 ص: 363

³مجموع الفتاوى ج: 12 ص: 290

يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ {الحج 8} فإن الهدى من العلم والكتاب المنير من الهدى¹

3- قال تعالى { أَوْ يَأْخُذْهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ } النحل 46 وأما لفظ المعجز فإنما يدل على أنه أعجز غيره²

4- قال تعالى { وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهُ وَاحِدٌ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ } النحل 51 اللام تدخل على ما يتعدى بنفسه اذا ضعف عمله اما بتأخيره أو بكونه اسم فاعل أو مصدرًا أو باجتماعهما فيقال فلان يعبد الله ويخافه ويتقيه ثم اذا ذكر باسم الفاعل قيل هو عابد لربه متق لربه خائف لربه وكذلك تقول فلان يرهب الله ثم تقول هو راهب لربه واذا ذكرت الفعل واخرته تقويه باللام كقوله { وَفِي نُسُخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ } الأعراف 154 وقد قال { فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ } النحل 51 فعدها بنفسه وهناك ذكر اللام فان هنا قوله { فَإِيَّايَ } النحل 51 أتم من قوله فلي وقوله هنا لك { لِرَبِّهِمْ } الأعراف 154 أتم من قوله ربهم فان الضمير المنفصل المنصوب أكمل من ضمير الجر بالياء وهناك اسم ظاهر فتقويته باللام أولى وأتم من تجريده³

5- قال تعالى { وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهُ وَاحِدٌ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ } {51} وَلَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا أَغْيَرَ اللَّهُ تَقْوَنَ } {52} النحل 51-52 والدين يتضمن معنى الخضوع والذل يقال دنته فدان اي ذلته فذل ويقال يدين الله ويدين لله أي يعبد الله ويطيعه ويخضع له فدين الله عبادته وطاعته والخضوع له⁴

6- قال تعالى { وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ } النحل 53 وحرف من لإبتداء الغاية وما يستعمل فيه حرف ابتداء الغاية فيقال هو من الله على نوعين فإنه أما أن يكون من الصفات التي لا تقوم بنفسها ولا بمخلوق فهذا يكون صفة له وما كان عينا قائمة بنفسها أو بمخلوق فهي مخلوقة فالأول كقوله { وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي } السجدة 13 وقوله { يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ } الأنعام 114 كما قال السلف القرآن كلام الله غير مخلوق منه بدا وإليه يعود وما كان صفة لا يقوم بنفسه كالعلم والكلام فهو صفة له كما يقال كلام الله وعلم الله والنوع الثاني إن كان عينا قائما بنفسها فهو مملوك له ومن

¹الجواب الصحيح ج: 6 ص: 382-384

²الجواب الصحيح ج: 5 ص: 418

³مجموع الفتاوى ج: 7 ص: 291

⁴مجموع الفتاوى ج: 10 ص: 152

لابتداء الغاية كقوله {وَسَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِّنْهُ} الجاثية 13 وقوله {وَمَا بِكُمْ مِّنْ نُّعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ} النحل 53 و {مَّا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ} النساء 79 فهذه الأشياء كلها من الله وهي مخلوقة¹

7- قال تعالى {وَمَا بِكُمْ مِّنْ نُّعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ تُمْ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجَارُونَ} {53} تُمْ إِذَا كَشَفَ الضُّرُّ عَنْكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ} {54} لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ} {55} وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيباً مِّمَّا رَزَقْنَاهُمْ تَاللهِ لَشَأَلْنَ عَمَّا كُنْتُمْ تَفْتَرُونَ} {56} النحل 53-56 و لفظ الرزق فيه إجمال فقد يراد بلفظ الرزق ما أباحه أو ملكه فلا يدخل الحرام في مسمى هذا الرزق كما في قوله تعالى {وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ} البقرة 3 وقوله تعالى {أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ} البقرة 254 وقوله {وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقاً حَسِناً فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِراً وَجَهراً} النحل 75 وأمثلة ذلك وقد يراد بالرزق ما ينتفع به الحيوان وإن لم يكن هناك إباحة ولا تمليك فيدخل فيه الحرام كما في قوله تعالى {وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا} هود 6 وقوله عليه السلام في الصحيح فيكتب رزقه وعمله وأجله وشقى أو سعيد ولما كان لفظ الجبر والرزق ونحوهما فيها إجمال منع الأئمة من إطلاق ذلك نفياً أو إثباتاً كما تقدم عن الأوزاعي وأبي إسحاق الفزاري وغيرهما من الأئمة²

8- قال تعالى {وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ} النحل 64 ورحمته اسم جامع لكل خير ودار الرحمة الخالصة هي الجنة³

9- قال تعالى {وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ} النحل 64 ولفظ الاختلاف في القرآن يراد به التضاد والتعارض لا يراد به مجرد عدم التماثل كما هو اصطلاح كثير من النظار ومنه قوله {وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافاً كَثِيراً} النساء 82 وقوله {إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ} {8} يُؤْفِكُ عَنْهُ مَنْ أَفَكَ} {9} الذاريات 8 - 9 وقوله {وَلَكِنْ اخْتَلَفُوا مِنْهُمْ مَنْ آمَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ} البقرة 253⁴

10- قال تعالى {وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ} النحل 64 عامة الأسماء يتنوع مسماهما بالاطلاق والتقييد وكذلك لفظ الهدى إذا أطلق تناول العلم الذي بعث الله به رسوله والعمل به جميعاً فيدخل فيه كل ما أمر الله به كما في قوله {اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ} الفاتحة 6 والمراد طلب العلم بالحق والعمل به جميعاً وكذلك قوله {هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ} البقرة 2 والمراد به أنهم يعلمون ما فيه ويعملون به ولهذا صاروا مفلحين وكذلك

¹ مجموع الفتاوى ج: 15 ص: 97 و مجموع الفتاوى ج: 17 ص: 285 و الجواب الصحيح ج: 4 ص: 68

² مجموع الفتاوى ج: 8 ص: 132

³ مجموع الفتاوى ج: 10 ص: 65

⁴ مجموع الفتاوى ج: 13 ص: 19

قول أهل الجنة { الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا } الأعراف 43 وانما هداهم بأن ألهمهم العلم النافع والعمل الصالح ثم قد يقرن الهدى اما بالاجتباء كما فى قوله { وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ } الأنعام 87 وكما فى قوله { شَاكِرًا لِّأَنْعَمِهِ اجْتَبَاءً وَهَدَاةً } النحل 121 { اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ } الشورى 13 وكذلك قوله تعالى { هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ } التوبة 33 والهدى هنا هو الايمان ودين الحق هو الاسلام واذا أطلق الهدى كان كالايمان المطلق يدخل فيه هذا وهذا¹

¹مجموع الفتاوى ج: 7 ص: 166

النحل 65-70

{ وَاللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ
يَسْمَعُونَ } {65} { وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ
وَدَمٍ لَبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ } {66} { وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ
مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ } {67} { وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى
النَّحْلِ أَنْ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ } {68} { ثُمَّ كُلِي مِنْ
كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلًا يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ
شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ } {69} { وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ وَمِنْكُمْ
مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْدَلِ الْعُمُرِ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ } {70}

جماهير المسلمين يقرون بالأسباب

قال تعالى { وَاللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ
يَسْمَعُونَ } {النحل 65} أهل السنة وجمهورهم فيقولون بما دل عليه الشرع والعقل قال الله تعالى
{ وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ
الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ } {الأعراف 57} وقال { يَهْدِي بِهِ
اللَّهُ مِنَ الْمَاءِ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ } {المائدة 16} وقال { يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا } {البقرة 26}
سورة البقرة ومثل هذا كثير في الكتاب والسنة يخبر الله تعالى أنه يحدث الحوادث بالأسباب¹

قال تعالى { وَاللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ
يَسْمَعُونَ } {النحل 65} و جماهير المسلمين يقرون بالأسباب التي جعلها الله أسبابا في خلقه و أمره و
يقرون بحكمة الله التي يريد بها في خلقه و أمره و يقولون كما قال الله في القرآن حيث قال { وَمَا أَنْزَلَ
اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا } {البقرة 164} ومثل هذا كثير في الكتاب و السنة و
جمهور المسلمين على ذلك يقولون أن هذا فعل بهذا لا يقولون كما يقول نفاة الأسباب فعل عندها لا
بها²

¹ منهاج السنة النبوية ج: 3 ص: 114 و مجموع الفتاوى ج: 8 ص: 80

² مجموع الفتاوى ج: 8 ص: 430

ومع علم المؤمن أن الله رب كل شيء ومليكه فإنه لا ينكر ما خلقه الله من الأسباب كما جعل المطر سببا لإنبات النباتات قال الله تعالى { **وَاللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ** } النحل 65 وكما جعل الشمس والقمر سببا لما يخلقه بهما وكما جعل الشفاعة والدعاء سببا لما يقضيه بذلك مثل صلاة المسلمين على جنازة الميت فإن ذلك من الأسباب التي يرحمه الله بها ويثيب عليها المصلين عليه ¹

سمع الحق يوجب قبوله

قال تعالى { **وَاللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ** } النحل 65 أن المسمع وإن كان أصله نفس السمع الذي يشبه الإدراك لكن إذا كان المسموع طلبا ففائدته وموجبه الاستجابة والقبول وإذا كان المسموع خيرا ففائدته التصديق والاعتقاد فصار يدخل مقصوده وفائدته في مسماه نفيا وإثباتا فيقال فلان يسمع فلان أى يطيعه فى أمره أو يصدقه فى خبره وفلان لا يسمع ما يقال له أى لا يصدق الخبر ولا يطيع الأمر كما بين الله السمع عن الكفار فى غير موضع كقوله { **وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءَ وَنِدَاءَ** } البقرة 171 وقوله { **وَلَا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ** } الأنبياء 45 وذلك لأن سمع الحق يوجب قبوله ايجاب الاحساس الحركة وايجاب علم القلب حركة القلب فان الشعور بالملائم يوجب الحركة اليه والشعور بالمنافر يوجب النفرة عنه فحيث انتفى موجب ذلك دل على إنتفاء مبدئه ولهذا قال تعالى { **إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ** } الأنعام 36 ولهذا جعل سمع الكفار بمنزلة سمع البهائم لأصوات الرعاة أى يسمعون مجرد الأصوات سمع الحيوان لا يسمعون ما فيها من تأليف الحروف المتضمنة للمعاني السمع الذى لا بد أن يكون بالقلب مع الجسم ²

قال تعالى { **وَاللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ** } النحل 65 وان الذين يستحقون العذاب هم الذين لا يسمعون ولا يعقلون كما قال الله تعالى { **وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا** } الأعراف 179 وقال تعالى { **وَاللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ** } النحل 65 وقال { **إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ** } ق 37 فقد بين القرآن أن من كان يعقل أو كان يسمع فإنه يكون ناجيا وسعيدا ويكون مؤمنا بما جاءت به الرسل وقد بسطت هذه الامور فى غير موضع والله أعلم ³

¹مجموع الفتاوى ج: 1 ص: 137

²مجموع الفتاوى ج: 28 ص: 194- 195

³مجموع الفتاوى ج: 6 ص: 246

العلم الحقيقي الراسخ في القلب يمتنع أن يصدر معه ما يخالفه

قال تعالى { وَاللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ } {65} وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ } {66} وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ } {67} وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنْ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ } {68} ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ } {69} النحل 65-96 قال أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم كل من عمل سوءاً فهو جاهل وسبب ذلك أن العلم الحقيقي الراسخ في القلب يمتنع أن يصدر معه ما يخالفه من قول أو فعل فمتى صدر خلافه فلا بد من غفلة القلب عنه أو ضعف القلب عن مقاومة ما يعارضه وتلك أحوال تناقض حقيقة العلم فيصير جهلاً بهذا الاعتبار ومن هنا تعرف دخول الأعمال في مسمى الإيمان حقيقة لا مجازاً وإن لم يكن كل من ترك شيئاً من الأعمال كافراً أو خارجاً عن أصل مسمى الإيمان وكذلك اسم العقل ونحو ذلك من الأسماء ولهذا يسمى الله تعالى أصحاب هذه الأحوال موتى وعمياً وصماً وبكماً وضالين وجاهلين ويصفهم بأنهم لا يعقلون ولا يسمعون ويصف المؤمنين بأولي الألباب والنهي وأنهم مهتدون وأن لهم نورا وأنهم يسمعون ويعقلون¹

القدرة والرحمة في إخراج طيب من بين خبيثين

قال تعالى { نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَنًا خَالِصًا } النحل 66 قد ثبت أن الدم نجس فكذلك الفرث لتظهر القدرة والرحمة في إخراج طيب من بين خبيثين²

فلا نسلم أن المماساة في باطن الحيوان موجبة للتنجيس كما قد قيل في الاستحالة وهو في المماساة أبين يؤيد هذا قوله تعالى { مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ } النحل 66 ولو كانت المماساة في الباطن للفرث مثلاً موجبة للنجاسة لنجس اللبن فإن قيل فلعل بينهما حاجزاً قيل الأصل عدمه على أن ذكره هذا في معرض بيان ذكر الاقتدار بإخراج طيب من بين خبيثين في الاغتذاء ولا يتم إلا مع عدم الحاجز وألا فهو مع الحاجز ظاهر في كمال خلقه سبحانه وكذلك قوله { خَالِصًا } النحل 66 والخلوص لا بد أن يكون مع قيام الموجب للشرب³

¹ اقتضاء الصراط ج: 1 ص: 78

² مجموع الفتاوى ج: 21 ص: 547

³ الفتاوى الكبرى ج: 2 ص: 158

العقل يسمى به العلم الذي يعمل به والعمل بالعلم

قال تعالى { وَاللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ } {65} وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسِفَتْكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ } {66} وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ } {67} وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنْ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ } {68} ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ } {69} النحل 65-96 ان اسم العقل عند المسلمين وجمهور العقلاء إنما هو صفة وهو الذي يسمى عرضاً قائماً بالعاقل وعلى هذا دل القرآن في قوله تعالى لعلمكم تعقلون وقوله { أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونُ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا } {الحج 46} وقوله { قَدْ بَيَّنَّا لَكُمْ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ } آل عمران 118 ونحو ذلك مما يدل على ان العقل مصدر عقل يعقل عقلاً وإذا كان كذلك فالعقل لا يسمى به مجرد العلم الذي لم يعمل به صاحبه ولا العمل بلا علم بل إنما يسمى به العلم الذي يعمل به والعمل بالعلم ولهذا قال أهل النار { لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ } {الملك 10} وقال تعالى { أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونُ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا } {الحج 46} والعقل المشروط في التكليف لا بد أن يكون علوماً يميز بها الإنسان بين ما ينفعه وما يضره فالمجنون الذي لا يميز بين الدراهم والفلوس ولا بين أيام الأسبوع ولا يفقه ما يقال له من الكلام ليس بعاقل أما من فهم الكلام ويميز بين ما ينفعه وما يضره فهو عاقل ثم من الناس من يقول العقل هو علوم ضرورية ومنهم من يقول العقل هو العمل بموجب تلك العلوم والصحيح أن اسم العقل يتناول هذا وهذا وقد يراد بالعقل نفس الغريزة التي في الإنسان التي بها يعلم ويميز ويقصد المنافع دون المضار كما قال أحمد بن حنبل والحارث المحاسبى وغيرهما ان العقل غريزة وهذه الغريزة ثابتة عند جمهور العقلاء كما أن في العين قوة بها يبصر وفي اللسان قوة بها يذوق وفي الجلد قوة بها يلمس عند جمهور العقلاء¹

الناس يدركون بعقولهم الامور الدنيا فيعرفون ما يجلب لهم منفعة في الدنيا وما يجلب لهم مضرة وهذا من العقل الذي ميز به الانسان فانه يدرك من عواقب الافعال ما لا يدركه الحس ولفظ العقل في القران يتضمن ما يجلب به المنفعة وما يدفع به المضرة²

قال تعالى { إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَى } طه 54 أى العقول وقال تعالى { هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حُجْرٍ } {الفجر 5} أى لذى عقل وقال تعالى { وَاتَّقُوا يَأْ أُولِي الْأَلْبَابِ } {البقرة 197} وقال { إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ } {الأنفال 22} وقال تعالى { إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ } {يوسف 2} فإنما مدح الله وأثنى على من كان له عقل فأما من لا يعقل فإن الله لم يحمده

¹مجموع الفتاوى ج: 9 ص: 286

²مجموع الفتاوى ج: 8 ص: 311

ولم يثن عليه ولم يذكره بخير قط بل قال تعالى عن أهل النار { وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ } الملك 10 وقال تعالى { وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ } الأعراف 179 وقال { أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا } الفرقان 44¹

الوحي هو الاعلام السريع الخفى

قال تعالى { **وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ} 68** } ثُمَّ **كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلًا يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ} 69** { النحل 68-69 الوحي وهو الاعلام السريع الخفى إما فى اليقظة وإما فى المنام فان رؤيا الأنبياء وحى ورؤيا المؤمنين جزء من ستة وأربعين جزءا من النبوة كما ثبت ذلك عن النبى فى الصحاح وقال عبادة بن الصامت ويروى مرفوعا رؤيا المؤمن كلام يكلم به الرب عبده فى المنام وكذلك فى اليقظة فقد ثبت فى الصحيح عن النبى أنه قال قد كان فى الأمم قبلكم محدثون فان يكن فى أمتى فعمر وفى رواية فى الصحيح مكلمون وقد قال تعالى { **وَإِذْ أَوْحَيْنَا إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي } المائدة 111** وقال تعالى { **وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ } القصص 7** بل قد قال تعالى { **وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا } فصلت 12** وقال تعالى { **وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ } النحل 68** فهذا الوحي يكون لغير الأنبياء ويكون يقظة ومناما وقد يكون بصوت هاتف يكون الصوت فى نفس الانسان ليس خارجا عن نفسه يقظة ومناما كما قد يكون النور الذى يراه أيضا فى نفسه²

قال { **وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ } النحل 68** الآية فذكر أنه يوحى إليهم فالى الإنسان أولى وقال تعالى { **وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا } فصلت 12** ³

لطائف لغوية

1- قال تعالى { **وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ } النحل 67** ان اسم العقل عند المسلمين وجمهور العقلاء إنما هو صفة وهو الذى يسمى عرضا قائما بالعاقل وعلى هذا دل القرآن فى قوله تعالى لعلمكم تعقلون وقوله { **أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونُ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا } الحج 46** ونحو ذلك مما يدل على ان العقل مصدر عقل

¹مجموع الفتاوى ج: 10 ص: 437

²مجموع الفتاوى ج: 12 ص: 398

³مجموع الفتاوى ج: 17 ص: 535

يعقل عقلا وإذا كان كذلك فالعقل لا يسمى به مجرد العلم الذي لم يعمل به صاحبه ولا العمل بلا علم بل إنما يسمى به العلم الذي يعمل به والعمل بالعلم ولهذا قال أهل النار {لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ} الملك 10 وقال تعالى {أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونُوا لَهُمْ قُلُوبًا يَعْقِلُونَ بِهَا} الحج 46 والعقل المشروط في التكليف لا بد أن يكون علوما يميز بها الانسان بين ما ينفعه وما يضره فالمجنون الذي لا يميز بين الدراهم والفلوس ولا بين أيام الاسبوع ولا يفقه ما يقال له من الكلام ليس بعاقل أما من فهم الكلام ويميز بين ما ينفعه وما يضره فهو عاقل ثم من الناس من يقول العقل هو علوم ضرورية ومنهم من يقول العقل هو العمل بموجب تلك العلوم والصحيح أن اسم العقل يتناول هذا وهذا وقد يراد بالعقل نفس الغريزة التي في الانسان التي بها يعلم ويميز ويقصد المنافع دون المضار كما قال أحمد بن حنبل والحارث المحاسبى وغيرهما ان العقل غريزة وهذه الغريزة ثابتة عند جمهور العقلاء كما أن في العين قوة بها يبصر وفي اللسان قوة بها يذوق وفي الجلد قوة بها يلمس عند جمهور العقلاء¹

2-قال تعالى { وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ } {68} ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلًا يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ } {69} النحل 68-69 الوحي وهو الاعلام السريع الخفى إما فى اليقظة وإما فى المنام فان رؤيا الأنبياء وحى ورؤيا المؤمنين جزء من ستة وأربعين جزءا من النبوة كما ثبت ذلك عن النبى فى الصحاح وقال عبادة بن الصامت ويروى مرفوعا رؤيا المؤمن كلام يكلم به الرب عبده فى المنام وكذلك فى اليقظة فهذا الوحي يكون لغير الأنبياء ويكون يقظة ومناما وقد يكون بصوت هاتف يكون الصوت فى نفس الانسان ليس خارجا عن نفسه يقظة ومناما كما قد يكون النور الذى يراه أيضا فى نفسه²

3-قال تعالى { وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْنًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ } النحل 70 عليم منزه عن الجهل قدير منزه عن العجز والضعف³

¹مجموع الفتاوى ج: 9 ص: 286

²مجموع الفتاوى ج: 12 ص: 398

³الجواب الصحيح ج: 4 ص: 407

النحل 71-89

{ وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَادِّي رِزْقِهِمْ عَلَى مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ أَفَبِعِزَّةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ {71} وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِّنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ {72} وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ شَيْئًا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ {73} فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ {74} ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَمَن رَزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُونَ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ {75} وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ {76} وَاللَّهُ غِيبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ {77} وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِّنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمْ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ {78} أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوْ السَّمَاءِ مَا يُمَسِّكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ {79} وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِّنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِّنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنَ الْأَصْوَافِهَا وَأُوبَارَهَا وَأَشْعَارَهَا أَثَانًا وَمَتَاعًا إِلَى حِينٍ {80} وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ ظِلَالًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِّنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ كَذَلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَسْلِمُونَ {81} فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ الْمُبِينُ {82} يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ {83} وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤَدِّنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ {84} وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذَابَ فَلَا يُخَفِّفْ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ {85} وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ أَشْرَكُوا شَرَكَاءَ هُمْ قَالُوا رَبَّنَا هَؤُلَاءِ شُرَكَائُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُو مِنْ دُونِكَ فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ {86} وَالْقَوَا إِلَى اللَّهِ يُؤْمِنُ السَّلْمَ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ {87} الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدَّوْا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ {88} وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِّنْ أَنْفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلَاءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تَبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ {89}

كل فعل ما لا ينفع باطل لأنه ليس له غاية موجودة

قال تعالى { وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَادِّي رِزْقِهِمْ عَلَى مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ أَفَبِعَنَمَةٍ أَفْبَاحًا يَجْحَدُونَ } {71} وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ } {72} النحل 71-72 الكفار الذين جحدوا ما علموا أنه الحق¹

ان فقر الاشياء الى خالقها لازم لها لا يحتاج الى علة كما ان غنى الرب لازم لذاته لا يفترق في اتصافه بالغنى الى علة وكذلك المخلوق لا يفترق في اتصافه بالفقر الى علة بل هو فقير لذاته لا تكون ذاته الا فقيرة فقرا لازما لها ولا يستغنى الا بالله وهذا من معاني الصمد وهو الذى يفترق اليه كل شىء ويستغنى عن كل شىء بل الاشياء مفتقرة من جهة ربوبيته ومن جهة الهيته فما لا يكون به لا يكون وما لا يكون له لا يصلح ولا ينفع ولا يدوم وهذا تحقيق قوله {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ} الفاتحة 5 فلو لم يخلق شيئا بمشيئته وقدرته لم يوجد شىء وكل الأعمال ان لم تكن لأجله فيكون هو المعبود المقصود المحبوب لذاته والا كانت أعمالا فاسدة فان الحركات تفتقر الى العلة الغائية كما افتقرت الى العلة الفاعلية بل العلة الغائية بها صار الفاعل فاعلا ولولا ذلك لم يفعل فلو لا أنه المعبود المحبوب لذاته لم يصلح قط شىء من الأعمال والحركات بل كان العالم يفسد وهذا معنى قوله {لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا} الأنبياء 22 ولم يقل لعدمنا وهذا معنى قول لبيد ألا كل شىء ما خلا الله باطل وهو كالدعاء المأثور أشهد أن كل معبود من لدن عرشك الى قرار أرضك باطل الا وجهك الكريم ولفظ الباطل يراد به المعدوم ويراد به ما لا ينفع كقول النبي كل لهو يلهو به الرجل فهو باطل الا رمية بقوسه وتاديبه فرسه وملاعبته لزوجه فانهن من الحق وقوله عن عمر رضى الله عنه ان هذا الرجل لا يحب الباطل ومنه قول القاسم بن محمد لما سئل عن الغناء قال اذا ميز الله يوم القيامة الحق من الباطل فى ايهما يجعل الغناء قال السائل من الباطل قال فماذا بعد الحق الا الضلال ومنه قوله تعالى {ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ} الحج 62 فان الآلهة موجودة ولكن عبادتها ودعاؤها باطل لا ينفع والمقصود منها لا يحصل فهو باطل واعتقاد الوهيتها باطل اى غير مطابق واتصافها بالالهية فى أنفسها باطل لا بمعنى أنه معدوم ومنه قوله تعالى {بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ} الأنبياء 18 وقوله {وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا} الإسراء 81 فان الكذب باطل لأنه غير مطابق وكل فعل ما لا ينفع باطل لأنه ليس له غاية موجودة محمودة فقول النبي أصدق كلمة قالها شاعر كلمة لبيد ألا كل شىء ما خلا الله باطل هذا معناه ان كل معبود من دون الله باطل كقوله {ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْبَاطِلُ} لقمان 30 وقال تعالى {قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ} {31} فَذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ} {32} يونس 31-32 وقد قال قبل هذا { وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقُّ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ } يونس 30 كما قال فى الانعام { وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمْ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا

¹الصفدية ج: 2 ص: 324

يُفَرِّطُونَ {الأنعام 61} وقال {ذَلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ} محمد 3 ودخل عثمان أو غيره على ابن مسعود وهو مريض فقال كيف تجدك قال أجدني مردودا الى الله مولاي الحق قال تعالى {يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} {24} {يَوْمَئِذٍ يُوقِفُهُمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ} {النور 24-25} وقد اقرؤا بوجوده في الدنيا لكن في ذلك اليوم يعلمون أنه الحق المبين دون ما سواه ولهذا قال {هُوَ الْحَقُّ} {النور 25} بصيغة الحصر فانه يومئذ لا يبقى أحد يدعى فيه الالهية ولا أحد يشرك بربه احدا¹

المعبود لابد أن يكون مالكا للنفع والضرر

قال تعالى {وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ شَيْئًا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ} {73} {فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ} {74} {النحل 73-74}

وكل من يملك الضر والنفع فانه هو المعبود لا بد أن يكون مالكا للنفع والضرر ولهذا أنكر تعالى على من عبد من دونه ما لا يملك ضرا ولا نفعا وذلك كثير في القرآن كقوله تعالى {وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ} {يونس 106} وقال {وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ} {يونس 18} فنفي سبحانه عن هؤلاء المعبودين الضر والنفع القاصر والمتعدى فلا يمكنون لأنفسهم ولا لعبادتهم وهذا كثير في القرآن يبين تعالى أن المعبود لابد أن يكون مالكا للنفع والضرر²

والقرآن ملآن من توحيد الله تعالى وأنه ليس كمثلته شيء فلا يمثل به شيء من المخلوقات في شيء من الأشياء إذ ليس كمثلته شيء لافي ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله ولا فيما يستحقه من العبادة والمحبة والتوكل والطاعة والدعاء وسائر حقوقه قال تعالى {رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا} {مريم 65} فلا أحد يساميه ولا يستحق أن يسمى بما يختص به من الأسماء ولا يساويه في معنى شيء من الأسماء لا في معنى الحى ولا العليم ولا التقدير ولا غير ذلك من الأسماء ولا في معنى الذات والموجود ونحو ذلك من الأسماء العامة ولا يكون لها ولا ربا ولا خالقا فقال تعالى {قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ} {1} {اللَّهُ الصَّمَدُ} {2} {لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ} {3} {وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ} {4} {الاخلاص 1-4} فلم يكن أحد يكافيه في شيء من الأشياء فلا يساويه شيء ولا يماثله شيء ولا يعادله شيء قال تعالى {الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ} {الأنعام 1} وقال تعالى {فَكُبِّكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ} {94} {وَجُنُودُ إِبْلِيسَ}

¹مجموع الفتاوى ج: 5 ص: 515-517

²مجموع الفتاوى ج: 15 ص: 10

أَجْمَعُونَ {95} قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ {96} تَاللَّهِ إِنَّ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ {97} إِذْ نُسَوِّكُمْ بِرَبِّ
الْعَالَمِينَ {98} الشعراء 94-98¹

القياسات العقلية التي مضمونها نفى الملزوم لانتفاء لازمه

فلا يحصل للعقل من القياس في الرب الا العلم بالسلب والعدم إذا كان القياس صحيحا ولهذا جاءت
الأمثال المضروبة في القرآن وهي المقاييس العقلية دالة على النفي في مثل قوله {وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا
رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمٌ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ
وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ {النحل76} وأمثال ذلك من الأمثال وهي القياسات التي
مضمونها نفى الملزوم لانتفاء لازمه أو نحو ذلك²

الكمال لازم لواجب الوجود

قال تعالى {فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ {النحل74} أن الكمال لازم لواجب
الوجود واجب له يمتنع سلب الكمال عنه والكمال أمور وجودية فالأمور العدمية لا تكون كمالات إلا إذا
تضمنت أموراً وجودية إذ العدم المحض ليس بشيء فضلاً عن أن يكون كمالاتاً فإن الله سبحانه إذا
ذكر ما يذكره من تنزيهه ونفى النقائص عنه ذكر ذلك في سياق إثبات صفات الكمال له كقوله تعالى
{اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ} البقرة 255 فنفي السنة والنوم يتضمن كمال
الحياة والقيومية وهذه من صفات الكمال وكذلك قوله { لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ
وَلَا فِي الْأَرْضِ} سبأ 3 فإن نفي عزوب ذلك عنه يتضمن علمه به وعلمه به من صفات الكمال
وكذلك قوله {وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ} ق 38
فتنزيهه لنفسه عن مس اللغوب يقتضي كمال قدرته والقدرة من صفات الكمال فتنزيهه يتضمن كمال
حياته وقيامه وعلمه وقدرته وهكذا نظائر ذلك فالرب تعالى موصوف بصفات الكمال التي لا غاية
فوقها إذ كل غاية تفرض كمالاتاً إما أن تكون واجبة له أو ممكنة أو ممتنعة والقسمان الأخيران باطلان
فوجب الأول فهو منزّه عن النقص وعن مساواة شيء من الأشياء له في صفات الكمال بل هذه
المساواة هي من النقص أيضاً وذلك لأن المتماثلين يجوز على أحدهما ما يجوز على الآخر ويجب له
ما يجب له ويمتنع عليه ما يمتنع عليه فلو قدر أنه مائل شيئاً في شيء من الأشياء للزم اشتراكهما فيما
يجب ويجوز ويمتنع على ذلك الشيء وكل ما سواه ممكن قابل للعدم بل معدوم مفتقر إلى فاعل وهو
مصنوع مربوب محدث فلو مائل غيره في شيء من الأشياء للزم أن يكون هو والشيء الذي مائله فيه
ممكناً قابلاً للعدم بل معدوماً مفتقراً إلى فاعل مصنوعاً مربوباً محدثاً وقد تبين أن كماله لازم لذاته لا

¹مجموع الفتاوى ج: 27 ص: 366

²مجموع الفتاوى ج: 2 ص: 61

يمكن أن يكون مفتقرا فيه إلى غيره فضلا عن أن يكون ممكنا أو مصنوعا أو محدثا فلو قدر مماثلة غيره له في شيء من الأشياء للزم كون الشيء الواحد موجودا معدوما ممكنا واجبا قديما محدثا وهذا جمع بين النقيضين فالرب تعالى مستحق للكمال على وجه التفصيل كما أخبرت به الرسل فإن الله تعالى أخبر أنه بكل شيء عليم وعلى كل شيء قدير وأنه سميع بصير وأنه عليم قدير عزيز حكيم غفور رحيم ودود مجيد وأنه يحب المتقين والمحسنين والصابرين ويرضى عن الذين آمنوا وعملوا الصالحات ولا يحب الفساد ولا يرضى لعباده الكفر وأنه خلق السماوات والأرض وما بينهما في ستة أيام ثم استوى على العرش وأنه كلم موسى تكليما وناداه وناجاه إلى غير ذلك مما جاء به الكتاب والسنة وقال في التنزيه { لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ } { الشورى 11 } { هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا } { مريم 65 } **فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ { النحل 74 }** { وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ } { الإخلاص 4 } { فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ } { البقرة 22 } فنزه نفسه عن النظير باسم الكفاء والمثل والند والسمى وقد بسط الكلام على هذا في غير هذا الموضوع وكتبنا رسالة مفردة في قوله { لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ } { الشورى 11 } وما فيها من الأسرار والمعاني الشريفة فهذه طريقة الرسل وأتباعهم من سلف الأمة وأئمتها إثبات مفصل ونفي مجمل إثبات صفات الكمال على وجه التفصيل ونفي النقص والتمثيل كما دل على ذلك سورة قل هو الله أحد الله الصمد¹

الله سبحانه لا يقاس بخلقه

قال تعالى **{ فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ } { النحل 74 }** ومذهب سلف الأمة وأئمتها أنهم يصفون الله بما وصف به نفسه ووصفه به رسوله في النفي والإثبات والله سبحانه وتعالى قد نفى عن نفسه مماثلة المخلوقين فقال الله تعالى (قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ {1} { اللَّهُ الصَّمَدُ {2} { لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ {3} { وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ {4} } فبين أنه لم يكن أحد كفوا له وقال تعالى { هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا } { مريم 65 } فأنكر أن يكون له سمي وقال تعالى { فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا } { البقرة 22 } وقال تعالى **{ فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ } { النحل 74 }** وقال تعالى { لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ } { الشورى 11 } ففيما أخبر به عن نفسه من تنزيهه عن الكفو والسمى والمثل والند وضرب الأمثال له بيان أن لا مثل له في صفاته ولا أفعاله ففيما أخبر به عن نفسه من تنزيهه عن الكفو والسمى والمثل والند وضرب الأمثال له بيان أن لا مثل له في صفاته ولا أفعاله فان التماثل في الصفات والأفعال يتضمن التماثل في الذات فان الذاتين المختلفتين يمتنع تماثل صفاتهما وأفعالهما اذ تماثل الصفات والأفعال يستلزم تماثل الذوات فان الصفة تابعة للموصوف بها والفعل أيضا تابع للفاعل بل هو مما يوصف به الفاعل فاذا كانت الصفتان متماثلتين كان الموصوفان متماثلين حتى أنه يكون بين الصفات من التشابه والاختلاف بحسب ما بين الموصوفين كالانسانين كما كانا من نوع واحد فتختلف مقاديرهما وصفاتهما بحسب اختلاف ذاتيهما ويتشابه ذلك بحسب تشابه ذلك كذلك اذا قيل بين الانسان والفرس تشابه من جهة أن هذا حيوان وهذا حيوان اختلاف من جهة أن هذا ناطق وهذا صاهل وغير ذلك من الامور كان بين الصفتين من التشابه والاختلاف بحسب ما بين الذاتين وذلك أن الذات المجردة عن الصفة لا توجد الا في الذهن فالذهن يقدر ذاتا مجردة عن الصفة ويقدر وجودا مطلقا لا يتعين وأما الموجودات في أنفسها فلا يمكن فيها وجود ذات مجردة عن كل صفة ولا وجود مطلق لا

¹ منهاج السنة النبوية ج: 2 ص: 183-187

يتعين ولا يتخصص وإذا قال من قال من أهل الإثبات للصفات أنا اثبت صفات الله زائدة على ذاته فحقيقة ذلك أنا نثبتها زائدة على ما أثبتنا النفاة من الذات فان النفاة اعتقدوا ثبوت ذات مجردة عن الصفات فقال أهل الإثبات نحن نقول بإثبات صفات زائدة على ما اثبتته هؤلاء وأما الذات نفسها الموجودة فتلك لا يتصور أن تتحقق بلا صفة أصلا بل هذا بمنزلة من قال اثبت انسانا لا حيوانا ولا ناطقا ولا قائما بنفسه ولا بغيره ولا له قدرة ولا حياة ولا حركة ولا سكون أو نحو ذلك أو قال أثبت نخلة ليس لها ساق ولا جذع ولا ليف ولا غير ذلك فان هذا يثبت ما لا حقيقة له في الخارج ولا يعقل ولهذا كان السلف والأئمة يسمون نفاة الصفات معطلة لأن حقيقة قولهم تعطيل ذات الله تعالى وان كانوا هم قد لا يعلمون ان قولهم مستلزم للتعطيل بل يصفونه بالوصفين المتناقضين فيقولون هو موجود قديم واجب ثم ينفون لوازم وجوده فيكون حقيقة قولهم موجود ليس بموجود حق ليس بحق خالق ليس بخالق فينفون عنه النقيضين إما تصريحاً بنفيها وإما إمساكاً عن الاخبار بواحد منهما ولهذا كان محققوهم وهم القرامطة ينفون عنه النقيضين فلا يقولون موجود ولا لا موجود ولا حى ولا لا حى ولا عالم ولا لا عالم قالوا لأن وصفه بالإثبات تشبيه له بالموجودات ووصفه بالنفى فيه تشبيه له بالمعدومات فال بهم اغراقهم فى نفى التشبيه الى أن وصفوه بغاية التعطيل ثم أنهم لم يخلصوا مما فروا منه بل يلزمهم على قياس قولهم أن يكونوا قد شبهوه بالممتنع الذى هو أخس من الموجود والمعدوم الممكن ففروا فى زعمهم من تشبيهه بالموجودات والمعدومات ووصفوه بصفات الممتنعات التى لا تقبل الوجود بخلاف المعدومات الممكنات وتشبيهه بالممتنعات شر من تشبيهه بالموجودات والمعدومات الممكنات وما فر منه هؤلاء الملاحدة ليس بمحذور فانه اذا سمى حقا موجودا قائما بنفسه حيا عليما رؤوفا رحيمًا وسمى المخلوق بذلك لم يلزم من ذلك أن يكون مماثلا للمخلوق اصلا ولو كان هذا حقا لكان كل موجود مماثلا لكل موجود ولكان كل معدوم مماثلا لكل معدوم ولكان كل ما ينفى عنه شىء من الصفات مماثلا لكل ما ينفى عنه ذلك الوصف فاذا قيل السواد موجود كان على قول هؤلاء قد جعلنا كل موجود مماثلا للسواد واذا قلنا البياض معدوم كنا قد جعلنا كل معدوم مماثلا للبياض ومعلوم أن هذا فى غاية الفساد ويكفى هذا خزيا لحزب الالحاد واذا لم يلزم مثل ذلك فى السواد الذى له أمثال بلا ريب فاذا قيل فى خالق العالم أنه موجود لا معدوم حى لا يموت قيوم لا تأخذه سنة ولا نوم فمن أين يلزم أن يكون مماثلا لكل موجود ومعدوم وحى وقائم ولكل ما ينفى عنه العدم وما ينفى عنه صفة العدم وما ينفى عنه الموت والنوم كأهل الجنة الذين لا ينامون ولا يموتون وذلك أن هذه الاسماء العامة المتواطئة الى تسميتها النحاة اسماء الاجناس سواء اتفقت معانيها فى محالها أو تفاضلت كالسواد ونحوه وسواء سميت مشككة وقيل أن المشككة نوع من المتواطئة اما أن تستعمل مطلقة وعامة كما اذا قيل الموجود ينقسم الى واجب وممكن وقديم ومحدث وخالق ومخلوق والعلم ينقسم الى قديم ومحدث واما أن تستعمل خاصة معينة كما اذا قيل وجود زيد وعمرو وعلم زيد وعمرو وذات زيد وعمرو فاذا استعملت خاصة معينة دلت على ما يختص به المسمى لم تدل على ما يشركه فيه غيره فى الخارج فان ما يختص به المسمى لا شركة فيه بينه وبين غيره فاذا قيل علم زيد ونزول زيد واستواء زيد ونحو ذلك لم يدل هذا الا على ما يختص به زيد من علم ونزول واستواء ونحو ذلك لم يدل على ما يشركه فيه غيره لكن لما علمنا أن زيدا نظير عمرو وعلمنا أن علمه نظير علمه ونزوله نظير نزوله واستواءه نظير استواءه فهذا علمناه من جهة القياس والمعقول والاعتبار لا من جهة دلالة اللفظ فاذا كان هذا فى صفات المخلوق فذلك فى الخالق أولى فاذا قيل علم الله وكلام الله ونزوله واستواءه ووجوده وحياته ونحو ذلك لم يدل ذلك على ما يشركه فيه أحد من المخلوقين بطريق الاولى ولم يدل ذلك على مماثلة الغير له فى ذلك كما دل فى زيد وعمرو لأننا هناك علمنا التماثل من جهة الاعتبار

والقياس لكون زيد مثل عمرو وهنا نعلم أن الله لا مثل له ولا كفو ولا ند فلا يجوز أن نفهم من ذلك أن علمه مثل علم غيره ولا كلامه مثل كلام غيره ولا استواءه مثل استواء غيره ولا نزوله مثل نزول غيره ولا حياته مثل حياة غيره ولهذا كان مذهب السلف والأئمة اثبات الصفات ونفى مماثلتها لصفات المخلوقات فالله تعالى موصوف بصفات الكمال الذي لا نقص فيه منزه عن صفات النقص مطلقاً ومنزه عن أن يماثله غيره في صفات كماله فهذان المعنيان جمعا التنزيه وقد دل عليهما قوله تعالى (قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ {1} اللَّهُ الصَّمَدُ {2} الْإِخْلَاصُ 1-2) فالاسم الصمد يتضمن صفات الكمال والاسم الأحد يتضمن نفى المثل كما قد بسط الكلام على ذلك في تفسير هذه السورة فالقول في صفاته كالقول في ذاته والله تعالى ليس كمثله شيء لا في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله لكن يفهم من ذلك أن نسبة هذه الصفة الى موصوفها كنسبة هذه الصفة الى موصوفها فعلم الله وكلامه ونزوله واستواؤه هو كما يناسب ذاته ويليق بها كما أن صفة العبد هي كما تناسب ذاته وتليق بها ونسبة صفاته الى ذاته كنسبة صفات العبد الى ذاته ولهذا قال بعضهم اذا قال لك السائل كيف ينزل أو كيف استوى أو كيف يعلم أو كيف يتكلم ويقدر ويخلق فقل له كيف هو في نفسه فاذا قال أنا لا أعلم كيفية ذاته فقل له وأنا لا أعلم كيفية صفاته فان العلم بكيفية الصفة يتبع العلم بكيفية الموصوف ¹

من الايمان بالله الايمان بما وصف به نفسه

قال تعالى {فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ} النحل 74 فاعتقاد الفرقة الناجية المنصورة الى قيام الساعة أهل السنة والجماعة وهو الايمان بالله وملائكته وكتبه ورسله والبعث بعد الموت والايان بالقدر خيره وشره ومن الايمان بالله الايمان بما وصف به نفسه في كتابه وبما وصفه به رسوله محمد صلى الله عليه وسلم من غير تحريف ولا تعطيل ومن غير تكييف ولا تمثيل بل يؤمنون بأن الله سبحانه ليس كمثله شيء وهو السميع البصير فلا ينفون عنه ما وصف به نفسه ولا يحرفون الكلم عن مواضعه ولا يلحدون في أسماء الله وآياته ولا يكيفون ولا يمثلون صفاته بصفات خلقه لأنه سبحانه لا سمي له ولا كفو له ولا ند له ولا يقاس بخلقه سبحانه وتعالى فانه سبحانه أعلم بنفسه وبغيره وأصدق قيلاً وأحسن حديثاً من خلقه ثم رسله صادقون مصدقون بخلاف الذين يقولون عليه ما لا يعلمون ولهذا قال سبحانه وتعالى {سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ} {180} وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ} {181} وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ} {182} الصافات 180- 182 فسبح نفسه عما وصفه به المخالفون للرسول وسلم على المرسلين لسلامة ما قالوه من النقص والعيب وهو سبحانه قد جمع فيما وصف وسمى به نفسه بين النفي والإثبات فلا عدول لأهل السنة والجماعة عما جاء به المرسلون فإنه الصراط المستقيم صراط الذين انعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وقد دخل في هذه الجملة ما وصف به نفسه في سورة الإخلاص التي تعدل ثلث القرآن وقوله سبحانه {فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ} النحل 74²

¹مجموع الفتاوى ج: 5 ص: 325-330

²مجموع الفتاوى ج: 3 ص: 131 و العقيدة الواسطية ج: 1 ص: 14

وذكر تعالى في سورة الاخلاص أنه أحد ليس له كفوا أحد فنفي بذلك أن يكون شيئاً من الأشياء له كفوا وبين أنه أحد لا نظير له¹

كل لفظ جاء به الكتاب والسنة من اسماء الله وصفاته هو حق يجب الأيمان به

قال تعالى {فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ} النحل 74 وأما السلف والأئمة فلم يدخلوا مع طائفة من الطوائف فيما ابتدعوه من نفي أو اثبات بل اعتصموا بالكتاب والسنة وراوا ذلك هو الموافق لصريح العقل فجعلوا كل لفظ جاء به الكتاب والسنة من اسمائه وصفاته حقا يجب الأيمان به وان لم تعرف حقيقة معناه وكل لفظ أحدثه الناس فاثبته قوم ونفاه آخرون فليس علينا ان نطلق اثباته ولا نفيه حتى نفهم مراد المتكلم فان كان مراده حقا موافقا لما جاءت به الرسل والكتاب والسنة من نفي أو اثبات قلنا به وان كان باطلا مخالفا لما جاء به الكتاب والسنة من نفي أو اثبات منعنا القول به وراوا ان الطريقة التي جاء بها القرآن هي الطريقة الموافقة لصريح المعقول وصحيح المنقول وهي طريقة الأنبياء والمرسلين وان الرسل صلوات الله عليهم جاؤوا بنفي مجمل واثبات مفصل ولهذا قال سبحانه وتعالى {سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ} {180} وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ} {181} وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ} {182} الصافات 180-181 فسيح نفسه عما وصفه به المخالفون للرسل وسلم على المرسلين لسلامة ما قالوه من النقص والعيب وطريقة الرسل هي ما جاء بها القرآن والله تعالى في القرآن يثبت الصفات على وجه التفصيل وينفي عنه على طريق الاجمال التشبيه والتمثيل فهو في القرآن يخبر أنه بكل شيء عليم وعلى كل شيء قدير وانه عزيز حكيم غفور رحيم وانه سميع بصير وانه غفور ودود وانه تعالى على عظم ذاته يحب المؤمنين ويرضى عنهم ويغضب على الكفار ويسخط عليهم وانه خلق السموات والأرض في ستة ايام ثم استوى على العرش وانه كلم موسى تكليما وانه تجلى للجبل فجعله دكا وامثال ذلك ويقول في النفي {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ} الشورى 11 {هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا} مريم 65 {فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ} النحل 74 (قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ} {1} {اللَّهُ الصَّمَدُ} {2} {لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ} {3} {وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ} {4} الاخلاص 1-4 فيثبت الصفات وينفي مماثلة المخلوقات ولما كانت طريقة السلف ان يصفوا الله بما وصف به نفسه وبما وصفه به رسوله من غير تحريف ولا تعطيل ومن غير تكييف ولا تمثيل²

المثلان ضربهما الله سبحانه لنفسه المقدسة ولما يعبد من دونه

قال تعالى {فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ} {74} ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنْآ رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُونَ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ} {75} وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ

¹الجواب الصحيح ج: 4 ص: 408

²مجموع الفتاوى ج: 6 ص: 37

أَيْنَمَا يُوجِّهُهُ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ {76} النحل 74-76
 وضرب الله مثلا رجلين أحدهما أبكم لا يقدر على شيء وهو كل على مولاه أينما يوجهه لا يأت
 بخير هل يستوي هو ومن يأمر بالعدل وهو على صراط مستقيم والمثلان ضربهما الله سبحانه لنفسه
 المقدسة ولما يعبد من دونه فإن الأوثان لا تقدر لا على عمل ينفع ولا على كلام ينفع فإذا قدر عبد
 مملوك لا يقدر على شيء وآخر قد رزقه الله رزقا حسنا فهو ينفق منه سرا وجهرا هل يستوي هذا
 المملوك العاجز عن الإحسان وهذا القادر على الإحسان المحسن إلى الناس سرا وجهرا وهو سبحانه
 قادر على الإحسان إلى عباده وهو محسن إليهم دائما فكيف يشبه به العاجز المملوك الذي لا يقدر
 على شيء حتى يشرك به معه وهذا مثل الذي اعطاه الله مالا فهو ينفق منه آناء الليل والنهار والمثل
 الثاني إذا قدر شخصان أحدهما أبكم لا يعقل ولا يتكلم ولا يقدر على شيء وهو مع هذا كل على
 مولاه أينما يوجهه لا يأت بخير فليس فيه من نفع قط بل هو كل على من يتولى أمره وآخر عالم عادل
 يأمر بالعدل ويعمل بالعدل فهو على صراط مستقيم وهذا نظير الذي أعطاه الله الحكمة فهو يعمل بها
 ويعلمها للناس وقد ضرب ذلك مثلا لنفسه فإنه سبحانه عالم عادل قادر يأمر بالعدل وهو قائم بالقسط
 على صراط مستقيم كما قال تعالى {شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا
 إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} آل عمران 18 وقال هود {إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ} هود 56¹

الله سبحانه يبين أنه هو المستحق للعبادة وأنه لا مثل له

(ناقص ن م) أن كل كمال فيه وإنما استفادته من ربه وخالقه فإذا كان هو مبدعا للكمال وخالقا له كان من المعلوم
 بالاضطرار أن معطي الكمال وخالقه ومبدعه أولى بأن يكون متصفا به من المستفيد المبدع المعطي وقد قال الله
 تعالى {فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ} {74} ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَى
 شَيْءٍ وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنْ رِزْقٍ حَسَنًا فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُونَ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ {75} وَضَرَبَ
 اللَّهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمٌ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّهُهُ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ
 يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ {76} النحل 74-76 وهذا المثل وإن كان يفيد الدعاء إلى عبادة الله وحده دون
 عبادة ما سواه ونفى عبادة الأوثان لوجود هذا الفرقان فإذا علم انتفاء التساوي بين الكامل والناقص وعلم أن الرب
 أكمل من خلقه وجب أن يكون أكمل منهم وأحق منهم بكل كمال بطريق الأولى والأحرى²

¹أمراض القلوب ج: 1 ص: 16 و مجموع الفتاوى ج: 10 ص: 121

²العقيدة الأصفهانية ج: 1 ص: 118

فهو سبحانه يبين أنه هو المستحق للعبادة دون ما يعبد من دونه و أنه لا مثل له و يبين ما إختص به من صفات الكمال و إنتفائها عما يعبد من دونه و يبين أنه يتعالى عما يشركون و عما يقولون من إثبات الأولاد و الشركاء له¹

الحق يظهر صحته بالمثل المضروب له

قال تعالى { فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ } {74} ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنْآ رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُونَ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ } {75} وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمٌ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ } {76} النحل 74-76 فالحق يظهر صحته بالمثل المضروب له والباطل يظهر فساده بالمثل المضروب له لأن الإنسان قد لا يعلم ما في نفس محبوبه أو مكروهه من حمد و ذم إلا بمثل يضرب له فإن حبك الشيء يعنى ويصم والله سبحانه ضرب الأمثال للناس في كتابه لما في ذلك من البيان والإنسان لا يرى نفسه وأعماله إلا إذا مثلت له نفسه بأن يراها في مرآة وتمثل له أعماله بأعمال غيره ولهذا ضرب الملكان المثل لداود عليه السلام بقول أحدهما { إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعَجَةً لِئِي نَعَجَةٍ وَاحِدَةٍ فَقَالَ أَكْفُلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ } {23} قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعَجَتِكَ إِلَى نِعَاجِهِ } {24} ص 23-24 الآية و ضرب الأمثال مما يظهر به الحال وهو القياس العقلي الذي يهدي به الله من يشاء من عباده قال تعالى { وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ } الزمر 27 وقال تعالى { وَتِلْكَ الْأَمْثَالَ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالَمُونَ } العنكبوت 43 وهذا من الميزان الذي أنزله الله كما قال تعالى { اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ } الشورى 17 وقال { لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ } الحديد 25²

أعظم الكفر والإلحاد الذين سوا الله بكل موجود

قال تعالى { فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ } {74} ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنْآ رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُونَ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ } {75} وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمٌ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ } {76} النحل 74-76 فإن اعترف العبد ان الله ربه وخالقه وأنه مفقر اليه محتاج اليه عرف العبودية المتعلقة بربوبية الله وهذا العبد يسأل ربه فيتضرع اليه ويتوكل عليه لكن قد يطيع امره وقد يعصيه وقد يعبده مع ذلك وقد يعبد الشيطان والاصنام ومثل هذه العبودية لاتفرق بين اهل الجنة والنار ولا يصير بها

¹مجموع الفتاوى ج: 16 ص: 124

²منهاج السنة النبوية ج: 2 ص: 347

الرجل مؤمنا كما قال تعالى { وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ } يوسف 106 فإن المشركين كانوا يقرون ان الله خالقهم ورازقهم وهم يعبدون غيره قال تعالى { وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ } لقمان 25 وقال تعالى { قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ } 84 { سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ } 85 { المؤمنون 84-85 الى قوله } قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ { المؤمنون 89 وكثير ممن يتكلم فى الحقيقة ويشهدا يشهد هذه الحقيقة وهى الحقيقة الكونية التى يشترك فيها وفى شهودها ومعرفتها المؤمن والكافر والبر والفاجر وابليس معترف بهذه الحقيقة واهل النار قال ابليس { رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ } الحجر 36 وقال { رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لِأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَا أُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ } الحجر 39 وقال { فَبِعِزَّتِكَ لِأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ } ص 82 وقال { أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ } الإسراء 62 وامثال هذا من الخطاب الذى يقر فيه بان الله ربه وخالقه وخالق غيره وكذلك اهل النار قالوا { قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ } المؤمنون 106 وقال تعالى { وَلَوْ تَرَى إِذْ وَقَفُوا عَلَى رَبِّهِمْ قَالَ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَى وَرَبَّنَا { الأنعام 30 فمن وقف عند هذه الحقيقة وعند شهودها ولم يقم بما امر به من الحقيقة الدينية التى هى عبادته المتعلقة بالهيته وطاعة امره وامر رسوله كان من جنس ابليس واهل النار وان ظن مع ذلك انه خواص اولياء الله واهل المعرفة والتحقيق الذين يسقط عنهم الأمر والنهى الشرعيان كان من اشراهل الكفر والالحاد ومن ظن ان الخضر وغيره سقط عنهم الامر لمشاهدة الارادة ونحو ذلك كان قوله هذا من شر اقوال الكافرين بالله ورسوله حتى يدخل فى النوع الثانى من معنى العبد وهو العبد العابد فيكون عابدا لله لا يعبد الا اياه فيطيع امره وأمر رسله ويوالى اولياءه المؤمنين المتقين ويعادى اعداءه وهذا العبادة متعلقة بالهيته ولهذا كان عنوان التوحيد لا اله الا الله بخلاف من يقر بوبوبيته ولا يعبد او يعبد معه الها آخر فالاله الذى يألوه القلب بكمال الحب والتعظيم والاجلال والاکرام والخوف والرجاء ونحو ذلك وهذه العبادة هى التى يحبها الله ويرضاها بها وصف المصطفين من عباده وبها بعث رسله وأما العبد بمعنى المعبد سواء اقر بذلك او أنكره فتلك يشترك فيها المؤمن والكافر وبالفارق بين هذين النوعين يعرف الفرق بين الحقائق الدينية الداخلة فى عبادة الله ودينه وامره الشرعى التى يحبها ويرضاها ويوالى اهلها ويكرمهم بجنته وبين الحقائق الكونية التى يشترك فيها المؤمن والكافر والبر والفاجر التى من اكتفى بها ولم يتبع الحقائق الدينية كان من أتباع ابليس اللعين والكافرين برب العالمين ومن اكتفى بها فى بعض الأمور دون بعض أو فى مقام او حال نقص من إيمانه وولايته لله بحسب ما نقص من الحقائق الدينية وهذا مقام عظيم فيه غلط الغالطون وكره فيه الاشتباه على السالكين حتى زلق فيه من اكابر الشيوخ المدعين التحقيق والتوحيد والعرفان مالا يحصيهم الا الله الذى يعلم السر والاعلان والى هذا اشار الشيخ عبد القادر رحمه الله فيما ذكر عنه فبين ان كثيرا من الرجال إذا وصلوا الى الى القضاء والقدر أمسكوا الا انا فإنى انفتحت لى فيه روزنة فنازعت اقدار الحق بالحق للحق والرجل من يكون منازعا للقدر لا من يكون موافقا للقدر والذى ذكره الشيخ رحمه الله هو الذى امر الله به ورسوله لكن كثير من الرجال غلطوا فإنهم قد يشهدون ما يقدر على احدهم من المعاصى والذنوب أو ما يقدر على الناس من ذلك بل من الكفر ويشهدون ان هذا جار بمشيئة الله وقضائه وقدرة داخل فى حكم ربوبيته ومقتضى مشيئته فيظنون الاستسلام لذلك وموافقته والرضا به ونحو ذلك دينا وطريقا وعبادة فيضاهون المشركين الذين قالوا { لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ شَيْءٍ } الأنعام 148 وقالوا { أَنْطَعِمُ مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ } يس 47 وقالوا { لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ } الزخرف 20 ولو هدوا لعلموا أن القدر أمرنا ان نرضى به ونصبر على موجهه فى المصائب التى تصيبنا كالفقر والمرض والخوف قال تعالى { مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِنِ بِاللَّهِ يَهْدِ

قَلْبُهُ {التغابن 11} قال بعض السلف هو الرجل تصيبه المصيبة فيعلم انها من عند الله فيرضى ويسلم وقال تعالى {مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ} {22} لِكَيْلًا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ {23} الحديد 22-23 وفي الصحيحين عن النبي أنه قال احتج آدم وموسى فقال أنت آدم الذي خلقك الله بيده ونفخ فيك من روحه واسجد لك ملائكته وعلمك اسماء كل شئ فلماذا أخرجتنا ونفسك من الجنة فقال آدم أنت موسى الذي اصطفاك الله برسالته وبكلامه فهل وجدت ذلك مكتوبا على قبل ان أخلق قال نعم قال فحج آدم موسى وأدم عليه السلام لم يحتج على موسى بالقدر ظنا أن المذنب يحتج بالقدر قان هذا لايقوله مسلم ولا عاقل ولو كان هذا عذرا لكان عذرا لابليس وقوم هود وكل كافر ولا موسى لام آدم أيضا لأجل الذنب فان آدم قد تاب إلى ربه فاجتباه وهدى ولكن لامة لأجله المصيبة التي لحقتهم بالخطيئة ولهذا قال فلماذا أخرجتنا ونفسك من الجنة فأجابه آدم أن هذا كان مكتوبا قبل أن أخلق فكان العمل والمصيبة المترتبة عليه مقدار وما قدر من المصائب يجب لاستسلام له فإنه من تمام الرضا بالله ربا واما الذنوب فليس للعبد ان يذنب ان يذنب واذا اذنب فعليه ان يستغفر وفتوب من المعائب ويصبر على المصائب قال تعالى {فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ} غافر 55 وقال تعالى {وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا} آل عمران 120 وقال {وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ} آل عمران 186 وقال يوسف {إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ} يوسف 90 وكذلك ذنوب العباد يجب على العبد فيها ان يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر بحسب قدرته ويجاهد في سبيل الله الكفار والمنافقين ويوالي اولياء الله ويعادي اعداء الله ويحب في الله ويبغض في الله كما قال تعالى {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ لِقُورِ الْيَوْمِ بِالْمُودَّةِ} الممتحنة 1 الى قوله {قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَاءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحَدَهُ} الممتحنة 4 وقال تعالى {لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ} المجادلة 22 الى قوله {أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ} المجادلة 22 وقال تعالى {أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ} القلم 35 وقال {أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ} ص 28 وقال تعالى {أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءَ مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ} الجاثية 21 وقال تعالى {وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ} {19} وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ} {20} وَلَا الظُّلُّ وَلَا الْحَرُورُ} {21} وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ} {22} فاطر 19-22 وقال تعالى {ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا} الزمر 29 وقال تعالى {ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُونَ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ} {75} وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ} {76} النحل 75-76 وقال تعالى {لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ} الحشر 20 ونظائر ذلك مما يفرق الله فيه بين اهل الحق والباطل واهل الطاعة واهل المعصية واهل البر واهل الفجور واهل الهدى والضلال واهل الغي والرشاد واهل الصدق والكذب فمن شهد الحقيقة الكونية دون الدينية سوى بين هذه الأجناس المختلفة التي فرق الله بينها غاية التفريق حتى يؤل به الأمر الى ان يسوى الله بالاصنام كما قال تعالى عنهم {تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ} {97} إِذْ نَسَوَيْكُمْ رَبِّ الْعَالَمِينَ} {98} الشعراء 97-98 بل قد آل الامر بهؤلاء الى ان سوا الله بكل موجود وجعلوا ما يستحقه من العبادة والطاعة حقا لكل موجود

اذ جعلوه هو وجود المخلوقات وهذا من اعظم الكفر والالحاد برب العباد وهو لاء يصل بهم الكفر الى انهم لا يشهدون انهم عباد لا بمعنى انهم معبدون ولا بمعنى انهم عابدون اذ يشهدون انفسهم هي الحق كما صرح بذلك طواغيتهم كابن عربي صاحب الفصوص وامثاله من الملحدين المفترين كابن سبعين وامثاله ويشهدون انهم هم العابدون والمعبودون وهذا ليس بشهود لحقيقة لا كونية ولا دينية بل هو ضلال وعمى عن شهود الحقيقة الكونية حيث جعلوا وجود الخالق هو وجود المخلوق وجعلوا كل وصف مذموم وممدوح نعنا للخالق والمخلوق اذ وجود هذا هو وجود هذا عندهم واما المؤمنون بالله ورسوله عوامهم وخواصهم الذين هم اهل الكتاب كما قال النبي ان الله اهلين من الناس قيل من هم يا رسول الله قال اهل القرآن هم اهل الله وخاصته فهو لاء يعلمون ان الله رب كل شيء ومليكه وخالقه وان الخالق سبحانه مابين للمخلوق ليس هو حالا فيه ولا متحدا به ولا وجوده وجوده و النصراري كفرهم بأن قالوا بالحلول والاتحاد بالمسيح خاصة فكيف من جعل ذلك عاما في كل مخلوق ويعلمون مع ذلك ان الله امر بطاعته وطاعة رسوله ونهى عن معصيته ومعصية رسوله وانه لا يحب الفساد ولا يرضي لعباده الكفر وان على الخلق ان يعبدوه فيطيعوا امره ويستعينوا به على ذلك كما قال {إِيَّاكَ تَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ} الفاتحة 5 ومن عبادته وطاعته الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بحسب الامكان والجهاد في سبيله لاهل الكفر والنفاق فيجتهدون في اقامة دينه مستعينين به دافعين مزيلين بذلك ما قدر من السيئات دافعين بذلك ما قد يخاف من ذلك كما يزيل الانسان الجوع الحاضر بالاكل ويدفع به الجوع المستقبل وكذلك اذا ان اوان البرد دفعه باللباس وكذلك كل مطلوب يدفع به مكروه كما قالوا للنبي يا رسول اله ارايت ادوية تتداوى بها ورقى نسترقى بها وثقاة نتقى بها هل ترد من قدر الله شيئا فقال هي من قدر الله وفي الحديث ان الدعاء والبلاء ليلتقيان فيعتلجان بين السماء والارض فهذا حال المؤمنين بالله ورسوله العابدين لله وكل ذلك من العبادة¹

المشركون يسوون بين الله و بين آلهتهم في المحبة والعبادة

قال تعالى { فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ } 74 { ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُونَ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ } 75 { وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ } 76 { النحل 74-76 } انه يقول الصدق و يعمل بالعدل كما قال { وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا } الأنعام 115 و قال هود { إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ } هود 56 فأخبر أن الله على صراط مستقيم و هو العدل الذي لا عوج فيه وقال { هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ } النحل 76 و هو مثل ضربه الله لنفسه و لما يشرك به من الأوثان كما ذكر ذلك في قوله { قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ } يونس 35 الآية و قال { أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ } النحل 17 الآيات الى قوله { وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ } النحل 21 فأخبر أنه خالق منعم عالم و ما يدعون من

¹مجموع الفتاوى ج: 10 ص: 157- 163 و الفتاوى الكبرى ج: 2 ص: 368

دونه لا تخلق شيئاً و لا تنعم بشيء و لا تعلم شيئاً و أخبر أنها ميتة فهل يستوى هذا و هذا فكيف يعبدونها من دون الله مع هذا الفرق الذي لا فرق أعظم منه و لهذا كان هذا أعظم الظلم و الافك و من هذا الباب قوله تعالى {قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ اللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ} النمل 59 فقوله تعالى {ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُونَ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ} {75} وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ} {76} النحل 75-76 كلاهما مثل بين الله فيه أنه لا يستوي هو و ما يشركون به كما ذكر نظير ذلك في غير موضع و إن كان هذا الفرق معلوما بالضرورة لكل أحد لكن المشركون مع اعترافهم بأن آلهتهم مخلوقة مملوكة له يسون بينه و بينها في المحبة و الدعاء و العبادة و نحو ذلك و المقصود هنا أن الرب سبحانه على صراط مستقيم¹

القدرة والملك والاحسان صفة كمال

وقد بين الله سبحانه انه احق بالكمال من غيره وان غيره لا يساويه في الكمال في مثل قوله تعالى {أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ} النحل 17 وقد بين ان الخلق صفة كمال وان الذي يخلق افضل من الذي لا يخلق وان من عدل هذا بهذا فقد ظلم وقال تعالى {ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُونَ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ} النحل 75 فبين ان كونه مملوكا عاجزا صفة نقص وان القدرة والملك والاحسان صفة كمال وانه ليس هذا مثل هذا وهذا الله و ذلك لما يعبد من دونه وقال تعالى {وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ} النحل 76 وهذا مثل اخر فالاول مثل العاجز عن الكلام وعن الفعل الذي لا يقدر على شيء والآخر المتكلم الامر بالعدل الذي هو على صراط مستقيم فهو عادل في امره مستقيم في فعله فبين ان التفضيل بالكلام المتضمن للعدل والعمل المستقيم فان مجرد الكلام والعمل قد يكون محمودا وقد يكون مذموما فالمحمود هو الذي يستحق صاحبه الحمد فلا يستوى هذا والعاجز عن الكلام والفعل²

وقوله تعالى {ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا} النحل 75 فلما ذكر في المملوك أنه لا يقدر على شيء ومقصوده أن الآخر ليس كذلك بل هو قادر على ما لا يقدر عليه هذا و هو إثبات الرزق الحسن مقدورا لصاحبه و صاحبه قادر عليه و بهذا ينطق عامة العقلاء يقولون فلان يقدر على كذا و كذا و فلان يقدر على كذا و كذا و

¹مجموع الفتاوى ج: 14 ص: 179

²مجموع الفتاوى ج: 6 ص: 80

مقدرة هذا دون مقدرة هذا ومما يبين ذلك أن الملك نائب للعباد على ما ملكهم الله إياه و الملك مستلزم للقدرة فلا يكون مالكا إلا من هو قادر على التصرف بنفسه أو بولييه أو وكيله و العقد و المنقول مملوك لمالكة فدل على أنه مقدر له و قد قال موسى { قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي } المائدة 25 لما كان قادرا على التصرف في أخيه لطاعته له جعل ذلك ملكا له¹

القرامطة الباطنية من اعظم الناس شركا

قال تعالى في ذم من يعبد من لا يتكلم ولا ينفع ولا يضر {وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ } النحل 76 فعاب الصنم بأنه أبكم لا يقدر على شيء إذ كان من المعلوم أن العجز عن النطق والفعل صفة نقص فالنطق والقدرة صفة كمال²

أن مجرد سلب هذه الصفات نقص لذاته سواء سميت عمى وصمما وبكما أو لم تسم والعلم بذلك ضروري فأما اذا قدرنا موجودين أحدهما يسمع ويبصر ويتكلم والآخر ليس كذلك كان الاول اكمل من الثاني ولهذا عاب الله سبحانه من عبد ما تنتفى فيه هذه الصفات قال تعالى {وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ } النحل 76 فقابل بين الابكم العاجز وبين الأمر بالعدل الذى هو على صراط مستقيم³

ومثل هذا فى القرآن متعدد من وصف الاصنام بسلب صفات الكمال كعدم التكلم والفعل وعدم الحياة ونحو ذلك مما يبين ان المتصف بذلك منتقص معيب كسائر الجمادات وان هذه الصفات لا تسلب الا عن ناقص معيب واما رب الخلق الذى هو اكمل من كل موجود فهو احق الموجودات بصفات الكمال وانه لا يستوى المتصف بصفات الكمال والذى لا يتصف بها وهو يذكر ان الجمادات فى العادة لا تقبل الاتصاف بهذه الصفات فمن جعل الواجب الوجود لا يقبل الاتصاف فقد جعله من جنس الاصنام الجامدة التى عابها الله تعالى وعاب عابديها ولهذا كانت القرامطة الباطنية من اعظم الناس شركا وعبادة لغير الله اذ كانوا لا يعتقدون فى الههم انه يسمع او يبصر او يغنى عنهم شيئا والله سبحانه لم يذكر هذه النصوص لمجرد تقرير صفات الكمال

¹مجموع الفتاوى ج: 8 ص: 16

²العقيدة الأصفهانية ج: 1 ص: 102

³مجموع الفتاوى ج: 3 ص: 88

له بل نكرها لبيان انه المستحق للعبادة دون ما سواه فأفاد الاصلين اللذين بهما يتم التوحيد وهما اثبات صفات الكمال ردا على اهل التعطيل وبيان انه المستحق للعبادة لا اله الا هو ردا على المشركين والشرك في العالم اكثر من التعطيل ولا يلزم من اثبات التوحيد المنافي للاشراك ابطال قول اهل التعطيل ولا يلزم من مجرد الاثبات المبطل لقول المعطلة الرد على المشركين الا ببيان اخر والقرآن يذكر فيه الرد على المعطلة تارة كالرد على فرعون وامثاله ويذكر فيه الرد على المشركين وهذا اكثر لان القرآن شفاء لما في الصدور ومرض الاشراك اكثر في الناس من مرض التعطيل فان الله سبحانه اخبر ان له الحمد وانه حميد مجيد وان له الحمد في الاولى والاخرة وله الحكم ونحو ذلك من انواع المحامد و الحمد نوعان حمد على احسانه الى عباده وهو من الشكر وحمد لما يستحقه هو بنفسه من نعوت كماله وهذا الحمد لا يكون الا على ما هو في نفسه مستحق للحمد وانما يستحق ذلك من هو متصف بصفات الكمال وهي امور وجودية فان الامور العدمية المحضة لا حمد فيها ولا خير ولا كمال ومعلوم ان كل ما يحمد فانما يحمد على ماله من صفات الكمال فكل ما يحمد به الخلق فهو من الخالق والذي منه ما يحمد عليه هو احق بالحمد فنثبت انه المستحق للمحامد الكاملة وهو احق من كل محمود بالحمد والكمال من كل كامل وهو المطلوب¹

حمد الله والثناء عليه توحيد لله

قال تعالى { فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ } {74} ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنْآ رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُونَ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ } {75} وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوَجَّهُهُ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ } {76} النحل 74-76 فالمصلي في آخر القيام بعد الركوع يقول ربنا ولك الحمد ملء السماء وملء الارض الى قوله أهل الثناء والمجد احق ما قال العبد وكلنا لك عبد لا مانع لما اعطيت ولا معطى لما منعت ولا ينفع ذا الجد منك الجد وقوله احق ما قال العبد خبر مبتدأ محذوف أى هذا الكلام احق ما قال العبد فتبين ان حمد الله والثناء عليه احق ما قاله العبد وفي ضمنه توحيده له اذا قال ولك الحمد أى لك لا لغيرك وقال في آخره لا مانع لما أعطيت ولا معطى لما منعت وهذا يقتضى انفراد العبد بالثناء والمنع فلا يستعان الا به ولا يطلب الا منه ثم قال ولا ينفع ذا الجد منك الجد فبين ان الانسان وان أعطى الملك والغنى والرئاسة فهذا لا ينجيه منك انما ينجيه الايمان والتقوى وهذا تحقيق قوله {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ} الفاتحة 5 فكان هذا الذكر فى آخر القيام لأنه ذكر أول القيام وقوله احق ما قال العبد يقتضى ان يكون حمد الله احق الاقوال بان يقوله العبد وما كان احق الاقوال كان أفضلها واوجبها على الانسان ولهذا افترض الله على عباده فى كل صلاة ان يفتتحوها بقولهم { الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ } الفاتحة 2 وامرهم ايضا ان يفتتحوها كل خطبة بالحمد لله فامرهم ان يكون مقدما

¹مجموع الفتاوى ج: 6 ص: 85

على كل كلام سواء كان خطابا للخالق او خطابا للمخلوق ولهذا يقدم النبي الحمد أمام الشفاعة يوم القيامة ولهذا أمرنا بتقديم الثناء على الله في التشهد قبل الدعاء وقال النبي كل امر ذى بال لا يبدأ فيه بالحمد لله فهو أجذم وأول من يدعى الى الجنة الحمادون الذين يحمدون الله على السراء والضراء وقوله { الْحَمْدُ لِلَّهِ } الفاتحة 1 حمد مطلق فان الحمد اسم جنس والجنس له كمية وكيفية فالثناء كميته وتكبيره وتعظيمه كيفيته¹

{ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ }

قال تعالى { وَاللَّهُ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ } النحل 77 اتفق المسلمون وسائر أهل الملل على أن الله على كل شيء قدير كما نطق بذلك القرآن أى فى مواضع كثيرة جدا وقد بسطت الكلام فى الرد على من أنكر قدرة الرب فى غير موضع كما قد كتبناه على الأربعين والمحصل وفى شرح الأصبهانية وغير ذلك وتكلمنا على ما ذكره الرازى وغيره فى مسألة كون الرب قادرا مختارا وما وقع فيها من التقصير الكثير مما ليس هذا موضعه والمقصود هنا الكلام بين أهل الملل الذين يصدقون الرسل فنقول هنا مسائل المسألة الأولى قد أخبر الله أنه على كل شيء قدير والناس فى هذا على ثلاثة أقوال طائفة تقول هذا عام يدخل فيه الممتنع لذاته من الجمع بين الضدين وكذلك دخل فى المقدر كما قال ذلك طائفة منهم ابن حزم وطائفة تقول هذا عام مخصوص يخص منه الممتنع لذاته فإنه وإن كان شيئا فإنه لا يدخل فى المقدر كما ذكر ذلك ابن عطية وغيره وكلا القولين خطأ والصواب هو القول الثالث الذى عليه عامة النظار وهو أن الممتنع لذاته ليس شيئا ألبتة وأن كانوا متنازعين فى المعدوم فإن الممتنع لذاته لا يمكن تحققه فى الخارج ولا يتصوره الذهن ثابتا فى الخارج ولكن يقدر اجتماعهما فى الذهن ثم يحكم على ذلك بأنه ممتنع فى الخارج إذ كان يمتنع تحققه فى الأعيان وتصوره فى الأذهان إلا على وجه التمثيل بأن يقال قد تجتمع الحركة والسكون فى الشيء فهل يمكن فى الخارج أن يجتمع السواد والبياض فى محل واحد كما تجتمع الحركة والسكون فيقال هذا غير ممكن فيقدر اجتماع نظير الممكن ثم يحكم بامتناعه وأما نفس اجتماع البياض والسواد فى محل واحد فلا يمكن ولا يعقل فليس بشيء لا فى الأعيان ولا فى الأذهان فلم يدخل فى قوله وهو على كل شيء قدير المسألة الثانية أن المعدوم ليس بشيء فى الخارج عند الجمهور وهو الصواب وقد يطلقون أن الشيء هو الموجود فيقال على هذا فيلزم أن لا يكون وقادرا إلا على موجود وما لم يخلقه لا يكون قادرا عليه وهذا قول بعض أهل البدع قالوا لا يكون قادرا إلا على ما أراده دون ما لم يرده ويحكى هذا عن تلميذ النظام والذين قالوا إن الشيء هو الموجود من نظار المثبتة كالأشعرى ومن وافقه من أتباع الأئمة أحمد وغير أحمد كالقاضى أبى يعلى وابن الزاغوني وغيرهما يقولون أنه قادر على الموجود فيقال أن هؤلاء أثبتوا ما لم تثبته الآية فالآية أثبتت قدرته على الموجود وهؤلاء قالوا هو قادر على الموجود والمعدوم والتحقيق أن الشيء اسم لما يوجد فى الأعيان ولما يتصور فى الأذهان فما قدره الله وعلم أنه سيكون هو شيء فى التقدير والعلم والكتاب وأن لم يكن شيئا فى الخارج ومنه قوله { إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ } يس 82 ولفظ الشيء فى الآية يتناول هذا وهذا فهو على كل شيء ما وجد وكل ما تصوره الذهن موجودا إن تصور أن يكون موجودا قدير لا يستثنى من ذلك

¹مجموع الفتاوى ج: 6 ص: 266

شئ ولا يزداد عليه شئ كما قال تعالى {بَلَىٰ قَادِرِينَ عَلَىٰ أَنْ تُسَوِّيَ بَنَانَهُ} {القيامة} 4 وقال {قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ} {الأنعام} 65 وقد ثبت في الصحيحين أنها لما نزلت قال النبي صلى الله عليه وسلم أعود بوجهك فلما نزل {أَوْ يَلْبَسَكُمْ شَيْعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ} {الأنعام} 65 الآية قال هاتان أهون فهو قادر على الأولتين وإن لم يفعلهما وقال {وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍ بِهِ لِقَادِرُونَ} {المؤمنون} 18 قال المفسرون لقادرون على أن نذهب به حتى تموتوا عطشا وتهلك مواشيكم وتخرب أراضيك ومعلوم أنه لم يذهب به وهذا كقوله {أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ} {الواقعة} 68 إلى قوله {وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ} {الواقعة} 82 وهذا يدل على أنه قادر على ما لا يفعله فإنه أخبر أنه لو شاء جعل الماء أجاجا وهو لم يفعله ومثل هذا {وَلَوْ سِئْنَا لَا تِيَنَّا كُلَّ نَفْسٍ هَدَاهَا} {السجدة} 13 {وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مِنَ فِي الْأَرْضِ} {يونس} 99 {وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَفْتَنَّاكُمْ بِالْبَقْرَةِ} 253 فإنه أخبر في غير موضع أنه لو شاء لفعل أشياء وهو لم يفعلها فلو لم يكن قادرا عليها لكان إذا شاءها لم يمكن فعلها المسألة الثالثة أنه على كل شئ قدير فيدخل في ذلك أفعال العباد و غير أفعال العباد وأكثر المعتزلة يقولون أن أفعال العبد غير مقدورة المسألة الرابعة أنه يدخل في ذلك أفعال نفسه وقد نطقت النصوص بهذا وهذا كقوله تعالى {أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ} {يس} 81 {أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ} {القيامة} 40 {بَلَىٰ قَادِرِينَ عَلَىٰ أَنْ تُسَوِّيَ بَنَانَهُ} {القيامة} 4 ونظائره كثيرة والقدرة على الأعيان جاءت في مثل قوله {وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِّنْ طِينٍ} {المؤمنون} 12 {أَيَحْسَبُ أَنْ لَّنْ يَفْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ} {البلد} 5 وجاءت منصوصا عليها في الكتاب والسنة أما الكتاب فقوله {فَأِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُمْ مُنْتَقِمُونَ} {الزخرف} 41 فبين أنه سبحانه يقدر عليهم أنفسهم وهذا نص في قدرته على الأعيان المفعولة و قوله {وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ} {ق} 45 و {لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ} {الغاشية} 22 ونحو ذلك وهو يدل بمفهومه على أن الرب هو الجبار عليهم المسيطر وذلك يستلزم قدرته عليهم وقوله {فَطَنَّ أَنْ لَّنْ نَّقْدِرَ عَلَيْهِ} {الأنبياء} 87 على قول الحسن وغيره من السلف ممن جعله من القدرة دليل على أن الله قادر عليه وعلى أمثاله وكذلك قول الموصي لأهله لئن قدر الله على ليعذبني عذابا ما عذبه أحدا من العالمين فلما حرقوه أعاده الله تعالى وقال له ما حملك على ما صنعت قال خشيتك يارب فغفر له وهو كان مخطئا في قوله لئن قدر الله على ليعذبني كما يدل عليه الحديث وأن الله قدر عليه لكن لخشيته وإيمانه غفر الله له هذا الجهل والخطأ الذي وقع منه وقد يستدل بقوله {أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِّنْ مَّاءٍ مَّهِينٍ} {المرسلات} 20 إلى وله {فَنَعَمَ الْقَادِرُونَ} {المرسلات} 23 على قول من جعله من القدرة فإنه يتناول القدرة على المخلوقين وإن كان سبحانه قادرا أيضا على خلقه فالقدرة على خلقه قدرة عليه والقدرة عليه قدرة على خلقه وجاء أيضا الحديث منصوصا في مثل قول النبي صلى الله عليه وسلم لأبي مسعود لما رآه يضرب عبده الله أقدر عليك منك على هذا فهذا فيه بيان قدرة الرب على عين العبد وأنه أقدر عليه منه على عبده وفيه إثبات قدرة العبد¹

¹مجموع الفتاوى ج: 8 ص: 7

ما تعلقت به المشيئة تعلقت به القدرة

قال تعالى **{ وَبِاللَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا أُمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ }** النحل 77 فإن ما تعلقت به المشيئة تعلقت به القدرة فإن ما شاء الله كان ولا يكون شيء إلا بقدرته وما تعلقت به القدرة من الموجودات تعلقت به المشيئة فإنه لا يكون شيء إلا بقدرته ومشيتته وما جاز أن تتعلق به القدرة جاز أن تتعلق به المشيئة وكذلك بالعكس وما لا فلا ولهذا قال **{ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ }** البقرة 20 و الشيء في الأصل مصدر شاء يشاء شيئاً كمال ينال نيلاً ثم وضع المصدر موضع المفعول فسموا المشيء شيئاً كما يسمى المنزل نيلاً فقالوا نيل المعدن وكما يسمى المقدر قدرة والمخلوق خلقاً فقله **{ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ }** البقرة 20 أي على كل ما يشاء فمنه ما قد شيء فوجد ومنه ما لم يشأ لكنه شيء في العلم بمعنى أنه قابل لأن يشاء وقوله **{ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ }** البقرة 20 يتناول ما كان شيئاً في الخارج والعلم أو ما كان شيئاً في العلم فقط بخلاف ما لا يجوز أن تتناوله المشيئة وهو الحق تعالى وصفاته أو الممتنع لنفسه فإنه غير داخل في العموم ولهذا إتفق الناس على أن الممتنع لنفسه ليس بشيء¹

"إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله

ألا وهي القلب "

قال الله تعالى **{ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِّنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئاً وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ }** النحل 78 والله سبحانه الذي علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم الذي خلق فسوى والذي قدر فهدى أعطى كل شيء خلقه ثم هدى الذي اخرج الناس من بطون أمهاتهم لا يعلمون شيئاً وجعل لهم السمع والأبصار والأفئدة يهدي من يشاء من عباده بما تيسر له من الأدلة التي تبين له الحق من الباطل والصدق من الكذب كما في الحديث الصحيح الإلهي يا عبادي كلكم ضال إلا من هديته فاستهدوني أهدكم²

قال الله تعالى **{ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِّنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئاً وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ }** النحل 78 إن الله سبحانه وتعالى خلق القلب للإنسان يعلم به الأشياء كما خلق العين يرى بها الأشياء والأذن يسمع بها الأشياء وكما خلق سبحانه كل عضو من أعضائه لأمر من الأمور وعمل من الأعمال فاليد للبطش والرجل للسعي واللسان للنطق والفم للذوق والأنف للشم والجلد للمس وكذلك سائر الأعضاء الباطنة الظاهرة فإذا استعمل العضو فيما خلق له وأعد من أجله فذلك هو الحق القائم والعدل الذي قامت به السماوات والأرض وكان ذلك خيراً وصلاحاً لذلك العضو ولربه وللشيء الذي استعمل فيه وذلك الإنسان هو الصالح الذي استقام حاله **{ أَوْلَانِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأَوْلَانِكَ هُم }**

¹مجموع الفتاوى ج: 8 ص: 383

²منهاج السنة النبوية ج: 7 ص: 420

قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا} الحج46 حتى لم يذكر هنا العين كما في الآيات السوابق فإن سياق الكلام هنا في أمور غائبة وحكمة معقولة من عواقب الأمور لا مجال لنظر العين فيها ومثله قوله {أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ} الفرقان44 وتبين حقيقة الأمر في قوله {إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ} ق37 فإن من يؤتى الحكمة وينتفع بالعلم على منزلتين إما رجل رأى الحق بنفسه فقبله واتبعه ولم يحتج إلى من يدعوه إليه فذلك صاحب القلب أو رجل لم يعقله بنفسه بل هو محتاج إلى من يعلمه وتبين له ويعظه ويؤدبه فهذا أصغى فألقى السمع وهو شهيد أي حاضر القلب ليس بغائبه كما قال مجاهد أوتى العلم وكان له ذكرى ويتبين قوله {وَمِنْهُمْ مَّنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ} 42 {وَمِنْهُمْ مَّنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْعُمْىَ وَلَوْ كَانُوا لَا يُبْصِرُونَ} 43 {يونس42-43 وقوله {وَمِنْهُمْ مَّنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ يَرَوْا كَلِمَةَ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ} الأنعام25 ثم إذا كان حق القلب أن يعلم الحق فإن الله هو الحق المبين {فَذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعَدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ} يونس32 إذا كان كل ما يقع عليه لمحة ناظر ويحول في لفظة خاطر ف الله ربه ومنشئه وفاطره ومبدئه لا يحيط علما إلا بما هو من آياته البينة في أرضه وسمائه وأصدق كلمة قالها لبيد ألا كل شيء ما خلا الله باطل ما من شيء من الأشياء إذا نظرت إليه من جهة نفسه وجدته إلى العدم ما هو فقير إلى الحي القيوم فإذا نظرت إليه وقد تولته يد العناية بتقدير من أعطى كل شيء خلقه هم هدى رأيته حينئذ موجودا مكسوا حلل الفضل والإحسان فقد استبان القلب إنما خلق لذكر الله سبحانه ولذلك قال بعض الحكماء المتقدمين من أهل الشام أظنه سليمان الخواص رحمه الله الذكر للقلب بمنزلة الغذاء للجسد فكما لا يجد الجسد لذة الطعام مع السقم فكذلك القلب لا يجد حلاوة الذكر مع حب الدنيا أو كما قال فإذا كان القلب مشغولا ب الله عاقلا للحق مفكرا في العلم فقد وضع موضعه كما أن العين إذا صرفت إلى النظر في الأشياء فقد وضعت في موضعها أما إذا لم يصرف إلى العلم ولم يرع فيه الحق فنسي ربه فلم يوضع في موضع بل هو ضائع ولا يحتاج أن يقال قد وضع في غير موضعه بل لم يوضع أصلا فإن موضعه هو الحق وما سوى الحق باطل فإذا لم يوضع في الحق لم يبق إلا الباطل والباطل ليس بشيء أصلا وما ليس بشيء أخرى إلا أن يكون موضعا والقلب هو بنفسه لا يقبل إلا الحق فإذا لم يوضع فيه فإنه لا يقبل غير ما خلق له {سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا} الفتح23 وهو مع ذلك ليس بمتروك مخلى فإن من لا يزال من أودية الأفكار وأقطار الأماني لا يكون على الحال التي تكون عليها العين والأذن من الفراغ والتخلي فقد وضع في غير موضع لا مطلق ولا معلق موضوع لا موضع له وهذا من العجب فسبحان العزيز الحكيم وإنما تنكشف له هذه الحال عند رجوعه إلى الحق إما في الدنيا عند الإنابة أو عند المنقلب إلى الآخرة فيرى سوء الحال التي كان عليها وكيف كان قلبه ضالا عن الحق هذا إذا صرف إلى الباطل فأما لو ترك وحالته التي فطر عليها فارغا عن كل ذكر وخاليا من كل فكر لقد كان يقبل العلم الذي لا جهل فيه ويرى الحق الذي لا ريب فيه فيؤمن بربه وينيب إليه فإن كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه كما تنتج البهيمة جمعاء لا تحس فيها من جدعاء {فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ} الروم30 وإنما يحول بينه وبين الحق في غالب الحال شغله بغيره من فتن الدنيا ومطالب الجسد وشهوات النفس فهو في هذه الحال كالعين الناضرة إلى وجه الأرض لا يمكنها أن ترى مع ذلك الهلال أو هو يميل إليه فيصده عن اتباع الحق فيكون كالعين التي فيها قذى لا يمكنها رؤية الأشياء ثم الهوى قد يعرض له قبل معرفة الحق فيصده عن النظر فيه فلا يتبين له الحق كما قيل حبك الشيء يعمي ويصم فيبقى في ظلمة الأفكار وكثيرا ما يكون ذلك كبيرا يمنعه عن أن

يطلب الحق {فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنْكَرَةٌ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ} النحل 22 وقد يعرض الهوى بعد أن عرف الحق فيجده ويعرض عنه كما قال سبحانه فيهم {سَأَصْرَفُ عَنْ آيَاتِي الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا} الأعراف 146 ثم القلب للعمل كالإناء للماء والوعاء للغسل والوادي للسيل كما قال تعالى {أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا} الرعد 17 الآية وقال للنبي صلى الله عليه وسلم إن مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل غيث أصاب أرضا فكانت منها طائفة قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير وكانت فيها أجداب أمسكت الماء فسقى الناس وزرعوا وأصاب منها طائفة إنما هي قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ فذلك مثل من فقه في دين الله ونفعه ما أرسلت به ومثل من لم يرفع بذلك رأسا ولم يقبل بذلك رأسا ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به وفي حديث كميل بن زياد عن علي رضي الله عنه قال القلوب أوعية فخيرها أوعاها وبلغنا عن بعض السلف قال القلوب آنية الله في أرضه فأحبها إلى الله تعالى أرقها وأصفاها وهذا مثل حسن فإن القلب إذا كان رقيقا لنا كان قبوله للعلم سهلا يسيرا ورسخ فيه وأثر وإن يكن قاسيا غليظا يكن قبوله للعلم صعبا عسيرا ولا بد من ذلك أن يكون زكيا صافيا سليما حتى يزكو فيه العلم ويثمر ثمرا طيبا وإلا فلو قبل العلم وكان فيه كدر وخبث أفسد ذلك العلم وكان كالدغل في المزدرع إن لم يمنع الحب من أن ينبت منعه من أن يزكو ويطيب وهذا بين لأولي الأبصار وتلخيص هذه الجملة أنه إذا استعمل في الحق فله وجهان وجه مقبل على الحق ومن هذا الوجه يقال له وعاء وإناء لأن ذلك يستوجب ما يوعى فيه ويوضع فيه وهذه الصبغة وجود ثبوت ووجه معرض عن الباطل ومن هذا الوجه يقال له زكي وسليم وطاهر لأن هذه الأسماء تدل على عدم الشر والخبث والدغل وهذه الصبغة عدم ونفي وبهذا يتبين أنه إذا صرف إلى الباطل فله وجهان وجه الوجود أنه منصرف إلى الباطل مشغول به ووجه العدم أنه معرض عن الحق غير قابل له وهذا يبين من البيان والحسن والصدق ما في قوله إذا ما وضعت القلب في غير موضع وضع بغير إناء فهو قلب مضيع فإنه لما أراد أن يبين حال من ضيع قلبه فظلم نفسه بأن اشتغل بالباطل وملاً به قلبه حتى لم يبق فيه متسع للحق ولا سبيل له إلى الولوج فيه ذكر ذلك منه فوصف حال هذا القلب بوجهيه ونعته بمذهبيه فذكر أولا وصف الوجود منه فقال إذا ما وضعت القلب في غير موضع يقول إذا شغلته بما لم يخلق له فصرفته إلى الباطل حتى صار موضوعا فيه ثم الباطل على منزلتين إحداهما تشغل عن الحق ولا تعانده مثل الأفكار والهموم التي من علائق الدنيا وشهوات النفس والثانية تعاند الحق وتصد عنه مثل الآراء الباطلة والأهواء المردية من الكفر والنفاق والبدع وشبه ذلك بل القلب لم يخلق إلا لذكر الله فما سوى ذلك فليس موضعا له ثم ذكر ثانيا ووصف العدم منه فقال بغير إناء يقول إذا وضعته بغير إناء فوضعتة ولا إناء معك كما تقول حضرت المجلس بلا محبرة فالكلمة حال من الواضع لا من الموضوع والله أعلم وبيان هذه الجملة والله أعلم أنه يقول إذا ما وضعت قلبك في غير موضع فاشتغل بالباطل ولم يكن معك إناء يوضع فيه الحق ويتنزل إليه الذكر والعلم الذي هو حق القلب فقلبك إذا مضيع ضيعته من وجهي التضییع وإن كانا متحدین من جهة أنك وضعتة في غير موضوع ومن جهة أنه لا إناء معك يكون وعاء لحقه الذي يجب أن يعطاه كما لو قيل لملك قد أقبل على اللهو إذا اشتغلت بغير المماسكة وليس في الملك من يدبره فهو ملك ضائع لكن هنا الإناء هو القلب بعينه وإنما كان ذلك لأن القلب لا ينوب عنه غيره فيما يجب أن يصنعه {وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى} الأنعام 164 وإنما خرج الكلام في صورة اثنين بذكر نعتين لشيء واحد كما جاء نحوه في قوله تعالى {نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنْزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ} {3} مِنْ قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ} {4} آل عمران 3-4 قال قتادة والربيع هو القرآن فرق فيه بين الحلال والحرام والحق

والباطل وهذا لأن الشيء الواحد إذا كان له وصفان كبيران فهو مع وصف كالشيء الواحد وهو مع الوصفين بمنزلة الاثنين حتى لو كثرت صفاته لتنزل منزلة أشخاص ألا ترى أن الرجل الذي يحسن الحساب والطب بمنزلة حاسب وطبيب والرجل الذي يحسن النجارة والبناء بمنزلة نجار وبناء والقلب لما كان يقبل الذكر والعلم فهو بمنزلة الإناء الذي يوضع فيه الماء وإنما ذكر في هذا البيت الإناء من بين سائر أسماء القلب لأنه هو الذي يكون رقيقاً وصافياً وهو الذي يأتي به المستطعم المستعطي في منزلة البائس الفقير ولما كان ينصرف عن البال فهو زكي وسليم فكأنه اثنان ويتبين في الصورة أن الإناء غير القلب فهو يقول إذا ما وضعت قلبك في غير موضع وهو الذي يوضع فيه الذكر والعلم ولم يكن معك إناء يوضع فيه المطلوب فتركها ثم أقبل يطلب طعاماً فقيل له هات إناء نعطك طعاماً فأما إذ أتيت وقد وضعت زبديتك مثلاً في البيت وليس معك إناء نعطيك فيه شيئاً رجعت بخفي حنين وإذا تأمل من له بصر بأساليب البيان وتصاريف اللسان وجد موقع هذا الكلام من العربية والحكمة كليهما موقعا حسناً بليغاً فإن نقبض هذه الحال المذكورة أن يكون القلب مقبلاً على الحق والعلم والذكر معرضاً عن ذكر غير ذلك وتلك هي الحنيفية دين إبراهيم عليه السلام فإن الحنف هو الميل عن الشيء بالإقبال على آخر فالدين الحنيف هو الإقبال على الله وحده والإعراض عما سواه وهو الإخلاص الذي ترجمته كلمة الحق والكلمة الطيبة لا إله إلا هو اللهم ثبتنا عليها في الدنيا وفي الآخرة ولا حول ولا قوة إلا بالله¹

العينان أشد الأعضاء ارتباطاً بالقلب

قال الله تعالى **{وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئاً وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ}** النحل 78 فإن البصر يرى غير مباشرة المرئي والذوق والشم واللمس لا يحصل له الاحساس إلا بمباشرة المحسوس والسمع وإن كان يحس الأصوات فالمقصود الأعظم به معرفة الكلام وما يخبر به المخبرون من العلم وهذا سبب تفضيل طائفة من الناس لالسمع على البصر كما ذهب إليه ابن قتيبية وغيره وقال الأكثرون البصر أفضل من السمع والتحقيق أن إدراك البصر أكمل كما قاله الأكثرون كما قال النبي صلى الله عليه وسلم ليس المخبر كالمعاين لكن السمع يحصل به من العلم لنا أكثر مما يحصل بالبصر فالبصر أقوى وأكمل والسمع أعم وأشمل وهاتان الحاستان هما الأصل في العلم بالمعلومات التي يمتاز بها الإنسان عن البهائم استطراد ولهذا يقرن الله بينهما الفؤاد في مواضع كقوله تعالى **{إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنهُ مَسْئُولاً}** الإسراء 36 وقوله تعالى **{وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئاً وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ}** النحل 78²

¹الفتاوى الكبرى ج: 1 ص: 325-332 و مجموع الفتاوى ج: 9 ص: 307-319

²الرد على المنطقيين ج: 1 ص: 96

وليس من الأعضاء أشد إرتباطا بالقلب من العينين و لهذا جمع بينهما في قوله {وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ} الأنعام 110 {نَتَقَلِّبُ فِيهِ الْقُلُوبَ وَالْأَبْصَارَ} النور 37 {وَإِذْ زَاغَتْ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ} الأحزاب 10 {قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ} 8 {أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ} 9 {النازعات 8-9 و لأن كليهما له النظر فنظر القلب الظاهر بالعينين والباطن به وحده¹

ذكر الله في سورة النحل أصول النعم وتامها

قال تعالى { أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ } 79 { وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِّنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِّنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَابِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَانًا وَمَتَاعًا إِلَى حِينٍ } 80 { وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ ظِلَالًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ كَذَلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ } 81 { فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ } 82 { يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ } 83 { النحل 79-83 } والله تعالى ذكر في سورة النحل انعامه على عباده فذكر في أول السورة أصول النعم التي لا يعيش بنو آدم إلا بها وذكر في أثنائها تمام النعم التي لا يطيب عيشهم إلا بها فذكر في أولها الرزق الذي لا بد لهم منه وذكر ما يدفع البرد من الكسوة بقوله { وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ } النحل 5 ثم في أثناء السورة ذكر لهم المساكن والمنافع التي يسكنونها مساكن الحاضرة والبادية ومساكن المسافرين فقال تعالى { وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِّنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا } النحل 80 الآية ثم ذكر أنعامه بالظلال التي تقيهم الحر والبأس فقال { وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ ظِلَالًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا } النحل 81 إلى قوله { كَذَلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ } النحل 81 ولم يذكر هنا ما يقي من البرد لأنه قد ذكره في أول السورة وذلك في أصول النعم لأن البرد يقتل فلا يقدر أحد ان يعيش في البلاد الباردة بلا دفء بخلاف الحر فانه أذى لكنه لا يقتل كما يقتل البرد فان الحر قد يتقى بالظلال واللباس وغيرهما وأهله أيضا لا يحتاجون إلى وقاية كما يحتاج إليه البرد بل أدنى وقاية تكفيهم وهم في الليل وطرفى النهار لا يتأذون به تأذيا كثيرا بل لا يحتاجون إليه احيانا حاجة قوية فجمع بينهما في قوله { سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ } النحل 81²

أن قوله { تَقِيكُمُ الْحَرَّ } النحل 81 على بابيه وليس في الآية ذكر البرد وإنما يقول إن المعطوف محذوف هو الفراء و أمثاله ممن أنكر عليهم الأئمة حيث يفسرون القرآن بمجرد ظنهم و فهمهم لنوع من علم العربية عندهم و كثيرا لا يكون ما فسروا به مطابقا و ليس في الكلام ما يدل على ذكر البرد و لكن الله ذكر في هذه السورة إنعامه على عباده و تسمى سورة النعم فذكر في أولها أصول النعم التي لا بد منها و لا تقوم الحياة إلا بها و ذكر في أثنائها تمام النعم و كان ما يقي

¹مجموع الفتاوى ج: 16 ص: 225

²مجموع الفتاوى ج: 12 ص: 256

البرد من أصول النعم فذكر في أول السورة في قوله {وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ} النحل 5 فالدفء ما يدفء و يدفع البرد و البرد الشديد يوجب الموت بخلاف الحر فقد مات خلق من البرد بخلاف الحر فإن الموت منه غير معتاد و لهذا قال بعض العرب البرد بؤس و الحر أذى فلما ذكر في أثنائها تمام النعم ذكر الظلال و ما يقي الحر و ذكر الأسلحة و ما يقي القتل فقال {وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ ظِلَالًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمْ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُمْ بَأْسَكُمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ} النحل 81 فذكر أنه يتم نعمته كما بين ذلك في هذه الآيات فقال { كَذَلِكَ يُبَيِّنُ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ} النحل 81 و فرق بين الظلال و الأكنان فإن الظلال يكون بالشجر و نحوه مما يظل و لا يكن بخلاف ما في الجبال من الغيران فإنه يظل و يكن فهذا في الأمكنة ثم قال في اللباس { وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمْ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُمْ بَأْسَكُمْ} النحل 81 فهذا في اللباس و اللباس و المساكن كلاهما تقي الناس ما يؤذيهم من حر و برد و عدو و كلاهما تسترهم عن أعين الناظرين و في البيوت خاصة يسكنون كما قال {وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِّنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِّنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ} النحل 80 فلما ذكر البيوت المسكونة إمتن بكونه جعلها سكنا يسكنون فيها من تعب الحركات و ذكر أنه جعل لهم بيوتا أخرى يحملونها معهم و يستخفونها يوم ظعنهم و يوم إقامتهم فذكر البيوت الثقيلة التي لا تحمل و الخفيفة التي تحمل¹

فالناس رجالان مقيم ومسافر ولهذا كانت أحكام الناس في الكتاب والسنة أحد هذين الحكمين إما حكم مقيم وإما حكم مسافر وقد قال تعالى { يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ} النحل 80 فجعل للناس يوم ظعن ويوم اقامة²

أفعال العباد حادثة بمشيئة الله وقدرته وخلقها

قال تعالى { أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوْ السَّمَاءِ مَا يُمَسِّكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ} 79 { وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِّنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِّنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَابِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَانًا وَمَتَاعًا إِلَى حِينٍ} 80 { وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ ظِلَالًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمْ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُمْ بَأْسَكُمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ} 81 { فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ} 82 { يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ} 83 { النحل 79-83 إن كل ما في الوجود فهو مخلوق له خلقه بمشيئته و قدرته و ما شاء كان و ما لم يشأ لم يكن و هو الذي يعطى و يمنع و يخفض و يرفع و يعز و يذل و يغني و يفقر و يضل و يهدى و يسعد و يشقى و يولى الملك من يشاء و ينزعه ممن يشاء و يشرح صدر من يشاء للإسلام و يجعل صدر من يشاء ضيقا كأنما يصعد في السماء و هو يقلب القلوب ما

¹مجموع الفتاوى ج: 16 ص: 160-162

²مجموع الفتاوى ج: 24 ص: 136

من قلب من قلوب العباد إلا و هو بين إصبعين من أصابع الرحمن إن شاء أن يقيمه أقامه و إن شاء أن يزيغه أزاعه و هو الذي حبب إلى المؤمنين الإيمان و زينه في قلوبهم و كره إليهم الكفر و الفسوق و العصيان أولئك هم الراشدون و هو الذي جعل المسلم مسلماً و المصلي مصلياً قال الخليل { رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمِينَ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةٌ مُسْلِمَةٌ لَكَ } البقرة 128 و قال { رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي } إبراهيم 40 و قال تعالى { وَاجْعَلْنَا مِنْهُمْ أُمَّةً يَهْتَدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا } السجدة 24 و قال عن آل فرعون { وَاجْعَلْنَا هُمْ أُمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ } القصص 41 و قال تعالى { إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً } 19 { إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً } 20 { وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً } 21 { المعارج 19-21 و قال { وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا } هود 37 و قال { وَيَصْنَعِ الْفُلْكَ } هود 38 و الفلك مصنوعة لبني آدم و قد أخبر الله تبارك و تعالى أنه خلقها بقوله { وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ } يس 42 و قال { وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَابِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثًا وَمَتَاعاً إِلَى حِينٍ } 80 { وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ ظِلَالًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُمُ بَأْسَكُمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ } 81 { النحل 80-81 و هذه كلها مصنوعة لبني آدم و قال تعالى { أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ } 95 { وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ } 96 { الصفات 95-96 فما بمعنى الذي و من جعلها مصدرية فقد غلط لكن إذا خلق المنحوت كما خلق المصنوع والملبوس والمبنى دل على أنه خالق كل صانع وصنعتة و قال تعالى { مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِّ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا } الكهف 17 و قال { فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا } الأنعام 125 و هو سبحانه خالق كل شيء و ربه و مليكه و له فيما خلقه حكمة بالغة و نعمة سابغة و رحمة عامة و خاصة و هو لا يسأل عما يفعل و هم يسألون لا لمجرد قدرته و قهره بل لكمال علمه و قدرته و رحمته و حكمته فإنه سبحانه و تعالى أحكم الحاكمين و أرحم الراحمين و هو أرحم بعباده من الوالدة بولدها و قد أحسن كل شيء خلقه و قال تعالى { وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي أَنْفَنَ كُلَّ شَيْءٍ } النمل 88 و قد خلق الأشياء بأسباب كما قال تعالى { وَمَا أَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا } البقرة 164 و قال { فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ } الأعراف 57 و قال تعالى { يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مِنَ اتَّبَعِ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ } المائدة 16¹

و جمهور أهل السنة يقولون إن العبد فاعل لفعله حقيقة لا مجازاً وإنما نازع في ذلك طائفة من متكلمة أهل الإثبات كالأشعري و من اتبعه و القرآن مملوء بما يدل على أن أفعال العباد حادثة بمشيئة الله و قدرته و خلقه فيجب الإيمان بكل ما في القرآن ولا يجوز أن نؤمن ببعض الكتاب و نكفر ببعض و قال تعالى { وَآيَةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلِّ الْمَشْحُونِ } 41 { وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ } 42 { يس 41-42 و الفلك من مصنوعات بني آدم و هذا مثل قوله تعالى { وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ } الصفات 96 فإن طائفة المثبتة للقدر قالوا إن ما هاهنا مصدرية و أن المراد خلقكم و خلق أعمالكم و هذا ضعيف جدا و الصواب أن ما هاهنا بمعنى الذي و أن المراد والله خلقكم و الأصنام

¹مجموع الفتاوى ج: 8 ص: 78

التي تعملونها كما في حديث حذيفة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال إن الله خلق كل صانع وصنعتة وأنه قال { أَنْعِبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ } {95} وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ {96} الصافات 95- 96 فذمهم وأنكر عليهم عبادة ما ينحتونه من الأصنام ثم ذكر أن الله خلق العابد والمعبود والمنحوت وهو سبحانه الذي يستحق أن يعبد ولو أريد والله خلقكم وأعمالكم كلها لم يكن هذا مناسباً فإنه قد ذمهم على العبادة وهي من أعمالهم فلم يكن في ذكر كونه خالقاً لأعمالهم ما يناسب الذم بل هو إلى العذر أقرب ولكن هذه الآية تدل على أنه خالق لأعمال العباد من وجه آخر وهو أنه إذا خلق المعمول الذي عمله وهو الصنم المنحوت فقد خلق التأليف القائم به وذلك مسبب من عمل ابن آدم وخالق المسبب خالق السبب بطريق الأولى وصار هذا كقوله { وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ } يس 42 ومعلوم أن السفن إنما ينجر خشبها ويركبها بنو آدم فالفلك معمولة لهم كما هي الأصنام معمولة لهم وكذلك سائر ما يصنعونه من الثياب والأطعمة والأبنية فإذا كان الله قد أخبر أنه خلق الفلك المشحون وجعل ذلك من آياته ومما أنعم الله به على عباده علم أنه خالق أفعالهم وعلى قول القدرية لم يخلق إلا الخشب الذي يصلح أن يكون سفناً وغير سفن ومعلوم أن مجرد خلق المادة لا يوجب خلق الصورة التي حصلت بأفعال بني آدم إن لم يكن خالقاً للصورة ومثل هذا قوله تعالى { وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ } النحل 80 إلى قوله { وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ ظِلَالًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُمُ بَأْسَكُمْ كَذَلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ } النحل 81 ومعلوم أن خلق البيوت المبنية والسرابيل المصنوعة هو كخلق السفن المنجورة وقد أخبر الله أن الفلك صنعة بني آدم مع إخباره أنه خلقها كما قال تعالى عن نوح عليه السلام { وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ } هود 38 وأيضاً في القرآن من ذكر تفصيل أفعال العباد التي بقلوبهم وجوارحهم وأنه هو تبارك وتعالى يحدث من ذلك ما يطول وصفه¹

فإن الله تعالى خلق الإنسان بجميع أعراضه وحركاته من أعراضه فقد تبين أنه خلق أعمالهم بقوله { وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ } الصافات 96 وما تولد عنها من النحت والتصوير بقوله { وَمَا تَعْمَلُونَ } الصافات 96 فثبت أنها دالة على أنه خالق هذا وهذا وهو المطلوب مع أن الآيات الدالة على خلق أعمال العباد كثيرة كما تقدم التنبيه عليها لكن خلقه للمصنوعات مثل الفلك والأبنية واللباس هو نظير خلق المنحوتات كقوله تعالى { وَآيَةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ } {41} وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ {42} يس 41- 42 وقوله تعالى { وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ ظِلَالًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُمُ بَأْسَكُمْ كَذَلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ } النحل 81²

¹ منهاج السنة النبوية ج: 3 ص: 259- 263

² منهاج السنة النبوية ج: 3 ص: 339- 340

المساكن من جنس الملابس كلاهما جعل في الأصل للوقاية ودفع الضر

قال تعالى { أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوْ السَّمَاءِ مَا يُمَسِّكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ } 79 { وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِّنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِّنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَابِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثًا وَمَتَاعًا إِلَى حِينٍ } 80 { وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ ظِلَالًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِّنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ } 81 { فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ } 82 { يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ } 83 { النحل 79-83 } اللباس له منفعتان إحداها الزينة بستر السوء والثانية الوقاية لما يضر من حر أو برد أو عدو فنذكر اللباس في سورة الأعراف لفائدة الزينة وهي المعتبرة في الصلاة والطواف كما دل عليه قوله { خُدُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ } الأعراف 31 وقال { يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُؤَارِي سَوْءَاتِكُمْ } الأعراف 26 وقال { قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ } الأعراف 32 ردا على ما كانوا عليه في الجاهلية من تحريم الطواف في الثياب الذي قدم بها غير الحمس ومن أكل من سلوه من الأدهان وذكره في النحل لفائدة الوقاية في قوله { وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ } النحل 81 ولما كانت هذه الفائدة حيوانية طبيعية لا قوام للإنسان إلا بها جعلها من النعم ولما كانت تلك فائدة كمالية قرننها بالأمر الشرعي وتلك الفائدة من باب جلب المنفعة بالتزين وهذه من باب دفع المضرة فالناس إلى هذه احوج فأما قوله { سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ } النحل 81 ولم يذكر البرد فقد قيل لأن التنزيل كان بالأرض الحارة فهم يتخوفونه وقيل حذف الآخر للعلم به ويقال هذا من باب التنبيه فإنه إذا إمتن عليهم بما يقى الحر فالإمتنان بما يقى البرد أعظم لأن الحر أذى والبرد بؤس والبرد الشديد يقتل والحر قل إن يقع فيه هكذا فإن باب التنبيه والقياس كما يكون في خطاب الأحكام يكون في خطاب الآلاء وخطاب الوعد والوعيد كما قتلته في قوله { لَا تَنْفَرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا } التوبة 81 مثله من يقول لا تنفروا في البرد فإن جهنم أشد زمهريرا ومن أغبرت قدماء في سبيل الله حرمهما الله على النار فالوحد والتلج أعظم ونحو ذلك وفي الآية شرع لباس جنن الحرب ولهذا قرن من قرن باب اللباس والتحلي بالصلاة لأن للحرب لباسا مختصا مع اللباس المشترك وطابق وقولهم اللباس والتحلي قوله { يُحَلِّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ } الحج 23 وأحسن من هذا أنه قد تقدم ذكر وقاية البرد في اول السورة بقوله { وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ } النحل 5 فيقال لم فرق هذا فيقال والله اعلم المذكور في أول السورة النعم الضرورية التي لا يقومون بدونها من الأكل وشرب الماء القراح ودفع البرد والركوب الذي لا بد منه في النقلة وفي آخرها ذكر كمال النعم من الأشرطة الطيبة والسكون في البيوت وبيوت الأدم والإستظلال بالظلال ودفع الحر واليباس بالسرابيل فإن هذا يستغنى عنه في الجملة ففي الأول الأصول وفي الآخر الكمال ولهذا قال { كَذَلِكَ يُبَيِّنُ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ } النحل 81 و أيضا فالمساكن لها منفعتان إحداها السكون فيها لأجل الإستتار فهي كلباس الزينة من هذا الوجه والثاني وقاية الأذى من الشمس والمطر والريح ونحو ذلك فجمع الله الإمتنان بهذين فقال { وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِّنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا } النحل 80 هذه بيوت المدر { وَجَعَلَ لَكُمْ مِّنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ } النحل 80 هذه بيوت العمود { وَمِنْ أَصْوَابِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثًا وَمَتَاعًا إِلَى حِينٍ } النحل 80 ومن أصوافها وأوبارها وأشعارها أثاثا ومتاعا إلى حين يدخل فيه أهبة البيت من البسط والأعية والأغطية ونحوها وقال { مِّنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا } النحل 80 ولم يقل من المدر بيوتا كما قال { مِّنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا

{ النحل 80 لأن السكن بيان منفعة البيت فيه تظهر النعمة وإتخاذ البيوت من المدر معتاد فالنعمة بظهور أثرها بخلاف الأنعام فإن الهداية إلى إتخاذ البيوت من جلودها أظهر من الهداية إلى نفس إتخاذ البيوت وأما فائدة الوقاية فقال **{ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ ظِلَالًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا** { النحل 81 فالظلال يعم جميع ما يظل من العرش والفساطيط والسقوف مما يصطنعه الأدميون وقوله **{ مِّنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا** { النحل 81 لأن الجبل يكن الإنسان من فوقه ويمينه ويساره واسفل منه ليس مقصوده الإستغلال بخلاف الظلال فإن مقصودها الإستغلال ولهذا قرن بهذه ما فى السراييل من منفعة الوقاية فجمع فى هذه الآية بين وقاية اللباس المنتقل مع البدن ووقاية الظلال الثابتة على الأرض ولهذا كانوا فى الجاهلية يسوون بينهما فى حق المحرم فكما نهى عن تغطية الرأس نهوه عن الدخول تحت سقف حتى أنزل الله **{ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا** { البقرة 189 وجاز للمحرم أن يستظل بالثابت من الخيام والشجر وأما لا شىء المنتقل معه المتصل كالمحمل ففيه ما فيه لتردده بين السراييل وبين المستقر من الظلال والأكنة كما أنه قبل هذه الآيات ذكر أصناف الأشربة من اللبن والخمر والعسل وذكر فى اول السورة المراكب والأطعمة وهذه مجامع المطاعم والمشارب والملابس والمسكن والمراكب¹

أن البيوت سترة كالثياب التى على البدن كما جمع بين اللباسين فى قوله تعالى **{ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ ظِلَالًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُمُ بَأْسَكُمْ** { النحل 81 فكل منهما وقاية من الأذى الذى يكون سموما مؤذيا كالحر والشمس والبرد وما يكون من بنى آدم من النظر بالعين واليد وغير ذلك وقد ذكر فى أول سورة النحل أصول النعم وذكر هنا ما يدفع البرد فإنه من المهلكات وذكر فى أثنائها تمام النعم وما يدفع الحر فإنه من المؤذيات ثم قال **{ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسَلِّمُونَ** { النحل 81²

ومعلوم أن المساكن من جنس الملابس كلاهما جعل فى الأصل للوقاية ودفع الضرر كما جعل الأكل والشرب لجلب المنفعة فاللباس يتقى الإنسان به الحر والبرد ويتقى به سلاح العدو وكذلك المساكن يتقى بها الحر والبرد ويتقى بها العدو وقال تعالى **{ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ ظِلَالًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُمُ بَأْسَكُمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسَلِّمُونَ** { النحل 81 فذكر فى هذا الموضع ما يحتاجون لدفع ما قد يؤذيهم وذكر فى أول السورة ما يضطرون إليه لدفع ما يضرهم فقال **{ وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ** { النحل 5 فذكر ما يستفتنون به ويدفعون به البرد لأن البرد يهلكهم والحر يؤذيهم ولهذا قال بعض العرب البرد بؤس والحر اذى ولهذا السبب لم يذكر فى الآية الأخرى وقاية البرد فإن ذلك تقدم فى أول السورة

¹مجموع الفتاوى ج: 15 ص: 218-220

²مجموع الفتاوى ج: 15 ص: 379

وهو ذكر في أثناء السورة ما أتم به النعمة وذكر في أول السورة أصول النعم ولهذا قال { كَذَلِكَ نُنِيبُكُمْ }
 نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَسْلِمُونَ { النحل 81 }¹

يجب على الخلق الاقرار بما جاء به النبي

قال تعالى { يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ } {83} وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا
 ثُمَّ لَا يُؤَدِّنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ {84} وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذَابَ فَلَا يُخَفِّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ
 يُنظَرُونَ {85} وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ أَشْرَكُوا شَرَكَاءَهُمْ قَالُوا رَبَّنَا هَؤُلَاءِ شُرَكَائُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُو مِنْ دُونِكَ
 فَأَلْقُوا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ {86} وَالْقَوْمُ إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَامَ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ {87}
 الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدَّوْا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ {88} النحل 83-88

يجب على الخلق الاقرار بما جاء به النبي فما جاء به القرآن العزيز أو السنة المعلومة وجب
 على الخلق الاقرار به جملة وتفصيلا عند العلم بالتفصيل فلا يكون الرجل مؤمنا حتى يقر بما جاء به
 النبي وهو تحقيق شهادة أن لا اله الا الله وأن محمدا رسول الله فمن شهد أنه رسول الله شهد
 أنه صادق فيما يخبر به عن الله تعالى فان هذا حقيقة الشهادة بالرسالة اذ الكاذب ليس برسول فيما
 يكذبه وقد قال الله تعالى { وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ {44} لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ {45} ثُمَّ لَقَطَعْنَا
 مِنْهُ الْوَتِينَ {46} الْحَاقَّةُ 44-46 } وبالجملة فهذا معلوم بالاضطرار من دين الاسلام لا يحتاج
 الى تقريره هنا وهو الاقرار بما جاء به النبي وهو ما جاء به من القرآن والسنة كما قال الله
 تعالى { كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا
 لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ } البقرة 151 وقال تعالى { وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ
 وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُمْ بِهِ } البقرة 231 ومما جاء به الرسول أمر الله له بالبلاغ المبين كما قال تعالى
 { فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ الْمُبِينُ } النحل 82 وقال تعالى { وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ
 إِلَيْهِمْ } النحل 44 وقال تعالى { يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ مِنَ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ
 رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ } المائدة 67 ومعلوم أنه قد بلغ الرسالة كما أمر ولم يكتف منها
 شيئا فان كتمان ما أنزله الله اليه يناقض موجب الرسالة كما أن الكذب يناقض موجب الرسالة ومن
 المعلوم من دين المسلمين أنه معصوم من الكتمان لشيء من الرسالة كما أنه معصوم من الكذب فيها
 والأمة تشهد له بأنه بلغ الرسالة كما أمره الله وبين ما أنزل اليه من ربه وقد أخبر الله بأنه قد أكمل
 الدين وانما كمل بما بلغه اذ الدين لم يعرف الا بتبليغه فعلم أنه بلغ جميع الدين الذي شرعه الله لعباده
 كما قال صلى الله عليه وسلم تركتكم على البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها بعدى الا هالك
 وقال ما تركت من شيء يقربكم الى الجنة الا وقد حدثتكم به وما من شيء يبعدكم عن النار الا وقد
 حدثتكم به وقال أبو ذر لقد توفى رسول الله وما طائر يقلب جناحيه في السماء الا ذكر لنا
 منه علما²

¹مجموع الفتاوى ج: 22 ص: 151

²مجموع الفتاوى ج: 5 ص: 156

الأمر المطلق يقتضى وجوب الطاعة ودم المتولى عن الطاعة

قال تعالى { يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ } {83} وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤَدُّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ } {84} وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذَابَ فَلَا يُخَفِّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ } {85} وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ قَالُوا رَبَّنَا هَؤُلَاءِ شُرَكَائُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُو مِنْ دُونِكَ فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ } {86} وَالْقَوْمُ إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَامَ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ } {87} الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدَّوْا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ } {88} النحل 83-88

قال تعالى { فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ } النحل 82 وقال تعالى { لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى } {15} الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى } {16} { الليل 15-16 } أى كذب بالخبر وتولى عن طاعة الأمر وانما على الخلق أن يصدقوا الرسل فيما أخبروا ويطيعوهم فيما أمروا وكذلك قال فى فرعون { فَكَذَّبَ وَعَصَى } {النازعات 21} وقال عن جنس الكافر { فَلَا صَدَقَ وَلَا صَلَّى } {31} وَلَكِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى } {32} {القيامة 31-32} فالتكذيب للخبر والتولى عن الأمر وانما الايمان تصديق الرسل فيما أخبروا وطاعتهم فيما أمروا ومنه قوله { إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَاهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا } {15} {فَعَصَى فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخَذًا وَبِيلاً} {16} {المزمل 15-16} ولفظ التولى بمعنى التولى عن الطاعة مذکور فى مواضع من القرآن كقوله { سَدُّعُونَ إِلَى قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسَلِّمُونَ فَإِنْ تُطِيعُوا يُؤْتِكُمْ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِنْ تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُمْ مِّن قَبْلٍ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا } {الفتح 16} ودمه فى غير موضع من القرآن من تولى دليل على وجوب طاعة الله ورسوله وان الأمر المطلق يقتضى وجوب الطاعة ودم المتولى عن الطاعة كما علق الذا بمطلق المعصية فى مثل قوله { فَعَصَى فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ } {المزمل 16} ¹

الدعاء قصد المدعو إما على وجه المسألة وإما على وجه العبادة المحضة

قال تعالى { وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ قَالُوا رَبَّنَا هَؤُلَاءِ شُرَكَائُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُو مِنْ دُونِكَ فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ } {86} وَالْقَوْمُ إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَامَ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ } {87} {النحل 86-87} و الدعاء قصد المدعو و التوجه إليه إما على وجه المسألة و إما على وجه العبادة المحضة لأن دعاء الشيء هو طلبه و إرادته سواء طلب لذاته أو للأمر منه و من ذلك قوله تعالى { وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ } {غافر 60} فإنه فسر بالمسألة و بالعبادة و قوله تعالى { قَالُوا رَبَّنَا هَؤُلَاءِ شُرَكَائُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُو مِنْ دُونِكَ فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ } {النحل 86} ²

¹مجموع الفتاوى ج: 7 ص: 60

²شرح العمدة ج: 4 ص: 28

النار دركات

قال تعالى { يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ } {83} وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤَدُّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ } {84} وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ } {85} وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ قَالُوا رَبَّنَا هَؤُلَاءِ شُرَكَائُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُو مِنْ دُونِكَ فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ } {86} وَالْقَوْمُ إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَامَ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ } {87} الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ } {88} النحل 83-88

ان الأمور المذمومة في الشريعة هو ما ترجح فساده على صلاحه كما أن الأمور المحمودة ما ترجح صلاحه على فساده فالحسنات تغلب فيها المصالح والسيئات تغلب فيها المفاصد والحسنات درجات بعضها فوق بعض والسيئات بعضها أكبر من بعض فكما أن أهل الحسنات ينقسمون إلى الأبرار المقتصدين والسابقين المقربين فأهل السيئات ينقسمون إلى الفجار الظالمين والكفار المكذبين وكل من هؤلاء هم درجات عند الله ومن المعلوم أن الحسنات كلما كانت أعظم كان صاحبها أفضل فإذا انتقل الرجل من حسنة إلى أحسن منها كان في مزيد التقريب وإن انتقل إلى ما هو دونها كان في التأخر والرجوع وكذلك السيئات كلما كانت أعظم كان صاحبها أولى بالغضب واللعنة والعقاب قال تعالى يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ الْمَجَادِلَةَ 11 وكذلك قال في السيئات { زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ } النحل 88¹

فإن الله أخبر بزيادة الكفر كما أخبر بزيادة الإيمان بقوله { إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ } التوبة 37 وتارك الصلاة وغيرها من الأركان أو مرتكبي الكبائر كما أخبر بزيادة عذاب بعض الكفار على بعض في الآخرة بقوله { الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ } النحل 88²

فعقاب من كثرت سيئاته من الكفار أعظم من عقاب من قلت سيئاته من الكفار ومن كان له حسنات خفف عنه العذاب كما أن أبا طالب أخف عذابا من أبي لهب وقال تعالى { الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ } النحل 88 وقال تعالى { إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ } التوبة 37 والنار دركات³

لا يجوز لأحد أن يعدل عما جاء في الكتاب والسنة واتفق عليه سلف الأمة

¹ الاستقامة ج: 1 ص: 462

² مجموع الفتاوى ج: 7 ص: 472

³ مجموع الفتاوى ج: 4 ص: 306

قال تعالى { وَيَوْمَ نَبَعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِّنْ أَنفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَؤُلَاءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تَبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ } النحل 89 لا يجوز لأحد أن يعدل عما جاء في الكتاب والسنة واتفق عليه سلف الأمة وأئمتها إلى ما أحدثه بعض الناس مما قد يتضمن خلاف ذلك أو يوقع الناس في خلاف ذلك وليس لأحد أن يضع للناس عقيدة ولا عبادة من عنده بل عليه أن يتبع ولا يبتدع ويقتدى ولا يبتدى فان الله سبحانه بعث محمدا { بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَىٰ الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا } الفتح 28 وقال له { قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي } يوسف 108 وقال تعالى { الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا } المائدة 3 والنبى علم المسلمين ما يحتاجون إليه فى دينهم ف يأخذ المسلمون جميع دينهم من الاعتقادات والعبادات وغير ذلك من كتاب الله وسنة رسوله وما اتفق عليه سلف الأمة وأئمتها وليس ذلك مخالفا للعقل الصريح فان ما خالف العقل الصريح فهو باطل وليس فى الكتاب والسنة والاجماع باطل ولكن فيه الفاظ قد لا يفهمها بعض الناس أو يفهمون منها معنى باطلا فالأفة منهم لا من الكتاب والسنة فان الله تعالى قال { وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تَبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ } النحل 89

قال تعالى { وَيَوْمَ نَبَعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِّنْ أَنفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَؤُلَاءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تَبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ } النحل 89 فان الله انزل الكتاب والميزان وأرى الناس آياته فى الأفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم ان القرآن حق وأما العمليات وما يسميه ناس الفروع والشرع والفقهاء فهذا قد بينه الرسول أحسن بيان فما شىء مما أمر الله به أو نهى عنه أو حله أو حرمه الا بين ذلك وقد قال تعالى { الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ } المائدة 3 وقال تعالى { مَا كَانَ حَدِيثًا يَفْتَرَىٰ وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ } يوسف 111 وقال تعالى { وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تَبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ } النحل 89 وقال تعالى { تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَرِيقٌ لَّهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالُهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ } 63 { وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ } 64 { النحل 63- 64 فقد بين سبحانه أنه ما أنزل عليه الكتاب إلا ليبيّن لهم الذى اختلفوا فيه كما بين أنه أنزل جنس الكتاب مع النبيين ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه ²

تكفل الله لمن قرأ القرآن وعمل بما فيه أن لا يضل فى الدنيا ولا يشقى فى الآخرة

¹مجموع الفتاوى ج: 11 ص: 491

²مجموع الفتاوى ج: 19 ص: 174

قال تعالى { وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِّنْ أَنفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَؤُلَاءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ } النحل 89 أصل جامع في الاعتصام بكتاب الله ووجوب اتباعه وبيان الاهتداء به في كل ما يحتاج إليه الناس من دينهم وأن النجاة والسعادة في اتباعه والشقاء في مخالفته وما دل عليه من اتباع السنة والجماعة قال الله تعالى { قَالَ اهْبِطْ مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكَ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ } {123} وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ } {124} قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا } {125} قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَىٰ } {126} طه 123-126 قال ابن عباس تكفل الله لمن قرأ القرآن وعمل بما فيه أن لا يضل في الدنيا ولا يشقى في الآخرة ثم قرأ هذه الآية وقال تعالى { وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِّنْ أَنفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَؤُلَاءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ } النحل 89¹

و قال النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح ما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله و يتدارسونه بينهم إلا غشيتهم الرحمة و تنزلت عليهم السكينة و حفنهم الملائكة و ذكرهم الله فيمن عنده و قد ذكر الله في غير موضع من كتابه أن الرحمة تحصل بالقرآن كقوله تعالى { وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِّنْ أَنفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَؤُلَاءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ } النحل 89²

في كتاب الله الأمر باتباع السنة واتباع سبيل المؤمنين

قال تعالى { وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِّنْ أَنفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَؤُلَاءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ } النحل 89 فان ما دل كتاب الله على إباحته بعمومه فانه في كتاب الله لأن قولنا هذا في كتاب الله يعم ما هو فيه بالخصوص و بالعموم و على هذا معنى قوله تعالى { وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ } النحل 89 و قوله { وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ } يوسف 111 و قوله { مَا فَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ } الأنعام 38 على قول من جعل الكتاب هو القرآن و أما على قول من جعله اللوح المحفوظ فلا يجيء ههنا يدل على ذلك أن الشرط الذي ثبت جوازه بسنة أو إجماع صحيح بالاتفاق فيجب ان يكون في كتاب الله و قد لا يكون في كتاب الله بخصوصه لكن في كتاب الله الأمر

¹مجموع الفتاوى ج: 19 ص: 80

²الاستقامة ج: 1 ص: 396

باتباع السنة و اتباع سبيل المؤمنين فيكون في كتاب الله بهذا الاعتبار لأن جامع الجامع جامع و دليل الدليل دليل بهذا الاعتبار¹

فالقرآن فيه تفصيل كل شيء كما قال تعالى { مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَٰكِن تَصَدِّقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ } يوسف 111 وقال { وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ } النحل 89 ومعلوم أن الأمة مأمور بتبليغ القرآن لفظه ومعناه كما أمر بذلك الرسول ولا يكون تبليغ رسالة الله إلا كذلك وأن تبليغه إلى العجم قد يحتاج إلى ترجمة لهم فيترجم لهم بحسب الإمكان والترجمة قد تحتاج إلى ضرب أمثال لتصوير المعاني فيكون ذلك من تمام الترجمة²

الفتن القولية والعملية هي من الجاهلية بسبب خفاء نور النبوة عنهم

قال تعالى { وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِّنْ أَنفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَؤُلَاءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ } النحل 89 قد يشكل على كثير من الناس نصوص لا يفهمونها فتكون مشكلة بالنسبة إليهم لعجز فهمهم عن معانيها و لا يجوز أن يكون في القرآن ما يخالف صريح العقل و الحس الا و في القرآن بيان معناه فان القرآن جعله الله شفاء لما في الصدور و بيانا للناس فلا يجوز أن يكون بخلاف ذلك لكن قد تخفى آثار الرسالة في بعض الأمكنة و الأزمنة حتى لا يعرفون ما جاء به الرسول صلى الله عليه و سلم إما أن لا يعرفوا اللفظ و إما أن يعرفوا اللفظ و لا يعرفوا معناه فحينئذ يصيرون في جاهلية بسبب عدم نور النبوة و من ههنا يقع الشرك و تفريق الدين شيعا كالفتن التي تحدث السيف فالفتن القولية و العملية هي من الجاهلية بسبب خفاء نور النبوة عنهم كما قال مالك بن أنس اذا قل العلم ظهر الجفاء و اذا قلت الآثار ظهرت الأهواء ولهذا شبهت الفتن بقطع الليل المظلم و لهذا قال أحمد في خطبته الحمد لله الذي جعل في كل زمان فترة بقاء من أهل العلم فالهدي الحاصل لأهل الأرض انما هو من نور النبوة كما قال تعالى { فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ } طه 123 فأهل الهدي و الفلاح هم المتبعون للأنبياء و هم المسلمون المؤمنون في كل زمان و مكان و أهل العذاب و الضلال هم المكذبون للأنبياء³

الرد على من قال ان هناك معاني باطنة لا يعلمها عامة الناس

¹مجموع الفتاوى ج: 29 ص: 163

²مجموع الفتاوى ج: 4 ص: 117

³مجموع الفتاوى ج: 17 ص: 312

قال تعالى { وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِّنْ أَنفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَؤُلَاءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تَبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ } النحل 89 أن الرسول إذا تكلم بكلام وأراد به خلاف ظاهره و ضد حقيقته فلا بد أن يبين للأمة أنه لم يرد حقيقته وأنه أراد مجازه سواء عينه أو لم يعينه لا سيما في الخطاب العلمي الذي أريد منهم فيه الاعتقاد والعلم دون عمل الجوارح فإنه سبحانه وتعالى جعل القرآن نورا وهدى وبيانا للناس وشفاء لما في الصدور وأرسل الرسل ليبين للناس على الله حجة بعد الرسل ثم هذا الرسول الأُمى العربي بعث بأفصح اللغات وأبين الالسنه والعبارات ثم الامه الذين أخذوا عنه كانوا أعمق الناس علما وأنصحهم للأمة وأبينهم للسنة فلا يجوز أن يتكلم هو وهؤلاء بكلام يريدون به خلاف ظاهره الا وقد نصب دليلا يمنع من حمله على ظاهره اما أن يكون عقليا ظاهرا مثل قوله وأوتيت من كل شيء فان كل أحد يعلم بعقله أن المراد اوتيت من جنس ما يؤتاه مثلها وكذلك { خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ } الأنعام 102 يعلم المستمع ان الخالق لا يدخل في هذا العموم أو سمعيا ظاهرا مثل الدلالات في الكتاب والسنة التي تصرف بعض الظواهر ولا يجوز أن يحيلهم على دليل خفي لا يستنبطه الا افراد الناس سواء كان سمعيا أو عقليا لأنه اذا تكلم بالكلام الذي يفهم منه معنى و اعاده مرات كثيرة وخاطب به الخلق كلهم وفيهم الذكي والبليد والفقيه وغير الفقيه وقد أوجب عليهم أن يتدبروا ذلك الخطاب ويعقلوه ويتفكروا فيه ويعتقدوا موجهه ثم أوجب أن لا يعتقدوا بهذا الخطاب شيئا من ظاهره لأن هناك دليلا خفيا يستنبطه أفراد الناس يدل على أنه لم يرد ظاهره كان هذا تدليسا وتلبيسا وكان نقيض البيان و ضد الهدى وهو يالغاز والاحاجى أشبه منه بالهدى والبيان فكيف اذا كانت دلالة ذلك الخطاب على ظاهره اقوى بدرجات كثيرة من دلالة ذلك الدليل الخفي على أن الظاهر غير مراد أم كيف اذا كان ذلك الخفي شبهة ليس لها حقيقة¹

الاسلام هو الإستسلام لله وهو الخضوع له والعبودية له

قال تعالى { وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِّنْ أَنفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَؤُلَاءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تَبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ } النحل 89 أن الاسلام دين و الدين مصدر دان يدين دينا اذا خضع وذل و دين الاسلام الذي إرتضاه الله وبعث به رسله هو الاستسلام لله وحده فاصله في القلب هو الخضوع لله وحده بعبادته وحده دون ما سواه فمن عبده و عبد معه الها آخر لم يكن مسلما ومن لم يعبده بل استكبر عن عبادته لم يكن مسلما والاسلام هو الإستسلام لله وهو الخضوع له والعبودية له هكذا قال اهل اللغة اسلم الرجل اذا استسلم فالاسلام في الاصل من باب العمل عمل القلب والجوارح وقد ذكرنا البشرى المطلقة للمسلمين في قوله { وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تَبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ } النحل 89²

¹مجموع الفتاوى ج: 6 ص: 361-362

²مجموع الفتاوى ج: 7 ص: 271

قال تعالى { وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِّنْ أَنفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَؤُلَاءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تَبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ } النحل 89 ولفظ الإسلام يتضمن الاستسلام والانقياد ويتضمن الإخلاص مأخوذ من قوله تعالى { ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ } الزمر 29 فلا بد في الإسلام من الاستسلام لله وحده وترك الاستسلام لما سواه وهذا حقيقة قولنا لا إله إلا الله فمن استسلم لله ولغير الله فهو مشرك والله لا يغفر أن يشرك به ومن لم يستسلم له فهو مستكبر عن عبادته وقد قال تعالى { وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ } غافر 60 وثبت عنه صلى الله عليه وسلم في الصحيح أنه قال لا يدخل الجنة من في قلبه مثقال ذرة من كبر ولا يدخل النار من في قلبه مثقال ذرة من إيمان فقيل له يا رسول الله الرجل يحب أن يكون ثوبه حسنا ونعله حسنا أفمن الكبر ذلك قال لا إن الله جميل يحب الجمال الكبر بطر الحق وغمط الناس بطر الحق جرده ودفعه وغمط الناس ازدرأؤهم واحتقارهم¹

{ وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِّنْ أَنفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَؤُلَاءِ }

قال تعالى { وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِّنْ أَنفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَؤُلَاءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تَبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ } النحل 89 الأنبياء يشهدون على أممهم²

وأما شهادته للمؤمنين فهو أنها إنما تعلم من جهته بما بلغه من القرآن ويخبر به عن ربه فهو إذا شهد كان شاهداً من الله وأما شهادته عليهم بالإيمان والتصديق وغير ذلك فكما في قوله { فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَؤُلَاءِ شَهِيدًا } النساء 41 { وَيَكُونُ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا } البقرة 143³

أسماء القرآن

قال تعالى { وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِّنْ أَنفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَؤُلَاءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تَبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ } النحل 89 أسماء القرآن القرآن الفرقان الكتاب الهدى النور الشفاء البيان الموعظة الرحمة بصائر البلاغ الكريم المجيد العزيز

¹ اقتضاء الصراط ج: 1 ص: 454

² القواعد النورانية ج: 3 ص: 378

³ مجموع الفتاوى ج: 15 ص: 84

المبارك التنزيل المنزل الصراط المستقيم حبل الله الذكر الذكري تذكرة { تَبَيَّنَا لَكُلَّ شَيْءٍ }
{ النحل 89¹

لطائف لغوية

1- قال تعالى { وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَادِّي رِزْقِهِمْ عَلَى مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ أَفَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ } النحل 71 و التسوية جعل الشيين سواء²

2- قال تعالى { ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنَّْا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُونَ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ } النحل 75 و لفظ الرزق فيه إجمال فقد يراد بلفظ الرزق ما أباحه أو ملكه فلا يدخل الحرام في مسمى هذا الرزق كما في قوله تعالى { وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ } البقرة 3 وقوله تعالى { أَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ } البقرة 254 وقوله { وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنَّْا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا } النحل 75 وأمثال ذلك وقد يراد بالرزق ما ينتفع به الحيوان وإن لم يكن هناك إباحة ولا تملك فيدخل فيه الحرام كما في قوله تعالى { وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا } هود 6 وقوله عليه السلام في الصحيح فيكتب رزقه وعمله وأجله وشقى أو سعيد ولما كان لفظ الجبر والرزق ونحوهما فيها إجمال منع الأئمة من إطلاق ذلك نفيًا أو إثباتًا كما تقدم عن الأوزاعي وأبي إسحاق الفزاري وغيرهما من الأئمة³

3- قال تعالى { وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ } النحل 76 التسوية جعل الشيين سواء كما قال { وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ } فاطر 19⁴

4- قال تعالى { وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ } النحل 77 قدير منزه عن العجز والضعف¹

¹مجموع الفتاوى ج: 14 ص: 2

²مجموع الفتاوى ج: 16 ص: 133

³مجموع الفتاوى ج: 8 ص: 132

⁴مجموع الفتاوى ج: 16 ص: 136

5- قال تعالى { وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ قَالُوا رَبَّنَا هَؤُلَاءِ شُرَكَائُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُو مِنْ دُونِكَ فَأَلْقُوا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ } {86} وَأَلْقُوا إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلْمَ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ } {87} النحل 86-87 وأما لفتته القول ولقيته فلتقاه فذلك إذا أردت أن تحفظه بخلاف ما إذا ألقىته إليه فإن هذا يقوله فيما يخاطبه به وإن لم يحفظه كمن ألقىته إليه القول بخلاف القول إنكم لكاذبون وألقوا إليهم السلام وليس هنا إلا خطاب سمعوه لم يحصل نفس صفة المتكلم في المخاطب²

6- قال تعالى { وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ قَالُوا رَبَّنَا هَؤُلَاءِ شُرَكَائُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُو مِنْ دُونِكَ فَأَلْقُوا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ } {86} وَأَلْقُوا إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلْمَ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ } {87} النحل 86-87 عامة الأسماء يتنوع مسماها بالاطلاق والتقييد ولفظ الضلال اذا أطلق تناول من ضل عن الهدى سواء كان عمدا أو جهلا ولزم أن يكون معذبا كقوله { إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آبَاءَهُمْ ضَالِّينَ } {69} فَهُمْ عَلَىٰ آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ } {70} وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأُولَئِينَ } {71} الصافات 69- 71 وقوله { وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكِبْرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا } {67} رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنَاهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا } {68} الأحزاب 67- 68 وقوله { فَمَنْ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى } طه 123 ثم يقرن بالغي والغضب كما في قوله { مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى } النجم 2 وفي قوله { غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ } الفاتحة 7 وقوله { إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعْرٍ } القمر 47³

7- قال تعالى { وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِّنْ أَنفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَؤُلَاءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ بَيِّنَاتٍ لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ } النحل 89 ورحمته اسم جامع لكل خير ودار الرحمة الخالصة هي الجنة⁴

8- قال تعالى { وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِّنْ أَنفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَؤُلَاءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ بَيِّنَاتٍ لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ } النحل 89 عامة الأسماء يتنوع مسماها بالاطلاق والتقييد وكذلك لفظ الهدى اذا أطلق تناول العلم الذي بعث الله به

¹الجواب الصحيح ج: 4 ص: 407

²الجواب الصحيح ج: 4 ص: 75

³مجموع الفتاوى ج: 7 ص: 167

⁴مجموع الفتاوى ج: 10 ص: 65

رسوله والعمل به جميعا فيدخل فيه كل ما أمر الله به كما في قوله { اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ
{ الفاتحة 6 والمراد طلب العلم بالحق والعمل به جميعا وكذلك قوله { هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ { البقرة 2
والمراد به أنهم يعلمون ما فيه ويعملون به ولهذا صاروا مفلحين وكذلك قول أهل الجنة { الْحَمْدُ لِلَّهِ
الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا { الأعراف 43 وانما هداهم بأن ألهمهم العلم النافع والعمل الصالح ثم قد يقرن
الهدى اما بالاجتناب كما في قوله { وَاجْتَنِبُواهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ { الأنعام 87 وكما في
قوله { شَاكِرًا لِّلنَّعْمِ اجْتِنَابًا وَهَدَاهُ { النحل 121 { اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن
يُنِيبُ { الشورى 13 وكذلك قوله تعالى { هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ { التوبة 33
والهدى هنا هو الايمان ودين الحق هو الاسلام واذا أطلق الهدى كان كالايمان المطلق يدخل فيه هذا
وهذا

النحل 90-111

1 { إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ } {90} وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ } {91} وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَقِضَتْ عَهْدَهُمْ لِقَاعَ إِتِّمَارِهِمْ لَمَّا بَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَبِيًّا فَقَالُوا إِنَّكُمْ إِلَهُاتُنَا فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ } {92} وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يَضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَلِئَسَّالِنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ } {93} وَلَا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَى مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ وَلِيُبَيِّنَ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ } {94} وَلَا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا إِنَّمَا عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ } {95} مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ } {96} مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثِيَ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ } {97} فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ } {98} إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ } {99} إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ } {100} وَإِذَا بَدَأْنَا آيَةً مَّكَانَ آيَةِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ } {101} قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ } {102} وَلَقَدْ نَعَلْنَا أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ } {103} إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ } {104} إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ } {105} مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ } {106} ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اسْتَحْبَبُوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ } {107} أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمِعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْعَاغِلُونَ } {108} لَا جَرَمَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمْ الْخَاسِرُونَ } {109} ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا

¹مجموع الفتاوى ج: 7 ص: 166

وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَعَفُورٌ رَحِيمٌ {110} يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ
نَفْسِهَا وَتُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ {111}

الأمر الكوني و الأمر الديني

وقد ذكر الله في كتابه الفرق بين الارادة و الأمر و القضاء و الاذن و التحريم و البعث و الارسال و الكلام و الجعل بين الكوني الذي خلقه وقدره وقضاه وان كان لم يأمر به ولا يحبه ولا يثبت اصحابه ولا يجعلهم من اوليائه المتقين وبين الديني الذي امر به وشرعه واثاب عليه واکرمهم وجعلهم من اوليائه المتقين وحزبه المفلحين وجنده الغالبين وهذا من أعظم الفروق التي يفرق بها بين اولياء الله واعدائه فمن استعمله الرب سبحانه وتعالى فيما يحبه ويرضاه ومات على ذلك كان من اوليائه ومن كان عمله فيما يبغضه الرب ويكرهه ومات على ذلك كان من اعدائه ف الارادة الكونية هي مشيئته لما خلقه وجميع المخلوقات داخله في مشيئته و ارادته الكونية والارادة الدينية هي المتضمنة لمحبتة ورضاه المتناولة لما امر به وجعله شرعا ودينا وهذه مختصة بالايمان والعمل الصالح وأما الأمر فقال في الامر الكوني {إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ} يس82 وقال تعالى {وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَّمَحٍ بِالْبَصْرِ} القمر50 وقال تعالى { أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَنْ لَمْ تَغْنَبِ بِالْأَمْسِ } يونس24 واما الامر الديني فقال تعالى {إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ} النحل90 وقال تعالى {إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا} النساء58¹

إن الله سبحانه قد فرق بالقرآن وبالإيمان بين أمره الديني وخلق الكوني فإن الله سبحانه خالق كل شيء ورب كل شيء ومليكه سواء في ذلك الذوات وصفاتها وأفعالها وما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن لا يخرج عن مشيئته شيء ولا يكون شيء الا بمشيئته وقد فرق الله في كتابه بين القسمين بين من قام بكلماته الكونيات وبين من اتبع كلماته الدينيات وذلك في أمره وإرادته وقضائه وحكمه وإذنه وبعثه وارساله فقال في الأمر الديني الشرعي {إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى} {النحل90} وقال في الأمر الكوني القدرى {إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ} يس82 وبهذا الجمع والتفريق تزول الشبهة في مسألة الأمر الشرعي هل هو مستلزم للإرادة الكونية أم لا فان التحقيق أنه غير مستلزم للإرادة الكونية القدرية وإن كان مستلزما للإرادة الدينية الشرعية²

¹مجموع الفتاوى ج: 11 ص: 267 و مجموع الفتاوى ج: 10 ص: 39 و التحفة العراقية ج: 1 ص: 46

²أمراض القلوب ج: 1 ص: 46 ومجموع الفتاوى ج: 2 ص: 411

تتنوع دلالة اللفظ في عمومه وخصوصه بحسب الأفراد والاقتران

قال تعالى { إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ } النحل 90

عامة الأسماء يتنوع مسماها بالاطلاق والتقييد مثال ذلك اسم المعروف و المنكر اذا أطلق كما في قوله تعالى { وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ } آل عمران 104 وقوله { يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ } الأعراف 157 وقوله { كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ } آل عمران 110 وقوله { وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ } آل عمران 114 وقوله { وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ } التوبة 71 يدخل في المعروف كل خير وفي المنكر كل شر ثم قد يقرن بما هو أخص منه كقوله { لَأَخَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّنْ نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ } النساء 114 فغاير بين المعروف وبين الصدقة والاصلاح بين الناس وكذلك قوله تعالى { إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ } العنكبوت 45
غاير

بينهما وقد دخلت الفحشاء في المنكر في قوله { وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ } التوبة 71 ثم ذكر مع المنكر اثنين في قوله { وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ } النحل 90 جعل البغى هنا مغايرا لهما وقد دخل في المنكر في ذلك الموضعين¹

أن لفظ المعروف والمنكر تختلف دلالاته بالإطلاق والاقتران ففي قوله { يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ } آل عمران 104 يدخل في لفظ المعروف كل مأمور به وفي لفظ المنكر كل منهى عنه وفي قوله تعالى { إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ } العنكبوت 45 جعل الفحشاء غير المنكر وقوله { وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ } النحل 90 جعل الفحشاء والبغى غير المنكر وإذا قيل هذا من باب عطف الخاص على العام والعام على الخاص فللناس هنا قولان منهم من يقول الخاص دخل في العام وخص بالذكر فقد ذكر مرتين ومنهم من يقول تخصيصه بالذكر يقتضى أنه لم يدخل في العام وقد يعطف الخاص على العام كما في قوله { وَمَلَأْنَاهُ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ } البقرة 98 وقوله { وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ } الأحزاب 7 الآية وقد يعطف العام على الخاص كما في قوله تعالى { وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضاً لَّمْ تَطُؤُوهَا } الأحزاب 27²

¹مجموع الفتاوى ج: 10 ص: 274- 276 و مجموع الفتاوى ج: 20 ص: 157 ومجموع الفتاوى ج: 7 ص: 162 و اقتضاء الصراط ج: 1 ص: 36 و الجواب الصحيح ج: 3 ص: 117 و الفتاوى الكبرى ج: 2 ص: 326

²مجموع الفتاوى ج: 18 ص: 276

وقال تعالى { إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ } العنكبوت 45 والفحشاء من المنكر وكذلك قال { إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ } النحل 90 وإيتاء ذي القربى هو من العدل والاحسان كما أن الفحشاء والبغي من المنكر وكذلك قوله { وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ } الأعراف 170 وإقامة الصلاة من أعظم التمسك بالكتاب وكذلك قوله { إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا } الأنبياء 90 ودعائهم رغباً ورهباً من الخيرات وأمثال ذلك في القرآن كثير وهذا الباب يكون تارة مع كون أحدهما بعض الآخر فيعطف عليه تخصيصاً له بالذكر لكونه مطلوباً بالمعنى العام والمعنى الخاص وتارة تكون دلالة الاسم تتنوع بحال الانفراد والاقتران فإذا أفرد عم وإذا قرن بغيره خص كاسم الفقير والمسكين لما أفرد أحدهما في مثل قوله { لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أَحْصَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ } البقرة 273 وقوله { إِطْعَامُ عَشْرَةِ مَسَاكِينَ } المائدة 89 دخل فيه الآخر ولما قرن بينهما في قوله { إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ } التوبة 60 صاراً نوعين وقد قيل إن الخاص المعطوف على العام لا يدخل في العام حال الاقتران بل يكون من هذا الباب والتحقيق أن هذا ليس لازماً قال تعالى { مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ } البقرة 98 وقال تعالى { وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ } الأحزاب 7 وذكر الخاص مع العام يكون لأسباب متنوعة تارة لكونه له خاصية ليست لسائر أفراد العام كما في نوح وإبراهيم وموسى وعيسى وتارة لكون العام فيه إطلاق قد لا يفهم منه العموم كما في قوله { هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ } {2} الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ } {3} وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ } {4} البقرة 2-4 فقوله { يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ } البقرة 3 يتناول الغيب الذي يجب الإيمان به لكن فيه إجمال فليس فيه دلالة على أن من الغيب ما أنزل إليك وما أنزل من قبلك وقد يكون المقصود أنهم يؤمنون بالمخبر به وهو الغيب وبالإخبار بالغيب وهو ما أنزل إليك وما أنزل من قبلك ومن هذا الباب قوله تعالى { ائْتِلْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ } العنكبوت 45 وقوله { وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ } الأعراف 170 وتلاوة الكتاب هي اتباعه كما قال ابن مسعود في قوله تعالى { الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ } البقرة 121 قال يحلون حلاله ويحرمون حرامه ويؤمنون بمتشابهه ويعملون بمحكمه فاتباع الكتاب يتناول الصلاة وغيرها لكن خصها بالذكر لمزيتها وكذلك قوله لموسى { إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي } طه 14 وإقامة الصلاة لذكره من أجل عبادته وكذلك قوله تعالى { اتَّقُوا اللَّهَ } وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا } الأحزاب 70 وقوله { اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ } المائدة 35 وقوله { اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ } التوبة 119 فإن التوكل والاستعانة هي من عبادة الله لكن خصت بالذكر ليقصدها المتعبد بخصوصها فإنها هي العون على سائر أنواع العبادة إذ هو سبحانه لا يعبد إلا بمعاونته¹

أوجب الله العدل لكل أحد على كل أحد في كل حال

قال تعالى { إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ } يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ } النحل 90 قال مالك رحمه الله الحكمة معرفة الدين والعمل به ولذلك قال ابن

¹الفتاوى الكبرى ج: 2 ص: 375

قتيبة الحكمة عند العرب العلم والعمل والحكمة العملية عندهم وعند غيرهم تتضمن علم الأخلاق وسياسة المنزل وسياسة المدنية وبنى ذلك كله على هذه القضايا المشهورة بل وكل عمل يؤمر به فلا بد فيه من العدل فالعدل مأمور به في جميع الأعمال والظلم منهي عنه نهياً مطلقاً ولهذا جاءت أفضل الشرائع والمناهج بتحقيق هذا كله وتكميله فأوجب الله العدل لكل أحد على كل أحد في كل حال كما قال تعالى { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَن تَعْدِلُوا } النساء 135 وقال تعالى { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ } المائدة 8 وقال تعالى { لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ } الحديد 25 وقال تعالى { إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ } النساء 58 وقال تعالى { إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ } النحل 90 ومثل هذا كثير وكذلك تحريم الظلم بمجموع أنواعه كثير في النصوص الالهية حتى في الحديث الالهى حديث ابي ذر الذي رواه مسلم في صحيحه عن النبي صلى الله عليه وسلم فيما يرويه عن ربه تبارك وتعالى أنه قال يا عبادي انى حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا يا عبادي انكم تخطئون بالليل والنهار وأنا أغفر الذنوب جميعاً ولا أبالى فاستغفروني اغفر لكم يا عبادي كلكم جائف إلا من أطعمته فاستطعموني أطعمكم يا عبادي كلكم عار إلا من كسوته فاستكسوني أكسكم يا عبادي كلكم ضال إلا من هديته فاستهدوني أهدكم يا عبادي إنكم لن تبلغوا ضري فتضروني ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني يا عبادي لو ان أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك في ملكي شيئاً يا عبادي لو ان أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ما نقص ذلك من ملكي شيئاً يا عبادي لو أن اولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا في صعيد واحد فسألوني فأعطيت كل إنسان منهم مسألتة ما نقص ذلك من ملكي إلا كما ينقص البحر إذا غمس فيه المخيط يا عبادي إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها فمن وجد خيراً فليحمد الله ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه¹

الوعظ في القرآن هو الامر والنهي والترغيب والترهيب

قال تعالى { إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ } النحل 90 والوعظ في القرآن هو الامر والنهي والترغيب والترهيب كقوله تعالى { وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيثًا } {66} وَإِذَا لَاتَيْنَاهُمْ مِّن لَّدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا } {67} وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا } {68} النساء 66-68 فقوله { مَا يُوعَظُونَ بِهِ } النساء 66

¹الرد على المنطقيين ج: 1 ص: 425-426

أي ما يؤمرون به وقال {يَعْظُكُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ} النور 17 أي ينهاكم الله أن تعودوا لمثله¹

الأمر اعم من النهي والأعم أفضل

قال تعالى {إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمُ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ} النحل 90 كل من عصى النهي فقد عصى الأمر لأن الأمر استدعاء الفعل بالقول على وجه الاستعلاء والناهي مستدع من النهي فعلا اما بطريق القصد أو بطريق اللزوم فان كان نوعا منه فالأمر اعم والأعم أفضل وان لم يكن نوعا منه فهو أشرف القسمين ولهذا اتفق العلماء على تقديمه على النهي وبذلك جاء الكتاب والسنة قال تعالى {يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ} الأعراف 157 وقال {إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ} النحل 90²

"والله إن له لحلاوة وإن عليه لطلاوة"

وعن ابن عباس أن الوليد بن المغيرة جاء إلى النبي فقرأ عليه من القرآن {إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمُ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ} النحل 90 قال أعد فأعاد النبي فقال والله إن له الحلاوة وإن عليه لطلاوة وإن أعلاه لمثمر وإن أسفله لمغدق وما يقول هذا البشر وفي لفظ أن الوليد بن المغيرة جاء إلى النبي فقرأ عليه القرآن فكانه رق له فبلغ ذلك أبا جهل فأتاه فقال يا عم إن قومك يريدون أن يجمعوا لك مالا قال ولم قال ليعطوكه فإنك أتيت محمدا لتعوض مما قبله قال قد علمت قريش أنني من أكثرها مالا قال فقل فيه قولا يبلغ قومك أنك منكر لها وأنتك كاره له قال وماذا أقول فوالله ما فيكم رجل أعلم بالأشعار مني ولا أعلم برجزه ولا بقصيده مني والله ما يشبه الذي يقول شيئا من هذا ووالله إن لقوله الذي يقوله لحلاوة وإن عليه لطلاوة وإنه لمثمر أعلاه مغدق أسفله وإنه ليعلو وما يعلى وإنه ليعظم ما تحته قال لا ترضى عنك قومك حتى تقول فيه قال فدعني حتى أفكر فيه فلما فكر قال هذا سحر يؤثر يأتريه عن غيره فنزلت {دَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا} المدثر 11 رواه عبد الرزاق عن معمر عن أيوب عن عكرمة عنه³

¹الرد على المنطقيين ج: 1 ص: 468 و مجموع الفتاوى ج: 2 ص: 45 والجواب الصحيح ج: 6 ص: 428

²مجموع الفتاوى ج: 20 ص: 120

³الجواب الصحيح ج: 5 ص: 373

أعظم العدل التوحيد وأعظم الظلم الشرك

قال تعالى { وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ } {91} وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَاثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ } {92} وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يَضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَلَنْتَسألَنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ } {93} وَلَا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا السُّوءَ بِمَا صَدَدْتُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ } {94} النحل 91-94 وقال تعالى { أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ } الأعراف 29 أمر مع القسط بالتوحيد الذي هو عبادة الله وحده لا شريك له وهذا أصل الدين وضده هو الذنب الذي لا يغفر قال تعالى { إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ } النساء 48 وهو الدين الذي أمر الله به جميع الرسل وأرسلهم به إلى جميع الأمم قال تعالى { وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ } الأنبياء 25 وقال تعالى { وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبُدُونَ } الزخرف 45 وهذا التوحيد الذي هو أصل الدين هو أعظم العدل وضده وهو الشرك أعظم الظلم كما أخرجنا في الصحيحين عن عبد الله بن مسعود قال لما نزلت هذه الآية { الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ } الأنعام 82 شق ذلك على أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم وقالوا أينا لم يظلم نفسه فقال ألم تسمعوا إلى قول العبد الصالح إن الشرك لظلم عظيم وفي الصحيحين عن ابن مسعود قال قلت يا رسول الله أي الذنب أعظم قال أن تجعل لله ندا وهو خالقك قلت ثم أي قال ثم أن تقتل ولدك خشية أن يطعم معك قلت ثم أي قال أن تزني بحليلة جارك فأنزل الله تصديق ذلك { وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا } الفرقان 68 وقد جاء عن غير واحد من السلف وروي مرفوعاً¹

{ وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ }

وقد كانوا في الجاهلية يحالف الرجل قبيلة فاذا وجد أقوى منها نقض عهد الأولى وحالف الثانية فأنزل الله تعالى { وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ } {91} وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَاثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ } {92} وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يَضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَلَنْتَسألَنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ } {93} وَلَا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا السُّوءَ بِمَا صَدَدْتُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ } {94} النحل 91-94²

¹الفتاوى الكبرى ج: 1 ص: 416

²مجموع الفتاوى ج: 28 ص: 20

وقال الله تعالى { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ } المائدة 1 و العقود هي العهود و قال تعالى { وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا } الأنعام 152 و قال تعالى { وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا } الإسراء 34 و قال تعالى { وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ لَا يُولُونَ الدِّبَارَ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا } الأحزاب 15 فقد أمر سبحانه بالوفاء بالعقود و هذا عام و كذلك أمر بالوفاء بعهد الله و بالعهد و قد دخل في ذلك ما عقده المرء على نفسه بدليل قوله { وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ } الأحزاب 15 فدل على ان عهد الله يدخل فيه ما عقده المرء على نفسه و ان لم يكن الله قد أمر بنفس ذلك المعهود عليه قبل العهد كالنذر و البيع إنما أمر بالوفاء به و لهذا قرنه بالصدق في قوله { وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا } الأنعام 152 لأن العدل في القول خبر يتعلق بالماضي و الحاضر و الوفاء بالعهد يكون في القول المتعلق بالمستقبل كما قال تعالى { وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهُ لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ } 75 { فَلَمَّا آتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ } 76 { فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ } 77 { التوبة 75- 77 و قال سبحانه { وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ } النساء 1 قال المفسرون كالضحاك و غيره تساءلون به تتعاهدون و تتعاقدون و ذلك لأن كل و احد من المتعاقدين يطلب من الآخر ما أوجبه العقد من فعل او ترك او مال او نفع و نحو ذلك و جمع سبحانه في هذه الآية و سائر السورة أحكام الأسباب التي بين بنى آدم المخلوقة كالرحم و المكسوبة كالعقود التي يدخل فيها الصهر و ولاية مال اليتيم و نحو ذلك و قال سبحانه { وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا } الإسراء 34 و قال سبحانه { وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ } النساء 1 كَأَنِّي نَفَضْتُ غَرْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَاثًا تَتَخَذُونَ آيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ } 92 { النحل 91-92 و الأيمان جمع يمين و كل عقد فانه يمين قيل سمي بذلك لأنهم كانوا يعقدونه بالمصافحة باليمين يدل على ذلك قوله { إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُواكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ } 4 { فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرْمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُواهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ } 5 { وَإِن أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ } 6 { كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ } 7 { كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً } 8 { التوبة 4- 8 و الال هو القرابة و الذمة العهد و هما المذكوران في قوله { تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ } النساء 1 الى قوله { لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً } التوبة 10 فذمهم الله على طبيعة الرحم و نقض الذمة الى قوله { وَإِن تَكُونُوا آيْمَانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ } التوبة 12 و هذه نزلت في كفار مكة لما صالحهم النبي صلى الله عليه و سلم عام الحديبية ثم نقضوا العهد باعانة بني بكر على خزاعة¹

¹مجموع الفتاوى ج: 29 ص: 139

جميع أمور بني آدم لا بد لهم فيها من عقد وقدرة

قال الله تعالى { وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْفُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ } {91} وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَاثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ } {92} وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ } {93} وَلَا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا السُّوءَ بِمَا صَدَدْتُمْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ } {94} النحل 91-94

فإن بني آدم لا يمكن عيشهم إلا بما يشتركون فيه من جلب منفعتهم ودفع مضرتهم فاتفقوا على ذلك هو التعاقد والتحالف ولهذا كان الوفاء بالعهد من الأمور التي اتفق أهل الأرض على إيجابها لبعضهم علي بعض وإن كان منهم القادر الذي لا يوفي بذلك كما اتفقوا في إيجاب العدل والصدق فإذا اتفقوا وتعاقدوا علي اجتلاب الأمر الذي يحبونه ودفع الأمر الذي يكرهونه أعان بعضهم بعضا علي اجتلاب المحبوب ونصر بعضهم بعضا علي دفع المكروه ولو لم يتعاقدوا بالكلام فنفس اشتراكهم في أمر يوجب عليهم اجتلاب ما يصلح ذلك الأمر المشترك ودفع ما يضره كأهل النسب الواحد وأهل البلد الواحد فإن التناسب والتجاور يوجب التعاون علي جلب المنفعة المشتركة ودفع الضرر المشترك فصار الاشتراك بينهم تارة يثبت بفعلهم وهو التعاقد علي ما فيه خيرهم وتارة يثبت بفعل الله تعالى وقد جمع الله عز وجل هذين الأصلين في قوله تعالى { وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ } النساء 1 وذكر في هذه السورة الأمور التي بينهم من جهة الخلق وهي من جهة العقود كما قال تعالى { وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا } الفرقان 54 وقال تعالى { الَّذِينَ يُؤْفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنْفُضُونَ الْمِيثَاقَ } {20} وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ } {21} الرعد 20-21 وقال تعالى { وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ } {26} الَّذِينَ يَنْفُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ } البقرة 26-27 وإذا كان لا بد في كل ما يشتركون فيه من تحالف وغير تحالف من التعاون علي جلب المحبوب والتناصر لدفع المكروه فالمحبوب هو الموالى والمكروه هو المعادي فلا بد لكل بني آدم من ولاية وعبادة ولهذا جميعهم يتمادحون بالشجاعة والسماحة فإن السماحة إعانة علي وجود المحبوب بالأموال والمنافع وغير ذلك والشجاعة نصر لدفع المكروه بالقتال وغيره ولا قوام لشيء من أمور بني آدم إلا بذلك ومبني ذلك بينهم علي العدل في المشاركات والمعاضات فظهر أن جميع أمور بني آدم لا بد فيها من تعاون بينهم ودفع ومنع لغيرهم فلا بد لهم من عقد وقدرة والعقد أصله الإرادة كما قال تعالى { وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ } النساء 1 أي يتعاهدون ويتعاقدون والقدرة القدرة¹

¹قاعدة في المحبة ج: 1 ص: 121-122

قال تعالى {وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ} النحل 93

ولا ريب أن الله على كل شيء قدير كما نطق به القرآن في غير موضع فإن قدرته من لوازم ذاته والمصحح لها الإمكان فلا اختصاص لها بممكن دون ممكن لكن الممتنع لذاته ليس شيئاً باتفاق العقلاء فلا يعقل وجوده في الخارج فإنه لا يعقل في الخارج كون الشيء موجوداً معدوماً أو متحركاً ساكناً أو كون أجزاء الحركة المتعاقبة مقترنة في أن واحد أو كون اليوم موجوداً مع أمس وغدا وأمثال ذلك وحينئذ فمثل هذا لا يدخل في عموم الكتاب وأما الممتنع لغيره وهو ما علم الله أنه لا يكون وأخبر أنه لا يكون وكتب أنه لا يكون فهذا لا يكون لعدم إرادته وأنه لا يكون فإنه ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن فهذا لو شاء لفعله كما أخبر القرآن في غير موضع أنه لو شاء الله لآتى كل نفس هداها ولو شاء لجعل الناس أمة واحدة وأمثال ذلك¹

قال تعالى {وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ} النحل 93

قدرة الرب لا يفعل بها إلا مع وجود مشيئته فإن ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن وليس كل ما كان قادراً عليه فعله قال تعالى {بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ} القيامة 4 وقال تعالى {قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَاباً مِّنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبَسَكُمْ شَيْعاً وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ} الأنعام 65 وقد ثبت في الصحيحين عن جابر رضي الله عنه أنه لما نزلت هذه الآية قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذاباً من فوقكم قال النبي صلى الله عليه وسلم أعوذ بوجهك أو من تحت أرجلكم قال أعوذ بوجهك أو يلبسكم شيعاً ويذيق بعضكم بأس بعض قال هاتان أهون وقال تعالى {وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مِنَ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعاً} يونس 99 وقد قال تعالى {وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ} هود 118 وقال {وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَقْتَلُوا} البقرة 253 ومثل هذا متعدد في القرآن وإذا كان لو شاء لفعله دل على أنه قادر عليه فإنه لا يمكن فعل غير المقدور وإذا كان كذلك علم أن الفعل لو وجد بمجرد كونه قادراً لوقع كل مقدور بل لا بد مع القدرة من الإرادة²

ضلال من إعتقدوا تنافي القدر والشرع

قال تعالى {وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ} النحل 93

¹الصفدية ج: 2 ص: 109

²منهاج السنة النبوية ج: 3 ص: 271

أنه قد كان ألهم الفجور و التقوى و هو خالق فعل العبد فلا بد أن يعلم ما خلقه قبل أن يخلقه كما قال {أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ} الملك 14 لأن الفاعل المختار يريد ما يفعله و الإرادة مستلزما لتصور المراد وذلك هو العلم بالمراد المفعول و إذا كان خلقه للشيء مستلزما لعلمه به فذلك أصل القدر السابق و ما علمه الله سبحانه بقوله و بكتبه فلا نزاع فيه و هذا بين في جميع الأشياء في هذا و غيره فإنه سبحانه إذا ألهم الفجور و التقوى فالملهم أن لم يميز بين الفجور و التقوى و يعلم أن هذا الفعل الذي يريد أن يفعله هذا فجور و الذي يريد أن يفعله هذا تقوى لم يصح منه إلهام الفجور و التقوى فظهر بهذا حسن ما ذكره النبي صلى الله عليه و سلم من تصديق الآية لما أخبر به النبي صلى الله عليه و سلم من القدر السابق و قوله سبحانه {فَأَلَّهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا} كما يدل على القدر فيدل على الشرع فإنه لو قال فألهمها أفعالها كما يقول الناس خالق أفعال العباد لم يكن في ذلك تمييز بين الخير و الشر و المحبوب و المكروه و المأمور به و المنهي عنه بل كان فيه حجة للمشركين من المباحية و الجبرية الذين يدفعون الأمر و النهي و الحسن و القبح فإنه خلق أفعال العباد فلما قال {فَأَلَّهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا} الشمس 8 كان الكلام تفريقا بين الحسن المأمور به و القبيح المنهي عنه و أن الأفعال منقسمة إلى حسن و سيء مع كونه تعالى خالق الصنفين و هذه طريقة القرآن في غير موضع يذكر المؤمن و الكافر و أفعالهما الحسنة و السيئة و و عده و وعيده و يذكر أنه خالق الصنفين كقوله {يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ} النحل 93 و نحو ذلك و هذا الأصل ضلت فيه الجبرية و القدرية فإن القدرية المجوسية قالوا إن الأفعال تنقسم إلى حسن و قبيح لصفات قائمة بها و العبد هو المحدث لها بدون قدرة الله و بدون خلقه فقالت الجبرية بل العبد مجبور على فعله و الجبر حق يوجب وجود أفعاله عند وجود الأسباب التي يخلقها الله و إمتناع وجودها عند عدم شيء من الأسباب و إذا كان مجبورا يمتنع أن يكون الفعل حسنا أو قبيحا لمعنى يقوم به و هذه طريقة أبي عبدالله الرازي و نحوه من الجبرية النافين لإنقسام الفعل في نفسه إلى حسن و قبيح و الأولى طريقة أبي الحسين البصري و نحوه من القدرية القائلين بأن فعل العبد لم يحدثه إلا هو و العلم بذلك ضروري أو نظري و أن الفعل ينقسم في نفسه إلى حسن و قبيح و العلم بذلك ضروري و أبو الحسين إمام المتأخرين من المعتزلة وله من العقل و الفضل ما ليس لأكثر نظرائه لكن هو قليل المعرفة بالسنن و معانى القرآن و طريقة السلف و هو و أبو عبدالله الرازي في هذا الباب في طرفي نقيض و مع كل منهما من الحق ما ليس مع الآخر فأبو الحسين يدعى أن العلم بأن العبد يحدث فعله ضروري و الرازي يدعى أن العلم بأن إفتقار الفعل المحدث الممكن إلى مرجح يجب وجوده عنده و يمتنع عند عدمه ضروري كذلك بل كلاهما صادق فيما ذكره من العلم الضروري ثم يعتقد كل فريق أن هذا العلم الضروري يبطل ما ادعاه الآخر من الضرورة و ليس الأمر كذلك بل كلاهما صادق فيما ذكره من العلم الضروري و مصيب في ذلك و إنما وقع غلطه في إنكاره ما مع الآخر من الحق فإنه لا منافاة بين كون العبد محدثا لفعله و كون هذا الإحداث ممكن الوجود بمشيئة الله تعالى و لهذا كان مذهب أهل السنة المحضة أن العبد فاعل لفعله حقيقة كما ادعاه أبو الحسين من الضرورة لا يقولون ليس بفاعل حقيقة أو ليس بفاعل كما يقوله المائلون إلى الجبر مثل طائفة أبي عبدالله الرازي يقولون مع ذلك إن الله هو الخالق لهذا الفاعل و لفعله و هو الذي جعله فاعلا حقيقة و هو خالق أفعال العباد كما يقوله أهل الإثبات من الأشعرية طائفة الرازي و غيرهم لا كما يقوله القدرية مثل أبي الحسين و طائفته إن الله لم يخلق أفعال العباد و لهذا نص الأئمة كالإمام أحمد و من قبله من الأئمة كالأوزاعي و غيره على إنكار إطلاق القول بالجبر نفيا و إثباتا فلا يقال إن الله جبر العباد و لا يقال لم يجبرهم فإن لفظ الجبر فيه إشتراك و إجمال فإذا قيل جبرهم أشعر بأن الله يجبرهم على فعل الخير و الشر بغير إختيارهم و إذا قيل لم يجبرهم

أشعر بأنهم يفعلون ما يشاؤون بغير إختياره و كلاهما خطأ و قد بسطنا القول في هذا في غير هذا الموضوع و المقصود هنا أن هذين الفريقين إعتقدوا تنافى القدر و الشرع كما إعتقد ذلك المجوس و المشركون فقالوا إذا كان خالقا للفعل إمتنع أن يكون الفعل في نفسه حسنا له ثواب أو قبيحا عليه عقاب ثم قالت القدرية لكن الفعل منقسم فليس خالقا للفعل و قالت الجبرية لكنه خالق فليس الفعل منقسما ولكن الجبرية المقرون بالرسل يقرون بالإنقسام من جهة أمر الشارع و نهيه فقط و يقولون له أن يأمر بما شاء لا لمعنى فيه و ينهي عما يشاء لا لأجل معنى فيه و يقولون في خلقه و في أمره جميعا يفعل ما يشاء و يحكم ما يريد و أما من غلب عليه رأي أو هوى فإنه ينحل عن ربة الشارع إذا عين الجبر و يقولون ما يقوله المشركون { لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ شَيْءٍ } الأنعام 148 و من أقر بالشرع و الأمر و النهي و الحسن و القبح دون القدر و خلق الأفعال كما عليه المعتزلة فهو من القدرية المجوسية الذين شابهاوا المجوس و للمعتزلة من مشابهة المجوس و اليهود نصيب وافر و من أقر بالقضاء و القدر و خلق الأفعال و عموم الربوبية و أنكر المعروف و المنكر و الهدى و الضلال و الحسنات و السيئات ففيه شبه من المشركين و الصابئة¹

"ما من قلب من قلوب العباد إلا و هو بين إصبعين من أصابع الرحمن "

قال تعالى { **وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَلَنُسْأَلَنَ عَمَّا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ** } النحل 93 إن كل ما في الوجود فهو مخلوق له خلقه بمشيئته و قدرته و ما شاء كان و مالم يشأ لم يكن و هو الذي يعطى و يمنع و يخفض و يرفع و يعز و يذل و يغني و يفقر و يضل و يهدي و يسعد و يشقى و يولى الملك من يشاء و ينزعه ممن يشاء و يشرح صدر من يشاء للإسلام و يجعل صدر من يشاء ضيقا كأنما يصعد في السماء و هو يقلب القلوب ما من قلب من قلوب العباد إلا و هو بين إصبعين من أصابع الرحمن إن شاء أن يقيمه أقامه و إن شاء أن يزيغه أزاعه و هو الذى حبيب إلى المؤمنين الإيمان و زينه في قلوبهم و كره إليهم الكفر و الفسوق و العصيان أولئك هم الراشدون و هو الذى جعل المسلم مسلما و المصلي مصليا قال الخليل { رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمِينَ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ } البقرة 128 و قال { رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي } إبراهيم 40 و قال تعالى { وَاجْعَلْنَا مِنْهُمْ أُمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا } السجدة 24 و قال عن آل فرعون { وَاجْعَلْنَا هُمْ أُمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ } القصص 41 و قال تعالى { إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا } 19 { إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا } 20 { وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا } 21 { المعارج 19-21 و قال { وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا } هود 37 و قال { وَاصْنَعِ الْفُلْكَ } هود 38 و الفلك مصنوعة لبني آدم و قد أخبر الله تبارك و تعالى أنه خلقها بقوله { وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ } يس 42 و قال { وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَابِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثًا وَمَتَاعًا إِلَى حِينٍ } النحل 80 الآيات و هذه كلها مصنوعة لبني آدم و قال تعالى { أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْجِتُونَ } 95 { وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ } 96 { الصافات 95-96 فما بمعنى الذى و من جعلها مصدرية فقد غلط لكن إذا خلق المنحوت كما خلق المصنوع و الملبوس و المبني

¹مجموع الفتاوى ج: 16 ص: 235-238

دل على أنه خالق كل صانع و صنعته و قال تعالى { مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِّ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا } {الكهف17} و قال { فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا } {الأنعام125} و هو سبحانه خالق كل شيء و ربه و مليكه و له فيما خلقه حكمة بالغة و نعمة سابغة و رحمة عامة وخاصة و هو لا يسأل عما يفعل و هم يسألون لا لمجرد قدرته و قهره بل لكمال علمه و قدرته و رحمته و حكمته فإنه سبحانه و تعالى أحكم الحاكمين و أرحم الراحمين و هو أرحم بعباده من الوالدة بولدها و قد أحسن كل شيء خلقه و قال تعالى { وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي أَنْتَقَنَ كُلَّ شَيْءٍ } {النمل88} و قد خلق الأشياء بأسباب كما قال تعالى { وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا } {البقرة164} و قال { فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ } {الأعراف57} و قال تعالى { يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ } {المائدة16} ¹

الله سبحانه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن

قال تعالى { **وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ** } {النحل93}

اتفق المسلمون وسائر أهل الملل على أن الله على كل شيء قدير كما نطق بذلك القرآن أى فى مواضع كثيرة جدا وأن الشيء إسم لما يو جد فى الأعيان ولما يتصور فى الأذهان فما قدره الله و علم أنه سيكون هو شيء فى التقدير والعلم والكتاب وأن لم يكن شيئا فى الخارج ومنه قوله { إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ } {يس82} ولفظ الشيء فى الآية يتناول هذا وهذا فهو على كل شئ ما وجد وكل ماتصوره الذهن موجودا إن تصور أن يكون موجودا قدير لا يستثنى من ذلك شئ ولا يزداد عليه شئ كما قال تعالى { بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أَنْ نَسُوِّي بَنَانَهُ } {القيامة4} وقال { وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لِقَادِرُونَ } {المؤمنون18} قال المفسرون لقادرون على أن نذهب به حتى تموتوا عطشا و تهلك مواشيكم وتخرب أراضيكم و معلوم أنه لم يذهب به و هذا كقوله { أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ } {الواقعة68} إلى قوله { وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنْكُمْ تُكَذِّبُونَ } {الواقعة82} وهذا يدل على أنه قادر على ما لا يفعله فإنه أخبر أنه لو شاء جعل الماء أجاجا وهو لم يفعله ومثل هذا { وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا } {السجدة13} { وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مِنَ فِي الْأَرْضِ } {يونس99} { وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَفْتَنَلُوا } {البقرة253} فإنه أخبر فى غير موضع أنه لو شاء لفعل أشياء وهو لم يفعلها فلو لم يكن قادرا عليها لكان إذا شاءها لم يمكن فعلها ²

¹مجموع الفتاوى ج: 8 ص: 80-78

²مجموع الفتاوى ج: 8 ص: 10

قال تعالى { **وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَلَنَسْأَلَنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ {النحل93}** كل ما كان بعد عدمه فانما يكون بمشيئة الله وقدرته وهو سبحانه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن فما شاء وجب كونه وهو تحت مشيئة الرب وقدرته وما لم يشأ امتنع كونه مع قدرته عليه كما قال تعالى { **وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا {السجدة13}** } { **وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَفْتَنَّا الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مَنْ بَعْدَ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنْ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَفْتَنَّا وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ {البقرة253}** } **{وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً {النحل93}** فكون الشيء واجب الوقوع لكونه قد سبق به القضاء على انه لا بد من كونه لا يمتنع ان يكون واقعا بمشيئته وقدرته و ارادته وان كانت من لوازم ذاته كحياته وعلمه فان ارادته للمستقبلات هي مسبوقه بارادته للماضي { **إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ {يس82}** وهو انما أراد هذا الثانى بعد أن أراد قبله ما يقتضى ارادته فكان حصول الارادة اللاحقة بالارادة السابقة¹

اسم اليمين جامع للعقد الذي بين العبد وبين ربه

قال الله تعالى { **وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ {91}** } **وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَقَضَتْ غَزْلَهُمَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَاتًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ {92}** } **وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَلَنَسْأَلَنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ {93}** } **وَلَا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا السُّوءَ بِمَا صَدَدْتُمْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ {94}** {النحل91-94} قال أهل اللغة وهذا لفظ الجوهرى اليمين القسم والجمع أيمن وأيمان فقال سمي بذلك لأنهم كانوا إذا تحالفوا يمسك كل امرئ منهم على يمين صاحبه²

ان اليمين يقال انما سميت بذلك لان المعاهدين يمد كل منهما يمينه الى الاخر ثم غلبت حتى صار مجرد الكلام بالعهد يسمى يميناً ويقال سميت يميناً لان اليمين هي القوة والشدة كما قال الله تعالى { **لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ {الحاقة45}** } فلما كان الحلف معقوداً مشدداً سمي يميناً فاسم اليمين جامع للعقد الذي بين العبد وبين ربه وان كان نذراً ومنه قول النبي النذر حلفه وقوله كفارة النذر كفارة اليمين وقول جماعة من الصحابة للذي نذر نذر اللجاج والغضب كفر يمينك وللعهد الذي بين المخلوقين ومنه قوله تعالى { **وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا {النحل91}** }³

¹مجموع الفتاوى ج: 6 ص: 245

²مجموع الفتاوى ج: 35 ص: 342

³الصارم المسلول ج: 2 ص: 43

لم يجيء اعداد العذاب المهين في القرآن الا في حق الكفار

قال تعالى { وَلَا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا السُّوَاءَ بِمَا صَدَدْتُمْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ } 94 { وَلَا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا إِنَّمَا عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ } 95 { مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ } 96 { النحل 94-96 لم يجيء اعداد العذاب المهين في القرآن الا في حق الكفار كقوله { الَّذِينَ يَبْخُلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا } النساء 37 وقوله { وَخُذُوا حِذْرَكُمْ إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا } النساء 102 وقوله { أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا } النساء 151 وقوله { فَبَاؤُوا بِغَضَبِ عَلِيِّ غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ } البقرة 90 { وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمَلِّي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمَلِّي لَهُمْ لِيُزَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ } آل عمران 178 { وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ } الحج 57 { وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئًا اتَّخَذَهَا هُزُوعًا أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ } الجاثية 9 { وَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ } المجادلة 5 { اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ } المجادلة 16 { وَمَنْ يَعِصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُّهِينٌ } النساء 14 فهي والله أعلم فيمن جحد الفرائض واستخف بها على أنه لم يذكر ان العذاب أعد له وأما العذاب العظيم فقد جاء وعيدا للمؤمنين في قوله { لَوْلَا كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ } الأنفال 68 وقوله { وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ } النور 14 وفي المحارب { ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ } المائدة 33 وفي الفاتل { وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا } النساء 93 وقوله { وَلَا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا السُّوَاءَ بِمَا صَدَدْتُمْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ } النحل 94 وقد قال سبحانه { وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُّكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ } الحج 18 وذلك لأن الإهانة اذلال وتحقير وخزي وذلك قدر زائد على ألم العذاب فقد يعذب الرجل الكريم ولا يهان¹

استعمال لفظ الذوق في ادراك الملائم والمنافر

قال تعالى { وَلَا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا السُّوَاءَ بِمَا صَدَدْتُمْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ } 94 { وَلَا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا إِنَّمَا عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ } 95 { مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ } 96 { النحل 94-96 ولفظ الذوق وان كان قد يظن انه في الاصل مختص بذوق اللسان فاستعماله في الكتاب والسنة يدل على انه اعم من ذلك مستعمل في الاحساس بالملائم والمنافر كما ان لفظ الاحساس في عرف الاستعمال عام فيما يحس بالحواس الخمس بل وبالباطن واما في

¹ الصارم المسلول ج: 2 ص: 112 و مجموع الفتاوى ج: 15 ص: 366-368

اللغة فأصلة الرؤية كما قال { هَلْ تُحِسُّ مِنْهُمْ مَنْ أَحَدٍ } {مريم} 98 و المقصود لفظ الذوق قال تعالى { فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ } {النحل} 112 فجعل الخوف والجوع مذوقا و اضاف اليهما اللباس ليشعر انه لابس الجائع والخائف فشملة واحاط به احاطة اللباس باللباس بخلاف من كان الالم لا لا يستوعب مشاعره بل يختص ببعض المواضع وقال تعالى { إِنَّكُمْ لَذَائِقُوا الْعَذَابِ الْأَلِيمِ } {الصافات} 38 وقال تعالى { ذُوقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ } {الدخان} 49 وقال تعالى { ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ } {القمر} 48 وقال { لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ } {الدخان} 56 وقال تعالى { لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا } {24} { إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا } {25} {النبا} 24-25 وقال { وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَلِيمِ } {سورة} {السجدة} 21 وقد قال النبي ذاق طعم الايمان من رضى بالله ربا وبالاسلام ديناً وبمحمد نبياً فاستعمال لفظ الذوق في ادراك الملائم والمنافر كثير¹

قال تعالى { فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ } {النحل} 112 فان من الناس من يقول الذوق حقيقة في الذوق بالفم واللباس بما يلبس على البدن وانما استعير هذا وهذا وليس كذلك بل قال الخليل الذوق في لغة العرب هو وجود طعم الشيء والاستعمال يدل على ذلك قال تعالى { وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَلِيمِ } {سورة} {السجدة} 21 وقال { وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ } {فصلت} 50 وقال { ذُوقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ } {الدخان} 49 وقال { فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا } {الطلاق} 9 وقال { فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ } {فاطر} 37 وقال النبي ذاق طعم الايمان من رضى بالله ربا وبالاسلام ديناً وبمحمد رسولا وفي بعض الادعية أدقنا برد عفوك وحلاوة مغفرتك فلفظ الذوق يستعمل في كل ما يحس به ويجد ألمه أو لذته فدعوى المدعى اختصاص لفظ الذوق بما يكون بالفم تحكم منه لكن ذاك مقيد فيقال ذقت الطعام وذقت هذا الشراب فيكون معه من القيود ما يدل على أنه ذوق بالفم واذا كان الذوق مستعملا فيما يحسه الانسان بباطنه أو بظاهره حتى الماء الحميم يقال ذاقه فالشراب اذا كان باردا أو حارا يقال ذقت حره وبرده ولفظ ذوق الجوع والخوف فان هذا اللفظ يدل على الاحساس بالمؤلم واذا أضيف الى المذذذ على الاحساس به كقوله صلى الله عليه وسلم ذاق طعم الايمان من رضى بالله ربا وبالاسلام ديناً وبمحمد نبياً فان قيل فلم لم يصف نعيم الجنة بالذوق قيل لأن الذوق يدل على جنس الاحساس ويقال ذاق الطعام لمن وجد طعمه وان لم يأكله وأهل الجنة نعيمهم كامل تام لا يقتصر فيه على الذوق بل استعمال لفظ الذوق في النفي كما قال عن أهل النار { لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا } {النبا} 24 أى لا يحصل لهم من ذلك ولا ذوق وقال عن أهل الجنة { لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَى } {الدخان} 56²

حصول الهداية والفلاح للمؤمنين دون غيرهم

¹الفتاوى الكبرى ج: 2 ص: 361 و مجموع الفتاوى ج: 10 ص: 334

²مجموع الفتاوى ج: 7 ص: 111

قال تعالى { مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثِيَ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ } النحل 97 أن أصل العلم الإلهي ومبدأه ودليله الأول عند الذين آمنوا هو الإيمان بالله ورسوله وعند الرسول هو وحى الله اليه كما قال خاتم الأنبياء أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا ان لا اله إلا الله وان محمدا رسول الله فاذا فعلوا ذلك عصموا منى دماءهم واموالهم الا بحقها وقال الله تعالى له { قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِي وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ } سبأ 50 وتقرير الحجة في القرآن بالرسول كثير كقوله { رُسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا } النساء 165 ولما كان أصل العلم والهدى هو الإيمان بالرسالة المتضمنة للكتاب والحكمة كان ذكره طريق الهداية بالرسالة التي هي القرآن وما جاءت به الرسل كثيرا جدا وكذلك ذكره حصول الهداية والفلاح للمؤمنين دون غيرهم ملء القرآن كقوله { هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ } 2 { الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ } 3 { البقرة 1-3 ثم ذم الذين كفروا والذين نافقوا وقوله { وَالْعَصْرِ } 1 { إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ } 2 { إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَّصَّوْا بِالْحَقِّ وَتَوَّصَّوْا بِالصَّبْرِ } 3 { الْعَصْرِ } 1-3 وقوله { ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ } 5 { إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ } 6 { التين 5-6 فحكم على النوع كله والأمة الإنسانية جميعها بالخسارة والسفول إلى الغاية إلا المؤمنين الصالحين وكذلك جعل أهل الجنة هم أهل الإيمان وأهل النار هم أهل الكفر فيما شاء الله من الآيات حتى صار ذلك معلوما علما شائعا متواترا اضطراريا من دين الرسول عند كل من بلغته رسالته وربط السعادة مع إصلاح العمل به في مثل قوله { مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثِيَ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ } النحل 97¹

لا يحبط جميع الحسنات إلا الكفر

قال تعالى { مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثِيَ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ } النحل 97 المعتزلة لهم أصل فاسد وافقوا فيه الخوارج في الحكم وإن خالفهم في الاسم فقالوا إن أصحاب الكبائر يخلدون في النار ولا يخرجون منها بشفاعة ولا غيرها وعندهم يمتنع أن يكون الرجل الواحد ممن يعاقبه الله ثم يثيبه ولهذا يقولون بحبوط جميع الحسنات بالكبيرة وأما الصحابة وأهل السنة والجماعة فعلى أن أهل الكبائر يخرجون من النار ويشفع فيهم وإن الكبيرة الواحدة لا تحبط جميع الحسنات ولكن قد يحبط ما يقابلها عند أكثر أهل السنة ولا يحبط جميع الحسنات إلا الكفر كما لا يحبط جميع السيئات إلا التوبة فصاحب الكبيرة إذا أتى بحسنات يبتغي بها رضا الله أثابه الله على ذلك وإن كان مستحقا للعقوبة على كبريته وكتاب الله عز وجل يفرق بين حكم السارق والزاني وقتال المؤمنين بعضهم بعضا وبين حكم الكفار في الأسماء والأحكام والسنة المتواترة عن النبي صلى الله عليه وسلم وإجماع الصحابة يدل على ذلك كما هو مبسوط في غير هذا الموضوع وعلى هذا تنازع الناس في قوله { إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ } المائدة 27 فعلى قول الخوارج والمعتزلة لا تقبل حسنة إلا ممن اتقاه مطلقا فلم يأت كبيرة وعند المرجئة إنما يتقبل

¹مجموع الفتاوى ج: 2 ص: 5

ممن اتقى الشرك فجعلوا أهل الكبائر داخلين في اسم المتقين وعند أهل السنة والجماعة يتقبل العمل ممن اتقى الله فيه فعله خالصا موافقا لأمر الله فمن اتقاه في عمل تقبله منه وإن كان عاصيا في غيره ومن لم يتقه فيه لم يتقبله منه وإن كان مطيعا في غيره والتوبة من بعض الذنوب دون بعض كفعل بعض الحسنات المأمور بها دون بعض إذا لم يكن المتروك شرطا في صحة المفعول كالإيمان المشروط في غيره من الأعمال كما قال الله تعالى { وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا } الإسراء 19 وقال تعالى { مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْتَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاةً طَيِّبَةً } النحل 97 وقال { وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَن دِينِهِ فَبِمَتَّ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ } البقرة 217¹

الثواب والعقاب إنما يكون على عمل وجودي بفعل الحسنات

والمقصود هنا أن الثواب والعقاب إنما يكون على عمل وجودي بفعل الحسنات كعبادة الله وحده وترك السيئات كترك الشرك أمر وجودي وفعل السيئات مثل { مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْتَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ } النحل 97 فأما عدم الحسنات والسيئات فجزاؤه عدم الثواب والعقاب وإذا فرض رجل آمن بالرسول مجملا وبقي مدة لا يفعل كثيرا من المحرمات ولا سمع أنها محرمة فلم يعتقد تحريمها مثل من آمن ولم يعلم أن الله حرم الميتة والدم ولحم الخنزير ولا علم أنه حرم نكاح الأقارب سوى أربعة أصناف ولا حرم بالمصاهرة أربعة أصناف حرم على كل من الزوجين أصول الآخر وفروعه فإذا آمن ولم يفعل هذه المحرمات ولا اعتقد تحريمها لأنه لم يسمع ذلك فهذا لا يثاب ولا يعاقب ولكن إذا علم التحريم فاعتقده أثيب على اعتقاده وإذا ترك ذلك مع دعاء النفس إليه أثيب ثوابا آخر كالذي تدعوه نفسه إلى الشهوات فينهاها كالصائم الذي تشتهي نفسه الأكل والجماع فينهاها والذي تشتهي نفسه شرب الخمر والفواحش فينهاها فهذا يثاب ثوابا آخر بحسب نهيه لنفسه وصبره على المحرمات واشتغاله بالطاعات التي ضدها فإذا فعل تلك الطاعات كانت مانعة له عن المحرمات وإذا تبين هذا فالحسنات التي يثاب عليها كلها وجودية نعمة من الله تعالى وما أحبته النفس من ذلك وكرهته من السيئات فهو الذي حبب الإيمان إلى المؤمنين وزينه في قلوبهم وكره إليهم الكفر والفسوق والعصيان²

الثواب الموعود به في الآخرة لا يكون إلا لمن آمن وعمل صالحا

¹ الفتاوى الكبرى ج: 2 ص: 353-361 و مجموع الفتاوى ج: 10 ص: 323

² الحسنة والسيئة ج: 1 ص: 59

قال تعالى { مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنَّىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ } النحل 97

أن الإيمان إذا أطلق أدخل الله ورسوله فيه الأعمال المأمور بها وقد يقرب به الأعمال وذكرنا نظائر لذلك كثيرة وذلك لأن أصل الإيمان هو ما في القلب والأعمال الظاهرة لازمة لذلك لا يتصور وجود إيمان القلب الواجب مع عدم جميع أعمال الجوارح بل متى نقصت الأعمال الظاهرة كان لنقص الإيمان الذي في القلب فصار الإيمان متناولا للملزوم واللازم وإن كان أصله ما في القلب وحيث عطف عليه الأعمال فإنه أريد أنه لا يكتفى بإيمان القلب بل لا بد معه من الأعمال الصالحة ثم للناس في مثل هذا قولان منهم من يقول المعطوف دخل في المعطوف عليه أولا ثم ذكر بإسمه الخاص تخصيصا له لئلا يظن أنه لم يدخل في الأول وقالوا هذا في كل ما عطف فيه خاص على عام كقوله { مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ } البقرة 98 وقوله { وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ ابْنِ مَرْيَمَ } الأحزاب 7 وقوله { وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ } محمد 2 مجموع الفتاوى ج: 7 ص: 199 فخص الإيمان بما نزل على محمد بعد قوله { وَالَّذِينَ آمَنُوا } محمد 2 وهذه نزلت في الصحابة وغيرهم من المؤمنين وقوله { حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوَسْطَىٰ وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ } البقرة 238 وقوله { وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ } البينة 5 { وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ } البقرة 277 كقوله { وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ } البينة 5 فإنه قصد أولا أن تكون العبادة لله وحده لا لغيره ثم أمر بالصلاة والزكاة ليعلم أنهما عبادتان واجبتان فلا يكتفى بمطلق العبادة الخالصة دونهما وكذلك يذكر الإيمان أولا لأنه الأصل الذي لا بد منه ثم يذكر العمل الصالح فإنه أيضا من تمام الدين لا بد منه فلا يظن الظان اكتفاءه بمجرد إيمان ليس معه العمل الصالح فعلى قول هؤلاء يقال الأعمال الصالحة المعطوفة على الإيمان دخلت في الإيمان وعطف عليه عطف الخاص على العام إما لذكره خصوصا بعد عموم وإما لكونه إذا عطف كان دليلا على أنه لم يدخل في العام وقيل بل الأعمال في الأصل ليست من الإيمان فإن أصل الإيمان هو ما في القلب ولكن هي لازمة له فمن لم يفعلها كان إيمانه منتقيا لأن إنتفاء اللازم يقتضى انتفاء الملزوم لكن صارت بعرف الشارع داخلة في اسم الإيمان إذا أطلق كما تقدم في كلام النبي فإذا عطف عليه ذكرت لئلا يظن الظان أن مجرد إيمانه بدون الأعمال الصالحة اللازمة للإيمان يوجب الوعد فكان ذكرها تخصيصا وتنصيحا ليعلم أن الثواب الموعود به في الآخرة وهو الجنة بلا عذاب لا يكون إلا لمن آمن وعمل صالحا لا يكون لمن ادعى الإيمان ولم يعمل وقد بين سبحانه في غير موضع أن الصادق في قوله آمنت لا بد أن يقوم بالواجب وحصر الإيمان في هؤلاء يدل على إنتفائه عن سواهم¹

فإن الله لم يعلق وعد الجنة إلا باسم الإيمان لم يعلقه باسم الإسلام مع إيجابه الإسلام واخباره أنه دينه الذي ارتضاه وأنه لا يقبل دينا غيره ومع هذا فما قال إن الجنة أعدت للمسلمين ولا قال وعد الله المسلمين بالجنة بل إنما ذكر ذلك باسم الإيمان كقوله { وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ

¹مجموع الفتاوى ج: 7 ص: 204

تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ { التوبة 72 } فهو يعلقها باسم الايمان المطلق أو المقيد بالعمل الصالح كقوله { مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ } البقرة 62 الآيات في هذا المعنى كثيرة فالوعد بالجنة والرحمة في الآخرة وبالسلامة من العذاب علق باسم الايمان المطلق والمقيد بالعمل الصالح ونحو ذلك وهذا كما تقدم أن المطلق يدخل فيه فعل ما أمر الله به ورسوله ولم يعلق باسم الإسلام فلو كان من أتى من الايمان بما يقدر عليه وعجز عن معرفة تفاصيله قد يسمى مسلماً لا مؤمناً لكان من اهل الجنة وكانت الجنة يستحقها من يسمى مسلماً وان لم يسم مؤمناً وليس الأمر كذلك بل الجنة لم تعلق الا باسم الايمان وهذا أيضاً مما استدل به من قال إنه ليس كل مسلم من المؤمنين الموعودين بالجنة اذ لو كان الأمر كذلك لكان وعد الجنة معلقاً باسم الإسلام كما علق باسم الايمان وكما علق باسم التقوى واسم البر في مثل قوله { إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلَالٍ وَعُيُونٍ } المرسلات 41 وقوله { إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ } المطففين 22 وباسم أولياء الله كقوله { أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ } {62} { الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ } {63} لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ } {64} يونس 62-64 فلما لم يجر اسم الإسلام هذا المجرى علم أن مسماه ليس ملازماً لمسمى الايمان كما يلزمه اسم البر والتقوى وأولياء الله وأن اسم الإسلام يتناول من هو من أهل الوعيد وان كان الله يثيبه على طاعته مثل أن يكون في قلبه ايمان ونفاق يستحق به العذاب فهذا يعاقبه الله ولا يخلده في النار لأن في قلبه مثقال ذرة أو أكثر من مثقال ذرة من إيمان¹

يعلق الواجب بالشرط لبيان حكم من الأحكام

قال تعالى { فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ } {98} { إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ } {99} { إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ } {100} وَإِذَا بَدَلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنزِلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ } {101} قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ } {102} النحل 98-102 قد يعلق الواجب بالشرط لبيان حكم من الأحكام كقوله { إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا } {المائدة 6} وقد قدروا فيه إذا أردتم القيام وقدروا إذا أردت القراءة فاستعدز والطهارة واجبة والقراءة في الصلاة واجبة وقد قال { إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ } {27} { لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ } {28} التكوير 27-28 ومشية الاستقامة واجبة²

لو قيل ان الأمير غدا يحكم بين الناس أو يقسم بينهم فمن أحب فاليحضر فهم منه ان الأمر بالحضور لأخذ النصيب من حكمه أو قسمه وهذا ظاهر ثم أن هذا الوصف المقتضى للحكم تارة يكون سبباً متقدماً على الحكم في العقل وفي الوجود كما في قوله { وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا

¹مجموع الفتاوى ج: 7 ص: 347

²مجموع الفتاوى ج: 23 ص: 165

أَيَدِيَهُمَا { المائدة 38 وتارة يكون حكمه متقدما على الحكم في العلم والارادة متأخرة عنه في الوجود كما في قولك الأمير يحضر غدا فان حضر كان حضور الامير يتصور ويقصد قبل الأمر تسمى العلة الغائية وتسميها الفقهاء حكمة الحكم وهي سبب في الارادة بحكمها وحكمها سبب في الوجود لها و التعليل تارة يقع في اللفظ بنفس الحكمة الموجودة فيكون ظاهره أن العلة متأخرة عن المعلول وفي الحقيقة انما العلة طلب تلك الحكمة و ارادتها وطلب العافية و ارادتها متقدم على طلب اسبابها المفعولة و اسبابها المفعولة متقدمة عليها في الوجود ونظائره كثير كما قيل **{فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ { النحل 98** } إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا { المائدة 6 ويقال اذا حجبت فتزود¹

فقوله **{فَمَنْ تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ { البقرة 196** يجوز أن يكون معناه فمن أراد التمتع بالعمرة إلى الحج كما قال **{فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ { النحل 98** } وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَا { المجادلة 3 أي يريدون العود²

المؤمن يبتلى بوساوس الشيطان وبوساوس الكفر

قال تعالى **{ فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ {98} إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ {99} إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ {100} وَإِذَا بَدَلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ {101} قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ {102} { النحل 98-102**

وكثيرا ما تعرض للمؤمن شعبة من شعب النفاق ثم يتوب الله عليه وقد يرد على قلبه بعض ما يوجب النفاق ويدفعه الله عنه والمؤمن يبتلى بوساوس الشيطان وبوساوس الكفر التي يضيق بها صدره كما قالت الصحابة يا رسول الله إن أحدنا ليجد في نفسه ما لئن يخز من السماء الى الأرض أحب اليه من أن يتكلم به فقال ذلك صريح الايمان وفي رواية ما يتعاضم ان يتكلم به قال الحمد لله الذي رد كيده الى الوسوسة أي حصول هذا الوسواس مع هذه الكراهة العظيمة له ودفعه عن القلب هو من صريح الايمان كالمجاهد الذي جاءه العدو فدافعه حتى غلبه فهذا أعظم الجهاد و الصريح الخالص كاللبن الصريح وانما صار صريحا لما كرهوا تلك الوسواس الشيطانية ودفعوها فخلص الايمان فصار صريحا ولا بد لعامة الخلق من هذه الوسواس فمن الناس من يجيئها فصير كافرا أو منافقا ومنهم من قد غمر قلبه الشهوات والذنوب فلا يحس بها الا اذا طلب الدين فإما أن يصير مؤمنا واما أن يصير منافقا ولهذا يعرض للناس من الوسواس في الصلاة ما لا يعرض لهم اذا لم يصلوا لأن الشيطان يكثر تعرضه للعبد إذا أراد الانابة الى ربه والتقرب اليه والاتصال به فلهذا يعرض للمصلين ما لا يعرض لغيرهم ويعرض لخاصة أهل العلم والدين أكثر مما يعرض للعامة ولهذا يوجد عند طلاب العلم والعبادة من الوسواس والشبهات ما ليس عند غيرهم لانه لم يسلك شرع

¹مجموع الفتاوى ج: 6 ص: 423

²شرح العمدة ج: 3 ص: 340

الله ومنهاجه بل هو مقبل على هواه فى غفلة عن ذكر ربه وهذا مطلوب الشيطان بخلاف المتوجهين الى ربهم بالعلم والعبادة فانه عدوهم يطلب صدهم عن الله قال تعالى { إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا } فاطر6 ولهذا أمر قارئ القرآن أن يستعيز بالله من الشيطان الرجيم فان قراءة القرآن على الوجه المأمور به تورث القلب الايمان العظيم وتزيده يقينا وطمأنينة وشفاء وقال تعالى { وَنَزَّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا } الإسراء82 وقال تعالى { هَذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ } آل عمران138 وقال تعالى { هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ } البقرة2 وقال تعالى { فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَرَزَدْتُهُمْ إِيْمَانًا } التوبة124 وهذا مما يجده كل مؤمن من نفسه فالشيطان يريد بوساوسه أن يشغل القلب عن الانتفاع بالقرآن فأمر الله القارئ اذا قرأ القرآن أن يستعيز منه قال تعالى { فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ } {98} إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ } {99} إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ } {100} النحل98-100 فان المستعيز بالله مستجير به لاجىء اليه مستغيث به من الشيطان فالعائد بغيره مستجير به فاذا عاذ العبد بربه كان مستجيرا به متوكلا عليه فيعيذه الله من الشيطان ويجيره منه ولذلك قال الله تعالى { ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ } {34} وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا نُوْحٌ عَظِيمٌ } {35} وَإِنَّمَا يَنزَعَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ } {36} فصلت34-36 وفى الصحيحين عن النبي أنه قال انى لأعلم كلمة لو قالها لذهب عنه ما يجد أعوذ بالله من الشيطان الرجيم فأمر سبحانه بالاستعاذة عند طلب العبد الخير لئلا يعوقه الشيطان عنه وعندما يعرض عليه من الشر ليدفعه عنه عند إرادة العبد للحسنة وعندما يأمره الشيطان بالسئئات ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم لا يزال الشيطان يأتي أحدكم فيقول من خلق كذا من خلق كذا حتى يقول من خلق الله فمن وجد ذلك فليستعذ بالله ولينته فأمر بالاستعاذة عندما يطلب الشيطان أن يوقعه فى شر أو يمنعه من خير كما يفعل العدو مع عدوه وكلما كان الإنسان أعظم رغبة فى العلم والعبادة واقدر على ذلك من غيره بحيث تكون قوته على ذلك أقوى ورغبته وإرادته فى ذلك أتم كان ما يحصل له أن سلمه الله من الشيطان أعظم وكان ما يفتتن به إن تمكن منه الشيطان أعظم ولهذا قال الشعبي كل أمة علمائها شرارها إلا المسلمين فإن علماءهم خيارهم وأهل السنة فى الإسلام كأهل الإسلام فى الملل وذلك ان كل أمة غير المسلمين فهم ضالون وانما يضلهم علمائهم فعلمائهم شرارهم والمسلمون على هدى وانما يتبين الهدى بعلمائهم فعلمائهم خيارهم وكذلك أهل السنة أئمتهم خيار الأمة وأئمة أهل البدع أضر على الأمة من أهل الذنوب ولهذا أمر النبي صلى الله عليه وسلم بقتل الخوارج ونهى عن قتال الولاة الظلمة وأولئك لهم نهمة فى العلم والعبادة فصار يعرض لهم من الوسوس التى تضلهم وهم يظنونها هدى فيطيعونها ما لا يعرض لغيرهم ومن سلم من ذلك منهم كان من أئمة المتقين مصابيح الهدى وينابيع العلم كما قال ابن مسعود لأصحابه كونوا ينابيع العلم مصابيح الحكمة سرج الليل جدد القلوب احلاس البيوت خلقان الثياب تعرفون فى أهل السماء وتخفون على أهل الأرض¹

" إذا سألت فاسئلى الله وإذا استعنت فاستعن بالله "

¹مجموع الفتاوى ج: 7 ص: 272-283

قال تعالى { فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ } {98} إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ } {99} إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ } {100} وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٌ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ } {101} قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ } {102} النحل 98-102

وتوحيد الله وإخلاص الدين له في عبادته وإستعانه في القرآن كثير جدا بل هو قلب الإيمان وأول الإسلام وآخره كما قال النبي صلى الله عليه وسلم أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله وقال إني لأعلم كلمة لا يقولها عند الموت أحد إلا وجد روحه لها روحا وقال من كان آخر كلامه لا إله إلا الله وجبت له الجنة وهو قلب الدين والإيمان وسائر الأعمال كالجوارح له وقول النبي إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل أمرى ما نوى فمن كانت هجرته الى الله ورسوله فهجرته الى الله ورسوله ومن كانت هجرته الى دنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها فهجرته الى ما هاجر اليه فبين بهذا أن النية عمل القلب وهي أصل العمل وإخلاص الدين لله وعبادة الله وحده ومتابعة الرسول فيما جاء به هو شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله وهو دين الإسلام العام الذي بعث الله به جميع الرسل كما قال تعالى { وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنْ اعبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ } النحل 36 وقال النبي لمعاذ بن جبل يا معاذ أتدرى ما حق الله على عباده قلت الله ورسوله أعلم قال حقه عليهم أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئا أتدرى ما حق العباد على الله إذا فعلوا ذلك أن لا يعذبهم وقال لابن عباس إذا سألت فاسئل الله وإذا استعنت فاستعن بالله وقال تعالى { فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ } النحل 98¹

من كان متبعا للأنبياء نصره الله سبحانه بما نصر به الأنبياء

قال تعالى { فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ } {98} إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ } {99} إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ } {100} وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٌ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ } {101} قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ } {102} النحل 98-102

ثبت في الصحيح من حديث أبي هريرة لما قال له الجني اقرأ آية الكرسي إذا أويت الى فراشك فإنه لا يزال عليك من الله حافظ ولا يقربك شيطان حتى تصبح فقال النبي صدقك وهو كذوب و منها أن يستعيذ بالله من الشياطين و منها أن يستعيذ بالعود الشرعية فإن الشياطين كانت تعرض للأنبياء في حياتهم وتريد أن تؤذيهم وتفسد عبادتهم كما جاءت الجن الى النبي بشعلة من النار تريد أن تحرقه فأتاه جبريل بالعودة المعروفة التي تضمنها الحديث المروي عن أبي التياح أنه قال سألت رجل عبد الرحمن بن حبيش وكان شيخا كبيرا قد أدرك النبي صلى الله عليه وسلم كيف صنع رسول الله حين كادته الشياطين قال تحدرت عليه من الشعاب والأودية وفيهم شيطان معه شعلة من نار يريد أن يحرق بها رسول الله قال فرعب رسول الله فأتاه جبريل عليه السلام فقال يا محمد قل ما أقول قال قل أعوذ بكلمات الله التامات التي لا يجاوزهن بر ولا فاجر من شر

¹مجموع الفتاوى ج: 1 ص: 73

ما خلق وذراً وبرا ومن شر ما ينزل من السماء ومن شر ما يعرج فيها ومن شر ما يخرج من الأرض ومن شر ما ينزل فيها ومن شر فتن الليل والنهار ومن شر كل طارق يطرق إلا طارقاً يطرق بخير يا رحمن قال فطفئت نارهم وهزمهم الله عز وجل وثبت في الصحيحين عن أبي هريرة أنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إن عفريتاً من الجن جاء يفتك بي البارحة ليقطع على صلاتي فأمكنني الله عز وجل منه فدعته فأردت أن أخذه فأربطه الى سارية من المسجد حتى تصبحوا فتنظروا اليه ثم ذكرت قول سليمان عليه السلام رب اغفر لي وهب لي ملكاً لا ينبغي لأحد من بعدي فرده الله تعالى خاسئاً وعن عائشة أن النبي كان يصلي فأتاه الشيطان فأخذه فصرعه فخنقه قال رسول الله حتى وجدت برد لسانه على يدي ولولا دعوة سليمان لأصبح موثقاً حتى يراه الناس أخرجه النسائي واسناده على شرط البخاري كما ذكر ذلك أبو عبد الله المقدسي في مختاره الذي هو خير من صحيح الحاكم وعن أبي سعيد الخدري أن رسول الله كان يصلي صلاة الصبح وهو خلفه فالتبست عليه القراءة فلما فرغ من صلاته قال لو رأيتموني وإبليس فأهويت بيدي فما زلت أخنقه حتى وجدت برد لعابه بين إصبعي هاتين الإبهام والتي تليها ولولا دعوة أخي سليمان لأصبح مربوطاً بسارية من سواري المسجد يتلاعب به صبيان المدينة فمن استطاع أن لا يحول بينه وبين القبلة أحد فليفعل رواه الإمام أحمد في مسنده وأبو داود في سننه وفي صحيح مسلم عن أبي الدرداء أنه قال قام رسول الله يصلي فسمعناه يقول أعوذ بالله منك ثم قال ألعنك بلعنة الله ثلاثاً وبسط يده كأنه يتناول شيئاً فلما فرغ من صلاته قلنا يا رسول الله سمعناك تقول شيئاً في الصلاة لم نسمعك تقوله قبل ذلك ورأيناك بسطت يدك قال إن عدو الله إبليس جاء بشهاب من نار ليحمله في وجهي فقلت أعوذ بالله منك ثلاث مرات ثم قلت ألعنك بلعنة الله التامة فاستأخر ثم أردت أن أخذه ولولا دعوة أخي سليمان لأصبح موثقاً يلعب به ولدان المدينة فإذا كانت الشياطين تأتي الأنبياء عليهم الصلاة والسلام لتؤذيهم وتفسد عبادتهم فيدفعهم الله تعالى بما يؤيد به الأنبياء من الدعاء والذكر والعبادة ومن الجهاد باليد فكيف من هو دون الأنبياء فالنبي قمع شياطين الإنس والجن بما أيده الله تعالى من أنواع العلوم والأعمال ومن أعظمها الصلاة والجهاد وأكثر أحاديث النبي في الصلاة والجهاد فمن كان متبعاً للأنبياء نصره الله سبحانه بما نصر به الأنبياء وأما من ابتدع ديناً لم يشرعوه فترك ما أمروا به من عبادة الله وحده لا شريك له واتباع نبيه فيما شرعه لأمته وابتدع الغلو في الأنبياء والصالحين والشرك بهم فإن هذا تتلعب به الشياطين قال تعالى { إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ } {99} إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ } {100} النحل 99-100 وقال تعالى { إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ } الحجر 42 و منها أن يدعو الرائي بذلك ربه تبارك وتعالى ليبين له الحال و منها أن يقول لذلك الشخص أنت فلان ويقسم عليه بالاقسام المعظمة ويقرأ عليه قوارع القرآن الى غير ذلك من الأسباب التي تضر الشياطين¹

الشیطان یأمر بخلاف ما یأمر به الرسول

¹مجموع الفتاوى ج: 1 ص: 169-171

قال تعالى { فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ } {98} إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ } {99} إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ } {100} وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٌ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ } {101} قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ } {102} النحل 98-102

فإن الله تعالى أمر المسلمين بالصلاة والزكاة فالصلاة حق الحق في الدنيا والآخرة والزكاة حق الخلق فالرسول أمر الناس بالقيام بحقوق الله وحقوق عباده بأن يعبدوا الله ولا يشركوا به شيئاً فالذي شرعه الله ورسوله توحيد وعدل وإحسان وإخلاص وصلاح للعباد في المعاش والمعاد وما لم يشرعه الله ورسوله من العبادات المبتدعة فيه شرك وظلم وإساءة وفساد العباد في المعاش والمعاد فإن الله تعالى أمر المؤمنين بعبادته والإحسان الى عباده كما قال تعالى { وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وَبِذِي الْقُرْبَى } النساء 36 وهذا أمر بمعالي الأخلاق وهو سبحانه يحب معالي الأخلاق ويكره سفاسفها وقد روى عنه أنه قال إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق رواه الحاكم في صحيحه وقد ثبت عنه في الصحيح صلى الله عليه وسلم أنه قال اليد العليا خير من اليد السفلى وقال اليد العليا هي المعطية واليد السفلى السائلة وهذا ثابت عنه في الصحيح فأين الإحسان الى عباد الله من إيذائهم بالسؤال والشحاذة لهم وأين التوحيد للخالق بالرغبة اليه والرجاء له والتوكل عليه والحب له من الإشراف به بالرغبة الى المخلوق والرجاء له والتوكل عليه وأن يحب كما يحب الله وأين صلاح العبد في عبودية الله والذل له والافتقار اليه من فساده في عبودية المخلوق والذل له والافتقار اليه فالرسول صلى الله عليه وسلم أمر بتلك الأنواع الثلاثة الفاضلة المحمودة التي تصلح أمور أصحابها في الدنيا والآخرة ونهى عن الأنواع الثلاثة التي تفسد أمور أصحابها ولكن الشيطان يأمر بخلاف ما يأمر به الرسول قال تعالى { فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ } {98} إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ } {99} إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ } {100} النحل 98-102¹

المبدأ في شعور النفس وحركتها هم الملائكة أو الشياطين

قال تعالى { فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ } {98} إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ } {99} إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ } {100} وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٌ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ } {101} قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ } {102} النحل 98-102

فمبدأ العلم الحق والإرادة الصالحة من لمة الملك ومبدأ الاعتقاد الباطل والإرادة الفاسدة من لمة الشيطان قال الله تعالى { الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضلاً وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ } البقرة 268 وقال تعالى { إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ } آل عمران 175 أي يخوفكم أوليائه وقال تعالى { وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ } الأنفال 48 والشيطان وسواس خناس إذا ذكر العبد ربه خنس فإذا غفل عن ذكره

¹مجموع الفتاوى ج: 1 ص: 196

وسوس فلهذا كان ترك ذكر الله سببا ومبدأ لنزول الاعتقاد الباطل والإرادة الفاسدة في القلب ومن ذكر الله تعالى تلاوة كتابه وفهمه ومذاكرة العلم كما قال معاذ بن جبل ومذاكرته تسبيح ولكن لا بد أن يعلم ان المبدأ في شعور النفس وحركتها هم الملائكة أو الشياطين فالملك يلقي التصديق بالحق والأمر بالخير والشيطان يلقي التكذيب بالحق والأمر بالنشر والتكذيب مقرونان بنظر الإنسان كما أن الأمر والنهي مقرونان بإرادته فإذا كان النظر في دليل هاد كالقرآن وسلم من معارضات الشيطان تضمن ذلك النظر العلم والهدى ولهذا أمر العبد بالاستعاذة من الشيطان الرجيم عند القراءة {فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ} النحل 98¹

كل من عبد غير الله فإنما يعبد الشيطان

قال تعالى { فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ } {98} إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ } {99} إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ } {100} وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ } {101} قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ } {102} النحل 98-102

الإنسان إما عابد لله أو عابد للشيطان ولهذا كان كل من لم يعبد الله وحده فلا بد أنه يكون عابدا لغيره يعبد غيره فيكون مشركا وليس في بني آدم قسم ثالث بل إما موحد أو مشرك أو من خلط هذا بهذا كالمبدلين من أهل الملل النصراني ومن أشبههم من الضلال المنتسبين إلى الإسلام قال الله تعالى { فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ } {98} إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ } {99} إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ } {100} النحل 98-100

فإبليس لا يغوي المخلصين ولا سلطان له عليهم إنما سلطانه على الغاوين وهم الذين يتولونه وهم الذين به مشركون وقوله الذين يتولونه والذين هم به مشركون صفتان لموصوف واحد فكل من تولاه فهو به مشرك وكل من أشرك به فقد تولاه وكل من عبد غير الله فإنما يعبد الشيطان وإن كان يظن أنه يعبد الملائكة والأنبياء²

أولياء الله هم المؤمنون المتقون

قال تعالى { فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ } {98} إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ } {99} إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ } {100} وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ } {101} قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى

¹مجموع الفتاوى ج: 4 ص: 36

²الحسنة والسيئة ج: 1 ص: 56

لِلْمُسْلِمِينَ {102} النحل 98-102 وقد بين سبحانه وتعالى في كتابه وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ان الله أولياء من الناس وللشيطان أولياء ففرق بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان وإذا عرف أن الناس فيهم أولياء الرحمن وأولياء الشيطان فيجب أن يفرق بين هؤلاء وهؤلاء كما فرق الله ورسوله بينهما فأولياء الله هم المؤمنون المتقون كما قال تعالى { أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ } {62} الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ } {63} يونس 62-63 وفي الحديث الصحيح الذي رواه البخاري وغيره عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي قال يقول الله من عادى لي ولياً فقد بارزني بالمحاربة أو فقد آذنته بالحرب وما تقرب إلي عبدي بمثل أداء ما افترضت عليه ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي بها فبي يسمع وبي يبصر وبي يبطش وبي يمشي ولئن سألتني ل أعطيتنه ولئن استعاذ بي لأعيذنه وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن قبض نفس عبدي المؤمن يكره الموت وأكره مساءته ولا بد له منه وهذا أصح حديث يروي في الأولياء فبين النبي أنه من عادى ولياً لله فقد بارز الله بالمحاربة وفي حديث آخر وإني لأتأثر لأوليائي كما يتأثر الليث الحرب أي أخذ تأرهم ممن عادهم كما يأخذ الليث الحرب تأره وهذا لأن أولياء الله هم الذين آمنوا به ووالوه فأحبوا ما يحب وأبغضوا ما يبغض ورضوا بما يرضى وسخطوا بما يسخط وأمروا بما أمر ونهوا عما نهى وأعطوا لمن يحب أن يعطى ومنعوا من يحب أن يمنع كما في الترمذي وغيره عن النبي أنه قال أوثق عرى الإيمان الحب في الله والبغض في الله وفي حديث آخر رواه أبو داود قال ومن أحب الله وأبغض الله وأعطى الله ومنع الله فقد استكمل الإيمان و الولاية ضد العداوة وأصل الولاية المحبة والقرب وأصل العداوة البغض والبعد وقد قيل أن الولي سمي ولياً من موالاته للطاعات أي متابعتة لها والأول اصح والولي القريب فيقال هذا يلي هذا أي يقرب منه ومنه قوله صلى الله عليه وسلم ألحقوا الفرائض بأهلها فما ابقت الفرائض فلاولى رجل ذكر أي لأقرب رجل إلى الميت واكده بلفظ الذكر ليبين انه حكم يختص بالذكور ولا يشترك فيها الذكور والانات كما قال في الزكاة فابن لبون ذكر فإذا كان ولي الله هو الموافق المتابع له فيما يحبه ويرضاه ويبغضه ويسخطه ويأمر به وينهى عنه كان المعادى لوليه معادياً له كما قال تعالى { لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَكُمْ أَوْلِيَاءَ تَلْفُؤْنَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ } {الممتحنة} 1 فمن عادى أولياء الله فقد عاداه ومن عاداه فقد حاربه فلهذا قال ومن عادى لي ولياً فقد بارزني بالمحاربة¹

اخبر الله سبحانه وتعالى ان الشياطين اولياء للذين لا يؤمنون بهدى الله الذي بعث به رسله²

الشياطين لا سلطان لهم على قلوب الموحدين

¹مجموع الفتاوى ج: 11 ص: 158

²الاستقامة ج: 2 ص: 171

قال تعالى { فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ } {98} إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ } {99} إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ } {100} وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٌ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ } {101} قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ } {102} النحل 98-102

المتولون للشيطان هم الذين يحبون ما يحبه فأخبر سبحانه أن المتوكلين علي الله ليس للشيطان عليهم سلطان وإنما سلطانه علي المتولين له والمتولي من الولاية وأصله المحبة والموافقة كما أن العداوة أصلها البغض والمخالفة فالمتولون له هم الذين يحبونه ما يحبه الشيطان ويوافقهم مشركون به حيث أطاعوه وعبدوه بامتثال أمره كما قال تعالى { أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ } {60} وَأَنْ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ } {61} يس 60- 61

والشياطين شياطين الإنس والجن والعبادة فيها الرغبة والرغبة قال تعالى { قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِإِيْدِي أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ } {75} قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِمَّنْ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ } {76} قَالَ فَأَخْرِجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ } {77} وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ } {78} قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمٍ يُبْعَثُونَ } {79} قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ } {80} إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ } {81} قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ } {82} إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ } {83} قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقُّ أَقُولُ } {84} لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ } {85} ص 75- 85 فاقسم الشيطان { لأغويَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ } {82} إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ } {83} ص 82- 83 وقد أخبر الله أنه ليس له سلطان علي هؤلاء فقال في الحجر { قَالَ فَأَخْرِجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ } {34} وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ } {35} الحجر 34-35 إلى قوله { قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لأَرِيَنَّنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ } {39} إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلَصِينَ } {40} الحجر 39-40 قال تعالى { إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنْ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ } {42} الحجر 42 وقوله { إِلَّا مَنْ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ } {42} استثناء منقطع في أقوي القولين إذ العباد هم العابدون لا المعبودون كما قال تعالى وقال تعالى { عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا } {الإنسان 6} وقال تعالى { الْأَخْلَاءَ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ } {67} يَا عِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ } {68} الَّذِينَ آمَنُوا بآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ } {69} الزخرف 67- 69 وقال تعالى { وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ } {الجن 19} وقال تعالى { سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا } {الإسراء 1} وقال تعالى { وَادْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ } {ص 45} عباد الله المخلصون ليس للشيطان عليهم سلطان وإذا كان عباد الله المخلصون ليس له عليهم سلطان وأن سلطانه علي الذين يتولونه والذين هم به مشركون وقد أقسم أن يغويهم إلا عباد الله المخلصين وأخبر الله أن سلطانه ليس علي عباد الله بل علي من اتبعه من الغاوين والغبي اتباع الأهواء والشهوات وأصل ذلك أن الحب لغير الله كحب الأنداد وذلك هو الشرك قال الله تعالى فيه { إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ } {النحل 100} فبين أن صاحب الإخلاص مادام صادقاً في إخلاصه فإنه يعتصم من هذا الغبي وهذا الشرك وإن الغبي هو يضعف الإخلاص ويقوي هواه الشرك¹

¹قاعدة في المحبة ج: 1 ص: 77-79 و مجموع الفتاوى ج: 13 ص: 220

الشيطان يوالى الإنسان بحسب عدم إيمانه

الإنسان لا يفعل الحرام إلا لضعف إيمانه ومحبته وإذا فعل مكروهات الحق فلضعف بغضها في قلبه أو لقوة محبتها التي تغلب بغضها فالإنسان لا يأتي شيئاً من المحرمات كالفواحش ما ظهر منها وما بطن والإثم والبغي بغير الحق والشرك بالله ما لم ينزل به سلطانا والقول علي الله بغير علم إلا لضعف الإيمان في أصله أو كماله أو ضعف العلم والتصديق وإما ضعف المحبة والبغض لكن إذا كان أصل الإيمان صحيحاً وهو التصديق فإن هذه المحرمات يفعلها المؤمن مع كراهته وبغضه لها فهو إذا فعلها لغلبة الشهوة عليه فلا بد أن يكون مع فعلها فيه بغض لها وفيه خوف من عقاب الله عليها وفيه رجاء لأن يخلص من عقابها إما بتوبة وإما حسنات وإما عفو وإما دون ذلك وإلا فإذا لم يبغضها ولم يخف الله فيها ولم يرج رحمته فهذا لا يكون مؤمناً بحال بل هو كافر أو منافق فكل سيئة يفعلها المؤمن لا بد أن تقترن بها حسنات له لكن قوة شهوته للسيئة وما زين له فيها حتى ظن أنها مصلحة له أوجب وقوعها وهو اتباع الظن وما تهوي الأنفس وهذا القدر عارض بعض إيمانه فترجح عليه حتى ما هو ضد لبعض الإيمان فلم يبق مؤمناً بالإيمان الواجب كما قال النبي لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن وهو فيما يفعله متبع للشيطان فيما زينه له حتى رآه حسناً وفيما أمره به فأطاعه وهذا من الشرك بالشيطان كما قال تعالى { أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا } {الكهف} 50 وقال تعالى { أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ } {60} وَأَنْ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ {61} يس 60-61 ولهذا لم يخلص من الشيطان إلا المخلصون لله كما قال تعالى عن ابليس { وَلَا غَويَتَهُمْ أَجْمَعِينَ } {39} {إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ} {40} الحجر 39-40 وقال تعالى { إِنْ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنْ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ } {الحجر} 42 وقال تعالى { إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ } {99} **إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ} {100} النحل 99-100** فإذا كان الشيطان ليس له سلطان إلا علي من أشرك به فكل من أطاع الشيطان في معصية الله فقد تسلط الشيطان عليه وصار فيه من الشرك بالشيطان بقدر ذلك والشيطان يوالى الإنسان بحسب عدم إيمانه كما قال تعالى { إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ } {الأعراف} 27 وقال تعالى { وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ } {36} {وَأَنَّهُمْ لَيَصْدُونَ عَنْ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ} {37} حَتَّى إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَا آيَاتُ بَنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ} {38} {الزخرف} 36-38 وقال تعالى في قصة يوسف عليه السلام { كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ } {يوسف} 24 ويشهد لهذا ما ثبت في صحيح مسلم عن جابر عن النبي إن الشيطان ينتصب عرشه علي البحر ويبعث سراياه فجميع ما نهى الله عنه هو من شعب الكفر وفروعه كما أن كل

ما أمر الله به هو من الإيمان والإخلاص لدين الله ولهذا قال تعالى {وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ} البقرة 193¹

قال الله تعالى {يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَ اتِّهَمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ} 27 {وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ} 28 {قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ} 29 {فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ إِنَّهُمْ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ} 30 {الأعراف 27-30} فأخبر سبحانه أنه جعل الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون وهو قوله تعالى {أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا} {الكهف 50} وقال تعالى {إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ} {النحل 100} وإذا كان سلطانه علي أوليائه الذين تولوه والذين هم به مشركون وهم الذين لا يؤمنون بالله وقال تعالى {إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ} {الحجر 42} فيكون هؤلاء هم الغاوين وهم الذين قال الشيطان {لَأُعْوِيَّتْهُمُ أَجْمَعِينَ} {82} {إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلِصِينَ} {83} ص 82-83 ولهذا أخبر سبحانه عن أوليائه أنهم {وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ} {الأعراف 28} فأخبر عن أولياء الشيطان وهم الذين يتولونه والذين هم به مشركون أنهم إذا فعلوا فاحشة احتجوا بالتقليد لأسلافهم وزعموا مع ذلك أن الله أمرهم بها فيتبعون الظن في قولهم إن الله أمرهم بها وما تهوي الأنفس في تقليد أسلافهم وأتباعهم²

الكمال المطلق للإنسان هو تكميل العبودية لله علما وقصدا

قال تعالى {فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ} {98} {إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ} {99} {إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ} {100} {النحل 100-98}

فكمال المخلوق في تحقيق عبوديته لله وكلما ازداد العبد تحقيقا للعبودية ازداد كماله وعلت درجته ومن توهم ان المخلوق يخرج من العبودية بوجه من الوجوه او ان الخروج عنها اكمل فهو من اجهل الخلق واضلهم وقال تعالى {وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِنْدَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ} {19} {يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ} {20} {الأنبياء 19-20} وقال تعالى {لَنْ

¹قاعدة في المحبة ج: 1 ص: 105

²قاعدة في المحبة ج: 1 ص: 84-85

يَسْتَنْكَفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُفَرَّبُونَ وَمَنْ يَسْتَنْكَفَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرُ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا { النساء 172 الى قوله } وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا { النساء 173 وهذا ونحوه مما فيه وصف اكابر المخلوقات بالعبادة ودم من خرج عن ذلك متعدد في القرآن وقد اخبر انه ارسل جميع الرسل بذلك فقال تعالى {وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ { النحل 36 وقال { وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ { الذاريات 56 وكل رسول من الرسل افتتح دعوته بالدعاء الى عبادة الله كقول نوح ومن بعده عليهم السلام } اَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ { الأعراف 59 وفي المسند عن ابن عمر عن النبي انه قال بعثت بالسيف بين يدي الساعة حتى يعبد الله وحده لا شريك له وجعل رزقي تحت ظل رمحي وجعل الذلة والصغار على من خالف امرى وقد بين الله أن عباده هم الذين ينجون من السيئات قال الشيطان { رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَا أُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ {39} إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ {40} الحجر 39-40 قال تعالى { إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنْ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ { الحجر 42 و { قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ {82} إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ {83} ص 82-83 وقال في حق يوسف { كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ { يوسف 24 وقال { سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ {159} إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ {160} الصافات 159-160 وقال تعالى { فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ {98} إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ {99} إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ {100} النحل 98-100

100¹

فالكمال المطلق للإنسان هو تكميل العبودية لله علما وقصدا وقال تعالى { وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ { الذاريات 56 وقال تعالى { وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ { الجن 19 وقال تعالى فيما حكاه عن إبليس قال { فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ {82} إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ {83} ص 82-83 قال تعالى { إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ {الإسراء 65 وقال تعالى { كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ { يوسف 24 وقال تعالى { إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ {99} إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ {100} النحل 99-100 و عبادته طاعة أمره وأمره لنا ما بلغه الرسول عنه فالكمال في كمال طاعة الله ورسوله باطنا وظاهرا ومن كان لم يعرف ما أمر الله به فترك هواه وإستسلم للقدر أو إجتهد في الطاعة فإخطأ فعل المأمور به إلى ما إعتقده مأمورا به أو تعارضت عنده الأدلة فتوقف عما هو طاعة في نفس الأمر فهؤلاء مطيعون لله مثابون على ما أحسنوه من القصد لله واستفرغوه من وسعهم في طاعة الله وما عجزوا من علمه فأخطأوه إلى غيره فمغفور لهم وهذا من اسباب فتن تقع بين الأمة فإن أقواما يقولون ويفعلون أمورا هم مجتهدون فيها وقد اخطأوا فتبلغ أقواما يظنون أنهم تعمدوا فيها الذنب أو يظنون أنهم لا يعذرون بالخطأ وهم أيضا مجتهدون مخطئون فيكون هذا مجتهدا مخطئا في فعله وهذا مجتهدا مخطئا في إنكاره والكل مغفور لهم وقد يكون أحدهما مذنبا كما قد يكونان

¹مجموع الفتاوى ج: 10 ص: 176-177 و الفتاوى الكبرى ج: 2 ص: 378

{كَلَّمْنَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئًا} {الكهف 33} وكثير منهم يسلمون أن الله خلق من الأعمال ما يكون جزاء على عمل متقدم ويقولون خلق طاعة المطيع لكن ما خلق شيئاً من الذنوب ابتداء بل جزاء فيقولون أول ما يفعل العبد لم يحدثه الله و ما ذكرنا يوجب أن يكون الله خالق كل شيء لكن أولها عقوبة على عدم فعله لما خلق له و العدم لا يضاف الى الله فما أحدثه فأوله عقوبة على هذا العدم و سائرهما قد يكون عقوبة على ما وجد و قد يكون عقوبة على إستمراره على العدم فما دام لا يخلص الله لا يزال مشركا و الشيطان مسلط عليه ثم تخصيصه سبحانه لمن هداه بأن إستعمله ابتداء فيما خلق له تخصيص بفضلله و هذا منه لا يوجب الظلم و لا يمنع العدل و لهذا يقول تعالى { وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ } {البقرة 105} و كذلك الفضل هو أعلم به كما خص بعض الأبدان بقوى لا توجد فى غيرها و بسبب عدم القوة قد تحصل له أمراض و جودية و غير ذلك من حكمته و تحقيق هذا يدفع شبهات هذا الباب و مما ذكر فيه العقوبة على عدم الإيمان قوله تعالى { وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ } {الأنعام 110} هذا من تمام قوله { وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ } {الأنعام 109} فذكر أن هذا التقليل يكون لمن لم يؤمنوا به أول مرة و هذا عدم الإيمان لكن يقال هذا بعد دعاء الرسول صلى الله عليه و سلم لهم و قد كذبوا و تركوا الإيمان و هذه أمور و جودية لكن الموجب هو عدم الإيمان و ما ذكر شرط فى التعذيب كإرسال الرسول فإنه قد يشتغل عن الإيمان بما جنسه مباح لا يستحق به العقوبة إلا لأنه شغله عن الإيمان و من الناس من يقول ضد الإيمان هو تركه و هو أمر و جودى لا ضد له إلا ذلك¹

إذا فعل العبد ما يغار عليه فقد يعاقبه على ذلك بقدر ذنبه

قال النبي صلى الله عليه وسلم غيرة الله ان يأتي المؤمن ما حرم عليه و اعظم الذنوب ان تجعل الله ندا و هو خلقك و تجعل معه الها اخر و الشرك منه جليل و منه دقيق فالمقتصدون قاموا بواجب التوحيد و السابقون المقربون قاموا بمستحبه مع واجبه و لا شيء احب الى الله من التوحيد و لا شيء ابغض اليه من الشرك و لهذا كان الشرك غير مغفور بل هو اعظم الظلم و قد قال النبي صلى الله عليه وسلم مثل المؤمن مثل الخامة من الزرع تفيئها الرياح تارة تميلها و تعدلها اخرى و مثل المنافق كمثل شجرة الارز لا تزال ثابتة على اصلها حتى يكون انجعافها مرة واحدة فالثابتة على بيتلى عبده المؤمن ليطهره من الذنوب و المعاييب و من رحمته بعبده المخلص ان يصرف عنه ما يغار عليه منه كما قال تعالى { إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ } {النحل 99} فاذا صرف عنه ما يغار عليه منه كان ذلك من رحمته به و اصطفاؤه اياه و ان كان فى ذلك مشقة عليه فهو تارة يمنعه مما يكرهه له و تارة ليطهره منه بالابتلاء فاذا كان يغار من ذلك فاذا فعل العبد ما يغار عليه فقد يعاقبه على ذلك بقدر ذنبه²

¹مجموع الفتاوى ج: 8 ص: 222 و الحسنة والسيئة ج: 1 ص: 92

²الاستقامة ج: 2 ص: 59

قال تعالى { فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ } {98} إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ } {99} إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ } {100} النحل 100-98 فالتوكل فله وحده لا شريك له كما قال { وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ } النحل 99¹

خلاصة الدعوة النبوية

قال تعالى { فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ } {98} إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ } {99} إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ } {100} النحل 100-98

إن المحبة لله نوعان محبة له نفسه ومحبة لما منهم من الاحسان وكذلك الحمد له نوعان حمد الله على ما يستحقه بنفسه وحمد على إحسانه لعبده فالنوعان للرضا كالنوعين للمحبة وأما الرضا به وبيدنه وبرسوله فذلك من حظ المحبة ولهذا ذكر عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال ذاق طعم الإيمان من رضي بالله ربا وبالإسلام ديناً وبمحمد نبياً وفي الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ومن كان يحب المرء لا يحبه إلا الله ومن كان يكره أن يرجع إلى الكفر بعد إذ انقذه الله منه كما يكره أن يلقي في النار وهذا مما يبين من الكلام على المحبة فنقول محبة الله ورسوله من أعظم واجبات الايمان وأكبر أوصله وأجل قواعده بل هي أصل كل عمل من أعمال الإيمان والدين كما أن التصديق أصل كل قول من أقوال الإيمان والدين فإن كل حركة في الوجود إنما تصدر عن محبة إما عن محبة محمودة او عن محبة مذمومة كما قد بسطنا ذلك في قاعدة المحبة من القواعد الكبار فجميع الأعمال الايمانية الدينية لا تصدر إلا عن المحبة المحمودة وأصل المحبة المحمودة هي محبة الله سبحانه وتعالى إذ العمل الصادر عن محبة مذمومة عند الله لا يكون عملاً صالحاً بل جميع الأعمال الايمانية الدينية لا تصدر إلا عن محبة الله فإن الله تعالى لا يقبل من العمل إلا ما أريد به وجهه كما ثبت في الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال يقول الله تعالى أنا أغنى الشركاء عن الشرك فمن عمل عملاً فأشرك فيه غيري فأنا منه بريء وهو كله للذي أشرك وثبت في الصحيح حديث الثلاثة الذين هم اول من تسعر بهم النار القارئ المرائي والمجاهد المرائي والمتصدق المرائي بل إخلاص الدين لله هو الدين الذي لا يقبل الله سواه فهو الذي بعث به الأولين والآخرين من الرسل وانزل به جميع الكتب واتفق عليه أئمة أهل الإيمان وهذا هو خلاصة الدعوة النبوية وهو قطب القرآن الذي تدور عليه رحاه وقال تعالى فيما قصه من قصة آدم وابلis انه قال { فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ } {82} إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ } {83} ص 82-83 وقال تعالى { إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنْ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ } الحجر 42 وقال { إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ } {99} إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ } {100} النحل 99-100 فبين ان سلطان الشيطان واغواءه انما هو لغير المخلصين ولهذا قال في قصة يوسف { كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ } يوسف 24

¹مجموع الفتاوى ج: 1 ص: 69

واتباع الشيطان هم اصحاب النار كما قال تعالى {لَأْمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ} ص85 وقد قال سبحانه {إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ} النساء48 وهذه الآية في حق من لم يتب ولهذا خصص الشرك وقيد ما سواه بالمشيئة فأخبر انه لا يغفر الشرك لمن لم يتب منه ومادونه يغفره لمن يشاء واما قوله {قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا} الزمر53 فتلك في حق التائبين ولهذا عم واطلق وسياق الآية يبين ذلك مع سبب نزولها وقد اخبر سبحانه ان الأولين والآخرين انما امروا بذلك في غير موضع كالسورة التي قرأها النبي علي ابى لما امره الله تعالى ان يقرأ عليه قراءة إبلاغ وإسماع بخصوصه فقال {وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَةُ} 4 {وَمَا أَمَرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ} 5 {البينة4-5 الآية وهذا حقيقة قول لا اله إلا الله وبذلك بعث جميع الرسل قال الله تعالى {وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ} الأنبياء25 وقال {وَأَسْأَلُ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ} الزخرف45 وقال تعالى {وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ} النحل36 وجميع الرسل افتتحوا دعوتهم بهذا الاصل كما قال نوح عليه السلام {اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ} الأعراف59 وكذلك هود وصالح وشعيب عليهم السلام وغيرهم كل يقول {اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ} لاسيما افضل الرسل الذين اتخذ الله كلاهما خليلا ابراهيم ومحمدا عليهما السلام فان هذا الاصل بينه الله بهما وأيدهما فيه ونشره بهما فابراهيم هو الامام الذي قال الله فيه {إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا} البقرة124 وفي ذريته جعل النبوة والكتاب والرسل فأهل هذه النبوة والرسالة هم من آله الذين بارك الله عليهم قال سبحانه {وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ} 26 {إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ} 27 {وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقْبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ} 28 {الزخرف26-28 فهذه الكلمة هي كلمة الاخلاص لله وهي البراءة من كل معبود الا من الخالق الذي فطرنا كما قال صاحب يس {وَمَا لِي لَا أَعْبُدَ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ} 22 {أَتَأْخُذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً إِنْ يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لَا تُغْنِ عَنْهُمْ شَيْئًا وَلَا يَقْدِرُونَ} 23 {إِنِّي إِذًا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ} 24 {إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونَ} 25 {يس22-25} ¹

القرآن المتلو هو القرآن العربي الذي نزله روح القدس من الله بالحق

قال تعالى { فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ } 98 { إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ } 99 { إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ } 100 { وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ } 101 { قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ } 102 { النحل98-102 }
اهل السنة متفقون على أن القرآن المتلو هو القرآن العربي الذي نزله روح القدس من الله بالحق وهو كلام الله الذي تكلم به ولكن تنازعوا في تلاوة العباد له هل هي القرآن نفسه أم هي الفعل لذي يقرأ به القرآن والتحقيق أن لفظ التلاوة يراد به هذا ولفظ القرآن يراد به المصدر ويراد به الكلام قال الله تعالى { إِنْ عَلَيْنَا جَمْعُهُ وَقُرْآنُهُ } 17 { فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ } 18 { ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا

¹مجموع الفتاوى ج: 10 ص: 50-52 و أمراض القلوب ج: 1 ص: 60 و التحفة العراقية ج: 1 ص: 60

روح القدس هو جبريل وهو الروح الأمين

قال الله تعالى {اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ} الحج75 وقد أخبر تعالى في غير آية أنه أيد المسيح بروح القدس و هو جبريل عند جمهور المفسرين كقوله تعالى {وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ} البقرة87 فعند جمهور المفسرين أن روح القدس هو جبريل بل هذا قول ابن عباس و قتادة و الضحاك و السدى و غيرهم و دليل هذا قوله تعالى { وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ} {101} فَلَنْ نَزِّلَهُ رُوحَ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ} {102} النحل101-102¹

وثبت في الصحيح عن أبي هريرة أنه سمع النبي يقول لحسان بن ثابت أجب عني اللهم أيده بروح القدس وفي صحيح مسلم وغيره عن عائشة رضي الله عنها قالت سمعت النبي يقول لحسان بن ثابت إن روح القدس لا يزال يؤيدك ما نافحت عن الله ورسوله وفي الصحيحين عن البراء بن عازب قال سمعت رسول الله يقول لحسان بن ثابت اهجهم أو هاجهم وجبريل معك²

وروح القدس قد يراد بها الملك المقدس كجبريل ويراد بها الوحي والهدى والتأييد الذي ينزله الله بواسطة الملك أو بغير واسطته وقد يكونان متلازمين فإن الملك ينزل بالوحي والوحي ينزل به الملك والله تعالى يؤيد رسله بالملائكة وبالهدى كما قال تعالى عن نبيه محمد {إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْعَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ} التوبة40³

وجبريل الذي نزل بالوحي على محمد هو روح القدس وهو روح الحق⁴

والله سبحانه تكلم بالقرآن العربي وبالتوراة العبرية فالقرآن العربي كلام الله كما قال تعالى {فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ} النحل98 إلى قوله {لِسَانَ عَرَبِيٍّ مُبِينٌ} {103} النحل103 فقد بين سبحانه أن القرآن الذي يبذل منه آية نزله روح القدس وهو جبريل وهو الروح الأمين كما ذكر ذلك في موضع آخر من الله بالحق وبين بعد ذلك أن من الكفار من قال

¹مجموع الفتاوى ج: 17 ص: 285

²الجواب الصحيح ج: 2 ص: 181

³الجواب الصحيح ج: 3 ص: 195

⁴الجواب الصحيح ج: 5 ص: 311

{ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ } {103} النحل 103 كما قال بعض المشركين يعلمه رجل بمكة أعجمي فقال تعالى { لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِي } {103} النحل 103 أى الذى يضيفون إليه هذا التعليم أعجمي { وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ } {103} النحل 103 ففى هذا ما يدل على أن الآيات التى هى لسان عربى مبين نزلها روح القدس من الله بالحق كما قال فى الآية الأخرى { أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكْمًا وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُفْتَرِينَ } { الأنعام 114 } والكتاب الذى أنزل مفصلا هو القرآن العربى باتفاق الناس وقد أخبر أن الذين أتاهم الكتاب يعلمون أنه منزل من الله بالحق والعلم لا يكون إلا حقا فقال { يَعْلَمُونَ } { الأنعام 114 } ولم يقل يقولون فان العلم لا يكون إلا حقا بخلاف القول وذكر علمهم ذكر مستشهد به ¹

قال تعالى { فَذَكَرْ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ } { الطور 29 } إلى قوله { إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ } {34} { الطور 34 } فنزه سبحانه وتعالى نبينا محمدا صلى الله عليه وسلم عن تفتن به الشياطين من الكهان والشعراء والمجانين وبين ان الذى جاءه بالقرآن ملك كريم اصطفاه قال الله تعالى { اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ } {الحج 75} وقال تعالى { وَإِنَّهُ لَنَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ } {192} { نزل به الروح الأمين } {193} { عَلَى قَلْبِكَ لَتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ } {194} { بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ } {195} { الشعراء 192-195 } وقال تعالى { قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجَبْرَيْلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ {البقرة 97} الآية وقال تعالى { فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ } {98} { إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ } {99} { إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ } {100} { وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَّكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ } {101} { قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ } {102} { النحل 98-102 } فسماه الروح الامين وسماه روح القدس ²

القرآن الكريم كلام الله ليس لجبريل ولا لمحمد فيه إلا التبليغ والأداء

قال تعالى { فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ } {98} { إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ } {99} { إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ } {100} { وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَّكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ } {101} { قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ } {102} { وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِي وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ } {103} { النحل 98-103 }

وقد أخبر تعالى بأن القرآن منزل منه فقال { وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ } { الأنعام 114 } وقال { حم } {1} { تنزيلٌ مِّن رَّحْمَنِ الرَّحِيمِ } {2} { فصلت 1-2 } { حم } {1}

¹ مجموع الفتاوى ج: 12 ص: 38-39 و الجواب الصحيح ج: 3 ص: 273

² مجموع الفتاوى ج: 11 ص: 273

تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ {2} الْجاثية 1-2 فجبriel رسول الله من الملائكة جاء به إلى رسول الله من البشر والله يصطفى من الملائكة رسلا ومن الناس وكلاهما مبلغ له كما قال {يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ} المائدة 67 وقال {إِلَّا مَنْ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْأَلُكَ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا} {27} لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رَسُولَاتِ رَبِّهِمْ {28} الجن 27-28 وهو مع هذا كلام الله ليس لجبريل ولا لمحمد فيه إلا التبليغ والأداء كما أن المعلمين له في هذا الزمان والتالين له في الصلاة أو خارج الصلاة ليس لهم فيه إلا ذلك لم يحدثوا شيئا من حروفه ولا معانيه قال تعالى {فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ} النحل 98 إلى قوله {وَإِذَا بَدَأْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنزَلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ} {101} قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ} {102} وَقَدْ نَعَلُمْ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ} {103} النحل 101-103 كان بعض المشركين يزعم أن النبي تعلمه من بعض الأعاجم الذين بمكة أما عبد بن الحضرمي وأما غيره كما ذكر ذلك المفسرون فقال تعالى {لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ} النحل 103 فكيف يتصور أن يعلمه أعجمي وهذا الكلام عربي وقد أخبر أنه نزل به روح القدس من ربك بالحق فهذا بيان أن هذا القرآن العربي الذي تعلمه من غيره لم يكن هو المحدث لحروفه ونظمه إذ يمكن لو كان كذلك أن يكون تلقى من الأعجمي معانيه وألف هو حروفه وبيان أن هذا الذي تعلمه من غيره نزل به روح القدس من ربك بالحق يدل على أن القرآن جميعه منزل من الرب سبحانه وتعالى لم ينزل معناه دون حروفه ومن المعلوم أن من بلغ كلام غيره كمن بلغ كلام النبي أو غيره من الناس أو أنشد شعر غيره كما لو أنشد منشد قول لبيد ألا كل شيء ما خلا الله باطل أو قول عبد الله بن رواحة حيث قال شهدت بأن وعد الله حق وإن النار مثوى الكافرينا وإن العرش فوق الماء طاف وفوق العرش رب العالمينا أو قوله وفينا رسول الله يتلو كتابه إذا انشق معروف من الفجر ساطع يبيت يجافى جنبه عن فراشه إذا استنقلت بالمشركين المضاجع أرانا الهدى بعد العمى فقلوبنا به موقنات أن ما قال واقع وهذا الشعر قاله منشئه لفظه ومعناه وهو كلامه لا كلام غيره بحركته وصوته ومعناه القائم بنفسه ثم إذا أنشده المنشد وبلغه عنه علم أنه شعر ذلك المنشئ وكلامه ونظمه وقوله مع أن هذا الثاني أنشده بحركة نفسه وصوت نفسه وقام بقلبه من المعنى نظير ما قام بقلب الأول وليس الصوت المسموع من المنشد هو الصوت المسموع من المنشئ والشعر شعر المنشئ لا شعر المنشد والمحدث عن النبي صلى الله عليه وسلم إذا روى قوله إنما الأعمال بالنيات بلغه بحركته وصوته مع أن النبي تكلم به بحركته وصوته وليس صوت المبلغ صوت النبي ولا حركته كحركته والكلام كلام رسول الله لا كلام المبلغ له عنه فإذا كان هذا معلوما معقولا فكيف لا يعقل أن يكون ما يقرأ القارئ إذا قرأ {الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ} {2} الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ} {3} مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ} {4} الفاتحة 2-4 أن يقال هذا الكلام كلام البارئ وإن كان الصوت صوت القارئ فمن ظن أن الأصوات المسموعة من القراء صوت الله فهو ضال مفتري مخالف لصريح المعقول وصحيح المنقول قائل قولاً لم يقله أحد من أئمة المسلمين بل قد أنكر الإمام أحمد وغيره على من قال لفظي بالقرآن غير مخلوق وبدعوه كما جهموا من قال لفظي بالقرآن مخلوق وقالوا القرآن كلام الله غير مخلوق كيف تصرف فكيف من قال لفظي به قديم أو صوتي به قديم فابتدع هذا وضلاله أوضح فمن قال إن لفظه بالقرآن غير مخلوق أو صوته أو فعله أو شيئاً من ذلك فهو ضال مبتدع وهؤلاء قد يحتجون بقوله حتى يسمع كلام الله ويقولون هذا كلام الله وكلام الله غير مخلوق فهذا غير مخلوق ونحن لا نسمع إلا صوت القارئ وهذا جهل منهم فإن سماع كلام الله بل وسماع كل كلام يكون تارة من المتكلم به بلا واسطة ويكون بواسطة الرسول

المبلغ له قال تعالى وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيا أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا فيوحي بإذنه ما يشاء ومن قال إن الله كلمنا بالقرآن كما كلم موسى بن عمران أو إنا نسمع كلامه كما سمعه موسى بن عمران فهو من أعظم الناس جهلا وضلالا ولو قال قائل إنا نسمع كلام النبي صلى الله عليه وسلم كما سمعه الصحابة منه لكان ضلاله واضحا فكيف من يقول أنا أسمع كلام الله منه كما سمعه موسى وإن كان الله كلم موسى تكليما بصوت سمعه موسى فليس صوت المخلوقين صوتا للخالق وكذلك مناداته لعباده بصوت يسمعه من بعد كما يسمعه من قرب وتكلمه بالوحي حتى يسمع أهل السموات والأرض صوته كجر السلسلة على الصفا وأمثال ذلك مما جاءت به النصوص والآثار كلها ليس فيها أن صفة المخلوق هي صفة الخالق بل ولا مثلها بل فيها الدلالة على الفرق بين صفة الخالق وبين صفة المخلوق فليس كلامه مثل كلامه ولا معناه مثل معناه ولا حرفه مثل حرفه ولا صوته مثل صوته كما أنه ليس علمه مثل علمه ولا قدرته مثل قدرته ولا سمعه مثل سمعه ولا بصره مثل بصره فإن الله ليس كمثل شيء لا في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله ولما استقر في فطر الخلق كلهم الفرق بين سماع الكلام من المتكلم به ابتداء وبين سماعه من المبلغ عنه كان ظهور هذا الفرق في سماع كلام الله من المبلغين عنه أوضح من أن يحتاج إلى الإطناب وقد بين أئمة السنة والعلم كالإمام أحمد والبخاري صاحب الصحيح في كتابه في خلق الأفعال وغيرهما من أئمة السنة من الفرق بين صوت الله المسموع منه وصوت العباد بالقرآن وغيره ما لا يخالفهم فيه أحد من العلماء أهل العقل والدين¹

القرآن الذي هو لفظ ومعنى كلام الله

قال تعالى { وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ } {101} قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ } {102} النحل 101-102 لكن الكلام في القرآن الذي هو لفظ ومعنى هل جميعه كلام الله أم لفظه كلام الله دون معناه أم معناه كلام الله دون لفظه ومن المعلوم بالاضطرار من دين الاسلام أن الجميع كلام الله وقد قال تعالى { وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ } {101} قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ } {102} وَلَقَدْ نَعَلْنَا أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ } {103} النحل 101-103 كان بعض المشركين يقولون أن محمدا انما يتعلم القرآن من عبد لبني الحضرمي فقال الله تعالى لسان الذي يضيفون اليه القرآن لسان أعجمي وهذا لسان عربي مبين وهذا يبين أن محمدا بلغ القرآن لفظه ومعناه لم ينزل عليه معان مجردة اذ لو كان كذلك لأمكن أن يقال تلقى من هذا الأعجمي معان صاغها بلسانه فلما ذكر قوله { لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ } {103} النحل 103 بعد قوله { قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ } النحل 102 دل ذلك على أن روح القدس نزل بهذا اللسان العربي المبين²

¹دقائق التفسير ج: 2 ص: 181- 183 و مجموع الفتاوى ج: 12 ص: 260- 263 و الفتاوى الكبرى ج: 1 ص: 268- 269 و مجموع الفتاوى ج: 12 ص: 544

²مجموع الفتاوى ج: 6 ص: 536

قال تعالى { وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَّكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ } {101} قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ } {102} النحل 101-102 (من) لإبتداء الغاية كما قال { وَسَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ } الجاثية 13 وقال { وَمَا بِكُمْ مِّنْ نُّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ } النحل 53 وما أضيف إلى الله أو قيل هو منه فعلى وجهين إن كان عينا قائما بنفسها فهو مملوك له ومن لإبتداء الغاية كما قال تعالى { فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا } مريم 17 وقال في المسيح { وَرُوحٌ مِّنْهُ } النساء 171 وما كان صفة لا يقوم بنفسه كالعلم والكلام فهو صفة له كما يقال كلام الله وعلم الله وكما قال تعالى { قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ } النحل 102 وقال { وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِّنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ } الأنعام 114¹

قال تعالى { وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَّكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ } {101} قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ } {102} النحل 101-102 وهو أن الله أخبر أن القرآن منزل من الله كما قال { وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِّنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ } الأنعام 114 وقال { قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ } النحل 102 وقال { تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ } الزمر 1 الضمير يتناول اللفظ والمعنى جميعا لا سيما ما فى قوله { تَنْزِيلُ الْكِتَابِ } الزمر 1 فان الكتاب عند من يقول ان كلام الله هو المعنى دون الحروف اسم للنظم العربى والكلام عنده اسم للمعنى والقرآن مشترك بينهما فلفظ الكتاب يتناول اللفظ العربى باتفاق الناس فاذا أخبر أن { تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ } الزمر 1 علم أن النظم العربى منزل من الله وذلك يدل على ما قال السلف أنه منه بدأ أى هو الذى تكلم به²

قال تعالى { وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَّكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ } {101} قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ } {102} النحل 101-102 وكذلك قد أخبر فى غير موضع من القرآن ان القرآن نزل منه وأنه نزل به جبريل منه ردا على هذا المبتدع المفترى وأمثاله ممن يقول أنه لم ينزل منه قال تعالى { أَفَعَيَّرَ اللَّهُ أَبْتَنِي حَكْمًا وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِّنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ } الأنعام 114 وقال تعالى { قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ } النحل 102 وروح القدس هو جبريل كما قال فى الآية الأخرى { نَزَّلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ } {193} عَلَى قَلْبِكَ } {194} الشعراء 193-194 وقال { قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ } البقرة 97 وقال هنا { نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ } النحل 102 فبين ان جبريل نزله من الله لا

¹مجموع الفتاوى ج: 17 ص: 285

²مجموع الفتاوى ج: 6 ص: 544 و مجموع الفتاوى ج: 17 ص: 95

من هواء ولا من لوح ولا غير ذلك وكذلك سائر آيات القرآن كقوله {تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ} {الزمر 1} وقوله {حم} {1} {تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ} {2} {غافر 1-2} وقوله {حم} {1} {تَنْزِيلُ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ} {2} {فصلت 1-2} وقوله {الم} {1} {تَنْزِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ} {2} {السجدة 1-2} وقوله {يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ} {المائدة 67} فقد بين في غير موضع أنه منزل من الله فمن قال انه منزل من بعض المخلوقات كاللوح والهواء فهو مفتر على الله مكذب لكتاب الله متبع لغير سبيل المؤمنين ألا ترى ان الله فرق بين ما نزل منه وما نزل من بعض المخلوقات كالمطر بأن قال { وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً } {البقرة 22} فذكر المطر في غير موضع وأخبر أنه نزل من السماء والقرآن أخبر أنه منزل منه وأخبر بتنزيل مطلق في مثل قوله { وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ } {الحديد 25} لأن الحديد ينزل من رؤوس الجبال لا ينزل من السماء وكذلك الحيوان فان الذكر ينزل الماء في الاناث فلم يقل فيه من السماء ولو كان جبريل أخذ القرآن من اللوح المحفوظ لكان اليهود أكرم على الله من أمة محمد لأنه قد ثبت بالنقل الصحيح أن الله كتب لموسى التوراة وأنزلها مكتوبة فيكون بنو إسرائيل قد قرأوا الألواح التي كتبها الله وأما المسلمون فأخذوه عن محمد ومحمد أخذه عن جبريل عن اللوح فيكون بنو إسرائيل بمنزلة جبريل وتكون منزلة بني إسرائيل أرفع من منزلة محمد صلى الله عليه وسلم على قول هؤلاء الجهمية و الله سبحانه جعل من فضائل أمة محمد صلى الله عليه وسلم أنه أنزل عليهم كتابا لا يغسله الماء وأنه أنزل عليه تلاوة لا كتابة وفرقه عليهم لأجل ذلك فقال { وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا } {الإسراء 106} وقال تعالى { وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا } {الفرقان 32} ثم إن كان جبريل لم يسمعه من الله وإنما وجده مكتوبا كانت العبارة عبارة جبريل وكان القرآن كلام جبريل ترجم به عن الله كما يترجم عن الأخرس الذي كتب كلاما ولم يقدر أن يتكلم به وهذا خلاف دين المسلمين¹

النزول في كتاب الله عز وجل ثلاثة أنواع

قال تعالى { وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَّكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ } {101} {قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ} {النحل 101-102} النزول في كتاب الله عز وجل ثلاثة أنواع نزول مقيد بأنه منه ونزول مقيد بأنه من السماء ونزول غير مقيد لا بهذا ولا بهذا فالأول لم يرد إلا في القرآن كما قال تعالى { وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنزَّلٌ مِّنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ } {الأنعام 114} وقال تعالى { قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ } {النحل 102} وقال تعالى { تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ } {الزمر 1} وفيها قولان أحدهما لا حذف في الكلام بل قوله { تَنْزِيلُ الْكِتَابِ } {الزمر 1} مبتدأ وخبره { مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ } {الزمر 1} والثاني أنه خبر مبتدأ محذوف أي هذا تنزيل الكتاب وعلى كلا القولين فقد ثبت أنه منزل منه وكذلك قوله { حم } {1}

¹ الفتاوى الكبرى ج: 1 ص: 302 و مجموع الفتاوى ج: 12 ص: 520

تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ {2} الْجاثية 1-2 وكذلك {حم} {1} تَنْزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ {2} فصلت 1-2 {حم} {1} تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ {2} غافر 1-2 والتنزيل بمعنى المنزل تسمية للمفعول باسم المصدر وهو كثير ولهذا قال السلف القرآن كلام الله ليس بمخلوق منه بدأ قال أحمد وغيره واليه يعود أى هو المتكلم به وقال كلام الله من الله ليس ببائن منه أى لم يخلقه فى غيره فيكون مبتدأ منزلاً من ذلك المخلوق بل هو منزل من الله كما أخبر به ومن الله بدأ لا من مخلوق فهو الذى تكلم به لخلقه وأما النزول المقيد بالسماء فقوله { وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّقَمَانِ 10 } والسماء اسم جنس لكل ماعلا فاذا قيد بشيء معين تقيد به فقوله فى غير موضع من السماء مطلق أى فى العلو ثم قد بينه فى موضع آخر بقوله { أَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ } الواقعة 69 وقوله { فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ } الروم 48 أى انه منزل من السحاب ومما يشبه نزول القرآن قوله { يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ } النحل 2 فنزول الملائكة هو نزولهم بالوحى من أمره الذى هو كلامه وكذلك قوله { تَنْزِيلُ الْمَلَائِكَةِ وَالرُّوحِ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ } القدر 4 يناسب قوله { فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ } {4} {أَمْرًا مِّنْ عِنْدِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ} {5} الدخان 4-5 فهذا شبيهه بقوله { قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ } النحل 102 وأما المطلق فى مواضع منها ما ذكره من انزال السكينة بقوله { ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ } التوبة 26 وقوله { هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ } الفتح 4 إلى غير ذلك ومن ذلك انزال الميزان ذكره مع الكتاب فى موضعين وجمهور المفسرين على أن المراد به العدل وعن مجاهد رحمه الله هو ما يوزن به ولا منافاة بين القولين وكذلك العدل وما يعرف به العدل منزل فى القلوب¹

هذه الآية تبطل قول من يقول أن القرآن العربى ليس منزلاً من الله بل مخلوق

أن القرآن العظيم كلام الله العزيز العليم ليس شىء منه كلاماً لغيره لا جبريل ولا محمد ولا غيرهما قال الله تعالى { فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ } {98} { إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ } {99} { إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ } {100} { وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَّكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ } {101} { قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ } {102} { وَلَقَدْ نَعَلْنَا أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّلسَانِ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ } {103} { النحل 98-103 } فأمره أن يقول { نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ } النحل 102 فان الضمير فى قوله { قُلْ نَزَّلَهُ } النحل 102 عائد على ما فى قوله { بِمَا يُنَزِّلُ } {101} النحل 101 والمراد به القرآن كما يدل عليه سياق الكلام وقوله { وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ } {101} النحل 101 فيه إخبار الله بأنه انزله لكن ليس فى هذه اللفظة بيان ان روح القدس نزل به ولا انه منزل منه ولفظ الانزال فى القرآن قد يرد مقيدا

¹مجموع الفتاوى ج: 12 ص: 247-249

بالانزال منه كنزول القرآن وقد يرد مقيدا بالانزال من السماء ويراد به العلو فيتناول نزول المطر من السحاب ونزول الملائكة من عند الله وغير ذلك وقد يرد مطلقا فلا يختص بنوع من الانزال بل ربما يتناول الانزال من رؤوس الجبال كقوله { وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ } الحديد 25 والانزال من ظهور الحيوان كانزال الفحل الماء وغير ذلك فقوله { نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ } النحل 102 بيان لنزول جبريل به من الله فإن روح القدس هنا هو جبريل بدليل قوله { قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ } البقرة 97 وهو الروح الأمين كما فى قوله { وَإِنَّهُ لَنَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ } { 192 } نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ { 193 } عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ { 194 } بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ { 195 } الشعراء 192-195 وفى قوله { الْأَمِينُ } { 193 } الشعراء 193 دلالة على أنه مؤتمن على ما أرسل به لا يزيد فيه ولا ينقص منه فان الرسول الخائن قد يغير الرسالة كما قال فى صفته فى الآية الأخرى { إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ { 19 } ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ { 20 } مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ { 21 } التكوير 19-21 وفى قوله { مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ } الأنعام 114 دلالة على أمور منها بطلان قول من يقول إنه كلام مخلوق خلقه فى جسم من الأجسام المخلوقة كما هو قول الجهمية الذين يقولون بخلق القرآن من المعتزلة والنجارية والضرارية وغيرهم فان السلف كانوا يسمون كل من نفى الصفات وقال ان القرآن مخلوق وان الله لا يرى فى الآخرة جهميا فان جهما أول من ظهرت عنه بدعة نفى الأسماء والصفات وبالغ فى نفى ذلك فله فى هذه البدعة مزية المبالغة فى النفى والابتداء بكثرة اظهار ذلك والدعوة إليه وان كان الجعد بن درهم قد سبقه إلى بعض ذلك فان الجعد بن درهم أول من أحدث ذلك فى الأسماء فضحى به خالد بن عبد الله القسري بواسطة يوم النحر وقال يا أيها الناس ضحوا تقبل الله ضحاياكم فانى مضح بالجعد بن درهم انه زعم ان الله لم يتخذ إبراهيم خليلا ولم يكلم موسى تكليما تعالى الله عما يقول الجعد بن درهم علوا كبيرا ثم نزل فذبحه ولكن المعتزلة وان وافقوا جهما فى بعض ذلك فهم يخالفونه فى مسائل غير ذلك كمسائل القدر والايمان وبعض مسائل الصفات أيضا ولا يبالغون فى النفى مبالغته وجهم يقول ان الله تعالى لا يتكلم أو يقول انه يتكلم بطريق المجاز وأما المعتزلة فيقولون انه يتكلم حقيقة لكن قولهم فى المعنى هو قول جهم وجهم ينفى الأسماء أيضا كما نفىها الباطنية ومن وافقهم من الفلاسفة وأما جمهور المعتزلة فلا ينفون الأسماء و المقصود ان قوله { مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ } الأنعام 114 فيه بيان انه منزل من الله لا من مخلوق من المخلوقات ولهذا قال السلف منه بدأ أي هو الذى تكلم به لم يبتدأ من غيره كما قالت الخلقية و منها ان قوله { مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ } الأنعام 114 فيه بطلان قول من يجعله فاض على نفس النبي من العقل الفعال او غيره كما يقول ذلك طوائف من الفلاسفة والصابئة وهذا القول أعظم كفرا وضلالا من الذى قبله و منها أن هذه الآية أيضا تبطل قول من يقول أن القرآن العربى ليس منزلا من الله بل مخلوق أما فى جبريل أو محمد أو جسم آخر غيرهما كما يقول ذلك الكلابية والأشعرية الذين يقولون أن القرآن العربى ليس هو كلام الله وإنما كلامه المعنى القائم بذاته والقرآن العربى خلق ليدل على ذلك المعنى ثم اما ان يكون خلق فى بعض الأجسام الهواء أو غيره أو الهمة جبريل فعبر عنه بالقرآن العربى أو الهمة محمد فعبر عنه بالقرآن العربى أو يكون اخذ جبريل من اللوح المحفوظ أو غيره فهذه الأقوال التى تقدمت هي تفرع على هذا القول فان هذا القرآن العربى لا بد له من متكلم تكلم به أولا قبل أن يصل إلينا وهذا القول يوافق قول المعتزلة ونحوهم فى اثبات خلق القرآن العربى وكذلك التوراة العبرية ويفارقه من وجهين أحدهما أن أولئك يقولون ان المخلوق كلام الله وهؤلاء يقولون أنه ليس كلام الله لكن يسمى كلام الله مجازا وهذا قول أئمتهم وجمهورهم وقالت طائفة من متأخريهم بل لفظ الكلام يقال على هذا وهذا بالاشتراك اللفظى لكن هذا ينقض أصلهم فى ابطال قيام الكلام بغير المتكلم به وهم مع هذا لا يقولون

ان المخلوق كلام الله حقيقة كما تقوله المعتزلة مع قولهم انه كلامه حقيقة بل يجعلون القرآن العربي كلاما لغير الله وهو كلام حقيقة وهذا شر من قول المعتزلة وهذا حقيقة قول الجهمية ومن هذا الوجه فقول المعتزلة أقرب وقول الآخرين هو قول الجهمية المحضة لكن المعتزلة في المعنى موافقون لهؤلاء وانما يمتاز عنهم في اللفظ الثاني ان هؤلاء يقولون لله كلام هو معنى قديم قائم بذاته والخلقية يقولون لا يقوم بذاته كلام ومن هذا الوجه فالكلابية خير من الخلقية في الظاهر لكن جمهور الناس يقولون ان أصحاب هذا القول عند التحقيق لم يثبتوا له كلاما حقيقة غير المخلوق فانهم يقولون انه معنى واحد هو الأمر والنهي والخبر فان عبر عنه بالعربية كان قرآنا وان عبر عنه بالعبرية كان تورا وان عبر عنه بالسريانية كان انجيلا ومنهم من قال هو خمس معان وجمهور العقلاء يقولون ان فساد هذا معلوم بالضرورة بعد التصور التام والعقلاء الكثيرون لا يتفقون على الكذب وجدد بالضرورات من غير تواطؤ واتفاق كما في الأخبار المتواترة واما مع التواطؤ فقد يتفقون على الكذب عمدا وقد يتفقون على جحد الضرورات وان لم يعلم كل منهم انه جاحد للضرورة ولو لم يفهم حقيقة القول الذي يعتقده لحسن ظنه فيمن يقلد قوله ولمحبته لنصر ذلك القول كما اتفقت النصارى والرافضة وغيرهم من الطوائف على مقالات يعلم فسادها بالضرورة وقال جمهور العقلاء نحن اذا عربنا التوراة والانجيل لم يكن معنى ذلك معنى القرآن بل معاني هذا ليست معاني هذا ومعاني هذا ليست معاني هذا وكذلك معنى {قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ} {الإخلاص} ليس هو معنى {تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ} {المسد} ولا معنى آية الكرسي هو معنى آية الدين وقالوا إذا جوزتم أن تكون الحقائق المتنوعة شيئا واحدا فجوزوا أن يكون العلم والقدرة والكلام والسمع والبصر صفة واحدة فاعترف أئمة هذا القول بان هذا الالتزام ليس لهم عنه جواب عقلي ثم منهم من قال الناس في الصفات إما مثبت لها وقائل بالتعدد وإما ناف لها واما اثباتها واتحادها فخلافا لاجماع وهذه طريقة القاضي أبي بكر وأبي المعالي وغيرهما ومنهم من اعترف بأنه ليس له عنه جواب كأبي الحسن الأمدى وغيره والمقصود هنا أن هذه الآية تبين بطلان هذا القول كما تبين بطلان غيره فان قوله {قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ} {النحل} 102 يقتضى نزول القرآن من ربه والقرآن اسم للقرآن العربي لفظه ومعناه بدليل قوله {فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ} {النحل} 98 وإنما يقرأ القرآن العربي لا يقرأ معانيه المجردة وأيضا فضمير المفعول في قوله نزله عائد على ما في قوله {وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ} {النحل} 101 فالذي أنزله الله هو الذي نزله روح القدس فإذا كان روح القدس نزل بالقرآن العربي لزم أن يكون نزله من الله فلا يكون شيء منه نزله من عين من الأعيان المخلوقة ولا نزله من نفسه وأيضا فانه قال عقيب هذه الآية {وَأَقْدَرُ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ} {النحل} 103 وهم كانوا يقولون إنما يعلمه هذا القرآن العربي بشر لم يكونوا يقولون إنما يعلمه بشر معانيه فقط بدليل قوله {لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ} {النحل} 103 فانه تعالى أبطل قول الكفار بأن لسان الذي ألدوا إليه بأن اضافوا اليه هذا القرآن فجعلوه هو الذي يعلم محمدا القرآن لسان أعجمي والقرآن لسان عربي مبين وعبر عن هذا المعنى بلفظ {يُلْحِدُونَ} {النحل} 103 لما تضمن من معنى ميلهم عن الحق وميلهم الى هذا الذي اضافوا اليه هذا القرآن فان لفظ الاحاد يقتضى ميلا عن شيء الى شيء بباطل فلو كان الكفار قالوا يعلمه معانيه فقط لم يكن هذا ردا لقولهم فان الانسان قد يتعلم من الأعجمي شيئا بلغة ذلك الأعجمي ويعبر عنه هو بعبارة وقد اشتهر في التفسير ان بعض الكفار كانوا يقولون هو تعلمه من شخص كان بمكة أعجمي قيل انه كان مولى لابن الحضرمي واذا كان الكفار جعلوا الذي يعلمه ما نزل به روح القدس بشرا والله أبطل ذلك بأن لسان ذلك أعجمي وهذا لسان عربي مبين علم ان روح القدس نزل باللسان العربي المبين وان محمدا لم يؤلف نظم القرآن بل سمعه

من روح القدس وإذا كان روح القدس نزل به من الله علم انه سمعه منه ولم يؤلفه هو وهذا بيان من الله ان القرآن الذي هو اللسان العربي المبين سمعه روح القدس من الله ونزل به منه ونظير هذه الآية قوله تعالى {وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ} {الأنعام112} الى قوله {فَدَرَّهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ} {الأنعام112} وكذلك قوله {وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ} {الأنعام114} والكتاب اسم للقرآن العربي بالضرورة والاتفاق فان الكلاية أو بعضهم يفرق بين الكلام وكتاب الله فيقول كلامه هو المعنى القائم بالذات وهو غير مخلوق وكتابه هو المنظوم المؤلف العربي وهو مخلوق والقرآن يراد به هذا تارة وهذا تارة والله تعالى قد سمى نفس مجموع اللفظ والمعنى قرآنا وكتابا وكلاما فقال تعالى {الرَّ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُّبِينٍ} {الحجر1} وقال {طس تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ} {النمل1} وقال {وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفْرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ} {الأحقاف29} الى قوله تعالى {قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ} {الأحقاف30} فبين ان الذى سمعوه هو القرآن وهو الكتاب وقال {بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ} {21} {فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ} {22} {البروج21-22} وقال {إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ} {77} {فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ} {78} {الواقعة77-78} وقال {يَتْلُو صُحُفًا مُّطَهَّرَةً} {2} {فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ} {3} {البيينة2-3} وقال {وَالطُّورِ} {1} {وَكِتَابٍ مَّسْطُورٍ} {2} {فِي رَقٍّ مَّنشُورٍ} {3} {الطور1-3} وقال {وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ} {الأنعام7} ولكن لفظ الكتاب قد يراد به المكتوب فيكون هو الكلام وقد يراد به ما يكتب فيه كما قال تعالى {إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ} {77} {فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ} {78} {الواقعة77-78} وقال {وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا} {الإسراء13} وقوله {يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ} {الأنعام114} إخبار مستشهد بهم فمن لم يقر به منا فهم خير منه هذا الوجه وهذا لا ينافى ما جاء عن ابن عباس وغيره أنه أنزل في ليلة القدر إلى بيت العزة في السماء الدنيا ولا ينافى أنه مكتوب في اللوح قبل نزوله سواء كتبه الله قبل أن يرسل به جبريل أو بعده فإذا أنزل جملة إلى بيت العزة فقد كتبه كله قبل أن ينزله والله يعلم ما كان وما يكون وما لا يكون لو كان كيف يكون وهو قد كتب المقادير وأعمال العباد قبل أن يعملوها ثم يأمر بكتابتها بعد أن يعملوها فيقابل بين الكتابة المتقدمة والمتأخرة فلا يكون بينهما تفاوت هكذا قال ابن عباس وغيره فإذا كان ما يخلقه باننا عنه قد كتبه قبل أن يخلقه فكيف لا يكتب كلامه الذى يرسل به ملائكته قبل ان يرسلهم ومن قال إن جبرائيل أخذه عن الكتاب لم يسمعه من الله فهو باطل من وجوه منها انه سبحانه كتب التوراة لموسى بيده فبنوا إسرائيل أخذوا كلامه من الكتاب الذى كتبه ومحمد عن جبريل عن الكتاب فهم اعلى بدرجة ومن قال أنه ألقى إلى جبريل معانى وعبر بالعربى فمعناه أنه ألهمه إلهاما وهذا يكون لأحد المؤمنين كقوله {وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي} {المائدة111} {وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ} {القصص7} فيكون هذا أعلى من أخذ محمد وأيضا فإنه سبحانه قال {إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ} {النساء163} إلى قوله {وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا} {النساء164} وهذا يدل على أمور على أنه يكلم العبد تكلما زائدا على الوحي الذى هو قسيم التكلم الخاص فإن لفظ التكليم والوحي كل منهما ينقسم إلى عام وخاص فالتكليم العام هو المقسوم فى قوله {وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحِيًّا أَوْ مِن وَّرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلَىٰ حَكِيمٍ} {الشورى51} الآية فالتكليم المطلق قسيم الوحي الخاص لا قسما منه وكذلك الوحي يكون عاما فيدخل فيه التكليم الخاص كقوله {

فَأَسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰ {طه 13} ويكون قسيما له كما في الشورى وهذا يبطل قول من قال إنه معنى واحد قائم بالذات فإنه لا فرق بين العام وما لموسى وفرق سبحانه في الشورى بين الإيحاء وبين التكلم من وراء حجاب وبين إرسال رسول {فَيُوحِي بِأَذْنِهِ مَا يَشَاءُ} الشورى 51¹

القرآن كلام الله منزل غير مخلوق منه بدأ واليه يعود

والذي اتفق عليه السلف والأئمة أن القرآن كلام الله منزل غير مخلوق منه بدأ واليه يعود وإنما قال السلف منه بدأ لأن الجهمية من المعتزلة وغيرهم كانوا يقولون انه خلق الكلام في المحل فقال السلف منه بدأ أي هو المتكلم به فمنه بدأ لا من بعض المخلوقات كما قال تعالى {تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ} الزمر 1 وقال تعالى {وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي {السجدة 13} وَقَالَ تَعَالَى {وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقُّ} سبأ 6 وقال تعالى {قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ} النحل 102 ومعنى قولهم اليه يعود أنه يرفع من الصدور والمصاحف فلا يبقى في الصدور منه أية ولا منه حرف كما جاء في عدة آثار²

والله سبحانه إذا ذكر نزول القرآن قيده بأن نزوله منه كقوله {تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ} الزمر 1 {وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِّنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ} الأنعام 114 {قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ} النحل 102 وهذا مما استدل به الإمام أحمد وغيره من أئمة السنة على أن القرآن كلام الله ليس بمخلوق خلقه في محل غيره فإنه كان يكون منزلا من ذلك المحل لا من الله وقال إنه نزل بعلم الله وإنه من علم الله وعلم الله غير مخلوق وقال أحمد كلام الله من الله ليس شئان منه ولهذا قال السلف القرآن كلام الله منزل غير مخلوق منه بدأ وإليه يعود فقالوا منه بدأ لم يبدأ من غيره كما تقوله الجهمية يقولون بدأ من المحل الذي خلق فيه³

وقوله {أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ} البقرة 285 يتضمن انه كلامه الذي تكلم به و منه نزل لا من غيره كما قال تعالى {قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ} النحل 102 وقال {تَنْزِيلٌ مِّنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ} الواقعة 80 وهذا أحد ما احتج به أهل السنة على المعتزلة القائلين بأن الله لم يتكلم بالقرآن قالوا فلو كان كلاما لغير الله لكان منزلا من ذلك المحل لا من الله فإن القرآن صفة لا تقوم بنفسها بخلاف قوله {وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِّنْهُ} الجاثية 13 فإن تلك أعيان

¹مجموع الفتاوى ج: 12 ص: 117-125 و مجموع الفتاوى ج: 15 ص: 221-225

²مجموع الفتاوى ج: 6 ص: 529

³مجموع الفتاوى ج: 16 ص: 469 و مجموع الفتاوى ج: 12 ص: 164

قائمة بنفسها فهي منه خلقا و أما الكلام فوصف قائم بالمتكلم فلما كان منه فهو كلامه إذ يستحيل أن يكون منه و لم يتكلم به¹

قال تعالى { وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَّكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ } {101} قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ } {102} النحل 101-102 قال تعالى { وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ } التوبة 6 وهو منزل من الله كما قال تعالى { أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكْمًا وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ } الأنعام 114 فأخبر سبحانه أنهم يعلمون ذلك والعلم لا يكون إلا حقا وقال تعالى { تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ } الزمر 1 { حم } { 1 } تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ { 2 } غافر 1-2 { حم } { 1 } تَنْزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ { 2 } فصلت 1-2 وقال تعالى { وَلَئِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ } السجدة 13 وقال تعالى { وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى } طه 129 ونحو ذلك وقال تعالى { قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ } النحل 102 فأخبر سبحانه أنه منزل من الله ولم يخبر عن شيء أنه منزل من الله إلا كلامه بخلاف نزول الملائكة والمطر والحديد وغير ذلك ولهذا كان القول المشهور عن السلف أن القرآن كلام الله غير مخلوق منه بدأ وإليه يعود فإن من قال أنه مخلوق يقول أنه خلق في بعض المخلوقات القائمة بنفسها فمن ذلك المخلوق نزل وبدأ لم ينزل من الله فأخبر الله تعالى أنه منزل من الله يناقض أن يكون قد نزل من غير الله ولهذا فسر الامام أحمد قوله منه بدأ أي هو المتكلم به وقال أحمد كلام الله من الله ليس ببائن عنه و أيضا فلو كان مخلوقا في غيره لم يكن كلامه بل كان يكون كلاما لذلك المخلوق فيه وكذلك سائر ما وصف به نفسه من الارادة والمحبة والمشية والرضى والغضب والمقت وغير ذلك من الأمور لو كان مخلوقا في غيره لم يكن الرب تعالى متصفا به بل كان يكون صفة لذلك المحل فان المعنى إذا قام بمحل كان صفة لذلك المحل ولم يكن صفة لغيره فيمتنع أن يكون المخلوق أو الخالق موصوفا بصفة موجوة قائمة بغيره لأن ذلك فطرى فما وصف به نفسه من الأفعال اللازمة يمتنع أن يوصف الموصوف بأمر لم يقم به وهذا مبسوط في مواضع أخر²

والمداد يكتب به الحروف والمداد كله مخلوق ليس منه شيء غير مخلوق والصوت الذى يقرأ به الناس القرآن هو صوت العباد لكن الكلام كلام الله تعالى قال تعالى { وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ } التوبة 6 وقال النبي صلى الله عليه وسلم زينوا القرآن بأصواتكم فالكلام كلام البارى والصوت صوت القارىء وهذا ليس هو الصوت الذى ينادى الله به عباده ويسمعه موسى وغيره كما دل على ذلك الكتاب والسنة وكلام الله غير مخلوق عند سلف

¹مجموع الفتاوى ج: 14 ص: 140

²مجموع الفتاوى ج: 12 ص: 296

الأمة وأئمتها وهو أيضا يتكلم بمشيئته وقدرته عندهم لم يزل متكلماً إذا شاء فهو قديم النوع وأما نفس النداء الذى نادى به موسى ونحو ذلك فحينئذ ناداه به كما قال تعالى { فَلَمَّا أَنَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَى } طه 11 وكذلك نظائره فكان السلف يفرقون بين نوع الكلام وبين الكلمة المعينة قال تعالى { قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَاداً لَّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفَذَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَذَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا } الكهف 109 وكلام الله وما يدخل فى كلامه من نداءه وغير ذلك ليس بمخلوق بائن منه بل هو منه والقرآن سمعه جبرئيل من الله ونزل به إلى محمد صلى الله عليه وسلم قال تعالى { قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ } النحل 102 وقال تعالى { وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِّنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ } الأنعام 114 وقال تعالى { تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ } الزمر 1 ونحو ذلك¹

النبي سمع القرآن من جبريل وجبريل سمعه من الله تعالى

القرآن كلام الله تعالى وليس كلام جبرئيل ولا كلام محمد وهذا متفق عليه بين الصحابة والتابعين لهم باحسان وأئمة المسلمين وأصحابهم الذين يفتى بقولهم فى الاسلام كأبى حنيفة ومالك والشافعى وأحمد وغيرهم وجبريل سمعه من الله وسمعه محمد من جبريل كما قال تعالى { قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ } النحل 102 وروح القدس هو جبريل وقال تعالى { وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِّنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ } الأنعام 114 وقال تعالى { تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ } الزمر 1 وقال تعالى { تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ } غافر 2 فهو منزل من الله كما قال تعالى { وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَّكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزَّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ } 101 { قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ } 102 { النحل 101-102 }²

ولم يقل السلف أن النبي سمعه من الله تعالى كما يقول ذلك بعض المتأخرين قال الله تعالى { لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ } آل عمران 164 وفى الصحيحين عن ابن مسعود قال قال لي النبي اقرأ على القرآن قلت اقرأ عليك وعليك أنزل قال انى أحب أن أسمع من غيرى فقرأت عليه سورة النساء حتى بلغت الى هذه الآية { فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا } النساء 41 قال حسبك فنظرت فإذا عيناه تذرفان من البكاء والنبي سمعه من جبريل وهو الذى نزل عليه به وجبريل سمعه من الله تعالى كما نص على ذلك أحمد وغيره من الأئمة قال تعالى { قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ } البقرة 97 وقال تعالى { نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ } 193 { عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ

¹مجموع الفتاوى ج: 12 ص: 577

²مجموع الفتاوى ج: 12 ص: 554

الْمُنذِرِينَ {194} بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ {195} الشعراء 193-195 وقال تعالى { وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَّكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزَّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ } {101} قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ } {102} النحل 101-102 فأخبر سبحانه أنه نزله روح القدس وهو الروح الأمين وهو جبريل من الله بالحق ولم يقل أحد من السلف أن النبي سمعه من الله وإنما قال ذلك بعض المتأخرين¹

الملائكة احياء ناطقون يأتونهم عن الله بما يخبر به

قال تعالى { وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَّكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزَّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ } {101} قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ } {102} النحل 101-102 إنه من المتواتر عن الانبياء صلوات الله عليهم أن الملائكة

احياء ناطقون يأتونهم عن الله بما يخبر به ويامر به تارة وينصرونهم ويقاثلون معهم تارة وكانت الملائكة احيانا تأتيتهم في صورة البشر والحاضرون يرونهم وقد اخبر الله عن الملائكة في كتاب بأخبار متنوعة وذلك يناقض ما يزعمونه من ان الملك انما هو الصورة الخيالية التي ترسم في الحس المشترك او انها العقول والنفوس وقد قال سبحانه { إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ {19} ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ {20} مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ {21} وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ {22} وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأَفُقِ الْمُبِينِ {23} وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ {24} وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ {25} } التكوير 19-25 فبين ان الرسول الذي جاء به الى محمد رسول كريم ذو قوة عند ذي العرش مكين مطاع ثم امين وهذه صفة لا تنطبق على ما في النفس من الخيال ولا على العقل الفعال فانه اخبر انه مطاع والمطاع فوق السموات ليس هذا ولا هذا وكذلك قوله { نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ {193} عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ } {194} الشعراء 193-194 وقوله { قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِحَبْرِي لَفَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ } {97} مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ } {98} البقرة 97-98 وقال تعالى { وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَّكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزَّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ } {101} قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ } {102} النحل 101-102 وفي الصحيحين عن عائشة ان الحرث بن هشام سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم كيف يأتيتك الوحي قال احيانا يأتيني في مثل صلصلة الجرس وهو اشد على فيفصم عني وقد وعيت عنه ما قال واحيانا يتمثل لي الملك رجلا فيكلمني فأعنى ما يقول قالت عائشة ولقد رايتنه ينزل عليه في اليوم الشديد البرد فيفصم عنه وان جبينه ليتفصد عرقا²

من الإيمان بالله الإيمان بما وصف به نفسه فلا ينفون عنه ما وصف به نفسه

¹مجموع الفتاوى ج: 12 ص: 298 و مجموع الفتاوى ج: 11 ص: 480

²الرد على المنطقيين ج: 1 ص: 494

قال تعالى { وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَّكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ } {101} قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ } {102} النحل 101-102 فاعتقاد الفرقة الناجية المنصورة الى قيام الساعة أهل السنة والجماعة وهو الايمان بالله وملائكته وكتبه ورسله والبعث بعد الموت والايمان بالقدر خيره وشره ومن الايمان بالله الايمان بما وصف به نفسه في كتابه وبما وصفه به رسوله محمد صلى الله عليه وسلم من غير تحريف ولا تعطيل ومن غير تكييف ولا تمثيل بل يؤمنون بأن الله سبحانه ليس كمثله شيء وهو السميع البصير فلا ينفون عنه ما وصف به نفسه ولا يحرفون الكلم عن مواضعه ولا يلحدون في أسماء الله وآياته ولا يكيفون ولا يمثلون صفاته بصفات خلقه لأنه سبحانه لا سمى له ولا كفوله ولا ند له ولا يقاس بخلقه سبحانه وتعالى فانه سبحانه أعلم بنفسه وبغيره وأصدق قيلاً وأحسن حديثاً من خلقه ثم رسله صادقون مصدقون بخلاف الذين يقولون عليه ما لا يعلمون ولهذا قال سبحانه وتعالى { سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ } {180} وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ } {181} وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ } {182} الصافات 180-182 فسبح نفسه عما وصفه به المخالفون للرسول وسلم على المرسلين لسلامة ما قالوه من النقص والعيب وهو سبحانه قد جمع فيما وصف وسمى به نفسه بين النفي والإثبات فلا عدول لأهل السنة والجماعة عما جاء به المرسلون فإنه الصراط المستقيم صراط الذين انعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وقد دخل في هذه الجملة ما وصف به نفسه في سورة الإخلاص التي تعدل ثلث القرآن وقوله سبحانه { وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَّكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ } {101} قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ } {102} وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ } {103} النحل 101-103¹

كل من أرسله الله لا بد أن يكون صادقاً في كل ما يبلغه عن الله

قال تعالى { وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَّكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ } {101} قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ } {102} النحل 101-102 فإن كل من أرسله الله لا بد أن يكون صادقاً في كل ما يبلغه عن الله لا يكذب فيه عمداً ولا خطأً وهذا أمر اتفق عليه الناس كلهم المسلمون اليهود والنصارى وغيرهم اتفقوا على أن الرسول لا بد أن يكون صادقاً معصوماً فيما يبلغه عن الله لا يكذب على الله خطأً ولا عمداً فإن مقصود الرسالة لا يحصل بدون ذلك²

¹مجموع الفتاوى ج: 3 ص: 130-131 و العقيدة الواسطية ج: 1 ص: 18

²الجواب الصحيح ج: 1 ص: 142

فإن الرسول لا يقول على الله إلا حقا لا يكذب على الله في شيء ومن كذب على الله ولو في كلمة واحدة فهو من الكذابين المفترين على الله الكذب مستحق لعقوبة الكذابين كما قال تعالى {وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَّكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزَّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ} {101} قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدْسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ} {102} {النحل 101-102} فمتى كانت كلمة من كلمات هذا الكتاب كذبا على الله لم يكن كتاب الله ولم يكن جاء به رسول الله فإن الكاذب قد يصدق في أكثر ما يقوله لكن إذا كذب في بعض ما يقوله كان كاذبا والله تعالى لا يرسل من يكذب عليه فإن المخلوق لا يرضى أن يرسل من يعلم أنه يكذب عليه ولو فعل ذلك دل على جهله أو عجزه فكيف يرسل رب العالمين من يعلم أنه يكذب عليه¹

الله يصطفى من الملائكة رسلا و من الناس

قال تعالى { وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَّكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزَّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ } {101} قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدْسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ } {102} {النحل 101-102}

الملائكة تنزل بالوحي على الأنبياء وتعينهم وتؤيدهم ولهذا أخبر الله تعالى أن الذي جاء بالقرآن ملك لا شيطان فقال { قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدْسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ } {النحل 102} ²

جبريل رسول ملك و محمد رسول بشر قال تعالى { اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ } {الحج 75} فأصطفى لكلامه الرسول الملكى فنزل به على الرسول البشري الذي اصطفاه و قد أضافه إلى كل من الرسولين لأنه بلغه و أداه لا لأنه أنشأه و ابتدأه قال تعالى { إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ } {19} { ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ } {20} { مُطَاعٌ ثَمَّ أَمِينٍ } {21} {التكوير 19-21} فهذا نعت جبريل الذي قال فيه {قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ} {البقرة 97} و قال { نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ } {193} { عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ } {194} { بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ } {195} {الشعراء 193-195} و قال { وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَّكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزَّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ } {101} { قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدْسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ } {102} {النحل 101-102} 102 و قال في الآية الأخرى { إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ } {40} { وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ } {41} { وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَّا تَدَّكُرُونَ } {42} { تَنْزِيلٌ مِّنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ } {43} { وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقْوَالِ } {44} { لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ } {45} { ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ } {46} { فَمَا مِنْكُمْ مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ } {47} {الحاقة 40-47} فهذه صفة محمد صلى الله عليه و سلم و أضاف القول إلى كل

¹الجواب الصحيح ج: 3 ص: 497

²عقيدة الفرقة الناجية ج: 1 ص: 9

{ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ } الحاقة 40 لأن الرسول يدل على المرسل فدل على أنه قول رسول بلغه عن مرسل لم يقل إنه لقول ملك و لا بشر بل كفر من جعله قول بشر بقوله { دَرَنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيداً } {11} { وَجَعَلْتُ لَهُ مَالاً مَمْدُوداً } {12} { وَبَيَّنَّ شُهُوداً } {13} { وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيداً } {14} { ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ } {15} { كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيداً } {16} { سَأَرْهِفُهُ صَعُوداً } {17} { إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ } {18} { فَقَتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ } {19} { ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ } {20} { ثُمَّ نَظَرَ } {21} { ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ } {22} { ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ } {23} { فَقَالَ إِن هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْتَرُ } {24} { إِنَّ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ } {25} المدثر 11-25 فمن قال إنه قول بشر أو قول مخلوق غير البشر فقد كفر و من جعله قول رسول من البشر فقد صدق لأن الرسول ليس له فيه إلا التبليغ و الأداء كما قال تعالى { يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ } المائدة 67 و فى سنن أبي داود عن جابر بن عبدالله أن النبى صلى الله عليه و سلم كان يعرض نفسه على الناس فى الموسم و يقول ألا رجل يحملني إلى قومه لأبلغ كلام ربي فإن قريشا قد منعوني أن أبلغ كلام ربي و الذي إتفق عليه السلف أن القرآن كلام الله غير مخلوق¹

الاسلام هو الإستسلام لله وهو الخضوع له والعبودية له

قال تعالى { وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ } {101} { قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ } {102} النحل 101-102 وقد صار الناس فى مسمى الاسلام على ثلاثة أقوال قيل هو الإيمان وهما إسمان لمسمى واحد وقيل هو الكلمة وهذان القولان لهما وجه سنذكره لكن التحقيق ابتداء هو ما بينه النبى صلى الله عليه وسلم لما سئل عن الاسلام والايمن ففسر الاسلام بالاعمال الظاهرة والايمن بالإيمان بالاصول الخمسة فليس لنا اذا جمعنا بين الاسلام والايمن أن نجيب بغير ما أجاب به النبى وأما اذا أفرد اسم الايمان فانه يتضمن الاسلام و اذا أفرد الاسلام فقد يكون مع الاسلام مؤمنا بلا نزاع وهذا هو الواجب وهل يكون مسلما ولا يقال له مؤمن قد تقدم الكلام فيه وكذلك هل يستلزم الاسلام للايمان هذا فيه النزاع المذكور وسنبينه والوعد الذى فى القرآن بالجنة وبالنجاة من العذاب إنما هو معلق باسم الايمان وأما اسم الاسلام مجردا فما علق به فى القرآن دخول الجنة لكنه فرضه واخبر أنه دينه الذى لا يقبل من أحد سواه وبالاسلام بعث الله جميع النبيين قال تعالى { وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ } آل عمران 85 ووصف الله أنبياء بنى اسرائيل بالاسلام فى قوله { إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّورَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتَحْفَظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ } المائدة 44 والانبيااء كلهم مؤمنون ووصف الحواريين بالايمن والاسلام فقال تعالى { وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ } المائدة 111 و { قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَآشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ } آل عمران 52 و حقيقة الفرق أن الاسلام دين و الدين مصدر دان يدين ديننا اذا خضع وذل و دين الاسلام الذى إرتضاه الله وبعث به رسله هو الاستسلام لله وحده فاصله فى القلب هو الخضوع لله وحده بعبادته وحده دون ما سواه

¹مجموع الفتاوى ج: 17 ص: 95 و الجواب الصحيح ج: 1 ص: 148 و الجواب الصحيح ج: 5 ص: 347

فمن عبده وعبده معه الها آخر لم يكن مسلماً ومن لم يعبده بل استكبر عن عبادته لم يكن مسلماً والاسلام هو الإستسلام لله وهو الخضوع له والعبودية له هكذا قال اهل اللغة اسلم الرجل اذا استسلم فالاسلام فى الاصل من باب العمل عمل القلب والجوارح وأما الايمان فاصله تصديق وقرار ومعرفة فهو من باب قول القلب المتضمن عمل القلب والاصل فيه التصديق والعمل تابع له فلهذا فسر النبى صلى الله عليه وسلم الايمان بايمان القلب وبخضوعه وهو الايمان بالله وملائكته وكتبه ورسله وفسر الإسلام بإستسلام مخصوص هو المباني الخمس وهكذا فى سائر كلامه يفسر الايمان بذلك النوع ويفسر الاسلام بهذا وذلك النوع أعلى ولهذا قال النبى الاسلام علانية والايمان فى القلب فان الاعمال الظاهرة يراها الناس وأما ما فى القلب من تصديق ومعرفة وحب وخشية ورجاء فهذا باطن لكن له لوازم قد تدل عليه واللازم لا يدل الا اذا كان ملزوماً فلهذا كان من لوازمه ما يفعله المؤمن والمنافق فلا يدل فى حديث عبدالله بن عمرو وابى هريرة جميعاً ان النبى قال المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده والمؤمن من امنه الناس على دمائهم وأموالهم ففسر المسلم بأمر ظاهر وهو سلامة الناس منه وفسر المؤمن بأمر باطن وهو أن يأمنوه على دمائهم وأموالهم وهذه الصفة اعلى من تلك فان من كان مأموناً سلم الناس منه وليس كل من سلموا منه يكون مأموناً فقد يترك أذاهم وهم لا يأمنون اليه خوفاً ان يكون ترك أذاهم لرغبة ورهبة لا لايمان فى قلبه وفى حديث عبيد بن عمير عن عمرو بن عبسة عن النبى صلى الله عليه وسلم أن رجلاً قال للنبى ما الاسلام قال اطعام الطعام ولين الكلام قال فما الايمان قال السماحة والصبر فاطعام الطعام عمل ظاهر يفعله الإنسان لمقاصد متعددة وكذلك لين الكلام وأما السماحة والصبر فخلقان فى النفس قال تعالى {وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ} {البلد 17} وهذا أعلى من ذاك وهو أن يكون صباراً شكوراً فيه سماحة بالرحمة للإنسان وصبر على المكاره وهذا ضد الذى خلق هلوفاً اذا مسه الشر جزوعاً واذا مسه الخير منوعاً فان ذاك ليس فيه عند النعمة ولا صبر عند المصيبة وتمام الحديث فأى الاسلام أفضل قال من سلم المسلمون من لسانه ويده قال يا رسول الله أى المؤمنين أكمل ايماناً قال أحسنهم خلقاً قال يا رسول الله أى القتل اشرف قال من أريق دمه وعقر جواده قال يا رسول الله فأى الجهاد افضل قال الذين جاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله قال يا رسول الله فأى الصدقة افضل قال جهد المقل قال يا رسول الله فأى الصلاة افضل قال طول القنوت قال يا رسول الله فأى الهجرة افضل قال من هجر السوء وهذا محفوظ عن عبيد بن عمير تارة يروى مرسلًا وتارة يروى مسندًا وفى رواية أى الساعات افضل قال جوف الليل الغابر وقوله افضل الايمان السماحة والصبر يروى من وجه اخر عن جابر عن النبى وهكذا فى سائر الأحاديث انما يفسر الاسلام بالاستسلام لله بالقلب مع الاعمال الظاهرة كما فى الحديث المعروف الذى رواه أحمد عن بهز بن حكيم عن ابيه عن جده أنه قال والله يا رسول الله ما أتيتك حتى حلفت عدد أصابعى هذه أن لا أتيك فبالذى بعثك بالحق ما بعثك به قال الاسلام قال وما الاسلام قال أن تسلم قلبك لله وان توجه وجهك إلى الله وان تصلى الصلاة المكتوبة وتؤدى الزكاة المفروضة أخوان نصيران لا يقبل الله من عبد اشرك بعد إسلامه وفى رواية قال أن تقول أسلمت وجهى لله وتخليت وتؤتى الصلاة وتؤتى الزكاة وكل مسلم على مسلم محرم وفى لفظ تقول أسلمت نفسى لله وتخليت وجهى إليه وروى محمد بن نصر من حديث خالد بن معدان عن أبى هريرة قال قال رسول الله أن للاسلام صوى ومنارا كمنار الطريق من ذلك أن تعبد الله ولا تشرك به شيئاً وان تقيم الصلاة وتؤتى الزكاة وتصوم رمضان والامر بالمعروف والنهى عن المنكر وتسلم على بنى ادم اذا لقيتهم فان ردوا عليك ردت عليهم الملائكة وان لم يردوا عليك ردت

عليك الملائكة ولعنتهم ان سكت عنهم وتسليمك على أهل بيتك اذا دخلت عليهم فمن إنتقص منهم شيئاً فهو سهم في الاسلام تركه ومن تركهن فقد نبذ الإسلام وراء ظهره¹

ولفظ الإسلام يتضمن الاستسلام والانقياد ويتضمن الإخلاص مأخوذ من قوله تعالى {ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لَرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ} {الزمر 29} فلا بد في الإسلام من الاستسلام لله وحده وترك الاستسلام لما سواه وهذا حقيقة قولنا لا إله إلا الله فمن استسلم لله ولغير الله فهو مشرك والله لا يغفر أن يشرك به ومن لم يستسلم له فهو مستكبر عن عبادته وقد قال تعالى {وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ} {غافر 60} وثبت عنه صلى الله عليه وسلم في الصحيح أنه قال لا يدخل الجنة من في قلبه مثقال ذرة من كبر ولا يدخل النار من في قلبه مثقال ذرة من إيمان فقيل له يا رسول الله الرجل يحب أن يكون ثوبه حسنا ونعله حسنا أفمن الكبر ذلك قال لا إن الله جميل يحب الجمال الكبر بطر الحق وغمط الناس بطر الحق جده ودفعه وغمط الناس ازدراؤهم واحتقارهم

2

{ لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ }

قال تعالى { فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ } {98} إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ } {99} إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ } {100} وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزَّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ } {101} قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ } {102} وَلَقَدْ نَعَلْنَا أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ } {103} {النحل 98-103} أنه كان يخبرهم بالأمور الماضية خبرا مفصلا لا يعلمه أحد إلا أن يكون نبيا أو من أخبره نبي وقومه يعلمون أنه لم يخبره بذلك أحد من البشر وهذا مما قامت به الحجة عليهم وهم مع قوة عداوتهم له وحصرهم على ما يطعنون به عليه لم يمكنهم أن يطعنوا طعنا يقبل منهم وكان علم سائر الأمم بأن قومه المعادين له المجتهدين في الطعن عليه لم يمكنهم أن يقولوا إن هذه الغيوب علمها إياه بشر فوجب على جميع الخلق أن هذا لم يعلمه إياها بشر ولهذا قال تعالى { تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ } سورة هود الآية 49 فأخبر أنه لم يكن يعلم ذلك هو ولا قومه وقومه تقرر بذلك ولم يتعلم من أحد غير قومه ولهذا زعم بعضهم أنه تعلم من بشر ظهر كذبه لكل أحد كما قال تعالى { فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ } {98} إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ } {99} إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ } {100} وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزَّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ } {101} قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ } {102} وَلَقَدْ نَعَلْنَا أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا

¹مجموع الفتاوى ج: 7 ص: 261- 266

²اقتضاء الصراط ج: 1 ص: 454

لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ {103} سورة النحل الآيات 98 103 فكان بمكة رجل أعجمي مملوك لبعض قريش فادعى بعض الناس أن محمدا كان يتعلم من ذلك الأعجمي فبين الله أن هذا كذب ظاهر فإن ذلك رجل أعجمي لا يمكنه أن يتكلم بكلمة من هذا القرآن العربي ومحمد صلى الله عليه وسلم عربي لا يعرف شيئا من السنة العجم فمن كلمه بغير العربية لا يفقه كلامه فلا ذلك الرجل يحسن التكلم بالعربية ولا محمد صلى الله عليه وسلم يفهم كلاما بغير العربية فلهذا قال تعالى { **وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يِقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ {103} سورة النحل الآية 103** أي يميلون إليه ويضيفون إليه أنه علم محمدا صلى الله عليه¹

بين سبحانه ظهور كذبهم فيما افتروه

قال تعالى { **فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ {98} إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ {99} إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ {100} وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنزَلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ {101} قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ {102} وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يِقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ {103} النحل 98- 103**

(ناقص ن م) يشيع ولو تواصلوا بكتمانه كما شاع ما كتم من أمر الدول الباطنية ولكان خواصه في الباطن يعلمون كذبه وكان علمهم بذلك يناقض تصديقه في الباطن كما عرف في مثل ذلك فكيف وكان أخص أصحابه وأعلمهم بحاله أعظمهم محبة وموالاتة بخلاف حال من يبطن خلاف ما يظهر فإن خواص أصحابه لا يعظمونه في الباطن فإنه علم الناس أن قومه الذين كانوا معادين له غاية العداوة وكانوا يطلبون القدح في نبوته بكل طريق يعلمون أنه لم يكن عندهم بشر يعلمه مثل هذا وأنه لم يكن في قومه ولا بلده من يعرف هذا علم الناس ما علمه قومه أن هذا أنبأه به الله وكان هذا من أعلامه وآياته وبراهينه وهذا مما يبين الله في القرآن أنه من آياته وأنه حين أخبر قومه بهذا مع تكذيبهم وفرط عداوتهم له لم يمكن أحدا منهم أن يقول له بل فينا من كان يعلم ذلك وأنت كنت تعلم ذلك وقد تعلمته منا أو من غيرنا فكان إقرارهم بعدم علمه وعلمهم ومع فرط عداوتهم له آية بيينة لجميع الأمم أنه لم يكن هو ولا هم يعلمون ذلك ولهذا لما كان بعضهم يفتري عليه فرية ظاهرة كانوا كلهم يعلمون كذبه وإذا اجتمعوا وتشاوروا في أمره يعرفون أن هذا كذب ظاهر عليه كما كان بعضهم يقول إنه مجنون وبعضهم يقول إنه كاهن وبعضهم يقول إنه ساحر وبعضهم يقول إنه تعلمه من بشر وبعضهم يقول أضغاث أحلام فحكى الله أقوالهم مبينا لظهور كذب من قال ذلك وأنه قول ضال حائر قد بهره حال الرسول فحار فلم يدر ما يقول كما قال تعالى (تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا {1} الَّذِي لَهُ مَلِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ تَقْدِيرًا {2} وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا {3} وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا {4} وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا

¹ الجواب الصحيح ج: 1 ص: 404-405

فَهِيَ تُمَلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا {5} قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غُفُورًا رَحِيمًا {6} سورة الفرقان الآيات 1 6 ثم ذكر ما اقترحوه فقال { وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أَنْزَلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونُ مَعَهُ نَذِيرًا {7} أَوْ يُلْقَى إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا {8} سورة الفرقان الآيات 6 و 7 وقال { انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ {9} الفرقان 9 أمر بالنظر في كيفية ما ضربوه من الأمثال حيث شبهوه بمن يظهر الفرق بينه وبينه ظهوراً لا يخفى على الناظر ولهذا قال { فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا {9} الفرقان 9 إذا كان ظاهراً أن هذا ضلال عن طريق الحق فلا يستطيع الضال عن طريق الحق إليه سبيلاً كما قال تعالى { فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ {98} إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ {99} إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ {100} وَإِذَا بَدَلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ {101} قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ {102} وَلَقَدْ نَعَلْنَا أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ {103} سورة النحل الآيات 98 103 فأخبر عما افتراه بعضهم من قوله إنما يعلمه هذا القرآن بشر وكان بمكة مولى أعجمي لبعض قريش قيل إنه مولى لبني الحضرمي والنبوي لا يحسن أن يتكلم بلسان العجمي وذلك لا يحسن أن يتكلم بهذا الكلام العربي فلما قالوا إنه افتري هذا القرآن وأنه علمه إياه بشر قال تعالى { لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ {103} النحل 103 أي يضيفون إليه هذا التعليم وينسبونه إليه وعبر عنه بلفظ الإلحاد لما فيه من الميل فقال لسان هذا الشخص الذي قالوا إنه يعلمه القرآن لسان أعجمي وهم لم يمكنهم أن يضيفوا هذا التعليم إلى رجل عربي بل إلى هذا الأعجمي لكونه كان يجلس أحياناً إلى النبي وذلك الأعجمي لا يمكنه التكلم بهذا الكلام العربي بل هو أعجمي ومحمد لا يعرف بالعجمية لكن غاية ذلك الأعجمي كعبد بني الحضرمي أن يعرف قليلاً من كلام العرب الذي يحتاج إليه في العادة مثل الألفاظ التي يحتاج إليها في غالب الأوقات كلفظ الخبز والماء والسماء والأرض ولا يعرف أن يقرأ سورة واحدة من القرآن فبين سبحانه ظهور كذبهم فيما افتروه ولم يقل أحد منهم ما يمكن أن يكون شبهة من تعلمه أنباء الغيب من علماء أهل الكتاب ونحو ذلك وإنما قالوا ما ظهر بطلانه لكل أحد ولم ينقل عن أحد منهم أنه قال قولاً يخفى بطلانه بل ما يظهر كذبه لكل أحد فتبين أنه لم يمكنهم أن يقولوا إنه تعلم أخبار الغيوب من أحد وهذه القصة قصة نوح لا سيما قصته في سورة هود كما تقدم لا يعلمها إلا النبي أو من تلقاها عن نبي فإذا عرف أنه لم يتلقاها عن أحد علم أنه نبي ولهذا قال تعالى في آخرها { تَلَكَّ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ { هود 49} والقول في سائر القصص كالقول فيها وكما قال في سورة يوسف { ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ { يوسف 102} وقال في سورة آل عمران لما ذكر قصة زكريا ومريم { ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَقُولُونَ أَفَلَمَّهْمُ أَنَّهُمْ كَفُلٌ مَرِيْمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ { آل عمران 44}

اللسان العربي أكمل الألسنة وأحسنها بياناً للمعاني

قال تعالى { **وَلَقَدْ نَعَلُمْ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ** } النحل 103 فالرسول صلى الله عليه وسلم هو الصادق المصدوق المبين للناس ما نزل اليهم المبلغ لرسالة ربه المخاطب لهم بلسان عربي مبين قال تعالى { **وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ** } إبراهيم 4 وقال تعالى { **إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ** } الزخرف 3 وقال تعالى { **وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ** } القمر 17¹

قال تعالى { **وَلَقَدْ نَعَلُمْ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ** } النحل 103 فهذا يتضمن إنعام الله على عباده لأن اللسان العربي أكمل الألسنة وأحسنها بياناً للمعاني فنزول الكتاب به أعظم نعمة على الخلق من نزوله بغيره وهو إنما خوطب به أولاً العرب ليفهموه ثم من يعلم لغتهم يفهمه كما فهموه ثم من لم يعلم لغتهم ترجمه له من عرف لغتهم وكان إقامة الحجة به على العرب أولاً والإنعام به عليهم أولاً لمعرفة معانيه قبل أن يعرفه غيرهم²

أسماء القرآن

قال تعالى { **وَلَقَدْ نَعَلُمْ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ** } النحل 103 أسماء القرآن القرآن الفرقان الكتاب الهدى النور الشفاء البيان الموعدة الرحمة بصائر البلاغ الكريم المجيد العزيز المبارك التنزيل المنزل الصراط المستقيم حبل الله الذكر الذكري تذكرة المتشابه المثاني { **مُتَشَابِهًا مَّثَانِيًّا** } الزمر 23 قال تعالى { **وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ** } النحل 103³

الكفار استحقوا الوعيد لزوال التصديق والإيمان من قلوبهم

قال تعالى { **إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ** } 104 { **إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ** } 105 { **مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ**

¹مجموع الفتاوى ج: 13 ص: 264

²الجواب الصحيح ج: 2 ص: 69

³مجموع الفتاوى ج: 14 ص: 2

مُطْمَئِنِّ بِالْإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكَفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ {106} ذَلِكَ
بِأَنَّهُمْ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ {107} أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ
عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمِعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ {108} لَا جَرَمَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمْ

الْخَاسِرُونَ {109} النحل 106-109 فإن الله سبحانه قال {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ
الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ {النساء 51} وَقَالَ {فَمَنْ يَكْفُرُ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنُ بِاللَّهِ فَقَدِ
اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى {البقرة 256} فَنَبِّينَ أَنَّ الطَّاغُوتَ يُؤْمِنُ بِهِ وَيَكْفُرُ بِهِ وَمَعْلُومٌ أَنَّ مَجْرَدَ
التصديق بوجوده وما هو عليه من الصفات يشترك فيه المؤمن والكافر فإن الأصنام والشيطان
والسحر يشترك في العلم بحاله المؤمن والكافر وقد قال الله تعالى في السحر {حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ
فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ {البقرة 102} إِلَى قَوْلِهِ {وَلَقَدْ
عَلِمُوا لَمَنِ اسْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَقٍ {البقرة 102} فَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ
عَلَى مَلِكٍ سَلِيمَانَ وَنَبَذُوا كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ لَا خَلْقَ لَهُمْ فِي
الْآخِرَةِ وَمَعَ هَذَا فَيَكْفُرُونَ وَكَذَلِكَ الْمُؤْمِنُ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ إِذَا كَانَ عَالِمًا بِمَا يَحْصُلُ بِالسَّحْرِ
مِنَ التَّفْرِيقِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَنَحْوِ ذَلِكَ مِنَ الْجِبْتِ وَكَانَ عَالِمًا بِأَحْوَالِ الشَّيْطَانِ وَالْأَصْنَامِ وَمَا
يَحْصُلُ بِهَا مِنَ الْفِتْنَةِ لَمْ يَكُنْ مُؤْمِنًا بِهَا مَعَ الْعِلْمِ بِأَحْوَالِهَا وَمَعْلُومٌ أَنَّهُ لَمْ يَعْتَقِدْ أَحَدٌ فِيهَا أَنَّهَا تَخْلُقُ
الْأَعْيَانَ وَأَنَّهَا تَفْعَلُ مَا تَشَاءُ وَنَحْوِ ذَلِكَ مِنْ خِصَائِصِ الرُّبُوبِيَّةِ وَلَكِنْ كَانُوا يَعْتَقِدُونَ أَنَّهُ يَحْصُلُ
بِعِبَادَتِهَا لَهُمْ نَوْعٌ مِنَ الْمَطَالِبِ كَمَا كَانَتِ الشَّيَاطِينُ تَخَاطِبُهُمْ مِنَ الْأَصْنَامِ وَتَخْبِرُهُمْ بِأُمُورٍ وَكَمَا يَوْجَدُ
مِثْلَ ذَلِكَ فِي هَذِهِ الْأَزْمَانِ فِي الْأَصْنَامِ الَّتِي يَعْبُدُهَا أَهْلُ الْهِنْدِ وَالصِّينِ وَالتُّرْكِ وَغَيْرِهِمْ وَكَانَ كُفْرُهُمْ
بِهَا الْخُضُوعَ لَهَا وَالدَّعَاءَ وَالْعِبَادَةَ وَإِتْخَاذَهَا وَسِيلَةً وَنَحْوِ ذَلِكَ لَا مَجْرَدَ التَّصَدِيقِ بِمَا يَكُونُ عِنْدَ ذَلِكَ
مِنَ الْآثَارِ فَإِنَّ هَذَا يَعْلَمُهُ الْعَالَمُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَيَصَدِّقُ بِوَجُودِهِ لَكِنَّهُ يَعْلَمُ مَا يَتَرْتَبُ عَلَى ذَلِكَ مِنْ
الضَّرَرِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَيَبْغِضُهُ وَالْكَافِرُ قَدْ يَعْلَمُ وَجُودَ ذَلِكَ الضَّرَرِ لَكِنَّهُ يَحْمَلُهُ حُبَّ الْعَاجِلَةِ عَلَى
الْكَفْرِ يَبِينُ ذَلِكَ قَوْلُهُ {مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيْمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ
شَرَحَ بِالْكَفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ {106} ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا
عَلَى الْآخِرَةِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ {107} أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمِعِهِمْ
وَأَبْصَارِهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ {108} لَا جَرَمَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمْ الْخَاسِرُونَ {109} النحل
109-106 فقد ذكر تعالى من كفر بالله من بعد إيمانه وذكر وعيده في الآخرة ثم قال {ذَلِكَ
بِأَنَّهُمْ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ {107} النحل 107 وبين تعالى أن الوعيد يستحقوه بهذا
ومعلوم أن باب التصديق والتكذيب والعلم والجهل ليس هو من باب الحب والبغض وهؤلاء يقولون
إنما استحقوا الوعيد لزوال التصديق والإيمان من قلوبهم وإن كان ذلك قد يكون سببه حب الدنيا على
الآخرة والله سبحانه وتعالى جعل إستحباب الدنيا على الآخرة هو الأصل الموجب للخسران
وإستحباب الدنيا على الآخرة قد يكون مع العلم والتصديق بأن الكفر يضر في الآخرة وبأنه ما له في
الآخرة من خلاق و أيضا فإنه سبحانه إستثنى المكروه من الكفار ولو كان الكفر لا يكون إلا
بتكذيب القلب وجهله لم يستثن منه المكروه لأن الإكراه على ذلك ممتنع فعلم أن التكلم بالكفر كفر لا في
حال الإكراه وقوله تعالى {وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكَفْرِ صَدْرًا {النحل 106} أي لإستحبابه الدنيا على
الآخرة ومنه قول النبي يصبح الرجل مؤمنا ويمسى كافرا ويمسى مؤمنا ويصبح كافرا يبيع دينه
بعرض من الدنيا والآية نزلت في عمار بن ياسر وبلال بن رباح وأمثالهما من المؤمنين
المستضعفين لما أكرههم المشركون على سب النبي ونحو ذلك من كلمات الكفر فمنهم من أجاب
بلسانه كعمار ومنهم من صبر على المحنة كبلال ولم يكره أحد منهم على خلاف ما في قلبه بل
أكرهوا على التكلم فمن تكلم بدون الإكراه لم يتكلم إلا وصدوره منشراح به وأيضا فقد جاء نفر من

اليهود إلى النبي فقالوا نشهد إنك لرسول ولم يكونوا مسلمين بذلك لأنهم قالوا ذلك على سبيل الاخبار عما في أنفسهم أي نعلم ونجزم أنك رسول الله قال فلم لا تتبعوني قالوا نخاف من يهود فعلم أن مجرد العلم و الاخبار عنه ليس بإيمان حتى يتكلم بالإيمان على وجه الإنشاء المتضمن للإلتزام والانقياد مع تضمن ذلك الاخبار عما في أنفسهم فالمنافقون قالوا مخبرين كاذبين فكانوا كفارا في الباطن وهؤلاء قالوها غير ملتزمين ولا منقادين فكانوا كفارا في الظاهر والباطن وكذلك أبو طالب قد استفاض عنه أنه كان يعلم بنبوته محمد وأنشد عنه ولقد علمت بأن دين محمد من خير أديان البرية دينا لكن إمتنع من الإقرار بالتوحيد والنبوة حبا لدين سلفه وكرهه أن يعيره قومه فلما لم يقترب بعلمه الباطن الحب والإنياد الذي يمنع ما يصاد ذلك من حب الباطل وكرهه الحق لم يكن مؤمنا وأما إبليس وفرعون واليهود ونحوهم فما قام بأنفسهم من الكفر وإرادة العلو والحسد منع من حب الله وعبادة القلب له الذي لا يتم الإيمان إلا به وصار في القلب من كراهية رضوان الله وإتباع ما أسخطه ما كان كفرا لا ينفع معه العلم¹

المكره هو من يدفع الفساد الحاصل بإحتمال أدناهما

قال تعالى { إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ } {104} إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ } {105} مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ } {106} ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ } {107} أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمِعَهُمْ وَأَبْصَارِهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْعَاقِلُونَ } {108} لَا جَرَمَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمْ الْخَاسِرُونَ } {109} النحل 106-109 فإن هذه الاية نزلت بمكة لما أكره عمار وبلال على الكفر²

و المكره يفعل بمشيئة غيره و هو المكره له فإنه و إن كان قاصدا لما يفعله ليس هو بمنزلة المفعول به الذي لا قدرة له و لا إرادة له في الفعل بحال فإن مقصوده بالقصد الأول دفع الشيء لا نفس الفعل فالمراتب ثلاثة أحدها من يفعل به الفعل من غير قدرة له على الإمتناع كالذي يحمل بغير إختياره و يدخل الى مكان أو يضرب به غيره أو تضجع المرأة و تفعل بها الفاحشة بغير إختيارها من غير قدرة على الإمتناع فهذا ليس له فعل إختياري و لا قدرة و لا إرادة ومثل هذا الفعل ليس فيه أمر و لانهي و لا عقاب بإتفاق العقلاء و إنما يعاقب إذا أمكنه الإمتناع فتركه لأنه إذا لم يمتنع كان مطاوعا لا مكرها و لهذا فرق بين المرأة المطاوعة على الزنا و المكرهه عليه و الثانية أن يكره بضرب أو حبس أو غير ذلك حتى يفعل فهذا الفعل يتعلق به التكليف فإنه يمكنه أن لا يفعل و إن قتل و لهذا قال الفقهاء إذا أكره على قتل المعصوم لم يحل له قتله و إن قتل فقد إختلفوا في القود فقال أكثرهم كمالك و أحمد و الشافعي في أحد قوليه يجب القود على المكره و المكره لأنهما جميعا يشتركان في القتل و قال أبو حنيفة يجب على المكره الظلم لأن المكره قد صار كالألة و قال زفر بل

¹مجموع الفتاوى ج: 7 ص: 558-562

²منهاج السنة النبوية ج: 4 ص: 443

على المكره المباشر لأنه مباشر و ذلك متسبب و قال لو كان كالألة لما كان أثماً و قد إتفقوا على أنه
أثم و قال أبو يوسف لاتجب على و احد منهما و أما إن أكره على الشرب للخمر و نحوه من الأفعال
فأكثرهم يجوز ذلك له و هو مذهب أبي حنيفة و الشافعي و أحمد في المشهور عنه لقوله تعالى { وَلَا
تُكْرَهُوا فَنِيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّناً لِنَبِّغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَنْ يُكْرِهِنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ
إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَحِيمٌ } النور 33 و أما إن أكره الرجل على الزنا ففيه قولان في مذهب أحمد و غيره
أحدها لا يكون مكرها عليه كقول أبي حنيفة و هو منصوص أحمد و الثاني قد يكون
مكرها عليه كقول الشافعي و طائفة من أصحاب أحمد و إذا أكره على كلمة الكفر جاز له التكلم
بها مع طمأنينة قلبه بالإيمان¹

و في صحيح مسلم عن عمران ابن حصين حديث المرأة التي لعنت ناقة لها فأمر النبي صلى الله
عليه وسلم فأخذ ما عليها وأرسلت وقال لا تصحبنا ناقة ملعونة و في الصحيحين عنه أنه لما إجتاز
بديار ثمود قال لا تدخلوا على هؤلاء المعذبين إلا أن تكونوا باكين فإن لم تكونوا باكين فلا تدخلوا
عليهم لئلا يصيبكم ما اصابهم فنهى عن عبور ديارهم إلا على وجه الخوف المانع من العذاب
وهكذا السنة في مقارنة الظالمين والزناة وأهل البدع والفجور وسائر المعاصي لا ينبغي لأحد أن
يقارنهم ولا يخالطهم إلا على وجه يسلم به من عذاب الله عز وجل وأقل ذلك أن يكون منكرا
لظلمهم ماقتا لهم شأننا ما هم فيه بحسب الإمكان كما في الحديث من رأى منكرا فليغيره بيده
فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه وذلك اضعف الإيمان وقال تعالى { وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا
لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَةً فِرْعَوْنَ } التحريم 11 الآية وكذلك ما ذكره عن يوسف الصديق وعمله على
خزائن الأرض لصاحب مصر لقوم كفار وذلك ان مقارنة الفجار إنما يفعلها المؤمن في موضعين
أحدهما أن يكون مكرها عليها والثاني أن يكون ذلك في مصلحة دينية راجحة على مفسدة المقارنة أو
أن يكون في تركها مفسدة راجحة في دينه فيدفع أعظم المفسدتين بإحتمال أدناهما وتحصل المصلحة
الراجحة بإحتمال لمفسدة المرجوحة وفي الحقيقة فالمكره هو من يدفع الفساد الحاصل بإحتمال
أدناهما وهو الأمر الذي أكره عليه قال تعالى { **إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ** } النحل 106²

من كفر بالله من بعد إيمانه من غير إكراه فهو مرتد

قال تعالى { **إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ** } 104 { **إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ
الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ** } 105 { **مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيْمَانِهِ إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ
مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ** } 106 { **ذَلِكَ**

¹مجموع الفتاوى ج: 8 ص: 504

²مجموع الفتاوى ج: 15 ص: 325

بِأَنَّهُمْ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ {107} أَوْلَيْكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمِعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْعَافُونَ {108} لَا جَرَمَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمْ الْخَاسِرُونَ {109} النحل 106-109

إن القرآن قد بين توبة الكافر و إن كان قد إرتد ثم عاد إلى الإسلام في غير موضع كقوله تعالى {كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَاهَدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ} {86} أَوْلَيْكَ جَزَاؤُهُمْ أَنْ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ} {87} خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ} {88} إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ} {89} آل عمران 86-89 و قوله {كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ} آل عمران 86 أى أنه لا يهديهم مع كونهم مرتدين ظالمين و لهذا قال { وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ } آل عمران 86 فمن إرتد عن دين الإسلام لم يكن إلا ضالاً لا يحصل له الهدى إلى أى دين إرتد و المقصود أن هؤلاء لا يهديهم الله و لا يغفر لهم إلا أن يتوبوا و كذلك قال فى قوله {مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ} النحل 106 و من كفر بالله من بعد إيمانه من غير إكراه فهو مرتد قال {ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ} النحل 110 و هو سبحانه فى آل عمران ذكر المرتدين ثم ذكر التائبين منهم ثم ذكر من لا تقبل توبته و من مات كافراً فقال {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ أزدادوا كُفْرًا لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ} {90} إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلَّةٌ مِنَ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوْ افْتَدَى بِهِ أَوْلَيْكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ} {91} آل عمران 90-91 و هؤلاء الذين لا تقبل توبتهم قد ذكروا فيهم أقوالاً قيل لنفاقهم و قيل لأنهم تابوا مما دون الشرك و لم يتوبوا منه و قيل لن تقبل توبتهم بعد الموت و قال الأكثرون كالحسن و قتادة و عطاء الخراساني و السدى لن تقبل توبتهم حين يحضرهم الموت فيكون هذا كقوله {وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ} النساء 18 و كذلك قوله {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ أزدادوا كُفْرًا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيُغْفِرْ لَهُمْ وَلَا لِيُهْدِيَهُمْ سَبِيلًا} النساء 137 قال مجاهد و غيره من المفسرين إزدادوا كفراً ثبتوا عليه حتى ماتوا قلت و ذلك لأن التائب راجع عن الكفر و من لم يتب فإنه مستمر يزداد كفراً بعد كفر فقوله {ثُمَّ أزدادوا} آل عمران 90 بمنزلة قول القائل ثم أصروا على الكفر و إستمروا على الكفر و داموا على الكفر فهم كفروا بعد إسلامهم ثم زاد كفرهم ما نقص فهو لاء لا تقبل توبتهم و هي التوبة عند حضور الموت لأن من تاب قبل حضور الموت فقد تاب من قريب و رجع عن كفره فلم يزد بل نقص بخلاف المصر إلى حين المعاينة فما بقي له زمان يقع لنقص كفره فضلاً عن هدمه¹

الكلام والفعل المتضمن للاستخفاف والاستهانة مستلزم لعدم التصديق النافع

قال تعالى {إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ} {104} إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ} {105} مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ} {106} ذَلِكَ

¹مجموع الفتاوى ج: 16 ص: 27-32

بِأَنَّهُمْ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ {107} أَوْلَيْكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمِعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْعَافِلُونَ {108} لَا جَرَمَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمْ الْخَاسِرُونَ {109} النحل 106-109 ان الله سبحانه أمرنا بالمعروف وهو طاعته وطاعة رسوله وهو الصلاح والحسنات والخير والبر ونهى عن المنكر وهو معصيته ومعصية رسوله وهو الفساد والسيئات والشر والفجور وقيد الايجاب بالاستطاعة والوسع وابعح مما حرم ما يضطر المرء اليه غير باغ ولا عاد فقال تعالى {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ} آل عمران 102 وقال {فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ} {التعابن 16} وثبت في الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال ذروني ما تركتكم فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على انبيائهم فإذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه وإذا امرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم فأوجب مما امر به ما يستطيع وكذلك فإن النبي صلى الله عليه وسلم قال في حديث آخر انكم لن تحصوا او تستطيعوا كل ما امرتم به ولكن وقال ان هذا الدين يسر ولن يشاد الدين احد الا غلبه فسددوا وقاربوا واستعينوا بالغوطة والروحة وشيء من الدلجة والقصد القصد تبلغوا وهذا العام المجمل فصله فقال في محذور الكلام بالكفر {مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ} النحل 106 فأباح سبحانه عند الاكراه ان ينطق الرجل بالكفر بلسانه اذا كان قلبه مطمئنا بالإيمان بخلاف من شرح بالكفر صدرا وأباح للمؤمنين ان يتقوا من الكافرين تقاة مع نهيه لهم عن موالاتهم وعن ابن عباس ان التقية باللسان¹

ان من قال ان الايمان مجرد معرفة القلب من غير احتياج الى المنطق باللسان يقول لا يفتقر الايمان في نفس الامر الى القول الذي يوافقه باللسان لكن لا يقول ان القول الذي ينافي الايمان لا يبطله فان القول قولان قول يوافق تلك المعرفة وقول يخالفها فهب ان القول الموافق لا يشترط لكن القول المخالف ينافيها فمن قال بلسانه كلمة الكفر من غير حاجة عامدا لها عالما بانها كلمة كفر فانه يكفر بذلك ظاهرا وباطنا ولا يجوز ان يقال انه في الباطن يجوز ان يكون مؤمنا ومن قال ذلك ذلك فقد مرق من الاسلام قال الله سبحانه {مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ} النحل 106 ومعلوم انه لم يرد بالكفر هنا اعتقاد القلب فقط لان ذلك لا يكره الرجل عليه وهو قد استثنى من اكره ولم يرد من قال واعتقد لأنه استثنى المكره وهو لا يكره على العقد والقول وانما يكره على القول فقط فعلم انه اراد من تكلم بكلمة الكفر فعليه غضب من الله وله عذاب عظيم وانه كافر بذلك الا من اكره وهو مطمئن بالايمان ولكن من شرح بالكفر صدرا من المكرهين فانه كافر ايضا فصار كل من تكلم بالكفر كافرا الا من اكره فقال بلسانه كلمة الكفر وقلبه مطمئن بالايمان وقال تعالى في حق المستهزئين {وَلَيْن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ} {65} لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِنْ نَعْفُ عَنْ طَائِفَةٍ مِّنْكُمْ نُعَذِّبُ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ} {66} التوبة 65-66 فبين انهم كفار بالقول مع انهم لم يعتقدوا صحته وهذا باب واسع والفقهاء فيه ما تقدم من ان التصديق بالقلب يمنع ارادة التكلم واردة فعل فيه استهانة واستخفاف كما انه يوجب

¹ الاستقامة ج: 2 ص: 319

المحبة والتعظيم واقتضائه وجود هذا وعدم هذا أمر جرت به سنة الله في مخلوقاته كإقتضاء ادراك الموافق للذة وادراك المخالف للألم فاذا عدم المعلول كان مستلزما لعدم العلة واذا وجد الضد كان مستلزما لعدم الضد الآخر فالكلام والفعل المتضمن للاستخفاف والاستهانة مستلزم لعدم التصديق النافع ولعدم الانقياد والاستسلام فلذلك كان كفرا واعلم ان الايمان وان قيل هو التصديق فالقلب يصدق بالحق والقول يصدق ما في القلب والعمل يصدق القول والتكذيب بالقول مستلزم للتكذيب بالقلب ورافع للتصديق الذي كان في القلب اذ اعمال الجوارح تؤثر في القلب كما ان اعمال القلب تؤثر في الجوارح فأيهما قام به كفر تعدى حكمه الى الآخر¹

القرآن يبين أن إيمان القلب يستلزم العمل الظاهر بحسبه

قال تعالى { إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ } {104} إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ } {105} مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ } {106} ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ } {107} أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمِعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْعَاقِلُونَ } {108} لَا جَرَمَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمْ الْخَاسِرُونَ } {109} {النحل 106-109} وليس في الكتاب والسنة المظهرون للإسلام إلا قسمان مؤمن أو منافق فالمنافق في الدرك الأسفل من النار والآخر مؤمن ثم قد يكون ناقص الإيمان فلا يتناوله الإسم المطلق وقد يكون تام الإيمان وهذا يأتي الكلام عليه إن شاء الله في مسألة الإسلام والإيمان وأسماء الفساق من أهل الملة لكن المقصود هنا أنه لا يجعل أحد بمجرد ذنب يذنبه ولا ببدعة ابتدعها ولو عاد الناس إليها كافرا في الباطن إلا إذا كان منافقا فأما من كان في قلبه الإيمان بالرسول وما جاء به وقد غلط في بعض ما تأوله من البدع فهذا ليس بكافر أصلا والخوارج كانوا من أظهر الناس بدعة وقتالا للأمة وتكفيرا لها ولم يكن في الصحابة من يكفرهم لا على بن أبي طالب ولا غيره بل حكموا فيهم بحكمهم في المسلمين الظالمين المعتدين كما ذكرت الآثار عنهم بذلك في غير هذا الموضوع وكذلك سائر الثنتين وسبعين فرقة من كان منهم منافقا فهو كافر في الباطن ومن لم يكن منافقا بل كان مؤمنا بالله ورسوله في الباطن لم يكن كافرا في الباطن وان أخطأ في التأويل كائنا ما كان خطؤه وقد يكون في بعضهم شعبة من شعب النفاق ولا يكون فيه النفاق الذي يكون صاحبه في الدرك الأسفل من النار ومن قال أن الثنتين وسبعين فرقه كل واحد منهم يكفر كفرا ينقل عن الملة فقد خالف الكتاب والسنة وإجماع الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين بل وإجماع الأئمة الأربعة وغير الأربعة فليس فيهم من كفر كل واحد من الثنتين وسبعين فرقة وانما يكفر بعضهم بعضا ببعض المقالات كما قد بسط الكلام عليهم في غير هذا الموضوع وإنما قال الأئمة بكفر هذا لأن هذا فرض ما لا يقع فيمتنع أن يكون الرجل لا يفعل شيئا مما أمر به من الصلاة والزكاة والصيام والحج ويفعل ما يقدر عليه من المحرمات مثل الصلاة بلا وضوء والى غير القبلة ونكاح الأمهات وهو مع ذلك مؤمن في الباطن بل لا يفعل ذلك إلا لعدم الإيمان الذي في قلبه ولهذا كان اصحاب ابي حنيفة يكفرون أنواعا ممن يقول كذا وكذا لما فيه من الاستخفاف ويجعلونه مرتدا ببعض هذه الأنواع مع النزاع اللفظي الذي بين

¹ الصارم المسلول ج: 3 ص: 976

أصحابه وبين الجمهور في العمل هل هو داخل في اسم الإيمان أم لا ولهذا فرض متأخروا الفقهاء مسألة يمتنع وقوعها وهو ان الرجل اذا كان مقرا بوجوب الصلاة فدعى اليها وامتنع واستتيب ثلاثا مع تهديده بالقتل فلم يصل حتى قتل هل يموت كافرا أو فاسقا على قولين وهذا الفرض باطل فإنه يمتنع في الفطرة أن يكون الرجل يعتقد أن الله فرضها عليه وأنه يعاقبه على تركها ويصبر على القتل ولا يسجد لله سجدة من غير عذر له في ذلك هذا لا يفعله بشر قط بل ولا يضرب أحد ممن يقر بوجوب الصلاة إلا صلى لا ينتهى الأمر به الى القتل وسبب ذلك أن القتل ضرر عظيم لا يصبر عليه الإنسان إلا لأمر عظيم مثل لزومه لدين يعتقد أنه إن فارقه هلك فيصبر عليه حتى يقتل وسواء كان الدين حقا أو باطلا إما مع اعتقاده أن الفعل يجب عليه باطنا وظاهرا فلا يكون فعل الصلاة أصعب عليه من احتمال القتل قط ونظير هذا لو قيل أن رجلا من اهل السنة قيل له ترض عن أبي بكر وعمر فإمتنع عن ذلك حتى قتل مع محبته لهما واعتقاده فضلها ومع عدم الاعذار المانعة من الترضى عنهما فهذا لا يقع قط وكذلك لو قيل أن رجلا يشهد أن محمدا رسول الله باطنا وظاهرا وقد طلب منه ذلك وليس هناك رهبة ولا رغبة يمتنع لأجلها فإمتنع منها حتى قتل فهذا يمتنع أن يكون في الباطن يشهد أن محمدا رسول الله ولهذا كان القول الظاهر من الإيمان الذي لا نجاة للعبد إلا به عند عامة السلف والخلف من الأولين والآخرين إلا الجهمية جهما ومن وافقه فإنه اذا قدر أنه معذور لكونه أخرس أو لكونه خائفا من قوم ان أظهر الإسلام آذوه ونحو ذلك فهذا يمكن أن لا يتكلم مع إيمان في قلبه كالمكره على كلمة الكفر قال الله تعالى { **مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ** } النحل 106 وهذه الآية مما يدل على فساد قول جهم ومن اتبعه فإنه جعل كل من تكلم بالكفر من أهل وعيد الكفار { **إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ** } النحل 106 فإن قيل فقد قال تعالى { **وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا** } النحل 106 قيل وهذا موافق لأولها فانه من كفر من غير إكراه فقد شرح بالكفر صدرا والا ناقض أول الآية آخرها ولو كان المراد بمن كفر هو الشارح صدره وذلك يكون بلا إكراه لم يستثن المكره فقط بل كان يجب أن يستثنى المكره وغير المكره إذا لم يشرح صدره وإذا تكلم بكلمة الكفر طوعا فقد شرح بها صدرا وهي كفر وقد دل على ذلك قوله تعالى { **يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ** } أن تَنْزَلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهِزُّوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ {64} وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ {65} لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِنْ نَعْفُ عَن طَائِفَةٍ مِّنْكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ {66} التوبة 64-66 فقد أخبر أنهم كفروا بعد إيمانهم مع قولهم إنا تكلمنا بالكفر من غير اعتقاد له بل كنا نخوض ونلعب وبين أن الإستهزاء بآيات الله كفر ولا يكون هذا إلا ممن شرح صدره بهذا الكلام ولو كان الإيمان في قلبه منعه أن يتكلم بهذا الكلام والقرآن يبين أن إيمان القلب يستلزم العمل الظاهر بحسبه كقوله تعالى { **وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِّنْهُمْ مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ** } {47} وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ مُّعْرِضُونَ {48} وَإِنْ يَكُنْ لَهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ {49} النور 47-49 الى قوله { **إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ** } {51} النور 51 ففي الإيمان عن تولى عن طاعة الرسول وأخبر أن المؤمنين إذا دعوا الى الله ورسوله ليحكم بينهم سمعوا وأطاعوا فبين أن هذا من لوازم الإيمان¹

¹مجموع الفتاوى ج: 7 ص: 217-221

ذم الله في كتابه من يرتد ويفتن ولو اكره

قال تعالى { إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ } {104} إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ } {105} مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ } {106} ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ } {107} أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمِعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْعَافِلُونَ } {108} لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ

الْخَاسِرُونَ } {109} النحل 106-109 وقد اودى النبي صلى الله عليه وسلم وابو بكر وعمر

وغيرهما بأنواع من الأذى بالضرب وغيره وصبروا على ذلك ولم ينطق احد منهم بكلمة كفر بل قد سعوا في قتل النبي صلى الله عليه وسلم بأنواع مما قدروا عليه من السعي وهو صابر لأمر الله كما امره الله تعالى وان كان النبي صلى الله عليه وسلم قد اخبر في اثناء الامر بان الله يعصمه من الناس فلم يكن قد اخبر اولا بانه يعصم من انواع الأذى واما السابقون فلم يخبروا بذلك وكذلك خبيب بن عدي الذي صلبه المشركون حين اخرجوه من الحرم ولم يتكلم بكلمة الكفر وقصته في الصحيح لكن قد يقال ان هذا لم يكن قصدهم منه ان يعود الى دينهم فإنه كان من الانصار وكانوا يقتلونه بمن قتل منهم يوم بدر بخلاف اقاربهم وحلفائهم ومواليهم فإنهم كانوا يحبونهم ويكرمونهم ولم يكونوا يريدون منهم الا الكفر بعد الايمان وقد ذم الله في كتابه من يرتد ويفتن ولو اكره وهذا هو الذي ذمه الله

بقوله { وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ } النحل 106 وقال لما ذكر الردة التي استثنى منها المكره وقلبه مطمئن بالايمان { وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ } {106} ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ } {107} أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمِعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ

الْعَافِلُونَ } {108} لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْخَاسِرُونَ } {109} النحل 106-109 ثم قال { ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ } النحل 110 نزلت في الذين فتنهم المشركون حتى اصابوهم ثم هاجروا بعد ذلك وجاهدوا وصبروا فأخبر الله انه غفر لهم ورحمهم فعلم ان تلك الفتنة كانت من ذنوبهم وذلك اما لعدم الاكراه التام المبيح للنطق بكلمة الكفر واما لعدم الطمأنينة بالايمان فلا يستحق صاحبه الوعيد وعلى من اكره على الخروج في العساكر الظالمة مثل ان يكره المستضعفون من المؤمنين على الخروج مع الكافرين لقتال المؤمنين كما اخرج المشركون عام بدر معهم طائفة من المستضعفين فهؤلاء اذا امكنهم ترك الخروج بالهجرة او غيرها والا فهم مفتونون وفيهم نزل قوله تعالى { إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا } النساء 97 لأنهم فعلوا المحرم مع القدرة على تركه¹

¹ الاستقامة ج: 2 ص: 338-340

يوصف الله بما وصف به نفسه وبما وصفه به رسوله

قال تعالى { إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ } {104} إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ } {105} مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ } {106} ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ } {107} أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمِعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ } {108} لَا جَرَمَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمْ

الخاسرون } {109} النحل 106-109 فان الله تعالى سمي نفسه بأسماء ووصف نفسه بصفات سمي نفسه حيا عليما حكيما قديرا سميعا بصيرا غفورا رحيفا الى سائر أسمائه الحسنى قال الله تعالى { فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ } النحل 106 وامثال ذلك فالقول فى بعض هذه الصفات كالقول فى بعض مذهب سلف الأمة وأئمتها ان يوصف الله بما وصف به نفسه وبما وصفه به رسوله من غير تحريف ولا تعطيل ولا تكليف ولا تمثيل فلا يجوز نفى صفات الله تعالى التى وصف بها نفسه ولا يجوز تمثيلها بصفات المخلوقين بل هو سبحانه { لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ } الشورى 11 ليس كمثل شئ لا فى ذاته ولا فى صفاته ولا فى أفعاله وقال نعيم بن حماد الخزاعى من شبه الله بخلقه فقد كفر ومن جحد ما وصف الله به نفسه فقد كفر وليس ما وصف الله به نفسه ورسوله تشبيها ومذهب السلف بين مذهبين وهدى بين ضلالتين اثبات الصفات ونفى مماثلة المخلوقات ففوله تعالى { لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ } الشورى 11 رد على أهل التشبيه والتمثيل وقوله { وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ } الشورى 11 رد على أهل النفى والتعطيل فالممثل اعشى والمعطل أعمى الممثل يعبد صنما والمعطل يعبد عدما وقد اتفق جميع أهل الاثبات على ان الله حى حقيقة عليم حقيقة قدير حقيقة سميع حقيقة بصير حقيقة مريد حقيقة متكلم حقيقة حتى المعتزلة النفاة للصفات قالوا ان الله متكلم حقيقة كما قالوا مع سائر المسلمين ان الله عليم حقيقة قدير حقيقة بل ذهب طائفة منهم كأبى العباس الناشى الى أن هذه الاسماء حقيقة لله مجاز للخلق واما جمهور المعتزلة مع المتكلمة الصفاتية من الاشعرية الكلابية والكرامية والسالمية واتباع الاثمة الاربعة من الحنفية والمالكية والشافعية والحنبلية وأهل الحديث والصوفية فانهم يقولون ان هذه الاسماء حقيقة للخالق سبحانه وتعالى وان كانت تطلق على خلقه حقيقة أيضا ويقولون ان له علما حقيقة وقدرة حقيقة وسمعا حقيقة وبصرا حقيقة¹

الله سبحانه خالق كل شئ وربّه ومليكه وقد خلق الأشياء بأسباب

قال تعالى { إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ } {104} إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ } {105} مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ } {106} ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ } {107} أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمِعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ } {108} لَا جَرَمَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمْ

¹مجموع الفتاوى ج: 5 ص: 197

الْحَاسِرُونَ {109} النحل 106-109 إن كل ما فى الوجود فهو مخلوق له خلقه بمشيئته و قدرته و ما شاء كان و مالم يشأ لم يكن و هو الذي يعطى و يمنع و يخفض و يرفع و يعز و يذل و يغني و يفقر و يضل و يهدى و يسعد و يشقى و يولى الملك من يشاء و ينزعه ممن يشاء و يشرح صدر من يشاء للإسلام و يجعل صدر من يشاء ضيقاً كأنما يصعد فى السماء و هو يقرب القلوب ما من قلب من قلوب العباد إلا و هو بين إصبعين من أصابع الرحمن إن شاء أن يقيمه أقامه و إن شاء أن يزيغه أزاعه و هو الذى حبب إلى المؤمنين الإيمان و زينه فى قلوبهم و كره إليهم الكفر و الفسوق و العصيان أولئك هم الراشدون و هو الذى جعل المسلم مسلماً و المصلي مصلياً قال الخليل { رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمِينَ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ } البقرة 128 و قال { رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي } إبراهيم 40 و قال تعالى { وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أُمَّةً يَهْتَدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا } السجدة 24 و قال عن آل فرعون { وَجَعَلْنَاهُمْ أُمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ } القصص 41 و قال تعالى { إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً } {19} إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً {20} وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً {21} المعارج 19-21 و قال { وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا } هود 37 و قال { وَيَصْنَعِ الْفُلْكَ } هود 38 و الفلك مصنوعة لبني آدم و قد أخبر الله تبارك و تعالى أنه خلقها بقوله { وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ } يس 42 و قال { وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَابِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاتًا وَمَتَاعاً إِلَى حِينٍ } النحل 80 الآيات و هذه كلها مصنوعة لبني آدم و قال تعالى { اتَّعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ } {95} وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ {96} الصافات 95-96 فما بمعنى الذي و من جعلها مصدرية فقد غلط لكن إذا خلق المنحوت كما خلق المصنوع و الملبوس و المبنى دل على أنه خالق كل صانع و صنعته و قال تعالى { مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُّرْشِدًا } الكهف 17 و قال { فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا } الأنعام 125 و هو سبحانه خالق كل شيء و ربه و مليكه و له فيما خلقه حكمة بالغة و نعمة سابغة و رحمة عامة و خاصة و هو لا يسأل عما يفعل و هم يسألون لا لمجرد قدرته و قهره بل لكمال علمه و قدرته و رحمته و حكمته فإنه سبحانه و تعالى أحكم الحاكمين و أرحم الراحمين و هو أرحم بعباده من الوالدة بولدها و قد أحسن كل شيء خلقه و قال تعالى { وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرًّا السَّحَابِ صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي أَنْفَقَ كُلَّ شَيْءٍ } النمل 88 و قد خلق الأشياء بأسباب كما قال تعالى { وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا } البقرة 164 و قال { فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ } الأعراف 57 و قال تعالى { يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ } المائدة 16¹

يدخل مقصود المسموع وفائدته فى مسماه نفيا وإثباتا

قال تعالى { إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ } {104} إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ } {105} مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ

¹مجموع الفتاوى ج: 8 ص: 80-78

مُطْمَئِنِّ بِالْإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكَفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ {106} ذَلِكَ
بِأَنَّهُمْ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ {107} أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ
عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمِعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ {108} لَا جَرَمَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمْ

الْخَاسِرُونَ {109} النحل 106-109 فان البصر يرى غير مباشرة المرئي والذوق والشم واللمس
لا يحصل له الاحساس إلا بمباشرة المحسوس والسمع وإن كان يحس الأصوات فالمقصود الأعظم به
معرفة الكلام وما يخبر به المخبرون من العلم وهذا سبب تفضيل طائفة من الناس لالسمع على
البصر كما ذهب إليه ابن قتيبية وغيره وقال الأكثرون البصر أفضل من السمع والتحقيق أن إدراك
البصر أكمل كما قاله الأكثرون كما قال النبي صلى الله عليه وسلم ليس المخبر كالمعاين لكن السمع
يحصل به من العلم لنا أكثر مما يحصل بالبصر أقوى وأكمل والسمع أعم وأشمل
وهاتان الحاستان هما الأصل في العلم بالمعلومات التي يمتاز بها الانسان عن البهائم استطراد
ولهذا يقرن الله بينهما الفؤاد في مواضع كقوله تعالى { إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ
كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا } الإسراء 36 وقال تعالى { خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ
غِشَاوَةً وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ } البقرة 7¹

أن المسمع وإن كان أصله نفس السمع الذي يشبه الإدراك لكن اذا كان المسموع طلبا ففائدته
وموجبه الاستجابة والقبول واذا كان المسموع خبرا ففائدته التصديق والاعتقاد فصار يدخل مقصوده
وفائدته في مسماه نفيًا وإثباتًا فيقال فلان يسمع لفلان أى يطيعه فى أمره أو يصدقه فى خبره وفلان لا
يسمع ما يقال له أى لا يصدق الخبر ولا يطيع الأمر كما بين الله السمع عن الكفار فى غير موضع
كقوله { وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً } البقرة 171 وقوله { وَلَا
يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ } الأنبياء 45 وذلك لأن سمع الحق يوجب قبوله ايجاب الاحساس الحركة
وايجاب علم القلب حركة القلب فان الشعور بالملائم يوجب الحركة اليه والشعور بالمنافر يوجب
النفرة عنه فحيث انتفى موجب ذلك دل على إنتفاء مبدئه ولهذا قال تعالى { إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ
يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ } الأنعام 36 ولهذا جعل سمع الكفار بمنزلة سمع البهائم لأصوات
الرعاة أى يسمعون مجرد الأصوات سمع الحيوان لا يسمعون ما فيها من تأليف الحروف المتضمنة
للمعانى السمع الذى لا بد أن يكون بالقلب مع الجسم²

قبول توبة من كفر بعد اسلامه وانهم لا يعذبون فى الدنيا ولا فى الآخرة

قال تعالى { إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ } {104} إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ
الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ {105} مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيْمَانِهِ إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ
مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكَفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ {106} ذَلِكَ

¹الرد على المنطقيين ج: 1 ص: 97

²مجموع الفتاوى ج: 28 ص: 194-195

بأنهم استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة وأن الله لا يهدي القوم الكافرين {107} أولئك الذين طبع الله على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم وأولئك هم الغافلون {108} لا جرم أنهم في الآخرة هم الخاسرون {109} النحل 106-109

والذي عليه عامة اهل العلم من الصحابة والتابعين انه تقبل توبة المرتد في الجملة وروي عن الحسن البصري انه يقتل وان اسلم جعله كالزاني والسارق وذكر عن اهل الظاهر نحو ذلك ان توبته تنفعه عند الله ولكن لا تدرأ القتل عنه وروي عن احمد ان من ولد في الاسلام قتل ومن كان مشركا فاسلم استتيب وكذلك روي عن عطاء وهو قول اسحاق بن راهوية والمشهور عن عطاء واحمد الاستتابة مطلقا وهو الصواب ووجه عدم قبول التوبة قوله من بدل دينه فاقتلوه رواه البخاري ولم يستثن ما اذا تاب وقال لا يحل دم امرئ مسلم يشهد ان لا اله الا الله واني رسول الله الا باحدى ثلاث النيب الزاني والنفس بالنفس والتارك لدينه المفارق للجماعة متفق عليه فاذا كان القاتل والزاني لا يسقط عنهما القتل بالتوبة فكذلك التارك لدينه المفارق للجماعة وعن حكيم بن معاوية عن ابيه ان رسول الله قال لا يقبل الله توبة عبد كفر بعد اسلامه رواه الامام احمد ولانه لا يقتل لمجرد الكفر والمحاربة لانه لو كان كذلك لما قتل المترهب والشيخ الكبير الاعمى والمقعد والمرأة ونحوهم فلما قتل هؤلاء علم ان الردة حد من الحدود والحدود لا تسقط بالتوبة والصواب ما عليه الجماعة لان الله سبحانه وتعالى قال في كتابه {كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ} آل عمران 86 الى قوله تعالى {إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِن بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ} آل عمران 89 فاخبر الله انه غفور رحيم لمن تاب بعد الردة وذلك يقتضى مغفرته له في الدنيا والآخرة ومن هذه حاله لم يعاقب بالقتل يبين ذلك ما رواه احمد قال حدثنا علي بن عاصم عن داود بن ابي هند عن عكرمة عن ابن عباس ان رجلا من الانصار ارتد عن الاسلام ولحق بالمشركين فانزل الله تعالى {كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ} آل عمران 86 الى اخر الاية فبعث بها قومه اليه فرجع تائباً فقبل

النبي ذلك منه وخلي عنه ورواه النسائي من حديث داود مثله وقال الامام احمد حدثنا علي بن خالد عن عكرمة بمعناه وقال والله ما كذبتني قومي على رسول الله ولا كذب رسول الله على الله والله اصدق الثلاثة فرجع تائباً فقبل رسول الله ذلك منه وخلي عنه وقد حدثنا حجاج عن ابن جريح حدثت عن عكرمة مولى ابن عباس في قول الله تعالى {كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ} آل عمران 86 في ابي عامر بن النعمان ووحوح بن الاسلت والحارث بن سويد بن الصامت في اثني عشر رجلا رجعوا عن الاسلام ولحقوا بقريش ثم كتبوا الى اهليهم هل لنا من توبة فنزلت {إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِن بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ} آل عمران 89 في الحارث بن سويد بن الصامت وقال حدثنا عبد الرزاق اخبرنا جعفر عن حميد عن مجاهد قال جاء الحارث بن سويد فأسلم مع النبي ثم كفر الحارث فرجع الى قومه فأنزل الله فيه القران {كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ} آل عمران 86 الى قوله {غَفُورٌ رَّحِيمٌ} آل عمران 89 قال فحملها اليه رجل من قومه فقراها عليه فقال الحارث والله انك ما علمت لصادق وان رسول الله لاصدق منك وان الله لاصدق الثلاثة قال فرجع الحارث فأسلم فحسن اسلامه وكذلك ذكر غير واحد من اهل العلم انها نزلت في الحارث بن سويد وجماعة معه ارتدوا عن الاسلام وخرجوا من المدينة كهيئة البدأ ولحقوا بمكة كفارا فأنزل الله فيهم هذه الاية فندم الحارث وارسل الى قومه ان سلوا رسول الله هل لي توبة ففعلوا ذلك فأنزل الله تعالى {إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِن بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ} آل عمران 89 فحملها اليه رجل من قومه فقراها عليه فقال الحارث انك والله ما علمت لصادق وان رسول الله لاصدق منك وان الله عز وجل لاصدق الثلاثة فرجع الحارث الى المدينة

واسلم وحسن اسلامه فهذا رجل قد ارتد ولم يقتله النبي بعد عوده الى الاسلام ولان الله سبحانه قال في اخباره عن المنافقين { اَبَاللّٰهِ وَاٰيٰتِهٖ وَرَسُوْلِهٖ كُنْتُمْ تُسْتَهْزِئُوْنَ } {65} لَا تَعْتَدِرُوْا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ اِيْمَانِكُمْ اِنْ نَّعَفُ عَن طٰٓئِفَةٍ مِّنْكُمْ نُعَذِّبْ طٰٓئِفَةً } {66} {التوبة 65-66} فدل على ان الكافر بعد ايمانه قد يعفى عنه وقد يعذب وانما يعفى عنه اذا تاب فعلم ان توبته مقبولة وذكر اهل التفسير انهم كانوا جماعة وان الذي تاب منهم رجل واحد يقال له مخشي بن حمير وقال بعضهم كان قد انكر عليهم بعض ما سمع ولم يمالئهم عليه وجعل يسير مجانباً لهم فلما نزلت هذه الايات بريء من نفاقه وقال اللهم اني لا ازال اسمع اية تقرر عيني بها تقشعر منها الجلود وتجب منها القلوب اللهم فاجعل وفاتي قتلاً في سبيلك وذكروا القصة وفي الاستدلال بهذا نظر ولان الله تعالى قال { يَا اَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكٰفِرَ وَالْمُنٰفِقِيْنَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ } {التوبة 73} الى قوله { يَحْلِفُوْنَ بِاللّٰهِ مَا قَالُوْا وَاَقْدَّ قَالُوْا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوْا بَعْدَ اِسْلَامِهِمْ وَهُمْ اُوْا بِمَا لَمْ يَنْۢبَأُوْا وَمَا نَعْمُوْا اِلَّا اَنْ اَغْنَاهُمْ اللّٰهُ وَرَسُوْلُهٗ مِنْ فَضْلِهٖ فَاِنْ يَتُوْبُوْا يَكُ خَيْرًا لّٰهُمْ وَاِنْ يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبُهُمُ اللّٰهُ عَذَابًا اَلِيْمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الْاَرْضِ مِنْ وٰلِيٍّ وَّلَا نَصِيْرٍ } {التوبة 74} وذلك دليل على قبول توبة من كفر بعد اسلامه وانهم لا يعذبون في الدنيا ولا في الآخرة عذاباً اليماً بمفهوم الشرط ومن جهة التعليل ولسياق الكلام والقتل عذاب اليم فعلم ان من تاب منهم لم يعذب بالقتل لان الله سبحانه قال { مَنْ كَفَرَ بِاللّٰهِ مِنْۢ بَعْدِ اِيْمَانِهٖ اِلَّا مَنْ اُكْرِهَ وَقَلْبُهٗ مُطْمَئِنٌّ بِالْاِيْمَانِ وَلٰكِنْ مَّنۢ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْنٰمْ غَضَبٌ مِّنَ اللّٰهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيْمٌ } {106} { ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَأَنَّ اللّٰهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ } {107} { أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمِعَتْهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ } {108} { لَا جَرَمَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمْ الْخٰسِرُونَ } {109} { ثُمَّ اِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِيْنَ هٰجَرُوْا مِنْۢ بَعْدِ مَا فَتَنَّاوْا ثُمَّ جٰهَدُوْا وَصَبَرُوْا اِنَّ رَبَّكَ مِنْۢ بَعْدِهَا لَعَفُوْرٌ رَّحِيْمٌ } {النحل 106-110} فتبين ان الذين هاجروا الى دار الاسلام بعد ان فتنوا عن دينهم بالكفر بعد الاسلام وجاهدوا وصبروا فان الله يغفر لهم ويرحمهم ومن غفر له ذنبه مطلقاً لم يعاقبه عليه في الدنيا ولا في الآخرة وقال سفيان بن عيينه عن عمرو بن دينار عن عكرمه خرج ناس من المسلمين يعني مهاجرين فأدرتهم المشركون ففتنهم فاعطوهم الفتنة فنزلت فيهم { وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللّٰهِ فَاِذَا اُوْدِيَ فِي اللّٰهِ جَعَلَ فِتْنَةً لِلنَّاسِ كَعَذَابِ اللّٰهِ } {العنكبوت 10} ونزل فيهم { مَنْ كَفَرَ بِاللّٰهِ مِنْۢ بَعْدِ اِيْمَانِهٖ } {النحل 106} الآية ثم انهم خرجوا مرة اخرى فانقلبوا حتى اتوا المدينة فانزل الله فيهم { ثُمَّ اِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِيْنَ هٰجَرُوْا مِنْۢ بَعْدِ مَا فَتَنَّاوْا ثُمَّ جٰهَدُوْا وَصَبَرُوْا اِنَّ رَبَّكَ مِنْۢ بَعْدِهَا لَعَفُوْرٌ رَّحِيْمٌ } {النحل 110} الى اخر الآية ولأنه سبحانه قال { وَمَنْ يَّرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَن دِيْنِهٖ فَيَمُتْ وَهُوَ كٰفِرٌ } {البقرة 217} فعلم ان من لم يمت وهو كافر من المرتدين لا يكون خالداً في النار وذلك دليل على قبول التوبة وصحة الاسلام فلا يكون تاركاً لدينه فلا يقتل ولعموم قوله تعالى { فَاِذَا اَنْسَلَخَ الْاَشْهُرُ الْحُرْمُ فَاقْتُلُوْا الْمُشْرِكِيْنَ } {التوبة 5} الى قوله { فَاِنْ تَابُوْا وَاَقَامُوا الصَّلٰةَ وَآتَوْا الزَّكٰةَ فَخَلُّوْا سَبِيْلَهُمْ } {التوبة 5} فان هذا الخطاب عام في قتال كل مشرك وتخليه سبيله اذا تاب من شركه واقام الصلاة واتي الزكاة سواء كان مشركاً اصلياً او مشركاً مرتداً وايضا فان عبد الله بن سعد بن ابي سرح كان قد ارتد على عهد النبي ولحق بمكة وافترى على الله ورسوله ثم انه بعد ذلك بايعه النبي وحقق دمه وكذلك الحارث بن سويد اخو الجلاس بن سويد وكذلك جماعة من اهل مكة اسلموا ثم ارتدوا ثم عادوا الى الاسلام فحقت دماؤهم وقصص هؤلاء وغيرهم مشهورة عند اهل العلم بالحديث والسيرة وايضا فالاجماع من الصحابة رضي الله عنهم ظاهر على ذلك فان النبي لما توفى ارتد اكثر العرب الا اهل مكة والمدينة والطائف واتبع قوم منهم من تنبأ فيهم مثل مسيلمة والعنسي وطلحة الاسدي فقاتلهم الصديق وسائر الصحابة رضي الله عنهم حتى رجع اكثرهم الى الاسلام فأقروهم على ذلك ولم يقتلوا واحداً ممن رجع الى الاسلام ومن رؤوس من كان قد ارتد ورجع طلحة الاسدي المنتنبي

والاشعث بن قيس وخلق كثير لا يحصون والعلم بذلك ظاهر لاخفاء به على احد وهذه الرواية عن الحسن فيها نظر فان مثل هذا لا يخفى عليه ولعله اراد نوعا من الردة كظهور الزندقة ونحوها او قال ذلك في المرتد الذي ولد مسلما ونحو ذلك مما قد شاع فيه الخلاف وأما قوله من بدل دينه فاقتلوه فنقول بموجبه فانما يكون مبدلا اذا دام على ذلك واستمر عليه فاما اذا رجع الى الدين الحق فليس بمبدل وكذلك اذا رجع الى المسلمين فليس بتارك لدينه مفارق للجماعة بل هو متمسك لدينه ملازم للجماعة وهذا بخلاف القتل والزنى فانه فعل صدر عنه لا يمكن دوامه عليه بحيث اذا تركه يقال انه ليس بزان ولا سارق ولا قاتل فمتى وجد منه ترتب حده عليه وان عزم على ان لا يعود اليه لان العزم على ترك العود لا يقطع مفسدة ما مضى من الفعل على ان قوله التارك لدينه المفارق للجماعة قد يفسر بالمحارب قاطع الطريق كذلك رواه ابو داود في سننه مفسرا عن عائشة رضي الله عنها قالت قال رسول الله لا يحل دم امرئ مسلم يشهد ان لا اله الا الله وان محمدا رسول الله الا باحدى ثلاث رجل زنى بعد إحسان فانه يرحم ورجل خرج محاربا لله ورسوله فانه يقتل او يصلب او ينفى من الارض أو يقتل نفسا فيقتل بها فهذا المستثنى هنا هو المذكور في قوله التارك لدينه المفارق للجماعة ولهذا وصفه بفراق الجماعة وانما يكون هذا بالمحاربة يؤيد ذلك ان الحديثين تضمننا انه لا يحل دم من يشهد ان لا اله الا الله و أن محمدا رسول الله والمراد لم يدخل في هذا العموم فلا حاجة الى استثنائه وعلى هذا فيكون ترك دينه عبارة عن خروجه عن موجب الدين ويفرق بين ترك الدين وتبديله او يكون المراد به من ارتد وحارب كالعربيين ومقيس بن صبابة ممن ارتد وقتل واخذ المال فان هذا يقتل بكل حال وان تاب بعد القدرة عليه ولهذا والله اعلم استثنى هؤلاء الثلاثة الذين يقتلون بكل حال وان اظهروا التوبة بعد القدرة ولو كان اريد المرتد المجرد لما احتيج الى قوله المفارق للجماعة فان مجرد الخروج عن الدين يوجب القتل وان لم يفارق جماعة الناس فهذا وجه يحتمله الحديث وهو والله اعلم مقصود هذا الحديث وأما قوله لا يقبل الله توبة عبد اشرك بعد اسلامه فقد رواه ابن ماجه من هذا الوجه ولفظه لا يقبل الله من مشرك اشرك بعد اسلامه عملا حتى يفارق المشركين الى المسلمين وهذا دليل على قبول اسلامه اذا رجع الى المسلمين وبيان ان معنى الحديث ان توبته لا تقبل ما دام مقيما بين ظهراني المشركين كثيرا لسوادهم كحال اللذين قتلوا ببدر ومعناه ان من اظهر الاسلام ثم فتن عن دينه حتى ارتد فانه لا تقبل توبته وعمله حتى يهاجر الى المسلمين وفي مثل هؤلاء نزل قوله تعالى { إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا } النساء 97 وايضا فان ترك الدين وتبديله وفراق الجماعة يدوم ويستمر لانه تابع للاعتقاد والاعتقاد دائم فمتى قطعه وتركه عاد كما كان ولم يبق لما مضى حكم اصلا ولا فيه فساد ولا يجوز ان يطلق عليه القول بانه مبدل للدين ولا انه تارك لدينه كما يطلق على الزاني والقاتل بان هذا زان وقاتل فان الكافر بعد اسلامه لا يجوز ان يسمى كافرا عند الاطلاق ولان تبديل الدين وتركه في كونه موجبا للقتل بمنزلة الكفر الاصلي والحراب في كونهما كذلك فاذا كان زوال الكفر بالاسلام او زوال المحاربة بالعهد يقطع حكم الكفر فكذلك اذا زال تبديل الدين وتركه بالعود الى الدين واخذه انقطع حكم ذلك التبديل والتارك¹

¹ الصارم المسلول ج: 3 ص: 579-611

الردة على قسمين ردة مجردة وردة مغلظة

فان الردة على قسمين ردة مجردة وردة مغلظة شرع القتل على خصوصها وكلاهما قد قام الدليل على وجوب قتل صاحبها والادلة الدالة على سقوط القتل بالتوبة لا تعم القسمين بل انما تدل على القسم الاول كما يظهر لمن ذلك تامل الادلة على قبول توبة المرتد فيبقى القسم الثاني وقد قام الدليل على وجوب قتل صاحبه ولم يات نص ولا اجماع بسقوط القتل عنه والقياس متعذر مع وجود الفرق الجلي فانقطع اللاحق والذي يحقق هذه الطريقة انه لم يات في كتاب ولا سنة ولا اجماع ان كل من ارتد باي قول او اي فعل كان فانه يسقط عنه القتل اذا تاب بعد القدرة عليه بل الكتاب والسنة والاجماع قد فرق بين انواع المرتدين كما سنذكره وانما بعض الناس يجعل برأيه الردة جنسا واحدا على تباين انواعه ويقيس بعضها ببعض فاذا لم يكن معه عموم نطقي يعم انواع المرتدين لم يبق الا القياس وهو فاسد اذا فارق الفرع الاصل بوصف له تأثير في الحكم وقد دل على تأثيره نص الشارع وتنبهه والمناسبة المشتملة على المصلحة المعنوية وتقرير هذا من ثلاثة اوجه احدها ان دلائل قبول توبة المرتد مثل قوله تعالى {كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ} آل عمران 86 الى قوله {إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا} آل عمران 89 وقوله تعالى {مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ} النحل 106 ونحوها ليس فيها الا توبة من كفر بعد الايمان فقط دون من انضم الى كفره مزيد اذى واضرار وكذلك سنة رسول الله انما فيها قبول توبة من جرد الردة فقط وكذلك سنة الخلفاء الراشدين انما تضمنت قبول توبة من جرد الردة وحارب بعد ارتداده كمحاربة الكافر الاصلي على كفره فمن عزم ان في الاصول ما يعم توبة كل مرتد سواء جرد الردة او غلظها باي شئ كان فقد ابطل وحينئذ فقد قامت الادلة على وجوب قتل الساب وانه مرتد ولم تدل الاصول على ان مثله يسقط عنه القتل فيجب قتله بالدليل السالم عن المعارض¹

الاعتبار بكمال النهاية لا بنقص البداية

قال الله تعالى {ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ} النحل 110 وما يظنه بعض الناس انه من ولد على الاسلام فلم يكفر قط افضل ممن كان كافرا فأسلم ليس بصواب بل الاعتبار بالعاقبة وايهما كان اتقى لله في عاقبته كان افضل فانه من المعلوم ان السابقين الاولين من المهاجرين والأنصار الذين آمنوا بالله ورسوله بعد كفرهم هم افضل ممن ولد على الاسلام من اولادهم وغير اولادهم بل من عرف الشر وذاقه ثم عرف الخير وذاقه فقد تكون معرفته بالخير ومحبته له ومعرفته بالشر وبغضه له اكمل ممن لم يعرف الخير والشر ويزقهما كما ذاقهما بل من لم يعرف الا الخير فقد يأتيه الشر فلا يعرف انه شر فاما ان يقع فيه واما ان لا ينكره كما انكره الذي عرفه ولهذا قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه انما تنقض عرى الاسلام عروة عروة اذا نشأ في الاسلام من لم يعرف الجاهلية وهو كما قال عمر فان كمال الاسلام هو

¹ الصارم المسلول ج: 3 ص: 697

بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وتمام ذلك بالجهاد في سبيل الله ومن نشأ في المعروف لم يعرف غيره فقد لا يكون عنده من العلم بالمنكر وضرره ما عند من علمه ولا يكون عنده من الجهاد لاهله ما عند الخبير بهم ولهذا يوجد الخبير بالشر واسبابه اذا كان حسن القصد عنده من الاحتراز عنه ومنع اهله والجهاد لهم ما ليس عند غيره ولهذا كان الصحابة رضي الله عنهم اعظم ايماناً وجاهاداً ممن بعدهم لكمال معرفتهم بالخير والشر وكمال محبتهم للخير وبغضهم للشر لما علموه من حسن حال الاسلام والايمان والعمل الصالح وقبح حال الكفر والمعاصي ولهذا يوجد من ذاق الفقر والمرض والخوف احرص على الغني والصحة والامن ممن لم يذق ذلك ولهذا يقال والصد يظهر حسنه الضد ويقال وبضدها تتبين الاشياء وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول لست بخب ولا يخدعني الخب فالقلب السليم المحمود هو الذي يريد الخير لا الشر وكمال ذلك بان يعرف الخير والشر فاما من لا يعرف الشر فذاك نقص فيه لا يمدح به وليس المراد ان كل من ذاق طعم الكفر والمعاصي يكون اعلم بذلك واكره له ممن لم يذقه مطلقاً فان هذا ليس بمطرّد بل قد يكون الطبيب اعلم بالامراض من المرضى والانبياء عليهم الصلاة والسلام اطباء الاديان فهم اعلم الناس بما يصلح القلوب ويفسدها وان كان احدهم لم يذق من الشر ما ذاقه الناس ولكن المراد ان من الناس من يحصل له بذوقه الشر من المعرفة به والنفور عنه والمحبة للخير اذا ذاقه مالا يحصل لبعض الناس مثل من كان مشركاً او يهودياً او نصرانياً وقد عرف ما في الكفر من الشبهات والاقوال الفاسدة والظلمة والشر ثم شرح الله صدره للاسلام وعرفه محاسن الاسلام فانه قد يكون ارغب فيه واكره للكفر من بعض من لم يعرف حقيقة الكفر والاسلام بل هو معرض عن بعض حقيقة هذا وحقيقة هذا او مقلد في مدح هذا وذم هذا ومثال ذلك من ذاق طعم الجوع ثم ذاق طعم الشبع بعده او ذاق المرض ثم ذاق طعم العافية بعده او ذاق الخوف ثم ذاق الامن بعده فان محبة هذا ورعبته في العافية والامن والشبع ونفوره عن الجوع والخوف والمرض اعظم ممن لم يبتل بذلك ولم يعرف حقيقته وكذلك من دخل مع اهل البدع والفجور ثم بين الله له الحق وتاب عليه توبة نصوحاً ورزقه الجهاد في سبيل الله فقد يكون بيانه لحالهم وهجره لمساويهم وجهاده لهم اعظم من غيره قال نعيم بن حماد الخزاعي وكان شديداً على الجهمية انا شديد عليهم لاني كنت منهم وقد قال الله تعالى **{ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ}** النحل: 110 نزلت هذه الآية في طائفة من الصحابة كان المشركون فتنوهم عن دينهم ثم تاب الله عليهم فهاجروا الى الله ورسوله وجاهدوا وصبروا وكان عمر بن الخطاب وخالد بن الوليد رضي الله عنهما من اشد الناس على الاسلام فلما اسلما تقدما على من سبقهما الى الاسلام وكان بعض من سبقهما دونهما في الايمان والعمل الصالح بما كان عندهما من كمال الجهاد للكفار والنصر لله ورسوله وكان عمر لكونه اكمل ايماناً واخلاصاً وصدقاً ومعرفة وفراصة ونوراً ابعد عن هوى النفس واعلى همة في اقامة دين الله مقدماً على سائر المسلمين غير ابي بكر رضي الله عنهم اجمعين وهذا وغيره مما يبين ان الاعتبار بكمال النهاية لا بنقص البداية¹

الأرض لا تقدر احداً وإنما يقدر العبد عمله

¹ الفتاوى الكبرى ج: 2 ص: 361 و مجموع الفتاوى ج: 10 ص: 300-319

قال الله تعالى {ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَعَفُورٌ رَحِيمٌ} النحل 110 وفي السنن عن عثمان عن النبي أنه قال رباط يوم في سبيل الله خير من ألف فيما سواه من المنازل وقال أبو هريرة لأن أرباط ليلة في سبيل الله أحب إلى من أن أقوم ليلة القدر عند الحجر الأسود ولهذا كان أفضل الأرض في حق كل إنسان أرض يكون فيها أطوع لله ورسوله وهذا يختلف باختلاف الأحوال ولا تتعين أرض يكون مقام الإنسان فيها أفضل وإنما يكون الأفضل في حق كل إنسان بحسب التقوى والطاعة والخشوع والخضوع والحضور وقد كتب أبو الدرداء إلى سلمان هلم إلى الأرض المقدسة فكتب إليه سليمان أن الأرض لا تقدر أحدا وإنما يقدر العبد عمله وكان النبي قد آخى بين سلمان وأبي الدرداء وكان سلمان أفه من أبي الدرداء في أشياء من جملتها هذا وقد قال الله تعالى لموسى عليه السلام {سَارِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ} الأعراف 145 وهي الدار التي كان بها أولئك العمالقة ثم صارت بعد هذا دار المؤمنين وهي الدار التي دل عليها القرآن من الأرض المقدسة وأرض مصر التي أورها الله بنى إسرائيل فأحوال البلاد كأحوال العباد فيكون الرجل تارة مسلما وتارة كافرا وتارة مؤمنا وتارة منافقا وتارة برا تقيا وتارة فاسقا وتارة فاجرا شقيا وهكذا المساكن بحسب سكانها فهجرة الإنسان من مكان الكفر والمعاصي إلى مكان الإيمان والطاعة كتوبته وانتقاله من الكفر المعصية إلى الإيمان والطاعة وهذا أمر باق إلى يوم القيامة والله تعالى قال {وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدِ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَئِكَ مِنْكُمْ} الأنفال 75 قالت طائفة من السلف هذا يدخل فيه من آمن وهاجر وجاهد إلى يوم القيامة وهكذا قوله تعالى {لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَعَفُورٌ رَحِيمٌ} النحل 110 يدخل في معناها كل من فتنه الشيطان عن دينه أو أوقعه في معصية ثم هجر السيئات وجاهد نفسه وغيرها من العدو وجاهد المنافقين بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وغير ذلك وصبر على ما أصابه من قول أو فعل والله سبحانه وتعالى أعلم¹

الفتنة الردة والكفر

قال الله تعالى {ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَعَفُورٌ رَحِيمٌ} النحل 110 والفتنة الردة والكفر قال سبحانه {وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ} البقرة 193 وقال {وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ} البقرة 217 وقال {وَلَوْ دَخَلَتْ عَلَيْهِمْ مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سَأَلُوا الْفِتْنَةَ لَأَتَوْهَا} الأحزاب 14²

جميع المؤمنين يخاطبون بالجهاد ابتداء

¹مجموع الفتاوى ج: 18 ص: 284

²الصارم المسلول ج: 2 ص: 118

قال الله تعالى {ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ} النحل 110 قال تعالى {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ} الحجرات 15 يبين أن الجهاد واجب والجهاد وان كان فرضاً على الكفاية فجميع المؤمنين يخاطبون به ابتداءً فعليهم كلهم اعتقاد وجوبه والعزم على فعله اذا تعين ولهذا قال النبي من مات ولم يغز ولم يحدث نفسه بغزو مات على شعبة نفاق رواه مسلم فأخبر أنه من لم يهجم به كان على شعبة نفاق وايضا فالجهاد جنس تحته انواع متعددة ولا بد ان يجب على المؤمن نوع من انواعه

{ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ} {110} {يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا وَتُوْفَىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ} {111} النحل 110 (معنى الهجرة ومواضيع اكثر عن الفتنة والجهاد والصبر)¹

الظلم ممتنع من الله سبحانه وتعالى

قال تعالى {يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا وَتُوْفَىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ} النحل 111 والظلم ممتنع من الله سبحانه وتعالى باتفاق المسلمين وقيل الظلم وضع الشيء في غير موضعه فهو سبحانه لا يظلم الناس شيئاً قال تعالى {وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا} طه 112 قال المفسرون هو أن يحمل عليه سيئات غيره ويعاقب بغير ذنبه والهضم أن يهضم من حسناته²

لطائف لغوية

1- قال الله تعالى { وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْفُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ يُعَلِّمُ مَا تَعْمَلُونَ } 91 { وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَاثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ } 92 { وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَلَنْ تُسْأَلَ عَنْ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ } 93 { وَلَا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا السُّوَاءَ بِمَا صَدَدْتُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ } 94 { النحل 91-94 } قال أهل اللغة وهذا لفظ الجوهري اليمين القسم والجمع أيمن وأيمان فقال سمي بذلك لأنهم كانوا إذا تحالفوا يمسك كل إمريء منهم على يمين صاحبه³

¹مجموع الفتاوى ج: 7 ص: 16

²مجموع الفتاوى ج: 1 ص: 219

³مجموع الفتاوى ج: 35 ص: 342

ان اليمين يقال انما سميت بذلك لان المعاهدين يمد كل منهما يمينه الى الاخر ثم غلبت حتى صار مجرد الكلام بالعهد يسمى يميناً ويقال سميت يميناً لان اليمين هي القوة والشدة كما قال الله تعالى {لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ} الحاقه 45 فلما كان الحلف معقوداً مشدداً سمي يميناً فاسم اليمين جامع للعقد الذي بين العبد وبين ربه وان كان نذراً ومنه قول النبي النذر حلفه وقوله كفارة النذر كفارة اليمين وقول جماعة من الصحابة للذي نذر نذر اللجاج والغضب كفر يمينك وللعهد الذي بين المخلوقين ومنه قوله تعالى {وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا} النحل 91¹

2- قال تعالى {وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَلَنْ نُسْأَلَ عَنْ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ} النحل 93 عامة الأسماء يتنوع مسماها بالاطلاق والتقيد وكذلك لفظ الهدى اذا اطلق تناول العلم الذي بعث الله به رسوله والعمل به جميعاً فيدخل فيه كل ما أمر الله به كما في قوله {اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ} الفاتحة 6 والمراد طلب العلم بالحق والعمل به جميعاً وكذلك قوله {هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ} البقرة 2 والمراد به أنهم يعلمون ما فيه ويعملون به ولهذا صاروا مفلحين وكذلك قول أهل الجنة {الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا} الأعراف 43 وانما هداهم بأن ألهمهم العلم النافع والعمل الصالح ثم قد يقرن الهدى اما بالاجتناب كما في قوله {وَاجْتَنِبْنَا هُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ} الأنعام 87 وكما في قوله {شَاكِرًا لِّأَنْعَمِهِ اجْتِنَابًا وَهَدَاهُ} النحل 121 {اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ} الشورى 13 وكذلك قوله تعالى {هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ} التوبة 33 والهدى هنا هو الايمان ودين الحق هو الاسلام واذا اطلق الهدى كان كالايمان المطلق يدخل فيه هذا وهذا ولفظ الضلال اذا اطلق تناول من ضل عن الهدى سواء كان عمداً أو جهلاً ولزم أن يكون معذباً كقوله {إِنَّهُمْ أَلْفَاةٌ أَبَاءَهُمْ ضَالِّينَ} {69} فَهُمْ عَلَى آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ} {70} وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأُولِينَ} {71} الصافات 69- 71 وقوله {وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكِبْرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلًا} {67} رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنَاهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا} {68} الأحزاب 67- 68 وقوله {فَمَنْ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى} طه 123 ثم يقرن بالغي والغضب كما في قوله {مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى} النجم 2 وفي قوله {غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ} الفاتحة 7 وقوله {إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ} القمر 47²

3- قال تعالى {مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنَّىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} النحل 97 والضمير يعود تارة إلى لفظ من وتارة إلى معناها كقوله {وَمِنْهُمْ مَّنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ} الأنعام 25 {وَمِنْهُمْ مَّنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ} يونس 42 {وَمَنْ يَعْمَلْ مِ

¹ الصارم المسلول ج: 2 ص: 43

² مجموع الفتاوى ج: 7 ص: 166-167

الصَّالِحَاتِ مَن ذَكَرَ أَوْ أُنْتَى {النساء 124} مَن عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنْتَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ {النحل 97 الآية 1}

4- قال تعالى { فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ {98} إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ {99} إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ {100} وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَّكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ {101} قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ {102} النحل 98-102 }
القرآن هو في الأصل مصدر قرأ قرأنا ومنه قوله { إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ {17} فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ {18} ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ {19} القيامة 17-19 } ويسمى الكلام المقروء نفسه قرأنا وهو كثير كما في قوله { فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ {النحل 98} 2

5- قال تعالى { قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ {102} وَلَقَدْ نَعَلْنَا أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ {103} إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ {104} إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ {105} مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ {106} ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ {107} النحل 102-107 } عامة الأسماء يتنوع مسماها بالاطلاق والتقييد وكذلك لفظ الهدى إذا أطلق تناول العلم الذي بعث الله به رسوله والعمل به جميعا فيدخل فيه كل ما أمر الله به كما في قوله { اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ {الفاتحة 6} والمراد طلب العلم بالحق والعمل به جميعا وكذلك قوله { هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ {البقرة 2} والمراد به أنهم يعلمون ما فيه ويعملون به ولهذا صاروا مفلحين وكذلك قول أهل الجنة { الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا } الأعراف 43 وانما هداهم بأن ألهمهم العلم النافع والعمل الصالح ثم قد يقرن الهدى اما بالاجتناب كما في قوله { وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ {الأنعام 87} وكما في قوله { شَاكِرًا لِّأَنْعَمِهِ اجْتِنَابًا وَهَدَاهُ } النحل 121 }
الله يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ {الشورى 13} وكذلك قوله تعالى { هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ } التوبة 33 والهدى هنا هو الايمان ودين الحق هو الاسلام واذا أطلق الهدى كان كالايمن المطلق يدخل فيه هذا وهذا³

¹مجموع الفتاوى ج: 15 ص: 84

²مجموع الفتاوى ج: 13 ص: 11

³مجموع الفتاوى ج: 7 ص: 166

النحل 112-119

{ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ {112}

وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ {113} فَكَلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلالًا طَيِّبًا وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ إِن كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ {114} إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالْدَّمَ وَلَحْمَ الْخَنزِيرِ وَمَا أَهَلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ {115} وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِن الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ {116} مَتَاعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ {117} وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِنْ قَبْلٍ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ {118} ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ {119}

إن الله ذم الإنسان بكونه كفورا غير شكور

قال تعالى { وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ } النحل 112 فإن الله ذم الإنسان بكونه كفورا غير شكور إذ يقول { إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ } العاديات 6 وقد قال صالح عليه السلام لقومه { وَادْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمُ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمُ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْجُسُونَ الْجِبَالَ بَيْوتًا فَادْكُرُوا آيَاءَ اللَّهِ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ } الأعراف 74 وقال تعالى { أَلَمْ تَرَى إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَةَ اللَّهِ كُفْرًا } إبراهيم 28¹

ليس في القرآن لفظ الا مقرون بما يبين به المراد

قال تعالى { وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ } النحل 112 والقدر المشترك بين مسميات الأسماء المتواطئة أمر كلي عام لا يوجد كليا عاما الا في الذهن وهو مورد التقسيم بين الأنواع لكن ذلك المعنى العام الكلي كان أهل اللغة لا يحتاجون الى التعبير عنه لأنهم انما يحتاجون الى ما يوجد في الخارج والى ما يوجد في القلوب في العادة وما لا يكون في الخارج الا مضافا الى

¹قاعدة في المحبة ج: 1 ص: 159

غيره لا يوجد في الذهن مجردا بخلاف لفظ الانسان والفرس فانه لما كان يوجد في الخارج غير مضاف تعودت الأذهان تصور مسمى الانسان ومسمى الفرس بخلاف تصور مسمى الارادة ومسمى العلم ومسمى القدرة ومسمى الوجود المطلق العام فان هذا لا يوجد له في اللغة لفظ مطلق يدل عليه بل لا يوجد لفظ الارادة الا مقيدا بالمريد ولا لفظ العلم الا مقيدا بالعالم ولا لفظ القدرة الا مقيدا بالقادر بل وهكذا سائر الأعراض لما لم توجد الا في محالها مقيدة بها لم يكن لها في اللغة لفظ الا كذلك فلا يوجد في اللغة لفظ السواد والبياض والطول والقصر الا مقيدا بالأسود والأبيض والطويل والقصير ونحو ذلك لا مجردا عن كل قيد وانما يوجد مجردا في كلام المصنفين في اللغة لأنهم فهموا من كلام أهل اللغة ما يريدون به من القدر المشترك ومنه قوله تعالى **{ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ }** النحل 112 فان من الناس من يقول الذوق حقيقة في الذوق بالفم واللباس بما يلبس على البدن وانما استعير هذا وهذا وليس كذلك بل قال الخليل الذوق في لغة العرب هو وجود طعم الشيء والاستعمال يدل على ذلك قال تعالى **{ وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ }** السجدة 21 وقال **{ وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ }** فصلت 50 وقال **{ ذُوقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ }** الدخان 49 وقال **{ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا }** الطلاق 9 وقال **{ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ }** آل عمران 106¹

وكثيرا ما ياتي المدعى الى الفاظ لها معان معروفة فيدعي استعمالها في غير تلك المعاني بلا حجة ويقول هذا مجاز فهذا لا يقبل ومن قسم الكلام الى حقيقة ومجاز متفقون على ان الاصل في الكلام هو الحقيقة وهذا يراد به شيان يراد به انه اذا عرف معنى اللفظ وقيل هذا الاستعمال مجاز قيل بل الاصل الحقيقة واذا عرف ان اللفظ مدلولان حقيقي ومجازي فالاصل ان يحمل على معناه الحقيقي فيستدل تارة بالمعنى المعروف على دلالة اللفظ عليه وتارة باللفظ المعروف دلالاته على المعنى المدلول عليه فاذا قيل في قوله تعالى **{ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ }** النحل 112 ان أصل الذوق بالفم قيل ذلك ذوق الطعام فالذوق يكون للطعام ويكون لجنس العذاب كما قال **{ وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ }** السجدة 21 وقوله **{ ذُوقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ }** الدخان 49 وقوله **{ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ }** القمر 48 فقوله **{ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ }** القمر 48 صريح في ذوق مس العذاب لا يحتمل ذوق الطعام ثم الجوع والخوف اذا لبس البدن كان اعظم في الالم بخلاف القليل منه فاذا قال **{ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ }** النحل 112 فانه لم يكن يدل على لبسه لصحابه واحاطته به فهذه المعاني تدل عليها هذه الالفاظ دون ما اذا قيل جاءت وخافت فانه يدل على جنس لا على عظم كفيته وكميته فهذا من كمال البيان والجميع انما استعمل فيه اللفظ في معناه المعروف في اللغة فان قوله ذوق لباس الجوع والخوف ليس هو ذوق الطعام وذوق الجوع ليس هو ذوق لباس الجوع ولهذا كان تحرير هذا الباب هو علم البيان الذي يعرف به الانسان بعض قدر القرآن وليس في القرآن لفظ الا مقرون بما يبين به المراد ومن غلط في فهم القرآن فمن قصوره أو تقصيره²

¹مجموع الفتاوى ج: 7 ص: 108

²مجموع الفتاوى ج: 20 ص: 473

قال تعالى { وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ } النحل 112 ولفظ الذوق وإن كان قد يظن أنه في الأصل مختص بذوق اللسان فاستعماله في الكتاب والسنة يدل على أنه أعم من ذلك مستعمل في الإحساس بالملائم والمنافر كما أن لفظ الإحساس في عرف الاستعمال عام فيما يحس بالحواس الخمس بل وبالباطن وأما في اللغة فأصله الرؤيا كما قال { هَلْ تُحِسُّ مِنْهُمْ مِّنْ أَحَدٍ } مريم 98 والمقصود لفظ الذوق قال تعالى { فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ } النحل 112 فجعل الخوف والجوع مذوقا وأضاف إليهما اللباس ليشعر أنه لبس الجائع والخائف فشملة وأحاط به إحاطة اللباس باللباس بخلاف من كان الألم لا يستوعب مشاعره بل يختص ببعض المواضع وقال تعالى { فَذُوقُوا الْعَذَابَ } آل عمران 106 وقال تعالى { ذُوقْ إِنَّكَ مِنَ الْكَرِيمِ } الدخان 49 وقال تعالى { يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ } القمر 48 وقال { لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ } الدخان 56 وقال تعالى { لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا } { 24 } إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا { 25 } النبا 24- 25 وقال { وَلَنذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَىٰ دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ } السجدة 21 وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم ذاق طعم الإيمان من رضي ب الله ربا وبالإسلام دينا وبمحمد نبيا فاستعمل لفظ الذوق في إدراك الملائم والمنافر كثير وقال النبي صلى الله عليه وسلم ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان كما تقدم ذكر الحديث¹

وفى بعض الادعية أدقنا برد عفوك وحلاوة مغفرتك فلفظ الذوق يستعمل فى كل ما يحس به ويجد ألمه أو لذته فدعوى المدعى اختصاص لفظ الذوق بما يكون بالفم تحكم منه لكن ذاك مقيد فيقال ذقت الطعام وذقت هذا الشراب فيكون معه من القيود ما يدل على أنه ذوق بالفم وإذا كان الذوق مستعملا فيما يحسه الانسان بباطنه أو بظاهره حتى الماء الحميم يقال ذاقه فالشراب اذا كان باردا أو حارا يقال ذقت حره وبرده وأما لفظ اللباس فهو مستعمل فى كل ما يغشى الانسان ويلتبس به قال تعالى { وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاسًا } الفرقان 47 وقال { وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَلِكَ خَيْرٌ } الأعراف 26 وقال { هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ } البقرة 187 ومنه يقال لبس الحق بالباطل اذا خلطه به حتى غشيه فلم يتميز فالجوع الذى يشمل ألمه جميع الجائع نفسه وبدنه وكذلك الخوف الذى يلبس البدن فلو قيل فأذاقها الله الجوع والخوف لم يدل ذلك على أنه شامل لجميع أجزاء الجائع بخلاف ما اذا قيل لباس الجوع والخوف ولو قال فألبسهم لم يكن فيه ما يدل على أنهم ذاقوا ما يؤلمهم الا بالعقل من حيث أنه يعرف أن الجائع الخائف يألم بخلاف لفظ ذوق الجوع والخوف فان هذا اللفظ يدل على الاحساس بالمؤلم واذا أضيف الى الملذذ دل على الاحساس به كقوله صلى الله عليه وسلم ذاق طعم الإيمان من رضى بالله ربا وبالإسلام دينا وبمحمد نبيا فان قيل فلم لم يصف نعيم الجنة بالذوق قيل لأن الذوق يدل على جنس الاحساس ويقال ذاق الطعام لمن وجد طعمه وان لم يأكله وأهل الجنة نعيمهم كامل تام لا يقتصر فيه على الذوق بل استعمال لفظ الذوق فى

¹مجموع الفتاوى ج: 10 ص: 334 و الفتاوى الكبرى ج: 2 ص: 361

النفى كما قال عن أهل النار { لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا } {النبا} 24 أى لا يحصل لهم من ذلك ولا ذوق وقال عن أهل الجنة { لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَى } {الدخان} 156

ضرب الأمثال هو القياس العقلي الذي يهdy به الله من يشاء من عباده

قال تعالى { وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرِيبَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ } {النحل} 112 فالحق يظهر صحته بالمثل المضروب له والباطل يظهر فساده بالمثل المضروب له لأن الإنسان قد لا يعلم ما في نفس محبوبه أو مكروهه من حمد وذم إلا بمثل يضرب له فإن حبك الشيء يعمى ويصم والله سبحانه ضرب الأمثال للناس في كتابه لما في ذلك من البيان والإنسان لا يرى نفسه وأعماله إلا إذا مثلت له نفسه بأن يراها في مرآة وتمثل له أعماله بأعمال غيره ولهذا ضرب الملكان المثل لداود عليه السلام بقول أحدهما { إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعَجَةً وَلِي نَعَجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفُلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ } {23} قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعَجَتِكَ إِلَى نَعَاجِهِ {24} ص 23-24 الآية وضرب الأمثال مما يظهر به الحال وهو القياس العقلي الذي يهdy به الله من يشاء من عباده قال تعالى { وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ } {الزمر} 27 وقال تعالى { وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالَمُونَ } {العنكبوت} 43 وهذا من الميزان الذي أنزله الله كما قال تعالى { اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ } {الشورى} 17 وقال { لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ } {الحديد} 25²

كون الأرض دار كفر ودار إيمان ليست صفة لازمة لها بل هي صفة عارضة

قال تعالى { وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرِيبَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ } {النحل} 112 وهو سبحانه علق الوعد والوعيد والثواب والعقاب والحمد والذم بالإيمان به وتوحيده وطاعته فمن كان أكمل في ذلك كان أحق بتولى الله له بخير الدنيا والآخرة ثم جميع عباده مسلمهم وكافرهم هو الذى يرزقهم وهو الذى يدفع عنهم المكروه وهو الذى يقصدونه فى النوائب قال تعالى { وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِنَّهٗ تَجَارُونَ } {النحل} 53 وقال تعالى { قُلْ مَنْ يَكْلُوْكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَنِ } {الأنبياء} 42 أى بدلا عن الرحمن هذا اصح القولين كقوله تعالى { وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ مَلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُقُونَ } {الزخرف} 60 أى لجعلنا بدلا منكم كما قاله عامة المفسرين ومنه قول الشاعر فليت لنا من ماء زمزم شربة مبردة باتت على طهيان أى بدلا من ماء زمزم فلا يكلاً الخلق بالليل والنهار فيحفظهم ويدفع عنهم المكروه إلا الله قال تعالى { آمَنُ هَذَا الَّذِي هُوَ جُنْدٌ لَّكُمْ

¹مجموع الفتاوى ج: 7 ص: 110

²منهاج السنة النبوية ج: 2 ص: 347

يَنْصُرُكُمْ مِّنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إِنَّ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي غُرُورٍ {20} أَمَّنْ هَذَا الَّذِي يَرِزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ بَل لَّجُوا فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ {21} {الملك 20-21} ومن ظن أن أرضا معينة تدفع عن أهلها البلاء مطلقا لخصوصها أو لكونها فيها قبور الأنبياء والصالحين فهو غلط فأفضل البقاع مكة وقد عذب الله أهلها عذابا عظيما فقال تعالى {وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعَمِ اللَّهِ فَأَدَّاهَا اللَّهُ لِبَاسِ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ {112} وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ {113} النحل 112-113¹

وكون الأرض دار كفر ودار إيمان أو دار فاسقين ليست صفة لازمة لها بل هي صفة عارضة بحسب سكانها فكل أرض سكانها المؤمنون المتقون هي دار أولياء الله في ذلك الوقت وكل أرض سكانها الكفار فهي دار كفر في ذلك الوقت وكل أرض سكانها الفساق فهي دار فسوف في ذلك الوقت فإن سكنها غير ما ذكرنا وتبدلت بغيرهم فهي دارهم وكذلك المسجد إذا تبدل بخمارة أو صار دار فسق أو دار ظلم أو كنيسة يشرك فيها بالله كان بحسب سكانه وكذلك دار الخمر والفسوق ونحوها إذا جعلت مسجدا يعبد الله فيه جل وعز كان بحسب وكذلك الرجل الصالح يصير فاسقا والكافر يصير مؤمنا أو المؤمن يصير كافرا أو نحو ذلك كل بحسب انتقال الأحوال من حال إلى حال وقد قال تعالى {وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً {النحل 112} الآية نزلت في مكة لما كانت دار كفر وهي ما زالت في نفسها خير أرض الله وأحب أرض الله إليه وإنما أراد سكانها فقد روى الترمذي مرفوعا أنه قال لمكة وهو واقف بالحزورة والله إنك لخير أرض الله وأحب أرض الله إلى الله ولولا أن قومي أخرجوني منك لما خرجت وفي رواية خير أرض الله وأحب أرض الله إلى فبين أنها أحب أرض الله إلى الله ورسوله وكان مقامه بالمدينة ومقام من معه من المؤمنين أفضل من مقامهم بمكة لأجل أنها دار هجرتهم ولهذا كان الرباط بالثغور أفضل من مجاورة مكة والمدينة كما ثبت في الصحيح رباط يوم وليلة في سبيل الله خير من صيام شهر وقيامه ومن مات مرابطا مات مجاهدا وجرى عليه عمله وأجرى رزقه من الجنة وأمن الفتان وفي السنن عن عثمان عن النبي أنه قال رباط يوم في سبيل الله خير من ألف فيما سواه من المنازل وقال أبو هريرة لأن رباط ليلة في سبيل الله أحب إلى من أن أقوم ليلة القدر عند الحجر الأسود ولهذا كان أفضل الأرض في حق كل إنسان أرض يكون فيها أطوع لله ورسوله وهذا يختلف باختلاف الأحوال ولا تتعين أرض يكون مقام الإنسان فيها أفضل وإنما يكون الأفضل في حق كل إنسان بحسب التقوى والطاعة والخشوع والخضوع والحضور وقد كتب أبو الدرداء إلى سلمان هلم إلى الأرض المقدسة فكتب إليه سليمان أن الأرض لا تقدر أحدا وإنما يقدر العبد عمله وكان النبي قد أخى بين سلمان وأبي الدرداء وكان سلمان أفتح من أبي الدرداء في أشياء من جملتها هذا²

لفظ القرية يتناول المساكن والسكان

¹مجموع الفتاوى ج: 27 ص: 442

²مجموع الفتاوى ج: 18 ص: 282-283

قال تعالى { وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ } النحل 112 كثير في اللغة يكون أمران متلازمان إما دائماً وإما غالباً فيطلق الإسم عليهما ويغلب هذا تارة وهذا تارة وقد يقع على أحدهما مفردا كلفظ النهر و القرية و الميزاب ونحو ذلك مما فيه حال ومحل فالإسم يتناول مجرى الماء والماء الجاري وكذلك لفظ القرية يتناول المساكن والسكان ثم تقول حفر النهر فالمراد به المجرى و تقول جرى النهر فالمراد به الماء وتقول جرى الميزاب تعنى الماء ونصب الميزاب تعنى الخشب و قال تعالى { وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ } النحل 112 والمراد السكان فى المكان وقال تعالى { وَكَمْ مِّنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ } الأعراف 4 وقال فى آية أخرى { أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ } الأعراف 97 فجعل القرى هم السكان وقال { وَكَأَيِّنْ مِّنْ قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّنْ قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجْنَاكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ } محمد 13 وهم السكان وكذلك قوله تعالى { وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعَيْرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا } يوسف 82 و قال تعالى { وَتِلْكَ الْقُرَىٰ أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا } الكهف 59 و قال تعالى { وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ } هود 102 وقال تعالى { لَتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا } الشورى 7 وقال تعالى { فَكَأَيِّنْ مِّنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَبْنَورُ مَُعْطَلَةٌ وَقَصْرٌ مَّشِيدٌ } الحج 45 و الخاوي على عروشه المكان لا السكان وقال تعالى { أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا } البقرة 259 فهذا المكان لا السكان لكن لابد أن يلحظ أنه كان مسكونا فلا يسمى قرية الا اذا كان قد عمر للسكنى مأخوذ من القرى وهو الجمع ومنه قولهم قرية الماء فى الحوض اذا جمعت فيه ونظير ذلك لفظ الانسان يتناول الجسد والروح ثم الاحكام تتناول هذا تارة وهذا تارة لتلازمهما فكذلك القرية اذا عذب أهلها خربت واذا خربت كان عذابا لأهلها فما يصيب أحدهما من الشر ينال الآخر كما ينال البدن والروح ما يصيب أحدهما فقولته { وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ } يوسف 82 مثل قوله { قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً } النحل 112 فاللفظ هنا يراد به السكان من غير اضمار ولا حذف لما كان المقصود بالقرية هم السكان كان إرادتهم أكثر فى كتاب الله وكذلك لفظ النهر لما كان المقصود هو الماء كان إرادته أكثر كقوله { وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ } الأنعام 6 وقوله { وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهْرًا } الكهف 33 فهذا كثير أكثر من قولهم حفرنا النهر و كذلك إطلاق لفظ القرآن على نفس الكلام أكثر من إطلاقه على نفس التكلم وكذلك لفظ الكلام والقول والقصص و سائر أنواع الكلام يراد بها نفس الكلام أكثر مما يراد بها فعل المتكلم وهذه الأمور لبسطها موضع آخر ¹

يثبت الله بالإيمان والتقوى لا بالبلد والنسب

¹مجموع الفتاوى ج: 17 ص: 37-39 و مجموع الفتاوى ج: 7 ص: 113

في كفاية الله له أعداءه وعصمته له من الناس وهذا فيه آية لنبوته من وجوه منها أن ذلك تصديق لقوله تعالى {فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ} {94} إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ {95} الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ} {96} الحجر 94-96 فهذا إخبار الله بأنه يكفيه المشركين المستهزئين وأخبر أنه يكفيه أهل الكتاب بقوله { فُؤَلُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ} {136} فَإِنِ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ} {137} البقرة 136-137 فأخبره الله أنه يكفيه هؤلاء الشاقيين له من أهل الكتاب وأخبره أنه يعصمه من جميع الناس بقوله تعالى {يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ} {المائدة 67} فهذا خبر عام بأن الله يعصمه من جميع الناس فكل من هذه الأخبار الثلاثة العامة قد وقع كما أخبر وفي هذا عدة آيات منها أنه كفاه أعداءه بأنواع عجيبة خارجة عن العادة المعروفة ومنها أنه نصره مع كثرة أعدائه وقوتهم وغلبتهم وأنه كان وحده جاهرا بمعاداتهم وسب آبائهم وشتم آلهتهم وتسفيه أحلامهم والطعن في دينهم وهذا من الأمور الخارقة للعادة والمستهزئون كانوا من أعظم سادات قريش وعظماء العرب وكان أهل مكة أهل الحرم أعز الناس وأشرفهم يعظمهم جميع الأمم أما العرب فكانوا يدينون لهم وأما غيرهم من الأمم فكانوا يعظمونهم به لا سيما من حين ما جرى لأهل الفيل ما جرى كما كانت الأمم تعظم بني إسرائيل لما ظهر فيهم من الآيات ما ظهر وهؤلاء بنو إسرائيل ابن خليل الله وهؤلاء بنو إسحاق ابن خليل الله وكلاهما ممن وعد الله إبراهيم في التوراة فيهم بما وعده من إنعام الله عليه النعمة التي لم ينعم الله بها على غيرهم فكان أهل مكة معظمين لأنهم جيران البيت ولأنهم أشرف بني إسماعيل فإن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل واصطفى قريشا من كنانة واصطفى هاشم من قريش واصطفى محمدا من بني هاشم وكان قد عاداه أشراف هؤلاء كما عادى المسيح أشراف بني إسرائيل وبدل هؤلاء وهؤلاء نعمة الله كفرا وأحلوا قومهم دار البوار وكفى الله رسوله المسيح من عاداه منهم ولم ينفعهم نسبهم ولا فضل مدينتهم وكذلك كفى الله محمدا من عاداه وانتقم منهم ولم ينفعهم أنسابهم ولا فضل مدينتهم فإن الله إنما يثبت بالإيمان والتقوى لا بالبلد والنسب وقال تعالى {وَصَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ} {112} وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ} {النحل 112-113} ¹

محبة الله وتوحيده هو الغاية التي فيها صلاح للنفس

قال تعالى { فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ إِن كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ } {النحل 114} ومحبة الله وتوحيده هو الغاية التي فيها صلاح للنفس وهو عبادة الله وحده لا شريك له فلا صلاح للنفس ولا كمال لها إلا في ذلك وبدون ذلك تكون فاسدة لا صلاح لها ولهذا كان هذا هو دين الإسلام الذي اتفقت عليه الرسل قال الله تعالى {وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ

¹الجواب الصحيح ج: 6 ص: 274-276

مِنَ الْخَاسِرِينَ { آل عمران 85 وقد قال تعالى { وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ { الذاريات 56 فالغاية الحميدة التي بها يحصل كمال بني آدم وسعادتهم ونجاتهم عبادة الله وحده وهي حقيقة قول القائل لا إله إلا الله ولهذا بعث الله جميع الرسل وأنزل جميع الكتب ولا تصلح النفس وتزكو وتكمل إلا بهذا ولفظ العبادة يتضمن كمال الذل بكمال الحب فلا بد أن يكون العابد محبا للإله المعبود كمال الحب ولا بد أن يكون ذليلا له كمال الذل فمن أحب شيئا ولم يذل له لم يعبد له ومن خضع له ولم يحبه لم يعبده وكمال الحب والذل لا يصلح إلا لله وحده فهو الإله المستحق للعبادة التي لا يستحقها إلا هو وذلك يتضمن كمال الحب والذل والإجلال والإكرام والتوكل والعبادة فالنفوس محتاجة إلى الله من حيث هو معبودها ومنتهى مرادها وبغيتها ومن حيث هو ربها وخالقها فمن آمن بالله رب كل شيء وخالقه ولم يعبد إلا الله وحده بحيث يكون الله أحب إليه من كل ما سواه وأخشى عنده من كل ما سواه وأعظم عنده من كل ما سواه وأرجى عنده من كل ما سواه بل من سوى بين الله وبين بعض المخلوقات في الحب بحيث يحبه مثل ما يحب الله ويخشاه مثل ما يخشى الله ويرجوه مثل ما يرجو الله ويدعوه مثل ما يدعوهُ فهو مشرك الشرك الذي لا يغفره الله ولو كان مع ذلك عفيفا في طعامه ونكاحه وكان حكيما شجاعا

قال تعالى { فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلالًا طَيِّبًا وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ { النحل 114 }¹

مسائل فقهية

1-الأصل في جميع الأعيان أن تكون حلالا وأن تكون طاهرة

قال تعالى { إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخَنزِيرِ وَمَا أُهْلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ { النحل 115

فاعلم أن الأصل في جميع الأعيان الموجودة على اختلاف أصنافها وتباين أوصافها أن تكون حلالا مطلقا للأدميين وأن تكون طاهرة لا يحرم عليهم ملابستها ومباشرتها ومماسستها ودل على ذلك قوله تعالى { هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا { البقرة 29 والخطاب لجميع الناس لافتتاح الكلام بقوله { يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ { البقرة 21 ووجه الدلالة أنه أخبر أنه خلق جميع ما في الأرض للناس مضافا إليهم باللام واللام حرف الإضافة وهي توجب اختصاص المضاف بالمضاف إليه واستحقاقه إياه من الوجه الذي يصلح له وهذا المعنى يعم موارد استعمالها كقولهم المال لزيد والسرغ للدابة وما أشبه ذلك فيجب إذا أن يكون الناس مملكين ممكنين لجميع ما في الأرض فضلا من الله ونعمة وخص من ذلك بعض الأشياء وهي الخبائث لما فيها من الإفساد لهم في معاشهم أو معادهم فيبقى الباقي مباحا بموجب الآية وقوله تعالى { قُلْ لَا أُجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا { الأنعام 145 الآية فما لم يجد تحريمه ليس بمحرم

¹ الجواب الصحيح ج: 6 ص: 32

وما لم يحرم فهو حل ومثل هذه الآية قوله { **إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخَنزِيرِ** } البقرة 173 الآية لأن حرف إنما يوجب حصر الأول في الثاني فيجب انحصار المحرمات فيما ذكر¹

2-المحرمات نوعان

قال تعالى { **إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخَنزِيرِ وَمَا أَهَلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ** } النحل 115

أن المحرمات نوعان محرم لوصفه ومحرم لكسبه فالمحرم لكسبه كالظلم والربا والميسر والمحرم لوصفه كالميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به والأول أشد تحريماً والتورع فيه مشهور ولها كان السلف يحترزون في الأطعمة والثياب من الشبهات الناشئة من المكاسب الخبيثة وأما الثاني فإنما حرم لما فيه من وصف الخبث وقد أباح الله لنا طعام أهل الكتاب مع إمكان أن لا يذكره التذكية الشرعية أو يسموا عليه غير الله وإذا علمنا أنهم سموا عليه غير الله حرم ذلك في أصح قولى العلماء وقد ثبت فى الصحيح من حديث عائشة أن النبى صلى الله عليه وسلم سئل عن قوم يأتون باللحم ولا يدرى أسموا عليه أم لا فقال سموا أنتم وكلوا²

-تحريم الشيء مطلقا يقتضى تحريم كل جزء منه

قال تعالى { **إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخَنزِيرِ وَمَا أَهَلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ** } النحل 115

فان تحريم الشيء مطلقا يقتضى تحريم كل جزء منه كما أن تحريم الخنزير والميتة والدم اقتضى ذلك³

وكل ميتة نجسة إلا الأدمي أما نجاسة الحيوان بالموت في الجملة فإجماع وقد دل على ذلك قوله تعالى { **إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ** } النحل 115 وذلك يعم أكلها والانتفاع بها وغير ذلك لما روى جابر بن عبد الله انه سمع النبي صلى الله عليه وسلم يقول إن الله حرم بيع الخمر والميتة والخنزير والاصنام فقيل يا رسول الله أرأيت شحوم الميتة فإنه يطلى بها السفن ويدهن بها الجلود ويستصبح بها الناس فقال لا هو حرام ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم عند ذلك قاتل الله اليهود إن الله لما حرم شحومها جملوه ثم باعوه وأكلوا ثمنه رواه الجماعة والكلام في فصلين في أجزاء الميتة وفي اجناسها

¹الفتاوى الكبرى ج: 2 ص: 118

²مجموع الفتاوى ج: 21 ص: 57

³مجموع الفتاوى ج: 21 ص: 85

أما أجزاؤها فاللحم نجس وكذلك الجلد وقد تقدم القول في العظم والشعر وأما ما لا يموت بموتها كالبيض واللين فإنه لا ينجس بالموت لكن هل ينجس بنجاسة وعائه أما البيض فإذا كان قد تصلب قشره فهو طاهر مباح لانه لا يصل اليه شيء من النجاسة كما لو غمس في ماء نجس وكما لو طبخ في خمر أو ماء نجس وكذلك لو سلقه في ماء ملح أو مر لم يتغير طعمه وقال ابن عقيل هو طاهر مباح وان لم يتصلب لان جمودها وغشائها الذي هو كالجلد مع لينة يمنع نفوذ النجاسة اليها كما لو وقعت في مائع نجس والمشهور انها تتنجس إذا لم تتصلب لانه في النمر والحاجز غير حصين فلا ينفك غالبا من ان يشرب اجزاء عقيب الموت قبل ذهاب حرارة الحياة واما اللين والإنفحة فظاهر في احدى الروايتين لان الصحابة فتحوا بلاد المجوس وأكلوا من جنبهم مع علمهم بنجاسة ذبائحهم وأن الجبن إنما يصنع بالإنفحة وان اللين لم ينجس بالموت إذا لا حياة فيه ولا بملاقاة وعائه لان الملاقاة في الباطن لا حكم لها اذ الحكم بالتنجيس إنما يتسلط على الاجسام الظاهرة ولذلك لم ينجس المنى والنجاسة تخرج من مخرج المنى وعلى هذه الرواية فجلد الإنفحة نجس كجلد الضرع وإنما الكلام فيما فيهما والرواية الاخرى هما نجس وهي المنصورة ولانه مائع في وعاء نجس فأشبهه ما لو أعيد في الضرع بعد الحلب او حلبت في اناء نجس وما عللوا به ينتقض بالمخ في العظم فانه نجس وأما المنى والنجاسة فميز له اللين الخارج في الحياة لانه لو نجس ما خلق طاهرا في الباطن بما يلاقه لنجس ابدا بخلاف ما بعد الموت فإنه خروجه نادر كما لو خرج المنى والنجاسة بعد الموت وما ذكر عن الصحابة لا يصح لانهم وإن اكلوا من جبن بلاد فارس فلانة كان بينهم يهود ونصارى يذبحون لهم فحينئذ لا تتحقق نجاسة الجبن ولهذا كتب ابو موسى الأشعري الى عمر يذكر ان المجوس لما رأوا أن المسلمين لا يشترون جنبهم وإنما يشترون جبن اهل الكتاب عمد المجوس وصلبوا على الجبن كما يصلب اهل الكتاب ليشتري جنبهم فكتب اليه عمر ما تبين لكم انه من صنعتهم فلا تأكلوه وما لم يتبين لكم فكلوه ولا تحرموا على انفسكم ما أحل الله لكم رواه عبد الملك بن حبيب وقال قد تورع عمرو بن مسعود وابن عباس في خاصة انفسهم من اكل الجبن الا ما ايقنوا انه من جبن المسلمين أو اهل الكتاب خيفة ان يكون من جبن المجوس وقيل لابن عمر انا نخاف ان يجبن الجبن بإنفحة الميتة فقال ما علمت انه ميتة فلا تأكل وأما اجناس الميت فكل ميت نجس الا ما يباح اكله ميتا وما ليس له دم سائل وما حرم لشرفه وقد استثناهما الشيخ رحمه الله كذلك لعموم الآية والقياس سواء كان طاهرا في الحياة او نجسا لكن يبقى نجسا لسببين كما حرم السببين أما الانسان فلا ينجس في ظاهر المذهب وعنه رواية اخرى ينجس لعموم الآية ووقع زنجي في بئر زمزم فمات فأمر ابن عباس بها تنزح رواه الدارقطني ولانه ذو نفس سائلة لا تباح ميتته فنجس بالموت كالشاة والاول اصح لان النبي صلى الله عليه وسلم قال المؤمن لا ينجس متفق عليه وفي لفظ الدارقطني المؤمن لا ينجس حيا ولا ميتا وروى الدارقطني ايضا عن النبي صلى الله عليه وسلم ليس عليكم في ميتكم غسل إذا غسلتموه فإنه ليس بنجس ولان ذلك منقول عن ابن مسعود وابن عباس وعائشة في قضايا متعددة ولم يعرف لهم مخالف ولانه آدمي مسلم فلم ينجس بالموت كالشهيد فإنه مسلم على القولين ولانه لو نجس لم يطهر بالغسل ولان الموجب لطهارته شرفه وكذلك لا حيا ولا ميتا وان قلنا ينجس بالموت بحسب اعضائه بالانفصال كسائر الحيوان فاما الشعر فهو طاهر في اصح الروايتين لانه ليس بمحل للحياة وفي رواية اخرى انه نجس بناء على انه من الجملة كاليد سواء جز او تساقط بخلاف شعر المأكول فإنه لما احتيج اليه كان جزءه كتنكية وهذا ضعيف كما سبق ويطهر بالغسل في اصح الروايتين ولا ينجس الشهيد كما لا ينجس دمه وان قلنا لا ينجس بالموت فكذلك اعضاؤه على الاصح وقيل تنجس وان لم ينجس في الجملة لان الحرمة انما تثبت لها اذا كانت تابعة وهو ضعيف لان حرمة الاعضاء كحرمة الجملة وهذا يختص بالمسلم واما الكافر فينجس على الروايتين

لان المقتفي للطهارة من الاثر والقياس مفقود فيه وسبب التنجيس موجود فعمل عمله وعموم كلام بعض اصحابنا يقتفي التسوية كما في الحياة¹

4-حكم عظم الميتة وقرنها وظفرها وما هو من جنس ذلك

أما عظم الميتة وقرنها وظفرها وما هو من جنس ذلك كالحافر ونحوه وشعرها وريشها ووبرها ففي هذين النوعين للعلماء ثلاثة أقوال أحدها نجاسة الجميع كقول الشافعي في المشهور عنه وذلك رواية عن أحمد والثاني أن العظام ونحوها نجسة والشعور ونحوها طاهرة وهذا هو المشهور من مذهب مالك وأحمد والثالث أن الجميع طاهر كقول أبي حنيفة وهو قول في مذهب مالك وأحمد وهذا القول هو الصواب وذلك لأن الأصل فيها الطهارة ولا دليل على النجاسة وأيضا فان هذه الأعيان هي من الطيبات ليست من الخبائث فتدخل في آية التحليل وذلك لأنها لم تدخل فيما حرمه الله من الخبائث لا لفظا ولا معنى فان الله تعالى حرم الميتة وهذه الأعيان لا تدخل فيما حرمه الله لا لفظا ولا معنى أما اللفظ فلان قوله تعالى {حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ} المائدة 3 لا يدخل فيها الشعور وما أشبهها وذلك لأن الميت ضد الحي والحياة نوعان حياة الحيوان وحياة النبات فحياة الحيوان خاصتها الحس والحركة الارادية وحياة النبات خاصتها النمو والاعتداء وقوله {حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ} المائدة 3 إنما هو بما فارقت الحياة الحيوانية دون النباتية فإن الشجر والزرع إذا يبس لم ينجس باتفاق المسلمين وقد قال تعالى {وَاللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا} النحل 65 وقال {اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا} الحديد 17 فموت الأرض لا يوجب نجاستها باتفاق المسلمين وإنما الميتة المحرمة ما فارقتها الحس والحركة الارادية وإذا كان كذلك فالشعر حياته من جنس حياة النبات لا من جنس حياة الحيوان فانه ينمو ويغتذى ويطول كالزرع وليس فيه حس ولا يتحرك بارادته فلا تحله الحياة الحيوانية حتى يموت بمفارقتها فلا وجه لتنجيسه وايضا فلو كان الشعر جزءا من الحيوان لما ابيح أخذه في حال الحياة فان النبي سئل عن قوم يحبون أسنمة الابل وأليات الغنم فقال ما أبين من البهيمة وهي حية فهو ميت رواه أبو داود وغيره وهذا متفق عليه بين العلماء فلو كان حكم الشعر حكم السنام والألية لما جاز قطعه في حال الحياة ولا كان طاهرا حلالا فلما اتفق العلماء على أن الشعر والصوف إذا جز من الحيوان كان طاهرا حلالا علم أنه ليس مثل اللحم وايضا فقد ثبت أن النبي أعطى شعره لما حلق رأسه للمسلمين وكان يستنجي ويستجمر فمن سوى بين الشعر والبول والعدرة فقد أخطأ خطأ بينا وأما العظام ونحوها فاذا قيل إنها داخلة في الميتة لأنها تحس وتألّم قيل لمن قال ذلك أنتم لم تأخذوا بعموم اللفظ فان ما لا نفس له سائلة كالذباب والعقرب والخنفساء لا ينجس عندكم وعند جمهور العلماء مع أنها ميتة موتا حيوانيا وقد ثبت في الصحيح أن النبي قال إذا وقع الذباب في إناء أحدكم فليغمسه ثم لينزعه فان في أحد جناحيه داء وفي الآخر شفاء ومن نجس هذا قال في أحد القولين إنه لا ينجس المائعات الواقع فيها لهذا الحديث وإذا كان كذلك علم أن علة نجاسة الميتة إنما هو احتباس الدم

¹ شرح العمدة ج: 1 ص: 129

فيها فما لا نفس له سائلة ليس فيه دم سائل فاذا مات لم يحتبس فيه الدم فلا ينجس فالعظم ونحوه أولى بعدم التنجيس من هذا فان العظم ليس فيه دم سائل ولا كان متحركا بالارادة إلا على وجه التبع فاذا كان الحيوان الكامل الحساس المتحرك بالارادة لا ينجس لكونه ليس فيه دم سائل فكيف ينجس العظم الذي ليس فيه دم سائل ومما يبين صحة قول الجمهور أن الله سبحانه إنما حرم علينا الدم المسفوح كما قال تعالى {قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا} الأنعام 145 فاذا عفي عن الدم غير المسفوح مع أنه من جنس الدم علم أنه سبحانه فرق بين الدم الذي يسيل وبين غيره ولهذا كان المسلمون يضعون اللحم في المرق وخطوط الدم في القدور بين ويأكلون ذلك على عهد رسول الله كما أخبرت بذلك عائشة ولولا هذا لاستخرجوا الدم من العروق كما يفعل اليهود والله تعالى حرم ما مات حتف انفه أو بسبب غير جارح محدد فحرم المنخقة والموقوذة والمتردية والنطيحة وحرم النبي ما صيد بعرض المعراض وقال إنه وقيد دون ما صيد بحده والفرق بينهما إنما هو سفح الدم فدل على أن سبب التنجيس هو احتقان الدم واحتباسه وإذا سفح بوجه خبيث بأن يذكر عليه غير اسم الله كان الخبث هنا من جهة أخرى فإن التحريم يكون تارة لوجود الدم وتارة لفساد التذكية كذكاة المجوسي والمرتد والذكاة في غير المحلل المحل وإذا كان كذلك فالعظم والقرن والظفر والظلف وغير ذلك ليس فيه دم مسفوح فلا وجه لتنجيسه وهذا قول جمهور السلف قال الزهري كان خيار هذه الأمة يمتشطون بأمشاط من عظام الفيل وقد روي في العاج حديث معروف لكن فيه نظر ليس هذا موضعه فانا لا نحتاج الى الاستدلال بذلك وايضا فقد ثبت في الصحيح عن النبي أنه قال في شاة ميمونة هلا أخذتم إهابها فانتفعتم به قالوا انها ميتة قال إنما حرم أكلها وليس في صحيح البخاري ذكر الدباغ ولم يذكره عامة أصحاب الزهري عنه ولكن ذكره ابن عيينة ورواه مسلم في صحيحه وقد طعن الامام أحمد في ذلك وأشار الى غلط ابن عيينة فيه وذكر أن الزهري وغيره كانوا يبيحون الانتفاع بجلود الميتة بلا دباغ لاجل هذا الحديث وحينئذ فهذا النص يقتضي جواز الانتفاع بها بعد الدبغ بطريق الأولى لكن إذا قيل إن الله حرم بعد ذلك الانتفاع بالجلود حتى تدبغ أو قيل إنها لا تطهر بالدباغ لم يلزم تحريم العظام ونحوها لأن الجلد جزء من الميتة فيه الدم كما في سائر أجزائها والنبي جعل دباغه ذكاته لأن الدباغ ينشف رطوباته فدل على أن سبب التنجيس هو الرطوبات والعظم ليس فيه رطوبة سائلة وما كان فيه منها فإنه يجف ويبس وهو يبقى ويحفظ أكثر من الجلد فهو أولى بالطهارة من الجلد والعلماء تنازعوا في الدباغ هل يطهر فذهب مالك وأحمد في المشهور عنهما أنه لا يطهر ومذهب ابي حنيفة والشافعي والجمهور أنه يطهر وإلى هذا القول رجع أحمد كما ذكر ذلك عنه الترمذي عن أحمد بن الحسن الترمذي عنه وحديث ابن عكيم يدل على ان النبي نهاهم أن ينتفعوا من الميتة باهاب أو عصب بعد أن كان أذن لهم في ذلك لكن هذا قد يكون قبل الدباغ فيكون قد أرخص فان حديث الزهري الصحيح يبين أنه كان قد أرخص في جلود الميتة قبل الدباغ فيكون قد أرخص لهم في ذلك ثم لما نهى عن الانتفاع بها قبل الدباغ نهاهم عن ذلك ولهذا قال طائفة من أهل اللغة ان الاهاب اسم لما لم يدبغ ولهذا قرن معه العصب والعصب لا يدبغ فصل وأما لبن الميتة وانفتحها ففيه قولان مشهوران للعلماء أحدهما أن ذلك طاهر كقول ابي حنيفة وغيره وهو إحدى الروايتين عن أحمد والثاني أنه نجس كقول مالك والشافعي والرواية الأخرى عن أحمد وعلى هذا النزاع انبنى نزاعهم في جبن المجوس فان ذبائح المجوس حرام عند جماهير السلف والخلف وقد قيل إن ذلك مجمع عليه بين الصحابة فاذا صنعوا جبنا والجبن يصنع بالأنفحة كان فيه هذان القولان والأظهر أن جبنهم حلال وان أنفحة الميتة ولبنها طاهر وذلك لأن الصحابة لما فتحوا بلاد العراق أكلوا جبن المجوس وكان هذا ظاهرا شائعا بينهم وما ينقل عن بعضهم من كراهة ذلك ففيه نظر فانه من نقل بعض الحجازيين

وفيه نظر وأهل العراق كانوا أعلم بهذا فان المجوس كانوا ببلادهم ولم يكونوا بأرض الحجاز ويدل على ذلك ان سلمان الفارسي كان هو نائب عمر بن الخطاب على المدائن وكان يدعو الفرس الى الإسلام وقد ثبت عنه أنه سئل عن شيء من السمن والجبن والفراء فقال الحلال ما احل الله في كتابه والحرام ما حرم الله في كتابه وما سكت عنه فهو مما عفى عنه وقد رواه أبو داود مرفوعاً الى النبي ومعلوم أنه لم يكن السؤال عن جبن المسلمين وأهل الكتاب فان هذا امر بين وإنما كان السؤال عن جبن المجوس فدل ذلك على ان سلمان كان يفتي بحلها وإذا كان روى ذلك عن النبي انقطع النزاع بقول النبي وأيضاً فاللبن والأنفحة لم يموتا وإنما نجسهما من نجسهما لكونهما في وعاء نجس فيكون مانعاً في وعاء نجس فالتنجيس مبني على مقدمتين على ان المائع لاقي وعاء نجساً وعلى أنه إذا كان كذلك صار نجساً فيقال أولاً لا نسلم ان المائع ينجس بملاقاة النجاسة وقد تقدم ان السنة دلت على طهارته لا على نجاسته ويقال ثانياً ان الملاقاة في الباطن لا حكم لها كما قال تعالى { نُسْفِيكُمْ مِّمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ } النحل 66 ولهذا يجوز حمل الصبي الصغير في الصلاة مع ما في بطنه والله أعلم¹

5- حكم التداوى

قال تعالى { إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخَنزِيرِ وَمَا أُهْلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ } النحل 115

فإن الناس قد تنازعا في التداوى هل هو مباح أو مستحب أو واجب والتحقيق أن منه ما هو محرم ومنه ما هو مكروه ومنه ما هو مباح ومنه ما هو مستحب وقد يكون منه ما هو واجب وهو ما يعلم أنه يحصل به بقاء النفس لا بغيره كما يجب أكل الميتة عند الضرورة فإنه واجب عند الأئمة الأربعة وجمهور العلماء وقد قال مسروق من اضطُرَّ إلى أكل الميتة فلم يأكل حتى مات دخل النار فقد يحصل أحياناً للإنسان إذا استحر المرض ما إن لم يتعالج معه مات والعلاج المعتاد تحصل معه الحياة كالتغذية للضعيف وكإستخراج الدم أحياناً²

6- إذا وقع الذبح حقيقة لغير الله كانت حقيقة التحريم قد وجدت فيه

قال تعالى { إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخَنزِيرِ وَمَا أُهْلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ } النحل 115

¹مجموع الفتاوى ج: 21 ص: 97- 104

²مجموع الفتاوى ج: 18 ص: 12

قال الخلال في باب التوقي لأكل ما ذبحت النصارى وأهل الكتاب لأعيادهم وذبائح أهل الكتاب لكنائسهم كل من روى عن أبي عبد الله روى الكراهة فيه وهي متفرقة في هذه الأبواب وما قاله حنبل في هاتين المسألتين ذكر عن أبي عبد الله ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه وما أهل لغير الله به فإنما الجواب من أبي عبد الله فيما أهل لغير الله به وأما التسمية وتركها فقد روى عنه جميع أصحابه أنه لا بأس بأكل ما لم يسموا عليه إلا في وقت ما يذبحون لأعيادهم وكنائسهم فإنه في معنى قوله تعالى **{ وَمَا أَهْلَ لَغَيْرِ اللَّهِ بِهِ } النحل 115** وعند أبي عبد الله أن تفسير **{ وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذَكَّرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ }** الأنعام 121 إنما عني به الميتة وقد أخرجته في موضعه ومقصود الخلال أن نهى أحمد لم يكن لأجل ترك التسمية فقط فإن ذلك عنده لا يحرم وإنما كان لأنهم ذبحوه لغير الله سواء كانوا يسمون غير الله أو لا يسمون الله ولا غيره ولكن قصدهم الذبح لغير الله لكن قال ابن أبي موسى ويجتنب أكل كل ما ذبحه اليهود والنصارى لكنائسهم وأعيادهم ولا يؤكل ما ذبح للزهرة والرواية الثانية أن ذلك مكروه غير محرم وهذا الذي ذكره القاضي وغيره وأخذوا ذلك فيما أظنه مما نقله عبد الله بن أحمد قال سألت أبي عن ذبح للزهرة قال لا يعجبني قلت أحرام أكله قال لا أقول حراما ولكن لا يعجبني وذلك أنه أثبت الكراهة دون التحريم ويمكن أن يقال إنما توقف عن تسميته محرما لأن ما اختلف في تحريمه وتعاضت فيه كالجمع بين الأخنتين ونحوه هل يسمى حراما على روايتين كالروايتين عنده في أن ما اختلف في وجوبه هل يسمى فرضا على روايتين ومن أصحابنا من أطلق الكراهة ولم يفسر هل أراد التحريم أو التنزيه قال أبو الحسن الأمدى ما ذبح لغير الله مثل الكنائس والزهرة والشمس والقمر فقال أحمد هو مما أهل به لغير الله أكرهه كل ما ذبح لغير الله والكنائس وما ذبحوا في أعيادهم أكرهه فأما ما ذبح أهل الكتاب على معنى الزكاة فلا بأس به وكذلك مذهب مالك يكره ما ذبحه النصارى لكنائسهم أو ذبحوا على اسم المسيح أو الصليب أو أسماء من مضى من أبحارهم ورهبانهم وفي المدونة وكره مالك أكل ما ذبحه أهل الكتاب لكنائسهم أو لأعيادهم من غير تحريم وتأول قول الله أو فسقا أهل لغير الله به قال ابن القاسم وكذلك ما ذبحوا وسموا عليه اسم المسيح وهو بمنزلة ما ذبحوا لكنائسهم ولا أرى أن يؤكل ونقلت الرخصة في ذبائح الأعياد ونحوها عن طائفة من الصحابة رضي الله عنهم وهذا فيما لم يسموا عليه غير الله فإن سموا غير الله في عيدهم أو غير عيدهم حرم في أشهر الروايتين وهو مذهب الجمهور وهو مذهب الفقهاء الثلاثة فيما نقله غير واحد وهو قول علي بن أبي طالب وغيره من الصحابة منهم أبو الدرداء وأبو أمامة والعرباض بن سارية وعبادة بن الصامت وهو قول أكثر فقهاء الشام وغيرهم والثانية لا يحرم وإن سموا غير الله وهو قول عطاء ومجاهد ومكحول والأوزاعي والليث ووجه الاختلاف أن هذا قد دخل في عموم قوله عز وجل

{ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ } المائدة 5 وفي عموم قوله تعالى **{ وَمَا أَهْلَ لَغَيْرِ اللَّهِ بِهِ }** المائدة 3 لأن هذه الآية تعم كل ما نطق به لغير الله يقال أهلت بكذا إذا تكلمت به وإن كان أصله الكلام الرفيع فإن الحكم لا يختلف برفع الصوت وخفضه وإنما لما كانت عادتهم رفع الصوت في الأصل خرج الكلام على ذلك فيكون المعنى وما تكلم به لغير الله وما نطق به لغير الله ومعلوم أن ما حرم أن تجعل غير الله مسمى فكذلك منويا إذ هذا مثل النيات في العبادات فإن اللفظ بها وإن كان أبلغ لكن الأصل القصد لا ترى أن المتقرب بالهدايا والضحايا سواء قال أذبحه لله أو سكت فإن العبرة بالنية وتسميته الله على الذبيحة غير ذبحها لله فإنه يسمى على ما يقصد به اللحم وأما القربان فيذبح لله سبحانه ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم في قربانه اللهم منك ولك بعد قوله بسم الله والله أكبر لقوله تعالى **{ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ }** الأنعام 162

والكافرون يصنعون بألتهتهم كذلك فتارة يسمون ألتهتهم على الذبائح وتارة يذبحونها قربانا إليهم وتارة يجمعون بينهما وكل ذلك والله أعلم يدخل فيما أهل لغير الله به فإن من سمي غير الله فقد أهل به لغير الله فقوله باسم كذا استعانة به وقوله لكذا عبادة له ولهذا جمع الله بينهما في قوله {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ} الفاتحة 5 وأيضا فإنه سبحانه حرم ما ذبح على النصب وهي كل ما ينصب ليعبد من دون الله وأما احتجاج أحمد على هذه المسألة بقوله تعالى {وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ} الأنعام 121 فحيث اشترطت التسمية في ذبيحة المسلم هل تشترط في ذبيحة الكتابي على روايتين وإن كان الخلال هنا قد ذكر عدم الاشتراط فاحتجاجة بهذه الآية يخرج على إحدى الروايتين فلما تعارض العموم الحاضر وهو قوله تعالى {وَمَا أَهْلٌ لِّغَيْرِ اللَّهِ بِهِ} المائدة 3 والعموم المبيح وهو قوله {وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَلٌّ لَكُمْ} المائدة 5 اختلف العلماء في ذلك والأشبه بالكتاب والسنة ما دل عليه أكثر كلام أحمد من الحظر وإن كان من متأخري أصحابنا من لا يذكر هذه الرواية بحال وذلك لأن عموم قوله تعالى {وَمَا أَهْلٌ لِّغَيْرِ اللَّهِ بِهِ} المائدة 3 و {وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ} المائدة 3 عموم محفوظ لم تخصص منه صورة بخلاف طعام الذين أوتوا الكتاب فإنه يشترط له الذكاة المبيحة فلو ذكى الكتابي في غير المحل المشروع لم تبح ذكاته ولأن غاية الكتابي أن تكون ذكاته كالمسلم والمسلم لو ذبح لغير الله أو ذبح باسم غير الله لم يباح وإن كان يكفر بذلك فذلك الذمي لأن قوله تعالى {وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حَلٌّ لَهُمْ} المائدة 5 سواء وهم وإن كانوا يستحلون هذا ونحن لا نستحله فليس كل ما استحلوه يحل لنا ولأنه قد تعارض دليلان حاضر ومبيح فالحاضر أولى أن يقدم ولأن الذبح لغير الله أو باسم غيره قد علمنا يقينا أنه ليس من دين الأنبياء عليهم السلام فهو من الشرك الذي أحدثوه فالمعنى الذي لأجله حلت ذبائحهم منتف في هذا والله تعالى أعلم فإن قيل أما إذا سموا عليه غير الله بأن يقولوا باسم المسيح ونحوه فتحريمه ظاهر أما إذا لم يسموا أحدا ولكن قصدوا الذبح للمسيح أو للكوكب ونحوهما فما وجه تحريمه قيل قد تقدمت الإشارة إلى ذلك وهو أن الله سبحانه قد حرم ما ذبح على النصب وذلك يقتضي تحريمه وإن كان ذابحه كتابيا لأنه لو كان التحريم لكونه وثنيا لم يكن فرق بين ذبحة على النصب وغيرها ولأنه لما أباح لنا طعام أهل الكتاب دل على أن طعام المشركين حرام فتخصيص ما ذبح على الوثن يقتضي فائدة جديدة وأيضا فإنه ذكر تحريم ما ذبح على النصب وما أهل به لغير الله وقد دخل فيما أهل به لغير الله ما أهل به أهل الكتاب لغير الله فكذلك كل ما ذبح على النصب فإذا ذبح الكتابي على ما قد نصبوه من التماثيل في الكنائس فهو مذبوح على النصب ومعلوم أن حكم ذلك لا يختلف بحضور الوثن وغيبته وإنما حرم لأنه قصد بذبحه عبادة الوثن وتعظيمه وهذه الأنصاب قد قيل هي من الأصنام وقيل هي غير الأصنام قالوا كان حول البيت ثلاثمائة وستون حجرا كان أهل الجاهلية يذبحون عليها ويشرحون اللحم عليها ويذبحون عليها وكانوا يعظمون هذه الحجارة ويعبدونها ويذبحون عليها وكانوا إذا شاءوا أبدلوا هذه الأحجار بحجارة هي أعجب إليهم منها ويدل على ذلك قول أبي ذر في حديث إسلامه حتى صرت كالنصب الأحمر يريد أنه كان يصير أحمر من تلوثه بالدم وفي قوله {وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ} المائدة 3 قولان أحدهما أن نفس الذبح كان يكون عليها كما ذكرناه فيكون ذبحهم عليها تقربا إلى الأصنام وهذا على قول من يجعلها غير الأصنام فيكون الذبح عليها لأجل أن المذبوح عليها مذبوح للأصنام أو مذبوح لها وذلك يقتضي تحريم كل ما ذبح لغير الله ولأن الذبح في البقعة لا تأثير له إلا من جهة الذبح لغير الله كما كرهه النبي صلى الله عليه وسلم من الذبح في مواضع أصنام المشركين ومواضع أعيادهم وإنما يكره المذبوح في البقعة المعينة لكونها محل شرك فإذا وقع الذبح حقيقة لغير الله كانت حقيقة التحريم قد وجدت فيه والقول الثاني أن الذبح على النصب أي لأجل النصب كما قيل أولم رسول الله صلى الله عليه وسلم على

زينب بخبز ولحم وأطعم فلان على ولده وذبح فلان على ولده ونحو ذلك ومنه قوله تعالى { لَتُكَبَّرُوا
اللهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ } الحج 37 وهذا ظاهر على قول من يجعل النصب نفس الأصنام ولا منافاة بين
كون الذبح لها وبين كونها كانت تلوث بالدم وعلى هذا القول فالدلالة ظاهرة واختلاف هذين
القولين في قوله تعالى على النصب نظير الاختلاف في قوله تعالى { وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا
لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُمْ مِّنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ } الحج 34 وقوله تعالى { لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ
وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُمْ مِّنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ } الحج 28 فإنه قد قيل
المراد بذكر اسم الله عليها إذا كانت حاضرة وقيل بل يعم ذكره لأجلها في مغيبها وشهودها
بمنزلة قوله تعالى { لَتُكَبَّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ } الحج 37 وفي الحقيقة مآل القولين إلى شيء
واحد في قوله تعالى { وَمَا ذُبِحَ عَلَى النَّصْبِ } المائدة 3 كما قد أومأنا إليه وفيها قول ثالث
ضعيف أن المعنى على اسم النصب وهذا ضعيف لأن هذا المعنى حاصل من قوله تعالى { وَمَا أَهْلٌ
لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ } المائدة 3 فيكون تكريرا لكن اللفظ يحتمله كما روى البخاري في صحيحه عن موسى بن
عقبة عن سالم عن ابن عمر رضي الله عنهما أنه كان يحدث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه
لقي زيد بن عمرو بن نفيل بأسفل بلدح وذلك قبل أن ينزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم الوحي
فقدمت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم سفرة فيها لحم فأبى أن يأكل منها ثم قال زيد إني لست أكل
مما تذبحون على أنصابكم ولا أكل إلا ما ذكر اسم الله عليه وفي رواية له وإن زيد بن عمرو بن نفيل
كان يعيب على قريش ذبائحهم ويقول الشاة خلقها الله وأنزل لها من السماء الماء وأنتبت لها من
الأرض الكلاً ثم أنتم تذبحونها على غير اسم الله إنكاراً لذلك وإعظاماً له وأيضاً فإن قوله تعالى
{ وَمَا أَهْلٌ لِّغَيْرِ اللَّهِ بِهِ } المائدة 3 ظاهره أنه ما ذبح لغير الله مثل أن يقال هذا ذبيحة لكذا وإذا كان
هذا هو المقصود فسواء لفظ به أو لم يلفظ وتحريم هذا أظهر من تحريم ما ذبحه النصراني للحم وقال
فيه باسم المسيح ونحوه كما أن ما ذبحناه نحن متقربين به إلى الله سبحانه كان أركى وأعظم مما
ذبحناه للحم وقلنا عليه باسم الله فإن عبادة الله سبحانه بالصلاة له والنسك له أعظم من الاستعانة باسمه
في فواتح الأمور فكذلك الشرك بالصلاة لغيره والنسك لغيره أعظم شركاً من الاستعانة باسم هذا
الغير في فواتح الأمور فإذا حرم ما قيل فيه باسم المسيح والزهرة فلأن يحرم ما قيل فيه لأجل المسيح
والزهرة أو قصد به ذلك أولى وهذا يبين لك ضعف قول من حرم ما ذبح باسم غير الله ولم يحرم
ما ذبح لغير الله كما قاله طائفة من أصحابنا وغيرهم بل لو قيل بالعكس لكان أوجه فإن العبادة لغير
الله أعظم كفراً من الاستعانة بغير الله وعلى هذا فلو ذبح لغير الله متقرباً به إليه لحرم وإن قال فيه
بسم الله كما يفعله طائفة من منافقي هذه الأمة الذين يتقربون إلى الأولياء والكواكب بالذبح والبخور
ونحو ذلك وإن كان هؤلاء مرتدين لا تباح ذبيحتهم بحال لكن يجتمع في الذبيحة مانعان ومن هذا
الباب ما قد يفعله الجاهلون بمكة شرفها الله وغيرها من الذبح للجن ولهذا روي عن النبي صلى الله
عليه وسلم أنه نهى عن ذبائح الجن ويدل على المسألة ما قدمناه من أن النبي صلى الله عليه وسلم
نهى عن الذبح في مواضع الأصنام ومواضع أعياد الكفار ويدل على ذلك أيضاً ما رواه أبو داود في
سننه حدثنا هارون بن عبد الله حدثنا حماد بن مسعدة عن عوف عن أبي ریحانة عن ابن عباس
رضي الله عنهما قال نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن معاقرة الأعراب قال أبو داود غندر
وقفه على ابن عباس وروى أبو بكر بن أبي شيبة في تفسيره حدثنا وكيع عن أصحابه عن عوف
الأعرابي عن أبي ریحانة قال سئل ابن عباس عن معاقرة الأعراب فقال إني أخاف أن تكون مما أهل
لغير الله به وروى أبو إسحاق إبراهيم دحيم في تفسيره حدثنا أبي حدثنا سعيد بن منصور عن
ربيعي عن عبد الله بن الجارود قال سمعت الجارود قال كان من بني رباح رجل يقال له ابن وثيل
شاعرا نافر أبا الفرزدق غالباً الشاعر بماء بظهر الكوفة على أن يعقر هذا مائة من إبله وهذا مائة من

إبله إذا وردت الماء فلما وردت الإبل الماء قاما إليها بأسياهما فجعلا ينسفان عراقيبها فخرج الناس على الحمر والبغال يريدون اللحم وعلي رضي الله عنه بالكوفة فخرج على بغلة رسول الله صلى الله عليه وسلم البيضاء وهو ينادي يا أيها الناس لا تأكلوا من لحومها فإنها أهل بها لغير الله فهو لأه الصحابة قد فسروا ما قصد بذبحه غير الله داخلا فيما أهل به لغير الله فعلمت أن الآية لم يقتصر بها على التلفظ باسم غير الله بل ما قصد به التقرب إلى غير الله فهو كذلك وكذلك تفاسير التابعين على أن ما ذبح على النصب هو ما ذبح لغير الله وروينا في تفسير مجاهد المشهور عنه الصحيح من رواية ابن أبي نجيح في قوله تعالى { وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ } المائدة 3 قال كانت حجارة حول الكعبة يذبح لها أهل الجاهلية ويبدلون إذا شاءوا بحجارة أعجب إليهم منها وروى ابن أبي شيبة حدثنا محمد بن فضيل عن أشعث عن الحسن في قوله تعالى { وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ } المائدة 3 قال هو بمنزلة ما ذبح لغير الله وفي تفسير قتادة المشهور عنه وأما ما ذبح على النصب فالنصب حجارة كان أهل الجاهلية يعبدونها ويذبحون لها فهي الله عن ذلك وفي تفسير علي بن أبي طلحة عن ابن عباس النصب أصنام كانوا يذبحون ويهلون عليها فإن قيل فقد نقل إسماعيل بن سعيد قال سألت أحمد عما يقرب لآلهتهم يذبحه رجل مسلم قال لا بأس به قيل إنما قال أحمد ذلك لأن المسلم إذا ذبحه سمي الله عليه ولم يقصد ذبحه لغير الله ولا يسمى غيره بل يقصد منه غير ما قصده صاحب الشاة فتصير نية صاحب الشاة لا أثر لها والذابح هو المؤثر في الذبح بدليل أن المسلم لو وكل كتابيا في ذبيحة فسمى عليها غير الله لم تبح ولهذا لما كان الذبح عبادة في نفسه كره علي رضي الله عنه وغير واحد من أهل العلم منهم أحمد في إحدى الروايتين عنه أن يوكل المسلم في ذبح نسيكته كتابيا لأن نفس الذبح عبادة بنية مثل الصلاة ولهذا تختص بمكان وزمان ونحو ذلك بخلاف تفرقة اللحم فإن عبادة مالية ولهذا اختلف العلماء في وجوب تخصيص أهل الحرم بلحوم الهدايا المذبوحة في الحرم وإن كان الصحيح تخصيصهم بها وهذا بخلاف الصدقة فإنها عبادة مالية محضة فلهذا قد لا يؤثر فيها نية الوكيل على أن هذه المسألة منصوصة عن أحمد محتملة¹

7-موارد الشريعة ومصادرها مبنية على قوله تعالى {فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ}

قال تعالى { **إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخَنزِيرِ وَمَا أُهْلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ** } النحل 115

قال الله تعالى { وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُم فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ } الحج 78 و قال تعالى { يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ } البقرة 185 و قال تعالى { يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمُ } النساء 28 و في الصحيحين إنما بعثتم ميسرين يسروا ولا تعسروا ليعلم اليهود أن في ديننا سعة فكل ما لا يتم المعاش إلا به فتحريمه حرج و هو منتف شرعا ومن استقرأ الشريعة في مواردها و

¹ اقتضاء الصراط ج: 1 ص: 252-259

مصادرهما وجدها مبنية على قوله تعالى {فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ} البقرة 173 و قوله {فَمَنْ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ} المائدة 3 فكل ما احتاج الناس إليه في معاشهم و لم يكن سببه معصية هي ترك واجب أو فعل محرم لم يحرم عليهم لأنهم في معنى المضطر الذي ليس بباغ ولا عاد و إن كان سببه معصية كالمسافر سفر معصية اضطر فيه الى الميتة و المنفق للمال في المعاصي حتى لزمته الديون فانه يؤمر بالتوبة و يباح له ما يزيل ضرورته فتباح له الميتة و يقضى عنه دينه من الزكاة و إن لم يتب فهو الظالم لنفسه المحتال و حاله كحال الذين قال الله فيهم {إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيَتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ} الأعراف 163 و قوله {فَيُظْلِمُ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَمًا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّت لَّهُمْ وَبِصَدَّهُمْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا} النساء 160 الآية وهذه قاعدة عظيمة ربما ننبه إن شاء الله عليها¹

8- لا يبغى في أكله ولا يتعدى

قال تعالى { **إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخَنزِيرِ وَمَا أُهْلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ** } النحل 115 فقوله { **غَيْرَ بَاغٍ** } حال من { **اضْطُرَّ** } فيجب أن يكون حال اضطراره و أكله الذي يأكل فيه غير باغ ولا عاد فإنه قال { **فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ** } و معلوم أن الإثم انما ينفي عن الأكل الذي هو الفعل لا عن نفس الحاجة اليه فمعنى الآية فمن اضطر فأكل غير باغ ولا عاد وهذا يبين ان المقصود أنه لا يبغى في أكله ولا يتعدى والله تعالى يقرن بين البغى والعدوان فالبغى ما جنسه ظلم والعدوان مجاوزة القدر المباح كما قرن بين الإثم والعدوان في قوله { **وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالتَّعَدُّوا** } المائدة 2 فالإثم جنس الشر والعدوان مجاوزة القدر المباح فالبغى من جنس الإثم قال تعالى { **وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أَوْتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ** } آل عمران 19 وقال تعالى { **فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ** } البقرة 182 فإثم جنس لظلم الورثة إذا كان مع العمد وأما الجنف فهو الجنف عليهم بعمد وبغير عمد لكن قال كثير من المفسرين الجنف الخطأ والإثم العمد لأنه لما خص الإثم بالذكر وهو العمد بقى الداخل في الجنف الخطأ ولفظ العدوان من باب تعدى الحدود كما قال تعالى { **تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ** } البقرة 229 ونحو ذلك ومما يشبهه هذا قوله { **رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا** } آل عمران 147 والإسراف مجاوزة الحد المباح وأما الذنوب فما كان جنسه شر وإثم²

9- أكل الميتة للمضطر واجب عليه

¹مجموع الفتاوى ج: 29 ص: 65

²مجموع الفتاوى ج: 24 ص: 114

أن أكل الميتة للمضطر واجب عليه في ظاهر مذهب الأئمة وغيرهم كما قال مسروق من اضطر إلى الميتة فلم يأكل حتى مات دخل النار¹

ان الله لما حرم الميتة والدم ولحم الخنزير وغيرها لم يبيح ذلك الا لمن اضطر اليها غير باغ ولا عاد وفي آية أخرى { فَمَنْ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ } المائدة² 3

10-الخبائث جميعا تباح للمضطر

فان الخبائث جميعا تباح للمضطر فله أن يأكل عند الضرورة الميتة والدم ولحم الخنزير وله أن يشرب عند الضرورة ما يرويه كالمياه النجسة والأبوال التي ترويه وإنما منعه أكثر الفقهاء عن شرب الخمر قالوا لأنها تزيد عطشا وأما التوضؤ بماء الولوج فلا يجوز عند جماهير العلماء بل يعدل عنه إلى التيمم ويجب على المضطر أن يأكل ويشرب ما يقيم به نفسه فمن اضطر إلى الميتة أو الماء النجس فلم يشرب ولم يأكل حتى مات دخل النار ولو وجد غيره مضطرا إلى ما معه من الماء الطيب أو النجس فعليه أن يسقيه إياه ويعدل إلى التيمم سواء كان عليه جنابة أو حدث صغير ومن اغتسل وتوضأ وهناك مضطر من أهل الملة أو الذمة أو دوابهم المعصومة فلم يسقه كان آثما عاصيا والله أعلم³

11-الضرورة بسبب محذور لا تستباح بها المحرمات

قال تعالى { **إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخَنزِيرِ وَمَا أُهْلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ** } النحل¹¹⁵

سائر العبادات من الصلاة والجهاد وغير ذلك كل ذلك واجب مع القدرة فاما مع العجز فان الله لا يكلف نفسا إلا وسعها ولهذا أمر الله المصلى ان يتطهر بالماء فان عدمه او خاف الضرر باستعماله لشدة البرد او جراحة او غير ذلك تيمم صعيدا طيبا فمسح بوجهه ويديه منه وقال النبي لعمران بن حصين صل قائما فان لم تستطع فقاعدا فان لم تستطع فعلى جنب فقد أوجب الله فعل الصلاة في الوقت على أى حال أمكن كما قال تعالى { **حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ** } {238} فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَأَذْكُرُوا اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ } {239} البقرة 238-239 فأوجب الله الصلاة على الآمن والخائف والصحيح والمريض والغنى والفقير والمقيم والمسافر وحففها على المسافر والخائف والمريض كما جاء به الكتاب والسنة

¹مجموع الفتاوى ج: 24 ص: 269 و مجموع الفتاوى ج: 21 ص: 563

²مجموع الفتاوى ج: 24 ص: 276

³مجموع الفتاوى ج: 21 ص: 79

وكذلك أوجب فيها واجبات من الطهارة والستارة واستقبال القبلة وأسقط ما يعجز عنه العبد من ذلك فلوا انكسرت سفينة قوم أو سلبهم المحاربون ثيابهم صلوا عراة بحسب أحوالهم وقام إمامهم وسطهم لئلا يرى الباقر عورته ولو اشتبهت عليهم القبلة اجتهدوا في الاستدلال عليها فلو عميت الدلائل صلوا كيفما أمكنهم كما قد روى أنهم فعلوا ذلك فهكذا الجهاد والولايات وسائر أمور الدين وذلك كله في قوله تعالى { فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ } التغابن 16 وفي قول النبي إذا امرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم كما أن الله تعالى لما حرم المطاعم الخبيثة قال { فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ } النحل 115 وقال تعالى { وَمَا جَعَلْ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ } الحج 78 وقال تعالى { مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ } المائدة 6 فلم يوجب مالا يستطاع ولم يحرم ما يضطر إليه إذا كانت الضرورة بغير معصية من العبد¹

قال تعالى { إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخَنزِيرِ وَمَا أُهْلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ } النحل 115 فالضرورة بسبب محظور لا تستباح بها المحرمات بخلاف الضرورة التي هي بسبب غير محظور²

قال تعالى { إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخَنزِيرِ وَمَا أُهْلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ } النحل 115 ثم إنه بعد هذا حرم الله أشياء فلم يكن بين نفي تحريمها في الزمن الأول وإثبات تحريمها في الزمن الثاني منافاة ولكن يظهر الدين إذا أوجب شيئاً ثم نسخ إيجابه كما نسخ إيجاب الصدقة بين يدي النجوى ففي مثل هذا يتمسك بالنص الناسخ دون المنسوخ كما يتمسك بالإقرار بالوفاء بالناسخ للإقرار بالدين³

ان هذا الدين يسر ولن يشاد الدين احد الا غلبه

قال تعالى { إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخَنزِيرِ وَمَا أُهْلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ } النحل 115

قد أمر الله ورسوله بأفعال واجبة ومستحبة وإن كان الواجب مستحباً وزيادة ونهى عن أفعال محرمة أو مكروهة والدين هو طاعته وطاعة رسوله وهو الدين والتقوى والبر والعمل الصالح والشرعة والمناهج وإن كان بين هذه الأسماء فروق وكذلك حمد أفعالها هي الحسنات ووعد عليها وذم أفعالها هي السيئات وأوعد عليها وقيدها بالقدرة والاستطاعة والوسع والطاقة فقال تعالى { فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ } التغابن 16 وقال تعالى { لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ } البقرة 286 وقال تعالى { وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا } الطلاق 7 وكل من الآيتين وإن كانت عامه فسبب الأولى المحاسبه على ما فى النفوس وهو من

¹مجموع الفتاوى ج: 28 ص: 389 و السياسة الشرعية ج: 1 ص: 136

²مجموع الفتاوى ج: 10 ص: 347

³الجواب الصحيح ج: 2 ص: 41

جنس أعمال القلوب وسبب الثانيه الاعطاء الواجب وقال {لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ} التوبة 91 وقد ذكر في الصيام والاحرام والطهارة والصلاة والجهاد من هذا أنواعا وقال في المنهيات {فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ} النحل 115¹

ان الله سبحانه أمرنا بالمعروف وهو طاعته وطاعة رسوله وهو الصلاح والحسنات والخير والبر ونهى عن المنكر وهو معصيته ومعصية رسوله وهو الفساد والسيئات والشر والفجور وقيد الايجاب بالاستطاعة والوسع وابعح مما حرم ما يضطر المرء اليه غير باغ ولا عاد فقال تعالى اتقوا الله حق تقاته سورة آل عمران 102 وقال فاتقوا الله ما استطعتم سورة التغابن 16 وثبت في الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال ذروني ما تركتكم فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على انبيائهم فإذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه وإذا امرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم فأوجب مما امر به ما يستطاع وكذلك فإن النبي صلى الله عليه وسلم قال في حديث اخر انكم لن تحصوا او تستطيعوا كل ما امرتم به ولكن وقال ان هذا الدين يسر ولن يشاد الدين احد الا غلبه فسددوا وقاربوا واستعينوا بالغدوة والروحة وشيء من الدلجة والقصد القصد تبلغوا وهذا العام المجمل فصله فقال في المحرمات {إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَالْحَمَّ الْخَنِزِيرَ وَمَا أَهْلٌ لِّغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ} النحل 115 فهذا في تحريم المطاعم قد رفع الاثم عن اضطر غير باغ ولا عاد والباغي والعادي قد قيل انهما صفة للشخص مطلقا فالباغي كالباغي على امام المسلمين واهل العدل منهم كما قال تعالى {فَإِنْ بَعَثَ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْآخَرَى فَفَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ} الحجرات 9 والعادي كالصائل قاطع الطريق الذي يريد النفس او المال وقيل انهما صفة لغير المضطر فالباغي الذي يبغي المحرم مع قدرته على الحلال والعادي الذي يتجاوز قدر الحاجة كما قال {فَمَنْ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ} المائدة 3²

التحريم باق على اليهود بعد مبعث محمد لا يزول إلا بمتابعته

قال تعالى { يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ} البقرة 168 خاطب الناس بأكل ما في الأرض حلالا طيبا وأن لا يتبعوا خطوات الشيطان في خلاف ذلك فانه إنما يأمر بالسوء والفحشاء وأن يقولوا على الله ما لا يعلمون فيقولوا هذا حرام وهذا حلال أو غير ذلك مما يقولونه على الله في الأمور الخيرية والعملية بلا علم كما قال تعالى { وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتَكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ} 116 {مَتَاعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ} 117 {النحل 116-117} ثم إن هؤلاء

¹مجموع الفتاوى ج: 20 ص: 50

²الاستقامة ج: 2 ص: 316

الذين يقولون على الله بغير علم إذا قيل لهم { اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَفْقَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا
{البقرة 170} فليس عندهم علم بل عندهم اتباع سلفهم وهو الذي اعتادوه وتربوا عليه ثم خاطب
المؤمنين خصوصا فقال { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ
تَعْبُدُونَ } {172} { إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخَنزِيرِ وَمَا أُهْلَ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ } {173} {البقرة 172-
173} فأمرهم بأكل الطيبات مما رزقهم لأنهم هم المقصودون بالرزق ولم يشترط الحل هنا لأنه إنما
حرم ما ذكر فما سواه حلال لهم والناس إنما أمرهم بأكل ما في الأرض حلالا طيبا وهو إنما أحل
للمؤمنين والكفار لم يحل لهم شيئا فالحل مشروط بالايمن ومن لم يستعن برزقه على عبادته لم يحل
له شيئا وإن كان أيضا لم يحرمه فلا يقال إن الله أحله لهم ولا حرمه وإنما حرم على الذين هادوا ما
ذكره في سورة الأنعام ولهذا أنكر في سورة الأنعام وغيرها على من حرم ما لم يحرمه كقوله {
قُلِ الذَّكْرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنثَيَيْنِ } {الأنعام 143} ثم قال { وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفْرٍ
} {الأنعام 146} ثم قال تعالى { قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّي عَلَيْكُمْ } {الأنعام 151} الآيات وقال في
سورة النحل { وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ
يَظْلِمُونَ } {النحل 118} الآية وأخبر أنه حرم ذلك ببغيتهم فقال { فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ
طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ } {النساء 160} وقال { ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِبَغْيِهِمْ } {الأنعام 146} وهذا كله يدل على
أصح قولي العلماء وهو أن هذا التحريم باق عليهم بعد مبعث محمد لا يزول إلا بمتابعته لأنه تحريم
عقوبة على ظلمهم وبغيتهم وهذا لم يزل بل زاد وتغلظ فكانوا أحق بالعقوبة وأيضا فان الله تعالى
أخبر بهذا التحريم بعد مبعث محمد ليبين أنه لم يحرم إلا هذا وهذا فلو كان ذلك التحريم قد زال لم
يستثنه وأيضا فان التحريم لا يزول الا بتحليل منه وهو انما أحل أكل الطيبات للمؤمنين بقوله
{ لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا } {المائدة 93} الآية وقوله { أُحِلَّتْ لَكُمْ
بِهَيْمَةَ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُنْتَلَىٰ عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُجْلَىٰ الصَّيْدِ } {المائدة 1} وقوله { يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ
لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ } {المائدة 4} الى قوله { وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ } {المائدة 5}
وهذا خطاب للمؤمنين ولهذا قال { وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ } {المائدة 5} ثم قال { وَطَعَامُكُمْ
حِلٌّ لَهُمْ } {المائدة 5} فلو كان ما أحل لنا حلالا لهم لم يحتج الي هذا وقوله { وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ
} {المائدة 5} لا يدخل فيه ما حرم عليهم كما أن قوله { وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ } {المائدة 5}
لا يدخل فيه ما حرم علينا مما يستحلونه هم كصيد الحرم وما أهل به لغير الله وهل يدخل في
طعامهم الذي احل لنا ما حرم عليهم ولم يحرم علينا مثل ما اذا ذكوا الابل هذا فيه نزاع معروف
فالمشهور من مذهب مالك هو أحد القولين في مذهب أحمد تحريمه ومذهب ابى حنيفة والشافعي
والقول الآخر في مذهب أحمد حله وهل العلة انهم لم يقصدوا ذكاته أو العلة انه ليس من طعامهم
فيه نزاع وإذا ذبحوا للمسلم فهل هو كما اذا ذبحوا لأنفسهم فيه نزاع وفي جواز ذبحهم
النسك اذا كانوا ممن يحل ذبحهم قولان هما روايتان عن أحمد فالمنع مذهب مالك والجواز مذهب ابى
حنيفة والشافعي فاذا كان الذابح يهوديا صار في الذبح علتان وليس هذا موضع هذه المسائل¹

يجيء الوصف في القرآن مستعملا في الكذب

قال تعالى { وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتَكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لَتَنفَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ } {116} {مَتَاعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ} {117} {النحل 116-117}

فالواصف ان لم يكن قوله مطابقا كان كاذبا ولهذا انما يجيء الوصف في القرآن مستعملا في الكذب بأنه وصف يقوم بالواصف من غير أن يقوم بالموصوف شيء كقوله سبحانه { سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ } {الأنعام 139} {وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتَكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لَتَنفَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ} {النحل 116} {وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَى} {النحل 62} {سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ} {الصفات 180} وقد جاء مستعملا في الصدق فيما أخرجاه في الصحيحين عن عائشة أن رجلا كان يكثر قراءة قل هو الله أحد فقال النبي سلوه لم يفعل ذلك فقال لأنها صفة الرحمن فأنا أحبها فقال النبي صلى الله عليه وسلم أخبروه ان الله يحبه

قال تعالى { وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتَكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لَتَنفَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ } {116} {مَتَاعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ} {117} {النحل 116-117} ¹

ما حرمه المشركون لم يحرمه على لسان موسى ولا لسان محمد

قال تعالى { وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَمًا مَّا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ } {النحل 118} ما كان يحرمه أهل الجاهلية مما ذكره الله في القرآن كالسائبة والوصيلة والحام وغير ذلك هو من الدين المبدل ولهذا لما ذكر الله ذلك عنهم في سورة الأنعام بين ان من حرم ذلك فقد كذب على الله وذكر تعالى ما حرمه على لسان محمد وعلى لسان موسى في الأنعام فقال { قُلْ لَا أُجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مِيتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خَنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهْلًا لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ } {الأنعام 145} وكذلك قال بعد هذا { وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَمًا كُلِّ ذِي ظُفْرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْعَنَمِ حَرَمًا عَلَيْهِمْ شُحُومُهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوْ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِبَعْغِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ } {الأنعام 146} فبين ان ما حرمه المشركون لم يحرمه على لسان موسى ولا لسان محمد وهذان هما اللذان جاء بكتاب فيه الحلال والحرام كما قال تعالى { قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا أَتَّبِعُهُ } {القصص 49} وقال تعالى { وَمِن قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً } {هود 17} ان هذا والذي جاء به موسى ليخرجان من مشكاة واحدة وكذلك قال النجاشي فالقرآن والتوراة هما كتابان جاء من عند الله لم يأت من عنده كتاب أهدى منهما كل منهما أصل مستقل والذي فيهما دين واحد وكل منهما يتضمن اثبات صفات الله تعالى والأمر بعبادته وحده لا شريك له ففيه التوحيد قولا وعملا كما في سورتي الإخلاص قل يا أيها الكافرون و قل هو الله احد وأما الزبور فان داود لم يأت بغير شريعة التوراة وانما في الزبور ثناء على الله ودعاء وأمر ونهى بدينه وطاعته وعبادته

¹مجموع الفتاوى ج: 6 ص: 319

مطلقاً واما المسيح فانه قال {وَلِأَجْلِ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ} آل عمران 50 فاحل لهم بعض المحرمات وهو في الاكثر متبع لشريعة التوراة ولهذا لم يكن بد لمن اتبع المسيح من ان يقرأ التوراة ويتبع ما فيها اذ كان الانجيل تبعاً لها وأما القرآن فانه مستقل بنفسه لم يحوج أصحابه الى كتاب آخر بل اشتمل على جميع ما في الكتب من المحاسن وعلى زيادات كثيرة لا توجد في الكتب فلهذا كان مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيماً عليه يقرر ما فيها من الحق ويبطل ما حرف منها وينسخ ما نسخه الله فيقرر الدين الحق وهو جمهور ما فيها ويبطل الدين المبدل الذي لم يكن فيها والقليل الذي نسخ فيها فان المنسوخ قليل جداً بالنسبة الى المحكم المقرر¹

الله سبحانه العدل الذي لا يظلم مثقال ذرة

قال تعالى { وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ } النحل 118 وقد قال تعالى { وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا } طه 112 قال المفسرون الظلم هو أن يحمل عليه سيئات غيره ويعاقب بغير ذنبه والهضم أن يهضم من حسناته وقال تعالى { وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ } النحل 118 وفي الحديث الصحيح عن أبي ذر رضى الله عنه عن النبي قال يقول الله تعالى يا عبادى انى حرمت الظلم على نفسى وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا يا عبادى كلكم ضال الا من هديته فاستهدونى اهدكم عبادى كلكم جائع الى من اطعمته فاستطعمونى اطعمكم يا عبادى كلكم عار الا من كسوته فاستكسونى اكسكم يا عبادى انكم تذبنون بالليل والنهار وانا اغفر الذنوب ولا ابالى فاستغفرونى اغفر لكم يا عبادى لو ان اولكم وأخركم وانسكم وجنكم كانوا على اتقى قلب رجل واحد منكم مازاد ذلك فى ملكى شيئاً يا عبادى لو ان اولكم وأخركم وانسكم وجنكم كانوا على افجر قلب رجل واحد منكم ما نقص ذلك من ملكى شيئاً يا عبادى لو ان اولكم وأخركم وانسكم وجنكم اجتمعوا فى وصعيد واحد فسألونى فأعطيت كل واحد منهم مسألته ما نقص ذلك من ملكى الا كما ينقص المخيط الا اذا غمس فى البحر يا عبادى انما هي اعمالكم احصيتها لكم ثم اوفيكم اياها فمن وجد خيراً فليحمد الله ومن وجد غير ذلك فلا يلومن الا نفسه²

فالله سبحانه وتعالى حرم على نفسه الظلم والظلم ممتنع من الله سبحانه وتعالى بإتفاق المسلمين وقيل الظلم وضع الشيء فى غير موضعه فهو سبحانه لا يظلم الناس شيئاً³

¹مجموع الفتاوى ج: 19 ص: 183-185

²مجموع الفتاوى ج: 10 ص: 87 و أمراض القلوب ج: 1 ص: 78 و التحفة العراقية ج: 1 ص: 78-79

³مجموع الفتاوى ج: 1 ص: 219

الجهمية وغيرهم يقولون بان الله عز وجل يخلق ما هو شر محض لا نفع فيه ولا رحمة ولا حكمة لأحد وإنما يتصف بإرادة ترجح مثلاً على مثل لا فرق عنده بين أن يرحم أو يعذب وليست نفسه ولا إرادته مرجحة للإحسان إلى الخلق بل تعذيبهم وتنعيمهم سواء عنده وهو مع هذا يخلق ما يخلق لمجرد العذاب والشر ويفعل ما يفعل لا لحكمة ونحو ذلك مما يقوله الجهمية وهؤلاء يقيمون حجج إبليس وأتباعه على الله ويجعلون الرب ظالماً لهم وهو خلاف ما وصف الله به نفسه في قوله تعالى { وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ } النحل 118 كيف يكون ظالماً وهم فيما بينهم لو أساء بعضهم إلى بعض أو قصر في حقه لكان يؤاخذ ويعاقبه وينتقم منه ويكون ذلك عدلاً إذا لم يعتد عليه ولو قال إن الذي فعلته قدر علي فلا ذنب لي فيه لم يكن هذا عذراً له عندهم باتفاق العقلاء فإذا كان العقلاء متفقين على أن حق المخلوق لا يجوز إسقاطه احتجاجاً بالقدر فكيف يجوز إسقاط حق الخالق احتجاجاً بالقدر وهو سبحانه الحكم العدل الذي لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجراً عظيماً¹

الأمر الذي كتبه الله على نفسه أو حرمه على نفسه لا يكون إلا مقدوراً له

سبحانه

قال تعالى { وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ } النحل 118 أن سائر أهل السنة الذين يقرون بالقدر ليس فيهم من يقول إن الله تعالى ليس بعدل ولا من يقول إنه ليس بحكيم ولا فيهم من يقول إنه يجوز أن يترك واجبا ولا أن يفعل قبيحا فليس في المسلمين من يتكلم بمثل هذا الكلام الذي أطلقه ومن أطلقه كان كافرا مباح الدم باتفاق المسلمين ولكن هذه مسألة القدر والنزاع فيها معروف بين المسلمين فأما نفاة القدر كالمعتزلة ونحوهم فقولهم هو الذي ذهب إليه متأخرو الإمامية وأما المثبتون للقدر وهو جمهور الأمة وأئمتها كالصحابية والتابعين لهم بإحسان وأهل البيت وغيرهم فهؤلاء تنازعوا في تفسير عدل الله وحكمته والظلم الذي يجب تنزيهه عنه وفي تعليل أفعاله وأحكامه ونحو ذلك فقالت طائفة إن الظلم ممتنع منه غير مقدور وهو محال لذاته كالجمع بين النقيضين وإن كل ممكن مقدور فليس هو ظلماً وهؤلاء هم الذين قصدوا الرد عليهم وهؤلاء يقولون إنه لو عذب المطيعين ونعم العصاة لم يكن ظالماً وقالوا الظلم التصرف فيما ليس له والله تعالى له كل شيء أو هو مخالفة الأمر والله لا أمر له وهذا قول كثير من أهل الكلام المثبتين للقدر ومن وافقهم من الفقهاء أصحاب الأئمة الأربعة وقال طائفة بل الظلم مقدور ممكن والله تعالى منزه لا يفعله لعدله ولهذا مدح الله نفسه حيث أخبر أنه لا يظلم الناس شيئا والمدح إنما يكون بترك المقدور عليه لا بترك الممتنع قالوا وقد قال تعالى

¹ الحسنة والسيئة ج: 1 ص: 79

{وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا} طه 112 قالوا الظلم أن يحمل عليه سيئات غيره والهضم أن يهضم حسناته وقال تعالى {ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْفُرَى نَفْصُهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ} 100 { وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ } 101 {هود 100- 101 فأخبر أنه لم يظلمهم لما أهلكهم بل أهلكهم بذنوبهم وقال تعالى { وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ } الزمر 69 فدل على أن القضاء بينهم بغير القسط ظلم والله منزه عنه وقال تعالى {وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ} الأنبياء 47 أي لا تنقص من حسناتها ولا تعاقب بغير سيئاتها فدل على أن ذلك ظلم ينزه الله عنه وقال تعالى { قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا لَدِيَ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ } 28 { مَا يُبَدِّلُ الْقَوْلَ لَدِيَّ وَمَا أَنَا بِظَالِمٍ لِلْعَبِيدِ } 29 { ق 28- 29 وإنما نزه نفسه عن أمر يقدر عليه لا عن الممتنع لنفسه ومثل هذا في القرآن في غير موضع مما يبين أن الله ينتصف من العباد ويقضي بينهم بالعدل وأن القضاء بينهم بغير العدل ظلم ينزه الله عنه وأنه لا يحمل على أحد ذنب غيره وقال تعالى { وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى } الأنعام 164 فإن ذلك ينزه الله عنه بل لكل نفس ما كسبت وعليها ما اكتسبت وقد ثبت في الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أن الله تعالى يقول يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا فقد حرم على نفسه الظلم كما كتب على نفسه الرحمة في قوله { كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ } الأنعام 54 وفي الحديث الصحيح لما قضى الله الخلق كتب في كتاب فهو موضوع عنده فوق العرش إن رحمتي غلبت غضبي والأمر الذي كتبه الله على نفسه أو حرمه على نفسه لا يكون إلا مقدوراً له سبحانه فالممتنع لنفسه لا يكتبه على نفسه ولا يحرمه على نفسه وهذا القول قول أكثر أهل السنة والمنتبين للقدر من أهل الحديث والتفسير والفقهاء والكلام والتصوف من أتباع الأئمة الأربعة وغيرهم¹

قال تعالى { وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ } النحل 118 قال كثير من أهل السنة والحديث والنظار الظلم هو وضع الشيء في غير موضعه ومن ذلك أن يبخر المحسن شيئاً من حسناته أو يحمل عليه من سيئات غيره وهذا من الظلم الذي نزه الله نفسه عنه كقوله تعالى {وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا} طه 112 قال غير واحد من السلف الهضم أن يهضم من حسناته والظلم أن يزداد في سيئاته وقد قال تعالى { أَمْ لَمْ يُنَبِّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى } 36 { وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى } 37 { أَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى } 38 { وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى } 39 { النجم 36-39 وقال { قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا لَدِيَ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ } 28 { مَا يُبَدِّلُ الْقَوْلَ لَدِيَّ وَمَا أَنَا بِظَالِمٍ لِلْعَبِيدِ } 29 { ق 28- 29 وفي حديث البطاقة الذي رواه الترمذي وغيره وحسنه ورواه الحاكم في صحيحه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال يجمع يوم القيامة برجل من أمتي على رؤوس الخلائق فينشر له تسعة وتسعون سجلاً كل سجل منها مد البصر ثم يقول الله تعالى له أنتكر من هذا شيئاً فيقول لا يارب فيقول الله عز وجل ألك عذرا أو حسنة فيهاب الرجل فيقول لا يارب فيقول الله تعالى بلى إن لك عندنا

¹ منهاج السنة النبوية ج: 1 ص: 137-139

حسانات و أنه لا ظلم عليك فتخرج له بطاقة فيها أشهد أن لا إله إلا الله و أشهد أن محمدا رسول الله فيقول يارب ما هذه البطاقة مع هذه السجلات فيقول أنك لا تظلم قال فتوضع السجلات في كفة و البطاقة في كفة فطاشت السجلات و ثقلت البطاقة وقال تعالى {الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ} غافر 17 و قال تعالى {وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ} الزخرف 76 و قال {وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ} النحل 118 و مثل هذه النصوص كثيرة و معلوم أن الله تعالى لم ينف بها الممتنع الذي لا يقبل الوجود كالجمع بين الضدين فإن هذا لم يتوهم أحد و جوده و ليس في مجرد نفيه ما يحصل به مقصود الخطاب فإن المراد بيان عدل الله و أنه لا يظلم أحدا كما قال تعالى {وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا} {الكهف 49 بل يجازيهم بأعمالهم و لا يعاقبهم إلا بعد إقامه الحجة عليهم كما قال الله تعالى {وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا} {الإسراء 15 و قال {رُسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ} {النساء 165 و قال تعالى {وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ} {القصص 59 و في الصحيح عن النبي صلى الله عليه و سلم أنه قال ما أحد أحب إليه العذر من الله من أجل ذلك بعث الرسل و أنزل الكتب¹

ظلم النفس جنس عام يتناول كل ذنب

قال تعالى {وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ} {النحل 118 والتحقيق أن ظلم النفس جنس عام يتناول كل ذنب وفي الصحيحين أن أبا بكر قال يا رسول الله علمني دعاء أدعو به في صلاتي فقال قل اللهم إني ظلمت نفسي ظلما كثيرا ولا يغفر الذنوب إلا أنت فاغفر لي مغفرة من عندك وارحمني إنك أنت الغفور الرحيم وفي صحيح مسلم وغيره أن النبي كان يقول في استفتاحه اللهم أنت ربي وأنا عبدك ظلمت نفسي واعترفت بذنبي فاغفر لي فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت واهدني لأحسن الأخلاق فإنه لا يهدي لأحسنها إلا أنت واصرف عني سيئها فإنه لا يصرف عني سيئها إلا أنت وقد قال أبو البشر وزوجته {قَالَ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ} {الأعراف 23 وقال موسى {رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي} {القصص 16 وقال ذوالنون يونس {لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ} {الأنبياء 87 وقالت بلقيس {رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ} {النمل 44 وقد قال عن أهل القرى المعذبين {وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ} {هود 101²

¹مجموع الفتاوى ج: 8 ص: 506-508

²مجموع الفتاوى ج: 11 ص: 693

الإنسان هو فاعل السيئات وأنه يستحق عليها العقاب

قال تعالى { وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ } النحل 118 قال تعالى { مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنَ نَفْسِكَ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا } النساء 79 فهذه الآية بيان أن الإنسان هو فاعل السيئات وأنه يستحق عليها العقاب والله ينعم عليه بالحسنات عملها وجزائها فإنه إذا كان ما أصابهم من حسنة فهو من الله فالنعم من الله سواء كانت ابتداء أو كانت جزاء وإذا كانت جزاء وهي من الله فالعمل الصالح الذي كان سببها هو أيضا من الله أنعم بهما الله على العبد وإلا فلو كان هو من نفسه كما كانت السيئات من نفسه لكان كل ذلك من نفسه والله تعالى قد فرق بين النوعين في الكتابة والسنة كما في الحديث الصحيح الإلهي عن الله يا عبادي إنما هي أعمالكم أوفيكم إياها فمن وجد خيرا فليحمد الله ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه قال تعالى { وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ } النحل 118¹

وقال تعالى عموما عن أهل القرى المهلكة { وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ } هود 101 فظلموا أنفسهم بارتكابهم ما نهوا عنه وبعضيائهم لأنبيائهم وبتركهم التوبة إلى ربهم²

السيئات فمنشؤها الجهل والظلم

قال تعالى { ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ } النحل 119 وأما السيئات فمنشؤها الجهل والظلم فإن أحدا لا يفعل سيئة قبيحة إلا لعدم علمه بكونها سيئة قبيحة أو لهواه وميل نفسه إليها ولا يترك حسنة واجبة إلا لعدم علمه بوجوبها أو لبغض نفسه لها وفي الحقيقة فالسيئات كلها ترجع إلى الجهل وإلا فلو كان عالما علما نافعا بأن فعل هذا يضره ضررا راجحا لم يفعله فإن هذا خاصية العاقل ولهذا إذا كان من الحسنات ما يعلم أنه يضره ضررا راجحا كالسقوط من مكان عال أو في نهر يغرقه أو المرور بجانب حائط مائل أو دخول نار متأججة أو رمى ماله في البحر ونحو ذلك لم يفعله لعلمه بأن هذا ضرر لا منفعة فيه ومن لم يعلم أن هذا يضره كالصبي والمجنون والساهي والغافل فقد يفعل ذلك ومن أقدم على ما يضره مع علمه من الضرر عليه فلظنه أن منفعته راجحة فأما أن يجزم بضرر مرجوح أو يظن أن

¹مجموع الفتاوى ج: 14 ص: 248 والحسنة والسيئة ج: 1 ص: 31

²مجموع الفتاوى ج: 10 ص: 572

الخير راجح فلا بد من رجحان الخير إما في الظن وإما في المظنون كالذي يركب البحر ويسافر
الأسفار البعيدة للريح فإنه لو جزم بأنه يغرق أو يخسر لما سافر لكنه يترجح عنده السلامة والريح
وإن كان مخطئاً في هذا الظن وكذلك الذنوب إذا جزم السارق بأنه يؤخذ ويقطع لم يسرق وكذلك
الزاني إذا جزم بأنه يرجم لم يزن والشارب يختلف حاله فقد يقدم على جلد أربع وثمانين ويديم الشرم
مع ذلك ولهذا كان الصحيح أن عقوبة الشارب غير محددة بل يجوز أن تنتهي إلى القتل إذا لم ينته إلا
بذلك كما جاءت بذلك الأحاديث كما هو مذكور في غير هذا الموضوع وكذلك العقوبات متى جزم
طالب الذنب بأنه يحصل له به الضرر الراجح لم يفعله بل إما أن لا يكون جازماً بتحريمه أو يكون
غير جازم بعقوبته بل يرجو العفو بحسنات أو توبة أو بعفو الله أو يغفل عن هذا كله ولا يستحضر
تحريماً ولا وعيداً فيبقى غافلاً غير مستحضر للتحريم والغفلة من أصداد العلم فالغفلة والشهوة أصل
الشر قال تعالى {وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ
عَنْهُمْ تَرْيَدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا
{الكهف 28} والهوى وحده لا يستقل بفعل السيئات إلا مع الجهل وإلا فصاحب الهوى إذا علم قطعاً
أن ذلك يضره ضرراً راجحاً انصرفت نفسه عنه بالطبع فإن الله تعالى جعل في النفس حبا لما ينفعها
وبغضا لما يضرها فلا تفعل ما تجزم بأنه يضرها ضرراً راجحاً بل متى فعلته كان لضعف العقل
ولهذا يوصف هذا بأنه عاقل وذو نهى وذو حجي ولهذا كان البلاء العظيم من الشيطان لا من
مجرد النفس فإن الشيطان يزين لها السيئات ويأمرها بها ويذكر لها ما فيها من المحاسن التي هي
منافع لا مضار كما فعل إبليس بآدم وحواء فأصل ما يوقع الناس في السيئات الجهل وعدم العلم
بكونها تضرهم ضرراً راجحاً أو ظن أنها تنفعهم نفعاً راجحاً ولهذا قال الصحابة رضي الله عنهم كل
من عصى الله فهو جاهل قال تعالى {ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِن بَعْدِ ذَلِكَ
وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ {النحل 119} ولهذا يسمى حال فعل السيئات الجاهلية فإنه
يصاحبها حال من حال جاهلية وعن قتادة قال أجمع أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم على أن
كل من عصى ربه فهو في جهالة عمداً كان أو لم يكن وكل من عصى الله فهو جاهل وكذلك قال
التابعون ومن بعدهم قال مجاهد من عمل ذنباً من شيخ أو شاب فهو بجهالة وقال من عصى ربه
فهو جاهل حتى ينزع عن معصيته وقال أيضاً هو إعطاء الجهل العمد وقال مجاهد أيضاً من عمل
سوءاً خطأً أو إثمياً عمداً فهو جاهل حتى ينزع منه وراهن ابن أبي حاتم ثم قال روى عن قتادة
وعمر بن مرة والثوري ونحو ذلك خطأً أو عمداً وروى عن مجاهد والضحاك قال لا يس من
جهالته أن لا يعلم حلالاً ولا حراماً ولكن من جهالته حين دخل فيه وقال عكرمة الدنيا كلها جهالة
وعن الحسن البصري أنه سئل عنها فقال هم قوم لم يعلموا ما لهم مما عليهم قيل له أرأيت لو كانوا قد
علموا قال فليخرجوا منها فإنها جهالة¹

قال تعالى {ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِن بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا
لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ {النحل 119} والأمور التي حرمها الله ورسوله من الشرك والسحر والقتل والزنا وشهادة
الزور وشرب الخمر وغير ذلك من المحرمات قد يكون للنفس فيها حظ مما تعده منفعة أو دفع مضرة

¹ الحسنة والسيئة ج: 1 ص: 62-63

ولولا ذلك ما أقدمت النفوس على المحرمات التي لا خير فيها بحال وإنما يوقع النفوس في المحرمات الجهل أو الحاجة فأما العالم بقبح الشيء والنهي عنه فكيف يفعله والذين يفعلون هذه الأمور جميعها قد يكون عندهم جهل بما فيه من الفساد وقد تكون بهم حاجة إليها مثل الشهوة إليها وقد يكون فيها من الضرر أعظم مما فيها من اللذة ولا يعلمون ذلك لجهلهم أو تغلبهم أهواؤهم حتى يفعلوها والهوى غالباً يجعل صاحبه كانه لا يعلم من الحق شيئاً فإن حبك للشيء يعمى ويصم ولهذا كان العالم يخشى الله وقال أبو العالية سألت أصحاب محمد صلى الله عليه وآله وسلم عن قول الله عز وجل { إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ } النساء 17 الآية فقالوا كل من عصى الله فهو جاهل وكل من تاب قبل الموت فقد تاب من قريب وليس هذا موضع البسط لبيان ما في المنهيات من المفاصد الغالبة وما في المأمورات من المصالح الغالبة بل يكفي المؤمن أن يعلم أن ما أمر الله به فهو لمصلحة محضة أو غالبة وما نهى الله عنه فهو مفسدة محضة أو غالبة وإن الله لا يأمر العباد بما أمرهم به لحاجته إليهم ولا نهاهم عما نهاهم بخلافه عليهم بل أمرهم بما فيه صلاحهم ونهاهم عما فيه فسادهم ولهذا وصف نبيه صلى الله عليه وسلم بأنه { يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ } الأعراف 157¹

المغفرة لكل ذنب للتائب منه

قال تعالى { ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَعَفُورٌ رَحِيمٌ } النحل 119 قوله يا عبادى إنكم تخطئون بالليل والنهار وأنا أغفر الذنوب جميعا وفى رواية وأنا اغفر الذنوب ولا أبالى فاستغفرونى أغفر لكم فالمغفرة العامة لجميع الذنوب نوعان أحدهما المغفرة لمن تاب كما فى قوله تعالى { قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ {53} } وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلَمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ } {54} الزمر 53-54 فهذا السياق مع سبب نزول الآية يبين أن المعنى لا يبيأس مذنب من مغفرة الله ولو كانت ذنوبه ما كانت فإن الله سبحانه وتعالى لا يتعاضمه ذنب أن يغفره لعبده التائب وقد دخل فى هذا العموم الشرك وغيره من الذنوب فإن الله تعالى يغفر ذلك لمن تاب منه قال تعالى { فَإِذَا انسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرْمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ } التوبة 5 إلى قوله { فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ } التوبة 5 وقال فى الآية الأخرى { فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ } التوبة 11 وقال { لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَلَاثٌ ثَلَاثَةٌ } المائدة 73 إلى قوله { أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ } المائدة 74 وهذا القول الجامع بالمغفرة لكل ذنب للتائب منه كما دل عليه القرآن والحديث هو الصواب عند جماهير أهل العلم وإن كان من الناس من يستثنى بعض الذنوب كقول بعضهم إن توبة الداعية إلى البدع لا تقبل باطنا للحديث الإسرائيلى الذى فيه فكيف من أضللت وهذا غلط فإن الله قد بين فى كتابه وسنة رسوله أنه يتوب على أئمة الكفر الذين هم اعظم من أئمة البدع وقد قال تعالى { إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابٌ

¹مجموع الفتاوى ج: 27 ص: 91 وزيارة القبور ج: 1 ص: 52

جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ { البروج 10 قال الحسن البصرى إنظروا إلى هذا الكرم عذبوا أوليائه وفتنوهم ثم هو يدعوهم إلى التوبة وكذلك توبة القاتل ونحوه وحديث أبى سعيد المتفق عليه فى الذى قتل تسعة وتسعين نفسا يدل على قبول توبته وليس فى الكتاب والسنة ما ينافى ذلك ولا نصوص الوعيد فيه وفى غيره من الكبائر بمنافية لنصوص قبول التوبة فليست آية الفرقان بمنسوخة بآية النساء إذ لا منافاة بينهما فإنه قد علم يقينا أن كل ذنب فيه وعيد فإن لحوق الوعيد مشروط بعدم التوبة إذ نصوص التوبة مبينة لتلك النصوص كالوعيد فى الشرك واكل الربا واكل مال اليتيم والسحر وغير ذلك من الذنوب ومن قال من العلماء توبته غير مقبولة فحقيقة قوله التى تلائم أصول الشريعة أن يراد بذلك أن التوبة المجردة تسقط حق الله من العقاب وأما حق المظلوم فلا يسقط بمجرد التوبة وهذا حق ولا فرق فى ذلك بين القاتل وسائر الظالمين فمن تاب من ظلم لم يسقط بتوبته حق المظلوم لكن من تمام توبته أن يعوضه بمثل مظلمته وإن لم يعوضه فى الدنيا فلا بد له من العوض فى الآخرة فينبغى للظالم التائب أن يستكثر من الحسنات حتى إذا استوفى المظلومون حقوقهم لم يبق مفلسا ومع هذا فإذا شاء الله ان يعوض المظلوم من عنده فلا راد لفضله كما إذا شاء أن يغفر ما دون الشرك لمن يشاء ولهذا فى حديث القصاص الذى ركب فيه جابر بن عبدالله إلى عبدالله بن أنيس شهرا حتى شافهه به وقد رواه الإمام أحمد وغيره وإستشهد به البخارى فى صحيحه وهو من جنس حديث الترمذى صحاحه أو حسانه قال فيه إذا كان يوم القيامة فإن الله يجمع الخلائق فى صعيد واحد يسمعهم الداعى وينفذهم البصر ثم يناديهم بصوت يسمعه من بعد كما يسمعه من قرب أنا الملك أنا الديان لا ينبغى لأحد من أهل الجنة أن يدخل الجنة ولا لأحد من أهل النار قبله مظلمة ولا ينبغى لأحد من أهل النار أن يدخل النار ولا لأحد من أهل الجنة حتى اقصه منه فبين فى الحديث العدل والقصاص بين أهل الجنة وأهل النار وفى صحيح مسلم من حديث أبى سعيد ان أهل الجنة إذا عبروا الصراط وقفوا على قنطرة بين الجنة والنار فيقتص لبعضهم من بعض فإذا هذبوا ونقوا اذن لهم فى دخول الجنة وقد قال سبحانه وتعالى لما قال { وَلَا يَعْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا } الحجرات 12 والإغتياب من ظلم الأعراض قال { أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ } الحجرات 12 فقد نههم على التوبة من الإغتياب وهو من الظلم وفى الحديث الصحيح من كان عنده لأخيه مظلمة فى دم أو مال أو عرض فليأتها فليستحل منه قبل أن ياتى يوم ليس فيه درهم ولا دينار إلا الحسنات والسيئات فإن كان له حسنات وإلا اخذ من سيئات صاحبه فطرحت عليه ثم يلقى فى النار أو كما قال وهذا فيما علمه المظلوم من العوض فاما إذا اغتابه أو قذفه ولم يعلم بذلك فقد قيل من شرط توبته إعلامه وقيل لا يشترط ذلك وهذا قول الأكثرين وهما روايتان عن أحمد لكن قوله مثل هذا أن يفعل مع المظلوم حسنات كالدعاء له والإستغفار وعمل صالح يهدى إليه يقوم مقام إغتيابه وقذفه قال الحسن البصرى كفارة الغيبة أن تستغفر لمن إغتبته وأما الذنوب التى يطلق الفقهاء فيها نفى قبول التوبة مثل قول أكثرهم لا تقبل توبة الزنديق وهو المنافق وقولهم إذا تاب المحارب قبل القدرة عليه تسقط عنه حدود الله وكذلك قول كثير منهم أو أكثرهم فى سائر الجرائم كما هو احد قولى الشافعى واصح الروايتين عن أحمد وقولهم فى هؤلاء إذا تابوا بعد الرفع إلى الإمام لم تقبل توبتهم فهذا إنما يريدون به رفع العقوبة المشروعة عنهم أى لا تقبل توبتهم بحيث يخلى بلا عقوبة بل يعاقب أما لأن توبته غير معلومة الصحة بل يظن به الكذب فيها ولما لأن رفع العقوبة بذلك يفضى إلى إنتهاك المحارم وسد باب العقوبة على الجرائم ولا يريدون بذلك إن من تاب من هؤلاء توبة صحيحة فإن الله لا يقبل توبته فى الباطن إذ ليس هذا قول أحد من أئمة الفقهاء بل هذه التوبة لا تمنع إلا إذا عاين أمر الآخرة كما قال تعالى { إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا } {17}

وَأَيَسَّتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ {18} النساء 17-18 الآية قال أبو العالية سألت اصحاب محمد عن ذلك فقالوا لى كل من عصى الله فهو جاهل وكل من تاب قبل الموت فقد تاب من قريب وأما من تاب عند معاناة الموت فهذا كفر عون الذى قال أنا الله فلما أدركه الغرق { قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ } يونس 90 قال الله تعالى { الْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ } يونس 91 وهذا إستفهام إنكار بين به أن هذه التوبة ليست هى التوبة المقبولة المأمور بها فإن إستفهام الإنكار إما بمعنى النفي إذا قابل الأخبار وإما بمعنى الذم والنهي إذا قابل الإنشاء وهذا من هذا ومثله قوله تعالى { فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ } {83} فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحَدَّةً وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ } {84} فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهُ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ } {85} غافر 83- 85 بين أن التوبة بعد رؤية البأس لا تنفع وإن هذه سنة الله التى قد خلت فى عباده كفر عون وغيره وفى الحديث إن الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر وروى مالك يعاين وقد ثبت فى الصحيحين أنه عرض على عمه التوحيد فى مرضه الذى مات فيه وقد عاد يهوديا كان يخدمه فعرض عليه الإسلام فأسلم فقال الحمد لله الذى انقذه بى من النار ثم قال لأصحابه أووا أخاكم ومما يبين ان المغفرة العامة فى الزمر هى للتائبين أنه قال فى سورة النساء { إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ } النساء 48 ففيد المغفرة بما دون الشرك وعلقها على المشيئة وهناك أطلق وعمم فدل هذا التقييد والتعليق على أن هذا فى حق غير التائب ولهذا إستدل أهل السنة بهذه الآية على جواز المغفرة لأهل الكبائر فى الجملة خلافا لمن أوجب نفوذ الوعيد بهم من الخوارج والمعتزلة وإن كان المخالفون لهم قد أسرف فريق منهم من المرجئة حتى توقفوا فى لحوق الوعيد بأحد من أهل القبلة كما يذكر عن غلاتهم أنهم نفوه مطلقا ودين الله وسط بين الغالى فيه والجافى عنه ونصوص الكتاب والسنة مع إتفاق سلف الأمة وأئمتها متطابقة على أن من اهل الكبائر من يعذب وأنه لا يبقى فى النار من فى قلبه مثقال ذرة من إيمان¹

من قال إنه لا يقبل توبة مبتدع مطلقا فقد غلط غلطا منكرا

قال تعالى { ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ } النحل 119 وقد قال سبحانه { وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ } الأنعام 54 وقال { إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا } النساء 17 فهذا وان كان قال الصحابة والتابعون ان كل عاص فهو جاهل كما قد بسط فى موضع آخر فهو متناول لمن يكون علم التحريم أيضا فدل على انه يكون عاملا سوءا وان كان لم يسمع الخطاب المبين المنهى عنه وانه يتوب من ذلك فيغفر الله له ويرحمه وان كان لا يستحق العقاب إلا بعد بلوغ الخطاب وقيام الحجة وإذا كانت التوبة والاستغفار تكون من ترك الواجبات وتكون مما لم يكن علم انه ذنب تبين كثرة ما يدخل فى التوبة

¹مجموع الفتاوى ج: 18 ص: 189- 192

والاستغفار فان كثيرا من الناس إذا ذكرت التوبة والاستغفار يستشعر قبائح قد فعلها فعلم بالعلم العام أنها قبيحة كالفاحشة والظلم الظاهر فأما ما قد يتخذ دينا فلا يعلم أنه ذنب إلا من علم أنه باطل كدين المشركين وأهل الكتاب المبدل فانه مما تجب التوبة والاستغفار منه وأهله يحسبون أنهم على هدى وكذلك البدع كلها ولهذا قال طائفة من السلف منهم الثوري البدعة أحب إلى إبليس من المعصية لأن المعصية يتاب منها والبدعة لا يتاب منها وهذا معنى ما روى عن طائفة أنهم قالوا إن الله حبر التوبة على كل صاحب بدعة بمعنى أنه لا يتوب منها لأنه يحسب انه على هدى ولو تاب لتاب عليه كما يتوب على الكافر ومن قال إنه لا يقبل توبة مبتدع مطلقا فقد غلط غلطا منكرا ومن قال ما اذن الله لصاحب بدعة في توبة فمعناه ما دام مبتدعا يراها حسنة لا يتوب منها فأما إذا أراه الله أنها قبيحة فانه يتوب منها كما يرى الكافر أنه على ضلال والا فمعلوم أن كثيرا ممن كان على بدعة تبين له ضلالها وتاب الله عليه منها وهؤلاء لا يحصيهم إلا الله و الخوارج لما أرسل إليهم ابن عباس فناظرهم ورجع منهم نصفهم أو نحوه وتابوا وتاب منهم آخرون على يد عمر بن عبد العزيز وغيره ومنهم من سمع العلم فتاب وهذا كثير فهذا القسم الذي لا يعلم فاعلوه قبحه قسم كثير من أهل القبلة وهو في غيرهم عام وكذلك ما يترك الانسان من واجبات لا يعلم وجوبها كثيرة جدا ثم إذا علم ما كان قد تركه من الحسنات من التوحيد والايمان وما كان مأمورا بالتوبة منه والاستغفار مما كان سيئة والتائب يتوب مما تركه وضيعه وفرط فيه من حقوق الله تعالى كما يتوب مما فعله من السيئات وان كان قد فعل هذا وترك هذا قبل الرسالة فالرسالة يستحق العقاب على ترك هذا وفعل هذا والا فكونه كان فاعلا للسيئات المذمومة وتاركا للحسنات التي يذم تاركها كان تائبا قبل ذلك كما تقدم وذكرنا القولين قول من نفى الذم والعقاب وقول من أثبت الذم والعقاب فان قيل إذا لم يكن معاقبا عليها فلا معنى لقبها قيل بل فيه معنيان أحدهما أنه سبب للعقاب لكن هو متوقف على الشرط وهو الحجة قال تعالى { وَكُنْتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُم مِّنْهَا } آل عمران 103 فلولا انقاذه لسقطوا ومن كان واقفا على شفير فهلك فهلاكه موقوف على سقوطه بخلاف ما اذا بان وبعد عن ذلك فقد بعد عن الهلاك فأصحابها كانوا قريبين إلى الهلاك والعذاب الثاني أنهم مذمومون منقوصون معييون فدرجتهم منخفضة بذلك ولا بد ولو قدر أنهم لم يعذبوا لا يستحقون ما يستحقه السليم من ذلك من كرامته ايضا وثوابه فهذه عقوبة بحرمان خير وهي احد نوعي العقوبة وهذا وان كان حاصلا لكل من ترك مستحبا فانه يفوته خيره ففرق بين ما يفوته مالم يحصل له وبين ما ينقص ما عنده وهذا كلام عام فيما لم يعاقب عليه من الذنوب وأما من لم يرسل اليه رسول في الدنيا فقد رويت آثار أنهم يرسل إليهم رسول في عرصات القيامة كما قد بسط في مواضع¹

فالتوبة قد يكون من تمامها عمل صالح يعمله

قال تعالى { ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ } النحل 119 فالتوبة قد يكون من تمامها عمل صالح يعمله فيبتلى بعد التوبة لينظر دوام

¹مجموع الفتاوى ج: 11 ص: 684-686

طاعته قال الله تعالى {إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ} آل عمران 89
 في التائب من الردة وقال في كاتم العلم {إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُّوا فَأُولَئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا
 التَّوَّابُ الرَّحِيمُ} البقرة 160 وقال {وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ
 عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ
 {الأنعام 54 وقال في القذف {إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ} {النور 5
 وقال {إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا
 رَحِيمًا} {70} وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا} {71} {الفرقان 70-71} وقال {وَإِنِّي
 لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى} طه 82 ولما تاب كعب بن مالك وصاحبه أمر
 رسول الله صلى الله عليه وسلم المسلمين بهجرهم حتى نسائهم ثمانين ليلة وقال النبي صلى الله عليه
 وسلم في الغامدية لما رجمها لقد تابت توبة لو تابها صاحب مكس لغفر له وهل وجدت أفضل من
 أن جادت بنفسها لله وقد أخبر الله عن توبته على بنى إسرائيل حيث قال لهم موسى {يَا قَوْمِ
 إِنكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَى بَارِيكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِيكُمْ
 {البقرة 54 وإذا كان الله تعالى قد يبتلى العبد من الحسنات والسيئات والسراء والضراء بما يحصل
 معه شكره وصبره أم كفره وجزعه و طاعته أم معصيته فالتائب أحق بالإبتلاء فآدم أهبط إلى
 الأرض إبتلاء له ووفقه الله في هبوطه لطاعته فكان حاله بعد الهبوط خيرا من حاله قبل الهبوط¹

"أن الله يحب البصر الناقد عند ورود الشبهات ويحب العقل الكامل عند حلول

الشبهات "

قال تعالى {ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا
 لَغَفُورٌ رَحِيمٌ} النحل 119 فليس مجرد العلم موجبا لحب المعلوم إن لم يكن في النفس قوة أخرى
 تلائم المعلوم وهذه القوة موجودة في النفس وكل من القوتين تقوي بالأخر فالعلم يقوي العمل
 والعمل يقوي العلم فمن عرف الله وقلبه سليم أحبه وكلما ازداد له معرفة ازداد حبه له وكلما ازداد
 حبه له ازداد ذكره له ومعرفته بأسمائه وصفاته فإن قوة الحب توجب كثرة ذكر المحبوب كما أن
 البغض يوجب الاعراض عن ذكر المبغض فمن عادى الله ورسوله وحاد الله ورسوله كان ذلك
 مقتضيا لإعراضه عن ذكر الله ورسوله بالخير وعن ذكر ما يوجب المحبة فيضعف علمه به حتى قد
 ينساه كما قال تعالى {وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ} الحشر 19
 وقال تعالى {وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا} الكهف 28
 وقد يحصل مع ذلك تصديق وعلم مع بغض ومعاداة لكن تصديق ضعيف وعلم ضعيف ولكن لولا
 البغض والمعاداة لأوجب ذلك من محبة الله ورسوله ما يصير به مؤمنا فمن شرط الإيمان وجود
 العلم التام ولهذا كان الصواب أن الجهل ببعض أسماء الله وصفاته لا يكون صاحبه كافرا إذا كان
 مقرا بما جاء به الرسول ولم يبلغه ما يوجب العلم بما جهله على وجه يقتضي كفره إذا لم يعلمه
 كحديث الذي أمر أهله بتحريقه ثم تذرته بل العلماء بالله يتفاضلون في العلم به ولهذا يوصف من لم

¹مجموع الفتاوى ج: 8 ص: 322- 324

يعمل بعلمه بالجهل وعدم العلم قال تعالى { إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ } النساء 17 قال أبو العالية سألت أصحاب محمد عن هذه الآية فقالوا لي كل من عصى الله فهو جاهل وكل من تاب قبل الموت فقد تاب من قريب ومنه قول ابن مسعود كفى بخشية الله علما وكفى بالإغترار بالله جهلا وقيل للشعبي أيها العالم فقال العالم من يخشى الله وقد قال تعالى { إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ } فاطر 28 وقال أبو حيان التميمي العلماء ثلاثة عالم بالله وبأمر الله وعالم بالله ليس عالما بأمر الله وعالم بأمر الله ليس عالما بالله فالعالم بالله الذي يخشاه والعالم بأمر الله الذي يعلم حدوده وفرائضه وقد قال تعالى { إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ } فاطر 28 وهذا يدل على أن كل من خشي الله فهو عالم وهو حق ولا يدل على أن كل عالم يخشاه لكن لما كان العلم به موجبا للخشية عند عدم المعارض كان عدمه دليلا على ضعف الأصل إذ لو قوى لدفع المعارض وهكذا لفظ العقل يراد به الغريزة التي بها يعلم ويراد بها أنواع من العلم ويراد به العمل بموجب ذلك العلم وكذلك لفظ الجهل يعبر به عن عدم العلم ويعبر به عن عدم العمل بموجب العلم كما قال النبي إذا كان أحدكم صائما فلا يرفث ولا يجهل فإن امرؤ شاتمته أو قاتله فليقل إني امرؤ صائم والجهل هنا هو الكلام الباطل بمنزلة الجهل المركب ومنه قول الشاعر ألا لا يجهلن أحد علينا فنجهل فوق جهل الجاهلينا

ومن هذا سميت الجاهلية جاهلية وهي متضمنة لعدم العلم أو لعدم العمل به ومنه قول النبي لأبي ذر إنك امرؤ فيك جاهلية لما ساب رجلا وعيره بأمره وقد قال تعالى { إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ الْحَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةَ } الفتح 26 فإن الغضب والحمية تحمل المرء على فعل ما يضره وترك ما ينفعه وهذا من الجهل الذي هو عمل بخلاف العلم حتى يقدم المرء على فعل ما يعلم أنه يضره وترك ما يعلم أنه ينفعه لما في نفسه من البغض والمعاداة لأشخاص وأفعال وهو في هذه الحال ليس عديم العلم والتصديق بالكلية لكنه لما في نفسه من بغض وحسد غلب موجب ذلك لموجب العلم فدل على ضعف العلم لعدم موجبه ومقتضاه ولكن ذلك الموجب والنتيجة لا توجد عنه وحده بل عنه وعمما في النفس من حب ما ينفعها وبغض ما يضرها فإذا حصل لها مرض ففسدت به أحببت ما يضرها وأبغضت ما ينفعها فتصير النفس كالمريض الذي يتناول ما يضره لشهوة نفسه له مع علمه أنه يضره قلت هذا معنى ما روي عن النبي أن الله يحب البصر النافذ عند ورود الشبهات ويحب العقل الكامل عند حلول الشهوات رواه البيهقي مرسلا وقد قال تعالى { وَادْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ } ص 45 فوصفهم بالقوة في العمل والبصيرة في العلم وأصل القوة قوة القلب الموجبة لمحبة الخير وبغض الشر فإن المؤمن قوته في قلبه وضعفه في جسمه والمنافق قوته في جسمه وضعفه في قلبه فالإيمان لا بد فيه من هذين الأصلين التصديق بالحق والمحبة له فهذا أصل القول وهذا أصل العمل¹

من عمل بخلاف الحق فهو جاهل وإن علم أنه مخالف للحق

¹مجموع الفتاوى ج: 7 ص: 538-539

قال تعالى { **ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ** النحل 119 } تقول طائفة جاهلية وشاعر جاهلي وذلك نسبة إلى الجهل الذي هو عدم العلم أو عدم اتباع العلم فإن من لم يعلم الحق فهو جاهل جهلا بسيطا فإن اعتقد خلافه فهو جاهل جهلا مركبا فإن قال خلاف الحق عالما بالحق أو غير عالم فهو جاهل أيضا كما قال تعالى { وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا } الفرقان 63 وقال النبي صلى الله عليه وسلم إذا كان أحدكم صائما فلا يرفث ولا يفسق ولا يجهل ومن هذا قول بعض الشعراء ألا لا يجهلن أحد علينا فنجهل فوق جهل الجاهلينا وهذا كثير وكذلك من عمل بخلاف الحق فهو جاهل وإن علم أنه مخالف للحق كما قال سبحانه { **لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهَالَةٍ** النحل 119 } قال أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم كل من عمل سوءا فهو جاهل وسبب ذلك أن العلم الحقيقي الراسخ في القلب يمتنع أن يصدر معه ما يخالفه من قول أو فعل فمتى صدر خلافه فلا بد من غفلة القلب عنه أو ضعف القلب عن مقاومة ما يعارضه وتلك أحوال تناقض حقيقة العلم فيصير جهلا بهذا الاعتبار¹

لطائف لغوية

1- قال تعالى { **إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخَنزِيرِ وَمَا أُهْلَ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ** } النحل 115

قال الشاعر يهمل بالفرقد ركبانه كما يهمل الراكب المعتمر أى يصوتون بالفرقد فجعلهم مهلين به و قوله تعالى { **وَمَا أُهْلَ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ** } البقرة 173 أى صوت به وسواء كان التصويت به رفيعا أو خفيضا فانه مما تكلم به وجهر به لغير الله ونطق به²

2- قال تعالى { **إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخَنزِيرِ وَمَا أُهْلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ** } النحل 115 العدوان مجاوزة قدر الحاجة³

3- قال تعالى { **ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ** } النحل 119 } تقول طائفة جاهلية وشاعر جاهلي وذلك نسبة إلى الجهل الذي هو عدم العلم أو عدم اتباع العلم فإن من لم يعلم الحق فهو جاهل جهلا بسيطا فإن اعتقد خلافه فهو جاهل جهلا مركبا فإن قال خلاف الحق عالما بالحق أو غير عالم فهو جاهل أيضا كما قال تعالى { وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا } الفرقان 63 وقال النبي صلى الله عليه وسلم إذا كان أحدكم صائما فلا

¹ اقتضاء الصراط ج: 1 ص: 78

² مجموع الفتاوى ج: 25 ص: 113

³ مجموع الفتاوى ج: 11 ص: 695

يرفت ولا يفسق ولا يجهل ومن هذا قول بعض الشعراء ألا لا يجهلن أحد علينا فنجهل فوق
جهل الجاهلينا وهذا كثير وكذلك من عمل بخلاف الحق فهو جاهل وإن علم أنه مخالف للحق
كما قال سبحانه { لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهَالَةٍ } النحل 119 قال أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم كل
من عمل سوءا فهو جاهل وسبب ذلك أن العلم الحقيقي الراسخ في القلب يمتنع أن يصدر معه ما
يخالفه من قول أو فعل فمتى صدر خلافه فلا بد من غفلة القلب عنه أو ضعف القلب عن مقاومة ما
يعارضه وتلك أحوال تناقض حقيقة العلم فيصير جهلا بهذا الاعتبار¹

¹ اقتضاء الصراط ج: 1 ص: 78

النحل 120-128

{ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ } {120} شَاكِرًا
لَأَنْعَمِهِ اجْتِبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ {121} وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي
الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ {122} ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ
مِنَ الْمُشْرِكِينَ {123} إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ
بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ {124} ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ
وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ
سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ {125} وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ
صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ {126} وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ
وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ {127} إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ
مُحْسِنُونَ {128}

شرع من قبلنا شرع لنا لا سيما شرع إبراهيم

قال تعالى { إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ } {120} شَاكِرًا لَأَنْعَمِهِ اجْتِبَاهُ
وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ {121} وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ } {122} ثُمَّ
أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ } {123} { النحل 120-123

وشرع من قبلنا شرع لنا لا سيما شرع إبراهيم فإننا مأمورون باتباع ملته بقوله تعالى { ثُمَّ أَوْحَيْنَا
إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ } { النحل 123} وقوله تعالى { إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً
قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ } { النحل 120 }¹

إبراهيم الخليل إمام الحنفاء المخلصين

قال تعالى { إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ } {120} شَاكِرًا لَأَنْعَمِهِ اجْتِبَاهُ
وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ {121} وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ } {122} ثُمَّ
أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ } {123} { النحل 120-123

فإن إبراهيم صاحب الملة و إمام الأمة قال الله تعالى { ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا
وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ } { النحل 123 } و قال { وَمَنْ يَرْغَبْ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ

¹ شرح العمدة ج: 2 ص: 201

{البقرة130 وقال {وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا} النساء125 وقال {جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا} البقرة124¹

وقال الله تعالى {إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا} النحل120 أى كان مؤمنا وحده وكان الناس كفارا جميعا وفى صحيح البخارى أنه قال لسارة ليس على الأرض اليوم مؤمن غيرى وغيرك²

ابراهيم ومحمد كل منهما خليل الله

قال تعالى {إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ} {120} شَاكِرًا لَّأَنْعَمِهِ اجْتِنَابًا وَهَذَا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ} {121} وَأَتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ} {122} ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ} {123} النحل120-123

وابراهيم ومحمد كل منهما خليل الله فإنه قد ثبت فى الصحاح من غير وجه عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال إن الله إتخذنى خليلًا كما إتخذ إبراهيم خليلًا وقد ثبت فى الصحيح أن رجلا قال للنبى صلى الله عليه وسلم يا خير البرية قال ذلك إبراهيم فأبراهيم أفضل الخلق بعد محمد صلى الله عليه وسلم وقوله ذلك إبراهيم تواضع منه فإنه قد ثبت عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال أنا سيد ولد آدم ولا فخر آدم فمن دونه تحت لوأى يوم القيامة ولا فخر الى غير ذلك من النصوص المبينة أنه أفضل الخلق وأكرمهم على ربه وإبراهيم هو الإمام الذى قال الله فيه {إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا} البقرة124 وهو الأمة أى القدوة الذى قال الله فيه {إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا} النحل120 وهو الذى بوأه الله مكان البيت وأمره أن يؤذن فى الناس بالحج إليه وقد حرم الله الحرم على لسانه وإسماعيل نبأه معه وهو الذبيح الذى بذل نفسه لله وصبر على المحنة كما بينا ذلك بالدلائل الكثيرة فى غير هذا الموضع وأمه هاجر هي التى أطاعت الله ورسوله إبراهيم فى مقامها مع إبناها فى ذلك الوادى الذى لم يكن به أنيس كما قال الخليل {رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ دَرِّيْتِي بَوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ} إبراهيم37 وكان لإبراهيم ولآل إبراهيم من محبة الله وعبادته والإيمان به وطاعته ما لم يكن لغيرهم فخصهم الله بأن جعل لبيته الذى بنوه له خصائص لا توجد لغيره وجعل ما جعله من أفعالهم قدوة للناس وعبادة يتبعونهم فيها ولا ريب أن الله شرع لإبراهيم السعى ورمى الجمار والوقوف بعرفات بعد ما كان من أمر هاجر وإسماعيل وقصة الذبيح وغير ذلك ما كان كما شرع لمحمد الرمل فى الطواف حيث أمره أن ينادى فى الناس بحج

¹مجموع الفتاوى ج: 16 ص: 202

²مجموع الفتاوى ج: 11 ص: 436

بكمال عبودية القلب لله يبرئه من الكبر والشرك

قال تعالى { إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ } {120} شَاكِرًا لِّأَنْعَمِهِ اجْتَبَاهُ
وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ } {121} وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنِّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ } {122} ثُمَّ
أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ } {123} { النحل 120-123

ولن يستغنى القلب عن جميع المخلوقات الا بأن يكون الله هو مولاه الذي لا يعبد إلا اياه ولا يستعين
الا به ولا يتوكل الا عليه ولا يفرح الا بما يحبه ويرضاه ولا يكره الا ما يبغضه الرب ويكرهه ولا
يوالي الا من والاه الله ولا يعادى الا من عاداه الله ولا يحب إلا الله ولا يبغض شيئاً الا الله ولا يعطى
الا الله ولا يمنع الا الله فكلما قوى اخلاص دينه لله كملت عبوديته واستغناؤه عن المخلوقات وبكمال
عبوديته لله يبرئه من الكبر والشرك والشرك غالب على النصارى والكبر غالب على اليهود قال
تعالى فى النصارى { اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا
لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَّا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ } التوبة 31 وقال فى اليهود { أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ
رَسُولٌ بِمَا لَّا تَهْوَىٰ أَنفُسُكُمْ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ } البقرة 87 وقال تعالى { سَأَصْرِفُ
عَنْ آيَاتِي الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِن يَرَوْا كَلِمًا أَنِيَّةً لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ
لَّا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا } الأعراف 146 ولما كان الكبر مستلزماً
للشرك والشرك ضد الاسلام وهو الذنب الذى لا يغفره الله { إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا
دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا } النساء 48 وقال { إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ
بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا } النساء 116 كان الانبياء
جميعهم مبعوثين بدين الاسلام فهو الدين الذى لا يقبل الله غيره لا من الاولين ولا من الآخرين قال
فى حق ابراهيم { وَمَنْ يَرْعُبْ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي
الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ } {130} إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِربِّ الْعَالَمِينَ } {131} البقرة 130-131
الى قوله { فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ } البقرة 132 وقال { وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ
مِنْهُ } آل عمران 85 وقال تعالى { أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْتَغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ
طَوْعًا وَكَرْهًا } آل عمران 83 فذكر اسلام الكائنات طوعاً وكرهاً لان المخلوقات جميعها متعبدة له
التعبد العام سواء اقر المقر بذلك او انكره وهم مدينون مدبرون فهم مسلمون له طوعاً وكرهاً ليس
لاحد من المخلوقات خروج عما شاءه وقدره ولا حول ولا قوة الا به وهو رب العالمين ومليكهم
يصرفهم كيف يشاء وهو خالقهم كلهم وبارئهم ومصورهم وكل من سواه فهو مربوب مصنوع
ومفطور فقير محتاج معبد مقهور وهو الواحد القهار الخالق البارى المصور وهو ان كان قد خلق ما

¹مجموع الفتاوى ج: 17 ص: 483-484

خلقه بأسباب فهو خالق السبب والمقدر له وهو مفتقر اليه كافتقار هذا وليس في المخلوقات سبب مستقل بفعل ولا دفع ضرر بل كل ما هو سبب فهو محتاج الى سبب اخر يعاونه والى ما يدفع عنه الضد الذي يعارضه ويمانعه وهو سبحانه وحده الغنى عن كل ما سواه ليس له شريك يعاونه ولا ضد يناوئه ويعارضه قال تعالى وقال تعالى { قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ } الزمر 38 وقال تعالى { وَإِنْ يَمَسُّكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يَمَسُّكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ } الأنعام 17 وقال تعالى عن الخليل { يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ } {78} { إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ } {79} { وَحَاجَةٌ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا } {80} {الانعام 78-80 الى قوله تعالى { الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ } {82} {الانعام 82

وفى الصحيحين عن ابن مسعود رضى الله عنه ان هذه الاية لما نزلت شق ذلك على اصحاب النبي وقالوا يا رسول الله اينما لم يلبس ايماننا بظلم فقال انما هو الشرك الم تسمعوا الى قول العبد الصالح { إِنَّ الشَّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ } لقمان 13 و ابراهيم الخليل امام الحنفاء المخلصين حيث بعث وقد طبق الارض دين المشركين قال الله تعالى { وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ } البقرة 124 فبين ان عهده بالامامة لا يتناول الظالم فلم يأمر الله سبحانه ان يكون الظالم اماما واعظم الظلم الشرك وقال تعالى { إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ } النحل 120 و الامة هو معلم الخير الذي يؤتم به كما ان القدوة الذي يقتدى به والله تعالى جعل في ذريته النبوة والكتاب وانما بعث الانبياء بعده بملته قال تعالى { ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ } النحل 123 وقال تعالى { إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ } آل عمران 68 وقال تعالى { مَا كَانَ إِبْرَاهِيمَ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ } آل عمران 67 وقال تعالى { وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ } {135} { قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ } {136} {البقرة 135-136 وقد ثبت فى الصحيح عن النبي ان ابراهيم خير البرية فهو افضل الانبياء بعد النبي وهو خليل الله تعالى وقد ثبت فى الصحيح عن النبي من غير وجه انه قال ان الله اتخذنى خليلا كما اتخذ ابراهيم خليلا¹

حب الله تعالى هو من تمام عبادته

قال تعالى { إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ } {120} { شَاكِرًا لِّأَنْعَمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ } {121} { وَأَتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّا فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ } {122} { ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ } {123} { النحل 120-123

¹مجموع الفتاوى ج: 10 ص: 198-203 و الفتاوى الكبرى ج: 2 ص: 391 و الصغدية ج: 2 ص: 302

أن النفس لها قوتان قوة علمية وقوة عملية قوة الشعور والعلم والإحسان وقوة الحب والإرادة والطلب والعمل فالنفس ليس كمالها في أن تعلم ربها فقط بل في أن تعرفه وتحبه وإلا فإذا قدر أن النفس تعرف الواجب وهي تبغضه وتنفر عنه وتذمه كانت شقية معذبة بل هذا الضرب من أعظم الناس شقاء وعذابا وهي حال إبليس وفرعون وكثير من الكفار فإنهم عرفوا الحق ولم يحبوه ولم يتبعوه وكانوا أشد الناس عذابا بل حب الله تعالى هو الكمال المطلوب من معرفته وهو من تمام عبادته فإن العبادة متضمنة لكمال الحب مع كمال الذل وهذا حقيقة دين إبراهيم الخليل عليه السلام إمام الحنفاء الذي قال الله تعالى فيه **{ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ }** {النحل 120} والأمة هو الذي يؤتم به كما أن القدوة هو الذي يقتدى به كما قال في الآية الأخرى **{ وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ }** البقرة 124 وإبراهيم الخليل هو الذي عادى هؤلاء كالنمرود وغيره فنفس عبادة الله وحده ومحبته وتعظيمه هو من أعظم كمال النفس وسعادتها لا أن سعادتها في مجرد العلم الخالي عن حب وعبادة وتأله مم يعلم أن أمة محمد أكمل الأمم عقلا وعلما وخلقا ودينا ويعلم أن من كان أعظم علما وعقلا كان أعلم بعظمة قدر الرسول فهذا العلم والتعظيم والمحبة القائمة في قلوب الخلق من أعظم الأمور الخارقة للعادة وهي أمور خارجة عن قوى البشر¹

وليس للقلوب سرور ولا لذة تامة الا في محبة الله والتقرب اليه بما يحبه ولا تمكن محبته الا بالاعراض عن كل محبوب سواه وهذا حقيقة لا إله إلا الله وهي ملة ابراهيم الخليل عليه السلام وسائر الأنبياء والمرسلين صلاة الله وسلامه عليهم أجمعين وكان النبي يقول لأصحابه قولوا أصبحنا على فطرة الاسلام وكلمة الاخلاص ودين نبينا محمد وملة أبينا ابراهيم حنيفا مسلما وما كان من المشركين والحنيف للسلف فيه ثلاث عبارات قال محمد ابن كعب مستقيما وقال عطاء مخلصا وقال آخرون متبعا فهو مستقيم القلب الى الله دون ما سواه قال الله تعالى **{ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ }** فصلت 6 وقال تعالى **{ إِنَّ الدِّينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا }** الأحقاف 13 قال أبو بكر الصديق رضى الله عنه فلم يلتفتوا عنه يمنة ولا يسرة فلم يلتفتوا بقلوبهم الى ما سواه لا بالحب ولا بالخوف ولا بالرجاء ولا بالسؤال ولا بالتوكل عليه بل لا يحبون الا الله ولا يحبون معه أندادا ولا يحبون الا اياه لا لطلب منفعة ولا لدفع مضرة ولا يخافون غيره كائنا من كان ولا يسألون غيره ولا ينتشرون بقلوبهم الى غيره²

القنوت في اللغة دوام الطاعة

¹الصفدية ج: 2 ص: 234

²مجموع الفتاوى ج: 28 ص: 33

قال تعالى { إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ } {120} شَاكِرًا لِّأَنْعَمِهِ اجْتَبَاهُ
وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ {121} وَأَتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ {122} ثُمَّ
أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ {123} { النحل 120-123

والقنوت في اللغة دوام الطاعة والمصلى إذا طال قيامه أو ركوعه أو سجوده فهو قانت في ذلك كله
وقال تعالى **إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا** **سورة النحل 120** قال ابن قتيبة لا أرى أصل
القنوت إلا الطاعة لأن جميع الخلال من الصلاة والقيام فيها والدعاء وغير ذلك يكون عنها وقال أبو الفرج
قال الزجاج القنوت هو في اللغة بمعنيين أحدهما القيام والثاني الطاعة والمشهور في اللغة والإستعمال أن القنوت
الدعاء في القيام فالقانت القائم بأمر الله ويجوز أن يقع في جميع الطاعات لأنه وإن لم يكن قياما على الرجلين فهو
قيام بالنية قلت هذا ضعيف لا يعرف في اللغة أن مجرد القيام يسمى قنوتا والرجل يقوم ماشيا وقائما في أمور
ولا يسمى قانتا وهو في الصلاة يسمى قانتا لكونه مطيعا عابدا ولو قنت قاعدا ونائما سمي قانتا وقوله تعالى
وقوموا لله قانتين سورة البقرة 238 يدل على أنه ليس هو القيام وإنما هو صفة في القيام يكون بها القائم
قانتا وهذه الصفة تكون في السجود أيضا كما قال **أمن هو قانت أثناء الليل ساجدا وقائما**
فقول القائل إن المشهور في اللغة أنه الدعاء في القيام إنما اخذه من كون هذا المعنى شاع في اصطلاح
الفقهاء إذا تكلموا في القنوت والصلاة وهذا عرف خاص ومع هذا فالفقهاء يذكرون القنوت سواء صلى قائما أو
قاعدا أو مضطجعا لكن لما كان الفرض ليس يصح أن يصلية إلا قائما وصلاة القاعد على النصف من صلاة
القائم صار القنوت في القيام أكثر وأشهر وإلا لفظ القنوت في القرآن واللغة ليس مشهورا في هذا المعنى بل ولا
أريد به هذا المعنى ولا هو أيضا مشتركا بل اللفظ بمعنى الطاعة أو الطاعة الدائمة ولهذا يفسره المفسرون بذلك
وقد روى في ذلك حديث مرفوع رواه ابن أبي حاتم من النسخة المصرية التي يروى منها الترمذي وغيره من حديث
ابن وهب أخبرني عمرو بن الحارث أن دراجا أبا السمح حدثه عن أبي الهيثم عن أبي سعيد الخدري عن رسول الله
صلى الله عليه وسلم قال كل حرف في القرآن يذكر فيه القنوت فهو الطاعة وفي تفسير ابن أبي طلحة عن ابن
عباس فالصالحات قانتات سورة النساء 34 مطيعات قال ابن أبي حاتم وروى عن مجاهد
وعكرمة وأبي مالك وعطاء وقتادة السدي مثل ذلك وروى عن مقاتل بن حيان قال مطيعات لله ولأزواجهن في
المعروف وروى عن سعيد بن جبيرة في قوله والقانتين والقانتات قال يعني المطيعين والمطيعات¹

القنوت هو دوام الطاعة و الثبات عليه²

¹رسالة في قنوت الأشياء ج: 1 ص: 5-8

²شرح العمدة ج: 4 ص: 157 و الفتاوى الكبرى ج: 1 ص: 224

توحد الملة وتعدد الشرائع وتنوعها

قال تعالى { إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ } {120} شَاكِرًا لِّأَنْعَمِهِ اجْتِنَابًا وَهَذَا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ } {121} وَأَتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ } {122} ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ } {123} { النحل 120-123

فى توحد الملة وتعدد الشرائع وتنوعها وتوحد الدين الملى دون الشرعى وما فى ذلك من اقرار ونسخ وجريان ذلك فى اهل الشريعة الواحدة بنوع من الاعتبار قال الله تعالى { وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا } {البقرة 124} فهذا نص فى انه امام الناس كلهم وقال { إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً } { النحل 120} وهو القدوة الذى يؤتم به وهو معلم الخير وقال تعالى فى آل عمران { شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ } {18} إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ } {19} آل عمران 18- 19 فاخبر ان الدين عند الله الاسلام وان الذين اختلفوا من اهل الكتاب وصاروا على ملل شتى ما اختلفوا الا من بعد ما جاءهم العلم وفيه بيان ان الدين واحد لا اختلاف فيه وقال { إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ } {120} شَاكِرًا لِّأَنْعَمِهِ اجْتِنَابًا وَهَذَا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ } {121} وَأَتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ } {122} ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ } {123} { النحل 120- 123

وذكر فى النحل دعوة المرسلين جميعهم واتفاقهم على عبادة الله وحده لا شريك له فقال { وَوَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنْ اعبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ } { النحل 36} الاية وهذا فى القرآن مذكور فى مواضع كثيرة وكذلك فى الأحاديث الصحيحة مثل ما ترجم عليه البخارى فقال باب ما جاء فى أن دين الأنبياء واحد وذكر الحديث المتفق عليه عن أبى هريرة عن النبى قال انا معاشر الأنبياء اخوة لعلات ومثل صفته فى التوراة لن أقبضه حتى أقيم به الملة العوجاء فافتح به أعينا عميا وآذانا صما وقلوبا غلفا ولهذا وحد الصراط والسبيل فى مثل قوله تعالى { اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ } {6} صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ } {7} الفاتحة 6-7 والاسلام دين جميع المرسلين¹

وقد قال النبى صلى الله عليه وسلم انا معاشر الانبياء ديننا واحد وهو الاسلام وهو الاستسلام لله لا لغيره بأن تكون العبادة والطاعة له والذل وهو حقيقة لا اله الا الله ولا ريب أن ما سوى هذا لا يقبل وهو سبحانه يطاع فى كل زمان بما امر به فى ذلك الزمان فلا اسلام بعد مبعث محمد الا فيما جاء به وطاعته وهى ملة ابراهيم التى لا يرغب عنها الا من سفه نفسه وهو الأمة الذى يؤتم به كما أن القدوة هو الذى يقتدى به وهو الامام كما فى قوله { إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا } {البقرة 124} وهو القانت والقنوت دوام الطاعة وهو الذى يطيع الله دائما والحنيف المستقيم الى ربه دون ما سواه²

¹مجموع الفتاوى ج: 19 ص: 107

²مجموع الفتاوى ج: 5 ص: 240

قال تعالى { إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ } الأنبياء 92 وقال { يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحاً إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ } {51} وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً } {52} المؤمنون 51-52 الآية قال قتادة أى دينكم واحد وربكم واحد و الشريعة مختلفة و كذلك قال الضحاك و عن ابن عباس أى دينكم دين واحد قال ابن أبي حاتم و روي عن سعيد بن جبیر و قتادة و عبد الرحمن نحو ذلك قال الحسن بين لهم ما يتقون و ما يأتون ثم قال إن هذه سنتكم سنة و احدة و هكذا قال جمهور المفسرين و الأمة الملة و الطريقة كما قال { إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ } الزخرف 22 كما تسمى الطريق إماما لأن السالك فيها يؤتم به فكذلك السالك يؤمه و يقصده و الأمة أيضا معلم الخير الذي ياتم به الناس كما أن الإمام هو الذي ياتم به الناس و إبراهيم عليه السلام جعله الله إماما و أخبر أنه كان أمة { إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ } النحل 120¹

تنوع الشرائع لا يمنع أن يكون الدين واحدا

قال تعالى { شَاكِرًا لِأَنْعَمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ } النحل 121 وقد ذكر في غير موضع أن دين الأنبياء كلهم الإسلام كما قال تعالى عن نوح { وَأَمَرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ } النمل 91 وقال عن إبراهيم { إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ } {131} وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمَ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمْ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ } {132} البقرة 131-132 وقال يوسف { فَاطْرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَليِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ } يوسف 101 { وَقَالَ مُوسَىٰ يَا قَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ } يونس 84 وقال عن السحرة { رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ } الأعراف 126 وقال عن بلقيس { رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ } النمل 44 وقال { يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ } المائدة 44 وقال { وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَىٰ الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَاسْتَهْذَبْنَا مُسْلِمُونَ } المائدة 111 وفي الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم قال إنا معاشر الأنبياء ديننا واحد وتنوع الشرائع لا يمنع أن يكون الدين واحدا وهو

الإسلام كالدين الذي بعث الله به محمدا صلى الله عليه وسلم فإنه هو دين الإسلام أولا و آخرها وكانت القبلة في أول الأمر بيت المقدس ثم صارت القبلة الكعبة وفي كلا الحالين الدين واحد وهو دين الإسلام فهكذا سائر ما شرع للأنبياء قبلنا ولهذا حيث ذكر الله الحق في القرآن جعله واحدا وجعل الباطل متعددا كقوله { وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ } الأنعام 153 وقوله { اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ } {6} صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ } {7} الفاتحة 6-7 وقوله { شَاكِرًا لِأَنْعَمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ } النحل 121 وقوله { وَيَهْدِيكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا } الفتح 2 وقوله

¹مجموع الفتاوى ج: 8 ص: 220 و الحسنة والسيئة ج: 1 ص: 89

{اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ {البقرة 257} ¹

احسان العمل سبب لاحسان الله

قال تعالى { **وَأَتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ** {النحل 122} ومن المعلوم بما أرانا الله من آياته فى الآفاق وفى انفسنا وبما شهد به فى كتابه أن المعاصى سبب المصائب فسيئات المصائب والجزاء من سيئات الأعمال وان الطاعة سبب النعمة فاحسان العمل سبب لاحسان الله قال تعالى { **مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ** {النساء 79} وقال { **وَإِنْ تُصِيبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمْت أَيْدِيَهُمْ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ كَفُورٌ** {الشورى 48} وقد أخبر سبحانه بما عاقب به أهل السيئات من الأمم كقوم نوح وعاد وثمود وقوم لوط وأصحاب مدين وقوم فرعون فى الدنيا وأخبر بما يعاقبهم به فى الآخرة ولهذا قال مؤمن آل فرعون { **يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ** {30} } مثل دَابِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعِبَادِ {31} } **وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ** {32} } **يَوْمَ تُولُون مُدْبِرِينَ مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ** {33} } **غافر 30-33** وقال تعالى { **كَذَلِكَ الْعَذَابُ وَالْعَذَابُ الْآخِرَةُ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ** {القلم 33} } وقال { **سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ** {التوبة 101} ولهذا يذكر الله فى عامة سور الانذار ما عاقب به أهل السيئات فى الدنيا وما أعده لهم فى الآخرة وقد يذكر فى السورة وعد الآخرة فقط اذ عذاب الآخرة أعظم وثوابها أعظم وهى دار القرار وانما يذكر ما يذكره من الثواب والعذاب فى الدنيا تبعا كقوله فى قصة يوسف { **وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُونَ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ** {56} } **وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ** {57} } يوسف 56-57 وقال عن ابراهيم عليه الصلاة والسلام { **وَأَتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ** {العنكبوت 27} ²

قال تعالى { **وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ خَيْرٌ لَّو كَانُوا يَعْلَمُونَ** {البقرة 103} فاخبر أن أولياءه الذين آمنوا وكانوا يتقون ينهبهم على أن فى ذلك ما هو خير لهم مما طلبوه فى الدنيا لو كانوا يعلمون فيحصل لهم فى الآخرة من الخير الذي هو المنفعة ودفع المضره ما هو أعظم مما يحصلوه بذلك من خير الدنيا كما قال تعالى { **وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُونَ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ** {يوسف 56} } ثم قال { **وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ** {يوسف 57} } وقال تعالى { **وَمَا كَانَ قَوْلُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ** {147} } **فَاتَاهُمُ اللَّهُ تَوَابًا دُنْيَا وَحُسْنَ**

¹ منهاج السنة النبوية ج: 5 ص: 270

² مجموع الفتاوى ج: 28 ص: 140

تَوَابِ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ {148} آل عمران 148 وقال عن إبراهيم { وَأَتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ } النحل 122¹

الصالح هو الذي أصلح جميع امره فاستوت سريرته وعلانيته على ما

يرضى ربه

قال تعالى { وَأَتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ } النحل 122 وكذلك لفظ الصالح و الشهيد و الصديق يذكر مفردا فيتناول النبيين قال تعالى في حق الخليل { وَأَتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ } العنكبوت 27 وقال { وَأَتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ } النحل 122 وقال الخليل { رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ } الشعراء 83 وقال يوسف { تَوَقَّئِنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ } يوسف 101 وقال سليمان { وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ } النمل 19 وقال النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح المتفق على صحته لما كانوا يقولون في آخر صلاتهم السلام على الله قبل عباده السلام على فلان فقال لنا رسول الله ذات يوم ان الله هو السلام فاذا قعد أحدكم في الصلاة فليقل التحيات لله والصلوات والطيبات السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين فاذا قالها أصابت كل عبد صالح لله في السماء والأرض الحديث وقد يذكر الصالح مع غيره كقوله تعالى { فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصَّدِيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا } النساء 69 قال الزجاج وغيره الصالح القائم بحقوق الله وحقوق عباده ولفظ الصالح خلاف الفاسد فاذا أطلق فهو الذي أصلح جميع امره فلم يكن فيه شيء من الفساد فاستوت سريرته وعلانيته وأقواله وأعماله على ما يرضى ربه وهذا يتناول النبيين ومن دونهم²

ما عليه اليهود والنصارى ينافي ملة إبراهيم

قال تعالى { ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ } النحل 123 قال تعالى { وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ } البقرة 135 إلى قوله { فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ } البقرة 137 فقوله { قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا } البقرة 135 يبين أن ما عليه اليهود و النصارى ينافي ملة إبراهيم وهذا بعد مبعث محمد مما لا ريب فيه فإنه هو الذي بعث بملة إبراهيم و الطائفتان كانتا خارجتين عنها بما وقع منهم من التبديل قال تعالى { إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا } آل عمران 68 وقال { قُلْ إِنِّي هَدَانِي رَبِّي

¹قاعدة في المحبة ج: 1 ص: 186

²مجموع الفتاوى ج: 7 ص: 57

إلى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيمًا مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا { الأنعام 161 الآية وقال تعالى { ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ } النحل 123¹

لا اسلام بعد مبعث محمد الا فيما جاء به وطاعته وهي ملة ابراهيم

مجموع الفتاوى ج: 5 ص: 239

وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم انا معاشر الانبياء ديننا واحد وهو الاسلام وهو الاستسلام لله لا لغيره بأن تكون العبادة والطاعة له والذل وهو حقيقة لا اله الا الله ولا ريب أن ما سوى هذا لا يقبل وهو سبحانه يطاع في كل زمان بما امر به في ذلك الزمان فلا اسلام بعد مبعث محمد الا فيما جاء به وطاعته وهي ملة ابراهيم التي لا يرغب عنها الا من سفه نفسه وهو الأمة الذي يؤتم به كما أن القدوة هو الذي يقتدى به وهو الامام كما في قوله { إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا } البقرة 124 وهو القانت والقنوت دوام الطاعة وهو الذي يطيع الله دائماً والحنيف المستقيم الى ربه دون ما سواه

أصح الطرق وأبعدها من الشبه اتباع الكتاب والسنة قولاً وفعلاً

قال تعالى { ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ } النحل 123

وقال شيخ الإسلام وأخبرني أحمد بن حمزة حدثنا محمد بن الحسين وهو أبو عبد الرحمن السلمى يقول بلغني أن بعض أصحاب أبي علي الجوزاني سأله كيف الطريق إلى الله قال أصح الطرق وأعمرها وأبعدها من الشبه اتباع الكتاب والسنة قولاً وفعلاً وعقداً ونيةً لأن الله يقول وتطيعوه تهتدوا سورة النور 54 فسأله كيف طريق اتباع السنة قال بمجانبة البدع واتباع ما اجتمع عليه الصدر الأول من علماء الإسلام وأهله والتباعد عن مجالس الكلام وأهله ولزوم طريقة الاقتداء والاتباع بذلك أمر النبي ص بقوله تعالى ثم أوحينا إليك أن اتبع ملة ابراهيم حنيفاً سورة النحل 123 وتحقيق توحيد الربوبية وتوحيد الإلهية وهو أن يعبد الله وحده لا يشرك به شيئاً فهذا التوحيد الذي جاءت به الرسل هو يسعد صاحبه ويدخل الجنة لا محالة له من دعوة مجابة ومن فاته هذا التوحيد فإن الله لا يغفر أن يشرك به فلا ينفعه الدعاء²

أهل الكتاب تفرقوا واختلفوا قبل إرسال محمد إليهم

فإن أهل الكتاب تفرقوا و اختلفوا قبل إرسال محمد إليهم كما أخبر الله بذلك في غير موضع فقال تعالى { إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ } النحل 124 و قال تعالى { وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مَبُوءًا صِدْقٍ وَرَزَقْنَاهُمْ مِّنَ الطَّيِّبَاتِ فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّى جَاءَهُمُ الْعِلْمُ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ }

¹مجموع الفتاوى ج: 16 ص: 572

²الاستقامة ج: 1 ص: 180

{يونس 93} ثم قال تعالى {فَإِنْ كُنْتَ فِي شكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يُفَرِّقُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ} {يونس 94} وقد جاءت الأحاديث في السنن و المسند من وجوه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال تفرقت اليهود على إحدى و سبعين فرقة و ستفترق هذه الأمة على ثلاث و سبعين فرقة و إن كان بعض الناس كابن حزم يضعف هذه الأحاديث فأكثر أهل العلم قبلوها و صدقوها و في الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال ذروني ما تركتكم فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم و إختلافهم على أنبيائهم فإذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه و إذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم و في الصحيحين عنه أنه قال نحن الآخرون السابقون يوم القيامة بيد أنهم أوتوا الكتاب من قبلنا و أوتيناه من بعدهم فهذا يومهم الذي إختلفوا فيه فهدانا الله له الناس لنا فيه تبع غدا لليهود و بعد غد للنصارى و هذا معلوم بالتواتر أن أهل الكتاب إختلفوا و تفرقوا قبل إرسال محمد صلى الله عليه وسلم بل اليهود إفترقوا قبل مجيء المسيح ثم لما جاء المسيح إختلفوا فيه ثم إختلف النصارى إختلافاً آخر¹

قال تعالى { **إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ** } النحل 124

{ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ }

قال تعالى { ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ } النحل 125 ليس في الرسل من قال أول ما دعا قومه إنكم مأمورون بطلب معرفة الخالق فانظروا و استدلوا حتى تعرفوه فلم يكلفوا أولاً بنفس المعرفة ولا بالأدلة الموصلة إلى المعرفة إذ كانت قلوبهم تعرفه و تقر به و كل مولود يولد على الفطرة لكن عرض للفطرة ما غيرها و الإنسان إذا ذكر ذكر ما في فطرته و لهذا قال الله في خطابه لموسى { فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيْنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ } طه 44 ما في فطرته من العلم الذي به يعرف ربه و يعرف إنعامه عليه و إحسانه إليه و إفتقاره إليه فذلك يدعو إلى الإيمان { أَوْ يَخْشَى } طه 44 ما ينذره به من العذاب فذلك أيضا يدعو إلى الإيمان كما قال تعالى { **ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ** } النحل 125 فالحكمة تعريف الحق فيقبلها من قبل الحق بلا منازعة و من نازعه هواه و عظ بالترغيب و الترهب فالحق بالحق يدعو صاحبه إلى إتباعه فإن الحق محبوب في الفطرة وهو أحب إليها و أجل فيها و ألد عندها من الباطل الذي لا حقيقة له فإن الفطرة لا تحب ذلك فإن لم يدعه الحق و العلم به خوف عاقبة الجحود و العصيان و ما في ذلك من العذاب فالنفس تخاف العذاب بالضرورة فكل حى يهرب مما يؤذيه بخلاف النافع فمن الناس من يتبع هواه فيتبع الأدنى دون الأعلى كما أن منهم من يكذب بما خوف به أو يتغافل عنه حتى يفعل ما يهواه فإنه إذا صدق به و استحضره لم يبعث نفسه إلى هواها بل لا بد من نوع من الغفلة و الجهل حتى يتبعه و لهذا كان كل عاص لله جاهلاً كما قد بسط هذا في مواضع²

¹مجموع الفتاوى ج: 16 ص: 489- 490

²مجموع الفتاوى ج: 16 ص: 338

قال تعالى { ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ
أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ { النحل 125 فأمره تعالى أن يجادل أهل دعوته
مطلقاً من المشركين وأهل الكتاب بالتي هي أحسن وقد قال تعالى { وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا
بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأَنْزَلَ إِلَيْكُمُ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ
وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ } العنكبوت 46 فإن الظالم باغ مستحق للعقوبة فيجوز أن يقابل بما يستحقه من
العقوبة لا يجب الاقتصار معه على التي هي أحسن بخلاف من لم يظلم فإنه لا يجادل إلا بالتي هي
أحسن والظالم يكون ظالماً بترك ما تبين له من الحق واتباع ما تبين له أنه باطل والكلام بلا علم
فإذا ظهر له الحق فعند عنه كان ظالماً وذلك مثل الألد في الخصام قال تعالى { وَمِنَ النَّاسِ
مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهَدُ اللَّهُ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ } البقرة 204 وقال
{ يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ } الأنفال 6 وقال
{ هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ
} آل عمران 66¹

و يكون الكتاب أو السنة نهى عن معرفة المسائل التي تدخل فيما يستحق أن يكون من أصول دين
الله فهذا لا يكون اللهم إلا أن ننهي عن بعض ذلك في بعض الأحوال مثل مخاطبة شخص بما يعجز
عنه فهمه فيضل كقول عبد الله بن مسعود ما من رجل يحدث قوما حديثاً لا يبلغه عقولهم إلا كان فتنة
لبعضهم وكقول علي عليه السلام حدثوا الناس بما يعرفون ودعوا ما ينكرون أتحبون أن يكذب الله
ورسوله أو مثل قول حق يستلزم فساد أعظم من تركه فيدخل في قوله صلى الله عليه وسلم من
رأى منكم منكراً فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان رواه
مسلم²

الحكمة والموعظة الحسنة والجدل الاحسن تجمع نوعي العلم والعمل

قال تعالى { ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ
أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ { النحل 125 فأهل العلم والإيمان فجامعون بين
الأمرين بين التصديق العلمي والعمل الحبي ثم ان تصديقهم عن علم وعملهم وحبهم عن علم فسلموا
من آفتى منحرفة المتكلمة والمتصوفة وحصلوا ما فات كل واحدة منهما من النقص فإن كلا
المنحرفين له مفسدتان أحدهما القول بلا علم ان كان متكلماً والعمل بلا علم ان كان متصوفاً وهو
ما وقع من البدع الكلامية والعملية المخالفة للكتاب والسنة والثاني فوات المتكلم العمل وفوت
المتصوف القول والكلام وأهل السنة الباطنة والظاهرة كان كلامهم وعملهم باطناً وظاهراً بعلم

¹الجواب الصحيح ج: 3 ص: 72-73

²الفتاوى الكبرى ج: 1 ص: 455

وكان كل واحد من قولهم وعملهم مقرونا بالآخر وهؤلاء هم المسلمون حقا الباقون على الصراط المستقيم صراط الذين أنعم الله عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين فإن منحرفة أهل الكلام فيهم شبه اليهود ومنحرفة أهل التصوف فيهم شبه النصارى ولهذا غلب على الأولين جانب الحروف وما يدل عليه من العلم والإعتقاد وعلى الآخرين جانب الأصوات وما يثيره من الوجد والحركة ومن تمام ذلك أن الله أمر نبيه أن يدعو إلى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة ويجادلهم بالتى هي أحسن وهذه الطرق الثلاثة هي النافعة فى العلم والعمل وتشبه ما يذكره أهل المنطق من البرهان والخطابة والجدل بقى الشعر والسفسطة التى هى الكذب المموه فنفى الله ذلك بقوله { هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ {221} تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ {222} يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْتَرُ هُمْ كَاذِبُونَ {223} الشعراء 221-223 الى آخر السورة فذكر الأفاكين وهم المسفسطون وذكر الشعراء وكذلك أبو بكر الصديق قال لعمر بن الخطاب لما قال له يا خليفة رسول الله تألف الناس فأخذ بلحيته وقال يا ابن الخطاب أجبارا فى الجاهلية خوارا فى الاسلام علام أتألفهم أعلى حديث مفترى أم على شعر مفتعل فذكر الحديث المفترى والشعر المفتعل كما ذكر الله الأفاكين والشعراء وكان الإفك فى القوة الخبرية والشعر فى القوة العملية الطليبية فتلك ضلال وهذه غواية والحكمة والموعظة الحسنة والجدل الاحسن فإنه يعطى التصديق والعمل فهو نافع منفعة عظيمة وهى تجمع نوعى العلم والعمل الخبر والطلب على أكمل الوجوه وأما الحكمة فى القرآن فهى معرفة الحق وقوله والعمل به كما كتبت تفسيرها فى غير هذا الموضع والموعظة الحسنة تجمع التصديق بالخبر والطاعة للأمر ولهذا يجيء الوعظ فى القرآن مرادا به الأمر والنهى بترغيب وترهيب كقوله { وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ {النساء 66} وَقَوْلُهُ {يَعْظُمُ اللَّهُ أَن تَعُوذُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ {النور 17} وَقَوْلُهُ {فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُنْفِقِينَ {البقرة 66} أى يتعظون بها فينتبهون وينزجرون وكذلك الجدل الأحسن يجمع الجدل للتصديق وللطاعة الوجه الثانى ويمكن أن يقسم هذا إلى وجه آخر بأن يقال الناس ثلاثة أقسام إما أن يعترف بالحق ويتبعه فهذا صاحب الحكمة وإما أن يعترف به لكن لا يعمل به فهذا يوعظ حتى يعمل واما أن لا يعترف به فهذا يجادل بالتى هى أحسن لأن الجدل فى مظنة الإغصاب فإذا كان بالتى هى أحسن حصلت منفعة بغاية الإمكان كدفع الصائل أن كلام الله لا يشتمل الا على حق يقين لا يشتمل على ما تمتاز به الخطابة والجدل عن البرهان بكون المقدمة مشهورة أو مسلمة غير يقينية بل اذا ضرب الله مثلا مشتملا على مقدمة مشهورة أو مسلمة فلا بد وأن تكون يقينية فأما الاكتفاء بمجرد تسليم المنازع من غير أن تكون المقدمة صادقة أو بمجرد كونها مشهورة وان لم تكن صادقة فمثل هذه المقدمة لا يشتمل عليها كلام الله الذى كله حق وصدق وهو أصدق الكلام وأحسن الحديث فصاحب الحكمة يدعى بالمقدمات الصادقة سواء كانت مشهورة أو مسلمة أو لم تكن لما فيه من ادراك الحق واتباع الحق وصاحب الموعظة يدعى من المقدمات الصادقة بالمشهورة لأنه قد لا يفهم الخفية من الحق ولا ينازع فى المشهورة وصاحب الجدل يدعى بما يسلمه من المقدمات الصادقة مشهورة كانت أو لم تكن اذ قد لا ينقاد الى ما لا يسلمه هذا فإنه نافع جدا أن هنا نكتة ينبغى التفطن لها فإنها نافعة وذلك أن المقدمة المذكورة فى القياس الذى هو مثل لها وصف ذاتى ووصف إضافى فالوصف الذاتى لها أن تكون مطابقة فتكون صدقا أو لا تكون مطابقة فتكون كذبا وجميع المقدمات المذكورة فى أمثال القرآن هى صدق والحمد لله رب العالمين وأما الوصف الإضافى فكونها معلومة عند زيد أو مظنونة أو مسلمة أو غير مسلمة فهذا أمر لا ينضبط فرب مقدمة هى يقينية عند شخص قد علمها وهى مجهولة فضلا عن أن تكون مظنونة عند من لم يعلمها فكون المقدمة يقينية أو غير يقينية أو مشهورة أو غير مشهورة أو مسلمة أو غير مسلمة أمور نسبية وإضافية لها تعرض بحسب شعور

الانسان بها ولهذا تنقلب المظنونة بل المجهولة في حقه يقينية معلومة والممنوعة مسلمة بل والمسلمة ممنوعة والقرآن كلام الله الذي أنذر به جميع الخلق لم يخاطب به واحدا بعينه حتى يخاطب بما هو عنده يقيني من المقدمات أو مشهور أو مسلم فمقدمات الأمثال فيه اعتبر فيها الصفة الذاتية وهي كونها صدقا وحقا يجب قبوله وأما جهة التصديق فتتعدد وتتنوع اذ قد يكون لهذا من طرق التصديق بتلك المقدمة ما ليس لعمر و مثل أن يكون هذا يعلمها بالإحساس والروية وهذا يعلمها بالسمع والتواتر كآيات الرسول وقصة أهل الفيل وغير ذلك فما كان جهة تصديقه عاما للناس أمكن ذكره جهة التصديق به كآيات الربوبية المعلومة بالإحساس دائما وما كان جهة تصديقه متنوعا أحيل كل قوم على الطريق التي يصدقون بها وقد يقال في مثل هذا **{ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ }** النحل 125 فإن مخاطبة المعين قد يعلم بها ما هو عنده يقيني أو مشهور من اليقين أو مسلم منه^{1 2}

الرد على من يقول آيات المجادلة والمحاجة للكفار منسوخات بآية السيف

أن ما ذكره الله تعالى من مجادلة أهل الكتاب بالتي هي أحسن إلا الذين ظلموا محكم لم ينسخه شيء وكذلك ما ذكره تعالى من مجادلة الخلق مطلقا بقوله **{ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ }** النحل 125 فإن من الناس من يقول آيات المجادلة والمحاجة للكفار منسوخات بآية السيف **{ فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرْمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَأَحْضُرُوهُمْ وَأَقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصِدٍ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ }** {5} التوبة 5 لا اعتقاده ان الامر بالقتال المشروع ينافي المجادلة المشروعة وهذا غلط فإن النسخ إنما يكون إذا كان الحكم الناسخ مناقضا للحكم المنسوخ كمنافضة الأمر باستقبال المسجد الحرام في الصلاة للأمر باستقبال بيت المقدس بالشام ومنافضة الأمر بصيام رمضان للمقيم للتخيير بين الصيام وبين إطعام كل يوم مسكينا ومنافضة نهيه عن تعدي الحدود التي فرضها للورثة للأمر بالوصية للوالدين والاقربين ومنافضة قوله لهم كفوا أيديكم عن القتال لقوله قاتلوهم كما قال تعالى **{ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُوا أَيَدِيكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ لَأَمْنًا مِنَ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلَا تظَلْمُونَ فَتِيلًا }** {77} سورة النساء الآية 77 فأمره لهم بالقتال ناسخ لأمره لهم بكف أيديهم عنهم فأما قوله **{ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ }** النحل 125 وقوله **{ وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأَنْزَلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا**

¹مجموع الفتاوى ج: 2 ص: 42-49

² ملاحظة: (ذكر ابن تيمية تفسير هذه الآية بتوسع كبير مقارنة لاسلوب الفلاسفة فلم اعرضها كلها تكلمته في مجموع الفتاوى ج: 2 ص: 49)

وَالْهُكْمُ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ {46} سورة العنكبوت الآية 46 فهذا لا يناقضة الأمر بجهاد من أمر بجهاده منهم ولكن الأمر بالقتال يناقض النهي عنه والاختصار على المجادلة فأما مع إمكان الجمع بين الجدل المأمور به والقتال المأمور به فلا منافاة بينهما وإذا لم يتناقفا بل أمكن الجمع لم يجز الحكم بالنسخ ومعلوم أن كلا منهما ينفع حيث لا ينفع الآخر وأن استعمالهما جميعا أبلغ في إظهار الهدى ودين الحق ومما يبين ذلك وجوه أحدها أن من كان من أهل الذمة والعهد والمستأمن منهم لا يجاهد بالقتال فهو داخل فيمن أمر الله بدعوته ومجادلته بالتي هي أحسن وليس هو داخلا فيمن أمر الله بقتاله الثاني أنه قال { وَلَا تَجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأَنْزَلَ إِلَيْنَا وَالْهَيْكُمُ وَالْهَيْكُمُ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ } سورة العنكبوت الآية 46 فالظالم لم يؤمر بجذاله بالتي هي أحسن فمن كان ظالما مستحقا للقتال غير طالب للعلم والدين فهو من هؤلاء الظالمين الذين لا يجادلون بالتي هي أحسن بخلاف من طلب العلم والدين ولم يظهر منه ظلم سواء كان قصده الاسترشاد أو كان يظن أنه على حق يقصد نصر ما يظنه حقا ومن كان قصده العناد يعلم أنه على باطل ويجادل عليه فهذا لم يؤمر بمجادلته بالتي هي أحسن لكن قد نجادله بطرق أخرى نبين فيها عناده وظلمه وجهله جزاء له بموجب عمله الثالث انه سبحانه قال { وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجْرُهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ } سورة التوبة الآية 6 فهذا مستجير مستأمن وهو من أهل الحرب أمر الله بإجارته حتى تقوم حجة الله عليه ثم يبلغه مأمنه وهذا في سورة براءة التي فيها نقض العهود وفيها آية السيف وذكر هذه الآية في ضمن الأمر بنقض العهود ليبين سبحانه أنه مثل هذا يجب أمانه حتى تقوم عليه الحجة لا تجوز محاربتة كمحاربة من لم يطلب أن يبلغ حجة الله عليه قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم ثم أبلغه مأمنه إن لم يوافق ما نقص عليه ونخبر به فأبلغه مأمنه قال وليس هذا بمنسوخ وقال مجاهد من جاءك واستمع ما أنزل إليك فهو آمن حتى يأتيك وإذا كان النبي صلى الله عليه وسلم يحاج الكفار بعد نزول الأمر بالقتال وقد أمره الله تعالى أن يجير المستجير حتى يسمع كلام الله ثم يبلغه مأمنه والمراد بذلك تبليغ رسالات الله وإقامة الحجة عليه وذلك قد لا يتم إلا بتفسيره له الذي تقوم به الحجة ويجاب به عن المعارضة وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب علم بطلان قول من ظن أن الأمر بالجهاد ناسخ الأمر بالمجادلة مطلقا الوجه الرابع إن القائل إذا قال إن آية مجادلة الكفار أو غيرها مما يدعي نسخه منسوخة بآية السيف قيل له ما تعني بآية السيف اتعني آية بعينها أم تعني كل آية فيها الأمر بالجهاد فإن أراد الأول كان جوابه من وجهين أحدهما أن الآيات التي فيها ذكر الجهاد متعددة فلا يجوز تخصيص بعضها وإن قال أريد قوله تعالى سورة التوبة الآية 5 قيل له هذه في قتال المشركين وقد قال بعدها في قتال أهل الكتاب { قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ } سورة التوبة الآية 29 فلو لم تكن آية السيف إلا واحدة لم تكن هذه أولى من هذه وإن قال كل آية فيها ذكر الجهاد وقيل له الجهاد شرع على مراتب فأول ما أنزل الله تعالى فيه الأذن بقوله { أَنْزِلْنَا لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ } سورة الحج الآية 39 فقد ذكر غير واحد من العلماء أن هذه أول آية نزلت في الجهاد ثم بعد ذلك نزل وجوبه بقوله { كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ وَعَسَىٰ أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ } سورة البقرة الآية 216¹

الجدل لا يدعى به بل هو من باب دفع الصائل

قال تعالى { ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ } النحل 125 والوعظ في القرآن هو الامر والنهي والترغيب والترهيب كقوله تعالى { وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَنْبِيئًا } {66} وَإِذَا لَأْتَيْنَاهُم مِّن لَّدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا } {67} وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا } {68} النساء 66-68 فقوله { مَا يُوعَظُونَ بِهِ } النساء 66 أي ما يؤمرون به وقال { يَعْظُكُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ } النور 17 أي ينهاكم عن ذلك وايضا فالقرآن ليس فيه انه قال ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة والجدل بل قال { ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ } النحل 125 وذلك لان الانسان له ثلاثة احوال اما ان يعرف الحق ويعمل به واما ان يعرفه ولا يعمل به واما ان يجده فأفضلها ان يعرف الحق ويعمل به والثاني أن يعرفه لكن نفسه تخافه فلا توافقه على العمل به والثالث من لا يعرفه بل يعارضه فصاحب الحال الاول هو الذي يدعى بالحكمة فأن الحكمة هي العلم بالحق والعمل به فالنوع الاكمل من الناس من يعرف الحق ويعمل به فيدعون بالحكمة والثاني من يعرف الحق لكن تخالفه نفسه فهذا يوعظ الموعظة الحسنة فهاتان هما الطريقتان الحكمة والموعظة وعامة الناس يحتاجون الى هذا وهذا فان النفس لها اهواء تدعوها الى خلاف الحق وان عرفته فالناس يحتاجون الى الموعظة الحسنة والى الحكمة فلا بد من الدعوة بهذا وهذا واما الجدل فلا يدعى به بل هو من باب دفع الصائل فاذا عارض الحق معارض جودل بالتي هي احسن ولهذا قال وجادلهم فجعله فعلا مأمورا به مع قوله ادعهم بالدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة وأمره ان يجادل بالتي هي احسن وقال في الجدل بالتي هي احسن ولم يقل بالحسنة كما قال في الموعظة لان الجدل فيه مدافعة ومغاضبة فيحتاج أن يكون بالتي هي احسن حتى يصلح ما فيه من الممانعة والمدافعة والموعظة لا تدافع كما يدافع المجادل فما دام الرجل قابلا للحكمة أو الموعظة الحسنة أو لهما جميعا لم يحتج الى مجادلة فاذا مانع جودل بالتي هي احسن والمجادلة يعلم كما أن الحكمة يعلم وقد ذم الله من يجادل بغير علم فقال تعالى { هَآأَنْتُمْ هَؤُلَآءِ حَآجَجْتُمْ فِيمَآ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَآ لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ } آل عمران 66 والله لا يأمر المؤمنين أن يجادلوا بمقدمة يسلمها الخصم إن لم تكن علما فلو قدر انه قال باطلا لم يأمر الله ان يحتج عليهم بالباطل لكن هذا قدر يفعل لبيان فساد قوله وبيان تناقضه لا لبيان الدعوة الى القول الحق والقرآن مقصوده بيان الحق ودعوة العباد إليه وليس المقصود ذكر ما تناقضوا فيه من أقوالهم ليبين خطأ احدهما لا بعينه فالمقدمات الجدلية التي ليست علما هذا فائدتها وهذا يصلح لبيان خطأ الناس مجملًا¹

القرآن يحتج بالمقدمات البينة البرهانية لتقرير المخاطب بالحق

¹الرد على المنطقيين ج: 1 ص: 468

والقرآن جاء بالبينات والهدى بالآيات البينات وهي الدلائل اليقينية وقد قال الله تعالى لرسوله { ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ } النحل 125 والمتفلسفة يفسرون ذلك بطرقهم المنطقية في البرهان والخطابة والجدل وهو ضلال من وجوه قد بسطت في غير هذا الموضوع بل الحكمة هي معرفة الحق والعمل به فالقلوب التي لها فهم وقصد تدعى بالحكمة فيبين لها الحق علما وعملا فتقبله وتعمل به وآخرون يعترفون بالحق لكن لهم أهواء تصدهم عن اتباعه فهو لاء يدعون بالموعظة الحسنة المشتملة على الترغيب في الحق والترهيب من الباطل والوعظ أمر ونهى بترغيب وترهيب كما قال تعالى { وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ } النساء 66 وقال تعالى { يَعْظُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا } النور 17 فالدعوة بهذين الطريقتين لمن قبل الحق ومن لم يقبله فانه يجادل بالتي هي أحسن والقرآن مشتمل على هذا وهذا ولهذا إذا جادل يسأل ويستفهم عن المقدمات البرهانية التي لا يمكن أحد ان يجدهما لتقرير المخاطب بالحق ولا اعترافه بانكار الباطل كما في مثل قوله { أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ } الطور 35 وقوله { أَفَعَبِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ } ق 15 وقوله { أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ } يس 81 وقوله { أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى } 36 { أَلَمْ يَكُنْ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُُمْنَى } 37 { ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى } 38 { فَجَعَلَ مِنْهُ الرُّوحَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى } 39 { أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى } 40 { القيامة 36-40 } وقوله { أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ } 58 { أَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ } 59 { الواقعة 58-59 } وقوله { وَقَالُوا لَوْلَا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِنْ رَبِّهِ أَوَلَمْ تَأْتِهِمْ بَيِّنَةٌ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَى } طه 133 وقوله { أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ } العنكبوت 51 وقوله { أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةٌ أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ } الشعراء 197 وقوله { أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ } 8 { وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ } 9 { وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ } 10 { البلد 8-10 } إلى أمثال ذلك مما يخاطبهم باستفهام التقرير المتضمن اقرارهم واعترافهم بالمقدمات البرهانية التي تدل على المطلوب فهو من أحسن جدل بالبرهان فان الجدل انما يشترط فيه أن يسلم الخصم المقدمات وان لم تكن بينة معروفة فاذا كانت بينة معروفة كانت برهانية والقرآن لا يحتج في مجادلته بمقدمة لمجرد تسليم الخصم بها كما هي الطريقة الجدلية عند اهل المنطق وغيرهم بل بالقضايا والمقدمات التي تسلمها الناس وهي برهانية وان كان بعضهم يسلمها وبعضهم ينازع فيها ذكر الدليل على صحتها كقوله { وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّنْ شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا وَعُلَّمْتُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ } الأنعام 91 فان الخطاب لما كان مع من يقر بنبوة موسى من أهل الكتاب ومع من ينكرها من المشركين ذكر ذلك بقوله { قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَىٰ } الأنعام 91 وقد بين البراهين الدالة على صدق موسى في غير موضع وعلى قراءة من قرأ يبدونها كابن كثير وابي عمرو جعلوا الخطاب مع المشركين وجعلوا قوله { وَعَلَّمْتُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوا } الأنعام 91 احتجاجا على المشركين بما جاء به محمد فالحجة على اولئك نبوة موسى وعلى هؤلاء نبوة محمد ولكل منهما من البراهين ما قد بعضه في غير موضع وعلى قراءة الأكثرين بالتاء هو خطاب لأهل الكتاب وقوله { عَلَّمْتُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوا } الأنعام 91 بيان لما جاءت به الأنبياء مما انكروه فعلمهم الأنبياء ما لم يقبلوه ولم يعلموه فاستدل بما عرفوه من أخبار الأنبياء وما لم يعرفوه¹

¹مجموع الفتاوى ج: 19 ص: 164-166

قال تعالى { ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ } النحل 125 الجدل قد يكون و اجبا أو مستحبا كما قال تعالى { وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ } النحل 125 و قد يكون الجدل محرما في الحج و غيره كالجدال بغير علم و كالجدال في الحق بعد ما تبين¹

أصل الدعوة إلى الله وحققتها ومقصودها

قال تعالى { ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ } النحل 125 أنه سبحانه يذكر أنه أمره بالدعوة إلى الله تارة كما قال تعالى { قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ } يوسف 108 وتارة بالدعوة إلى سبيله كما قال تعالى { ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ } النحل 125 وذلك أنه قد علم أن الداعي الذي يدعو غيره إلى أمر لا بد فيما يدعو إليه من أمرين أحدهما المقصود المراد و الثاني الوسيلة والطريق الموصل إلى المقصود فلهذا يذكر الدعوة تارة إلى الله وتارة إلى سبيله سبحانه هو المعبود المراد المقصود بالدعوة والعبادة إسم يجمع غاية الحب له وغاية الذل له فمن ذل لغيره مع بغضه لم يكن عابدا ومن أحبه من غير ذل له لم يكن عابدا والله سبحانه يستحق أن يحب غاية المحبة بل يكون هو المحبوب المطلق الذي لا يحب شيء إلا له وان يعظم ويذل له غاية الذل بل لا يذل لشيء إلا من أجله ومن أشرك غيره في هذا وهذا لم يحصل له حقيقة الحب والتعظيم فإن الشرك يوجب نقص المحبة قال تعالى { وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ } البقرة 165 أي أشد حبا لله من هؤلاء لأناداهم وقال تعالى { ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا } الزمر 29 وكذلك الإستكبار يمنع حقيقة الذل لله بل يمنع حقيقة المحبة لله فإن الحب التام يوجب الذل والطاعة فإن المحب لمن يحب مطيع ولهذا الحب درجات أعلاها التتيم وهو التبعيد وتيم الله أي عبد الله فالقالب المتيم هو المعبد لمحبوبه وهذا لا يستحقه إلا الله وحده والإسلام أن يستسلم العبد لله لا لغيره كما ينبىء عنه قول لا إله إلا الله فمن إستسلم له ولغيره فهو مشرك ومن لم يستسلم له فهو مستكبر وكلاهما ضد الإسلام والشرك غالب على النصرارى ومن ضاهاهم من الضلال والمنتسبين إلى الأمة وقد بسطنا الكلام على ما يتعلق بهذا الموضوع في مواضع متعددة وذلك يتعلق بتحقيق الألوهية لله وتوحيده وإمتناع الشرك وفساد السموات والأرض بتقدير إله غيره والفرق بين الشرك فى الربوبية والشرك فى الألوهية وبيان أن العباد فطروا على الإقرار به ومحبه وتعظيمه وأن القلوب لا تصلح إلا بأن تعبد الله وحده ولا كمال لها ولا صلاح ولا لذة ولا سرور ولا فرح ولا سعادة بدون ذلك وتحقيق الصراط المستقيم صراط الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصدقيين والشهداء والصالحين وغير ذلك مما يتعلق بهذا الموضوع الذي فى تحقيق مقصود الدعوة النبوية والرسالة الإلهية وهو لب القرآن وزبدته وبيان التوحيد العلمي القولي المذكور فى قوله { قُلْ هُوَ اللَّهُ

¹مجموع الفتاوى ج: 26 ص: 118

أَحَدٌ {1} اللَّهُ الصَّمَدُ {2} الاخلاص 1-2 والتوحيد القسدي العلمي المذكور في قوله تعالى { قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ {1} الكافرون } وما يتصل بذلك فإن هذا بيان لأصل الدعوة إلى الله وحقيقتها ومقصودها لكن المقصود في الجواب ذكر ذلك على طريق الاجمال إذ لا يتسع الجواب لتفصيل ذلك وكلما أحبه الله ورسوله من واجب ومستحب من باطن وظاهر فمن الدعوة إلى الله الأمر به وكلما أبغضه الله ورسوله من باطن وظاهر فمن الدعوة إلى الله النهي عنه لا تتم الدعوة إلى الله إلا بالدعوة إلى أن يفعل ما أحبه الله ويترك ما أبغضه الله سواء كان من الأقوال أو الأعمال الباطنة أو الظاهرة كالتصديق بما أخبر به الرسول من أسماء الله وصفاته والمعاد وتفصيل ذلك وما أخبر به عن سائر المخلوقات كالعرش والكرسي والملائكة والأنبياء وأمهم وأعدائهم وكاخلاص الدين لله وأن يكون الله ورسوله أحب إلينا مما سواها وكالتوكل عليه والرجاء لرحمته وخشيته عذابه والصبر لحكمه وأمثال ذلك وكصدق الحديث وأداء الأمانة والوفاء بالعهد وصلة الأرحام وحسن الجوار وكالجهاد في سبيله بالقلب واليد واللسان إذا تبين ذلك فالدعوة إلى الله واجبة على من اتبعه وهم أمته يدعون إلى الله كما دعا إلى الله وكذلك يتضمن أمرهم به ونهيهم عما ينهى عنه وأخبارهم بما أخبر به إذ الدعوة تتضمن الأمر وذلك يتناول الأمر بكل معروف والنهي عن كل منكر وقد وصف أمته بذلك في غير موضع كما وصفه بذلك فقال تعالى { كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ } آل عمران 110 وقال تعالى { وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ } التوبة 71 الآية كفاية إذا قام به طائفة منهم سقط عن الباقيين فالأمة كلها مخاطبة بفعل ذلك ولكن إذا قامت به طائفة سقط عن الباقيين قال تعالى { وَلَتَكُنَّ مِّنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ } آل عمران 104 فمجموع أمته تقوم مقامه في الدعوة إلى الله ولهذا كان إجماعهم

حجة قاطعة فأمته لا تجتمع على ضلالة وإذا تنازعوا في شيء ردوا ما تنازعوا فيه إلى الله وإلى رسوله وكل واحد من الأمة يجب عليه أن يقوم من الدعوة بما يقدر عليه إذا لم يقم به غيره فما قام به غيره سقط عنه وما عجز لم يطلب به وأما ما لم يقم به غيره وهو قادر عليه فعليه أن يقوم به ولهذا يجب على هذا أن يقوم بما لا يجب على هذا وقد تقسّطت الدعوة على الأمة بحسب ذلك تارة وبحسب غيره أخرى فقد يدعو هذا إلى إعتقاد الواجب وهذا إلى عمل ظاهر واجب وهذا إلى عمل باطن واجب فتنوع الدعوة يكون في الوجوب تارة وفي الوقوع أخرى وقد تبين بهذا أن الدعوة إلى الله تجب على كل مسلم لكنها فرض على الكفاية وإنما يجب على الرجل المعين من ذلك ما يقدر عليه إذا لم يقيم به غيره وهذا شأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وتبليغ ما جاء به الرسول والجهاد في سبيل الله وتعليم الإيمان والقرآن وقد تبين بذلك أن الدعوة نفسها أمر بالمعروف ونهي عن المنكر فإن الداعي طالب مستدع مقتض لما دعى إليه وذلك هو الأمر به إذ الأمر طلب الفعل المأمور به واستدعاء له ودعاء إليه فالدعاء إلى الله الدعاء إلى سبيله فهو أمر بسبيله وسبيله تصديقه فإذا أخبر وطاعته فيما أمر وقد تبين أنهما واجبان على كل فرد من أفراد المسلمين وجوب فرض الكفاية لا وجوب فرض الأعيان كالصلوات الخمس بل كوجوب الجهاد والقيام بالوجبات من الدعوة الواجبة وغيرها يحتاج إلى شروط يقام بها كما جاء في الحديث ينبغي لمن أمر بالمعروف ونهى عن المنكر أن يكون فقيها فيما يأمر به فقيها فيما ينهى عنه رفيقا فيما يأمر به رفيقا فيما ينهى عنه حليما فيما يأمر به حليما فيما ينهى عنه فالفقه قبل الأمر ليعرف المعروف وينكر المنكر والرفق عند الأمر ليسلك أقرب الطرق إلى تحصيل المقصود والحلم بعد الأمر ليصير على أذى المأمور المنهى فإنه كثيرا ما يحصل له الأذى بذلك ولهذا قال تعالى { وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ

وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ { لقمان 17 } وقد أمر نبينا بالصبر في مواضع كثيرة كما قال تعالى في أول المدثر { فَمَنْ أَنْذَرَ {2} وَرَبِّكَ فَكَبِّرْ {3} وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ {4} وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ {5} وَلَا تَمُنْ بِتَسْتَكْبِرُ {6} وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ {7} } المدثر 2-7 وقال تعالى { وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا } الطور 48 وقال { وَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ } المزمل 10 وقال تعالى { وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأَوْدُوا حَتَّىٰ أَتَاهُمْ نَصْرُنَا } الأنعام 34 وقال { فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْخُوْتِ } القلم 48 وقد جمع سبحانه بين التقوى والصبر في مثل قوله { لَتُنْبَلُونَ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذَىٰ كَثِيرًا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ } آل عمران 186 والمؤمنون كانوا يدعون إلى الإيمان بالله وما أمر به من المعروف وينهون عما نهى الله عنه من المنكر فيؤذيه المشركون وأهل الكتاب وقد أخبرهم بذلك قبل وقوعه وقال لهم { وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ } آل عمران 186 وقد قال يوسف عليه السلام { أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ } يوسف 90 فالتقوى تتضمن طاعة الله ومنها الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والصبر يتناول الصبر على المصائب التي منها أذى المأمور المنهي للأمر الناهي لكن للأمر الناهي أن يدفع عن نفسه ما يضره كما يدفع الإنسان عن نفسه الصائل فإذا أراد المأمور المنهي ضربه أو أخذ ماله ونحو ذلك وهو قادر على دفعه فله دفعه عنه بخلاف ما إذا وقع الأذى وتاب منه فإن هذا مقام الصبر والحلم والكمال في هذا الباب حال نبينا كما في الصحيحين عن عائشة أنها قالت ما ضرب رسول الله بيده خادما له ولا امرأة ولا دابة ولا شيئا قط إلا أن يجاهد في سبيل الله ولا نيل منه فانتقم لنفسه إلا أن تنتهك محارم الله فإذا انتهكت محارم الله لم يقم لغضبه شيء حتى ينتقم لله فقد تضمن خلقه العظيم أنه لا ينتقم لنفسه إذا نيل منه وإذا انتهكت محارم الله لم يقم لغضبه شيء حتى ينتقم لله ومعلوم أن أذى الرسول من أعظم المحرمات فإن من آذاه فقد آذى الله وقتل سابه واجب باتفاق الأمة سواء قيل إنه قتل لكونه ردة أو لكونه ردة مغلظة أوجبت أن صار قتل الساب حدا من الحدود والمنقول عن النبي في إحتماله وعفوه عن من كان يؤذيه كثير كما قال تعالى { وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّوكُمْ مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِّنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ } البقرة 109 فالأمر الناهي إذا أودى وكان آذاه تعديا لحدود الله وفيه حق لله يجب على كل أحد النهي عنه وصاحبه مستحق للعقوبة لكن لما دخل فيه حق الآدمي كان له العفو عنه كما له أن يعفو عن القاذف والقاتل وغير ذلك وعفوه عنه لا يسقط عن ذلك العقوبة التي وجبت لحق الله لكن يكمل لهذا الأمر الناهي مقام الصبر والعفو الذي شرع الله لمثله حتى يدخل في قوله تعالى { وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ } آل عمران 186 وفي قوله { فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ } البقرة 109 ثم هنا فرق لطيف أما الصبر فإنه مأمور به مطلقا فلا ينسخ وأما العفو والصفح فإنه جعل إلى غاية وهو أن يأتي الله بأمره فلما أتى بأمره بتمكين الرسول ونصره صار قادر على الجهاد لأولئك والزامهم بالمعروف ومنعهم عن المنكر صار يجب عليه العمل باليد في ذلك ما كان عاجزا عنه وهو مأمور بالصبر في ذلك كما كان مأمور بالصبر أولا والجهاد مقصوده أن تكون كلمة الله هي العليا وأن يكون الدين كله لله فمقصوده إقامة دين الله لا إستيفاء الرجل حظه ولهذا كان ما يصاب به المجاهد في نفسه وماله أجره فيه على الله ف { إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ } التوبة 111 حتى إن الكفار إذا أسلموا أو عاهدوا لم يضمّنوا ما اتلفوه للمسلمين من الدماء والأموال بل لو أسلموا وبأيديهم ما غنموه من أموال المسلمين كان ملكا لهم عند جمهور العلماء كما كمالك وأبي حنيفة وأحمد وهو الذي مضت به سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم وسنة خلفائه الراشدين فالأمر الناهي إذا نيل منه وأودى ثم إن ذلك المأمور المنهي تاب وقبل

الحق منه فلا ينبغي له أن يقتص منه ويعاقبه على أذاه فإنه قد سقط عنه بالتوبة حق الله كما يسقط عن الكافر إذا أسلم حقوق الله تعالى كما ثبت في الصحيح عن النبي أنه قال الإسلام يهدم ما كان قبله والتوبة تهدم ما كان قبلها والكافر إذا أسلم هدم الإسلام ما كان قبله دخل في ذلك ما اعتدى به على المسلمين في نفوسهم وأموالهم لأنه ما كان يعتقد ذلك حراما بل كان يستحله فلما تاب من ذلك غفر له هذا الاسحلال وغفرت له توابعه فالمأمور المنهي ان كل مستحلا لأذى الأمر الناهي كأهل البدع والأهواء الذين يعتقدون أنهم على حق وأن الأمر الناهي لهم معتد عليهم فإذا تابوا لم يعاقبوا بما اعتدوا به على الأمر الناهي من أهل السنة كالرافضي الذي يعتقد كفر الصحابة أو فسقهم وسبهم على ذلك فإن تاب من هذا الاعتقاد وصار يحبهم ويتولاهم لم يبق لهم عليه حق بل دخل حقهم في حق الله ثبوتا وسقوطا لأنه تابع لاعتقاده ولهذا كان جمهور العلماء كأبي حنيفة ومالك وأحمد في أصح الروايتين والشافعي في أحد القولين على أن أهل البغي المتأولين لا يضمنون ما أتلفوه على أهل العدل بالتأويل كما لا يضمن أهل العدل أتلفوه على أهل البغي بالتأويل باتفاق العلماء وكذلك أصح قول العلماء في المرتدين فإن المرتد والباغي المتأول والمبتدع كل هؤلاء يعتقد أحدهم أنه على حق فيفعل ما يفعله متأولا فإذا تاب من ذلك كان كتوبة الكافر من كفره فيغفر له ما سلف مما فعله متأولا وهذا بخلاف من يعتقد أن ما يفعله بغي وعدوان كالمسلم إذا ظلم المسلم والذمي إذا ظلم المسلم والمرتد الذي أتلف مال غيره وليس بمحارب بل هو في الظاهر مسلم أو معاهد فإن هؤلاء يضمنون ما أتلفوه بالاتفاق فالمأمور المنهي إن كان يعتقد أن أذى الأمر الناهي جائز له فهو من المتأولين وحق الأمر الناهي داخل في حق الله تعالى فإذا تاب سقط الحقان وإن لم يتب كان مطلوبا بحق الله المتضمن حق الأدمي فأما ان يكون كافرا وأما أن يكون فاسقا وإما أن يكون غاصبا فهؤلاء كل يستحق العقوبة الشرعية بحسبه وإن كان مجتهدا مخطئا فهذا قد عفى الله عنه خطأه فإذا كان قد حصل بسبب إجهاده الخطأ أذى للأمر الناهي بغير حق فهو كالحاكم إذا إجتهد فأخطأ وكان في ذلك ما هو أذى للمسلم أو كالشاهد أو كالفتي فإذا كان الخطأ لم يتبين لذلك المجتهد المخطيء كان هذا مما ابتلى الله به هذا الأمر الناهي قال تعالى { وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا } الفرقان 20 فهذا مما يرتفع عنه الإثم في نفس الأمر وكذلك الجزاء على وجه العقوبة ولكن قد يقال قد يسقط الجزاء على وجه القصاص الذي يجب في العمد ويثبت الضمان الذي يجب في الخطأ كما تجب الدية في الخطأ وكما يجب ضمان الأموال التي يتلفها الصبي والمجنون في ماله وان وجبت الدية على عاقلة القاتل خطأ معاونة له فلا بد إستيفاء حق المظلوم خطأ فكذلك هذا الذي ظلم خطأ لكن يقال يفرق بين ما كان الحق فيه لله وحق الأدمي تبع له وما كان حقا لأدمي محضا أو غالبا والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والجهاد من هذا الباب موافق لقول الجمهور الذين لا يوجبون على أهل البغي ضمان ما أتلفوه لأهل العدل بالتأويل وإن كان ذلك خطأ منهم ليس كفرا ولا فسقا وإذا قدر عليهم أهل العدل لم يتبعوا مدبرهم ولم يجهزوا على جريحهم ولم يسبوا حريمهم ولم يغنوا أموالهم فلا يقاتلونهم على ما أتلفوه من النفوس والأموال إذا أتلفوه مثل ذلك أو تملكوا عليهم فتبين أن القصاص ساقط في هذا الموضع لأن هذا من باب الجهاد الذي يجب فيه الأجر على الله وهذا مما يتعلق بحق العبد الأمر الناهي وأما قول السائل هل يقتص منه لئلا يؤدي إلى طمع منه في جانب الحق فيقال متى كان فيما فعله إفساد لجانب الحق كان الحق في ذلك لله ورسوله فيفعل فيه ما يفعل في نظيره وأن لم يكن فيه أذى للأمر الناهي والمصلحة في ذلك تتنوع فتارة تكون المصلحة الشرعية القتال وتارة تكون المصلحة المهادنة وتارة تكون المصلحة الإمساك والإستعداد بلا مهادنة وهذا يشبه ذلك لكن الإنسان تزين له نفسه ان عفوه عن ظالمه يجريه عليه وليس كذلك بل قد ثبت عن النبي في الصحيح أنه قال ثلاث ان كنت لحالفا عليهن ما زاد الله عبدا بعفو إلا عزا وما نقصت صدقة من

مال وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله فالذي ينبغي في هذا الباب أن يعفو الإنسان عن حقه ويستوفى حقوق الله بحسب الامكان قال تعالى { وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ } الشورى 39 قال إبراهيم النخعي كانوا يكرهون أن يستذلوا فإذا قدروا عفوا قال تعالى { هُمْ يَنْتَصِرُونَ } الشورى 39 يمدحهم بأن فيهم همة الانتصار للحق والحمية له ليسوا بمنزلة الذين يعفون عجزا وذلا بل هذا مما يذم به الرجل والممدوح العفو مع القدرة والقيام لما يجب من نصر الحق لا مع إهمال حق الله وحق العباد والله تعالى أعلم¹

دخول الأعمال في مسمى الإيمان حقيقة لا مجازا

قال تعالى { ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ } النحل 125 قال أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم كل من عمل سوءا فهو جاهل وسبب ذلك أن العلم الحقيقي الراسخ في القلب يمتنع أن يصدر معه ما يخالفه من قول أو فعل فمتى صدر خلافه فلا بد من غفلة القلب عنه أو ضعف القلب عن مقاومة ما يعارضه وتلك أحوال تناقض حقيقة العلم فيصير جهلا بهذا الاعتبار ومن هنا تعرف دخول الأعمال في مسمى الإيمان حقيقة لا مجازا وإن لم يكن كل من ترك شيئا من الأعمال كافرا أو خارجا عن أصل مسمى الإيمان وكذلك اسم العقل ونحو ذلك من الأسماء ولهذا يسمي الله تعالى أصحاب هذه الأحوال موتى وعميا وصما وبكما وضالين وجاهلين ويصفهم بأنهم لا يعقلون ولا يسمعون ويصف المؤمنين بأولي الألباب والنهى وأنهم مهتدون وأن لهم نورا وأنهم يسمعون ويعقلون²

الشرائع جاء بتحصيل المصالح وتكميلها وتعطيل المفاسد وتقليلها

قال تعالى { ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ } النحل 125 والشرائع جاء بتحصيل المصالح وتكميلها وتعطيل المفاسد وتقليلها فهي تأمر بما تترجح مصلحته وإن كان فيه مفسدة مرجوحة كالجهاد وتنهى عما ترجحت مفسدته وإن كان فيه مصلحة مرجوحة كتناول المحرمات من الخمر وغيره ولهذا أمر تعالى أن نأخذ بأحسن ما أنزل إلينا من ربنا فالأحسن إما واجب وإما مستحب قال تعالى { وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَا خُدُوعًا بِأَحْسَنَهَا سَارِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ } الأعراف 145 وقال { وَأَتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ } الزمر 55 فأمر باتباع الأحسن والأخذ به وقال تعالى { الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمْ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبَابِ } الزمر 18 فافتضى أن غيرهم لم يهده وهذا يقتضي وجوب الأخذ بالأحسن وهو مشكل وقد تكلم الناس فيه ونظيره قوله تعالى

¹مجموع الفتاوى ج: 15 ص: 162-174

²اقتضاء الصراط ج: 1 ص: 78

{ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ} النحل 125 ونظائر هذا كثيرة مما يذكر فيه أن المأمور به خير وأحسن من المنهي عنه وإن كان الأول واجبا والثاني محرما وذلك لأن المأمور به قد يشتمل على مفسدة مرجوحة والمنهي عنه يشتمل على مصلحة مرجوحة فيكون باعتبار ذلك في هذا خير وحسن وفي هذا شر وسييء لكن هذا خير وأحسن وإن كان واجبا فقوله تعالى {وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ مِّن رَّبِّكُمْ} الزمر 55 هو أمر بالأحسن من فعل المأمور أو ترك المحظور وهو يتناول الأمر بالواجب والمستحب فإن كلاهما أحسن من المحرم والمكروه لكن يكون الأمر أمر إيجاب وأمر استحباب كما امر بالإحسان في قوله تعالى {وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ} البقرة 195 والإحسان منه واجب ومنه مستحب¹

والإنسان لو أنه يناظر المشركين وأهل الكتاب لكان عليه أن يذكر من الحجة ما يبين به الحق الذي معه والباطل الذي معهم فقد قال الله عز وجل لنبيه صلى الله عليه وسلم {ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ} النحل 125 وقال تعالى {وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ} العنكبوت 46²

الشرعية مبناها على العدل

قال تعالى { وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ} النحل 126 أن كل خير فهو داخل في القسط والعدل وكل شر فهو داخل في الظلم ولهذا كان العدل أمرا واجبا في كل شيء وعلى كل أحد والظلم محرما في كل شيء ولكل أحد فلا يحل ظلم أحد أصلا سواء كان مسلما أو كافرا أو كان ظالما بل الظلم إنما يباح أو يجب فيه العدل عليه أيضا قال تعالى {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاَنُ أَيِّ يَحْمِلَنَّكُمْ شَنَاَنُ أَيِّ بَغِضَ قَوْمٍ وَهُمْ الْكُفَّارُ عَلَى عَدَمِ الْعَدْلِ} قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ} المائدة 8 وقال تعالى {فَمَنْ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ} البقرة 194 وقال تعالى {وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ} النحل 126 وقال تعالى {وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا} الشورى 40 وقد دل على هذا قوله في الحديث يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرما فلا تظالموا فإن هذا خطاب لجميع العباد أن لا يظلم أحد أحدا وأمر العالم في الشريعة مبني على هذا وهو العدل في الدماء والأموال والأبضاع والأنساب والأعراض ولهذا جاءت السنة بالقصاص في ذلك ومقابلة العادي بمثل فعله لكن المماثلة قد يكون علمها أو عملها متعذرا ومتعسرا ولهذا يكون الواجب ما يكون أقرب إليها بحسب الإمكان ويقال هذا أمثل وهذا أشبه وهذه الطريقة المثلى لما كان أمثل بما هو العدل والحق في نفس الأمر إذ ذاك

¹ الجواب الصحيح ج: 6 ص: 18

² مجموع الفتاوى ج: 4 ص: 187

محجوز عنه ولهذا قال تعالى { وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا } الأنعام 152
فذكر أنه لم يكلف نفساً إلا وسعها حين أمر بتوفية الكيل والميزان بالقسط لأن الكيل لا بد له أن
يتفضل أحد المكيلين على الآخر ولو بحبة أو حبات وكذلك التفاضل في الميزان قد يحصل بشيء
يسير لا يمكن الاحتراز منه فقال تعالى { لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا } الأنعام 152 ولهذا كان
القصاص مشروعاً إذا أمكن استيفاءه من غير جنف كالاقتصاص في الجروح التي تنتهي إلى عظم
وفي الأعضاء التي تنتهي إلى مفصل فإذا كان الجنف واقعا في الاستيفاء عدل إلى بدله وهو الدية
لأنه أشبه بالعدل من اتلاف زيادة في المقتص منه وهذه حجة من رأى من الفقهاء أنه لا قود إلا
بالسيف في العنق قال لأن القتل بغير السيف وفي غير العنق لا نعلم فيه المماثلة بل قد يكون
التحريق والتغريق والتوسيط ونحو ذلك أشد إيلاماً لكن الذين قالوا يفعل به مثل ما فعل قولهم أقرب
إلى العدل فإنه مع تحري التسوية بين الفعلين يكون العبد قد فعل ما يقدر عليه من العدل وما حصل من
تفاوت الألم خارج عن قدرته وأما إذا قطع يديه ورجليه ثم وسطه فقبول ذلك بضرب عنقه بالسيف أو
رض رأسه بين حجرين فضرب بالسيف فهنا قد تيقنا عدم المعادلة والمماثلة وكنا قد فعلنا ما تيقنا
انتقاء المماثلة فيه وأنه يتعذر معه وجودها بخلاف الأول فإن المماثلة قد تقع إذ التفاوت فيه غير
متيقن وكذلك القصاص في الضربة واللطمة ونحو ذلك عدل عنه طائفة من الفقهاء إلى التعزيز لعدم
إمكان المماثلة فيه والذي عليه الخلفاء الراشدون وغيرهم من الصحابة وهو منصوص أحمد ما
جاءت به سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم من ثبوت القصاص به لأن ذلك أقرب إلى العدل
والمماثلة فإننا إذا تحرينا أن نفعل به من جنس فعله ونقرب القدر من القدر كان هذا أمثل من أن نأتي
بجنس من العقوبة تخالف عقوبته جنساً وقدرها وصفة وهذا النظر أيضاً في ضمان الحان والعقار
ونحو ذلك بمثله تقريباً أو بالقيمة كما نص أحمد على ذلك في مواضع ضمان الحيوان وغيره ونص
عليه الشافعي فيمن خرب حائط غيره أنه يبنيه كما كان وبهذا قضى سليمان عليه السلام في حكومة
الحرث التي حكم فيها هو وأبوه كما قد بين ذلك في موضعه فجميع هذه الأبواب المقصود للشرعية
فيها تحري العدل بحسب الإمكان وهو مقصود العلماء لكن أفهمهم من قال بما هو أشبه بالعدل في
نفس الأمر وإن كان كل منهم قد أوتي علماً وحكماً لأنه هو الذي أنزل الله به الكتب وأرسل به
الرسول وضده الظلم كما قال سبحانه يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً
فلا تظالموا ولما كان العدل لا بد أن يتقدمه علم إذ من لا يعلم لا يدري ما العدل والإنسان ظالم
جاهل إلا من تاب الله عليه فصار عالماً عادلاً صار الناس من القضاة وغيرهم ثلاثة أصناف العالم
العادل والجاهل والظالم فهذان من أهل النار كما قال النبي صلى الله عليه وسلم القضاة ثلاثة
قاضيان في النار وقاض في الجنة رجل علم الحق وقضى به فهو في الجنة ورجل قضى للناس
على جهل فهو في النار ورجل علم الحق وقضى بخلافه فهو في النار فهذان القسمان كما قال
من قال في القرآن برأيه فأصاب فقد أخطأ ومن قال في القرآن برأيه فأخطأ فليتوباً مقعده من النار
وكل من حكم بين اثنين فهو قاض سواء كان صاحب حرب أو متولي ديوان أو منتصباً للاحتساب
بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر حتى الذي يحكم بين الصبيان في الخطوط فإن الصحابة كانوا
يعدونهم من الحكام ولما كان الحكام مأمورين بالعدل بالعلم وكان المفروض إنما هو بما يبلغه جهد
الرجل قال النبي صلى الله عليه وسلم إذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران وإذا اجتهد فأخطأ فله

أجر¹

¹الفتاوى الكبرى ج: 1 ص: 419-421 و مجموع الفتاوى ج: 18 ص: 167

درجة الحلم والصبر والعفو عن الظلم افضل اخلاق اهل الدنيا والاخرة

قال تعالى { **وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ** } النحل 126

كان النبي وغيره من الانبياء عليهم السلام يعفون ويصفحون عن من قاله امثالاً لقوله تعالى { خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ } الأعراف 199 ولقوله تعالى { ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّبِيَّةَ } المؤمنون 96 وقوله { وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ } 34 { وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا دُونَ حَظِّ عَظِيمٍ } 35 { فصلت 34 - 35 } ولقوله تعالى { وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ } آل عمران 159 ولقوله تعالى { وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذَاهُمْ } الأحزاب 48 ذلك لان درجة الحلم والصبر على الاذى والعفو عن الظلم افضل اخلاق اهل الدنيا والاخرة يبلغ الرجل بها ما لا يبلغه بالصيام والقيام قال تعالى { وَالْكَاطِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ } آل عمران 134 وقال تعالى { وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ } الشورى 40 وقال تعالى { إِنْ تُبْدُوا خَيْرًا أَوْ تُخَفَوْهُ أَوْ تَعْفُوا عَنْ سُوءٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا } النساء 149 وقال تعالى { **وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ** } النحل 126 } والاحاديث في هذا الباب كثيرة مشهورة ثم الانبياء احق الناس بهذه الدرجة لفضلهم واحوج الناس اليها لما ابتلوا به من دعوة الناس ومعالجتهم وتغيير ما كانوا عليه من العادات هو امر لم يات به احد الا عودي فالكلام الذي يؤذيهم يكفر به الرجل فيصير به محاربا ان كان ذا عهد ومرتدا او منافقا ان كان ممن يظهر الاسلام ولهم فيه ايضا حق الادمي فجعل الله لهم ان يعفوا عن مثل هذا النوع ووسع عليهم ذلك لما فيه من حق الادمي تغليبا لحق الادمي على حق الله كما جعل لمستحق القود وحد القذف ان يعفو عن القاتل والقاذف واولى لما في جواز عفو الانبياء ونحوهم من المصالح العظيمة المتعلقة بالنبي والامة وبالدين وهذا معنى قول عائشة رضي الله عنها ما ضرب رسول الله بيده خادما له ولا امراة ولا دابه ولا شيئا قط الا ان يجاهد في سبيل الله ولا انتقم لنفسه قط وفي لفظ ما نيل منه شئ فانتقم من صاحبه الا ان تنتهك محارم الله فاذا انتهكت محارم الله لم يقم لغضبه شئ حتى ينتقم الله متفق عليه ومعلوم ان النيل منه اعظم من انتهاك المحارم لكن لما دخل فيها حقه كان الامر اليه في العفو او الانتقام فكان يختار العفو وربما امر بالقتل اذا راي المصلحة في ذلك بخلاف ما لاحق له فيه من زنى او سرقة او ظلم لغيره فانه يجب عليه القيام به وقد كان اصحابه اذا راوا من يؤذيه ارادوا قتله لعلمهم بانه يستحق القتل فيعفو هو عنه ويبين لهم ان عفوه اصلح مع اقراره لهم على جواز قتله ولو قتله قاتل قبل عفو النبي لم يعرض له النبي لعلمه بانه قد انتصر لله ورسوله بل يحمده على ذلك ويثني عليه كما قتل عمر رضي الله عنه الرجل الذي لم يرضى بحكمه وكما قتل رجل بنت مروان واخر اليهودية السابيه فاذا تعذر عفوه بموته بقي حقا محضا لله ولرسوله وللمؤمنين لم يعف عنه مستحقه فتجب اقامته ويبين ذلك ما روى ابراهيم بن الحكم بن ابان حدثني ابي عن عكرمه عن ابي هريرة رضي الله عنه ان اعرابيا جاء الى النبي يستعينه في شئ فاعطاه شيئا ثم قال احسنت اليك قال الاعرابي لا ولا اجملت قال فغضب المسلمون وقاموا اليه فأشار اليهم ان كفوا ثم قام فدخل منزله ثم ارسل الى الاعرابي فدعاه

الى البيت يعني فاعطاه فرضي فقال انك جئتنا فسالتنا فاعطيناك فقلت ما قلت وفي انفس المسلمين شئ من ذلك فان احببت فقل بين ايديهم ما قلت بين يدي حتى يذهب من صدورهم ما فيها عليك قال نعم فلما كان الغد او العشي جاء قال رسول الله ان صاحبكم هذا جاء فسالنا فاعطيناه فقال ما قال وانا دعوناه الى البيت فاعطيناه فزعم انه قد رضي كذلك قال الاعرابي نعم فجزاك الله من اهل وعشيرة خيرا فقال النبي الا ان مثلي ومثل هذا الاعرابي كمثل رجل كانت له ناقة فشردت عليه فاتبعها الناس فلم يزيدها الا نفورا فناداهم صاحب الناقة خلوا بيني وبين ناقتي فأنا أرفق بها فتوجه لها صاحب الناقة بين يديها فاخذ لها من قمام الارض فجاءت فاستتاحت فشد عليها رحلها واستوى عليها واني لو تركتكم حين قال ارجل ما قال فقتلتموه دخل النار ورواه ابو احمد العسكري بهذا الاسناد قال جاء اعرابي الى النبي فقال يا محمد اعطني فانك لا تعطي من مالك ولا من مال ابيك فاغلظ للنبي فوثب اليه اصحابه فقالوا يا عدو الله تقول هذا لرسول الله وذكره فهذا يبين لك ان قتل ذلك الرجل لاجل قوله ما قال كان جائزا قبل الاستتابة وانه صار كافرا بتلك الكلمة ولولا ذلك لما كان يدخل النار اذا قتل على مجرد تلك الكلمة بل كان يدخل الجنة لانه مظلوم شهيد وكان قاتله يدخل النار لانه قتل مؤمنا متعمدا وكان النبي يبين ان قتله لم يحل لان سفك الدم بغير حق من اكبر الكبائر وهذا الاعرابي كان مسلما ولهذا قال صاحبكم ولهذا جاءه الاعرابي يستعينه ولو كان كافرا محاربا له لما جاء يستعينه في شئ ولو كان النبي اعطاه ليسلم لذكر في الحديث انه اسلم فلما لم يجر للاسلام ذكر دل على انه كان ممن دخل الاسلام وفيه جفاء الاعراب وممن دخل في قوله تعالى {فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رِضْوَانًا وَإِنْ لَمْ يُعْطُوا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ} التوبة 58 ومما يوضح ذلك انه كان يعفو عن المنافقين الذين لا يشك في نفاقهم حتى قال لو اعلم اني لو زدت على السبعين غفر له لزدت حتى نهاه الله عن الصلاة عليهم والاستغفار لهم وامره بالاغلاظ عليهم فكثير مما كان يحتمله من المنافقين من الكلام وما يعاملهم من الصفح والعفو والاستغفار كان قبل نزول براءة لما قيل له {وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذَاهُمْ} الأحزاب 48 لاحتياجه اذ ذاك الى استعطافهم وخشية نفور العرب عنه اذا قتل احدا منهم وقد صرح لما قال ابن ابي {لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ} المنافقون 8 ولما قال ذو الخويصرة اعدل فانك لم تعدل وعند غير هذه القضية انه انما لم يقتلهم لئلا يتحدث الناس ان محمدا يقتل اصحابه فان الناس ينظرون الى ظاهر الامر فيرون واحدا من الصحابة قد قتل فيظن الظان انه يقتل بعض اصحابه على غرض او حقد او نحو ذلك فينفر الناس عن الدخول في الاسلام واذا كان من شريعته ان يتألف الناس على الاسلام بالاموال العظيمة ليقوم دين الله وتعلو كلمته فلان يتألفهم بالعفو اولى واحرى فلما انزل الله براءة ونهاه عن الصلاة على المنافقين والقيام على قبورهم وامره ان يجاهد الكفار والمنافقين ويغلظ عليهم نسخ جميع ما كان المنافقون يعاملون به من العفو كما نسخ ما كان الكفار يعاملون به من الكف عمن سالم ولم يبقى الا اقامة الحدود واعلاء كلمة الله في حق الانسان¹

¹ الصارم المسلول ج: 2 ص: 434-441

" ما زاد الله عبدا بعفو إلا عزا "

قال تعالى { وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ } النحل 126 القسط الذي أرسل الله له الرسل و أنزل له الكتب و هو مقابلة الحسنة بمثلها و السيئة بمثلها كما قال تعالى { هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ } الرحمن 60 و قال { وَإِذَا حُيِّبْتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا } النساء 86 و قال { وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا } الشورى 40 و قال { كَتَبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ } البقرة 178 و قال { فَمَنْ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ } البقرة 194 و قال { وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ } النحل 126 لكن مقابلة الحسنة بمثلها عدل و اجب و الزيادة إحسان مستحب و النقص ظلم محرم و مقابلة السيئة بمثلها عدل جائز و الزيادة محرم و النقص إحسان مستحب فالظلم للظالم و العدل للمقتصد و الاحسان المستحب للسابق بالخيرات و الأمة ثلاثة ظالم لنفسه و مقتصد و سابق بالخيرات¹

لا يكون العفو عن الظالم ولا قليله مقسطا لأجر المظلوم عند الله ولا منقصا له بل العفو عن الظالم يصير أجره على الله تعالى فإنه إذا لم يعف كان حقه على الظالم فله أن يقتص منه بقدر مظلمته وإذا عفا وأصلح فأجره على الله وأجره الذى هو على الله خير وأبقى قال تعالى { وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ } الشورى 40 فقد أخبر أن جزاء السيئة سيئة مثلها بلا عدوان وهذا هو القصاص في الدماء والأموال والأعراض ونحو ذلك ثم قال { فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ } الشورى 40 وقد ذكر عن الإمام أحمد لما ظلم فى محنته المشهورة أنه لم يخرج حتى حلل من ظلمه وقال ذكرت حديثا ذكر عن مبارك بن فضالة عن الحسن قال إذا كان يوم القيامة نادى مناد ألا ليقم من وجب أجره على فلا يقوم إلا من عفا وأصلح وقد قال تعالى { وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ } النحل 126 وأباح لهم سبحانه وتعالى إذا عاقبوا الظالم أن يعاقبوه بمثل ما عاقب به ثم قال { وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ } النحل 126 فعلم أن الصبر عن عقوبته بالممثل خير من عقوبته فكيف يكون مسقطا للأجر أو منقصا له وقد قال تعالى { وَالْجُرُوحُ قِصَاصٌ فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ } المائدة 45 فجعل الصدقة بالقصاص الواجب على الظالم وهو العفو عن القصاص كفارة للعافى والإقتصاص ليس بكفارة له فعلم أن العفو خير له من الإقتصاص وهذا لأن ما أصابه من المصائب مكفر الذنوب ويوثر العبد على صيره عليها و ويرفع درجته برضاه بما يقضيه الله عليه منها قال الله تعالى { مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ } التغابن 11 قال بعض السلف هو الرجل تصيبه المصيبة فيعلم أنها من عند الله فيرضى ويسلم وفى الصحيحين عن النبي أنه قال ما يصيب المؤمن من وصب ولا نصب ولا هم ولا حزن ولا غم ولا أذى حتى الشوكة يشاكها إلا كفر الله بها من خطاياها وفى المسند أنه لما نزل قوله تعالى { مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ } النساء 123 قال أبو بكر يا رسول الله نزلت قاصمة الظهر وأينا لم يعمل سوءا فقال يا أبا بكر أأنت تنصب أأنت تحزن أأنت تصيبك الأواء فذلك ما تجزون به وفيه أيضا المصائب حطة

¹مجموع الفتاوى ج: 29 ص: 521

تحت الخطايا عن صاحبها كما تحط الشجرة القائمة ورقها والدلائل على أن المصائب كفارات كثيرة إذا صبر عليها أتيب على صبره فالثواب والجزاء إنما يكون على العمل وهو الصبر وأما نفس المصيبة فهي من فعل الله لا من فعل العبد وهي من جزاء الله للعبد على ذنبه وتكفيره ذنبه بها وفي المسند أنهم دخلوا على أبي عبيدة بن الجراح وهو مريض فذكروا أنه يؤجر على مرضه فقال مالى من الأجر ولا مثل هذه ولكن المصائب حطة فبين لهم أبو عبيدة رضى الله عنه أن نفس المرض لا يؤجر عليه بل يكفر به عن خطاياهم وكثيرا ما يفهم من الأجر غفران الذنوب فيكون فيه أجر بهذا الاعتبار ومن الناس من يقول لا بد فيه من التعويض والأجر والإمتنان وقد يحصل له ثواب بغير عمل كما يفعل عنه من أعمال البر وأما الصبر على المصائب ففيها أجر عظيم قال تعالى { وَيَسِّرِ الصَّابِرِينَ {155} الَّذِينَ إِذَا أَصَابْتَهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ {156} أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ {157} البقرة 155-157 فالرجل إذا ظلم بجرح ونحوه فتصدق به كان الجرح مصيبة يكفر بها عنه ويؤجر على صبره وعلى إحسانه إلى الظالم بالعفو عنه فإن الإحسان يكون بجلب منفعة وبدفع مضرة ولهذا سماه الله صدقة وقد قال تعالى { وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ {133} الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاطِمِينَ الْغَيْظِ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ {134} آل عمران 133-134 فذكر أنه يحب المحسنين والعافين عن الناس وتبين بهذا أن هذا من الإحسان والإحسان ضد الإساءة وهو فعل الحسن سواء كان لازما لصاحبه أو متعديا إلى الغير ومنه قوله {مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} القصص 84 وقال {مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا} الأنعام 160 فالكاظم للغيب والعافى عن الناس قد أحسن إلى نفسه وإلى الناس فإن ذلك عمل حسنة مع نفسه ومع الناس ومن أحسن إلى الناس فإلى نفسه كما يروى عن بعض السلف أنه قال ما أحسنت إلى أحد وما أسأت إلى أحد وإنما أحسنت إلى نفسي وأسأت إلى نفسي قال تعالى {إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا} الإسراء 7 وقال تعالى {مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا} فصلت 46 ولو لم يكن الإحسان إلى الخلق إحسانا إلى المحسن يعود نفعه عليه لكان فاعلا إما أو ضررا فإن العمل الذى لا يعود نفعه على فاعله إما حيث لم يكن فيه فائدة وإما شر من العيب إذا ضر فاعله والعفو عن الظالم أحد نوعى الصدقة المعروف والإحسان إلى الناس وجماع ذلك الزكاة والله سبحانه دائما يأمر بالصلاة والزكاة وهى الصدقة وقد ثبت فى الصحيح عن النبى من غير وجه أنه قال كل معروف صدقة وذلك نوعان أحدهما اتصال نفع إليه الثانى دفع ضرر عنه فإذا كان المظلوم يستحق عقوبة الظلم ونفسه تدعوه إليه فكف نفسه عن ذلك ودفع عنه ما يدعوه إليه من إضراره فهذا إحسان منه إليه وصدقة عليه والله تعالى {يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ} يوسف 88 و{لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ} التوبة 120 فكيف يسقط أجر العافى وهذا عام فى سائر ما للعبد من الحقوق على الناس ولهذا إذا ذكر الله فى كتابه حقوق العباد وذكر فيه العدل ندب فيها إلى الإحسان فإنه سبحانه يأمر بالعدل والإحسان كما قال تعالى {وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ} البقرة 280 فجعل الصدقة على المدين المعسر بإسقاط الدين عنه خيرا للمتصدق من مجرد إنظاره وقال تعالى {وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَأً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٌ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ إِلَّا أَنْ يَصَدَّقُوا} النساء 92 فسمى إسقاط الدية صدقة وقال تعالى {وَإِنْ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّا أَنْ يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَ الَّذِي بَيْنَهُنَّ عَقْدَةُ النِّكَاحِ وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ} البقرة 237 فجعل العفو عن نصف الصداق الواجب على الزوج بالطلاق قبل الدخول أقرب للتقوى من إستيفائه وعفو المرأة إسقاط نصف الصداق باتفاق

الأمّة وأما عفو الذي بيده عقدة النكاح فليل هو عفو الزوج وأنه تكميل للصدّق للمرأة وعلى هذا يكون هذا العفو من جنس ذلك العفو فهذا العفو إعطاء الجميع وذلك العفو إسقاط الجميع والذي حمل من قال هذا القول عليه انهم رأوا أن غير المرأة لا تملك إسقاط حقها الواجب كما لا تملك إسقاط سائر ديونها وقيل الذي بيده عقدة النكاح هو ولي المرأة المستقل بالعقد بدون استئذانها كالأب للبكر الصغيرة وكالسيد للأمّة وعلى هذا يكون العفو من جنس واحد ولهذا لم يقل إلا أن يعفون أو يعفوهم والخطاب في الآية للأزواج وقال تعالى حكاية عن لقمان أنه قال لابنه { وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ } لقمان 17 وقال تعالى { وَلَمَنِ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَٰئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِّنْ سَبِيلٍ } {41} إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ {42} وَلَمَنِ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ {43} الشورى 41-43 فهناك فى قول لقمان ذكر الصبر على المصيبة فقال { إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ } لقمان 17 وهنا ذكر الصبر والعفو فقال { إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ } الشورى 43 وذكر ذلك بعد قوله { وَلَمَنِ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَٰئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِّنْ سَبِيلٍ } {41} إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ } {42} الشورى 41-42 فذكر سبحانه الأصناف الثلاثة فى باب الظلم الذى يكون بغير اختيار المظلوم وهم العادل والظالم والمحسن فالعادل من انتصر بعد ظلمه وهذا جزؤه انه ما عليه من سبيل فلم يكن بذلك ممدوحا ولكن لم يكن بذلك مذموما وذكر الظالم بقوله { إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ } الشورى 42 فهؤلاء عليهم السبيل للعقوبة والإقتصاص وذكر المحسنين

فقال { وَلَمَنِ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ } الشورى 43 والقرآن فيه جوامع الكلم وهذا كما ذكر فى آخر البقرة أصناف الناس فى المعاملات التى تكون باختيار المتعاملين وهم ثلاثة محسن وظالم وعادل فالمحسن هو المتصدق والظالم هو المربى والعادل هو البائع فذكر هنا حكم الصدقات وحكم الربا وحكم المبايعات والمدائبات وكما أن من توهم أنه بالعفو يسقط حقه أو ينقص غلط جاهل ضال بل بالعفو يكون أجره أعظم فكذلك من توهم أنه بالعفو يحصل له ذل ويحصل للظالم عز واستطالة عليه فهو غلط فى ذلك كما ثبت فى الصحيح وغيره عن النبى أنه قال ثلاث إن كنت لحالفا عليهن ما زاد الله عبدا بعفو إلا عزا وما نقصت صدقة من مال وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله فبين الصادق المصدوق إن الله لا يزيد العبد بالعفو إلا عزا وأنه لا تنقص صدقة من مال وأنه ما تواضع أحد لله إلا رفعه الله وهذا رد لما يظنه من يتبع الظن وما تهوى الأنفس من أن العفو يذله والصدقة تنقص ماله والتواضع يخفضه وفى الصحيحين عن عائشة رضى الله عنها قالت ما ضرب رسول الله خادما له ولا امرأة ولا دابة ولا شيئا قط إلا أن يجاهد فى سبيل الله ولا نيل منه قط شيء فانتقم لنفسه إلا أن تنتهك محارم الله فإذا إنتهكت محارم الله لم يقم لغضبه شيء حتى ينتقم لله وخلق رسول الله القرآن أكمل الأخلاق وقد كان من خلقه أنه لا ينتقم لنفسه وإذا إنتهكت محارم الله لم يقم لغضبه شيء حتى ينتقم لله فيعفو عن حقه ويستوفى حق ربه والناس فى الباب أربعة أقسام منهم من ينتصر لنفسه ولربه وهو الذى يكون فيه دين وغضب ومنهم من لا ينتصر لا لنفسه ولا لربه وهو الذى فيه جهل وضعف دين ومنهم من ينتقم لنفسه لا لربه وهم شر الأقسام وأما الكامل فهو الذى ينتصر لحق الله ويعفو عن حقه كما قال أنس ابن مالك خدمت رسول الله عشر سنين فما قال لى أف قط وما قال لى لشيء فعلته لم فعلته ولا لشيء لم أفعله لم لا فعلته وكان بعض أهله إذا عتبنى على شيء يقول دعوه لو قضي شيء لكان فهذا فى العفو عما يتعلق بحقوقه وأما فى حدود الله فلما شفع عنده أسامة بن زيد وهو الحب ابن الحب وكان هو أحب

إليه من أنس وأعر عنده في امرأة سرقت شريفة أن يعفو عن قطع يدها غضب وقال يا أسامة أتشفع في حد من حدود الله إنما أهلك من كان قبلكم انهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد والذي نفس محمد بيده لو سرقت فاطمة بنت محمد لقطعت يدها فغضب على أسامة لما شفع في حد الله وعفا عن أنس في حقه وكذلك لما أخبره أسامة أنه قتل رجلا بعد أن قال لا إله إلا الله قال أقتلته بعدما قال لا إله إلا الله فما زال يكررها حتى قلت أليته سكت والأحاديث والآثار في استحباب العفو عن الظالم وأن أجره بذلك أعظم كثيرة جدا وهذا من العلم المستقر في فطر آدميين وقد قال تعالى لنبيه { خذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ } الأعراف 199 فأمره أن يأخذ بالعفو في أخلاق الناس وهو ما يقر من ذلك قال ابن الزبير أمر الله نبيه أن يأخذ بالعفو من أخلاق الناس وهذا كقوله { وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ } البقرة 219 من أموالهم هذا من العفو ويأمر بالمعروف ويعرض عن الجاهلين وهذه الآية فيها جماع الأخلاق الكريمة فإن الإنسان مع الناس إما أن يفعلوا معه غير ما يحب أو ما يكره فأمر أن يأخذ منهم ما يحب ما سمحوا به ولا يطالبهم بزيادة وإذا فعلوا معه ما يكره أعرض عنهم وأما هو فيأمرهم بالمعروف وهذا باب واسع¹

الله سبحانه أوجب على عباده العدل في الصلح كما أوجبه في الحكم

قال تعالى { وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ } النحل 126 فإذا اختصم رجلان بقول أو فعل وجب أن يقام في امرهما بالقسط قال الله تعالى { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ } النساء 135 وقال { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ } المائدة 8 وقال { وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَت إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ } الحجرات 9 الآية وقد روى أن اقتتلهما كان بالجريد والنعال وقد قال تعالى { لِأَخَيْرٍ فِي كَثِيرٍ مِّنْ نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ } النساء 114 الآية وقال { إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا } النساء 58 وقال { وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ } الشورى 40 وقال { وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ } النحل 126 الآية فإن كان الشخصان قد اختصما نظر أمرهما فإن تبين ظلم أحدهما كان المظلوم بالخيار بين الاستيفاء والعفو والعفو أفضل فإن كان ظلمه بضرب أو لطم فله أن يضربه أو يلطمه كما فعل به عند جماهير السلف وكثير من الأئمة وبذلك جاءت السنة وقد قيل انه يؤدب ولا قصاص في ذلك وإن كان قد سبه فله أن يسبه مثل ما سبه إذا لم يكن فيه عدوان على حق محض لله أو على غير الظالم فإذا لعنه أو سماه باسم كلب ونحوه فله أن يقول له مثل ذلك فإذا لعن أباه لم يكن له أن يلعن أباه لأنه لم يظلمه وإن افتري عليه كذبا لم يكن له أن يفترى عليه كذبا لأن الكذب حرام لحق الله كما قال كثير من العلماء في

¹مجموع الفتاوى ج: 30 ص: 361-371

القصاص في البدن أنه اذا جرحه أو خنقه أو ضربه ونحو ذلك يفعل به كما فعل فهذا أصح قولي العلماء الا ان يكون الفعل محرما لحق الله كفعل الفاحشة أو تجريعه الخمر فقد نهى عن مثل هذا أكثرهم وان كان بعضهم سوغه بنظير ذلك واذا اعترف الظالم بظلمه وطلب من المظلوم ان يعفو عنه ويستغفر الله له فهذا حسن مشروع كما ثبت في الصحيح عن أبي الدرداء انه كان بين أبي بكر وعمر كلام وان أبا بكر طلب من عمر ان يستغفر له فأبى عمر ثم ندم فطلب أبا بكر فوجده قد سبقه إلى النبي وذكر له ذلك فقال النبي يغفر الله لك يا أبا بكر ثم قال ايها الناس اني قد جئت إليكم فقلت اني رسول الله فقلتم كذبت وقال أبو بكر صدقت فهل انتم تاركوا لي صاحبي واذا طلب من المظلوم العفو بعد اعتراف الظالم فأجاب كان من المحسنين الذين اجرهم على الله وان أبى الا طلب حقه لم يكن ظالما لكن يكون قد ترك الأفضل الأحسن فليس لأحد ان يخرج عن أهل الطريق بمجرد ذلك كما قد يفعله كثير من الناس قال الله تعالى { وَلَمَنْ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مَن سَبِيلٍ } {41} إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ } {42} وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ } {43} الشورى 41-43 فانه لو كان من ترك الاحسان الذي لا يجب عليه يحسب خارجا عن الطريق خرج عنه جمهور أهله و أولياء الله على صنفين مقربين سابقين وأصحاب يمين مقتصدين كما روى البخارى في صحيحه عن أبي هريرة عن النبي قال يقول الله تعالى من عادى لي وليا فقد بارزني بالمحاربة وما تقرب إلى عبدي بمثل أداء ما افترضت عليه ولا يزال عبدي يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه فاذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشى بها فبى يسمع وبى يبصر وبى يبطش وبى يمشى ولئن سألتني لأعطينه ولئن استعادني لأعيدنه وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن قبض نفس عبدي المؤمن يكره الموت واكره مساءته ولا بد له منه ثم أكثر هؤلاء الذين يذمون تارك العفو إنما يذمونه لأهوائهم لكون الظالم صديق أحدهم أو وريثه أو قرينه ونحو ذلك والله سبحانه أوجب على عباده العدل في الصلح كما أوجبه في الحكم فقال تعالى { فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ } الحجرات 9 وقيد الاصلاح الذي يثيب عليه بالاخلاص فقال تعالى { وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا } النساء 114 اذ كثير من الناس يقصدون الاصلاح إما لسمعة وإما لرياء ومن العدل أن يمكن المظلوم من الانتصاف ثم بعد ذلك الشفاعة إلى المظلوم في العفو ويصالحه الظالم وترغيبه في ذلك فان الله تعالى إذا ذكر في القرآن حقوق العباد التي فيها وزر الظالم ندب فيها إلى العفو كقوله سبحانه { وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ } المائدة 45 وقوله { وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ } الشورى 40 وعن أنس قال ما رفع إلى رسول الله صلى عليه وسلم شيء في القصاص الا أمر فيه بالعفو وليس من شرط طلب العفو من المظلوم ان الظالم يقوم على قدميه ولا يضع نعليه على رأسه ونحو ذلك مما قد يلتزمه بعض الناس وإنما شرطه التمكين من نفسه حتى يستوفى منه الحق فاذا أمكن المظلوم من استيفاء حقه فقد فعل ما وجب عليه ثم المستحق بالخيار ان شاء عفى وان شاء استوفى وللمظلوم أن يهجره ثلاثا وأما بعد الثلاث فليس له أن يهجره على ظلمه إياه لقوله صلى الله عليه وسلم لا يحل لمسلم ان يهجر أخاه فوق ثلاث يلتقيان فيصد هذا ويصد هذا وخيرهما الذي يبدأ بالسلام واما إذا كان الذنب لحق الله كالكذب والفواحش والبدع المخالفة للكتاب والسنة أو اضاءة الصلاة بالتفريط وواجباتها ونحو ذلك فهذا لا بد فيه من التوبة وهل يشترط مع التوبة اظهار الاصلاح في العمل على قولين للعلماء وإذا كان لهم شيخ مطاع فان له ان يعزر العاصي بحسب ذنبه تعزيرا يليق بمثله أن يفعله بمثله مثل هجره مدة كما هجر النبي صلى الله عليه وسلم الثلاثة المخلفين وقد كان

النبى صلى الله عليه وسلم وخلفاؤه الراشدون يسوسون الناس فى دينهم وديناهم ثم بعد ذلك تفرقت الأمور فصار امرء الحرب يسوسون الناس فى أمر الدنيا والدين الظاهر وشيوخ العلم والدين يسوسون الناس فيما يرجع اليهم فيه من العلم والدين وهؤلاء أولوا أمر تجب طاعتهم فيما يأمرون به من طاعة الله التى هم أولوا أمرها وهو كذلك فسر أولوا الأمر فى قوله { أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ } النساء 59 بأمرء الحرب من الملوك ونوابهم وبأهل العلم والدين الذين يعلمون الناس دينهم ويأمرونهم بطاعة الله فان قوام الدين بالكتاب والحديد كما قال تعالى { لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ } الحديد 25 وإذا كان ولادة الحرب عاجزين ومفرطين عن تقويم المنتسبين إلى الطريق كان تقويمهم على رؤسائهم وكان لهم من تعزيزهم وتأديبهم ما يتمكنون منه إذا لم يقم به غيرهم كما قال النبى صلى الله عليه وسلم من رأى منكم منكرا فليغيره بيده فان لم يستطع فبلسانه فان لم يستطع فبقلمه وهو اضعف الايمان وقد يكون تعزيزه بنفيه عن وطنه مدة كما كان عمر بن الخطاب رضى الله عنه ينفى من شرب الخمر وكما نفى نصر بن حجاج إلى البصرة لخوف فتنة النساء به وقد مضت سنة رسول الله بالنفى فى الزنا ونفى المخنث¹

القرآن جمع بين العدل والفضل على غاية الكمال

قال تعالى { وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ } النحل 126 أن الدماء والأموال وإن كان يستحب للمظلوم أن يعفو فيها عن ظالمه فالحاكم الذي يحكم بين الناس متى حكم على المظلوم بترك حقه كان حاكما بالظلم لا بالعدل ولو أمرنا كل ولي مقتول أن لا يقتص من القاتل وكل صاحب دين أن لا يطالب غريمه بل يدعه على اختياره وكل مشتوم ومضروب أن لا ينتصف من ظالمه لم يكن للظالمين زاجر يزرهم وظلم الأقوياء الضعفاء وفسدت الأرض قال تعالى { وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ } البقرة 251 فلا بد من شرع يتضمن الحكم بالعدل ولا بد مع ذلك من نذب الناس إلى العفو والأخذ بالفضل وهذه شريعة الإسلام مثل قوله { وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ } النحل 126 وقال أنس ما رفع للنبي أمر فيه القصاص إلا أمر فيه بالعفو فكان يأمر بالعفو ولا يلزم الناس به ولهذا لما عتقت بريرة وكان لها أن تفسخ النكاح وطلب زوجها أن لا تفارقه شفع إليها أن لا تفارقه فقالت أتأمرني قال لا إنما أنا شافع فلم يوجب عليها قبول شفاعته²

والقرآن جمع بين العدل والفضل على غاية الكمال فالقرآن بين أن السعداء أهل الجنة وهم أولياء الله نوعان أبرار مقتصدون ومقربون سابقون فالدرجة الأولى تحصل بالعدل وهي أداء الواجبات وترك المحرمات والثانية لا تحصل إلا بالفضل وهو أداء الواجبات والمستحبات وترك المحرمات

¹مجموع الفتاوى ج: 11 ص: 546- 552

²الجواب الصحيح ج: 5 ص: 106-107

والمكروهات فالشريعة الكاملة تجمع العدل والفضل كقوله تعالى { وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ } النحل126 فهذا عدل واجب من خرج عنه استحق العقوبة في الدنيا والآخرة ثم قال { وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ } النحل126 فهذا فضل مستحب مندوب إليه من فعله أثابه الله ورفع درجته ومن تركه لم يعاقبه وهو سبحانه دائماً يحرم الظلم ويوجب العدل ويندب إلى الفضل¹

شرع القصاص في النفوس والأموال والأعراض بحسب الامكان

قال تعالى { وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ } النحل126 فان الشريعة ميناها على العدل كما قال تعالى { لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ } الحديد25 { لَا يَكْفُفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا } البقرة286 والله قد شرع القصاص في النفوس والأموال والأعراض بحسب الامكان فقال تعالى { كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ } البقرة178 الآية وقال تعالى { وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ } المائدة45 الآية وقال تعالى { وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا } الشورى40 الآية وقال تعالى { فَمَنْ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ } البقرة194 فاذا قتل الرجل من يكافئه عمدا عدوانا كان عليه القود ثم يجوز أن يفعل به مثل ما فعل كما يقوله أهل المدينة ومن وافقهم كالشافعي وأحمد في إحدى الروايتين بحسب الامكان إذا لم يكن تحريمه بحق الله كما إذا رضخ رأسه كما رضخ النبي رأس اليهودي الذي رضخ رأس الجارية كان ذلك أتم في العدل بمن قتله بالسيف في عنقه وإذا تعذر القصاص عدل إلى الدية وكانت الدية بدلا لتعذر المثل وإذا اتلف له مالا كما لو تلفت تحت يده العارية فعليه مثله ان كان له مثل وان تعذر المثل كانت القيمة وهي الدراهم والدنانير بدلا عند تعذر المثل ولهذا كان من أوجب المثل في كل شيء بحسب الامكان مع مراعاة القيمة اقرب إلى العدل ممن أوجب القيمة من غير المثل وفي هذا كانت قصة داود وسليمان وقد بسطنا الكلام على هذه الأبواب كلها في غير هذا الموضوع وإنما المقصود هنا التنبيه وحينئذ فتجوز العرايا ان تباع بخرصها لأجل الحاجة عند تعذر بيعها بالكيل موافق لأصول الشريعة مع ثبوت السنة الصحيحة فيه وهو مذهب أهل المدينة وأهل الحديث ومالك جوز الخرص في نظير ذلك للحاجة وهذا عين الفقه الصحيح ومذهب أهل المدينة ومن وافقهم كالشافعي وأحمد في جزاء الصيد انه يضمن بالمثل في الصورة كما مضت بذلك السنة واقضية الصحابة فان في السنن أن النبي قضى في الضبع بكيش وقضت الصحابة في النعامة ببينة وفي الظبي بشاة وأمثال ذلك ومن خالفهم من أهل الكوفة انما يوجب القيمة في جزاء الصيد وأنه يشتري بالقيمة الانعام والقيمة مختلفة باختلاف الأوقات²

قال تعالى { وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ } النحل126 ان جميع المتلفات تضمن بالجنس بحسب الامكان مع مراعاة القيمة حتى الحيوان كما انه في القرض

¹الجواب الصحيح ج: 5 ص: 61

²مجموع الفتاوى ج: 20 ص: 351

يجب فيه رد المثل وإذا اقترض حيوانا رد مثله كما اقترض النبي بكرا ورد خيرا منه وكذلك في المغرور يضمن ولده بمثلهم كما قضت به الصحابة وكذلك اذا استثنى رأس المبيع ولم يذبحه فان الصحابة قضوا بشرائه اى برأس مثله في القيمة وهذا احد القولين في مذهب احمد وغيره وقصة داود وسليمان عليهما السلام من هذا الباب فان الماشية كانت قد اتلفت حرث القوم وهو بستانهم قالوا وكان عينا والحرث اسم للشجر والزرع فقاضى داود بالغنم لاصحاب الحرث كانه ضمنهم ذلك بالقيمة ولم يكن لهم مال الا الغنم فأعطاهم الغنم بالقيمة واما سليمان فحكم بأن اصحاب الماشية يقومون على الحرث حتى يعود كما كان فضمنهم اياه بالمثل واعطاهم الماشية يأخذون منفعتها عوضا عن المنفعة التي فاتت من حين تلف الحرث الى ان يعود وبذلك افتى الزهرى لعمر بن عبد العزيز فيمن كان اتلف له شجرا فقال يغرسه حتى يعود كما كان وقيل ربيعة وابو الزناد قالوا عليه القيمة فغلظ الزهرى القول فيهما وهذا موجب الأدلة فان الواجب ضمان المتلف بالمثل بحسب الامكان قال تعالى { وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا } الشورى 40 وقال { فَمَنْ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ } البقرة 194 وقال { وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ } النحل 126 وقال { وَالْحُرْمَاتُ قِصَاصٌ } البقرة 194 فاذا اتلف نقدا او حبوبا ونحو ذلك امكن ضمانها بالمثل وان كان المتلف ثيابا او آنية او حيوانا فهنا مثله من كل وجه وقد يتعذر فالأمر دائر بين شيئين اما ان يضمنه بالقيمة وهي دراهم مخالفة للمتلف في الجنس والصفة لكنها تساويه في المالىه واما ان يضمنه بثياب من جنس ثياب المثل او آنية من جنس آنيته او حيوان من جنس حيوانه مع مراعاة القيمة بحسب الامكان ومع كون قيمته بقدر قيمته فهنا المالية مساوية كما في النقد وامتاز هذا بالمشاركة في الجنس والصفة فكان ذلك امثل من هذا وما كان امثل فهو اعدل فيجب الحكم به اذا تعذر المثل من كل وجه ونظير هذا ما ثبت بالسنة واتفق الصحابة من القصاص في اللطمة

والضربة وهو قول كثير من السلف وقد نص عليه احمد في رواية اسماعيل بن سعيد الشالنجي التي شرحها الجوزجاني في كتابه المسمى بالمترجم فقال طائفة من الفقهاء المساواة متعذرة في ذلك فيرجع الى التعزير فيقال لهم ما جاءت به الآثار هو موجب القياس فان التعزير عقاب غير مقدر الجنس ولا الصفة ولا القدر والمرجع فيه الى اجتهاد الوالى ومن المعلوم الأمر بضرب يقارب ضربة وان لم يعلم انه مساو له اقرب الى العدل والمماثلة من عقوبة تخالفه في الجنس والوصف غير مقدره اصلا واعلم ان المماثل من كل وجه متعذر حتى في المكيلات فضلا عن غيرها فانه اذا اتلف صاعا من بر فضمن بصاع من بر لم يعلم ان احد الصاعين فيه من الحب ما هو مثل الآخر بل قد يزيد احدهما على الآخر ولهذا قال تعالى { وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا تُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا } الأنعام 152 فان تحديد الكيل والوزن مما قد يعجز عنه البشر ولهذا يقال هذا امثل من هذا اذا كان اقرب الى المماثلة منه اذا لم تحصل المماثلة من كل وجه¹

التمثيل في القتل فلا يجوز الاعلى وجه القصاص

¹مجموع الفتاوى ج: 20 ص: 561-565

قال تعالى { وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ } النحل 126
التمثيل في القتل فلا يجوز إلا على وجه القصاص وقد قال عمران بن حصين رضى الله عنهما ما
خطبنا رسول الله خطبة إلا أمرنا بالصدقة ونهانا عن المثلة حتى الكفار إذا قتلناهم فانا لانمثل بهم بعد
القتل ولا نجدع آذانهم وانوفهم ولا نبقر بطونهم إلا أن يكونوا فعلوا ذلك بنا فنفعل بهم مثل ما فعلوا
والترك أفضل كما قال الله تعالى { وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ
لِلصَّابِرِينَ } {126} {وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ } {127} {النحل 126- 127} قيل إنها نزلت لما مثل
المشركون بحمزة وغيره من شهداء أحد رضى الله عنهم فقال النبي صلى اله عليه وسلم لئن
أظفرتني الله بهم لأمثلن بضعفى ما مثلوا بنا فأنزل الله هذه الآية وإن كانت قد نزلت قبل ذلك بمكة
مثل قوله { وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي } {الإسراء 85} وقوله { وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي
النَّهَارِ وَزُلْفًا مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبُنَّ السَّيِّئَاتِ } {هود 114} وغير ذلك من الآيات التي نزلت
بمكة ثم جرت بالمدينة سبب يقتضى الخطاب فأنزلت مرة ثانية فقال النبي بل نصبر وفى
صحيح مسلم عن بريدة بن الحصيبي رضى الله عنه قال كان النبي إذا بعث أميراً على سرية أو
جيش أو فى حاجة نفسه أوصاه فى خاصة نفسه بتقوى الله تعالى وبمن معه من المسلمين خيراً ثم
يقول أغزوا بسم الله فى سبيل الله قاتلوا من كفر بالله ولا تغلوا ولا تغدروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا وليداً¹

الأمور منها ما يباح فيه القصاص ومنها ما لا يباح فيه القصاص

قال تعالى { وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ } النحل 126
فإن الأمور منها ما يباح فيه القصاص كالقتل وقطع الطريق وأخذ المال ومنها ما لا يباح فيه القصاص
كالفواحش والكذب ونحو ذلك قال تعالى فى الأول { وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا } الشورى 40 وقال
{ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ } النحل 126 وقال { فَمَنْ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ
بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ } البقرة 194 فأباح العقوبة والاعتداء بالمثل فلما قال صلى الله عليه وسلم ههنا
ولا تخن من خائنك علم ان هذا مما لا يباح فيه العقوبة بالمثل²

{وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ }

كان نبينا صلى الله عليه وسلم متبعاً ما أمر به من الصبر على أذى الخلق ففي الصحيحين عن
عائشة قالت ما ضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم بيده خادماً له ولا دابة ولا شيئاً قط إلا أن
يجاهد فى سبيل الله ولا نيل منه شيء قط فإنقم لنفسه إلا أن تنتهك محارم الله فإذا إنتهكت محارم الله
لم يقم لغضبه شيء حتى ينتقم لله وقال أنس خدمت رسول الله صلى الله عليه وسلم عشر سنين فما
قال لشيء فعلته لم فعلته ولا لشيء لم أفعله لم لا فعلته وكان بعض أهله إذا عتبنى على شيء يقول

¹مجموع الفتاوى ج: 28 ص: 313-315 و السياسة الشرعية ج: 1 ص: 70

²مجموع الفتاوى ج: 30 ص: 375

دعوه دعوه فلو قضى شيء لكان و فى السنن عن ابن مسعود رضى الله عنه انه ذكر للنبي صلى الله عليه و سلم قول بعض من آذاه فقال دعنا منك فقد أؤذي موسى بأكثر من هذا فصبر فكان يصبر على أذى الناس له من الكفار و المنافقين و أذى بعض المؤمنين كما قال تعالى { إِنَّ ذَلِكَ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ } الأحزاب 53 و كان يذكر أن هذا مقدر و المؤمن مأمور بأن يصبر على المقذور و لذلك قال { وَإِنْ تَصَبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضْرِبْكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً } آل عمران 120 فالتقوى فعل المأمور و ترك المحذور و الصبر على أذاهم ثم أنه حيث أباح المعاقبة قال { وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ } 126 { وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ } 127 { إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ } 128

النحل 126-128 فأخبر أن صبره بالله فالله هو الذي يعينه عليه فإن الصبر على المكاره بترك الانتقام من الظالم ثقيل على الأنفس لكن صبره بالله كما أمره أن يكون لله فى قوله { وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ } المدثر 7 لكن هناك ذكره فى الجملة الطلبيه الأمرية لأنه مأمور أن يصبر لله لا لغيره و هنا ذكره فى الخبرية فقال { وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ } 127 { النحل 127 } فإن الصبر و سائر الحوادث لا تقع إلا بالله ثم قد يكون ذلك و قد لا يكون فما لا يكون بالله لا يكون و ما لا يكون لله لا ينفع و لا يدوم و لا يقال و اصبر بالله فإن الصبر لا يكون إلا بالله لكن يقال إستعينوا بالله و اصبروا فنستعين بالله على الصبر و كما أن الإنسان مأمور بشهود القدر و توحيد الربوبية عند المصائب فهو مأمور بذلك عند ما ينعم الله عليه من فعل الطاعات فيشهد قبل فعلها حاجته و فقره إلى إعانة الله له و تحقق قوله { إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ } الفاتحة 5 و يدعو بالأدعية التى فيها طلب اعانة الله له على فعل الطاعات كقوله أعني على ذكرك و شكرك و حسن عبادتك و قوله يامقلب القلوب ثبت قلبى على دينك و يا مصرف القلوب أصرف قلبى إلى طاعتك و طاعة رسوك و قوله ربنا لا تزع قلوبنا بعد إذ هديتنا و حب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب و قوله ربنا آتنا من لدنك رحمة و هبى لنا من أمرنا رشداً و مثل قوله اللهم الهمني رشدي و اكفني شر نفسي و رأس هذه الأدعية و أفضلها قوله إهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم و لا الضالين فهذا الدعاء أفضل الأدعية و أوجبها على الخلق فإنه يجمع صلاح العبد فى الدين و الدنيا و الآخرة و كذلك الدعاء بالتوبة فإنه يتضمن الدعاء بأن يلهم العبد التوبة و كذلك دعاء الإستخارة فإنه طلب تعليم العبد ما لم يعلمه و تيسيره له و كذلك الدعاء الذي كان النبي صلى الله عليه و سلم يدعو به إذا قام من الليل و هو فى الصحيح اللهم رب جبرائيل و ميكائيل و إسرافيل فاطر السموات و الأرض عالم الغيب و الشهادة أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا يختلفون إهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك إنك تهدي من تشاء الى صراط مستقيم وكذلك الدعاء الذي فيه أقسم لنا من خشيتك ما تحول به بيننا و بين معصيتك و من طاعتك ما تبلغنا به جنتك و من اليقين ما تهون به علينا مصائب الدنيا و كذلك الدعاء باليقين و العافية كما فى حديث أبي بكر و كذلك قوله اللهم أصلح لي قلبى و نيتى و مثل قول الخليل و إسماعيل و اجعلنا مسلمين لك و من ذريتنا أمة مسلمة لك و هذه أدعية كثيرة تتضمن إفتقار العبد إلى الله فى أن يعطيه الإيمان و العمل الصالح فهذا إفتقار و إستعانه بالله قبل حصول المطلوب فإذا حصل بدعاء أو بغير دعاء شهد إنعام الله فيه و كان فى مقام الشكر و العبودية لله و إن هذا حصل بفضل و إحسانه لا بحول العبد و قوته فشهود القدر فى الطاعات من أنفع الأمور للعبد و غيبته عن ذلك من أضر الأمور به فإنه يكون قدريا منكرا لنعمة الله عليه بالإيمان و العمل الصالح و إن لم يكن قدري الإعتقاد كان قدري الحال و ذلك يورث العجب و الكبر و دعوى القوة و المنة بعمله و إعتقاد إستحقاق الجزاء على الله به فيكون من يشهد العبودية مع الذنوب و الإعتراف بها لا مع الإحتجاج بالقدر عليها خيرا من هذا الذي يشهد الطاعة

منه لا من إحسان الله إليه و يكون أولئك المذنبون بما معهم من الإيمان أفضل من طاعة بدون هذا الإيمان و أما من أذنب و شهد أن لا ذنب له أصلا لكون الله هو الفاعل و عند الطاعة يشهد أنه الفاعل فهذا شر الخلق و أما الذي يشهد نفسه فاعلا للأمرين و الذي يشهد ربه فاعلا للأمرين و لا يرى له ذنبا فهذا أسوء عاقبة من القدري و القدري أسوء بداية منه كما هو مبسوط في موضع آخر و الناس في هذا المقام أربعة أقسام من يغضب لربه لا لنفسه و عكسه و من يغضب لهما و من لا يغضب لهما كما أنهم في شهود القدر أربعة أقسام من يشهد الحسنه من فعل الله و السيئه من فعل نفسه و عكسه و من يشهد الثنتين من فعل ربه و من يشهد الثنتين من فعل نفسه فهذه الأقسام الأربعة في شهود الربوبية نظير تلك الأقسام الأربعة في شهود الإلهية فهذا تقسيم العباد فيما لله و لهم و ذلك تقسيمهم فيما هو بالله و بهم و القسم المحض أن يعمل لله بالله فلا يعمل لنفسه و لا بنفسه و المقصود هنا تقسيمهم فيما لله فأعلاهم حال النبي صلى الله عليه و سلم و من إتبعه أن يصبروا على أذى الناس لهم باليد و اللسان و يجاهدون في سبيل الله فيعاقبون و يغضبون و ينتقمون لله لا لنفوسهم يعاقبون لأن الله يأمر بعقوبة ذلك الشخص و يحب الإنتقام منه كما في جهاد الكفار و إقامة الحدود و أداناهم عكس هؤلاء يغضبون و ينتقمون و يعاقبون لنفوسهم لا لربهم فإذا أؤذي أحدهم أو خولف هواه غضب و انتقم و عاقب و لو إنتهكت محارم الله أو ضيعت حقوقه لم يهمله ذلك و هذا حال الكفار و المنافقين و بين هذين و هذين قسما قسم يغضبون لربهم و لنفوسهم و قسم يميلون إلى العفو في حق الله و حقوقهم فموسى في غضبه على قومه لما عبدوا العجل كان غضبه لله و قد مثل النبي صلى الله عليه و سلم في حقوق الله أبا بكر و عمر بإبراهيم و عيسى و نوح و موسى فقال إن الله يلين قلوب رجال فيه حتى تكون ألين من اللين و يشدد قلوب رجال فيه حتى تكون أشد من الحجر و مثلك يا أبا بكر كمثل إبراهيم و عيسى و مثلك يا عمر كمثل نوح و موسى و أما عفو الإنسان عن حقوقه فهذا أفضل و إن كان الإقتصاص جائزا و كذلك غضبه لنفسه تركه أفضل و إن كان الإقتصاص جائزا و أما ما كان من باب المصائب الحاصلة بقدر الله و لم يبق فيها مذنب يعاقب فليس فيها إلا الصبر و التسليم للقدر و قصة آدم و موسى كانت من هذا الباب فإن موسى لأمه لأجل ما أصابه و الذرية و آدم كان قد تاب من الذنب و غفر له و المصيبة كانت مقدرة فحج آدم موسى و هكذا قد يصيب الناس مصائب بفعل أقوام مذنبين تابوا مثل كافر يقتل مسلما ثم يسلم و يتوب الله عليه أو يكون متوولا لبدعة ثم يتوب من البدعة أو يكون مجتهدا أو مقلدا مخطئا فهؤلاء إذا أصاب العبد أذى بفعلهم فهو من جنس المصائب السماوية التي لا يطلب فيها قصاص من آدمي و من هذا الباب القتال في الفتنة قال الزهري وقعت الفتنة و أصحاب رسول الله متوافرون فأجمعوا أن كل دم أو مال أو فرج أصيب بتأويل القرآن فهو هدر وكذلك قتال البغاة المتأولين حيث أمر الله بقتالهم إذا قاتلهم أهل العدل فأصابوا من أهل العدل نفوسا و أموالا لم تكن مضمونة عند جماهير العلماء كأبي حنيفة و مالك و الشافعي في أحد قوليه و هذا ظاهر مذهب أحمد وكذلك المرتدون إذا صار لهم شوكة فقتلوا المسلمين و أصابوا من دمائهم و أموالهم كما إتفق الصحابة في قتال أهل الردة أنهم لا يضمنون بعد إسلامهم ما أتلفوا من النفوس و الأموال فإنهم كانوا متأولين و إن كان تأويلهم باطلا كما أن سنة رسول الله المتواترة عنه مضت بأن الكفار إذا قتلوا بعض المسلمين و أتلفوا أموالهم ثم أسلموا لم يضمنوا ما أصابوه من النفوس و الأموال و أصحاب تلك النفوس و الأموال كانوا يجاهدون قد إشتري الله منهم أنفسهم و أموالهم بأن لهم الجنة فعوض ما أخذ منهم على الله لا على أولئك الظالمين الذين قاتلهم المؤمنون و إذا كان هذا في الدماء و الأموال فهو في الأعراض أولى فمن كان مجاهدا في سبيل الله باللسان بالأمر بالمعروف و النهي عن المنكر و بيان الدين و تبليغ ما في الكتاب و السنة من الأمر و النهي و الخير و بيان الأقوال المخالفة لذلك و الرد على من خالف

الكتاب والسنة أو باليد كقتال الكفار فإذا أوزي على جهاده بيد غيره أو لسانه فأجره في ذلك على الله لا يطلب من هذا الظالم عوض مظلّمته بل هذا الظالم إن تاب وقبل الحق الذي جاهد عليه فالتوبة تجب ما قبلها {قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُعْفَرْ لَهُمْ مَّا قَدْ سَلَفَ} الأنفال 38 وإن لم يتب بل أصر على مخالفة الكتاب والسنة فهو مخالف لله ورسوله والحق في ذنوبه لله ولرسوله وإن كان أيضا للمؤمنين حق تبعا لحق الله وهذا إذا عوقب عوقب لحق الله ولتكون كلمة الله هي العليا ويكون الدين كله لله لا لأجل القصاص فقط والكفار إذا إعتدوا على المسلمين مثل أن يمثّلوا بهم فللمسلمين أن يمثّلوا بهم كما مثّلوا والصبر أفضل وإذا مثّلوا كان ذلك من تمام الجهاد والدعاء على الجنس الظالمين الكفار مشروع مأمور به وشرع القنوت والدعاء للمؤمنين والدعاء على الكافرين وأما الدعاء على معينين كما كان النبي يلعن فلانا وفلانا فهذا قد روي أنه منسوخ بقوله {لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ} آل عمران 128 كما قد بسط الكلام على ذلك في غير هذا الموضوع فيما كتبت في قلعة مصر وذلك لأن المعين لا يعلم أن رضى الله عنه أن يهلك بل قد يكون ممن يتوب الله عليه بخلاف الجنس فإنه إذا دعي عليهم بما فيه عز الدين وذل عدوه وقمعهم كان هذا دعاء بما يحبه الله ويرضاه فإن الله يحب الإيمان وأهل الإيمان وعلو أهل الإيمان وذل الكفار فهذا دعاء بما يحب الله وأما الدعاء على المعين بما لا يعلم أن الله يرضاه فغير مأمور به وقد كان يفعل ثم نهى عنه لأن الله قد يتوب عليه أو يعذبه ودعاء نوح على أهل الأرض بالهلاك كان بعد أن أعلمه الله أنه لا يؤمن من قومك إلا من قد آمن ومع هذا فقد ثبت في حديث الشفاعة في الصحيح أنه يقول أنى دعوت على أهل الأرض دعوة لم أومر بها فإنه وإن لم يمه عنها فلم يؤمر بها فكان الأولى أن لا يدعو إلا بدعاء مأمور به واجب أو مستحب فإن الدعاء من العبادات فلا يعبد الله إلا بمأمور به وهذا لو كان مأمورا به لكان شرعا لنوح ثم ننظر في شرعنا هل نسخه أم لا يرضاه فغير مأمور به وقد كان يفعل ثم نهى عنه لأن الله قد يتوب عليه أو يعذبه ودعاء نوح على أهل الأرض بالهلاك كان بعد أن أعلمه الله أنه لا يؤمن من قومك إلا من قد آمن ومع هذا فقد ثبت في حديث الشفاعة في الصحيح أنه يقول أنى دعوت على أهل الأرض دعوة لم أومر بها فإنه وإن لم يمه عنها فلم يؤمر بها فكان الأولى أن لا يدعو إلا بدعاء مأمور به واجب أو مستحب فإن الدعاء من العبادات فلا يعبد الله إلا بمأمور به واجب أو مستحب وهذا لو كان مأمورا به لكان شرعا لنوح ثم ننظر في شرعنا هل نسخه أم لا وكذلك دعاء موسى بقوله {رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ} يونس 88 إذا كان دعاء مأمورا به بقي النظر في موافقة شرعنا له والقاعدة الكلية في شرعنا أن الدعاء إن كان واجبا أو مستحبا فهو حسن يثاب عليه الداعي وإن كان محرما كالعدوان في الدماء فهو ذنب ومعصية وإن كان مكروها فهو ينقص مرتبة صاحبه وإن كان مباحا مستوي الطرفين فلا له ولا عليه فهذا هذا والله سبحانه أعلم¹

من عبد الله بغير علم كان ما يفسد أكثر مما يصلح

¹مجموع الفتاوى ج: 8 ص: 329-336

قال عمر بن عبد العزيز من عبد الله بغير علم كان ما يفسد أكثر مما يصلح وكما في حديث معاذ بن جبل رضى الله عنه العلم امام العمل والعمل تابعه وهذا ظاهر فان القصد والعمل ان لم يكن بعلم كان جهلا وضلالا واتباعا للهوى كما تقدم وهذا هو الفرق بين أهل الجاهلية وأهل الاسلام فلا بد من العلم بالمعروف والمنكر والتمييز بينهما ولا بد من العلم بحال المأمور والمنهى ومن الصلاح ان يأتي بالأمر والنهى بالصرط المستقيم وهو اقرب الطرق الى حصول المقصود ولا بد في ذلك من الرفق كما قال النبي ما كان الرفق في شئ الا زانه ولا كان العنف في شئ الا شاناه وقال إن الله رفيق يحب الرفق في الأمر كله ويعطى عليه ما لا يعطى على العنف ولا بد أيضا أن يكون حليما صبورا على الأذى فانه لا بد ان يحصل له أذى فان لم يحلم ويصبر كان ما يفسد أكثر مما يصلح كما قال لقمان لابنه { وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ } لقمان 17 ولهذا أمر الله الرسل وهم أئمة الامر بالمعروف والنهى عن المنكر بالصبر كقوله لخاتم الرسل بل ذلك مقرون بتبليغ الرسالة فانه أول ما أرسل أنزلت عليه سورة يا أيها المدثر بعد ان أنزلت عليه سورة اقرأ التي بها نبئ فقال { يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ } {1} قُمْ فَأَنْذِرْ } {2} وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ } {3} وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ } {4} وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ } {5} وَلَا تَمُنْ بِتَسْتَكْبِرْ } {6} وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ } {7} المدثر 1-7 فافتتح آيات الارسال الى الخلق بالأمر بالندارة وختمها بالأمر بالصبر ونفس الانذار أمر بالمعروف ونهى عن المنكر فعلم انه يجب بعد ذلك الصبر وقال { وَأَصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا } الطور 48 وقال تعالى { وَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا } المزمّل 10 { فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ } الأحقاف 35 { فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ } القلم 48 { وَأَصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ } النحل 127 { وَأَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ } هود 115 فلا بد من هذه الثلاثة العلم والرفق والصبر العلم قبل الأمر والنهى والرفق معه والصبر بعده وان كان كل من الثلاثة مستصحا في هذه الاحوال وهذا كما جاء في الأثر عن بعض السلف ورووه مرفوعا ذكره القاضى أبو يعلى في المعتمد لا يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر إلا من كان فقيها فيما يأمر به فقيها فيما ينهى عنه رفيقا فيما ينهى عنه حليما فيما يأمر به حليما فيما ينهى عنه وليعلم أن الأمر بهذه الخصال فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر مما يوجب صعوبة على كثير من النفوس فيظن انه بذلك يسقط عنه فيدعه وذلك مما يضره أكثر مما يضره الأمر بدون هذه الخصال أو أقل فان ترك الأمر الواجب معصية فالمنتقل من معصية الى معصية أكبر منها كالمستجير من الرمضاء بالنار والمنتقل من معصية الى معصية كالمنتقل من دين باطل الى دين باطل وقد يكون الثانى شرا من الأول وقد يكون دونه وقد يكونان سواء فهكذا تجد المقصر فى الأمر والنهى والمعتدى فيه قد يكون ذنب هذا أعظم وقد يكون ذنب هذا أعظم وقد يكونان سواء¹

لا يخاف المؤمن من الكفار والمنافقين ولا يحزن عليهم

¹مجموع الفتاوى ج: 28 ص: 128 و الاستقامة ج: 2 ص: 233

أن لا يخاف المؤمن من الكفار و المنافقين فانهم لن يضره إذا كان مهتديا و أن لا يحزن عليهم و لا يجزع عليهم فان معاصيهم لا تضره إذا اهتدى و الحزن على ما لا يضر عبث و هذان المعنيان المذكوران في قوله **{وَأَصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ}** النحل¹ 127

وهذه الأعمال الباطنة كمحبة الله والإخلاص له والتوكل عليه والرضا عنه ونحو ذلك كلها أمور بها في حق الخاصة والعامة لا يكون تركها محمودا في حال أحد وإن ارتقى مقامه واما الحزن فلم يأمر الله به ولا رسوله بل قد نهى عنه في مواضع وان تعلق بامر الدين كقوله تعالى **{وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ}** آل عمران 139 وقوله **{ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ }** النمل 70 وقوله **{ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا }** التوبة 40 وقوله **{ وَلَا يَحْزَنُكَ قَوْلُهُمْ }** يونس 65 وقوله **{ لَا يَحْزَنُكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ }** المائدة 41 وقوله **{ لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ }** الحديد 23 وامثال ذلك كثير وذلك لانه لا يجلب منفعة ولا يدفع مضرة فلا فائدة فيه ومالا فائدة فيه لا يأمر الله به نعم لا ياتم صاحبه اذا لم يقترن بحزنه محرم كما يحزن على المصائب كما قال النبي ان الله لا يؤاخذ على دمع العين ولا على حزن القلب ولكن يؤاخذ على هذا او يرحم و اشار بيده الى لسانه وقال تدمع العين ويحزن القلب ولا نقول الا ما يرضي الرب ومنه قوله تعالى **{ وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسْفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَأَبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ }** يوسف 84 وقد تبين بالحزن ما يثاب صاحبه عليه ويحمد عليه فيكون محمودا من تلك الجهة لا من جهة الحزن كالحزين على مصيبة في دينه وعلى مصائب المسلمين عموما فهذا يثاب على ما في قلبه من حب الخير وبغض الشر وتوابع ذلك ولكن الحزن على ذلك اذا افضى الى ترك أمور من الصبر والجهاد وجلب منفعة ودفع مضرة نهى عنه والا كان حسب صاحبه رفع الاثم عنه من جهة الحزن واما ان افضى الى ضعف القلب واشتغاله به عن فعل ما امر الله ورسوله به كان مذموما عليه من تلك الجهة وان كان محمودا من جهة اخرى واما المحبة لله والتوكل عليه والاخلاص له ونحو ذلك فهذه كلها خير محض وهي حسنة محبوبة في حق كل احد من النبيين والصدقيين والشهداء والصالحين ومن قال ان هذه المقامات تكون للعامة دون الخاصة فقد غلط في ذلك ان اراد خروج الخاصة عنها فان هذه لا يخرج عنها مؤمن قط وانما يخرج عنها كافر او منافق وقد تكلم بعضهم في ذلك بكلام بينا غلظه فيه وانه تقصير في تحقيق هذه المقامات بكلام مبسوط وليس هذا موضعه²

إخبارهم بأن الله معهم يوجب زوال الضيق من مكر عدوهم

¹مجموع الفتاوى ج: 14 ص: 481

²أمراض القلوب ج: 1 ص: 42 و مجموع الفتاوى ج: 10 ص: 16 و مجموع الفتاوى ج: 34 ص: 16 و التحفة العراقية ج: 1 ص: 42

إنه أمر أن يطمئن ويثبت لأن الخوف يحصل بغير اختيار العبد إذا لم يكن له ما يوجب الأمن فإذا حصل ما يوجب الأمن زال الخوف فقوله تعالى لموسى { وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى } طه 21 هو أمر مقرون بخبره بما يزيل الخوف وكذلك قوله { فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى } {67} قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى {68} طه 67- 68 هو نهي عن الخوف مقرون بما يوجب زواله وكذلك قول النبي صلى الله عليه وسلم لصديقه { لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا } التوبة 40 نهي عن الحزن مقرون بما يوجب زواله وهو قوله { إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا } التوبة 40 وإذا حصل الخبر بما يوجب زوال الحزن والخوف زال وإلا فهو تهجم على الإنسان بغير اختياره وهكذا قول صاحب مدين لموسى لما قص عليه القصاص { لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ } القصص 25 وكذلك قوله { وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ } آل عمران 139 قرن النهي عن ذلك بما يزيله من إخباره أنهم هم الأعلى إن كانوا مؤمنين وكذلك قوله { وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ } النحل 127 مقرون بقوله { إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ } النحل 128 وإخبارهم بأن الله معهم يوجب زوال الضيق من مكر عدوهم وقد قال لما أنزل الله الملائكة يوم بدر { وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ } آل عمران 126¹

" أكثر ما يدخل الناس الجنة تقوى الله وحسن الخلق "

قال تعالى { قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ } النور 30 فالغض من البصر وحفظ الفرج يتضمن البعد عن نجاسة الذنوب ويتضمن الأعمال الصالحة التي يزكو بها الإنسان وهو أزكى والزكاة تتضمن الطهارة فإن فيها معنى ترك السيئات ومعنى فعل الحسنات ولهذا تفسر تارة بالطهارة وتارة بالزيادة والنماء ومعناها يتضمن الأمرين وإن قرن الطهارة معها في الذكر مثل قوله { خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا } التوبة 103 فالصدقة توجب الطهارة من الذنوب وتوجب الزكاة التي هي العمل الصالح كما ان الغض من البصر وحفظ الفرج هو أزكى لهم وهما يكونان بإجتناّب الذنوب وحفظ الجوارح ويكونان بالتوبة والصدقة التي هي الإحسان وهذان هما التقوى والإحسان وقال تعالى { إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ } النحل 128 وقد روى الترمذى وصححه ان النبي سئل ما أكثر ما يدخل الناس النار فقال الأجوفان الفم والفرج وسئل عن أكثر ما يدخل الناس الجنة فقال تقوى الله وحسن الخلق فيدخل في تقوى الله حفظ الفرج وغض البصر ويدخل في حسن الخلق الإحسان إلى الخلق يكون عن الرحمة والله تعالى يقول { وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ } البلد 17²

المعية في كتاب الله على وجهين

¹ منهاج السنة النبوية ج: 8 ص: 464

² مجموع الفتاوى ج: 15 ص: 388

وقال تعالى { إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا } التوبة 40 فأخبر الرسول صلى الله عليه وسلم أن الله معه ومع صاحبه كما قال لموسى وهارون { إِنِّي مَعَكُمْ أَسْمَعُ وَأَرَى } طه 46 وقد أخرجنا في الصحيحين من حديث أنس عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه قال نظرت إلى إقدام المشركين على رؤوسنا ونحن في الغار فقلت يا رسول الله لو أن أحدهم نظر إلى قدميه لأبصرنا فقال يا أبا بكر ما ظنك باثنين الله ثالثهما وهذا الحديث مع كونه مما اتفق أهل العلم بالحديث على صحته وتلقيه بالقبول والتصديق فلم يختلف في ذلك اثنان منهم فهو مما دل القرآن على معناه يقول { إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا } التوبة 40 والمعية في كتاب الله على وجهين عامة وخاصة فالعامة كقوله تعالى { هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلْجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ } الحديد 4 وقوله { أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ } المجادلة 7 فهذه المعية عامة لكل متجاجين وكذلك الأولى عامة لجميع الخلق ولما أخبر سبحانه في المعية أنه رابع الثلاثة وسادس الخمسة قال النبي صلى الله عليه وسلم ما ظنك باثنين الله ثالثهما فإنه لما كان معهما كان ثالثهما كما دل القرآن على معنى الحديث الصحيح وإن كان هذه معية خاصة وتلك عامة وأما المعية الخاصة فكقوله تعالى لما قال لموسى وهارون { لَا تَخَافَا إِنِّي مَعَكُمْ أَسْمَعُ وَأَرَى } طه 46 فهذا تخصيص لهما دون فرعون وقومه فهو مع موسى وهارون دون فرعون وكذلك لما قال النبي صلى الله عليه وسلم لأبي بكر { لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا } التوبة 40 كان معناه إن الله معنا دون المشركين الذين يعادونهما ويطلبونهما كالذين كانوا فوق الغار ولو نظر أحدهم إلى قدميه لأبصر ما تحت قدميه وكذلك قوله تعالى { إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ } النحل 128 فهذا تخصيص لهم دون الفجار والظالمين وكذلك قوله تعالى { إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ } البقرة 153 تخصيص لهم دون الجازعين وكذلك قوله تعالى { وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي } المائدة 12 وقال { إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَتَبَيَّنُوا الَّذِينَ آمَنُوا } الأنفال 12 وفي ذكره سبحانه للمعوية عامة تارة وخاصة أخرى ما يدل على أنه ليس المراد بذلك أنه بذاته في كل مكان أو أن وجوده عين وجود المخلوقات ونحو ذلك من مقالات الجهمية الذين يقولون بالحلول العام والاتحاد العام أو الوحدة العامة لأنه على هذا القول لا يختص بقوم دون قوم ولا مكان دون مكان بل هو في الحشوش على هذا القول وأجواف البهائم كما هو فوق العرش فإذا أخبر أنه مع قوم دون قوم كان هذا مناقضا لهذا المعنى لأنه على هذا القول لا يختص بقوم دون قوم ولا مكان دون مكان بل هو في الحشوش على هذا القول كما هو فوق العرش والقرآن يدل على اختصاص المعوية تارة وعمومها أخرى فعلم أنه ليس المراد بلفظ المعوية اختلاطه وفي هذا أيضا رد على من يدعى أن ظاهر القرآن هو الحلول لكن يتعين تأويله على خلاف ظاهره ويجعل ذلك أصلا يقيس عليه ما يتأوله من النصوص فيقال له قولك إن القرآن يدل على ذلك خطأ كما أن قول قرينك الذي اعتقد هذا المدلول خطأ وذلك لوجوه أحدها أن لفظ مع في لغة العرب إنما تدل على المصاحبة والموافقة والاقتران ولا تدل على أن الأول مختلط بالثاني في عامة موارد الاستعمال كقوله تعالى { مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ } الفتح 29 لم يرد أن ذواتهم مختلطة بذاته وقوله { اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ } التوبة 119 وكذلك قوله { وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدِ وَهَابَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَئِكَ مِنْكُمْ } الأنفال 75 وكذلك قوله عن نوح { وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ } هود 40 وقوله عن نوح أيضا { فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلِّ } الأعراف 64 وقوله

عن هود {فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا} الأعراف 72 وقول قوم شعيب {لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ
وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا} الأعراف 88 وقوله {إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ
وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ} النساء 146 وقوله {وَأَمَّا يُنْسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ
بَعْدَ الذِّكْرِ مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ} الأنعام 68 وقوله {وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَفْسَمُوا بِاللَّهِ
جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ} المائدة 53 وقوله {أَلَمْ تَر إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا
مِنَ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِن أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ} الحشر 11 وقوله عن نوح {أَهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ
عَلَيْكَ وَعَلَىٰ أُمَمٍ مِّمَّن مَعَكَ وَأُمَّمٌ سَنُنْتَعِبُهُمْ} هود 48 وقوله {وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ
النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ} الأعراف 47 وقوله {فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا
وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ} التوبة 83 وقوله
{رِضْوَانًا لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ} التوبة 87 وقال {لَكِنَّ الرَّسُولَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَاهِدُوا
بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ} التوبة 88 ومثل هذا كثير في كلام الله تعالى وسائر الكلام العربي وإذا كان
لفظ مع إذا استعملت في كون المخلوق مع المخلوق لم تدل على اختلاط ذاته بذاته فهي أن لا تدل
على ذلك في حق الخالق بطريق الأولى فدعوى ظهورها في ذلك باطل من وجهين أحدهما أن
هذا ليس معناها في اللغة ولا اقترن بها في الاستعمال ما يدل على الظهور فكان الظهور منتفيا من
كل وجه الثاني أنه إذا انتفى الظهور فيما هو أولى به فانتفاؤه فيما هو أبعد عنه أولى الثاني
أن القرآن قد جعل المعية خاصة أكثر مما جعلها عامة ولو كان المراد اختلاط ذاته بالمخلوقات لكانت
عامة لا تقبل التخصيص الثالث أن سياق الكلام أوله وآخره يدل على معنى المعية كما قال تعالى
في آية المجادلة {أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا
هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَىٰ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُم
بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ} المجادلة 7 فافتتحها بالعلم وختمها بالعلم فلم أنه أراد
عالم بهم لا يخفى عليه منهم خافية وهكذا فسرها السلف الإمام أحمد ومن قبله من العلماء كابن
عباس والضحاك وسفيان الثوري وفي آية الحديد قال {ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي
الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ
بَصِيرٌ} الحديد 4 فختمها أيضا بالعلم وأخبر أنه مع استوائه على العرش يعلم هذا كله كما قال
النبي صلى الله عليه وسلم في حديث الأوعال والله فوق عرشه وهو يعلم ما أنتم عليه فهناك أخبر
بعموم العلم لكل نجوى وهنا أخبر أنه مع علوه على عرشه يعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها
وهو من العباد أينما كانوا يعلم أحوالهم والله بما يعملون بصير وأما قوله {إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا
وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ} النحل 128 فقد دل السياق على أن المقصود ليس مجرد علمه وقدرته بل هو
معهم في ذلك بتأييده ونصره وأنه يجعل للمتقين مخرجا ويرزقهم من حيث لا يحتسبون وكذلك
قوله لموسى وهارون {لَا تَخَافَا إِنِّي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ} طه 46 فإنه معهما بالتأييد والنصر والإعانة
على فرعون وقومه كما إذا رأى الإنسان من يخاف فقال له من ينصره نحن معك اي معاونوك
وناصروك على عدوك¹

¹ منهاج السنة النبوية ج: 8 ص: 373-390

المعية الالهية المتضمنة للنصر هي لما جاء به الى يوم القيامة

قال تعالى { **إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ** } النحل 128 والكتاب هو الحاكم بين الناس شرعا ودينا وينصر القائم نصرا وقدرا وقد قال الله تعالى { **إِنَّ وَلِيِّ اللَّهِ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ** } الأعراف 196 وقال تعالى { **ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا** } الجاثية 18 الى قوله { **وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ** } الجاثية 19 وقال تعالى { **لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيُقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ** } الحديد 25 الى قوله { **إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ** } الحديد 25 و الميزان هو العدل به يعرف العدل وأنزل الحديد لينصر الكتاب فان قام صاحبه بذلك كان سعيدا مجاهدا في سبيل الله فان الله نصر الكتاب بأمر من عنده وانتقم ممن خرج عن حكم الكتاب كما قال تعالى { **إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ** } التوبة 40 الى قوله { **وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ** } التوبة 40 وقوله لأبى بكر { **إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا** } التوبة 40 وقال تعالى { **إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ** } البقرة 153 وكل من وافق الرسول في أمر خالف فيه غيره فهو من الذين اتبعوه في ذلك وله نصيب من قوله { **لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا** } التوبة 40 فان المعية الالهية المتضمنة للنصر هي لما جاء به الى يوم القيامة وهذا قد دل عليه القرآن وقد رأينا من ذلك وجربنا ما يطول وصفه وقال تعالى { **سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ** } فصلت 53 الى آخر السورة وقال تعالى { **وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ** } القصص 83¹

إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ بِالْهُدَايَةِ وَالنَّصْرِ وَالْإِعَانَةِ

قال تعالى { **إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ** } النحل 128 بالهداية والنصر والإعانة²

قال تعالى { **وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ** } 4 {الحديد} فلفظ مع لا تقتضى فى لغة العرب أو يكون أحد الشيين مختلطا بالآخر كقوله تعالى { **اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ** } التوبة 119 وقوله تعالى { **مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ** } الفتح 29 وقوله تعالى { **وَالَّذِينَ آمَنُوا مِن بَعْدِ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ** } الأنفال 75 ولفظ مع جاءت فى القرآن عامة وخاصة فالعامة فى هذه الآية وفى آية المجادلة { **أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يُكُونُ مِن نَّجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَىٰ مِن ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ** } المجادلة 7 فافتتح الكلام بالعلم وختمه بالعلم ولهذا قال ابن عباس والضحاك وسفيان الثورى واحمد بن حنبل هو معهم بعلمه وأما المعية الخاصة ففى قوله تعالى { **إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ** } النحل 128 وقوله تعالى لموسى { **إِنِّي مَعَكُمْ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ** } طه 46 وقال تعالى { **إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ**

¹مجموع الفتاوى ج: 28 ص: 37

²الجواب الصحيح ج: 3 ص: 405

مَعَنَا { التوبة 40 يعنى النبى وأبا بكر رضى الله عنه فهو مع موسى وهارون دون فرعون ومع محمد وصاحبه دون أبى جهل وغيره من أعدائه ومع الذين اتقوا والذين هم محسنون دون الظالمين المعتدين فلو كان معنى المعية انه بذاته فى كل مكان تناقض الخبر الخاص والخبر العام بل المعنى انه مع هؤلاء بنصره وتأييده دون اولئك وقوله تعالى { وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ } { الزخرف 84 أى هو إله من فى السموات وإله من فى الأرض كما قال الله تعالى } وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ { الروم 27 وكذلك قوله تعالى { وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ } { الأنعام 3 كما فسره أئمة العلم كالامام احمد وغيره انه المعبود فى السموات والأرض واجمع سلف الأمة وأئمتها على ان الرب تعالى بائن من مخلوقاته يوصف بما وصف به نفسه وبما وصفه به رسوله من غير تحريف ولا تعطيل ومن غير تكييف ولا تمثيل يوصف بصفات الكمال دون صفات النقص ويعلم انه ليس كمثل شىء فى صفات الكمال كما قال الله تعالى { قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ } {1} { اللَّهُ الصَّمَدُ } {2} { لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ } {3} { وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ } {4} الاخلاص 1-4 قال ابن عباس الصمد العليم الذى كمل فى علمه العظيم الذى كمل فى عظمته التقدير الكامل فى قدرته الحكيم الكامل فى حكمته السيد الكامل فى سؤده وقال ابن مسعود وغيره هو الذى لا جوف له و الاحد الذى لا نظير له فاسمه الصمد يتضمن اتصافه بصفات الكمال ونفى النقائص عنه واسمه الاحد يتضمن اتصافه انه لا مثل له ¹

المعية تختلف أحكامها بحسب الموارد

وجماع الأمر فى ذلك أن الكتاب والسنة يحصل منهما كمال الهدى والنور لمن تدبر كتاب الله وسنة نبيه وقصد اتباع الحق واعرض عن تحريف الكلم عن مواضعه والاحاد فى اسماء الله وآياته ولا يحسب الحاسب أن شيئاً من ذلك يناقض بعضه بعضاً ألبتة مثل ان يقول القائل ما فى الكتاب والسنة من أن الله فوق العرش يخالفه الظاهر من قوله { وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ } { الحديد 4 وقوله اذ قام أحدكم الى الصلاة فان الله قبل وجهه ونحو ذلك فان هذا غلط وذلك أن الله معنا حقيقة وهو فوق العرش حقيقة كما جمع الله بينهما فى قوله سبحانه وتعالى { هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ } { الحديد 4 فأخبر أنه فوق العرش يعلم كل شىء وهو معنا أينما كنا كما قال النبى فى حديث الأوعال والله فوق العرش وهو يعلم ما أنتم عليه وذلك أن كلمة مع فى اللغة اذا أطلقت فليس ظاهرها فى اللغة الا المقارنة المطلقة من غير وجوب مماساة أو محاذاة عن يمين أو شمال فاذا قيدت بمعنى من المعانى دلت على المقارنة فى ذلك المعنى فانه يقال ما زلنا نسير والقمر معنا أو والنجم معنا ويقال هذا المتاع معى لمجاعته لك وان كان فوق رأسك فانه مع خلقه حقيقة وهو فوق عرشه حقيقة ثم هذه المعية تختلف أحكامها بحسب الموارد فلما قال { يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا } { الحديد 4 الى قوله { وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ } { الحديد 4 دل ظاهر الخطاب على أن حكم هذه المعية ومقتضاها أنه

¹مجموع الفتاوى ج: 11 ص: 249-251

مطلع عليكم شهيد عليكم ومهيمن عالم بكم وهذا معنى قول السلف أنه معهم بعلمه وهذا ظاهر الخطاب وحقيقته وكذلك في قوله { مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ } {المجادلة} 7 الى قوله { إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا } {المجادلة} 7 الآية ولما قال النبي لصاحبه في الغار { لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا } {التوبة} 40 كان هذا أيضا حقا على ظاهره ودلت الحال على أن حكم هذه المعية هنا معية الاطلاع والنصر والتأييد وكذلك قوله تعالى { إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ } {النحل} 128 وكذلك قوله لموسى وهارون { إِنِّي مَعَكُمْ أَسْمَعُ وَأَرَى } {طه} 46 هنا المعية على ظاهرها وحكمها في هذه المواطن النصر والتأييد وقد يدخل على صبي من يخيفه فيبكي فيشرف عليه أبوه من فوق السقف فيقول لا تخف أنا معك أو أنا هنا أو أنا حاضر ونحو ذلك ينبهه على المعية الموجبة بحكم الحال دفع المكروه ففرق بين معنى المعية وبين مقتضاها وربما صار مقتضاها من معناها فيختلف باختلاف المواضع فلفظ المعية قد استعمل في الكتاب والسنة في مواضع يقتضى في كل موضع أمورا لا يقتضيتها في الموضوع الآخر فاما ان تختلف دلالتها بحسب المواضع أو تدل على قدر مشترك بين جميع مواردنا وان امتاز كل موضع بخاصية فعلى التقديرين ليس مقتضاها أن تكون ذات الرب عز وجل مختلطة بالخلق حتى يقال قد صرفت عن ظاهرها ونظيرها من بعض الوجوه الربوبية والعبودية فانهما وان اشتركتا في أصل الربوبية والعبودية فلما قال { رَبِّ الْعَالَمِينَ } {121} { رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ } {122} الاعراف 121-122 كانت ربوبية موسى وهارون لها اختصاص زائد على الربوبية العامة للخلق فان من أعطاه الله من الكمال أكثر مما أعطى غيره فقد ربه ورباه ربوبية وتربية أكمل من غيره وكذلك قوله { عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا } {الإنسان} 6 و { سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا } {الإسراء} 1 فان العبد تارة يعنى به المعبد فيعم الخلق كما في قوله { إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا } {مريم} 93 وتارة يعنى به العابد فيخص ثم يختلفون فمن كان أعبد علما وحالا كانت عبوديته أكمل فكانت الاضافة في حقه أكمل مع أنها حقيقة في جميع المواضع ومثل هذه الالفاظ يسميها بعض الناس مشككة لتشكك المستمع فيها هل هي من قبيل الاسماء المتواطئة أو من قبيل المشتركة في اللفظ فقط والمحققون يعلمون أنها ليست خارجة عن جنس المتواطئة اذ واضع اللغة انما وضع اللفظ بازاء القدر المشترك وان كانت نوعا مختصا من المتواطئة فلا بأس بتخصيصها بلفظ ومن علم أن المعية تضاف الى كل نوع من أنواع المخلوقات كإضافة الربوبية مثلا وأن الاستواء على الشيء ليس الا للعرش وأن الله يوصف بالعلو والفوقية الحقيقية ولا يوصف بالسفول ولا بالتحتية قط لا حقيقة ولا مجازا علم أن القرآن على ما هو عليه من غير تحريف ثم من توهم أن كون الله في السماء بمعنى أن السماء تحيط به وتحويه فهو كاذب ان نقله عن غيره وضال ان اعتقده في ربه وما سمعنا أحدا يفهم هذا من اللفظ ولا رأينا أحدا نقله عن واحد ولو سئل سائر المسلمين هل تفهمون من قول الله ورسوله ان الله في السماء ان السماء تحويه لبادر كل أحد منهم الى أن يقول هذا شيء لعله لم يخطر ببالنا واذا كان الأمر هكذا فمن التكلف أن يجعل ظاهر اللفظ شيئا محالا لا يفهمه الناس منه ثم يريد أن يتأوله بل عند الناس ان الله في السماء وهو على العرش واحد اذ السماء انما يراد به العلو فالمعنى أن الله في العلو لا في السفلى وقد علم المسلمون أن كرسيه سبحانه وتعالى وسع السموات والأرض وان الكرسي في العرش كحلقة ملقاة بأرض فلاة وان العرش خلق من مخلوقات الله لا نسبة الى قدرة الله وعظمته فكيف يتوهم بعد هذا أن

خلقا يحصره ويحويه وقد قال سبحانه {وَأَصْلَبْنَاكُمْ فِي جُدُوعِ النَّخْلِ} طه71 وقال {فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ} النحل36 بمعنى على ونحو ذلك وهو كلام عربي حقيقة لا مجازا وهذا يعلمه من عرف حقائق معاني الحروف وانها متواطئة في الغالب لا مشتركة¹

الجمع بين علو الرب عز وجل وبين قربه من داعيه وعابديه

في الجمع بين علو الرب عز وجل وبين قربه من داعيه وعابديه فنقول قد وصف الله نفسه في كتابه وعلى لسان رسوله بالعلو والاستواء على العرش والوقفية في كتابه في آيات كثيرة حتى قال بعض كبار اصحاب الشافعي في القرآن ألف دليل أو ازيد تدل على أن الله عال على الخلق وأنه فوق عباده وقال غيره فيه ثلاثمائة دليل تدل على ذلك مثل قوله {إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ} الأعراف206 {وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِنْدَهُ} الأنبياء19 فلو كان المراد بأن معنى عنده في قدرته كما يقول الجهمية لكان الخلق كلهم في قدرته ومشيتته لم يكن فرق بين من في السموات ومن في الأرض ومن عنده كما ان الاستواء لو كان المراد به الاستيلاء لكان مستويا على جميع المخلوقات ولكان مستويا على العرش قبل أن يخلقه دائما والاستواء مختص بالعرش بعد خلق السموات والأرض كما أخبر بذلك في كتابه فدل على أنه تارة كان مستويا عليه وتارة لم يكن مستويا عليه ولهذا كان العلو من الصفات المعلومة بالسمع مع العقل عند أئمة المثبتة واما الاستواء على العرش فمن الصفات المعلومة بالسمع لا بالعقل والمقصود أنه تعالى وصف نفسه أيضا بالمعية والقرب والمعية معيتان عامة وخاصة فالاولى كقوله {وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ} الحديد4 والثانية كقوله {إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ} النحل128 الى غير ذلك من الآيات وأما القرب فهو كقوله {فَإِنِّي قَرِيبٌ} البقرة186 وقوله {وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ} ق16 {وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لَا تُبْصِرُونَ} الواقعة85 وسلف الأمة وأئمتها أئمة العلم والدين من شيوخ العلم والعبادة فانهم اثبتوا وأمنوا بجميع ما جاء به الكتاب والسنة كله من غير تحريف للكلم أثبتوا ان الله تعالى فوق سمواته وانه على عرشه بائن من خلقه وهم منه بائون وهو ايضا مع العباد عموما بعلمه ومع أنبيائه وأوليائه بالنصر والتأييد والكفاية وهو ايضا قريب مجيب ففي آية النجوى دلالة على أنه عالم بهم وكان النبي يقول اللهم انت صاحب في السفر والخليفة في الأهل فهو سبحانه مع المسافرين في سفره ومع أهله في وطنه ولا يلزم من هذا أن تكون ذاته مختلطة بذواتهم كما قال {مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ} الفتح29 أى معه على الايمان لا أن ذاتهم في ذاته بل هم مصاحبون له وقوله {فَأُولَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ} النساء146 يدل على موافقتهم في الايمان وموالاتهم فانه تعالى عالم بعباده وهو معهم أينما كانوا وعلمه بهم من لوازم المعية كما قالت المرأة زوجي طويل النجاد عظيم الرماد قريب البيت من الناد فهذا كله حقيقة ومقصودها أن تعرف لوازم ذلك وهو طول القامة والكرم بكثرة الطعام وقرب البيت من موضع الاضياف وفي القرآن {أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَىٰ وَرُسُلْنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُمُونَ} الزخرف80 فانه يراد برويته وسمعه اثبات علمه بذلك وأنه يعلم هل ذلك خير أم شر

¹مجموع الفتاوى ج: 5 ص: 103-106

فيثيب على الحسنات ويعاقب على السيئات وكذلك اثبات القدرة على الخلق كقوله { وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ } العنكبوت 22 وقوله { أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْبِقُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ } العنكبوت 4 والمراد التخويف بتوابع السيئات ولو ازمها من العقوبة والانتقام وهكذا كثيرا ما يصف الرب نفسه بالعلم وبالأعمال تحذيرا وتخويفا وترغيبا للنفوس في الخير ويصف نفسه بالقدرة والسمع والرؤية والكتاب فمدلول اللفظ مراد منه وقد أريد أيضا لازم ذلك المعنى فقد أريد ما يدل عليه اللفظ في أصل اللغة بالمطابقة وبالالتزام فليس اللفظ مستعملا في اللازم فقط بل أريد به مدلوله الملزوم وذلك حقيقة وأما لفظ القرب فقد ذكره تارة بصيغة المفرد وتارة بصيغة الجمع فالأول انما جاء في اجابة الداعي { وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ } البقرة 186 وكذلك في الحديث أربعوا على أنفسكم فانكم لا تدعون اصم ولا غائبا انما تدعون سميعا قريبا ان الذي تدعون أقرب الى أحدكم من عنق راحلته وجاء بصيغة الجمع في قوله { وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ } 16 وهذا مثل قوله { نَتَلَوَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ } القصص 3 { نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ } الكهف 13 { فَإِذَا قَرَأْنَاهُ } القيامة 18 و { إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ } القيامة 17 و { عَلَيْنَا بَيَانُهُ } القيامة 19 فالقرآن هنا حين يسمعه من جبريل والبيان هنا بيانه لمن يبلغه القرآن ومذهب سلف الأمة وأئمتها وخلفها أن النبي صلى الله عليه وسلم سمع القرآن من جبريل وجبريل سمعه من الله عز وجل وأما قوله نتلوا و نقص فاذا قرأناه فهذه الصيغة في كلام العرب للواحد العظيم الذي له أعوان يطيعونه فاذا فعل أعوانه فعلا بأمره قال نحن فعلنا كما يقول الملك نحن فتحنا هذا البلد وهزمتنا هذا الجيش ونحو ذلك لأنه انما يفعل بأعوانه والله تعالى رب الملائكة وهم لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون ولا يعصون الله ما امرهم ويفعلون ما يؤمرون وهو مع هذا خالقهم وخالق أفعالهم وقدرتهم وهو غني عنهم وليس هو كالمالك الذي يفعل أعوانه بقدرة وحركة يستغنون بها عنه فكان قوله لما فعله بملائكته نحن فعلنا أحق وأولى من قول بعض الملوك¹

الله مع الخلق كلهم بالعلم والقدرة والسلطان ويخص بعضهم بالاعانة والنصر والتأييد

فان لفظ المعية في سورة الحديد والمجادلة في قوله تعالى { هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَرْجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ } الحديد 4 وقوله تعالى { مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ } المجادلة 7 وقد ثبت عن السلف أنهم قالوا هو معهم بعلمه وقد ذكر ابن عبد البر وغيره أن هذا إجماع من الصحابة والتابعين لهم باحسان ولم يخالفهم فيه أحد يعتد بقوله وهو مأثور عن ابن عباس والضحاك ومقاتل بن حيان وسفيان الثوري وأحمد بن حنبل وغيرهم قال ابن أبي حاتم في تفسيره حدثنا أبي ثنا اسماعيل بن ابراهيم بن

¹مجموع الفتاوى ج: 5 ص: 132-227

معمر عن نوح بن ميمون المضروب عن بكير بن معروف عن مقاتل بن حيان عن عكرمة عن ابن عباس في قوله { وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ } الحديد4 قال هو على العرش وعلمه معهم قال وروى عن سفيان الثوري أنه قال علمه معهم وقال حدثنا أبي قال حدثنا أحمد بن ابراهيم الدورقي حدثنا نوح بن ميمون المضروب ثنا بكير بن معروف عن مقاتل بن حيان عن الضحاك بن مزاحم في قوله { مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ } المجادلة7 إلى قوله { أَيْنَ مَا كَانُوا } المجادلة7 قال هو على العرش وعلمه معهم ورواه باسناد آخر عن مقاتل بن حيان هذا وهو ثقة في التفسير ليس بمجروح كما جرح مقاتل بن سليمان وقال عبدالله بن أحمد ثنا أبي ثنا نوح بن ميمون المضروب عن بكير بن معروف ثنا ابو معاوية عن مقاتل بن حيان عن الضحاك في قوله تعالى { مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا } المجادلة7 قال هو على العرش وعلمه معهم وقال علي بن الحسن بن شقيق حدثنا عبدالله بن موسى صاحب عبادة ثنا معدان قال ابن المبارك ان كان أحد بخراسان من الابدال فمعدان قال سألت سفيان الثوري عن قوله { وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ } الحديد4 قال علمه وقال حنبل بن اسحق في كتاب السنة قلت لأبي عبدالله أحمد بن حنبل ما معنى قوله تعالى { وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ } الحديد4 و { مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ } المجادلة7 الى قوله تعالى { إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا } المجادلة7 قال علمه عالم الغيب والشهادة محيط بكل شيء شاهد علام الغيوب يعلم الغيب ربنا على العرش بلا حد ولا صفة وسع كرسيه السموات والأرض وقد بسط الامام أحمد الكلام على معنى المعية في الرد على الجهمية ولفظ المعية في كتاب الله جاء عاما كما في هاتين الآيتين وجاء خاصا كما في قوله { إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ } النحل128 وقوله { إِنِّي مَعَكُمْ أَسْمَعُ وَأَرَى } طه46 وقوله { لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا } التوبة40 فلو كان المراد أنه بذاته مع كل شيء لكان التعميم يناقض التخصيص فانه قد علم أن قوله { لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا } التوبة40 أراد به تخصيصه واما بكر دون عدوهم من الكفار وكذلك قوله { إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ } النحل128 خصهم بذلك دون الظالمين والفجار وأيضا فلفظ المعية ليست في لغة العرب ولا شيء من القرآن يراد بها اختلاط احدي الذاتين بالأخرى كما في قوله { مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ } الفتح29 وقوله { فَأُولَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ } النساء146 وقوله { اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ } التوبة119 وقوله { وَجَاهِدُوا مَعَكُمْ } الأنفال75 ومثل هذا كثير فامتنع أن يكون قوله { وَهُوَ مَعَكُمْ } الحديد4 يدل على أن ذاته مختلطة بذوات الخلق وأيضا فانه افتتح الآية بالعلم وختمها بالعلم فكان السياق يدل على انه أراد أنه عالم بهم وقد بسط الكلام عليه في موضع آخر وبين أن لفظ المعية في اللغة وان اقتضى المجامعة والمصاحبة والمقارنة فهو اذا كان مع العباد لم يناف ذلك علوه على عرشه ويكون حكم معيته في كل موطن بحسبه فمع الخلق كلهم بالعلم والقدرة والسلطان ويخص بعضهم بالاعانة والنصر والتأييد¹

من الايمان بالله الايمان بما وصف به نفسه من غير تحريف ولا تعطيل

¹مجموع الفتاوى ج: 5 ص: 495-497

فاعتقاد الفرقة الناجية المنصورة الى قيام الساعة أهل السنة والجماعة وهو الايمان بالله وملائكته وكتبه ورسله والبعث بعد الموت والايمن بالقدر خيره وشره ومن الايمان بالله الإيمان بما وصف به نفسه في كتابه وبما وصفه به رسوله محمد صلى الله عليه وسلم من غير تحريف ولا تعطيل ومن غير تكييف ولا تمثيل بل يؤمنون بأن الله سبحانه ليس كمثله شيء وهو السميع البصير فلا ينفون عنه ما وصف به نفسه ولا يحرفون الكلم عن مواضعه ولا يلحدون في أسماء الله وآياته ولا يكيفون ولا يمثلون صفاته بصفات خلقه لأنه سبحانه لا سمى له ولا كفو له ولا ند له ولا يقاس بخلقه سبحانه وتعالى فإنه سبحانه أعلم بنفسه وبغيره وأصدق قبلاً وأحسن حديثاً من خلقه ثم رسله صادقون مصدوقون بخلاف الذين يقولون عليه ما لا يعلمون ولهذا قال سبحانه وتعالى {سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ} {180} وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ} {181} وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ} {182} الصافات 180- 182 فسبح نفسه عما وصفه به المخالفون للرسل وسلم على المرسلين لسلامة ما قالوه من النقص والعيب وهو سبحانه قد جمع فيما وصف وسمى به نفسه بين النفي والإثبات فلا عدول لأهل السنة والجماعة عما جاء به المرسلون فإنه الصراط المستقيم صراط الذين انعم الله عليهم من النبيين والصدقيين والشهداء والصالحين وقد دخل في هذه الجملة ما وصف به نفسه في سورة الإخلاص التي تعدل ثلث القرآن وقوله سبحانه {إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ} {النحل 128} ¹

عامة الاشفاع التي في القرآن انقسم الناس فيها قسمة رباعية

قد ذكر الله سبحانه في البقرة و النساء الأقسام الأربعة في العطاء إما أن لا يعطي فهو البخيل المذموم في النساء أو يعطى مع الكراهة و المن و الأذى فلا يكون بتثبيت و هو المذموم في البقرة أو مع الرياء فهو المذموم في السورتين فبقي القسم الرابع ابتغاء رضوان الله و تثبिता من أنفسهم ونظيره الصلاة أما أن لا يصلي أو يصلي رياء أو كسلان أو يصلي مخلصاً و الأقسام الثلاثة الأول مذمومة وكذلك الزكاة و نظير ذلك الهجرة و الجهاد فإن الناس فيهما أربعة أقسام و كذلك { إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا } الأنفال 45 في الثبات و الذكر و كذلك { وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ } البلد 17 في الصبر و المرحمة أربعة أقسام و كذلك { وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ } البقرة 45 فهم في الصبر و الصلاة فعامة هذه الاشفاع التي في القرآن إما عملاً و إما وصفان في عمل انقسم الناس فيها قسمة رباعية ثم ان كانا عمليين منفصلين كالصلاة و الصبر و الصلاة و الزكاة و نحو ذلك نفع احدهما و لو ترك الآخر و ان كانا شرطيين في عمل كالاخلاص و التثبيت لم ينفع احدهما فإن المن و الأذى محبط كما أن الرياء محبط كما دل عليه القرآن و من هذا تقوى الله و حسن الخلق ف { إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ } {النحل 128} و البر و التقوى و الحق و الصبر و أفضل الإيمان السماحة و الصبر بخلاف الاشفاع في الذم كالأفك و الاثم و الاختيال و الفخر و الشح و الجبن و الاثم و العدوان فإن الذم ينال احدهما مفرداً ومقرناً لأن

¹مجموع الفتاوى ج: 3 ص: 136 و العقيدة الواسطية ج: 1 ص: 17

الخير من باب المطلوب وجوده لمنفعته فقد لا تحصل المنفعة الا بتمامة و الشر يطلب عدمه لمضرته
و بعض المضار يضر فى الجملة غالبا¹

الإحسان يجمع كمال الإخلاص لله ويجمع الإتيان بالفعل الحسن

قال تعالى { **إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ** } النحل 128 وأما الإحسان
فقوله أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك قد قيل أن الإحسان هو الإخلاص
والتحقيق أن الإحسان يتناول الإخلاص وغيره والإحسان يجمع كمال الإخلاص لله ويجمع الإتيان
بالفعل الحسن الذي يحبه الله قال تعالى { **بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا
خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ** } البقرة 112 وقال تعالى { **وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ
وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا** } النساء 125 فذكر إحسان الدين أولاً ثم
ذكر الإحسان ثانياً²

جماع الدين العام التعظيم لأمر الله والرحمة لعباد الله

قال { **فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى** } الليل 5 وقال { **إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ** }
النحل 128 و هذان الأصلان هما جماع الدين العام كما يقال التعظيم لأمر الله و الرحمة لعباد الله
فالتعظيم لأمر الله يكون بالخشوع و التواضع و ذلك اصل التقوى و الرحمة لعباد الله بالاحسان إليهم
و هذان هما حقيقة الصلاة و الزكاة فان الصلاة متضمنة للخشوع لله و العبودية له و التواضع له و
الذل له و ذلك كله مضاد للخيلاء و الفخر و الكبر و الزكاة متضمنة لنفع الخلق و الاحسان إليهم و
ذلك مضاد للبخل³

لا تتم السياسة الدينية إلا بالجمع بين التقوى والإحسان الى الناس

الأمة الوسط وهم أهل دين محمد صلى الله عليه وسلم وخلفائه على عامة الناس وخاصتهم إلى يوم
القيامة وهو إنفاق المال والمنافع للناس وإن كانوا رؤساء بحسب الحاجة إلى صلاح الأحوال وإقامة
الدين والدنيا التي يحتاج إليها الدين وعفته في نفسه فلا يأخذ مالا يستحقه فيجمع بين التقوى
والإحسان قال تعالى { **إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ** } النحل 128 ولا تتم السياسة
الدينية إلا بهذا ولا يصلح الدين والدنيا إلا بهذه الطريقة وهذا هو الذي يطعم الناس ما يحتاجون إلى

¹مجموع الفتاوى ج: 14 ص: 95-97

²مجموع الفتاوى ج: 7 ص: 622

³مجموع الفتاوى ج: 14 ص: 214

طعامه ولا يأكل هو إلا الحلال الطيب ثم هذا يكفيه من الانفاق أقل مما يحتاج إليه الأولون فإن الذي يأخذ لنفسه تطمع فيه النفوس مالا تطمع في العفيف ويصلح به الناس في دينهم مالا يصلحون بالثاني فإن العفة مع القدرة تقوي حرمة الدين وفي الصحيحين عن أبي سفيان بن حرب أن هرقل ملك الروم قال له عن النبي صلى الله عليه وسلم بماذا يأمركم قال يأمرنا بالصلاة والصدق والعفاف والصلة وفي الأثر أن الله أوحى إلى إبراهيم الخليل عليه السلام يا إبراهيم اتدري لم أتخذتك خليلا لأنني رأيت العطاء أحب أحب إليك من الأخذ هذا الذي ذكرناه في الرزق والعطاء الذي هو السخاء وبذل المنافع نظيره في الصبر والغضب الذي هو الشجاعة ودفع المضار¹

لطائف لغوية

1- قال تعالى { **إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ** } النحل 120 و الأمة هو معلم الخير الذي يؤتم به كما أن القدوة الذي يقتدي به و الله تعالى جعل في ذريته النبوة والكتاب وإنما بعث الأنبياء بعده بملته قال تعالى { **ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ** } النحل 123²

والأمة الملة والطريقة كما قال { **إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ** } الزخرف 22 كما تسمى الطريق إماما لأن السالك فيها يؤتم به فكذلك السالك يؤمه و يقصده و الأمة أيضا معلم الخير الذي يأتى به الناس كما أن الإمام هو الذي يأتى به الناس و إبراهيم عليه السلام جعله الله إماما و أخبر أنه كان أمة { **إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ** } النحل 120³

قال الله تعالى { **إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا** } النحل 120 أى كان مؤمنا وحده وكان الناس كفارا جميعا وفى صحيح البخارى أنه قال لسارة ليس على الأرض اليوم مؤمن غيرى وغيرك⁴

2- قال تعالى { **إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ** } النحل 120

¹السياسة الشرعية ج: 1 ص: 52

²الفتاوى الكبرى ج: 2 ص: 391

³مجموع الفتاوى ج: 8 ص: 220 و الحسنة والسيئة ج: 1 ص: 89

⁴مجموع الفتاوى ج: 11 ص: 436

والقنوت دوام الطاعة لله عز وجل سواء كان في حال الإنتصاب أو في حال السجود كما قال تعالى
{أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ} {الزمر 9} ¹

والقنوت دوام الطاعة وهو الذى يطيع الله دائما والحنيف المستقيم الى ربه دون ما سواه ²

3-قال تعالى { إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ } {120} شَاكِرًا لِّأَنْعَمِهِ اجْتِنَابًا
وَهَذَا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ {121} وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ {122} ثُمَّ
أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعِ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ {123} {النحل 120-123}

كان النبي يقول لأصحابه قولوا أصبحنا على فطرة الاسلام وكلمة الاخلاص ودين نبينا محمد
وملة ابينا ابراهيم حنيفا مسلما وما كان من المشركين والحنيف للسلف فيه ثلاث
عبارات قال محمد ابن كعب مستقيما وقال عطاء مخلصا وقال آخرون متبعا فهو مستقيم القلب الى
الله دون ما سواه قال الله تعالى { فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ } فصلت 6 وقال
تعالى { إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا } {الأحقاف 13} قال أبو بكر الصديق رضى الله عنه فلم
يلتفتوا عنه يمنه ولا يسرة فلم يلتفتوا بقلوبهم الى ما سواه لا بالحب ولا بالخوف ولا بالرجاء ولا
بالسؤال ولا بالتوكل عليه بل لا يحبون الا الله ولا يحبون معه أندادا ولا يحبون الا اياه لا لطلب منفعة
ولا لدفع مضرة ولا يخافون غيره كائننا من كان ولا يسألون غيره ولا يتشرفون بقلوبهم الى غيره ³

4-قال تعالى { شَاكِرًا لِّأَنْعَمِهِ اجْتِنَابًا وَهَذَا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ } {النحل 121} وقال تعالى { ادْعُ إِلَى
سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ
وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ } {النحل 125} عامة الأسماء يتنوع مسماها بالاطلاق والتقييد وكذلك لفظ
الهدى اذا أطلق تناول العلم الذى بعث الله به رسوله والعمل به جميعا فيدخل فيه كل ما أمر الله به
كما فى قوله { اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ } {الفاتحة 6} والمراد طلب العلم بالحق والعمل به جميعا
وكذلك قوله { هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ } {البقرة 2} والمراد به أنهم يعلمون ما فيه ويعملون به ولهذا صاروا
مفلحين وكذلك قول أهل الجنة { الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا } {الأعراف 43} وانما هداهم بأن ألهمهم
العلم النافع والعمل الصالح ثم قد يقرن الهدى اما بالاجتناب كما فى قوله { وَاجْتَنِبْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ
إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ } {الأنعام 87} وكما فى قوله قال تعالى { شَاكِرًا لِّأَنْعَمِهِ اجْتِنَابًا وَهَذَا إِلَى صِرَاطٍ
مُسْتَقِيمٍ } {النحل 121} { اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ } {الشورى 13} وكذلك قوله
تعالى { هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ } {التوبة 33} والهدى هنا هو الايمان ودين
الحق هو الاسلام واذا أطلق الهدى كان كالايمان المطلق يدخل فيه هذا وهذا ولفظ الضلال اذا
أطلق تناول من ضل عن الهدى سواء كان عمدا أو جهلا ولزم أن يكون معذبا كقوله { إِنَّهُمْ أَلَفُوا
آبَاءَهُمْ ضَالِّينَ } {69} فَهُمْ عَلَى آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ } {70} وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ } {71}

¹مجموع الفتاوى ج: 22 ص: 548

³مجموع الفتاوى ج: 28 ص: 33

الصفات 69- 71 وقوله {وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا} {67} رَبَّنَا آتِهِمْ
ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنَهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا} {68} الأحزاب 67- 68 وقوله {فَمَنْ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ
وَلَا يَسْقَى} طه 123 ثم يقرن بالغى والغضب كما فى قوله {مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى} النجم 2
وفى قوله {غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ} الفاتحة 7 وقوله {إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعْرٍ
{ القمر 47¹

5-ف أن المفسرة التى تاتى بعد فعل من معنى القول لا من لفظه كما فى قوله {ثُمَّ أَوْحَيْنَا
إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ} النحل 123 {وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ اتَّقُوا اللَّهَ} النساء 131
والمعنى قلنا لهم اتقوا الله²

6-قال تعالى {ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ} النحل 123 عامة
الأسماء يتنوع مسماها بالاطلاق والتقييد وكذلك لفظ اتباع ما أنزل الله يتناول جميع الطاعات كقوله
{اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ} الأعراف 3 وقوله {فَمَنْ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا
يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى} طه 123 وقوله {وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ
عَنْ سَبِيلِهِ} الأنعام 153 وقد يقرن به غيره كقوله {وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ
تُرْحَمُونَ} الأنعام 155 وقوله {اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ رَبِّكَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ
{ الأنعام 106 وقوله {وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ
{ يونس 109³

7- قال تعالى {إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا
فِيهِ يَخْتَلِفُونَ} النحل 124 ولفظ الاختلاف فى القرآن يراد به التضاد والتعارض لا يراد به
مجرد عدم التماثل كما هو اصطلاح كثير من النظار ومنه قوله {وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ
لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا} النساء 82 وقوله {إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ} {8} يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ
أُفِكَ} {9} الذاريات 8- 9 وقوله {وَلَكِنْ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَّنْ آمَنَ وَمِنْهُمْ مَّنْ كَفَرَ} البقرة 253⁴

¹مجموع الفتاوى ج: 7 ص: 166

²مجموع الفتاوى ج: 1 ص: 20

³مجموع الفتاوى ج: 7 ص: 168

⁴مجموع الفتاوى ج: 13 ص: 19

8- قال تعالى { إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ } النحل 128 عامة الأسماء يتنوع مسماها بالاطلاق والتقييد وكذلك اذا أفرد اسم طاعة الله دخل في طاعته كل ما أمر به وكانت طاعة الرسول داخلة في طاعته وكذا اسم التقوى اذا افرد دخل فيه فعل كل مأمور به وترك كل محذور قال طلق بن حبيب التقوى ان تعمل بطاعة الله على نور من الله ترجو رحمة الله وأن تترك معصية الله على نور من الله تخاف عذاب الله وهذا كما في قوله { إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ } {54} فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ } {55} القمر 54- 55 وقد يقرن بها اسم آخر كقوله { وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا } {2} وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَّوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ } {3} الطلاق 2- 3 وقوله { إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ } يوسف 90 وقوله { وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ } النساء¹

¹مجموع الفتاوى ج: 7 ص: 164

{ رَبِّ

أَوْزَعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ
وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي

إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ

وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ {الأحقاف} 15

###